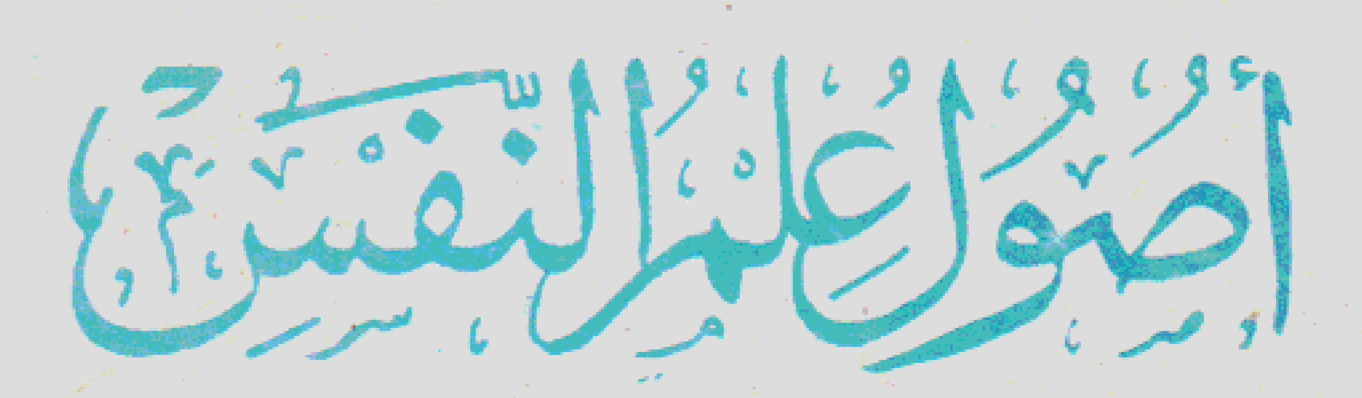


دكتور أحمد عزت راجح
أستاذ علم النفس بجامعة الإسكندرية

المكتب المصري الحديث
للطباعة والنشر
تليفون ٢٦٦٠٢
الإسكندرية

公元二〇〇六年七月十八日

赠大马士革

马永峰

اصول علم النفس

أصول علم النفس

دكتور أحمد عزت راجح

أستاذ علم النفس بجامعة الاسكندرية

المكتب المصري الحديث

للطباعة والنشر

تليفون ٢٦٦٠٢

اسكندرية

المقدمة

لهذا الكتاب هدفان ، هدف نظرى هو استعراض المبادىء والنتائج الأساسية التى أسفرت عنها بحوث المدارس السيكولوجية المعاصرة على اختلافها ، وكذلك الجمع بين آراء هذه المدارس ازاء الموضوع الواحد ، دون انحياز الى احداها فالأمور تزداد وضوحا حين تسلط عليها الأضواء من أكثر من جانب • وقد بدا هذا واضحا فى معالجة موضوعات الدوافع والادراك والتعلم وقياس الشخصية ••

أما الهدف التطبيقي فهو تزويد القارىء بطائفة من المعلومات والمبادىء تعينه على الاستبصار فى نفسه وفهم غيره ، كما تعينه على حل مشكلاته اليومية المختلفة فى بيته ، وفى عمله ، وفى زحمة المجتمع الأكبر ، هذا فضلا عن معونته على المحافظة على صحته النفسية • ففي الكتاب ما يعين الوالد على معاملة ولده ، والطالب على تحصيل دروسه ، والمعلم على أداء رسالته ، والاخصائى الاجتماعى على مساعدة الناس على حل مشكلاتهم ، وفيه ما يحتم على الطبيب أن ينظر الى المريض نظرة كلية شاملة ، تهتم بالجانب النفسى والاجتماعى من الانسان قدر اهتمامها بالجانب الجسمى •• ذلك أن الانسان وحدة جسمية نفسية ان اضطرب جانب منها اضطربت له الوحدة كلها •

ولكتب يزخر بكثير من الأمثلة الواقعية المستمدة من بيئتنا ومن غيرها . وهي امثلة تقترب المعنى الى القارىء . وتثبته في ذهنه . وتعينه على رؤية العلاقات بين كشوف علم النفس وفروضه وبين ما يجري في الحياة اليومية من أحداث .

كما حرصنا من ان يكون الكتاب اكثر من مجموعة من المعلومات . فهو يحتوي على كثير من التجارب العلمية التي اجريت في مختبرات علم النفس وخارجها ، والتي من شأنها ان تفرق بين الرأى والحقيقة ، وتفصل بين الشائع والواقع ، وتبين الى أي حد يعمل هذا العلم الناشىء على أن يحذو حذو العلوم الطبيعية الاخرى .

ومما عملنا على مراعاته الربط بين موضوعات الكتاب المختلفة، ذلك أن المعلومات المتناثرة غير المنظمة وغير المترابطة لا قيمة لها . ولا يمكن أن تسمى « معرفة » ، وهى لا تصبح ذات معنى وقيمة الا اذا تكاملت وتآلفت فى صيغة واحدة • أما ان ظلت فرادى مستقلة كما هى عليه كانت كأجزاء الاناء المكسور حين تلصق جنبا الى جنب كيفما اتفق فلا تلبث أن تتطاير من أول صدمة •• من ذلك ما بيناه من الصلة الوثيقة بين الدوافع والعمليات العقلية ، وبينها وبين الصحة النفسية للفرد • فدوافعنا تؤثر فيما ندركه وفيما نتذكره وفيما نتعلمه ، وفيما نفكر فيه ، وفى تكوين شخصياتنا •• ولئن أحبطت دوافعنا القوية بصورة موصولة اهتزت شخصياتنا أو اضطربت •• ومن ذلك أيضا الربط بين موضوع التعلم وسائر العمليات العقلية . وكذلك الربط بينه وبين اكتساب الدوافع ، وتكوين الشخصية ، والذكاء •

وقد أردفنا بكل باب طائفة من الأسئلة والتمارين يمتحن بها القارىء نفسه فى مبلغ ما حصله ووعاه : فخير طريقة للمراجعة هى الاجابة على أسئلة تتصل بالموضوع ٠

كما ذيلنا الكتاب بمعجم انجليزى عربى لمصطلحات علم النفس تيسر الأمر على من يقرأ مراجع انجليزية ٠

فان كنت قد وفقت الى ما أريد أو الى بعضه فانى لسعيد ٠٠

أحمد عزت راجح

الاسكندرية فى نوفمبر ١٩٧٢ ٠

فهرس الكتاب

الباب الأول

المدخل

الباب الثانى

دوافع السلوك

الباب الثالث

العمليات العقلية

الباب الرابع

الفروق الفردية : الذكاء والاستعدادات

الباب الخامس

الشخصية

الباب السادس

الصحة النفسية

الباب الأول

المدخـــل

الفصل الأول : موضوع علم النفس وفروعه ومدارسه المعاصرة

الفصل الثاني : مناهج البحث فيه

الفصل الأول

موضوع علم النفس وفروعه

١ ـ تمهيـــد

تفاعل الانسان وبيئته :

يعيش الانسان فى بيئة من الناس والاشياء ، وهو يسعى فيها ويكد للظفر بطعامه وكسائه ومأواه . ولارضاء حاجاته المادية والمعنوية المختلفة، ولبلوغ أهداف يرسمها لنفسه ويراها جديرة بما يبذله فى سبيلها من مشقة وعناء . وهو فى سعيه هذا لقضاء حاجاته وتحقيق أغراضه يلقى موانع وعقبات ومشاكل وصعوبات مادية واجتماعية شتى ، ويجد نفسه على الدوام مضطرا الى التوفيق بين حاجاته وامكانات البيئة،والى تعديل سلوكه حتى يتلاءم مع ما يعرض له من ظروف وأحداث ومواقف جديدة أو عسيرة أو غير منتظرة ، وذلك عن طريق التفكير والتقدير واستخدام ذكائه وابتكار طرق جديدة أو تعلم طرق جديدة للسلوك يستعين بها على حل ما يلقاه من مشكلات . كما يجد نفسه مضطرا الى التقيد أو الامتثال لما تفرضه عليه البيئة ، وخاصة البيئة الاجتماعية ، من قيود والتزامات، أو نزاعا الى تهذيب بعض ما بهذه البيئة وتغييره وتبديله .. بل انه يرى نفسه فى كثير من الاحيان مرغما على أن يرجىء ارضاء حاجاته ومطالبه العاجلة فى سبيل تحقيق أغراض وأهداف آجلة ، وعلى أن يصبر ويحتمل الالم ، أو على أن يلجأ الى أساليب وحيل ملتوية شتى ابتغاء ارضاء هذه الحاجات وبلوغ هذه الاهداف . ولا يخفى أنه فى سعيه هذا ، أى فى تعامله مع البيئة وتفاعله معها معرض أبدا لضروب من الشد والجذب ، والركز والوثب ، والرضا والسخط ، والغضب والخوف ، والحب والكره ، والاقدام والاحجام ، والنجاح والاخفاق تحمله على المضى فى نشاط معين أو كف نفسه عن هذا النشاط .

وغنى عن البيان أن هذه البيئة التى يضطرب فيها ليست شيئا سلبيا تسمح له أن يصنع بها ما يريد متى أراد ، انها تقاومه وتستفزه وتؤثر فيه .. كما أنه لا يقف منها ، كما رأينا ، موقفا سلبيا فينتظر حتى

تقدم له ما يحتاج اليه بل انه يواجهها ويقاومها ويتحداها ويجهد في استغلالها والاشتراك في ميادين نشاطها والتأثير فيها باللين تارة وبالعنف طورا . ولابد له في هذا الكفاح من قدر من المرونة والصلادة والاحتمال والا هلك .

وبعبارة أخرى فالعلاقة بين الانسان وبيئته علاقة أخذ وعطاء ، بل علاقة فعل وانفعال ، وتأثير متبادل ، وصراع موصول . وهو في تفاعله معها يتأثر وينفعل بشتى الانفعالات ويرغب ويفكر ويقدر ويصمم وينفذ ويتعلم ويعي ما تعلمه ، كما أنه يعبر عن أفكاره ومشاعره باللفظ تارة وبالحركة والاشارة تارة أخرى ، ويحاول ضروبا مختلفة من السلوك ، ويصيب ويخطيء .. كل أولئك وهو يشق طريقه في الحياة طمعا في عمل يؤديه ، ومركز اجتماعي يصبو اليه ، وأسرة يقيمها ويرعاها ، أو جماعات مختلفة يندمج فيها ويشترك في نشاطها ، أو نوع من الاصلاح يعقد العزم على تنفيذه .

هذه الاوجه المختلفة من النشاط العقلي والانفعالي والجسمي والحركي التي تبدو في تعامل الانسان مع بيئته وتفاعله معها ،والتي تعكس تأثيره فيها وتأثره بها أي التي تعكس تكيفه لها هي موضوع دراسة علم النفس .

٢ — علم السلوك

من تعاريف علم النفس أنه العلم الذي يدرس سلوك الانسان ، أي يصف هذا السلوك ويحاول تفسيره . وقد اختلف العلماء في تحديد معنى السلوك behavior فمنهم من يقصره على النشاط الحركي الظاهر الذي يمكن أن يشاهده أشخاص آخرون ، كالمشي والكلام والأكل والجري والابتسام والعزف والهرب . ومنهم من يبسط مفهومه بحيث يشمل جميع ما يصدر عن الفرد من نشاط ظاهر ، كالكلام أو المشي ، أو نشاط باطن كالتفكير والتذكر والانفعال .. وهو يتفاعل مع بيئته ويحاول التكيف لها . وبعبارة أخرى فالسلوك هو كل ما يصدر عن الفرد من استجابات مختلفة ازاء موقف يواجهه — ازاء مشكلة يحلها ، أو خطر يتهدده ، أو قرار يتخذه ، أو مشروع يخطط له ، أو درس يحفظه ، أو مقالة يكتبها ، أو آلة يصلحها ، أو مسابقة يعمل على الفوز فيها ، أو لوحة فنية يتأملها ، أو أزمة نفسية يكابدها ..

ويقصد بالاستجابة response كل نشاط يثيره منبه أو مثير stimulus.
وقد تكون الاستجابة :

١ — حركية كتحريك ذراعك للرد على شخص يحييك ، وكالهرب من خطر ماثل أمامك ، وكانتقالك من مكان مشمس الى آخر ظليل ، وكانقباض حدقة العين ان سلط عليها ضوء شديد •

٢ — أو تكون الاستجابة لفظية كالرد على سؤال يوجه اليك ، أو صراخك للاستغاثة ، أو تعبيرك عن فكرة تجول فى خاطرك باللغة •

٣ — أو تكون الاستجابة فسيولوجية كارتفاع ضغط الدم ، أو زيادة افراز غدة ، أو تقلص عضلات المعدة •

٤ — كذلك قد تكون الاستجابة انفعالية كالغضب عند سماع كلمة معينة ، أو الحزن لسماع خبر معين •

٥ — أو تكون الاستجابة معرفية أى يراد بها كسب معرفة كالنظر والسمع والتفكير والتذكر •

٦ — بل قد تكون الاستجابة بالكف عن النشاط كالتوقف عن السير أو الاكل أو التفكير عند سماع أمر معين •

أما المنبه أو المثير فهو أى عامل ، خارجى أو داخلى ، يثير نشاط الكائن الحى أو نشاط عضو من أعضائه ، أو يغير هذا النشاط أو يكفه ويعطله • والمنبهات الخارجية أما فيزيقية كموجات الضوء والصوت وتغيرات درجة الحرارة والروائح المختلفة •• أو اجتماعية كمقابلة صديق أو صرخة استغاثة أو سماع مناقشة •• أما المنبهات الداخلية فقد تكون فسيولوجية كانخفاض مستوى السكر فى الدم ، أو زيادة كمية الادرنالين فيه ، وكالتيارات العصبية التى تنشط العضلات والغدد • أو تكون منبهات نفسية كالأفكار والتصورات الذهنية ، والمعتقدات ، والاوهام والحالات الوجدانية •

وحين تكون المنبهات معقدة مركبة كتلك التى تصدر من البيئة الاجتماعية يسمى مجموعها **الموقف** situation. فضوء أحمر أو وخزة ابرة تعتبر منبهات ، لكن المدرس الذى يقوم بشرح درس لتلاميذه يشكل موقفا •

وسنسير فى هذا الكتاب على السلوك بمفهومه الواسع الذى لا يقتصر على النشاط الخارجى الظاهر كالمشى والكلام والاشارة والعزف وضربات

القلب..وهو ما يسمى بالنشاط الموضوعي،بل يشمل فضلا عن ذلك أوجه النشاط الذاتي الباطن التي لا يمكن أن يشعر بها وأن يدركها وأن يلاحظها الا صاحبها وحده دون غيره من الناس كالتفكير والتذكر والتخيل والشعور باللذة أو الالم ، بالحزن أو الفرح ، بالخوف أو الغضب .

وعلى ذلك يشمل السلوك :

١ — كل ما يفعله الانسان ويقوله .

٢ — كل ما يصدر عنه من نشاط عقلي كالادراك والتفكير والتخيل .

٣ — كل ما يستشعره من تأثرات وجدانية وانفعالية ، كاحساس باللذة أو الالم ، وكالشعور بالضيق والارتياح ، بالخوف أو الغضب .. مع ما يصاحب ذلك من أنشطة فسيولوجية شتى .

ونسارع الى القول بأن سلوك الانسان ازاء موقف معين عادة ما يكون مجموعة مركبة متكاملة من استجابات مختلفة . انظر الى سلوك الطالب في أثناء الامتحان التحريري : انه يقرأ الاسئلة ويحاول فهمها واختيار أسهلها ، وهو يفكر ويتذكر وقد يتريث أو يتردد أو يكف عن التفكير في اتجاه معين ، مع ما يصحب هذا من شعور بالرضا أو الضيق أو الخوف أو الغضب ، وتغيرات جسمية وفسيولوجية قد لا يشعر بها في زحمة الامتحان شعورا واضحا . كذلك الحال في سلوك عامل انكب على آلة يصلحها ، أو سلوك طفل اختطف منه طفل آخر لعبته التي يلهو بها .

مباحث علم النفس

علم النفس كغيره من العلوم يلتقي بمشكلات شتى ، نظرية وعملية .. يضعها في صورة أسئلة ثم يحاول الاجابة عليها :

— ما هو التفكير ؟.. ما هو الذكاء ؟.. ما هو الابداع ؟.. ما أثر الانفعالات القوية كالخوف أو الغضب في تفكير الفرد وسلوكه الظاهر ووظائف جسمه ؟ ..

— كيف نتعلم ؟ كيف نتذكر الماضي ؟ كيف نفكر ؟ كيف نسمع ؟ كيف تنمو الشخصية ؟ كيف يصل المبدع الى ابداعه ؟

— لماذا ننسى ؟. لماذا ننفعل ؟. لماذا يتعلم بعض الناس أسرع من بعض ؟. لماذا يختلف الناس في ادراكهم منظرا طبيعيا واحدا ؟. لماذا لا يصاب جميع الناس بأمراض نفسية مع أنهم يتعرضون جميعا لصدمات انفعاليـة ؟.

هذا الى أسئلة أخرى مثل : هل يتوقف التفكير على مناطق خاصة فى المخ ؟ هل من يحفظ سريعا ينسى سريعا ؟، هل للاحلام قيمة فى التنبـؤ بالمستقبل ؟، هل يتحتم أن يكون الشخص الذكى حسن الخلق ؟، هل تفكر الحيوانات ؟ ، فمن فروع علم النفس فرع يدرس سلوى الحيوان •

أما الاسئلة العملية التى يطرحها علماء النفس فمن أمثالها : ما أسباب تخلف التلميذ فى دراسته ؟ ما الذى يجعل من بعض الاشخاص مجرمين ؟ ما هى العوامل التى تفسد شهادة الشهود أمام القضاء ؟ لماذا يرتكب بعض عمال المصانع من الحوادث أكثر من غيرهم ؟

من هذا نرى أن هناك ثلاث أسئلة رئيسية يحاول علم النفس الاجابة عليهـا :

١ ــ ما يصدر عن الفرد من سلوك ؟
٢ ــ كيف يحدث هذا السلوك ويتم ؟
٣ ــ لماذا يحـدث ؟

٣ ــ السلوك نشاط كلى

كل نشاط يصدر عن الانسان وهو يتعامل مع بيئته ــ حركيا ، أم عقليا أم انفعاليا ــ انما يصدر عن الانسان بأسره ، بكليته ، أى من حيث هو وحدة وكل • فالانسان حين يكتب لا يكتب بيديه فقط ، وحين يضرب لا يضرب بقبضتيه فقط ، وحين يأكل لا يأكل بفمه ويديه فقط ، وحين يجرى لا يجرى بساقيه وجسمه فقط • بل ان هذه الاوجه من النشــاط الجسمى والحركى تصحبها فى الوقت نفسه ضروب من النشاط العقــلى كالانتباه والادراك والتقدير وتصور الغاية من السلوك ، وأخرى من النشاط الوجدانى كالشعور بالارتياح أو عدمه ، بالحزن أو الالم •

ومن ناحية أخرى فالانسان حين يفكر فى موضوع أو ينتبه اليه أو يحاول أن يتذكره ، فان هذا النشاط العقلى تصحبه فى الوقت نفسه تغيرات جسمية وحالات وجدانية مختلفة : توترات عضلية ، ونشاط فى الحواس ، ومفرزات غدية ، وتغيرات فى التنفس ودورة الدم وعملية الهضم،وأخرى فى التيارات الكهربية بالمخ والانسجة والأعضاءالمختلفة، هذا فضلا عن الحركات والتعبيرات والاوضاع الجسمية الخاصــة التى يتخذها الانسان أثناء تفكيره وانتباهه وتذكره •• وقد دلت التجارب على أن التفكير غالبا ما يقترن بكلام باطن ، أى بنشاط حركى دقيق فى أعضاء

النطق — الحنجرة واللسان والشفتين — وهي حركات يمكن تسـجيلها بأجهزة دقيقة •

كذلك الانسان حين يشعر بانفعال الخوف أو القلق أو الحزن أو الغضب، فان هذه التأثرات الانفعالية تصحبها تغـيرات أو اضطرابات جسـمية وفسيولوجية قد تكون بالغة الخطورة ان تكرر الانفعال أو أزمنت الحالة الانفعالية • فقد اتضح أن القلق المزمن الموصول قد يؤدي الى ظهـور قرحة في المعدة أو الاثنى عشر ، وأن الكراهية المكظومة أو المكبوتة قد تؤدي الى ارتفاع خبيث في ضغط الدم •• هذا كله فضلا عن التعبيرات الحركية الظاهرة التي تصاحب الانفعال •

الانسان وحدة جسمية نفسية :

رأينا مما تقدم أنه ليس هناك نشاط جسمي خالص وليس هناك نشاط نفسي[1] خالص • فكل نشاط جسمي يصحبه نشاط نفسي ويرتبط به ارتباطا وثيقا ، وكل نشاط نفسي هو في الوقت نفسه نشاط جسمي • وبعبارة أخرى فالانسان حين يتأثر بالبيئة فيستجيب لهافانه لايستجيب لها بجسمه فقط ، ولا بنفسه وعقله فقط ، انما يستجيب لها بأجمعه ، أي بجسمه ونفسه في آن واحد • وهذا هو المقصود حين نقول ان السلوك نشاط كلى • وفي هذا يقول أرسطو : « ليس الذى ينفعـل هو النفس أو الجسم بل الانسان » • ونستطيع أن نقول على غراره « ليس الذى يفكر هو المخ أو العقل بل الانسان » • فالانسان كله هو الذى يقرأ ويكتب ، وهو الذى يحب ويكره ، وهو الذى ينجح ويخفق ، وهو الذى يسعد ويشقى ، والانسان كله هو الذى ينجز أعماله ويحل مشـاكله ويتعامل مع بيئته ويتكيف لها •

وعلى هذا يكون من الخطأ أن نفصل فصلا حاسما بين ما هو نفسي وما هو جسمي كما يفعل الناس في العادة اذ يرون أن هناك فارقا جوهريا بين اجراء عملية حسابية في الذهن وبين اجرائها عن طريق القلم والورق • فكل من « الحساب الذهني » و « الحساب العملي » نشاط نفسي حركي في آن واحد • وكل ما في الامر أن الحساب العملي يقترن بقدر أكبر وأكثر ظهورا من النشاط العضلي الظاهر •

---

(1) النفسي اصطلاح عام يشمل ما هو عقلي أو ذهني كالتفكير والتذكر كما يشمل ما هو وجداني أو انفعالي كالشعور بالارتياح أو بالخوف .

فالانسان وحدة جسمية نفسية متكاملة لا تتجزأ ، ان تأثر جانب منها أو اضطرب تأثرت له الوحدة كلها أو اضطربت •

اذا صح هذا فما معنى أن نقول أن التفكير أو التذكر أو الشعور بالخوف أوبالغضب عمليات أو ظواهر « نفسية » وأن المشى والسباحة أو الكلام عمليات أو ظواهر « جسمية » مع أن كلا النوعين من الظواهر يصدر عن الانسان بأسره • الواقع أنها تسمية من قبيل التجوز أو من قبيل اطلاق الجانب الغالب على الكل • فالعمليات أو الحالات التى نسميها نفسية هى العمليات أو الحالات التى يبرز فيها الجانب الباطن الذاتى على الجانب الظاهر الموضوعى • وبهذا المعنى أيضا لا حرج علينا أن نستخدم «النفس» أيضا على أن يقر فىأذهاننا أنالنفس ليست شيئا مستقلا عن الجسم ، مغايرا له أو حالا فيه •• ان هى والجسم الا مظهران أو جانبان لشىء واحد هو الانسان باعتباره كائنا حيا •• وان شئت فقل ان النفس والجسم مجرد اسمين لموجودين لا انفصام بينهما فى الواقع ، بل فى أذهاننا فقط • لذلك اقترح بعض علماء النفس أن يستبدلوا باصطلاح « علم النفس » علم السلوك أو علم الطبيعة البشرية • غير أن الخطأ المشهور كان أبقى من الصواب المهجور •

علم النفس والفسيولوجيا :

اذا كان موضوع علم النفس هو دراسة السلوك أى النشاط الكلى للفرد ازاء موقف معين، أى وهو يتعامل ويتكيف لبيئته،كان من الضرورى أن نخرج من نطاق السلوك كل نشاط يقوم به عضو خاص أو جزء خاص من الانسان ، ولا يكون استجابة لموقف معين يؤثر فى الانسان • هنا يتميز موضوع علم النفس عنموضوع علم الفسيولوجيا • فالفسيولوجيا تدرس ما يحدث فى المعدة أثناء عملية الهضم ، وما يحدث فى العين أثناء عملية الابصار ، وما يحدث فى أعضاء النطق أثناء الكلام •• لكنها تدرس وظائف أعضاء الجسم فرادى ، تدرسها فى ذاتها مستقلة عن الظروف الخاصة التى تحدث فيها هذه العمليات العضوية • وهذا على خلاف علم النفس الذى يدرس النشاط الكلى للفرد ازاء موقف معين •• فالفسيولوجيا تدرس كل خطوة فى عملية الهضم تفصيلا ، أما علم النفس فيدرس أثر انفعال الخوف أو الغضب فى عملية الهضم ، أو أثر عملية الهضم فى التفكير ، أو أثر ارتفاع ضغط الدم فى تركيز الانتباه • ولا شك أن

الفسيولوجيا تؤدى خدمات لا تنكر الى علم النفس ، لكنها لا يمكن أن تغنى عنه .

٤ ـ السلوك نشـاط غائى

من خصائص سلوك الانسان والحيوان أنه نشاط يصدر عن دافع ويهدف الى غاية هى ارضاء ذلك الدافع . فالانسان أو الحيوان يشرب لانه فى حاجة الى الماء ولكى يروى ظمأه ، وكلاهما يبحث وينقب ارضاء لدافع الاستطلاع . والانسان يعتدى ردا على اهانة ، أو لا يعتـدى خوفا من العقاب . والطفل قد يكذب دفاعا عن صديق ارتكب ذنبا ، أو كى يظفر بمنفعة ذاتية من كذبه ، أو كى ينتقم من آخر بتلفيق التهم له والاشاعات عنه .. وهو قد يسرق ارضاء لدافع الجوع ، أو كى يشـبع رغبة لديه فى الذهاب الى السينما ، أو ينتقم من شخص يكرهه ..

وسلوك الكائن الحى فى هذه الناحية يختلف عن حركة الجمادات . فالكرة المتحركة أو الحجر الساقط لا تلبث حركته أن تنتهى ان اعترضته عقبة أو ارتطم بحاجز ، وهذا على خلاف سلوك الانسان والحيوان اذ يمضى فى محاولاته حين يرتطم بعقبة ، بل قد تزيده العقبـة اصرارا والحاحا . فالكلب الجائع فى الطريق لا يبرح يفتش عن الطعـام هنا وهناك ، يدخل من شارع الى آخر ، ويتجه ذات اليمين وذات الشـمال مسترشدا بحاسة الشم أو بخبرته السابقة بمكان الطعام .. حتى يقع على طعام أو يصيبه الكلال والاعياء . حتى اذا ظفر بما يشبع جوعه زال عنه ما كان يعانيه من توتر وضيق وألم وانتهى سلوكه واستسلم للرقاد . كذلك الطفل ان لم يجد لعبته فى مكانها المعهود أخذ يتلمسها فى جميـع مظانها فلا تهدأ ثائرته وينتهى بحثه حتى يعثر عليها أو يشغله شـاغل عنها . وقل مثل ذلك فى حالة شخص يؤلمه ضرسه ألما شديدا . من هذا نرى أن سلوك الكائن الحى لا يقف حتى يصل الى نهاية معينة نسميها « غاية » .

فالغائية من الخصائص الاساسية التى تميز سلوك الكائنات الحية عن حركة الجمادات وهى التى تجعل سلوك هذه الكائنات يتسم بالمرونة والقابلية للتغير والتنوع والتكيف للظروف المتغيرة ، وهذا بخلاف حركة الجماد . فالجماد لا تحركه دوافع داخلية بل محركات خارجية . ونفس

المحرك الخارجي يحدث في الجماد نفس الحركة ، وهي حــركة يمكن تحديدها بدقة والتنبؤ بمداها واتجاهها بخلاف الحال في سلوك الكائن الحي اذ يؤدي نفس المثير الى ضروب مختلفة من السلوك .

وقد تكون الغاية من السلوك شعورية أي واضحة ماثلة في ذهن الفرد أثناء قيامه بالسلوك كرغبة الانسان في السفر الى مكان معين . غير أنه ليس من الضروري أن تكون غاية السلوك واضحة شعورية دائما .. فالرضيع الجائع لا تكون لديه في أغلب الظن صورة ذهنية عن الطعــام الذي يصيح من أجله ، والشخص المصاب بمرض الوسواس الذي يغسل يديه مائة مرة في اليوم لايفطن على التحقيق الى الغاية من سلوكه هذا . كذلك الحال في الطائر الذي يجمع القش لبناء عشه فانه لا يكون من دون شك شاعرا بالغاية البعيدة من سلوكه وهو المحافظة على نوعه أو حتى بالغاية القريبة وهي اقامة ملجأ ومأوى له ولصغاره .

على هذا النحو نستطيع أن نقول ان كل سلوك يهدف الى غاية أو يرمي الى تحقيق غرض حتى ان لم يكن الفرد شاعرا بهذه الغاية أو الغرض .

الواقع أننا من دون الغــاية لا نستطيع فهم ســلوك الكائن الحي وتفسيره . فلو أنك قابلت في الطريق صديقا لك يجري وهو لا يلوي على شيء ، لم تخرج من سلوكه هذا الا بعدة احتمالات وتفسيرات قد تكون بعيدة كل البعد عن الصواب . لكنك لو عرفت انه يريد اللحاق بقطار أو استدعاء طبيب ساعدتك معرفة الغاية على فهم السلوك .

موجز القول أن الغاية تقوم بدور هام في تعيين السلوك وتوجيهه فضلا عن تفسيره . فلا يكفي أن نقول ان هذا العصفور فزع الى الطيران لانه رأى قطا بل يجب أن نكمل هذا التفسير بقولنا ولكي يلتمس الامن . هذا هو ما يسمى بالتفسير الغائي للسلوك . وهو تفسير يأخذ به فريق من علماء النفس ويرفضه آخرون .

في مقابل هذا التفسير الغائي تقوم تفاسير أخرى لا تنكر أن لكل سلوك غاية ، هي ارضاء الدافع الذي استثار السلوك ، كالجوع أو العطش مثلا ، وخفض التوتر والالم اللذين ينجمان عن نشاط الدافع .. لكنها لا تعتبر الغاية والسعي وراء الغاية من أهم عوامل تفسير السلوك .

٥ ـ السلوك أداة التكيف للبيئة

المقصود بالبيئة

رأينا أن السلوك ـ وهو الظاهرة السيكولوجية ـ نشاط يقوم به الفرد وهو يتعامل مع بيئته ويتكيف لها • ويقصد بالبيئة مجموعة العوامل الخارجية ، أى التى تؤثر خارج وحدات الوراثة ، والتى يمكن أن تؤثر فى نمو الكائن الحى ونشاطه منذ تكوينه الى آخر حياته • والبيئة اما مادية طبيعية أو بيولوجية أو اجتماعية • وتتلخص الاولى فى طبيعة المكان الجغرافى الذى يعيش فيه الفرد ، وفى درجات الحرارة والرطوبة والاضاءة التى يتعرض لها •• كما يمكن اعتبار الدم وغيره من السوائل التى تحيط بخلايا الجسم بيئة بيولوجية لهذه الخلايا • أما البيئة الاجتماعية فيقصد بها الجو الاجتماعى العام ، وما يقوم فيه من قوانين ومعايير وقيم مختلفة تهيمن على نواحى الحياة الانسانية فيها • وتتفرع على هذه البيئة : البيئة الاقتصادية ، والبيئة الثقافية ، والبيئة العاطفية أى الجو العاطفى الذى يحيط بالفرد •

البيئة الواقعية والبيئة السيكولوجية من العوامل والظروف الخارجية ما تؤثر فى نمو الفرد وسلوكه ، ومنها ما يكون عديم الاثر لا يحرك فيه ساكنا ، أو يثير فيه اهتماما أو انتباها • فالحديقة المزروعة بالورود والأزهار بيئة جدباء قاحلة فى نظر كلب جائع لأنها لا تثير اهتمامه ونشاطه • والحظيرة المملوءة بالدجاج ليست بيئة فعالة لبقرة جائعة • ومكتبة المنزل التى تزخر بعدد ضخم من الكتب العلمية ليست بيئة تثير طفلا صغيرا ، على خلاف جهاز الراديو أو التليفزيون • ولافتة من الضوء الأحمر ليست بيئة سيكولوجية لشخص مصاب بعمى الالوان لانه لا يتأثر بها فيستجيب لها • وضوضاء حركة المرور التى ألفها الفرد فى الشارع لا تعود مصدر ازعاج له ، بل لا يعود يسمعها ، ثم ان ما تزخر به الدنيا من ضروب الاغراء والاغواء لا يغوينا ان لم نكن نرغب فيه ونميل اليه سرا أو علانية • كذلك الفقر قد يثير الشعور بالظلم فى بعض النفوس ولا يترك أثرا فى أخرى ••

وعلى هذا يجب التمييز بين البيئة الواقعية والبيئة السلوكية أو السيكولوجية • فالاولى هى كل ما يحيط بالفرد من عوامل مادية فيزيقية أو اجتماعية سواء أثرت أم لم تؤثر فيه • هى البيئة كما هى

عليه فى الواقع • والثانية هى البيئة كما تبدو للفرد : هى البيئة كما يدركها ويتأثر بها فيستجيب لها . هى البيئة التى تثير انتباهنا واهتمامنا ونشاطنا • وسنسمى البيئة الواقعية اصطلاحا **المحيط** ، كما سنطلق على البيئة السيكولوجية اسم **المجال** •

وظاهر مما تقدم أن المجال يتوقف على نوع الفرد وسنه وخبراته وقدراته وميوله ووجهة نظره : أى يتوقف على شخصيته بأسرها • لذا فالمحيط الواحد يؤلف مجالات قد تكون مختلفة كل الاختلاف لدى أفراد مختلفين • فالبيت الواحد ليس مجالا واحدا لجميع من به من أخوة وأخوات وذلك لاختلافهم فى السن والجنس والذكاء والاهتمامات والخبرة السابقة •• كذلك الحال فى طلاب الفصل الواحد ؛ وعمال المصنع الواحد ، أو المرضى فى مستشفى واحد •

كذلك يتضح لنا أن المحيط قد يحتوى أشياء لا يحتويها المجال •• فالطعام لا يثير الشهية فى الشبعان ، والام النائمة فى الحقل الى جوار رضيعها لا يوقظها المطر أو الرعد أو صرير الرياح ، لكن حركة طفيفة من رضيعها كفيلة بأن توقظها على الفور •• وعكس هذا صحيح ، فقد يحتوى المجال على أشياء لا توجد فى المحيط • فالالم الذى يشعر به مبتور الذراع فى موضع ذراعه المبتورة ألم يوجد فى مجاله لا فى محيطه •

وبما أننا نستجيب للبيئة لا كما هى عليه فى الواقع ، بل كما تبدو لنا ، وكما ندركها ، فيكون موضوع علم النفس هو دراسة أوجه نشاط الفرد فى مجاله •

ليس المهم اذن ما يحيط بالفرد ، بل **كيفية** ادراك الفرد له •• فالطفل الذى عضه كلب قد تبدو له كل الكلاب خطرة فيتجنبها جميعا • وقد أستجيب لابتسامة شخص ما بالغضب ان ظننت انها ابتسامة سخرية ، وقد لا تكون ابتسامة سخرية على الاطلاق • و « ان الانسان ليطغى ان رآه استغنى » •

هذا مبدأ من أهم مبادىء تفسير السلوك •

عملية التكيف adaptation

التكيف عند علماء الاحياء هو كل تغير يحدث فى بنية الكائن الحى أو وظائفه يجعله أقدر على الاحتفاظ بحياته وتخليد نوعه • ومن الامثلة

على هذا التكيف البيولوجى دفاع الجسم عن نفسه ان اقتحمه « جسم » غريب ؛ وازدياد عدد كريات الدم الحمراء عند من يسكنون قمم الجبال ؛ وقيام بعض مناطق المخ السليمة بوظائف مناطق أخرى أصابها التلف. وتغير لون الحرباء بما يتمشى مع لون المكان الذى تختبى فيه • وظاهر من هذا أن التكيف البيولوجى تكيف آلى يحدث على غير علم من الفرد أو ارادة منه •

والتكيف عند علماء النفس أو « التكيف العقلى » هو محاولة الفرد احداث نوع من التواؤم والتوازن بينه وبين بيئته المادية أو الاجتماعية• ويكون ذلك عن طريق الامتثال للبيئة أو التحكم فيها أو ايجاد حل وسط بينه وبينها • فمن صور التكيف :

أن يغير الفرد سلوكه بما يناسب الظروف والمواقف الجديدة كأن ينتقل من مكان الى آخر هربا من لفح الشمس أو طلبا للرزق ، أو أن يتنازل عن رأيه مناقشـــة حامية يرى أن فائدة من المضى فيها ، أو أن يحصن نفسه ضد مرض معد ، أو أن يؤجل زواجه حتى يستقر فى عمل مناسب • ومن أمثال ذلك أيضا تكيف القروى لجو المدينة ، وتكيف الطلبة الجدد لجـو الجامعة ، وتكيف الثرى لفقـر مفـاجىء ، أو المريض لجـو المستشفى الذى انتقل اليه •• كذلك حال الطفل الذى ابتلى بوالدين أصمين فكان اذا بكى بكى من دون صوت بعد أن عرف أن الجهربالبكاء لا يغنى فى مثل حالته شيئا •

أو يبدو التكيف فى تغيير الفرد لبيئته نفسها كأن يبيد ما فى منزله من حشرات ، أو أن يرغم من يناقشه على التنازل عن رأيه ، أو كأن ينقل الرئيس أحد المشاغبين من مرءوسيه الى عمل آخر •

والتكيف كما رأينا عملية مستمرة موصولة ، فلا تكاد تخلو لحظة من حياتنا من عملية تكيف • لذا نستطيع أن نقول ان كل سلوك يصدر عن الفرد ما هو الا نوع من التكيف • على أنه يبدو بصورة واضحة حين تعرض للفرد مشكلة أى موقف جديد غير معهود لا تكفى لحله خبرات الفرد السابقة أو سلوكه المألوف •

ولئن نجح الفرد فى التكيف لبيئته المادية والاجتماعية قيـل انه « متوافق » adjusted فان أخفق فهو « سىء التوافق » • ولسـوء

التوافق مجالات عدة ، فهناك سوء التوافق الاجتماعى ، وسوء التوافق المهنى ، والاسرى ، والتعليمى ، والدينى ..

٦ ــ أهداف علم النفس

لعلم النفس ــ شــأنه فى ذلك شــأن العلوم الأخرى ــ أهــداف ثــلاثة :

١ ــ فهم الســلوك وتفسيره .

٢ ــ التنبؤ بما سيكون عليه السلوك .

٣ ــ ضبط السلوك والتحكم فيه بتعديله أو توجيهه أو تحســينه أو العمل على ازالته .

فالهدف الاول والنظرى لعلم النفس هو جمع وقائع وصوغ مبادىء عامة وقوانين يمكن بها فهم السلوك وتفسيره : فهم الدوافع التى تحركنا وتحرك غيرنا من الناس ، فهم نواحى القوة والضعف فى شخصياتنــا وما لدينا من استعدادات وامكانيات خافية علينا ، ومعرفة أسباب مايبدو فى سلوكنا أو سلوك زملائنا أو أطفالنا من انحراف وزيغ ، ثم الكشف عن العوامل التى تفسد تفكيرنا ، أو تعطل عملية التعلم لدينا أو تميل بنا الى شرود الذهن أو تجعلنا ننسى كثيرا مما حصلناه ووعيناه .. بل يعيننا علم النفس على فهم أصــول كثير من المشــكلات الاجتماعيــة والقومية ، وكثير من المذاهب والتيارات الفكرية المغربة ، وذيوع الجريمة ، والتفكك الخلقى ، والتعصب السلالى ، والصراع الصناعى ، والتناحر الدولى ، والقلق المتفشى بين الناس .

ثم ان فهم الظاهرة ومعرفة أسبابها وخصــائصها يعين على التنبؤ بحدوثها وعلى ضبطها والتحكم فيها .. وهذان هدفان عمليان من أهداف العلم ، كل علم . فاذا عرفنا أسباب الفيضان مثلا استطعنا أن نتنبأ بحدوثه وأن ندبر للمستقبل قبل مواجهته ، واذا عرفنا استعداد فرد لمهنة أو دراسة معينة ، وعدم استعداده لمهنة أو دراسة أخرى ، تسنى لنا أن نجنبه الفشل من اقحامه فى مهنة أو دراسة ليس مؤهلا لها ، واذا عرفنا أن التربية القاسية فى عهد الطفولة تمهد الطريق لاصابة الفرد بمرض نفسى فى مستقبل حياته ، استطعنا أن نتنبأ بالمصير النفسى لطفل نشأ على هذه التربية ، وأن نبتعد عنها فى تربية أطفالنا .. واذا عرف المعلم

الدوافع اللازمة للتعلم الجيد استطاع استغلالها وتنميتها لتحسين عملية التعـليم •

على هذا النحو يستطيع علم النفس أن يعين الانسان على أن يكون أكثر تسامحا وسعادة وانتاجا •

٧ — صلة علم النفس بالعلوم الاخرى

علم النفس علم وصفي تقريري يصف السلوك ويفسره على ما هو عليه ، ولا يضع معايير للسلوك والتفكير والتذوق كما تفعـل علوم المنطق والأخلاق والجمال • فاذا كان علم المنطق يعلمنا كيف ينبغي لنا أن نفكر على نحو يعصمنا من التناقض فى التفكير ويكفل لنا الوصول الى نتائج تلزم عن مقدماتها • فعلم النفس يقتصر على وصف الطريقة التى تتم بها عملية التفكير بالفعل • واذا كان علم الأخلاق يعلمنا كيف ينبغي لنا أن نسلك ان أردنا أن نكون قوما صالحين فعلم النفس يدرس السلوك الفعلى ، خيرا كان أم شرا • واذا كان علم الجمال يضع معايير للتذوق فى الفنون والآداب ، فعلم النفس يدرس ما نتـذوق بالفعل جميلا كان أم قبيحا • وبعبارة أخرى فعلم النفس كغيره من العلوم الوصفية الأخرى يدرس ما هو كائن لا ما ينبغى أن يكون ، يدرس ما هو واقع لا ما هو واجب •

ولعلم النفس صلات وثيقة بعلم الاحياء وعلم وظائف الاعضاء وعلم الاجتماع • فسلوكنا يتوقف الى حد كبير على تكويننا البيولوجي . الجسمى والعصبى والغدى وعلى ما ورثناه من استعدادات فطرية • ومن المحقق أن هناك صلة بين الذكاء والمواهب الخاصة والمهـارات الحركية وبين الجهاز العصبى • كما أن الاضطراب فى مفرزات الغدد الصم أو التلف الذى يصيب المخ قد يكون له أثر خطير فى شخصية الفرد وصحته النفسية •

ومن ناحية أخرى يجب الا ننسى ما للمجتمع والثقافة السائدة فيه من أثر عميق فى شخصية الفرد وتفكيره وسلوكه • فلو كنا نشـأنا فى هضاب التبت ، أو أواسط استراليا ، أو بطائح نهر الفولجـا فى زمهرير الشمال لكنا اليوم نلبس غير ملابسنا ، ونأكل غير طعامنا ، ونسكن غير مساكننا ولكانت لنا عادات وتقاليد ومثل تختلف فى الكثير عما نحن عليه بل ولأختلفت نظرتنا الى الكون وموضعنا منه اختـلافا

كبيرا • بل ان ثقــافة المجتمع تؤثر فى طــرق تفكير أفــراده ، وطرق تعبيرهم عن انفعالاتهم ، وفيما يتعلمونه عن معايير الخــير والشر • والمباح والمحظور ، والعدل والظلم ••• وكذلك فيما يكتسبــون من معلومات ومهارات وعواطف وأذواق ••

ان سلوك الانسان يصدر عن كائن حى يعيش فى مجتمــع ، فلابد لفهمه وتفسيره من معرفة شروطه العضوية وشروطه الاجتمــاعية • ويساعدنا علم الاحياء وعلم وظائف الاعضــاء على معرفة شروطــه العضوية ، فى حين يعيننا علم الاجتماع على فهم شروطه الاجتماعية • لذا يعتبر علم النفس من العلوم الطبيعية ويرتبط ارتباطا وثيقابالعلوم البيولوجية والعلوم الاجتماعية •

٨ ـــ فروع علـــم النفس

كان علم النفس فى الماضى يقتصر على دراسة الانسان الراشد الكبير ذى البشرة البيضاء ، غير أن اتساع آفاقه وتعدد مسائله اضطراه الى التخصص والتفــرع كما فعلت علوم الطب والهندسة والفزيقيــا ، فظهرت له فروع نظرية وتطبيقية مختلفة • أما الفروع النظرية فلا تهدف الى نفع مباشر أو حل مشــكلة عملية ، بل الى العلم لمجــرد العلم ، أى الى مجرد الكشف عن المبادىء والقوانين التى تهيمن على السلوك ، ومن اظهر الفروع النظرية :

١ ـــ **علم النفس العام** : يستهدف الكشف عن المبادىء والقوانين التى تفسر سلوك الناس بوجه عــام ـــ سلوك الانسان لا الحيوان ، الراشد لا الطفل ، السوى لا الشاذ • وهو أساس جميــع الفروع الأخــرى •

٢ ـــ **علم النفس الفارق** :يدرس ما بين الأفــراد أو الجمــاعات أو الســلالات من فوارق فى الذكــاء أو الخلــق أو الشخصــية أو الاستعدادات والمواهب الخاصة • كما يدرس اسـباب هذه الفــوارق ونتائجها مستندا الى الحقائق التى يكشف عنها علم النفس العام • فاذا كان علم النفس العام يبين لنا كيف تتشابه الافــراد ، فعــلم النفس الفارق يبين لنا كيف يختلفون ، والى أى حد يختلفون •

٣ ـــ **علم النفس الارتقائى** : يدرس مراحل النمو المختلفة التى يجتازها الفرد فى حياته ، والخصائص السيكولوجية لكل مــرحلة ، والمبادىء العامة التى تصف مسيرة هذا النمو والارتقاء • ومن فروعه:

علم نفس مرحلة الرضــاعة ، وسيكولوجية الطفــل ، وسيكولوجية المراهقة ، وسيكولوجية مرحلة الرشد ، وسيكولوجية الشيخوخة .

٤ ــ **علم النفس الاجتماعى :** يدرس سلوك الافراد والجماعات وهم تحت تأثير المواقف الاجتماعية المختلفة . وبعبــارة أخرى فهــو يدرس الصور المختلفة للتفاعل الاجتماعى ــ أى التأثير المتبــادل ــ بين الافراد بعضهم وبعض ، وبين الجماعات بعضهــا وبعض ، وبين الافراد والجماعات : بين الآباء والابناء ، بين التلاميذ والمدرسين ، بين العمال وصاحب العمل ، أو بين العمال بعضهم وبعض ، بين المعالج والمريض ، بين الرئيس ومرءوسه .. ويجب التمييز بينه وبين عــلم الاجتماع الذى يدرس حياة الجماعة والتنظيم الاجتماعى خاصــة فى المجتمعات اللاأمية ، كما يهتم بدراسة المشكلات الاجتماعية وطــرق حلها واصلاحها .

٥ ــ **علم نفس الشواذ :** يبحث فى نشــأة الامــراض النفســية والأمراض العقلية (الجنون) وضعف العقل والاجــرام وأسبابهــا المختلفة ، مع محاولة وضع أسس لعلاجها . ويجب التمييز بينه وبين « الطب النفسى » الذى هو فرع من الطب يقوم على دعــامتين من الطب وعلم نفس الشواذ ، ويختص بفحص الاضطرابات النفســية والعقلية المختلفة وعلاجها عمليا ورعايتها والوقاية منها .

٦ ــ **علم نفس الحيوان :** يبحث فى سلوك الحيوانات المختلفة ، ويحاول الاجابة على أسئلة مثل : هل تستطيع الحيوانات أن تفكر ؟ ، ما مدى قدرتها على التعلم ؟ ، الديها قدرة على التذكر ، وما مداه ؟ اتشترك مع الانسان فى بعض الدوافع ؟ هل يختلف ذكاؤها عن ذكاء الانسان فى الدرجة أم فى النوع ؟

٧ ــ **علم النفس المقارن :** يقارن سلوك الانسان بسلوك الحيوان، وسلوك الطفل بسلوك الراشد ، وســلوك الانســان البدائى بسلوك المتحضر ، وسلوك الشخص السوى بسلوك الشاذ معتل الشخصية .

أما الفروع التطبيقية لعلم النفس فتستهدف تحقيق أغراض عملية وحل مشكلات عملية ، غير أنها لا تقتصر على أن تستعير من فروع علم النفس النظرى مبادئها وقوانينها ، بل غالبا ما تصوغ مبادئها مستقلة عن علم النفس النظرى بقصد حل مشكلاتها العملية . أى انها لا تطبق فقط ، بل تدرس ايضا . ومنها :

١ ــ **علم النفس التربوى** : يستهدف حل ما يقوم فى ميدان التربية والتعليم من مشكلات ، كضعف التلاميذ فى اللغات ، أو تدريس القراءة للمبتدئين بالطريقة الكلية ، أو الجمع بين الجنسين فى مرحلة التعليم الثانوى ، أو تدريس العلوم على صورة علوم عامة .. كما يطبق مبادىء عملية التعلم على تدريس المواد المختلفة كالحساب والرسم والقراءة واللغة .

٢ ــ **علم النفس الصناعى** : يستهدف رفع مستوى الكفاية الانتاجية للعامل أو للجماعة العاملة وذلك عن طريق حل المشكلات المختلفة التى تغشى ميدان الصناعة والانتاج حلا علميا انسانيا يقوم على مبادىء علم النفس ومفاهيمه ، ويحرص على راحة العامل وكرامته حرصه على زيادة انتاجه . انه يرمى الى تهيئة جميع الظروف المادية والاجتماعية التى تكفل انتاج أكبر مقدار من أجود نوع ، فى أقصر وقت ، وبأقل مجهود ، وأكبر قدر من رضاء العامل وارتياحه .. فمن الموضوعات التى يدرسها : التوجيه المهنى ، والاختيار المهنى والتدريب الصناعى ، وتحليل الأعمال الصناعية المختلفة ، وأثر الاضاءة والتهوية ودرجتى الحرارة والرطوبة فى الانتاج ، هذا الى مشكلات التعب الصناعى وحوادث العمل وطرق الأمن الصناعى ، فضلا عن اهتمامه ــ مشتركا مع علم النفس الاجتماعى ــ بموضوع العلاقات الانسانية فى ميدان الصناعة بين العمال وأصحاب العمل ، وبين العمال بعضهم وبعض .

٣ ــ **علم النفس التجارى** : يهتم بدارسة دوافع الشراء وحاجات المستهلكين غير المشبعة وتقدير اتجاهاتهم النفسية نحو المنتجات الموجودة فى السوق .. كما يدرس سيكولوجية البيع ، ويهتم باختيار عمال البيع ، وطرق تأثير البائع فى المشترى من حيث تزكية السلعة فى نظره ومواجهة اعتراضاته ، وتحطيم مقاومته ، وانتهاز اللحظة السيكولوجية المناسبة لاتمام الصفقة ، هذا فضلا عن اهتمامه بسيكولوجية الاعلان : تصميم الاعلان ونوعه وحجمه ولونه وموضعه ومرات تكراره . وذلك على أساس أن الاعلان الجيد هو الذى يسهل تذكره عند الحاجة ، والذى يوحى الى المستهلك بأنه فى حاجة بالفعل الى السلعة موضع الاعلان .

٤ ــ **علم النفس الجنائى** : فرع تطبيقى من علم نفس الشواذ

يدرس العوامل والدوافع المختلفة التى تتضافر على احداث الجريمة، ويقترح أنجح الوسائل لعقاب المجرم أو علاجه أو اصلاحه •

٥ — **علم النفس القضائى** : يدرس العــوامل النفســية الشعورية واللاشعورية التى يحتمل أن يكون لها أثر فى جميع من يشتركون فى الدعوى الجنائية : القاضى والمتهم والدفــاع والمجنى عليــه والمبلــغ والشاهد والجمهور • فهو يبحث فى الظروف والعــوامل التى تؤثر فى القاضى من حيث تقديره للأدلة واستنتاجه وحكمه وتقديره للعقوبة • كذلك يبحث فى العوامل التى تحمل المتهم أو الدفاع على اخفاء الحقيقة، أو الغلو فى طلب الرحمة وتخفيف المسئولية عن المتهم • هذا الى اهتمامه بدراسة « الشــهادة » وقيمتها والعوامل المختلفة التى تؤثر فى ذاكرة الشاهد فتجعله يحرف ما يقول على غير قصد منه • وهــو الى ذلك يبحث فى أثر الرأى العام والصحافة والاذاعة وما يتردد بين الناس من اشاعات فى توجيه الدعوى •

٦ — **علم النفس الحربى** : تســتعين الجيوش الحديثة بخبـراء نفسيين لوضع كل عامل بالجيش فى العمل أو المكان الذى يتناسب مع ذكائه واستعداداته وسمات شخصيته • ثم تدريب هؤلاء جميعا بالطرق العلمية على اتقان أعمالهم فى أقصر وقت وبأقل جهد • كما تستعين بهم لدعم الروح المعنوية فى الجيش ، وتحسين العلاقات الانســانية بين فرقه وأفراده ، وكذلك لمحاربة الدعايات والاشاعات الضارة ، ومقاومة أثر الحرب النفسية • وكيفية مواجهة المفاجآت ، والتغلب على القلق أثناء انتظار الهجوم •••

٧ — **علم النفس الكلينيكى** : يشترك السيكولوجى الكلينيكى مــع الطبيب النفسى فى تشخيص الامــراض النفسية والامــراض العقلية وعلاجها •• والقياس السيــكولوجى جزء هــام من وظائف الخبــير الكلينيكى • ويقصد به ملاحظة وتحليل وتقدير ما لدى المــريض من ذكاء وقدرات عقلية وسمات خلقية واتجاهات نفسية واعراض مرضية كمستوى القلق والاكتئاب والعدوان الى غير تلك من الصفات التى لو اضيفت الى الفحص الجسمى للفرد ودراســة حالتــه الاجتماعية اعطت صورة متكاملة عنه تساعد على علاجه •

٨ — **علم النفس الارشادى** : يستهدف مســاعدة الاســوياء من

الناس على حل مشاكلهم بانفسهم فى مجال معين : التعليمى أو المهنى أو الأسرى أو الجنسى وغيرها مما لايدخل فى نطاق الأمراض النفسية والعقلية ، وذلك بازجاء النصح اليهم أو تزويدهم بمعلومات جديدة أو تأويل نتائج اختبارات نفسية تجرى عليهم أو تشجيعهم على الافصاح عن متاعبهم وانفعالاتهم • ومع أنه يستهدف عادة معونة الاسوياء الا أنه قد يتدخل أحيانا فى العلاج النفسى الذى يستهدف عادة احداث تغييرات أساسية فى بناء شخصية المريض •

٩ — نظرة فى تطور علم النفس

علم النفس وان كان ذا تاريخ قصير الا أن له ماضيا طويلا ، وان شئت فقل انه من أحدث العلوم وأقدمها فى آن واحد • فعلم النفس ذو التاريخ الطويل هو علم النفس الدارج الذائع بين الناس والذى يحاول به الفرد أن يفهم غيره من الناس ممن يزاملهم ويعاملهم ويتصل بهم • وعلم النفس ذو التاريخ القصير هو علم النفس العلمى الذى لا يقنع بمجرد الفهم السطحى الساذج بل يتجاوزه الى التفسير الذى لا يقوم على الملاحظة العابرة أو الخبرات العملية العارضة ، ومن ثم الى التنبؤ بالسلوك والتحكم فيه •

لقد قام علم النفس فرعا من الفلسفة من قبل الميلاد بزمان طويل• فقد ذهب بعض فلاسفة الاغريق الاول الى أن « الروح » — وكان الخلط كبيرا بين الروح والنفس والعقل — مادة كالهواء • لكنها بلغت حدا كبيرا من الدقة والشفوف • حتى اذا جاء **افلاطون** (٤٢٧ — ٣٤٧ق•م) قال ان لأفكار الانسان تأثيرا كبيرا فى سلوكه • لكنه كان يرى أن هذه الافكار لها وجود مستقل عن الانسان • فهى تقيم فى الجسم أثناء الحياة ثم تتركه عند الموت • ثم خطا علم النفس خطوة كبرى فى الاتجاه العلمى حين أشار **أرسطو** (٣٨٤ — ٣٢٢ ق•م) الى أن الروح أو النفس هى مجموع الوظائف الحيوية للكائن الحى ، أى وظائف الجسم ، وبها يتميز عن الجماد • ومن دونها لا يكون الجسم أكثر من جثة • وعلى هذا يكون السلوك والحالات النفسية نتيجة عمليات جسمية • كما أنه كان أول باحث حاول أن يفهم بصورة منظمة الطرق التى يفكر بها الانسان ، وصاغ قوانين فى « تداعى المعانى » سادت علم النفس أكثر من عشرة قرون • لذا يمكن اعتباره بحق المؤسس الأول لعلم النفس •

ثم انتقلت التعاليم الاساسية لارسطو الى فلاسفة العرب والمدرسيين ، وهم مفكرو العصور الوسطى من الأوروبيين ، فظل هؤلاء جميعا يجادلون ويقلبون القضايا الفلسفية عن طبيعةالنفس وخلودها وعن مصير الانسان حتى أعياهم الأمر ، فانقسموا فريقين اختص احدهما بدارسة الظواهر الروحانية وهؤلاء هم رجال الدين واختص آخرون بدراسة الظواهر العقلية وهؤلاء هم الفلاسفة أو « علماء النفس » • فكانت هذه أول بادرة لانفصال علم النفس عن علم الالهيات • فبعد ان كان علم الروح أصبح « علم العقل » • وكانت الصلة بين العقل والجسم كبرى المشكلات •

وقد حاول الفيلسوف الفرنسى **ديكارت** (١٥٩٦ — ١٦٥٠) حل هذه المشكلة — مشكلة العلاقة بين العقل والجسم — فقال انهما « شيئان » مختلفان متمايزان كل التمايز ، وليس بينهما ارتباط طبيعى فالخاصة الجوهرية للجسم هى الامتداد ، أى شغل حيز من الفراغ، فى حين أن خاصة العقل عند الانسان هى التفكير والشعور • أما الصلة بينهما فصلة تفاعل ميكانيكى يحدث فى الغدة الصنوبرية فى المخ • لقد كان ديكارت يرى أن الكائن الحى من انسان وحيوان ما هو الا آلة معقدة ينشطها الضوء والصوت والحرارة وغيرها من المنبهات التى يحمل أثرها مائع رقيق سماه « أرواح الحيوانات » الى الغدة الصنوبرية ومنها الى العضلات فى صورة دوافع تؤدى الى حركة الجسم • هذا كل ما يحدث فى الحيوان وبعبارة أخرى فالحيوان لا يحس ولا يشعر ولا يفكر ، بل يستجيب للمنبهات الخارجية كما تستجيب مضارب الآلة الكاتبة للمس الاصابع • أما عند الانسان فأرواح الحيوانات حين تلج الغدة الصنوبرية فانها تثير فيه مشاعر وانفعالات وافكارا وصورا ذهنية • أى أن الانسان بخلاف الحيوان له عقل • وهذا العقل هو الذى يوجه « الآلة الانسانية » ، ويجعل الانسان يتصرف تصرفا معقولا ، والشعور أهم خاصة للعقل — الشعور بالمعنى الواسع الذى يجمع كل الحالات الشعورية من تفكير وتذكر وتصور ومشاعر وانفعالات ورغبات •• وهنا أخذ الباحثون يهتمون بدراسة الشعور • واصبح علم النفس « علم الشعور » •

وحوالى الوقت الذى كان فيه ديكارت ينشر مذهبه ظهرت فى انجلترا مدرسة تسمى **المدرسة الترابطية** أو المدرسة الانجليزية لأن

أغلب أنصارها من الانجليز (مؤسسها « لــوك » Locke ١٦٣٢ — ١٧٥٤ ، ومن انصارها البارزين « هارتلى » ١٧٠٥ — ١٧٥٧، و « هيوم » ١٧١١ — ١٧٧٦ ، و « سبنسر » ١٨٢٠ — ١٩٠٣) وقد كان لهذه المدرسة أثر كبير فى توجيه الدراسات النفسية حتى نهاية القرن الماضى • من المسلمات الاساسية لهذه المدرسة ان الانســان يولد وعقله صفحة بيضاء تنقش عليها الخبرات الحسية ما تريد • فليس قبل الخبرة فى العقل شيء • هذه الخبرة تأتى عن طريق الحواس • فالاحساسات هى عناصر العقــل ووحداته وذراته • غــير أن هــذه الاحساسات تكون فى أول الأمر غير مترابطة وغير منظمة • ثم تترابط هذه العناصر وتنتظم لما بينها من تشابه أو تضاد أو تجاور فى الزمان والمكان • فتنشأ من هذا الترابط العمليات العقلية جميعا : الادراك والتصور والتخيل والتفكير والابتكار ••• والترابط عملية آليةميكانيكية تشبه الجاذبية فى العالم المادى أو تشبه التآلف بين الذرات بعضــها وبعض ، وبين العناصر بعضها وبعض ، والذى تتشــكون منه المــواد المركبة فى عالم الكيمياء • ومن ثم كانت مهمة علم النفس فى نظرها تحليل المركبات العقلية الشعورية الى عناصرها من احساسات وصور ذهنية ومعان ثم تفسير تجمعها وانتظامها فى وحدات مركبة •

ولقد ظل علم النفس فرعا من الفلسفية العقلية التأملية أكثر من مائتى عام بعد ديكارت • صحيح أن موضــوعــه قد تحــــدد بعض التحديد • لكن طريقته فى البحث لم تزل تعتمد على طريقة الفلسفةفى البحث ، أى على النظر والتأمل والبرهان الجدلى فى قضايا ذات طابع فلسفى صريح ما برحت لاصقة بعلم النفس منــذ القــدم ، مثــل « ما الطبيعة القصوى للعقل ؟ » ، « هل العالم الخارجى عالم واقعى أم من خلق الخيال » ؟ « هل للانسان ارادة حرة ؟ » • وقــد كان الخلاف على هذه القضايا كبيرا بين الباحثين ، لأن النظر والتأمل دون سند من الطرق العلمية للملاحظة والتجريب يؤدى حتما الى الخلاف•

حتى اذا ما أهدف القرن الماضى لنهايته حدثتانقلابات ثلاثة عنيفة أصابت علم النفس فى موضوعه ومشاكله ومنهجه فى البحث ، وكان من أثر ذلك أن أخذ يتحرر من قيوده القديمة وان يتسع نطاقهومجالاته لكى يقتــرب من العلــوم الطبيعيــة • أمــا الأول فكان على يــد العـــالم :

داروِن Darwin (١٨٠٩ — ١٨٨٢)

لما ظهر داروِن بنظرية التطور كان لهذه النظرية أثر عميق فى علم النفس ، اذ قضت على الرأى الشائع بانفصال الحيوان عن الانسان انفصالا جوهريا • وهو الرأى الذى تضمنته نظرية ديكارت من أن الحيوان تحركه الغريزة والانسان يحركه العقل • ومن ثم اتجه الباحثون الى دراسة سلوك الحيوان عسى أن تلقى هذه الدراسة بعض الضوء على سلوك الانسان • ولقد أكدت نظرية التطور أثر الوراثة فى الوصل بين الماضى البعيد للخليقة وبين حاضرها ، كما أكدت أثر البيئة فى تطور الكائنات الحية وبقاء الأنسب فى معركة الحياة ، ومن ثم زاد اهتمام العلماء بدراسة مراحل النمو النفسى فى الفرد وفى النوع وتأثرها بكل من الوراثة والبيئة ، هذا الى اهتمامهم بدراسة الفروق الفردية بين السلالات المختلفة •

فونت Wundt (١٨٣٢ — ١٩٢٠)

من مطلع القرن ١٩ كان علماء الفيزيقا والفسيولوجيا يسيرون فى بحوثهم على نمط آخر غير نمط النظر والتأمل والبرهان الجدلى ، اذ كانوا يوجهون الى الطبيعة أسئلة خاصة ثم يجرون الملاحظات والتجارب للوصول الى أجوبة على هذه الأسئلة • وقد أدى بهم هذا المنهج التجريبى الى الكشف عن كثير من الحقائق والمبادىء كالكشف عن خصائص المادة وسرعة الصوت والضوء والصلة بين الموجات الكهربية والمغناطيسية ، والكشف عن الدورة الدموية ، وعن مناطق المخ التى تهيمن على الحركة عند الانسان والحيوان ، وعن سرعة التيار العصبى •• وقد كان لهذا المنهج ميزة بالغة على منهج النظر والتأمل البحت ، اذ كان يستطيع كل متشكك فى نتائج الملاحظات والتجارب أن يعيدها ويكررها بنفسه للتحقق من صحتها أو بطلانها •• مما أوحى الى بعض الباحثين فى علم النفس باصطناع هذا المنهج التجريبى فى دراسة الظواهر النفسية •

ففى عام ١٨٧٩ أسس « فونت » أول معمل لعلم النفس التجريبى بجامعة ليبزج بألمانيا • وهو معمل مزود بأجهزة وأدوات خاصة لاجراء تجارب على الحواس المختلفة من سمع ولمس وبصر ، وأخرى على كيفية التذكر والتعلم والتفكير والانتباه ، وقياس سرعة النبض والتنفس فى أثناء الانفعال •• لقد كان المعتقد فى ذلك الوقت أن العقل والشعور

لا يمكن قياسهما ، أما منذ هذا التاريخ القريب فقد حق لعلم النفس أن يتخذ مكانا الى جانب العلوم الطبيعية التجريبية ، وأن يصبح علما مستقلا عن الفلسفة العامة من حيث منهجه فى البحث على الأقل •

فــرويد Freud (١٨٥٦ — ١٩٣٩)

ثم جاء الطبيب النمسوى « فرويد » وأثبت بأدلة قاطعة وجود حياة نفسية لا شعورية الى جانب الحياة النفسية الشعورية • فهنــاك تفكير لاشعورى وادراك لاشعورى وتذكر لاشعورى ؛ وهنــاك رغبــات لاشعورية ومخاوف لاشعورية لا يفطن الفرد الى وجودها لكنها مــع ذلك تحرك سلوكه وتوجهه على غير علم أو ارادة منه •• وكثيرا ما تكون سببا فى ظهور اضطرابات نفسية أو عقلية لديه • ومن ثم اتسع مدلول الحياة النفسية وامتدت آفاقها ، فانبسط ميدان علم النفس وموضوعه • فبعد أن ظل قرونا يقتصر على دراسة الخبرات الشعورية ويسمى « علم الشعور » اذا به أصبح يرى نفسه مضطرا الى أن يحسب للعوامل اللاشعورية حسابا كبيرا فى تفسير السلوك السوى والشاذ جميعا •

١٠ — مدارس علم النفس المعاصرة

لم يكن علماء النفس حتى مطلع هذا القرن يعملون أكثر من جمــع وقائع عامة من مجالات محدودة : مجال الخبرات الحسية ؛ والفروق الفردية ، وذكاء الحيوان ، ونمو الطفل ، والشخصية السوية والشاذة؛ ولم تكن هناك خطة عامة للبحث ، أو رابط يجمع بين هذه المعلومات المتناثرة ، بل لم يكن هناك اتفاق عام بين العلماء على تعريف علم النفس نفسه • ومن ثم بدت الحاجة الى لم الشمل وجمع هذا النثار من المعرفة السيكولوجية فى كل موحد متكامل يزيده وضوحا وثراء ويكون أساسا لتوحيد البحوث فى المستقبل • وقد أدت هذه الحاجة الى ظهور المدارس السيكولوجية فى القرن الحالى والتى سنكتفى بذكر أهمها •

١ — المدرسة السلوكية Behaviorism

أسسها « وطسن » Watson الأمريكى فى مطلع هذا القرن ، وهى مدرسة تنظر الى الكائن الحى نظرتها الى آلة ميكانيكية معقدة ، لا تحركه دوافع موجهة نحو غاية ، بل مثيرات فيزيقية تصدر عنهــا استجابات عضلية وغدية مختلفة • لذا يجب أن يقتصر موضــوع علم النفس على دراسة هذه الاستجابات الموضوعية الظاهرة ، عن طريق

الملاحظة الموضوعية البحتة أى دون الاشارة الى ما يخبره الفرد من حالات شعورية أثناء ملاحظة أو اجراء التجارب عليه • ثم ان هـذه المدرسة تغلو فى توكيد أثر البيئة والتربية فى نمو الفرد ، وتغض من أثر الوراثة الى حد كبير •• فليست هناك استعدادات موروثة أو ذكاء موروث ، ان هى الا مجموعة معقدة من عادات يكتسبها الفرد فى أثناء حياته • وفى هذا يقول وطسن : « اعطونى عشرة من أطفال أصـحاء أسوياء التكوين ، فسأختار أحدهم جزافا ثم أدربه فاصنع منه ما أريد : طبيبا أو فنانا أو عالما أو تاجرا أو لصا أو متسولا ، وذلك بغض النظر عن ميوله ومواهبه أو سلالة أسلافه » • لذا نجـد هذه المدرسة تهتم الى حد كبير بدراسة عملية التعلم • فموضوع العادات وتكوينها هو المحور الرئيسى لعلم النفس عندها •

٢ ــ السلوكية الجديدة Neobehaviorism

لا تزال تجعل التعلم وتكوين العادات مركز الصـدارة من بحوثها • لكن بعض أنصارها يعرضون عن التفسير الآلي للسلوك ، كما يرون امكان دراسة الحالات الشعورية عن طريق منهج التأمل الباطن الذى سنعرض له فى الفصل التالى •

٣ ــ المدارس الغرضية Purposive Schools

يطلق هذا الاسم على كل مدرسة أو مذهب ينكر أن السلوك يمكن تفسيره تفسيرا كاملا على أسس ميكانيكية كما تزعم السلوكية ، ويرى أن الغايات والأغراض تقوم بدور هام فى تعيين السلوك وتوجيهه • فكل سلوك يصدر عن الكائن الحى ، انسانا كان أم حيوانا ، يهدف الى غاية ويتجه الى تحقيق غرض حتى ان لم يكن شاعرا بهذا الغرض • ومن دون الغاية لا يمكن فهم السلوك وتفسيره • فلو أنك رأيت صديقا لك يجرى فى الطريق وهو لا يلوى على شىء لم تخرج من سلوكه هذا الا بعدة احتمالات وتفسيرات قد تكون بعيدة عن الصواب الى حد كبير • ولو كان صديقك هذا ممن ينتمون الى المدرسة السلوكية الميكانيكية فسألته عن السبب فى جريه لأجاب : لأن عضلات ساقى تجرى فيها عمليات فيزيقية كيميائية ــ وهو تفسير آلى مادى لا يزيد سلوكه هذا الا غموضا • وستظل عاجزا عن فهم سلوكه حتى تعرف الغاية منه •

من هذه المدارس مدرسة علم النفس النزوعى للعالم الاسكتلندى

« مكدوجل » Mc Dougall (١٨٧١ – ١٩٣٨) ، ومدرسة التحليل النفسى ، وبعض اتباع المدرسة السلوكية الجديدة •

٤ – مدرسة التحليل النفسى Psychoanalysis

مؤسس هذه المدرسة الطبيب النمسوى « فرويد » الذى سبق أن أشرنا الى كشفه عن الجانب اللاشعورى من النفس • بدأت هذه المدرسة طريقة لعلاج بعض الأمراض النفسية ثم أصبحت نظرية ونظاما سيكولوجيا كان له أبلغ الأثر ليس فقط فى علم النفس بل وفى سائر العلوم والفنون الانسانية من علوم الاجتماع والتربية والسياسة الى الأدب والفن وتاريخ الحضارة الانسانية وغيرها •

ومما تنفرد به هذه المدرسة :

١ – توكيدها أثر العوامل والدوافع اللاشعورية فى سلوك الانسان•

٢ – اهتمامها بدراسة الشخصية السوية والشاذة اهتماما بالغا : تشريحها وتكوينها وعوامل انحرافها • فان كان علم النفس هو علم السلوك ، فالتحليل النفسى هو علم الشخصية •

٣ – توكيدها الأثر الخطير لمرحلة الطفولة المبكرة ، خاصة علاقة الطفل بوالديه ، فى تشكيل شخصية الراشد ، وفى تمهيد الطريق للاصابة بالأمراض النفسية والعقلية فيما بعد ، وكذلك توجيهها النظر الى الأهمية النفسية لمرحلة الرضاعة التى لم يكن الأقدمون يهتمون بدراستها •

٤ – بسطها مفهوم الغريزة الجنسية ودراسة تطورها من الناحية النفسية وصلة ذلك بشخصية الفرد •

٥ – وقد كان « فرويد » أول من حاول تطبيق المنهج العلمى فى تأويل الأحلام وصاغ نظرية ملتئمة عنها •

٦ – وكانت من أولى المدارس الحديثة التى أكدت وحدة الانسان وقاومت الثنائية القديمة للجسم والنفس •

٥ – مدارس التحليل النفسى الجديدة Neopsychoanalysis

عدة مدارس تحيدعن مدرسة فرويد فى بعض المفهومات العلميةوطرق العلاج الكلينيكية ، لكن لا تزال داخل الاطار العام للمدرسة الأم • لقد كانت مدرسة فرويد تؤكد أثر الغرائز – خاصة الغريزة الجنسية وغريزة العدوان – فى تكوين الشخصية واحداث الاضطرابات النفسية • أما هذه المدارس الجديدة فتؤكد أثر العوامل الحضارية فى هذه الناحية • وكانت

المدرسه الأصلية تؤكد أثر الطفولة الى حد بعيد . أما هذه المدارس فتهتم بحاضر الفرد وظروفه الراهنة أكثر مما تهتم بماضيه وظروف طفولته .
وممن ينتمون الى هذه المدارس « فروم Fromm» و « كاردنر » Kardiner و « هورناى » Horney.

٦ ــ مدرسة الجشطلت Gestalt Psychology

ظهرت هذه المدرسة فى ألمانيا فى أوائل هذا القرن . وكلمة Gestalt بالألمانية معناها الكل المتكامل الأجزاء ، أو الصيغة الاجمالية أو النمط Pattern ظهرت هذه المدرسة فى وقت أسرف فيه كثير من علماء النفس فى تحليل الظواهر النفسية الى عناصر جزئيه . كانوا يحللون الادراك الى احساسات جزئية . وعملية التعلم الى روابط عصبية ، والشخصية الى سمات مختلفة. فكان من الطبيعى أن يؤدى ذلك الى رد فعل شديد . وقد كان ذلك على يد هذه المدرسة التى ترى أن الظواهر النفسية وحدات كلية منظمة وليست مجموعات من عناصر وأجزاء متراصة . فالادراك أو التعلم أو بناء الشخصية ليس كل منها كالحائط المكون من قوالب ملتصـــقة بل كالمركب الكيميائى اندمجت عناصره بعضها فى بعض . ولو حللنا المركب الى عناصره تلاشى المركب نفسه .
ومن مؤسسى هذه المدرسة « فرتيمر » Wertheimer و « كوفكا » Koffka و « كهلر » Koehler

٧ ــ مدرسة تحليل العوامل Factor Analysis School

تحاول هذه المدرسة الكشف عن أقل عدد من العناصر أو العوامل المستقلة الأولية ــ أى التى لايمكن ردها الى أبسط منها ــ التى تتألف منها المركبات السيكولوجية كالذكاء والشخصية . وتعتمد فى بحوثها على تطبيق الاختبارات السيكولوجية المختلفة ، ومعالجة النتــائج بطرق احصائية معقدة . ويعتبر « سبيرمان » Spearman الانجليزى منشىء هذه المدرسة (١٩٠٤) ، كما يعتبر « ثرستون » Thurstone من أشهر ممثليها بأمريكا .

ولا تزال الخلافات قائمة بين النظريات المختلفة التى تعتنقها المدارس السابقة ، ولكن وجهات نظرها بدأ يقترب بعضها من بعض ، كما أخذت كل مدرسة تخرج من عزلتها ومن ادعائها أنها تستطيع تفسير كل شىء ، حتى زخرت جعبة علم النفس اليوم بمجموعة من الحقائق السيكولوجية الأساسية يتفق عليها الجميع .

الفصل الثانى

مناهج البحث فى علم النفس

١ ـ المنهج العلمى

العلم بوجه عام معرفة منظمة لفئة معينة من الظواهر تجمع وترتب بالمنهج العلمى بقصد الوصول الى قوانين ومبادئ عامة لتفسير هذه الظواهر والتنبؤ بها والتحكم فيها . فالعلم لا يقتصر على تفسير حالات فردية بل يتجاوز ذلك الى صوغ تعميمات ومبادىء وقوانين تصدق على حالات كثيرة مختلفة .

أما المنهج فهو الطريقة التى يتبعها الباحث للاجابة على الاسئلة التى يثيرها موضوع بحثه :

١ ـ ماذا يحدث ؟
٢ ـ كيف يحدث ؟
٣ ـ لماذا يحدث ؟

ويتميز المنهج العلمى ، فى علم النفس وغيره ، بجمع الوقائع عن طريق الملاحظة الموضوعية الدقيقة .

الملاحظة العلمية :

١ ـ يشترط فى الملاحظة العلمية أن تكون منظمة مضبوطة تقوم على التخطيط والوصف الدقيق وتسجيل السلوك تسجيلا منظما مع أكبر قدر من الظروف المحيطة به ، وعلى أن تكون ملاحظة مقصودة أى ترمى الى هدف واضح هو الاجابة على سؤال معين أو تحقيق فرض معين . كملاحظة طفل لمعرفة نوع لغته أو لعبه أو معاملته للاخرين أو موقفه من الدراسة ، أو ملاحظة قرد يلهو أو يتعلم ، أو ملاحظة الانسان نفسه وهو فى حالة حزن لوصف هذه الحالة أو تحليلها . والملاحظ المدرب يسجل دقائق ملاحظاته وتفاصيلها على الفور أثناء القيام بها مهما بدت له تافهة أو لا قيمة لها . ويصدق هذا بوجه خاص على الملاحظات التى لا تتفق مع وجهة نظره . فمن المعروف أن مرور الزمن يحرف الذكريات وأن الانسان يميل الى نسيان ما لا يهتم به وما لا يتفق مع رأيه .

٢ ــ كما يشترط فى الملاحظة العلمية ألا تتأثر بميول الباحث وعواطفه وانحيازاته وأفكاره وما يقوله عامة الناس وغير تلك من العوامل التى تحرف الادراك وتشوهه وتميل بالملاحظ الى أن يرى أشياء غير ماثلة أمامه ، أو تعميه عن رؤية أشياء شاخصة أمام نظره •

٣ ــ والملاحظة العلمية ملاحظة موضـوعية [١] ، يمكن التحقق من صحتها ، أى يمكن أن يعيدها باحثون آخرون ويظفرون بنفس النتائج • وليس التجريب الا ملاحظات تجرى فى ظروف خاصة كما سنرى بعد قليـل ••

٤ ــ والملاحظ المدرب لا يعمم من حالة واحدة أو بضع حالات ، فان رأى تلميذا او بضعة تلاميذ نجحوا فى الحياة بعد فشلهم فى الدراسة، فليس له أن يعمم من هذه الملاحظات المحدودة •

موجز القول أن الملاحظة العلمية يجب أن تكون موضوعية دقيقة ، كما يجب أن تتفادى أخطاء التحيز ، وأخطاء التذكر ، وأخطاء التعميم •• هذه الملاحظة العلمية هى أساس المنهج العلمى فى البحث مهما اختلفت طرقه كما سيبدو لنا بعد قليل •

والمنهج العلمى هو الفيصل بين ما يسمى علما وبين غيره من ضروب المعرفة • فالطب والفيزيقا والكيمياء وعلم الأحياء لم تدخل فى نطاق العلم الا بعد أن خضعت دراستها للمنهج العلمى • كذلك علم النفس لم يصبح علما الا حين بدأ العلماء يطبقون المنهج العلمى فى دراسـة السـلوك •

خطوات المنهج العلمى :

تعرض لذهن الباحث أثناء بحوثه أو نتيجة لقراءاته مشكلات تتحدى تفكيره وتدعوه الى الاجابة عليها • والطريقة التى درج العلماء على استخدامها لحل هذه المشكلات لا تختلف كثيرا عن طريقة تفكيرنا حين تواجهنا مشكلات حياتنا اليومية : يبدأ العالم بتحديد أبعاد المشكلة

---

(١) يلاحظ ان لكلمة (موضوعى) معنيين . ١ ــ الملاحظة الموضوعية او الحكم الموضوعى هو الذى لا يتاثر بميول الشخص وعواطفه .
٢ ــ الوقائع او الأحداث الموضوعية هى التى يمكن ان يلاحظها وان يتحققها اكثر من باحث واحد ، وذلك فى مقابل الوقائع الذاتية .

تحديدا دقيقا قد يقتضى منه جمع بيانات ومعلومات تتصل بهـا حتى يحيلها الى سؤال محدد . هنا يثب الى ذهنه جواب مبدئي محتمل لهذا السؤال : هذا الجواب هو ما يسمى االفرض[1] . فالفرض هو محاولة مبدئية لحل مشكلة أو تفسير ظاهرة . وقد يكون هذا الفرض صحيحا أو باطلا . هنا يأخذ الباحث فى التحقق من صحة هذ االفرض عن طريق التجريب أو غيره . فان أيد الفرض عدد كبير من الملاحظات والوقائع تحول الى **تعميم**[2] **أو نظرية**[3] . والنظرية وان كانت أعز سندا من الفرض الا أنها أقل يقينا من **القانون**[4] . فان ثبتت صحة الفرض على نحو قاطع بحيث أصبح قادرا على تفسير الماضى والتنبؤ بالمستقبل ارتقى الى مرتبة « القـانون » . أما ان أفلس الفـرض وجب تركه أو تعديله .

وخير بيان لهذه الخطوات هو أن نستعرض تجربة مأثورة ــ وان تكن من غير نطاق علم النفس ــ أجراها الفسيولوجى الفرنسى «كلود برنارد» Bernard (١٨١٣ ــ ١٨٧٨) الذى يعتبر أشهر ممثل للعلم التجريبى فى نهاية القرن التاسع عشر . اشترى هذا العالم عددا من الارانب ليجرى عليها بعض التجارب فى معمله،فلاحظ أن بول هذه الأرانبكان صافيا وكان حمضيا ، فدهش لهذه الملاحظة لانه يعرف أن بول الارانب عكر وقلوى شأنها فى ذلك شأن كل آكلات العشب ، وهذا على عكس آكلات اللحم التى يكون بولها صافيا وحمضيـا (مشكلة) . هنـا عرضت لذهنه الفكرة التالية (الفرض) وهو أنه من المحتمل أن هذه الارانب لم تأكل منذ مدة طويلة فأخذت تتغذى من لحمها وشحمها ، أى أن الجوع حولها الى آكلات لحم . ولكى يختبر صحة هذا الفرض قدم للارانب أعشابا فأكلتها ، فأصبح بولها بعد عـدة ساعات كدرا وقلويا . ثم منعها من الطعام لمدة ٢٤ ساعة فلاحظ أن بولها قد انقلب صافيا حمضيا . هنا تحققت صحة فرضه ، غير أنه لم يكتف بهذا الاختبار بل أراد أن يزداد وثوقا . فمنع الأرانبمن أكل العشب حتى أرغمها على أن تأكل لحم بقر مسلوقا قدمه لها . أى أنه حولها بالفعل الى آكلات لحم ، فوجد أن فرضه قد تحقق فى هذه المرة أيضا ، اذ أصبح بولها حمضيا صافيا . غير أنه لم يقف عند هذا الحد بل كرر التجربة نفسها على حيوانات أخرى من آكلات العشب كالخيل ، فوصل الى

---

(1) hypothesis (2) generalization (3) theory (4) Law

نفس النتيجة الاولى • هنا أصبح من حقه أن يقرر حقيقة علمية أو قانونا مؤداه أن « آكلات العشب حين تصوم يصبح بولها حمضيا صافيا » • انه فسر ظاهرة لم يكن يعرف سببها ، وأصبح فى وسعه التنبؤ بها والتحكم فيها •

من هذا نرى أن خطوات المنهج العلمى تتلخص فيما يلى :

١ — وجود مشكلة وتحديدها •
٢ — صوغ فرض أو عدة فروض •
٣ — اختبار صحة هذه الفروض •
٤ — التعميم •

وأهم خطوة فى هذا المنهج هى خطوة اختبار صحة الفروض ، فى حين أن التعميم هو أكثرها صعوبة وخطورة •

وتبدو معالم هذا المنهج العلمى بصورة واضحة فى المنهج التجريبى الذى سنتناوله بعد قليل بالشرح ، وذلك من حيث افتراض الفروض ، واختبار صحتها ••

٢ — أنواع البحوث فى علم النفس

تنقسم البحوث فى علم النفس الى بحوث كشفية ووصفية تحليلية وتجريبية :

١ — **البحوث الكشفية** : تستهدف البحث عن معلومات جديدة تساعد الباحث على استيضاح مشكلة غامضة غير محدودة فى ذهنه كالمشكلة الآتية مثلا « أثر كل من المدح والذم فى حفز صغار التلاميذ على العمل » وذلك لزيادة تعريف الباحث بها وتحديد أبعادها ، كما أنها تكشف له عن أهم النتائج التى وصلت اليها البحوث السابقة ، وما اتبعه الباحثون من مناهج ، وما صاغوه من فروض ، وما أثاروه من مشكلات ينبغى أن توضع موضع البحث والتجريب فى البحوث التالية • كما أنها قد تزوده بالاحصائيات اللازمة لدراسة مشكلة معينة • لذا فالبحث الكشفى خطوة ارتيادية فى كل بحث علمى ويمكن أن تسمى « بالدراسة الاستطلاعية »•

والبحوث المسحية Surveys تدخل فى نطاق البحوث الكشفية • وهى بحوث تستهدف جمع أكبر قدر من المعلومات عن الظاهرة • أو هى دراسات اجمالية يقوم بها الباحث فى المرحلة التمهيدية من بحث مشكلة

على حين استراحت الفئة الثانية (المجموعة التجريبية) • وبعد أن حفظت الفئة الأولى القائمة طلب الى افراد الفئتين استرجاع ما يمكنهم استرجاعه من ألفاظ القائمة الاولى ، فوجد أن قدرة أفراد الفئة الاولى على التذكر دون قدرة افراد الفئة الثانية التى استراحت • وهكذا تحققت صحة الفرض عن طريق التجريب •

ولا يخفى أننا نستطيع أن نجرى هذه التجربة على مجموعة بعينها من التلاميذ ، غير أنه يخشى أن تكون ألفتهم بموقف التجربة عند تكرارها أو مللهم من هذا التكرار •• عوامل تفسد نتائج التجربة •

٢ ـ مثال آخر : لنفرض أننا نريد أن نعرف قيمة نوع معين من العلاج النفسى ، كالعلاج بالتنويم المغناطيسى مثلا ، فى شفاء مرض نفسى معين كالهستريا مثلا • هنا لا يكفى أن نطبق العلاج على مجموعة واحدة من المرضى ، لأن بعض المرضى قد يشفون من تلقاء أنفسهم دون خضوع للعلاج • كما أن نسبة من يشفون قد تتوقف على عوامل مختلفة منها سن المريض وجنسه وتربيته وطول اصابته بالمرض •• لذا يتعين فى هذه الحال اجراء التجربة على مجموعتين من المرضى تتكافآن على قدر الامكان فى العوامل السابقة ، تخضع احداهما للعلاج (المجموعة التجريبية) وتترك الثانية دون علاج (المجموعة الضابطة) ، فاذا ظهر أن عدد من يشفون أو يتحسنون فى المجموعة الاولى أكبر بدرجة ملحوظة منه فى المجموعة الثانية ، حق لنا أن نعزو هذا التحسن أو الشفاء الى العلاج وليس الى الشفاء التلقائى أو الى عوامل أخرى • لقد كانت الطريقة المتبعة فى الماضى هى معالجة طائفة من المرضى لمدة طويلة،ثم احصاء عدد من برئوا وعدد من تحسنوا وعدد من بقوا على حالتهم بل وعدد من ساءت حالتهم بالفعل • فان كانت نسبة من برئوا وتحسنوا نسبة عالية قطعوا بجدوى هذا النوع من العلاج • غير أن أمثال هذه التجربة ليست فاصلة بأية حال ، لأن الشفاء أو التحسن قد يرجعان كما قدمنا الى العلاج ، أو يرجعان الى الشفاء التلقائى وعوامل أخرى• والمجموعة الضابطة هى الفيصل فى هذه الحال •

٣ ـ بل يتحتم علينا أحيانا أن نستخدم مجموعة ضابطة مع أكثر من مجموعة تجريبية واحدة ، كما هى الحال فى التجارب التى تجرى لاختبار القيمة العلاجية للأدوية الجديدةالتى لم يسبق استعمالها•لقد

أهم منــاهج البحث فى علم النفس

سنتناول بالدراسة فيما يلى المناهج التالية :

١ — منهج التأمل الباطن •

٢ — منهج الملاحظة فى مجال الطبيعة •

٣ — المنهج التتبعى •

٤ — المنهج الكلينيكى •

٥ — المنهج التجريبى •

٣ — منهج التأمل الباطن

التأمل الباطن أو الاستبطان introspection هو ملاحظة الفرد ما يجرى فى شعوره من خبرات حسية أو عقلية أو انفعالية ملاحظة منظمة صريحة تستهدف وصف هذه الحالات وتحليلها أو تأويلها أحيانا • ومن أبسط صور الاستبطان وأقلها تعقيدا ما نفعله فى حياتنا اليومية حين نصف لصديق ما نشعر به من تعب أو قلق ، وحين نخبر الطبيب بما نحس به من آلام ، أو حين نذكر لشخص آخر ما نراه أو نسمعه أو نتذوقه • وقد يدور الاستبطان على الحالات الشعورية الحاضرة أو الماضية •فمن الامثلة على استبطان الحالات الشعورية الحاضرة أن تطلب الى شخص أن يصف لك حالته وهو يستمع الى محاضرة جافة أو وهو يقرأ كتابا مملا أو وهو يتسلم برقية غير منتظرة ، أو أن تطلب اليه أن يصف ما يجرى فى شعوره وهو يفكر فى حل مسألة حسابية : هل يكلم نفسه وهو يفكر ؟ هل يرى صورا ذهنية لما يفكر فيه ؟ وماذا يشعر به حين يستعصى عليه حل المسألة ؟ وليس الغرض فى هذه الحالة معرفة نتيجة الحل ، بل وصف الخطوات التى يجتازها الذهن للوصول الى الحل ، وما يصحب ذلك من مشاعر •• ومن الامثلة على استبطان الحالات الشعورية الماضية أن تطلب الى شخص أن يجيبك على الأسئلة الآتية : « ما أقدم ذكرى تستطيع أن تسترجعها من ذكريات طفولتك ؟ » . « هل حلمت مرة بأنك تسير عاريا فى الطريق ، وماذا كان شعورك أثناء الحلم » . « هل كان حزنك على موت صديقك منذ شهر أشد من حزنك على فراقه اليوم ؟ » •

وظاهر من هذا أن الاستبطان على درجـات مختلفة من الصـعوبة والتعقيد • وأنه كمنهج للبحث يحتاج الى مرانة وتدريب ، خاصة ان أردنا أن نخرج منه بمعلومات مفصلة • غير أنه لا تختلف عن ملاحظة الاشياء والموضوعات الخارجية الا فى أن ملاحظة فردية يقوم بها الشخص المستنطن وحده فى حين أن الملاحظة الخارجية ملاحظة علنية يستطيع أن يقوم بها عدة أشخاص • وقد اسـتطاع بعض العلمـاء عن طريقه أن يظفروا بحقائق ومبادىء سيكولوجية ذات قيمـة مثل : ان الانسـان لا يستطيع أن ينتبه الى شيئين مختلفين فى وقت واحد ؛ وأنه يستطيع أن يشعر باللذة والالم فى آن واحد ، وأنه يستطيع أن يسترجع الماضى وأن يفكر دون أن يكون تذكره أو تفكيره مصحوبا بصور ذهنية ، كما هى الحال فى التفكير الرياضى والفلسفى •

لقد ظل الاستبطان المنهج السائد فى الدراسات النفسية حتى أواخر القرن الماضى وأوائل القرن الحالى • ثم وجهت اليه عدة اعتراضات ، بل لقد أعرضت المدرسة السلوكية عن استخدامه بدعوى أنه منهج غير علمى • وكانت حجتها فى ذلك أن الحالات الشعورية التى تدرس عن طريق الاستبطان حالات فردية ذاتية أى لا يمكن أن يلاحظها الا صاحبها وحده ، ومن ثم لا يمكن أن تكون موضوع بحث علمى لانها لا يمكن التحقق من صـحتها • فالعلم لا يقـوم على الفردى الذاتى بل على الموضوعى العام الذى يشترك فى ملاحظته عدة ملاحظين •

والرد على هذا الاعتراض أن الحالات الشعورية الفردية كالاحساس بالالم أو الشعور بالغضب أو النشاط العقلى أثناء التفكير لا يمكن أن تكون موضوع دراسة علمية الا اذا أمكن التعبير عنها تعبيرا موضـوعيا ظاهرا عن طريق اللغة أو الحركات أو الاشارات المختلفة كى يتسنى للغير ملاحظتها والتحقق من صـحتها • أما ان ظلت حبيسة صـاحبها يستعصى على الغير ملاحظتها ظلت خارج نطاق البحث العلمى • على هذا النحو تصبح الحالات الشعورية ظواهر موضوعية خارجية تخضع للدراسة العلمية كالظواهر التى تدرسها العلوم الطبيعية سواء بسواء • وبعبارة أخرى فالمعلومات التى نحصل عليها عن طريق الاستبطان تصبح موضوعات علمية حين يتم التعبير عنها باللغة أى **بالتقرير اللفظى** خاصة ان قورنت بموضوعات شبيهة بها عند أشخاص آخرين • فان اتفقت التقارير اللفظية لعدد من المستبطنين ممن يشتركون فى السن والثقافة

والخبرة والتدريب[1] .. ان اتفقت على أن عملية التفكير لا تقترن أحيانا بصور ذهنية ، زادت درجة الاعتماد على الاستبطان ، ولم يعد هناك مجال للشك فى جدوى هذا المنهج .

وقد عيب على الاستبطان أن الشخص فى أثنائه ينقسم الى ملاحظ (بكسر الحاء) وملاحظ (بفتح الحاء) فى آن واحد . وهذا من شأنه أن يغير الحالة الشعورية التى يريد وصفها وتحليلها . فتأمل الانسان نفسه أثناء فرحه أو حزنه أو غضبه من شأنه أن يخفف من شدة هذه الانفعالات لانه يستهلك فى تأمله هذا جزءا من الطاقة النفسية التى كانت تستهلك فى هذا الفرح أو الحزن أو الغضب . كذلك الحال حين يتأمل الفرد ما يجرى فى ذهنه أثناء عملية التفكير ، فان المجهود الذى يستنفده فى الملاحظة يجعله أقل انتباها وتركيزا . من أجل هذا يرى بعض المفكرين استحالة هذا المنهج لأن الانسان، على حد قول بعضهم ، لا يستطيع أن يطل من النافذة ليرى نفسه سائرا فى الطريق .

والرد على هذا أن ملاحظة الحالة الشعورية لا يمكن أن تكون معاصرة للحالة نفسها ، فأنا أفكر ثم ألاحظ اننى أفكر ، وبذا لا يكون الاستبطان فى الواقع الا نوعا من **التذكر المباشر** للحالة الشعورية التى نلاحظها ، بل قد يكون نوعا من تذكر الماضى القريب كما هى الحال حين نروى حلما رأيناه لشخص آخر . ومن ثم لا تكون الحالة التى نصفها صورة طبق الأصل من الحالة التى نريد ملاحظتها بل مجرد امتداد لها .

غير أنه بالرغم من العيوب والاعتراضات التى توجه الى منهج الاستبطان فهو منهج لا غنى عنه للباحث فى علم النفس :

١ — فهو الوسيلة الوحيدة لدراسة بعض الظواهر والاحوال النفسية كالاحلام وأحلام اليقظة وشعور الفرد أثناء انفعال الخوف أو الغضب وغيرهما .

٢ — كما أنه يقوم بالدور الاكبر فى بعض الدراسات التجريبية حين نسأل الشخص الذى تجرى عليه التجربة أن يصف لنا ما يرى أو يسمع أو ما يشعر به بعد مجهود ذهنى طويل رتيب ، أو بعد سماعه لحنا

---

(١) يطلق على الاستبطان حين يجرى فى ظروف منضبطة بالمعمل على مجموعة من الافراد المدربين لوصف خبراتهم وتحليلها «الاستبطان التجريبى».

موسيقيا معينا ، أو رؤيته شريطا سينمائيا ، أو ما يتذكره من صــورة نعرضها عليه ثم نخفيها عنه • ومما يذكر أن الاستبطان يستخدمه عالم الفيزيقا فى بحوثه حين يسأل شخصا عما يراه حين يدار أمامه قرص مقسم الى عدة أقسام ملونة بألوان مختلفة • كما يستخدمه الفسيولوجى حين يبحث وظائف الحواس • وبه عرفنا أن حاسة الذوق تتضمن أربعة احساسات مختلفة : الحلو والمر والحامض والمالح •

٣ — كما أنه الأساس فى استفتاءات الشخصية اذ نطلب الى الشخص أن يجيب ، تحريريا أو شفويا ، على مجموعة من الاسئلة على ما لديه من ميول ورغبات أو مخاوف أو متاعب : « هل تشعر بالارتباك وأنت فى جماعة من الناس ؟ » ، « هل يجرح الناس شعورك بسهولة ؟ » « هل تعجز عن التصميم حتى تفلت منك الفرصة ؟ » •

٤ — وأثناء الصلاح النفسى لابد أن يستمع المعالج الى ما يرويه المريض من مشاعر ومخاوف ووساوس •• ويسترشد بذلك فى تشخيص المرض ومعونة المريض على الشفاء •

٥ — وهناك ظروف لا يجدى بل يضل فى بحثها الاقتصار على ملاحظة السلوك الظاهر وحده ، كما لو أردنا أن نعرف الفوارق بين مجمــوعة من الناس من حيث ميلهم الى أنواع معينة من الطعام مثلا • فقد يكون أحدهم كلفا بنوع معين من الطعام لكنه يمسك عنه لأنه يسبب له سوء الهضم ، على حين يلتهم آخر طعاما لا يحبه كى يرضى مضيفه •

٤ — منهج الملاحظة فى مجال الطبيعة

هو الطريقه الوحيدة لدراسة السلوك الذى يمكن احداثه فى معــامل علم النفس ، أو السلوك الذى يشوه ان حدث فى المعمل • هنا نلاحظ السلوك كما يحدث تلقائيا فى ظروفه الطبيعية • لذا يستخدم هذا المنهج فى علم نفس الحيوان لدراسة السلوك الاجتماعى للقردة مثلاوميلهاالى أن يحاكى بعضها بعضا ، كما يكثر استخدامها فى علم نفس الطفــل لدراسة لغة الاطفال فى سن معينة ، أو دراسة ألعابهم أو تغير مظاهــر الغضب لديهم بتقدم العمر — كل ذلك وهم يلعبون أو يعملون على سجيتهم فى ظروف طبيعية لا تشعرهم بالحرج ولا تدعوهم الى التكلف ولا تجعلهم يتمنعون أو يتهيبون ان سقناهم الى معامل علم النفس • كما يكثر استخدامها أيضا فى بحوث علــم النفس الاجتماعى لدراسة

الصور المختلفة للتفاعل الاجتماعي لدى العمال فى المصانع ، أو لدى المهاجرين من القرية الى المدينة ، أو لدى الطلبة عند التحاقهم بالجامعة. وفى علم نفس الشواذ يستخدم هذا المنهج لمعرفة العوامل والظروف الاجتماعية التي تسهم فى ذيوع الامراض النفسية أو العقلية .

٥ ـ المنهج التتبعى

يستخدم هذا المنهج لعدة أغراض منها تتبع نمو قدرة أو سمة لدى الانسان من طفولته الى مرحلة المراهقة مثلا كتتبع نمو الذاكرة أو الذكاء أو اللغة أو القدرة على التعلم أو تطور الشعور الدينى . ويكون ذلك بوصف المراحل المختلفة التى تجتازها القدرة أو السمة ، ووصف مظاهرها فى كل مرحلة . فى هذه الدراسة يجب تتبع مظاهر النمـو عند مجموعة بعينها من الاطفال فى سنوات متتالية،أو مقارنة عينات مختلفة من الاطفال فى الاعمار المتتالية اذا تعذر تتبع نفس المجموعة من الاطفال .

أو يستخدم هذا المنهج لمقارنة سلوك الكائنات الحية فى مستويات مختلفة من التطور : « هل تختلف القدرة على التعلم عند الانسان عنها عند الكائنات الاخرى من حيث النوع أو من حيث الدرجة فقط ؟»، « فى أى مستوى من التطور تبزغ القدرة على الاستدلال ؟» ، « الى أى حد يتشابه ذكاء النمل مع ذكاء الفيران ؟ » .

وقد يستخدم هذا المنهج طريقة الملاحظة فى مجـال الطبيعة ، أو يتخذ طابعا تجريبيا باجراء اختبارات للتعلم مثلا على الحيـوانات فى مستوياتها المختلفة ـ الفأر والكلب والقرد ، أو على الانسـان فى أعمار مختلفة ـ الطفولة والمراهقة والشيخوخة .

وقد استخدمه « ترمان » Terman فى تتبع الأطفال الموهوبين ذوي الذكاء الرفيع من سن مبكرة حتى أتمـوا دراسـتهم وتزوجوا وانخرطوا فى الحياة العامة ، فوجد أنهم احتفظوا بذكائهم مرتفعـا من الطفولة الى مرحلة الرجولة ، كما وجد أنهم كانوا أصح أجساما وأطول أعمارا وأقوم خلقا وأقوى شخصية وأكثر توفيقا فى الحيـاة الزوجية والمهنية من متوسط عامة الناس .

٦ ـ المنهج الكلينيكى Clinical Method

يستخدم هذا المنهج فى تشخيص وعلاج من يعانون اضطرابات نفسية أو انحـرافات خلقية أو مشكلات دراسية ممن يفـدون الى

العيـادات النفسـية • وهو يستخدم وسـائل عـدة لجمع البيانات اللازمة لتحقيق أغراضه : منها دراسة **تاريخ الحالة** — أي الشخص المريض أو المشكل — ويكون ذلك بجمع أكبر قدر من المعلـومات عن تاريخه الصحي والعائلي والدراسي والمهني والاجتماعي والتي يمكن أن تفيد في تفسير اضطرابه •• وذلك بسؤال الشخص نفسه أو أفراد أسرته وأصدقائه •• هذا الى « مقابلة شخصية » مع الطبيب النفسي أو الخبير النفسي بالعيادة يتاح له فيها التحدث عن مشاكله ومتاعبه•• وكثيرا ما تجرى عليه اختبـارات سيكولوجية لقياس ذكائه أو بعض قدراته الخاصة وسمات شخصيته •

هذا شاب وفد الى العيـادة يشكو من أنه يعجز عن حـل مشكلاته اليومية العادية عجزا واضحا يضطره الى التماس النصح والمعـونة من كل انسان • هنا يحتاج الخبير النفسي الى معـرفة أساس هـذه المشكلة عنده : هل كان والداه يهملانه في عهد الصغر ، أم كانا يتدخلان في كل شئونه ولا يدعان له فرصة للتفكير والتقدير بنفسه ، أم كانا يطلبان منه أكثر مما يستطيع عمله ، أم كان جو المنـزل الذى نشـأ فيه جوا لا يبعث على الأمن والطمأنينة ، أو لم تتـح لـه الفـرص للاتصال بأطفال من نفس سنه ؟ • هنا يكون المنهج كلينكيا وتتبعيـا في آن واحد •

ومن الطرق التى يستخدمها هذا المنهج دراسة **ألعاب الأطفـال** المشكلين لما قد ظهر من أن اللعب طريقة فذة لاستشفاف الحياة النفسية الشعورية واللاشعورية للطفل ، وأداة ذات قيمة لتشخيص متاعبـه النفسية ولعلاجه أيضا • وفى العيادات النفسية الحديثة للأطفـال غرف خاصة تحتوى على عرائس ودمى تمثل الاب والأم والاخـوة والاخوات والطفل نفسه ، ودمى تمثل حيوانات مختلفة ، وقطع أثاث مما يوجد في البيوت ، وكميـات من الرمل والماء •• يترك الطفـل ليلعب على سجيته أو مع خبير نفسي يوجـه اليه بعض الأسـئلة ، ويراقب نوع الألعاب وتعليق الطفل عليها ، ويشجعه على تكـرار المواقف التى تمس متاعبه الانفعالية وأن يعبر عن المشاعر التى كان يخاف من التعبير عنها في هذه المواقف •• وهكذا يتاح للطفل مجال للتنفيس والتصريف الانفعالي يخفف عنه بعض ما يعانيه من قلق وضيق وتوتر نفسي هى أصل مشكلته ومتاعبه •

ويختلف هدف المنهج الكلينيكى عن هدف الدراسات التجريبية التى تجرى على أعداد كبيرة فى أنه يهتم بحالات فردية • غير أن هـذا لا يحول دون التعميم من دراسة عدد كبير من الحالات الفـردية المتشابهة • ومما يجدر ذكره أن « فرويد » مؤسس مدرسة التحليل النفسى وصل الى فرضه الذى يقول ان « الاحـلام رموز لمخاوف ورغبات لاشعورية » من دراسته وملاحظـاته الكلينيكية لعـدد كبير من المصابين بأمراض نفسية •

انه منهج تعـوزه الدقة والموضوعيـة اللتان يتسم بهمـا المنهج التجريبى ، لكنه يزودنا بمعلومات لا يمكن الحصول عليهـا من المنهج التجريبى ، كالعوامل التى تؤثر فى ماضى الفرد وحاضره •

٧ ــ المنهج التجريبى

لو اقتصر العلم فى بحوثه على انتظار وقوع الاحداث والظواهر لملاحظتها لكان سيره بطيئا • لذا كان لابد له أن يتدخل فيرتب الظروف التى تقع فيها الظواهر ترتيبا معينا ثم يلاحظ ما يحدث ــ وهذه هى التجربة • فليست التجربة الا ملاحظة مقصودة مقيدة بشروط تجعلها تحت مراقبة الباحث واشرافه • هى تغيير مدبر يحدثه الباحث عمـدا فى ظروف الظواهر • أو هى احداث ظاهرة فى ظروف صناعية معينـة يرتبها الباحث قبل اجراء التجربة ــ فى معمل علم النفس أو فى مصنع أو فى فصل من فصول الدراسـة أو فى مختبر للادوية ــ بقصد جمع معلومات عن الظاهرة تساعده على التحقق من صحة فرض افترضه•

والمنهج التجريبى منهج يعتمـد كغيره من المناهج العلمية السابقة على الملاحظة الموضوعية الدقيقة ، لكنه يتميز عنها باتخاذه التجريب أداة لاختبار صحة الفروض ، وبقدرته على التحكم فى مختلف العوامل التى يمكن أن تؤثر فى السلوك المدروس ، كما أنه يتيح الكشف عمـا بين الاسباب والنتائج من علاقات•• لذا كانت خطواته توازى خطوات المنهج العلمى فى البحث الذى يتبعه العلماء جميعـا للوصـول الى النظريات والقوانين والذى شرحناه فى مطلع هذا الفصل •

مثـال لتجـربة :

كلنا يلاحظ أن مكفوف البصر يبطىء السير حين يقترب من عقبة فى الطريق ثم يحيد عنها كى لا يصطدم بها • لكن كيف يدرك الأعمى

وجود هذه العقبة ؟ ان العمى أنفسهم لا يعرفون على التحديد كيف يتجنبون العقبات • وكانت هناك عدة آراء — فروض — لتفسير هذه الظاهرة ، من أشهرها أن مكفوف البصر لديهم حساسية غير عادية فى جلد الوجه وأعصابه ، وهى حساسية تساعدهم على ادراك ما يحدث من تغير فى ضغط الهواء حين يقتربون من عقبة • أى أن العمى يرون بوجوههم « هذا هو الفرض » • وقد أجريت سلسلة من تجارب بسيطة على أشخاص مكفوفين ومبصرين عصبت أعينهم فحسمت فى الأمر اذ بينت أن المبصرين معصوبى الأعين يستطيعون أيضا أن يتفادوا العقبات ولكن بدقة أقل من المكفوفين ، كما بينت أن هؤلاء وأولئك ان طليت وجوههم بطبقة من الشمع ، لم يمنعهم هذا الطلاء من تحاشى العقبات • الى هنا فندت التجربة الرأى الذى كان شائعا ، لكنها لم تبين لنا كيف يتفادى المكفوفون العقبات ؟

المعروف أن الخفاش يحدث أثناء طيرانه ذبذبات ذات تردد عال جدا ، وأن هذه الذبذبات تنعكس على ما يعترضه من عقبات — على طريقة الرادار — فتجعله يطير فى الظلام دون أن يرتطم بشىء • وقد أوحت هذه الظاهرة بأن المكفوفين قد يستعينون بالصوت المنعكس فى تجنب العقبات • وهذا فرض آخر • فأجريت عليهم تجربة أخرى سدت فيها آذانهم فاذا بهم أصبحوا عاجزين عن ادراكها قبل الاصطدام بها • ومن ثم اتضح أنهم يتجنبون العقبات على طريق السمع وليس لزيادة الحساسية فى جلد الوجه • وقد تأكد هذا مرة أخرى من ملاحظة عجز العمى الصم عن تجنب العقبات • ومن هذه التجربة أو التجارب تتضح لنا أشياء كثيرة تميز التجربة على مجرد الملاحظة منها :

مميزات التجربة :

١ — أن المجرب صمم خطة دقيقة قبل اجراء التجربة •

٢ — وأنه جعل الظاهرة تحدث فى ظروف معينة معروفة تسمح له بأن يلاحظها ملاحظة دقيقة ، كما تسمح له ولغيره أن يعيد اجراء التجربة مرة أخرى وأن يكرر ملاحظة ما يحدث •

٣ — وأنه يستطيع تغيير ظروف التجربة وملاحظة ما يصحب هذه التغيرات وما ينجم عنها • فقد وضع المجرب أنواعا مختلفة من

العقبات فى طريق الأشخاص الذين أجـرى عليهم التجـربة ولاحظ سلوكهم فى كل حالة ، وضعها فى مواضع مختلفة ، وعلى أبعاد مختلفة منهم ، وكان يسمعهم أصواتا مختلفة من مصادر مختلفة . وبعبـارة أخرى استطاع أن يتحكم فى العوامل الهامة التى تؤثر فى الظاهرة

٤ - بل لقد أتاحت التجربة قياس أثر العوامل التى تسهم فى أحداث الظاهرة ، أى تقديرها تقديرا كميا عدديا . فقد استطاع أن يقيس بالسنتيمترات المسافة بين المكفوف والعقبة قبل أن يدرك وجودهـا ، وكذلك المسافة بينه وبينها قبل أن يشعر بأنه على وشك أن يصطـدم بها ، كما استطاع أن يقيس شدة الصوت اللازمة لتجنب العقبة .

٥ - ولو اقتصر الباحث على ملاحظة المكفوفين دون اجراء هـذه التجربة ما استطاع أن يفسر **كيف** يحدث سلوكهم أو **لماذا** يحدث ؟ ذلك أن الملاحظ ينصت الى الطبيعة وهى تتحدث عن نفسها ويصورها كما هى عليه ، فى حين ان المجرب يتدخل ويوجه الى الطبيعة أسـئلة معينة لتجيب عليها بالايجاب أو السلب . وهناك فارق كبير بين ملاحظة البرق وهو يمرق خاطفا وبين اجراء تجربة على الشرر الكهربى يحدثه الباحث فى المعمل متى أراد ، ويكرر التجربة كلما أراد ، ويقدر مختلف الظروف اللازمة لحدوثه .

ومما يجب توكيده أن التجارب تجرى لاختبار صحة الفروض لا لدعمها وتأييدها .

تجربة اخـرى :

نفرض أننا نريد أن نعرف أثر الضوضاء فى العمل العقلى . هـذه هى المشكلة التى تستهدف التجربة حلها ، والتى يجب أن تحدد أبعادها وألفاظها قبل صياغة الفرض الذى ترمى التجربة الى اختبار صحته . المعـروف أن الضوضاء اشكال وأنـواع ، فهناك الضوضاء المتصلة والضوضاء المتقطعة ، الضوضاء المألوفة وغير المألوفة ، الضوضاء العالية وغير العالية .. كذلك العمل العقلى قد يكون بسيطا كالقيام بعمليات جمع وطرح أو صعبا كمذاكرة موضوع فى الفلسفة أو الرياضيات . هنا يتسع المجال لأكثـر من فرض . ولنفرض أننا اخترنا الفـرض الآتى : الضوضاء العالية المتصـلة تؤثر تأثيرا سـيئا فى الأعمـال العقلية الصعبة ..

لكننا نعرف أن العمل العقلي ، أيا كان نوعه ، يتأثر بعوامل أخرى كثيرة ، خارجية وشخصية . فمن العوامل الخارجية درجة الحرارة وشدة الاضاءة والتهوية ومعدل الرطوبة ، كما يتأثر بعوامل شخصية نفسية وجسمية كسن الفرد وخبرته وذكائه واستعداده وصحته وهل هو متعب أو مستريح ، جائع أو منفعل أو غير مهتم .. فلكي ندرس أثر عامل واحد من هذه العوامل وهو الضوضاء العالية الموصولة لابد من تثبيت جميع العوامل الاخرى — الخارجية والشخصية . وهنا نستطيع أن نجري التجربة باحدى طريقتين : فاما أن نوازن بين الانتاج العقلي لمجموعة واحدة من الطلاب مثلا في جو هادىء بانتاجهم في أجواء تزداد شدة الضوضاء المتصلة فيها تدريجا، بشرط أن تكون الظروف الخارجيه واحدة في الحالتين . الطريقة الثانية هي أن نستعين بمجموعتين من الطلاب تتشابهان على قدر الامكان من حيث السن والجنس والصحة والذكاء والمستوى الثقافي .. ونسوي بينهما كذلك في الظروف الخارجية للعمل ، ثم نقارن بين انتاج المجموعة الأولى وهي تعمل في جو هادىء بانتاج المجموعة الثانية وهي تعمل في أجواء تزداد فيها شدة الضوضاء تدريجاً . وغني عن البيان أن العمل العقلي الذي يقوم به الطلاب في الحالتين لابد أن يكون متساويا في الصعوبة والنوع ، وأن تكون طريقة تقديره ثابتة كذلك .

ويطلق على الظاهرة أي السلوك الذي يراد دراسته وقياسه أسم المتغير التابع أي الذي يتوقف حدوثه على عوامل وظروف أخرى . فالعمل العقلي وسلوك المكفوفين في التجربتين السابقتين مثالان للمتغيرات التابعة ، كما تسمى العوامل والظروف التي تعتبر مسئولة عن وقوع الظاهرة المتغيرات التجريبية أو المستقلة ، وهي العوامل التي يتناولها المجرب بالتثبيت والعزل والتغيير[1] .

ضبط العوامل :

وهكذا نرى مرة أخرى كيف تعيننا التجربة على التحكم في ظروف يصعب أو يتعذر السيطرة عليها في الأحوال العادية . الواقع أن جوهر التجربة وأساسها النظري هو ضبط العوامل الهامة التي تؤثر في

---

(1) استعاض العلم الحديث عن مفهوم « السبب » بمفهوم « المتغير المستقل » . وعند مفهوم « النتيجة » بمفهوم « المتغير التابع »

الظاهرة . ويقصد بالضبط تثبيت هذه العوامل جميعا ماعدا العامل الذى يراد معرفة أثره . وتغيير هذا العامل من حيث مقداره أو نوعه • وبهذا يتسنى لنا تحديد العلاقة بين الضوضاء والعمل العقلى وصوغ هذه العلاقة فى صورة مبدأ عام أو قانون • مثل ذلك كمثل نهر النيل تغذيه روافد كثيرة ، فاذا أردنا أن نعرف أهمية رافد واحد منها فى فيضانه لزم أن نسد مصبات الروافد الأخرى ما عدا الرافد الذى نريد معرفة أثره •

وقد تسفر التجربة أحيانا عن أن هذا العامل الذى ندرس أثـــره لا صلة له بالظاهرة • فان كانت له صلة بها ، تمضى التجربة لتبيان مدى أثر هذا العامل فى الظاهرة ، أى لقياســـه • فالقيـــاس شرط ضرورى لتقـــدم العلم •

المجموعة التجريبية والضابطة :

لا يكفى فى كثير من الاحيان اجراء التجربة على مجموعة واحدة من الافراد بل يتعين استخدام مجموعتين احداهما « المجموعة التجريبية » وهى التى تعرض لتأثير العامل الذى يراد معرفة أثره • أما الثانيـــة فتسمى « المجموعة الضابطة » وهى مجموعة تتكافأ على قدر الامكان مع المجموعة التجـــريبية فى جميع العوامل ما عدا للعامل الذى يـــراد معرفة أثره • ويكون هذا حين تتدخل عوامل عارضة تفسد القياس ان تكررت التجربة على مجموعة واحدة ، أو حين لا يمكن مقارنة سلوك نفس الافراد فى مواقف مختلفة ، كما سيتضح من الأمثلة الآتية :

١ — لوحظ ان الاطفال يتذكرون جيدا فى الصباح ما يروى لهم من قصص قبيل النوم ، على حين لا يتذكرون تفاصيل ما يروى لهم من قصص أثناء النهار • فطرأت لبعض الباحثين الفكرة التالية ، وهى أن النوم ، أو الراحة والاسترخاء بوجه عام عقب سماع قصة أو مذاكرة درس من شأنه تثبيت المعلومات والذكريات فى الذهن ، فى حين أن الحفظ أو المذاكرة أو سماع قصة لا تعقبه فترة راحة بل تعقبه أوجه أخرى من النشاط يؤدى الى اضعاف ما حفظه الفرد أو ذاكره أو سمعه • ولاختبار صحة هذا الفرض جىء بمجموعة كبيرة من التلاميذ وكلفوا حفظ قائمة من عدة ألفاظ عن ظهر قلب • ثم قسمت هذه المجموعة الى فئتين كلفت الأولى استظهار قائمة أخرى من الالفاظ (المجموعة الضابطة)

على حين استراحت الفئة الثانية (المجموعة التجريبية) • وبعد أن حفظت الفئة الأولى القائمة طلب الى افراد الفئتين استرجاع ما يمكنهم استرجاعه من ألفاظ القائمة الاولى ، فوجد أن قدرة أفراد الفئة الاولى على التذكر دون قدرة افراد الفئة الثانية التى استراحت • وهكذا تحققت صحة الفرض عن طريق التجريب •

ولا يخفى أننا نستطيع أن نجرى هذه التجربة على مجموعة بعينها من التلاميذ ، غير أنه يخشى أن تكون ألفتهم بموقف التجربة عند تكرارها أو مللهم من هذا التكرار •• عوامل تفسد نتائج التجربة •

٢ ـ مثال آخر : لنفرض أننا نريد أن نعرف قيمة نوع معين من العلاج النفسى ، كالعلاج بالتنويم المغناطيسى مثلا ، فى شفاء مرض نفسى معين كالهستريا مثلا • هنا لا يكفى أن نطبق العلاج على مجموعة واحدة من المرضى ، لأن بعض المرضى قد يشفون من تلقاء أنفسهم دون خضوع للعلاج • كما أن نسبة من يشفون قد تتوقف على عوامل مختلفة منها سن المريض وجنسه وتربيته وطول اصابته بالمرض •• لذا يتعين فى هذه الحال اجراء التجربة على مجموعتين من المرضى تتكافآن على قدر الامكان فى العوامل السابقة ، تخضع احداهما للعلاج (المجموعة التجريبية) وتترك الثانية دون علاج (المجموعة الضابطة) ، فاذا ظهر أن عدد من يشفون أو يتحسنون فى المجموعة الاولى أكبر بدرجة ملحوظة منه فى المجموعة الثانية ، حق لنا أن نعزو هذا التحسن أو الشفاء الى العلاج وليس الى الشفاء التلقائى أو الى عوامل أخرى • لقد كانت الطريقة المتبعة فى الماضى هى معالجة طائفة من المرضى لمدة طويلة ثم احصاء عدد من برئوا وعدد من تحسنوا وعدد من بقوا على حالتهم بل وعدد من ساءت حالتهم بالفعل • فان كانت نسبة من برئوا وتحسنوا نسبة عالية قطعوا بجدوى هذا النوع من العلاج • غير أن أمثال هذه التجربة ليست فاصلة بأية حال ، لأن الشفاء أو التحسن قد يرجعان كما قدمنا الى العلاج ، أو يرجعان الى الشفاء التلقائى وعوامل أخرى • والمجموعة الضابطة هى الفيصل فى هذه الحال •

٣ ـ بل يتحتم علينا أحيانا أن نستخدم مجموعة ضابطة مع أكثر من مجموعة تجريبية واحدة ، كما هى الحال فى التجارب التى تجرى لاختبار القيمة العلاجية للأدوية الجديدة التى لم يسبق استعمالها • لقد

ظهرت فى السوق اقراص قيل انها تقى من نزلات البرد والزكام ، وقيل فى الدعاية لها انها جربت على عدد كبير من الناس قسموا مجموعتين تناولت الاولى هذه الاقراص وحرمت الثانية منها ، فظهر أن نسبة من أصيبوا بالبرد فى المجموعة الاولى أقل بكثير منها فى المجموعة الثانية. غير أن اجراء التجربة على هذا النحو لا يخلو من عيب • ذلك أن القيمة العلاجية للدواء قد ترجع الى خصائصه الطبية كما قد ترجع الى عوامل نفسية كالايحاء أو توقع الشفاء • وبما أننا نريد أن نعرف التأثير الطبى لا النفسى للدواء لذا يجب تثبيت أثر العوامل النفسية • ويكون ذلك باجراء التجربة على مجموعات ثلاث ، تعطى الأولى هذه الاقراص (المجموعة التجريبية الاولى) ، وتعطى الثانية أقراصا مزيفة أى تشبه الاقراص الحقيقية فى الشكل واللون والحجم والطعم غير أنها تختلف عنها فى التركيب الكيماوى اختلافا كبيرا (المجموعة التجريبية الثانية) ، أما المجموعة الثالثة فلا تعطى شيئا (المجموعة الضابطة)• وقد حدث هذا بالفعل فكانت النتيجة أن عدد من لم يصابوا بالبرد فى المجموعة الاولى كان كعددهم فى المجموعة الثانية ، وان عدد من أصيبوا بالبرد فى المجموعة الاولى كان أقل من عددهم فى المجموعة الضابطة • وهكذا بينت هذه التجربة الثانية أن تأثير الدواء نفسى أكثر منه طبيا •

٨ ــ الاحصاء فى علم النفس

أصبح الأحصاء وسيلة لابد منها لتصميم البحوث السيكولوجية ، تجريبية أم غير تجريبية ، وتفسير نتائجها • لنفرض أننا نريد أن نعرف هل هناك فرق فى القدرة اللغوية بين البنين والبنات فى مرحلة التعليم الابتدائى ؟ هنا تعترضنا عدة مشكلات منها :

١ ــ عدد الافراد الذين يجب أن يجرى عليهم البحث • هل يكفى أن تكون مجموعة الافراد (أو ما تسمى بالعينة) من كل جنس ٢٥ أو ٣٠ أو ٥٠ مثلا ! لا يخفى أنه من المتعذر أو من المحال اجراء البحث على جميع البنين والبنات فى هذه المرحلة ، فلابد اذن أن تأخذ عينة تمثل هذه الأعداد الضخمة من البنين والبنات تمثيلا صادقا دقيقا ، فيكون مثلنا كمثل الكيميائى الذى يكتفى بأخذ بضع سنتيمترات من دم المريض لتحليلها بدل أن يسحب كل دمه •• لذا يجب ألا تكون العينة فى بحثنا هذا مختارة من مدارس نموذجية أو من مدارس فى الريف فقط أو من مدارس فى

أوساط اجتماعية واقتصادية ممتازة .. وبعبارة أخرى يجب ألا تكون العينة « متحيزة » . هنا يساعدنا الاحصاء على اختيار العينة المناسبة من حيث نوعها وعددها بحيث نستطيع أن نستنتج منها ما نريد استنتاجه من كافة البنين والبنات .

٢ ـ ولقياس القدرة اللغوية لابد لنا من اختبار أو عدة اختبارات سيكولوجية . فهل هذه الاختبارات مناسبة وثابتة وصادقة ؟ نحن نريد أن تكون هذه الاختبارات مقاييس موضوعية ثابتة ، كالمسطرة والترمومتر ، للقدرة التي نريد قياسها ، اختبارات لا تتغير نتائجها تغيرا ملحوظا متى أعيد اجراؤها على نفس الافراد . وهذا هو المقصود بالاختبار الثابت . هذا فضلا عن أن تكون اختبارات صادقة أى تقيس بالفعل القدرة التي نريد قياسها ـ وهي القدرة اللغوية ـ لا قدرة أخرى غيرها .. وفي الاحصاء طرق عدة نستوثق بها من ثبات الاختبارات وصدقها .

٣ ـ ولنفرض أننا بعد اجراء هذه الاختبارات وجدنا أن متوسط درجات البنين ٣٠ والبنات ٥٠ فهل يجوز لنا أن نقرر أن البنات يتفوقن على البنين في القدرة اللغوية ؟ لا يجوز لنا ذلك لان هذا الفرق قد يرجع الى ظروف البحث أو أخطاء القياس أو طريقة اختيار العينة أو الى المصادفة البحتة .. ولا يرجع بالفعل الى طبيعة المجموعتين بحيث اننا لو كررنا البحث على عينات أخرى اختفى هذا الفرق . هنا يتدخل الاحصاء ليبين لنا ما اذا كان هذا الفرق بين متوسطي المجموعتين فرقا جوهريا أم يرجع الى المصادفة وأخطاء القياس مثلا .

٤ ـ ويفيدنا الاحصاء أيضا في عرض البيانات والنتائج على صورة جداول أو رسوم بيانية تسمح بادراك ما بين أجزائها من علاقات ، وقراءة ما تنطوي عليه من معان ، ومقارنتها بنتائج الدراسات الاخرى .

أسئلة وتمارين

١ — يبدو التكيف للبيئة بشكل واضح حين تعترض الفرد مشكلة . اضرب أمثلة توضح هذه العبارة .

٢ — ليس البيت الواحد بيئة سيكولوجية واحدة لجميع من به من الأطفال — اشرح هذه العبارة .

٣ — بين كيف تستطيع أن تقوم ببحث عن تطور الميول عند المراهقين .

٤ — صمم بحثا تجريبيا يبين صلة التحصيل الدراسي بالذكاء .

٥ — حين تستشير طبيبا فانك تقدم له معلومات استبطانية وأخرى موضوعية عن حالتك — اضرب أمثلة لكل نوع .

٦ — أراد طالب أن يعرف هل الأفضل أن يذاكر فى الصباح أو فى المساء ، فأخذ يذاكر الرياضيات فى الصباح واللغة الانجليزية فى المساء . فوجد أن درجاته فى اللغة قد تحسنت . فاستنتج أنه من الأفضل أن يذاكر فى المساء . ماوجه الخطأ فى هذه التجربة ؟ .

٧ — التجربة دون فرض عمياء ، والفرض دون تجربة فرض أعرج — اشرح المقصود من ذلك .

٨ — اضرب أمثلة لأنواع من السلوك استطعت أن تتنبأ بحدوثها ، وما هى الأسس التى أقمت تنبؤك عليها ؟

٩ — قال أحد علماء النفس الأمريكيين : « بدأ علم النفس بدراسة الروح لكن زهقت روحه ، ثم أصبح علم العقل لكن ذهب عقله ، ثم أصبح علم الشعور وأخشى أن يفقد شعوره » — ماذا كان يقصد بهذه العبارة ؟

١٠ — يرى البعض أن اختلاف المدارس يؤدى الى تقدم العلم ، ويرى آخرون عكس هذا الرأى — فما رأيك أنت فيما يتعلق بعلم النفس .

الباب الثانى

دوافـــع الســلوك

تمهيـــد وتعـــريف

الفصل الأول . الدوافع الفطـرية

الفصل الثانى : الدوافع الاجتماعية

الفصل الثالث : الدوافع اللاشعورية

الفصل الرابع : الانفعـــالات

دوافع السلوك

تمهيد وتعريف

الدافع هو كل ما يدفع الى السلوك ، ذهنيا كان هذا السلوك أم حركيا . لذا كان موضوع الدوافع يتصل بجميع الموضوعات التى يدرسها علم النفس،اذ لاسلوك بدون دافع،فهو وثيق الصلة بعمليات الانتباه والادراك والتذكر والتخيل والتفكير والابتكار والتعلم ... كما أنه يمس موضوعات الارادة والضمير وتكوين الشخصية بطريقة مباشرة . ولئن أحبطت دوافع الفرد أى حيل بينها وبين التعبير عن نفسها بصورة موصولة اهتزت صحته النفسية أو اضطربت .

أما من الناحية العملية فموضوع الدوافع من أكثر موضوعات علم النفس أهمية واثارة لاهتمام الناس جميعا . فهو يهم الأب الذى يريد أن يعرف لماذا يميل طفله الى الانطواء على نفسه والعزوف عن اللعب مع أقرانه ، أو لماذا يكون طيعا ممتثلا فى المدرسة ، ومشاكسا معتديا فى البيت ، أو لماذا يسرف فى الكذب أو قضم أظفاره . كما يهم المدرس الذى يعمل على معرفة دوافع تلاميذه وميولهم ليتسنى له أن يستغلها فيحفزهم على التعلم . وهو يهم الطبيب اذ يريد أن يعرف سبب التشكى للوصول لمريض يدل فحصه على خلوه من أسباب المرض الجسمى ، أو لماذا يهمل بعض المرضى اتباع نصائحه وارشاداته ، أو يسيرون على عكس ما يشير به ؟ فان كان معالجا نفسيا تطلع الى معرفة الدوافع التى تكمن وراء هذيان المجنون أو أوهام المخبول أو التردد الشاذ عند المصاب بالوسواس؟ ورجل القانون يهمه أن يعرف الدوافع التى تفسر بعض المجرمين على معاودة ارتكاب الجريمة بالرغم مما يوقع عليهم من عقاب أليم؟وصاحب العمل يهمه أن يعرف ما يدفع العمال الى التمرد بالرغم من كفاية الأجور واعتدال ساعات العمل ؟ .

ودوافع الانسان لا عد لها ولا حصر : الجوع والعطش ، الخوف والغضب ، الحب والكره . الحاجة الى الأمن والحاجة الى التقدير الاجتماعى والرغبة فى الظهور أو فى التعبير عن الذات وما يتفرع على

هذه الحاجات والرغبات من حاجات فرعية ومطالب لاعداد لها، كالحاجة الى تعلم لغة أجنبية ، أو شراء سيارة أو قراءة جرائد معينة ، أو اختيار ملابس معينة .. هذا الى عواطف وميول شتى كعاطفة الولاء للاسرة أو للوطن أو لصديق أو لمبدأ ، وكالميل الى الرحلات أو جمع طوابع البريد أو النشاط الرياضي .. يضاف الى هذا أهداف الانسان ومستوى طموحه وفلسفته فى الحياة وضميره ، وهى من الدوافع القوية . ومن الدوافع الانسانية الهامة أيضا الشعور بالنقص والشعور بالذنب والشعور بالقلق وما يحمله الفرد من عقد نفسية مختلفة .

من هذه الدوافع ما هو فطرى أولى ينتقل الى الفرد عن طريق الوراثة البيولوجية فلا يحتاج الفرد الى تعلمه واكتسابه كدوافع الجوع والعطش والنوم والجنس والاستطلاع . ومنها ما هو مكتسب ثانوى أى يكتسبه الفرد نتيجة لخبراته اليومية أثناء تفاعله مع بيئته خاصة البيئة الاجتماعية كالشعور بالواجب أو عاطفة احترام الذات أو عادة التدخين أو انفعال الخجل .

ومن الدوافع ما هو شعورى أى يفطن الفرد الى وجوده كرغبتك فى السفر الى بلد معين أو ميلك الى الاستماع للموسيقى .. ومنها ما هو لا شعورى لا يفطن الفرد الى وجوده كالدافع الذى يحمل الانسان على نسيان موعد هام أو على تفضيل السمراوات لا الشقروات من النساء أو الدافع الذى يقسر المريض بالوسواس على الاسراف فى غسل يديه .

ولنذكر أخيرا أن الانفعالات كالخوف والقلق والغضب والفرح والحزن من الدوافع القوية التى تحرك سلوك الناس ، والتى سنتناولها بالتفصيل فى الفصل الرابع من هذا الباب .

تعريف الدافع Motive

للدافع تعاريف كثيرة منها أنه حالة داخلية ، جسمية أو نفسية، تثير السلوك فى ظروف معينة ، وتواصله حتى ينتهى الى غاية معينة . فالكلب الجائع يضرب فى الارض متجها ذات اليمين وذات الشمال ، مندفعا الى هنا والى هناك أو مرتدا يتلمس الطعام ويتحسسه، ولاينتهى سلوكه حتى يقع على طعام أو يصيبه الكلال والاعياء . والشخص الذى يؤلمه ضرسه لا يكف عن البحث عن مسكن يتخفف به من الالم . والطالب

يدأب ويسهر الليالى ويحاول بعد اخفاق بدافع الرغبة فى النجاح أو التفوق أو الظفر بمركز اجتماعى لائق أو بهذه الدوافع جميعا . والعالم لا يبرح يبحث وينقب ويقرأ ويستشير حتى يبلغ غايته ويرضى دافع الاستطلاع عنده . والطفل ان لم يجد لعبته فى مكانها ظل فى حالة من التوتر والضيق وأخذ يلتمسها فى جميع مظانها ، ويسأل أو يصرخ أو يبكى . ولا تهدأ ثائرته حتى يعثر عليها أو يشغله شاغل عنها.وقل مثل ذلك فى الشخص الغاضب المتأزم المكظوم فانه لايزال يتربص بمن آذاه . ويتحين له الفرص ، ويأخذ عليه كل السبل وهو فى حالة من التوتر والضيق لا تخف أو تزول حتى ينال منه ..

لذا يعرف الدافع أحيانا بأنه حالة من التوتر تثير السلوك وتواصله حتى يخف هذا التوتر أو يزول فيستعيد الفرد توازنه . كأن الدافع اضطراب يخل توازن الفرد فيسعى الفرد الى استعادة توازنه . وكأن غاية السلوك هى ارضاء الدافع بازالة التوتر واستعادة التوازن . ويتضح هذا بوجه خاص فى دوافع الجوع والعطش والحاجة الى التبول والتبرز وغيرها من الحاجات الفسيولوجية ، كما يتضح فى حالة الانفعالات كالخوف أو الغضب التى يبدو فيها التوتر الجسمى النفسى بشكل واضح . على هذا النحو تخضع الدوافع والسلوك الصادر عنها لمبدأ يسمى مبدأ « استعادة التوازن » homeostasis سنتناوله بالتفصيل بعد قليل .

والدوافع حالات أو استعدادات لا نلاحظها مباشرة بل نستنتجها من الاتجاه العام للسلوك الصادر عنها ، مثلنا فى ذلك كمثل عالم الفيزيقا لا يلاحظ « الجاذبية » مباشرة بل يلاحظ ظواهر مختلفة تشترك كلها فى صفة واحدة هى النزعة الى التحرك نحو مركز الارض . فان كان السلوك متجها الى الطعام استنتجنا دافع الجوع ، وان كان متجها نحو الشراب استنتجنا دافع العطش ، وان كان متجها نحو الاجتماع بالناس استنتجنا الدافع الاجتماعى .

والدافع اصطلاح عام شامل تحتوى اللغة على ألفاظ كثيرة تحمل معناه الاجمالى ، لكن علم النفس يحاول التمييز بين بعضها وبعض ، منها : الحاجة ، الحافز ، الباعث ، الميل ، النزعة ، الرغبة ، العاطفة،الاتجاه، الغرض ، القصد ، الارادة ..

الدافع حافز وغاية

الدافع قوة محركة موجهة فى آن واحد • فهو يثير السلوك الى غاية أو هدف يرضيه • ولئن أثير الدافع وأعيق عن بلوغ هدفه ظل الفرد فى حالة من التوتر كأنه زنبرك مشدود • وبعبارة أخرى فالدافع استعداد ذو وجهين ، وجه داخلى محرك ، ووجه خارجى هو الغاية أو الهدف الذى يتجه اليه السلوك الصادر عن الدافع كالاكل والشرب أو الظفر بمركز اجتماعى مرموق •

ويسمى الوجه الداخلى للدافع **بالحافز** drive • والحافز لا يعدو أن يكون حالة من التوتر تولد نزوعا الى النشاط بحثا عما يرضى الدافع وتجعل الفرد حساسا لبعض جوانب البيئة كرائحة الطعام أو سلوك الجنس الاخر ، لكن الحافز وحده لا يوجه السلوك توجيها مناسبا ، لذا قد يكون السلوك الصادر عنه وحده سلوكا أعمى ، فى حين أن السلوك الصادر عن الدافع يكون سلوكا موجها الى هدف معين • وبعبارة أخرى فالحافز مجرد « دفعة من الداخل » فى حين أن الدافع « دفعة فى اتجاه معين » موجز القول أن الدافع هو سبب السلوك وغايته فى آن واحد •

أما **الباعث** Incentive فموقف خارجى ، مادى أو اجتماعى ، يستجيب له الدافع • فالطعام باعث يستجيب له دافع الجوع ، ووجود شخص آخر أو صرخته باعث اجتماعى يستجيب له الدافع الاجتماعى أو عاطفة الشفقة ، كذلك وجود جائزة أو مكافأة من البواعث التى تستجيب لها فى مختلف الناس دوافع مختلفة • فالدافع قوة داخل الفرد ، والباعث قوة خارجه • والبواعث ايجابية أو سلبية•فالايجابيةماتجذب الفرد اليها كأنواع الثواب المختلفة ، والسلبية ما تحمل الفرد على تجنبها والابتعاد عنها كضروب الاستهجان أو العقاب التى تمثلها القوانين الرادعة والزواجر الاجتماعية •

ويطلق اصطلاح **الحاجة** need بمعناها الواسع على كل حالة من النقص والافتقار أو الاضطراب ، الجسمى أو النفسى ، ان لم تلق اشباعا أثارت لدى الفرد نوعا من التوتر والضيق لا يلبث أن يزول متى قضيت الحاجة أى متى زال النقص أو الاضطراب واستعاد الفرد توازنه • فالفرد يكون فى حاجة الى الطعام متى أعوز جسمه الطعام ، وفى حاجة الى الأمن متى احتواه الخوف وافتقر الى الأمن •• ومما يذكر أن الفرد

قد يكون مفتقرا الى الطعام دون أن يشعر بذلك لانهماكه فى عمل مثلا . أو يشعر بالرغبة فى الطعام دون أن يكون جسمه فى حاجة اليه .

أما **الرغبة** desire فهى الشعور بالميل نحو أشخاص أو أشياء معينة كرغبة الطفل فى تقبيل أمه ، ورغبة الطالب فى اتقان نظرية النسبية ، ورغبتك فى السفر الى مكان معين أو تناول حساء الخرشوف .. فالرغبة لا تنشأ من حالة نقص أو اضطراب كما هى الحال فى الحاجة ، بل تنشأ من تفكير الفرد فيها أو تذكره أياها أو ادراكه الاشياء المرغوبة.وبعبارة أخرى فالحاجة تستهدف تجنب ألم فى حين أن الرغبة تستهدف التماس لذة . وقد يكون الانسان فى حاجة الى شىء لكنه لا يرغب فيه كأن يكون فى حاجة الى تعاطى أدوية معينة لا يسيغها ، أو يرغب فى شىء لا يكون فى حاجة اليه فقد يرغب فى تناول الحلوى وهو فى غير حاجة اليها بل قد تكون ضارة بصحته .

وأقوى من الرغبة « الشوق » و « التوق » ، وأقوى من هذين « الكلف » craving وهو الاغرام والحب الشديد . أما « الولع » passion فهو رغبة تضخمت تضخما شديدا أو خبيثا بحيث برزت على غيرها من الرغبات وطبعت شخصية الفرد بطابعها كالولع بالطعام أو بالمشروبات أو بلعب الشطرنج وكالولع الدينى أو السياسى وكالحب الشديد والبخل الشديد .

وغاية كل سلوك end أو **هدفه** goal هو النهاية التى يقف عندها السلوك المتواصل ، هو ما يشبع الدافع واليه يتجه السلوك ويكون فى العادة شيئا خارجيا . أما **الغرض** purpose فهو ما يتصوره الفرد فى ذهنه من غايات يقصد الى بلوغها أو يعزم على تجنبها . والغرض دافع شعورى يثير السلوك ويوجهه ويملى على الانسان الوسائل الملائمة لتحقيقه .

ولقد ذكرنا من قبل أن كل سلوك يرمى الى بلوغ غاية حتى ان لم يكن الفرد شاعرا بهذه الغاية فما معنى القول بأن الفرد يقوم بسلوك لا يتصور غايته من قبل ؟ كأن يقوم الطائر بجمع القش اللازم لبناء عشه ، أو يقوم المصاب بالوسواس بغسل يديه ، كلما فتح بابا أو لمس كتابا أو صافح شخصا . معناه أن هذا السلوك هو الطريقة الوحيدة التى يزول بها التوتر الذى خلقه الدافع ، فالفرد يحاول طريقة بعد أخرى حتى يقع على واحدة تخفف من حدة التوتر عنده .

الانتحاءات والافعال المنعكسة

السلوك الصادر عن الدافع نشاط تلقائي ينبعث من عوامل داخلية ، فالكلب يقوم من تلقاء نفسه بحثا عن الطعام ان عضه الجوع ، وهذا على عكس حركة الجمادات ، فالكرة أو الحجر لا يتحرك الا بفعل محرك خارجي كقذفة من يد أو صدمة بشيء آخر ، لذا يجب أن نخرج من نطاق السلوك الصادر عن الدوافع « الانتحاءات » tropisms وهى أفعال آلية جبرية تلاحظ عند الحيوانات الدنيا استجابة لمنبهات خارجية كاندفاع الفراشة نحو الضوء وهرب الصراصير الى الاماكن المظلمة • كذلك يجب أن نخرج من نطاقه « الأفعال المنعكسة » reflexes • والفعل المنعكس حركة جبرية بسيطة غير مكتسبة تحدث من الفرد وليس لارادته دخل فى احداثها أو منعها ، ولا يقتضى حدوثها شعور الفرد بها عادة ، كضيق حدقة العين ان سلط عليها ضوء ، وكزرقة الجلد متى اشتدت برودة الجو ، وكالسعال والعطاس وافراز اللعاب عند الاكل ، وكحركة القلب والامعاء •• ذلك انها كذلك استجابات جزئية لمثيرات خارجية •• فالانتحاءات والافعال المنعكسة أفعال مفروضة على الكائن الحى من الخارج كأنها حركات دمية مشدودة الى خيوط •

الفصل الأول

الدوافع الفطرية

١ ـ تمهيد وتصنيف

قدمنا ان الدافع الفطرى أو الاولى هو الدافع الذى يولد الفرد مزودا به عن طريق الوراثة البيولوجية فلايحتاج الى تعلمه واكتسابه، وذلك فى مقابل الدافع المكتسب أو الثانوى الذى يكتسبه الانسان نتيجة خبراته اليومية فى أثناء تفاعله مع البيئة الاجتماعية .

ويشترك الانسان مع الحيوان فى عدة دوافع فطرية تسمى بالدوافع أو الحاجات الفسيولوجية لان مثيراتها عصبية أو غدية أو كيماوية ، وهى تتصل بصورة مباشرة أو غير مباشرة ببقاء الفرد أو بقاء نوعه .. فالطفل عند ميلاده ، ولفترة بعد ذلك ، لا تحركه الا حاجات فسيولوجية ، فهو ينام أغلب الوقت ثم يستيقظ ويطلب الرضاعة ان كان جائعا ، كما أنه يبدى استياء ان تعرض لمثيرات مؤلمة أو مزعجة كالحرارة الشديدة أو الضوء الساطع ، ويأخذ فى اخلاء مثانته أو أمعائه حين تتراكم فيها الفضول .. هذه الدوافع تظل ملازمة له طول حياته ، لكن طرق ارضائها تتحور وتتعدل الى حد كبير كلما تقدم فى العمر ، وهذا على خلاف الحيوان الذى يرضيها بمجرد أن تنشط . ويمكن تصنيف هذه الدوافع على النحو الاتى :

١ ــ حاجات تكفل المحافظة على بقاء الفرد : الحاجة الى الطعام ، الحاجة الى الماء ، الحاجة الى الاكسجين ، الحاجة الى التبول والتبرز ، الحاجة الى الاحتفاظ بدرجة حرارة جسمية ثابتة ، الحاجة الى الراحة والنوم ، الحاجة الى وقاية الجسم من أخطار البيئة المادية كالحرارة أو البرودة ، والاضواء الشديدة ، والطعوم النفاذة ، والالم الجسمى بوجه عام .

٢ ــ حاجات تكفل المحافظة على بقاء النوع وهى الحاجة الجنسية أو الدافع الجنسى ، ودافع الامومة .

٣ ــ الحاجة الى التنبيه الحسى الخارجي •

٤ ــ الحاجة الى استطلاع البيئة ومعالجتها •

وهاتان الحاجتان الاخيرتان فطريتان لكنهما أقل ارتباطا بالمحافظة على بقاء الفرد أو نوعه • ولكي نعرف كيف تنشأ هذه الحاجات وكيف ترضى ، نتحدث فيما يلى عن مبدأ أشرنا اليه من قبل وهو مبدأ استعادة التوازن •

٢ ــ مبدأ استعادة التوازن Homeostasis

من المبادىء المقررة فى علم الفسيولوجيا أن كل كائن حى يميل الى الاحتفاظ بتوازنه الداخلى ، الفيزيقى الكيميائى ، من تلقاء نفسه ، فان حدث ما يخل هذا التوازن قام الجسم من تلقاء نفسه وبطريقة آلية بالعمليات اللازمة لاستعادة توازنه • من ذلك أن الجسم ان اقتحمه عنصر غريب أو ضار قام بالدفاع عن نفسه حتى يسترد توازنه ، وان ارتفعت درجة حرارة الجسم زاد افراز العرق ، وان زاد مقدار غاز ثانى أكسيد الكربون فى الدم زادت سرعة التنفس للتخلص من هذا الغاز الضار •• ومما يذكر بهذا الصدد أن بعض هنود أمريكا الذين يعيشون فى أعالى الجبال ، على ارتفاع ٤ كم ، تتضخم صدورهم وتبرز لتسمح لهم باستيعاب كمية أكبر من الاكسجين تعينهم على أداء أعمالهم الشاقة فى هذه المرتفعات التى يشح فيها الهواء••غير أن الفرد كثيرا مايتدخل ليساعد على استعادة توازنه المختل ، فان ارتفعت درجة حرارة جسمه ، أخذ يعب الماء لزيادة افراز العرق ، أو تخفف من ملابسه ، أو التمس مكانا ظليلا ، أو ابطأ من سرعة نشاطه • وكلنا يعرف كلف الاطفال بأكل السكريات فنموهم يحتاج اليها، وكذلك شره سكان المناطق الباردة الى الدهنيات ، ونهم من يحرمون من اللحوم الى الزلاليات ، واعراض المريض بكبده عن أكل المواد الدهنية بل نفوره من رؤيتها •• أى أن اختلال التوازن الداخلى يؤثر أيضا فى سلوك الفرد الخارجى •• فان لم يفلح الكائن الحى فى اصلاح ما اعتراه من اضطراب أو التعويض عما أصابه من نقص ، أى ان فشل فى استعادة توازنه العضوى مرض أو هلك • فان عطش الفرد أى كان جسمه فى « حاجة » الى الماء أثارت هذه الحاجة توترا يحمله على أن يقوم بالسلوك المناسب لارضائها وازالة ما يعانيه من توتر • ويتضح من هذا أن السلوك أثاره اختلال فى التوازن الفسيولوجى ، وأنه يستهدف استعادة هذا التوازن المختل •

ونشير بهذا الصدد الى أن كثيرا من العلماء يرون أن مبدأ استعادة التوازن لا يقتصر فقط على تفسير السلوك الصادر عن دوافع وحاجات فسيولوجية ، بل يصدق أيضا على تفسير السلوك الصادر عن دوافع وحاجات نفسية اجتماعية • فاذا عزم الانسان على القاء خطاب هام فى صندوق البريد ظل فى حالة من التوتر حتى يلقيه فيهدأ ، وان واجهته مشكلة ظل فى حالة من التوتر والضيق حتى تحل ، وان أهانه أحد لم تهدأ ثائرته حتى يرد على هـذه الاهانة •• كذلك الشخص الذى يشعـر بالوحشة فان التوتر الناشىء عن احباط دافعه الاجتماعى يدفعه الى التماس صحبة صديق ، والذى يعانى شعورا بالنقص يلجأ الى التباهى والتفاخر تعويضا عن نقصه ، والشخص المخطىء أو المنحرف يلجأ الى تبرير سلوكه الخاطىء بانتحال أسباب مقبولة حفاظا على احترامه لنفسه أى ابقاء على توازنه النفسى ، والطفل المحروم أو المضطهد أو المنبوذ يندفع الى اللعب بطريقة خاصة تخفف عنه ما يكابده من قلق وتوتر • فالطفل الذى يكره أباه أو أخاه قد يختار من لعبه دمية فيفقأ عينهـا أو يلقيها على الارض أو يحطمها أو يدفنها فى التراب أو يغرقها فى الماء •• فوظيفة السلوك وغايته أيا كان نوع الدافع اليه — الجوع أو العطش ، الخوف أو الغضب ، الشعور بالنقص أو الشعور بالذنب ، عاطفة احترام الذات أو عاطفة الولاء للوطن — هى الاحتفاظ بتوازن الفرد ، أو استعادة هذا التوازن حين يختل بالعمل على ازالة التوترات أو خفضها • وبعبارة موجزة فمبدأ استعادة التوازن يعمل على المستوى النفسى الاجتماعى كما يعمل على المستوى الفسيولوجى •

وسنحاول فيما يلى الحديث عن أهم الحاجات الفسيولوجية فيما أشرنا اليه •

٣ — الجـوع والعطش

الحاجة الى الطعام : اذا حرم الانسان من الطعام مدة طويلة شعر بألم الجوع مصحوبا بتقلصات عضلية فى جدران المعدة • وقـد ثبت بالتجربة أن كلا من ألم الجوع وتقلصات المعدة يتوقف على كيميـاء الدم • وهناك أدلة كثيرة على ذلك • فاستئصال المعـدة عنـد بعض

الأشخاص لا يمنع من شعورهم بتوترات الجوع • كما أن حقن المريض بالبول السكرى بالانسولين ، وانخفاض مستوى السكر فى دمه تبعا لذلك ، يثير فيه ألم الجوع وتقلصات المعدة • ولو حقنا كلبا عاديا بدم كلب يكاد يموت جوعا ظهرت لدى الكلب المحقون تقلصات المعدة • فاذا حقناه بعد ذلك بدم حيوان شبعان اختفت هذه التقلصات •

الجوع النوعى : تحتاج الكائنات الحية الى البروتينات والدهنيات والنشويات كما تحتاج الى معادن وفيتامينات مختلفة • فان نقصت هذه المواد أثار هذا النقص شهية الفرد لتناولها • من ذلك أن أقزام أفريقيا مولعون بأكل الملح الذى لا يوجد فى بيئتهم ، وان المرضى بالبول السكرى مولعون بأكل السكريات ، والمعروف أن أجسامهم لا تستخدم النشويات استخداما كافيا ، ثم ان الفأرة الحبلى ان قدمنا لها أطعمة مختلفة وتركنا لها حرية اختيار الطعام أكلت من الاطعمة المشبعة بالملح ثلاثة أضعاف ما تأكل فى العادة ، كما لوحظ أن الحيوانات التى تعيش طليقة فى الطبيعة تختار الطعام الذى يناسب حاجاتها الجسمية • وقد أوحى ذلك بأن لجسم الكائن الحى من « الحكمة » فى اختيار الاطعمة ما يغنيه عن وصايا خبراء التغذية • كما أوحى بتجارب معملية أجريت على الفيران والابقار وفراخ الطير واطفال فى سن الحضانة فجاءت كلها تؤيد هذا الفرض • من ذلك تجربة أجريت على ١٥ طفلا ، ابتداء من سن الفطام ، ولمدة تتراوح بين ستة أشهر وأربع سنوات ونصف ، وتتلخص التجربة فى أن توضع أمام الطفل عدة أطباق وأكواب صغيرة ، ويترك الطفل يختار منها ما يريد • فان مد الطفل يده الى طعام معين أخذ المجرب من هذا الطعام ملء ملعقة وقربها من فم الطفل ، فان رفض الطفل فتح فمه استبدل المجرب بهذا الطعام طعاما آخر ، كل ذلك دون اغراء أو ايحاء من المجرب • فكانت نتيجة هذا الاختيار الحر للطعام أن ازدهر نمو الاطفال بل كان أفضل من معدل نمو أطفال فى نفس أعمارهم ، ولم تلاحظ عليهم آثار صحية سيئة من أى نوع ، ولم تختلف الاطعمة التى كانوا يختارونها اختلافا كبيرا عن الاطعمة التى يوصى بها خبراء التغذية •

كذلك أيدت تجارب عدة أن الحيوانات ان أتيح لها أن تختار من

عدة اطعمة تقدم اليها فانها تختار الطعام الذى تحتاج أجسامها اليه • من ذلك أن الفئران التى تفضل فى العادة أكل السكريات على الدهنيات، ان حرمت من أكل الدهنيات مدة طويلة ثم قدمت اليها أطعمة مختلفة، فانها تختار منها الدهنيات لا السكريات • كذلك الحال ان حرمت من أكل أطعمة تحتوى على فيتامين ب (رقم ١) •

لكن كيف يتسنى للحيوان أن يختار الطعام المناسب له ؟ يرى بعض الباحثين أنه يختار عن طريق « المحاولات والاخطاء » فيبدأ فى الاختيار بطريقة عشوائية ، ثم لا يلبث أن يتعلم عن طريق النظر أو الشـــم أو الذوق أو اللمس أن بعض المواد ترضى حاجته دون مواد أخرى فاذا به يختارها حين يحتاج اليها • واعترض آخرون على هذا التفسير بأن ارضاء الحاجة الى الطعام أى استعادة المستوى العادى لكيمياء الدم ، يحتاج الى وقت غير قصير • وهذا يمنع الحيوان من أن يتعلم الصلة بين الطعام الذى اختاره وبين ارضاء حاجته الى الطعام • هؤلاء يرون أن حاسة **الذوق** تقوم بدور هام فى هذا الاختيـــار • وحجتهم فى ذلك تجارب بترت فيها أعصاب حاسة الذوق عند الفيران فلم تعد تستطيع أن تختار الطعام الذى تحتاج اليه • وكلنا يعرف من خبرته الخاصة أن الجوع يجعل بعض الاطعمة احلى مذاقا فى أفواهنـــا من غيرها • فنحن نميل الى الاطعمة المملحة حين تفرز أجسامنـــا كميـــة كبيرة من العرق فتفقد بذلك كمية كبيرة من الملح • وهذا الميل لا يقوم على تفكير أو تقدير أو معرفة طبية ، بل لان هذه الاطعمة نجدها أطيب مذاقا من غيرهـــا •

موجز القول ان الحاجة الى الطعام ليست دافعا واحدا بل مجموعة من دوافع نوعية تختلف باختلاف ما ينقص الجسم من مواد غذائية •

ونشير أخيرا الى أن العادة والعرف الاجتماعى ونوع الحضارة ذات أثر فى اثارة دافع الجوع وفى طريقة تناول الطعام ومقداره ومكانـــه ومواقيته • فمن الشعوب ما يشعر أفرادها بالجوع مرتين فى اليوم، ومنها ما يشعر به خمس مرات.أى أن الشعور بالجوع لا يثيره التغير فى كيمياء الدم بقدر ما تثيره عادات الجماعات • ومن الشعوب ما ينفر أفرادها من مجرد التفكير فى أكل الفيران أو الثعابين أو الجراد فى حين تقبل جماعات أخرى على هذه الاطعمة وتعتبرها غذاء زكيا • وهنـــاك جماعات تأكل باليد واخرى بالملقط وثالثة بالشوك والملاعق والسكاكين•

الحاجة الى الماء : كان يظن أن الشعور بالعطش ينشأ من جفاف الغشاء المخاطي المبطن للفم والحلق بدليل أن مجرد ترطيب الفم بالماء يخفف من حدة هذا الشعور • غير أن التجارب دلت على أن الشعور بالعطش ينشأ من نقص كمية الماء فى انسجة الجسم بوجه عام ، وهو نقص يبدو أثره فى جفاف الفم والحلق • فقد حرمت بعض الكلاب من الماء فترات تتفاوت فى الطول ، فكانت كمية الماء التى يشربها كل كلب تتناسب تناسبا طرديا مع درجة حرمانه من الماء ، أى الكمية التى يحتاج اليها جسمه • هذا التقدير الدقيق من جانب الكلب لحاجته الى الماء يصعب تفسيره بجفاف الفم والحلق وحدهما، اذ لو كان الأمر كذلك لكانت أول جرعة ترطب الفم والحلق تكف الكلب عن الشرب•وتجربة اخرى تتلخص فى ادخال كمية من الماء فى معدة انسان عن طريق انبوب ، كى لا يمر الماء فى الفم ، فكان شعوره بالعطش لا يزول الا بعد عدة دقائق • وهذا يدل على أن الماء لكى يزيل الشعور بالعطش يجب أن يغمر خلايا الجسم بدرجة تكفى لازالة جفاف الفم والحلق •

وقد اتضح ان الغدة النخامية ومنطقة الهيبوثلاموس العصبية فى المخ لهما أثر فى ضبط كمية الماء التى يشربها الفرد أى تنظيم كميتها •

٤ ــ الدافع الجنسى

من أقوى الدوافع لدى الانسان وأكبرها أثرا فى سلوكه وصحته النفسية ، غير أن تعقد الطبيعة البشرية وكثرة القيود التى تفرضها الثقافات المتمدنة على هذا الدافع وملابساته تجعل دراسته وتحليله عند الانسان أمرا عسيرا ، لذا بدأ الباحثون بدراسته فى صورته البسيطة عند الحيوان •

لقد اتضح ان نشاط هذا الدافع لدى الحيوان يتوقف على هرمونات[1] تفرزها الغدد الجنسية عند الذكور والمبيضان عند

(١) الهرمونات مواد كيماوية ذات فاعلية شديدة تفرزها الغدد الصم بمقادير طفيفة لكنها كبيرة الأثر . اما الغدد الصم او اللاقنوية فهى غدد تصب افرازاتها فى الدم مباشرة دون قنوات او منافذ ، كالغدة الدرقية والغدة النخامية ــ لذا سميت بالصم تمييزا لها عن الغدد القنوية التى تصب مفرزاتها فى احدى فتحات الجسم او على سطحه بوساطة قنوات كالغدد اللعابية والعرقية والدمعية . وقد ثبت ان للهرمونات اثرا عميقا فى النمو الجسمى والجنسى والانفعالى .

الاناث . كما اتضح أن ازالة المبيض عند اناث بعض الحيوانات يزيل الاهتمام الجنسى لديها ، لكن هذا الاهتمام يمكن أن يعود متى حقنت الانثى بخلاصة الهرمونات الجنسية . والمعروف أن اناث الحيوانات تمر بأطوار من النشاط والتحفز الجنسى تعقبها أخـرى من الفتور أو النفور الجنسى . وقد دلت الدراسات الفسيولوجية على أن الهرمون الجنسى الانثوى لا يفرز الا أثناء طور التحفز الجنسى فقط . كذلك الحال عند الانسان . فقد وجد أن ازالة المبيض لـدى الفتيات قبيل البلوغ تحول دون ظهور الصفات الجنسية الثانوية ، كما تؤدى الى تخاذل الدافع الجنسى بأسره . كذلك الحـال عند الصـبيان الذين يخصون خصاء مبكرا . ويقصد بالصفات الجنسية الثانوية صفـات تشريحية أو سلوكية موروثة لكنها ليست لازمة للتناسل كظهور شعر الوجه عند الذكور وترسب الشحم تحت الجلد عند الاناث . كما دلت البحوث على الحيوانات والملاحظـات الكلينيكية للانسـان على أن لهرمونات الغدة النخامية فى أسفل المخ وغدتى الادرنالين أثرا هامـا فى تنشيط الدافع الجنسى .

وبالرغم من تشابه الاساس الفسيولوجى للدافـع الجنسى عنـد الانسان والحيوان الا أن بينهما اختلافات هامة . فقد دلت الملاحظات العلمية على أن استئصال الغدد الجنسية الذكرية أو الانثـوية من أشخاص كبار ناضجين لا يؤثر فى نشاطهم الجنسى الا تأثيرا طفيفا . والمرجح أن استمرار النشاط الجنسى فى مثل هذه الاحوال يرجـع الى بقاء العادات والاهتمامات التى نشأت فى الأصل من تأثير الغدد الجنسية وأصبحت مستقلة عنها الآن . كذلك الحال عند النساء والرجال الذين فسدت غددهم الجنسية بتقدم السن . وفى هذا ما يدعونا الى أن نقيم للعوامل النفسية والاجتماعية وزنا فى تنشيط هذا الدافـع لدى الانسان.ومما يؤيد هذا الرأى ماهو مقرر معروف من أن التربية الجنسية غـير الرشيدة فى عهـد الطفولة كثيرا ما تؤدى الى تلاشى الرغبة الجنسية أو الى العجز الجنسى التام عند الرجال والنساء منهم فيمـابعد . وذلك بالرغم من سلامتهم من النـاحية الفسيولوجيـة . ويقصد بالتربية الجنسية غير الرشيدة فى الطفولة تلك التـربية التى تكبح الاستطلاع الجنسى للاطفال كبحا عنيفا ، والتى تعاقبهم عقـابا شديدا على كل عبث جنسى يصدر عنهم . والتى تقرن كل ما يتصـل

بالمس بالاشمئزاز والنفور والخوف والشعور بالذنب . على هذا النحو يتضح لنا أثر العوامل النفسية والاجتماعية فى اثارة الشهوة واخمادها هذا فضلا عما لها من أثر فى ضبطها وتوجيهها وفى انحرافها أيضا . فقد ظهر أن انحراف الدافع الجنسى وحيوده حيودا يستهجنه المجتمع كممارسة العادة السرية حتى بعد الزواج وكاللواط وكالتلذذ الجنسى من كشف العورة فى الأماكن العامة .. لقد ظهر أن هذه الانحرافات ما هى الا عادات واتجاهات نفسية اكتسبها الفرد نتيجة لما مر به من خبرات وصدمات نفسية جنسية فى ماضى حياته.

أما فيما يتصل بطريقة ارضاء هذا الدافع فقد اتضح أن الحيوانات حتى الثدييات الدنيا كالفيران لا تحتاج الى تعلمها . فهى تولدمزودة بالسلوك اللازم لارضاء هذا الدافع . أما الشمبانزى والانسان فلابد لكل منهما أن يتعلمها عن طريق الملاحظة ، أو عن طريق المحاولة والخطأ، أو مايقوله الناس .

ونشير آخيرا الى أن النشاط الجنسى كثيرا ما يكون مصرفا لضروب شتى من الضيق والتأزم النفسى لا يكون مصدرها جنسيا . فقد لوحظ أن أكثر الأطفال ممارسة للعادة السرية هم الأطفال المضطهدون أو المهملون أو المنبوذون أو من لا يظفرون بما يصبون اليه من تقدير فى المدرسة أو ساحة اللعب . كما لوحظ أن أكثر الشباب تورطا فى هذه العادة أكثرهم شقاء وفراغا فيحملهم الملل والسأم على ممارستها . أو يكون الشاب منطويا على نفسه لا صديق له ، أو لا ترضيه الحياة ولا يجد لذة فى العالم الخارجى فاذا به يلتمس اللذة من جسمه . بل لقد اتضح أن بعض الناس يمارسون هذه العادة حين يستبد بهم الأرق فيعجزون عن النوم ، وأن بعض الرجال ممن خاب سعيهم فى الحياة الاجتماعية أو المهنية يحاولون التعويض بالنشاط الجنسى عما يكابدونه من احباط وحرمان .. فكأن النشاط الجنسى صمام أمن ووسيلة يتخفف بها الانسان مما يعانيه من قلق وتوتر وسخط وملل أيا كان مصدرها .

٥ ـ دافع الأمومة

ان حماية الصغار والالتصاق بها واطعامها وسرعة العودة اليها عند فراقها ظواهر مشاهدة عند أنواع كثيرة من الحيوانات . وعند بعض الاسماك يقوم أحد الوالدين بهذه الوظيفة . أما عند الطيور فغالبا ما يتعاون الوالدان كلاهما عليها ، في حين تقع هذه المهمة على عاتق الأم دائما عند الثدييات .

لقد لوحظ أن الفأرة غير الحبلى لا تهتم بصغار الفيران بل قد تتخذ منها موقفا عدائيا ، أما الحبلى فتبدأ في الاهتمام بها ، أن لقيت واحدا منها حملته من عنقه من مكان الى آخر . وقد دلت التجارب المعملية على أن نشاط دافع الامومة عند الحيوانات له أساس فسيولوجي هو هرمون البرولاكتين **Prolactin** الذي يفرزه الفص الأمامي للغدة النخامية . فاذا حقنت فأرة غير حبلي بهذا الهرمون مالت الى احتضان صغار غيرها ، وشرعت في بناء عش لها كما لو كانت أما . ولو حقنت دجاجة بهذا الهرمون فانها سرعان ما تميل الى الرقاد واحتضان البيض ، بل ان هذا الهرمون هو الذي يجعل البطة تتبنى فراخ الدجاج ، والكلبة تربى القطيطات بل قد يجعل البقرة ترضع فلو الفرس . وبتأثير البرولاكتين تقوم الفأرة بعد أن تلد مباشرة بسلوك معقد تتابع حلقاته بالطريقة نفسها لدى كل فأرة ، سواء منها ما تلد لأول مرة أو للمرة العاشرة ، سواء شاهدته لدى غيرها أم لم تشاهده .. فهي تلعق صغارها ، وتقطع حبلها السرى ، وتأكل مشيمتها ، ثم تبني عشا من مختلف الاشياء التي في متناولها ثم تضع صغارها فيه واحدا بعد الآخر ثم ترقد عليها . مثل هذا السلوك المعقد المكتمل غير المكتسب يسمى بالسلوك الغريزي أو **الغريزة**

كما ظهر أن الأم الانسانية تشترك مع الثدييات في افراز البرولاكتين وغيره من التغيرات الفسيولوجية التي تحدث عند الولاده لكن سلوك الامومة يبعد أن يتخذ عندها ذلك النمط الغريزي الذي يتشابه لدى جميع أفراد النوع كما هي الحال عند الفأرة . فان كان هناك سلوك تشترك فيه الأمهات الانسانية جميعا فهو لا يعدو أن يكون احتضان الطفل وارضاعه من الثدي . أما طرق العناية بالطفل

ورعايته وحمايته وتنشئته فتختلف باختلاف الحضارة والعرف الاجتماعى • والملاحظ أن بعض الأمهات فى حاجة ماسة الى من يعلمهن الطرق الصحيحة للعناية بالطفل ، وأن أخريات على جهل تام بأصول هذه العناية مما يترتب عليه هلاك الطفل •

على أنه يجب التمييز بين ناحيتين مختلفتين هما رغبة الأم الانسانية فى انجاب الأطفال وبين حبها للطفل واهتمامها به بعد ولادته • فقد دل احصاء أجرى فى الخارج على أن الرغبة فى انجاب الاطفال ليست عامة شائعة بين جميع النساء أى ليست فطرية ، اذ صرح كثير من الحوامل ، فى أمريكا ، أنهن كن يرجون ألا يكن حوامل • وقد ظهر من احصاء آخر أن نسبة كبيرة ممن حملن لم يعملن عامدات على الانجاب ، كما صرح بعض من حملن بارادتهن أنهن فعلن ذلك تلبية لرغبة أزواجهن فى اقامة أسرة ، أو لأنهن يردن شاغلا يشغلن به أوقاتهن ، أو لأنهن يعتقدن أن المرأة يجب أن يكون لها أطفال •• غير أن كثيرا ممن يصرحن بأنهن لا يرغبن فى الانجاب ، يبدين مع ذلك عطفا واهتماما ملحوظين بالاطفال بعد انجابهم •

٦ ــ الحاجة الى التنبيهات الحسية

Need for Stimulation

ماذا يحدث لانسان انقطعت الصلة بينه وبين العالم الخارجى فلم يعد يتلقى منه تنبيهات حسية، بصرية وسمعية ولمسية؟لقد أجريت تجارب فى هذا الصدد دلت على أن اليقظة العقلية والاتزان العقلى يتأثران الى حد كبير بسبب هذا الحرمان الحسى • من تلك تجربة أجريت على طلبة الجامعة عصبت فيها أعينهم ، ووضعت فى أيديهم قفازات تسمح بتحريك المفاصل لكنها تحد من ادراكهم اللمسى ، ثم أديرت الى جانبهم مراوح كهربية تحدث صوتا رتيبا يحجب عنهم سماع أية أصوات أخرى ، كما وضع بجوار فم كل منهم مكبر للصوت يستطيع أن يروى عن طريقه ما يشعر به من خبرات لمن هم خارج مقصورته المعزولة عن المجربين • لقد نام الطلاب فى أول الأمر مدة طويلة ثم قل نومهم بعد ذلك . واستبد بهم الملل والضجر ، وبدا عليهم شوق شديد الى تنبيهات تأتيهم من العالم الخارجى•وكانوا يغنون ويصفرون ويكلمون أنفسهم •• ثم ظهرت لديهم علامات عدم الاستقرار الحركى

فى صورة حركات عشوائية موصولة صرحوا بأنها تسبب لهم ضيقا شديدا .. وكان من الصعب الاستمرار فى هذه التجربة أكثر من يومين أو ثلاثة .فلما خرجوا من مقصوراتهم قرروا أنهم كانوا عاجزين عن تركيز انتباههم فى أى موضوع ، عاجزين عن التفكير فى مسائل وجهوها لأنفسهم ، لذلك استسلموا لاحلام اليقظة وتركوا كل محاولة للتفكير المنظم ، بل صرح بعضهم بأنهم كانوا عاجزين عن التفكير على الاطلاق ، كما صرح آخرون بأنهم كانوا عرضة للهلوسات أى لأن يروا أو يسمعوا أشياء لا وجود لها فى الواقع . وقد بين الرسام الكهربى للمخ حدوث تغييرات معينة فى موجات المخ لديهم[١] أثناء التجربة مما دل على أن « الجوع الحسى » يؤدى الى اضطراب فى وظيفة المخ شبيه بما تحدثه العقاقير أو التلف العضوى فى أنسجة المخ .

وقد خرج الباحثون من هذه التجربة وأمثالها بأن الانسان فى حاجة ماسة الى تنبيهات حسية خارجية ، وبعبارة أدق الى تنبيهات حسية متغيرة ، لأن تغير التنبيهات أساس هام لليقظة العقلية العامة ويرجع ذلك فى أغلب الظن الى أن هذا التغير ينشط لحاء المخ .

٧ ـ دافع الاستطلاع ومعالجة الاشياء

دلت التجارب على أن الحيوانات حين توضع فى حظائر أو أماكن جديدة فانها تأخذ فى ارتياد أنحائها والتنقيب هنا وهناك فيها حتى ان لم يكن الحيوان جائعا أو عطشانا ، وحتى ان كان الفأر جائعا فلن يبدأ بالأكل الا بعد ارتياده الحظيرة واستطلاعها . والمعروف فى التجارب التى تجرى على الحيوانات لقياس قدرتها على التعلم أن الحيوان يثاب حين ينجح باعطائه مكافأة كالطعام أو الشراب ، غير أن تجارب أجريت على الفيران والقردة والشمبانزى فدلت على أن هذه الحيوانات تمضي فى التعلم دون مكافأة أو ثواب غير ارضاء حاجتها الى استطلاع موقف التعلم ومعالجة ما فيه من أشياء .

هذا الدافع الى الاستطلاع يبدو لدى الطفل الرضيع حتى قبل أن يستطيع المشى ، فهو يستطلع بعينيه واذنيه ويديه وفمه . فانعام النظر فى الاشياء ، وتسمع الاصوات الجديدة ، والقبض على الاشياء ووضعها فى الفم .. كل هذه أنواع بسيطة من الاستطلاع . فاذا ما استطاع المشى واتسع عالمه امتدت يداه الى كل ما يستطيع تناوله،

فاذا به يفكك ما يعثر عليه من أدوات ليرى مم تتكون ويشد ذيل القط ليرى ماذا يصنع ويكسر المرآة لىرى مابداخلها .. فالاستطلاع يقترن بمعالجة الاشياء[1] فى لعب الاطفال بالدمى .

كما يبدو هذا الميل الى الاستطلاع والمعرفة لديه فى تلك الاسئلة اللانهائية التى يرشق بها والديه ومن يحيطون به عن أسباب الأشياء والحوادث واسمائها وفائدتها وأصلها وكيفية حدوثها .. من هذه الاسئلة ما يدور حول أمور جنسية أو أمور غيبية تسبب لوالديه كثيرا من الحيرة والحرج : « من أين تأتى الأطفال ؟ » ، « لماذا يسير القمر معنا اذا سرنا ؟ » ، «السنة الماضية أين ذهبت ؟»، «لماذا يذوب السكر فى الماء ولا تذوب الملعقة ؟ »

ونحن الكبار نبذل جهدا كبيرا لمعرفة البيئة التى نعيش فيها ، مادية كانت أم اجتماعية ، فنحن نرتاد ونبحث ونختبر ونسأل خاصة حين نجد أنفسنا فى موقف جديد . كذلك نحاول أن نعرف ما نستطيع أن نفعله ومالا نستطيع فى شتى المواقف التى تعرض لنا . وهذا نوع من استطلاع الانسان لنفسه شبيه باستطلاع الانسان لبيئته . وبعبارة اخرى فالانسان يجهد فى معرفة ما يوجد فى العالم الذى يحيط به كما يجهد فى معرفة ما يمكنه عمله فى هذا العالم .

ولاشك أن كثيرا من سلوك الاستطلاع ومعالجة الاشياء ــ خاصة بعد مرحلة الرضاعة ــ سلوك مكتسب . غير أن التجارب التى أجريت على الحيوانات وصغار الاطفال تدل على ان لهذا السلوك جذورا مغروزة فى الطبيعة البيولوجية لكل من الانسان والحيوان . وفائدته البيولوجية ظاهرة . فتعرف البيئة وفحصها ومعالجتها تمكن الكائن الحى من تحسس تلك الاشياء التى يحتمل أن تكون مصدرا للخطر أو الألم ، وتلك التى يحتمل أن ترضى حاجاته قبل أن تنشط.أى أنه يقوم بدور هام فى المحافظة على البقاء .

٨ ــ الغرائز Instincts

لا نستطيع بعد أن درسنا الدوافع الفطرية أن نغفل عن الاشارة الى « الغرائز » وهو اصطلاح كان يملأ الدنيا بالامس ، لكنه كاد

(١) manipulation

ينسخ اليوم من مؤلفات علم النفس الحديث . وسنعرض لرأيين مختلفين فى الغرائز ليتضح لنا موضوعها :

نظرية مكدوجل :

يعتبر مكدوجل وهو من أنصار المذاهب الغرضية فى علم النفس، أقوى مدافع عن « الغريزة » . يرى مكدوجل أن جميع الدوافع التى تثير نشاط الفرد يمكن أن ترد الى دوافع أساسية نهائية هى الغرائز . فالغرائز هى المحركات الأولى لكل نشاط حركى أو عقلى ، فردى أو جماعى ، يقوم به الفرد ، وهى لا تزوده بالقوة الدافعة فقط ، بل وتحدد غايات سلوكه أيضا . والغريزة كما يعرفها هى استعداد فطرى نفسى جسمى يدفع الفرد الى أن يدرك وينتبه الى أشياء من نوع معين . وان يشعر بانفعال خاص عند ادراك هذه الاشياء ، وأن يسلك نحوها مسلكا خاصا . فالفأر ان رأى قطا انتبه اليه انتباها خاصا ، ثم شعر بانفعال الخوف فاندفع هاربا . والغرائز توجد عند الخليقة بأسرها من الحشرات الى الثدييات والانسان . ويشترك الانسان مع الثدييات العليا فى الغرائز الآتية : غريزة التماس الطعام ، التماس الراحة ، النوم ، الاخراج ، التنفس ، الهرب ، المقاتلة ، الغريزة الجنسية ، الغريزة الوالدية (نسبة الى الوالدين معا) ، الغريزة الاجتماعية ، الاستطلاع ، الحل والتركيب ، السيطرة ، الخضوع ، التملك والادخار ، الاستغاثة ، الهجرة ، النبذ ، الضحك .. وغيرها .

ولكل غريزة مثير ينشطها ، وانفعال يصاحبها ، وسلوك يصدر عنها . وتتعدل الغريزة وتتحور من ناحية مثيراتها ومن ناحية السلوك الصادر عنها ، أما الانفعال فهو الجانب الاساسى المركزى للغريزة، وهو الجانب الذى لا يتحور ولا يتعدل من الغريزة ــ غريزة التماس الطعام انفعالها الجوع ، وغريزة الهرب انفعالها الخوف ، والمقاتلة انفعالها الغضب ، والوالدية انفعالها الحنو ، والجنسية انفعالها الشهوة ..

والغرائز عند الانسان تتعدل فتشتق منها العواطف والعادات والميول والحاجات الفرعية المختلفة ، فهى ليست المحركات الوحيدة للسلوك لكنها المحركات الأساسية الأولى .

والغرائز عامة يشترك فيها الناس جميعا ، فى كل سلالة وفى كل حضارة وفى كل عصر . وهى دوافع فطرية لا تكتسب ولا يمكن استئصالها أو القضاء عليها .

وقد أخذ بهذه النظرية كثير من علماء النفس والاجتماع واتخذوها أساسا لتفسير سلوك الافراد وتعليل الظواهر الاجتماعية كنشأةالاسرة والقبيلة وقيام الحروب ••• والسبب فى رواجها هو وضوحها وبساطتها •

هذه النظرية التى خرج بها مكدوجل حوالى ١٩٠٨ أثارت من عاصف النقد والاعتراض الشىء الكثير ، وليس هذا مجال لعرض ماوجه اليها من نقد وما ثار حولها من جدل استغرق أكثر من نصف قرن•وحسبنا أن نشير الى أن أهم اعتراض وجه اليها كان من جانب علماء الانثروبولوجيا • من ذلك أن مكدوجل اعتبر السيطرة غريزة ، أى دافعا فطريا ، يثيره وجود الفرد مع أفراد أدنى منه واضعف ، أو وجوده فى موقف يشعره بأنه ذو بأس ونفوذ • وهو دافع يقترن بانفعال « الزهو » وينزع بالفرد الى التحكم والترعم واظهار القوة وتوكيد الذات أمام الآخرين ، أو الى التفاخر والغرور والخيلاء • غير أن البحوث الانثروبولوجية بينت أن دافع السيطرة لا أثر له فى بعض الشعوب والقبائل البدائية • ففى قبيلة « أرابش » Arapesh التى تقطن غينيا الجديدة تعتبر السيطرة وتوكيد الذات سلوكا شاذا ان بدا لدى أحد الأفراد •• انها قبيلة يسود أفرادها التعاون والمسالمة والصداقة وانكار الذات ، وهم ينفرون من التسلط والتنافس ويهربون من الترعم ولا يطيقونه بما يحمل القبيلة ، عند الحاجة ، على أن تفرض الزعامة على أحد الأفراد بالرغم منه •

كما اعتبر مكدوجل التملك والادخار غريزة يثيرها وجود أشياء ملائمة تميل بالفرد الى حيازتها • وهى ظاهرة عند النمل والسنجاب، كما تبدو لدى الطفل حين يبدأ فى جمع كل ما تقع عليه يداه من أشياء يحشو بها جيوبه حشوا • غير أن البحوث الانثروبولوجية بينت أن هذا الدافع لا وجود له فى بعض القبائل الاسترالية التى تعيش فى الصحراء ، لان القوم يخرجون للصيد والتماس الماء ، ومتى عادوا اقتسموا ما جمعوه بينهم وليس لأحد أن يبقى على ما جمعه لنفسه • كما دلت دراسات أخرى على سكان جزر « الملانيزيا » على أن جميع ما تخرجه الأرض من زرع ، وما يخرجه البحر من صيد ، وما يصنعه الافراد لأنفسهم من أدوات وأسلحة •• كل أولئك يقسم بين الناس جميعا ، أو يستخدمه ويفيد منه غير من صنعه أو أنتجه •• فان بدا

دافع التملك ملحوظا فى المجتمعات الرأسمالية فلان أمارة النجاح فيها هى كنز المال والممتلكات ، ولأن الرجل المحترم فيها هو من جمع ثروة .

كذلك كان يرى مكدوجل وكثير غيره أن الدافع الاجتماعى دافع فطرى ، وأن الانسان حيوان اجتماعى بطبعه ، يميل الى العيش فى جماعات ، والى الاجتماع ببنى جنسه والاشتراك معهم فى أوجه نشاطهم ، ويشعر بالوحشة والضيق ان حيل بينه وبين ذلك .. غير أن أغلب العلماء اليوم يميلون الى اعتباره دافعا مكتسبا مع أنه ذائع بين الناس جميعا على اختلاف حضاراتهم . والسبب فى ذيوعه أن الطفل الانسانى فى كل زمان ومكان يولد ضعيفا عاجزا تتوقف حياته على من حوله ، وهو يحب أمه وغيرها ممن يوجدون فى بيئته المحدودة لأنهم يقضون حاجاته ويشبعون دوافعه ، كما يشعر بالوحشة والألم ان ترك وحده . وكلما تقدم به العمر أدرك أن أغلب حاجاته ومطالبه لايمكن أن تقضى الا عن طريق الآخرين : أفراد أسرته وجيرانه وأصدقاؤه وأترابه وزملاؤه .. وزاد وثوقه بأن نموه وأمنه وسعادته مرهونة بعلاقاته الاجتماعية ؛ وهذا يدعوه الى تثبيت هذه العلاقات وتدعيمها وتوسيعها ، فان لم يوفق الى ذلك شعر بالضيق والعزلة والقلق .. على هذا النحو يكتسب الانسان الدافع الاجتماعى دون حاجة الى افتراض أنه دافع فطرى . فالانسان اذن حيوان اجتماعى لا لأنه خلق كذلك بل لأنه أصبح كذلك .

نظرة أخرى الى الغريزة :

هناك فريق من العلماء ينظرون الى الغريزة لا من حيث هى دافع بل من حيث هى سلوك فطرى مكتمل يصدر عن جميع أفراد النوع ، كسلوك الفأرة بعد أن تلد (أنظر ص ٨١) ؛ وكسلوك القط ازاء الفأر ؛ وكبناء العش عند الطيور ؛ أو سلوك الهجرة عند الاسماك .. ذلك السلوك الذى يبدو بصورة تبهر وتروع عند الحشرات كالنمل والنحل والعناكب والزنابير — فهناك نوع من الزنابير متى أشرفت أنثاه على وضع البيض حفرت فى الأرض حفرة ثم أخذت تبحث عن نوع معين من الديدان أو العناكب ؛ تلسع الواحد منها لسعة تخدره ولا تميته ، ثم تجره الى حفرتها ، ثم تأتى بثان وثالث تفعل بهما نفس

الشيء وتموين بها الحفرة ثم تضع بيضها على هذا الـزاد ثم تولى الأدبار فلا يتاح لها أن ترى صغارها حين ترى صغارها النور .. فاذا خرجت صغارها من البيض وجدت لحما طازجا غير متعفن فأخـذت تـأكله !!

ومن الملاحظ ان الحيوان كلما ارتقى فى سلم التطـور قل جمـود سلوكه الغريزي وزادت قدرته على تعديل هذا السلوك وفق مطالب البيئة الخارجية وعلى تعلم أنواع مختلفة من السلوك المـكتسب . فالسلوك لدى الحشرات متصلب لا مجال فيه للتعديل والتحور والتعلم الا بقدر طفيف . كذلك الحال عند البرمائيات والزواحف والأسماك. فسلوكها جامد متحجر رتيب ، ذلك أنها تولد مزودة بمسالك وروابط عصبية مغروزة من قبل فى تكوينها العضوى تفرض عليها هذه الأنماط السلوكية الغريزية . وهى أنماط تكفى لاشـباع حاجاتها وتمكنها من التكيف لبيئاتها المحدودة الضيقة الثابتة نسبيا .. أما عند الطيـور والثدييات الدنيا كالفيران فيقل هذا الجمود فى السلوك شيئا ما ؛ مع بقاء ضروب السلوك الموروثة لديها . فالطيور ليست فى حاجة الى من يعلمها الطيران أو بناء أعشاشها ، ولدى الفيران أنمـاط موروثة من السلوك الجنسى وسلوك الأمومة . غير أن جمود السلوك وتحجره عند الفيران أقل منه عند الطيور . ويرجع هذا فى أكبر الظن الى أن الجهاز العصبى للفـأر أكثر تعقيدا من جهاز الطائر . ومما يذكر أن الفـأر يولد فى حالة من العجز وقلة الحيلة أكثر من حالة فرخ الطائر ، كما أنه يحتاج الى رعاية أطول من الفرخ : فالفرخ يستطيع عول نفسـه بعد بضعة أيام ، أما الفـأر فلا يستطيع ذلك الا بعد اسـبوع أو أسـبوعين .

أما الانسان فلا نجد لديه عند ولادته الا النزر اليسـير من هـذه الأنماط السلوكية الغريزية (الغرائز) . والمرجح أنها لا تتجاوز عمليات الرضاعة والزحف والحبو وانتصاب القامة والخطو والمشى والقبض على الأشياء باليد واصدار أصوات كلامية بسيطة ، لذا كان عجزه عند الميلاد أكبر من أى حيوان آخر ، ومن ثم كان لزاما أن تطول مـدة حضانته ورعايته حتى يتعلم ويكتسب عادات تمكنه من ارضاءحاجاته ودوافعه التى لا حصر لها .

خـاتمة : ظهر لنا مما تقدم أن هناك فريقا من العلماء يذهب الى ان الانسان لا توجد لديه الا بضع غرائز ، هؤلاء هم من يرادفون الغريزة بالسلوك الغريزى ، بل هنـاك فريق آخر يزعم أن الانسان لا توجد لديه غرائز على الاطلاق ، فكل سلوك انسانى مكتسب ما عدا الافعال المنعكسة • وفريق ثالث يذهبون الى أن الطفل الانسانى يولد مزودا بغرائز كثـيرة « كغريزة السـباحة » لكن من حوله لا يسمحون لـه بممارستها فتضمر وتنطمس لعـدم استعمالها •• أما مكدوجل فيقول بوجود غرائز كثيرة لدى الانسان ، فان لم تكن ظاهرة بوضوح لديه ، فهذا لا يعنى أنها ضـمرت أو امحت ، بل لمرونة السلوك الغـريزى وقابليته الكبيرة للتعدل والتحور عند الانسان • فالحيوان كلما ارتقى وزاد ذكاؤه نتيجة للتطور لم تؤد هـذه الزيادة الى ضمور الغرائز بل الى زيادة قدرة الفرد على التحكم فيها وتعديلها •

على هذا النحو نرى أن اصطلاح الغريزة اصطلاح مبهم يحمـل أكثر من معنى مما يدعو الى الارتباك ويكاد يجعله عديم الفائدة • وقد كان هـذا أحد الأسـباب التى أدت الى اختفائه من كتب علم النفس الحـديث • على أن نظرية الغرائز نفسها لم يحسم فيها بعد حسما فاصـلا •

وأيا كان مقطع الرأى فى موضـوع الغريزة ، فالذى يهمنا هو ان الانسان يشترك مع الحيـوان فى حاجات فسيولوجية ، غير أن أغلب الحيوانات ليست فى حاجة الى أن تتعلم كيف ترضى هذه الحاجات ، فهى مزودة بالوراثة بالسلوك اللازم لذلك • أما الانسان فلابد له أن يتعلم من الآخرين كيف يرضى أغلبها • وهو يرضيها بطـرق منـوعة لا بطرق متصلبة كما هى الحال عند الحيوانات الدنيا •

الفصل الثانى

الدوافع الاجتمـاعية

١ ـ تعـريف وتصنيف

استعرضنا فى الفصـل السابق الدوافع الفطرية التى يشترك فيها الانسان مع الحيوان ، والتى تبدو فى سلوك الطفل الصغير عادةبصورة مباشرة شبه نقية • وسنتناول فى هذا الفصل الدوافع الاجتماعية أو الثانوية التى يكتسبها الفرد نتيجة خبراته اليومية وتعلمه المقصود وغير المقصود أثناء تفاعله مع بيئته خاصة الاجتماعية • هـذه الـدوافع الاجتماعية لا حصر لها وتتمخض عن أنواع لا عد لهـا من السلوك ، كما تسمى بأسماء مختلفة : الحاجات النفسية كالحاجـة الى الأمـن والحاجة الى التقدير الاجتمـاعى •• الاتجاهات والعواطف كعاطفة الولاء للوطن •• الميول المكتسبة كالميل الى القراءة أو الى جمع طوابع البريد •• والعادات المختلفة كعادة التدخين أو عادة تناول الطعام فى أوقات معينة •• والاهداف والمثل ، ومستوى طموح الفرد ••

ونتساءل الآن عن صلة هذه الدوافع الاجتماعية المكتسبة بالدوافع الفسيولوجية الفطرية ، والجواب على هذا السؤال ليس بيسير ، اذ يرى بعض العلماء أن جميـع الدوافع الاجتماعية تنبثق من الدوافع الفطرية أو هى وسائل لارضائها فى الحاضر أو المستقبل • فالحاجـة الى المال والادخار ليست حاجة فطرية لكنها ترتبط بالحاجات الفطرية لأن المـال والادخار يكفلان ارضاء هذه الحاجات عاجلا أو آجلا •

ويرى « مكدوجل » ، كما قدمنا ، أن الغرائز هى المحركات الاساسية لسلوك الفرد صغيرا كان أم كبيرا ، فهى محركات السلوك الانسانى فى كل مرحلة من مراحل نموه •لكن الغرائز عند الانسـان تتحـور وتتعدل فتشتق منها عادات وعواطف وميول وحاجات فرعية مختلفة •

نظرية الاستقلال الوظيفى Functional Autonomy

غير أن « أولبرت Allport » ، وهو من أشد المنـاهضين لنظريات الغرائز ، لا ينكر أن كثيرا من دوافع الراشد المكتسبة تشتق

من دوافع فطرية سابقة لكنها لا تستمد قوتها من هذه الدوافع الفطرية الأصلية ، انما تستقل عنها استقلالا تاما من الناحيةالوظيفية كما يستقل المراهق عن والديه وتصبح له ارادة خاصة به ، أو كما تستقل حياة الشجرة عن حياة البذرة . فكلما تقدم الفرد في العمر انقطعت الصلة بين ماضيه وحاضره . ولاشك أن حياة الشجرة متصلة بحياة البذرة ، لكن البذرة لم تعد اليوم تغذى الشجرة الناضجة ، فالصلة بينهما صلة تاريخية وليست صلة وظيفية لذا سمى نظريته هذه نظرية الاستقلال الوظيفي . ومن الأمثلة التى يسوقها على صدق دعواه أن النشاط الجنسى يستمر ويبقى حتى بعد سن اليأس أى بعد زوال الحافز الفسيولوجى الاصلى اليه ، فقد استقل السلوك الجنسى عن دافعه الأصلى واكتسب صفة الدافع . كذلك الحال فى استمرار التدخين حتى بعد زوال الدافع الاصلى اليه ، واستمرار النشاط المهنى للفرد حتى بعد أن يظفر بثروة وبتقدير جماعته .

تحور الدوافع الفطرية :

١ - تتحور الدوافع الفطرية من ناحية مثيراتها فتكتسب مثيرات جديدة . فكثيرا ما يأكل الانسان وهو فى غير حاجة الى الطعام لمجرد أن حان موعد الطعام أو مر على قاعة الطعام أو رأى قوما يأكلون . والدافع الجنسى قد تثيره الأشياء المتصلة بالجنس الآخر كرسائله وهداياه . كذلك دافع الأمومة حين ينزع بالام الى رعاية الضعفاء والمرضى والمسنين والمنكوبين .

٢ - كذلك تتحور من ناحية السلوك الصادر عنها ، فطريقة ارضاء الجوع والاخراج والدافع الجنسى والحاجة الى الراحة تختلف من حضارة الى أخرى . وقد يحيد السلوك الصادر عن الدافع حيودا يستهجنه المجتمع كما ينحرف دافع الاستطلاع الى التلصص والتجسس والتسمع ، وكما ينحرف الدافع الجنسى الى اللواط وممارسة العادة السرية . وفى هذه الحال تكون بصدد « انحراف » Perversion وعلى العكس من هذا قد يتجه السلوك اتجاها يرضى عنه الفرد والمجتمع ، كما يتجه سلوك الاستطلاع الى البحث العلمى والابتكار ، وفى هذه الحال تكون بصدد « اعلاء » الدافع والتسامى به Sublimation

٣ - ومن الطرق التى تتحرر بها الدوافع الفطرية تخصص أهدافها

كما هى الحال حين يفضل المـرء أنواعا من الطعـام ، أو حين يقصر اهتمامه الجنسى على فرد معين من الجنس الآخر بدل اهتمامه بجميع أفراد الجنس الاخر •

٤ ـ وكثيرا ما تنقلب وسائل تحقيق الدوافع الفطرية الى أهـداف وغايات ، فالمال وسيلة لارضاء كثير من هذه الدوافع ، لكن الرغبة فى المال لذاته قوية لدى كثير من الناس •

٥ ـ ومن هذا القبيل أيضا تحول العادات الى دوافع كتعود الأكل والنوم والتبرز فى أوقات معينة • فطرق ارضـاء الدوافع الفطـرية ومواقيتها تثبت وتصبح عادات دافعة •

تصنيف الدوافع الاجتماعية

هناك صنف من الدوافع الاجتماعية يشيع فى شتى الحضارات على اختلافها كالدافع الاجتماعى الذى تحدثنا عنه فى الفصل السابق ، وكالحاجات النفسية الاساسية ، كالحاجة الى الامن والحاجة الى التقدير الاجتماعى •• الى جانب هذا الصنف دوافع تشيع فى بعض الحضارات والجماعات دون غيرها كدافع السيطرة وحب الظهور ودافع التملك والادخار فى المجتمعات الرأسمالية الغربيـة (انظر ص ٨٦) ، ومن هذه الدوافع أيضا القيم والعادات الاجتماعية التى تختلف من حضارة الى أخرى •• أما الصنف الثالث فيشمل الدوافع التى تختلف من فرد لاخر حتى ممن ينتمون الى حضارة واحدة ، فقد يكتسبها بعضهم نتيجة لخبراته الخاصة ولا يكتسبها البعض الاخر •• هذا يميل الى النشـاط الاجتماعى وذاك الى النشاط الرياضى ، هذا يصبو أن يكون طبيبا وذاك يصبو أن يكون سائق سيارة ، هذا يدمن التدخين وذاك يدمن المخدرات•

فالدوافع المكتسبة اذن اما أن تكون :

١ ـ اجتماعية عامة •
٢ ـ اجتماعية حضارية •
٣ ـ اجتماعية فردية •

وغنى عن البيان أن هذه الدوافع جميعها ممـا يتفرد به الانسـان عن الحيوان •

وسنتناول فيما يلى دراسة الحاجات النفسية الاساسية ثم الاتجاهات والميول ثم العادات ومستويات الطموح •

٢ ـ الحاجات النفسية الاساسية

اذا كانت الحاجات الفسيولوجية ضرورية للمحافظة على بقاء الفرد ونوعه فالحاجات النفسية ضرورية لسعادة الفرد وطمأنينته ، فاحباطها يؤدى الى كثير من اضطرابات الشخصية • وهى حاجات تنشأ فىأحضان الاسرة ، وتختلف فى الشدة من فرد الى آخر ، لكنها يغلب أن تشيع بين الناس جميعا على اختلاف حضاراتهم ، الراشدين منهم والصغار ، من أهمها :

الحاجة الى الأمن النفسى

الامن يعنى التحرر من الخوف ، أيا كان مصدر هذا الخوف • والانسان يكون فى حالة أمن متى كان مطمئنا على صحته وعمله ومستقبله وأولاده وحقوقه ومركزه الاجتماعى • فان حدث ما يهدد هذه الاشخاص والاشياء ، أو ان توقع الفرد هذا التهديد فقد شعوره بالأمن•ولارضاء هذه الحاجة يتعين على الفرد ، من ناحية ، أن يعمل على اكتساب رضاء الناس وحبهم واهتمامهم ومساندتهم العاطفية ، كما يتعين على المجتمع ، من ناحية أخرى أن يحيط أفراده بضروب مختلفة من التأمين الاجتماعى: ضد حوادث العمل وأمراض المهنة والشيخوخة والعجز والوفاة والبطالة ، وكتأمين الفرد على حقوقه أن ينالها كاملة مهما كان مركزه الاجتماعى • فالعدل أساس الامن •

والشعور بالامن شرط ضرورى من شروط الصحة النفسية السليمة ، كما أن الخوف مصدر كثير من العلل والمتاعب النفسية • واذا كان أمن الفرد أساس توازنه النفسى فأمن الجماعة أساس كل اصلاح اجتماعى •

واذا كان الراشد الكبير فى حاجة الى الامن فالطفل فى حاجة أكبر نظرا لضعفه وجهله وقلة حيلته • ومما يرضى هذه الحاجة عند الطفل اشباع حاجاته الفسيولوجية ، وأن يكون موضع عطف ومودة من والديه وذويه ، وأن يلقى تجاوبا انفعاليا منهم اذ يهتمون بأمره ويتحدثون معه ويجيبون على أسئلته ، ويشاطرونه ألعابه ، ويوضحون له الحدود بين ما يجب عمله وما لا يجب عمله •

ومما يهدد هذه الحاجة ويحبطها عند الطفل الاكثار من تهديده ونقده وعقابه ، أو اهماله ونبذه ، أو التذبذب فى معاملته ، وكذلك الشجار بين الوالدين ، أو قلقهم الزائد عليه ، أو فرض أعباء ثقيلة عليه من سن

مبكرة ، أو الاسراف فى تحذيره من الحيـاة ، وكذلك التربيـة الدينية أو الجنسية غير الرشيدة •

وقد يؤدى احباط هذه الحاجة بشدة أن يصبح الطفل ومن بعـده الراشد ــ فالطفل أو الرجل ــ متوجسا هيابا من كل شيء : من الناس ومن المنافسة ومن الاقدام والمغامرة والابتكار والجهر بالرأى وتحمل التبعات • ويبدو ذلك فى صور شتى منها الخجل والتردد والارتبـاك والانطواء والحرص الشديد والذعر من شبح الفشل والعجز عن أبداء الرأى والدفاع عن النفس حتى ان كان الحق فى جانبه • أو يبدو فى صورة تحد وعدوان أو لامبالاة • والخوف قـرين الشعـور بالنقص وضعف الثقة بالنفس ، كما أنه صنو الكراهية ، فمن خاف شيئا كرهه • ولنذكر أن الاثر التهذيبى للخوف فى تقـويم النفـوس المعوجة أثر طفيف ، وأنه أثر سلبى على كل حال •

الحاجة الى التقدير الاجتماعى :

هى حاجة الانسان أن يكون موضع قبول وتقدير واعتبار واحترام من الآخرين ، والى أن تكون له مكانة اجتماعية،وأن يكون بمنأى من استهجان المجتمع أو نبذه•وهى حاجة يرضيها شعور الفرد بأن لهقيمة اجتماعية وأن وجوده وجهوده لازمان للآخرين • كما انها تبدو ايضا فى حب الانسان للثناء وشوقه الى الظهور • ولهذه الحاجة صلة وثيقة بالحاجة الى الامن ولو أنها تختلف عنها ، ذلك ان التقدير الاجتماعى يعزز الشعور بالأمن لكنه ليس مصدره • فالانسان يشعر بالأمن ان لم يكن هناك ما يهدد كيانه المادى والعضوى ، لكن حاجته الى التقـدير لا تشبع من أجل ذلك ، فهو يرنو الى التقدير الاجتماعى حتى ان كان أمنه مـكفولا •

ومما يرضى هذه الحاجة عنـد الطفل نجاحه فى أعماله والعـابه ، وثقتنا به ، وتقبلنا له ، واعترافنا به • وممـا يهددها ويحبطها فشل الطفل لتكليفه القيام بأعمال فوق مقدوره ، أو تثبيط همته ان لم يصل فى تحصيله الدراسى الى المستوى الذى نفرضه عليه ، وكذلك الاسراف فى لومه ، وقسره على مباراة من هم أقوى منه - ومن هذه العوامل أيضا موازنة الآباء بين أطفالهم موازنة طائشة تثير فى بعضهم الغرور وفى البعض الآخر الشعور بالنقص ، ومنها الاحباط الشديد لحاجة الطفل الى التعبير عن نفسه وتوكيد شخصيته •

أما أخطر عواقب احباط هذه الحاجة فهو شعور الفــرد بالعــزلة والوحشة بما قد يدفعه الى الثــورة والتمرد على الجماعة أو محاولة السيطرة والتغلب على الآخرين ، وربما لجأ في نهاية الأمر الىالانتحار. يحدثنا أفراد بعثة أرسلت الى القطب الجنوبى أنهم كانــوا يعاملون الأفراد المشاغبين منهم بمقاطعتهم وتجاهلهم وانكار وجودهم قاطبة ، فلم يلبث المنبوذون أن بدت لديهم الأعراض التالية : الأرق ، انفجارات تلقائية من الصياح ، هلوسات ، ارتكاس عادات النظافة الجســمية ، الســير دون هدف أو الاضطجاع والحملقة في الفضــاء ... وكانت هذه الاعراض تختفى حين تتقبلهم الجماعة وترضى عنهم وتتعــامل معهــم .

الحاجة الى الانتماء Need for belongingness

يزداد شعور الفرد بالامن والتقدير الاجتماعى كما يزداد اعتداده بنفسه واعتزازه بها حين ينتمى الى جماعة قوية يتقمص شخصيتهــا ويوحد نفسه بها : كالأسرة القوية أو النادى أو النقابة أو الشركة ذات المركز الممتاز .. وتنبت هذه الحاجة في أحضان الاسرة مــن علاقــة الطفل بأمه وأفراد أسرته . ثم تعــززها أو تحبطها بعد ذلك التجارب التى يمر بها الفرد .. ومتى أرضيت هذه الحاجة وشعر الفردبالانتماء الى جماعة معينة زاد ولاؤه لها وشعوره بأنه جزء منهــا يصــيبه ما يصيبها . على أن ارضاءها يتوقف على تقبل الجماعة للفرد لانــه يعمل من أجلها وعلى تقبل الفرد للجماعة لأنها ترضى حاجاته ومطالبه .. فان احبطت هذه الحاجة شعر الفرد بالعزلة والوحشة والاغتراب، ويكون ذلك حين يشعر بأن الجماعة — صغيرة كانت كالشركة أو كبيرة كالمجتمع الاكبر — تستغله أو تضطهده أو تتحكم فيه أولا تعترف به. ومما يجدر ذكره بهذا الصدد أن طبيعة العمل في المصانع والمؤسسات الضخمة الحديثة المكتظة من شأنها ان تشعر العامل أنه يعمل منعزلا عن غيره ، وحيداً لا صلة بينه وبين غيره ، فحبذا لو عملت المؤســسة على ارضاء هذه الحاجة عنده باشراكه في تحمل المسئوليــات ، واتخــاذ القرارات ، واحداث التغييرات مما يشعره بأنه جزء فعال من جماعــة يسهم أفرادها في أداء عمل مشترك .

الحاجة الى التعبير عن الذات وتوكيدها :

هى الحاجة التى تدفع الفـرد الى التعبير عن ذاته والافصاح عن شخصيته وتوكيدها بأن يحقق ما لديه من امكانات ، وأن يبدى مالديه من آراء ، أو أن يقوم بأعمال نافعة وذات قيمة للآخرين ، أو أن يكون منتجا • وبعبارة أخرى فهى الحاجة التى تنزع بالفرد الى أن ينمـو ويتحسن •

وتبدو هذه الحاجة لدى الطفل فى ميله الى التعبير عن نفسـه فى كلامه وألعابه وأعماله ورسومه وما يقدمه للآخرين من خدمات • ومما يحبطها لديه تحكم الكبار وتدخلهم فى وجوه النشاط التى يقوم بها ، أو الاسراف فى تقييده والسخرية من أسئلته وأفكاره،أو اشعاره أنه عديم القديمة والاهمية • ومتى أحبطت هـذه الحاجة فى عهد الصغر مالت بالراشد الكبير الى الخوف الشديد من المنافسة فى مختلف المجالات ، والى اعراضه عن الاقـدام وا تحدى حتى للظفر بحقوقه المشروعة ، والى الاتكال على الغير فى قضاء حاجاته وحل مشكلاته •

هذه أهم الحاجات النفسية الأساسية للانسان • وقـد سـميت أساسية اذ تشتق منها حاجات فرعية كثيرة تكون وسائل لارضائها • فالحاجة الى الأمن تولد الحاجة الى الادخار ، والحاجة الى الادخار تولد الحاجة الى مضاعفة الجهد، وهذه قد تخلق الحاجة الى السفر أو الى تعلم لغة اجنبية •• هذه الحاجات المشتقة تختلف من حضـارة لاخرى ، ومن مجتمـع لآخر • وكلما تعقد المجتمـع ازدادت هـذه الحاجات نوعا وعددا والحاحا • فحاجات الريفى دون حاجات ساكن المدن ، وحاجات البدوى دون حاجات الحضرى ، وحاجاتنا اليوم أكثر من حاجاتنا بالأمس القريب • أما الحاجات الاساسية فيبدو أنها من الشمول بما يسمح بوصف السلوك الانسانى فى مختلف الحضـارات.

ومما يذكر أن الانسان ان حرم من أشباع حاجاته النفسية فكثيرا ما يتراجع فيسرف فى اشباع حاجاته الفسيولوجية، فالمحروم من العطف والتقدير قد يأخذ فى الاكل بشراهة أو يسرف فى ملذاته الجنسيـة، ومن ناحية أخرى يصعب على الجائع أو العارى أو المحروم أن يتطلب التقدير الاجتماعى أو يحاول الافصاح عن شخصيته !

٣ ــ الاتجاهات النفسية

الاتجاه النفسى attitude بمعناه العام استعداد وجدانى مكتسب، ثابت نسبيا ، يحدد شعور الفرد وسلوكه ازاء موضوعات معينة من حيث تفضيلها أو عدم تفضيلها . هذه الموضوعات قد تكون :

١ ــ أشياء كالميل الى كتاب معين أو النفور من طعام معين .

٢ ــ أشخاصا : فاتجاهاتنا نحو والدينا وأقاربنا وأصحابنا ورؤسائنا قد تكون اتجاهات حب أو كره ، اعجاب أو ازدراء ، ثقة أو ارتياب ، اهتمام أو لا مبالاة ، خضوع أو سيطرة .

٣ ــ جماعة كالتعصب لشعب معين أو طائفة أو سلالة معينة .

٤ ــ وقد يكون موضوع الاتجاه فكرة أو مبدأ أو نظاما اجتماعيا أو مشكلة اجتماعية كاتجاهنا نحو الدين أو الوطن : نحو الحق أو الباطل ، نحو العدل أو الظلم ، نحو التجديد أو المحافظة على القديم، نحو النظام الدمقراطى أو تحديد النسل أو تأميم الطب ــ وفى هذه الحال يعرف الاتجاه بأنه استعداد وجدانى مكتسب ، ثابت نسبيا ، يحدد رأى الفرد واعتقاده ازاء فكرة أو موضوع اجتماعى : وهذا هو المعنى الخاص والاكثر شيوعا لاتجاه .

٥ ــ وقد تكون « ذات » الفرد نفسه موضوعا لاتجاه نفسى،كحب الذات أو احترامها أو الرضاء عنها أو استصغارها أو تنزيهها أو ادانتها أو السخط عليها أو كرهها أو ضعف الثقة فيها .. وهذه الاتجاهات هامة وذات أثر كبير فى شعور الفرد وسلوكه . فمن كره نفسه كره غيره ، ومن استصغر نفسه استصغر غيره ، ومن شك فى نفسه ساوره الشك فى الناس ، ومن ظن بنفسه السوء مال الى أن يظن بالناس السوء . ونستطيع تصنيف الاتجاهات بصورة أخرى على النحو التالى :

١ ــ **موجبة وسالبة** فالموجبة كاتجاهات الحب والتحبيذ والاحترام ، والسالبة كاتجاهات النفور والكره أو الازدراء أو الرفض .

٢ ــ **نوعية وعامة** : فالنوعية ما انصبت على موضوع خاص كالخوف من حيوان معين ، والعامة ما كان موضوعها عاما شاملا . وفى هذه الحال يسمى الاتجاه سمة trait كسمة المحافظه على القديم بكل

صوره ، فى مجالات تربية الأطفال واحترام الكبار والموقف من المرأة ...أو كسمة التعصب ضد كل ما هو أجنبى ، أو التوجس والخوف من كل شىء ، أوكسمة الغش حين تبدو فى سلوك الفرد ، فى المدرسة ، وفى المنزل ، وفى معاملة الناس . من هذه السمات المختلفة تتكون شخصية الفرد كما سنرى عند دراسة الشخصية .

٣ ــ **قوية وضعيفة** : اذا كان الاتجاه مركبا ومشحونا بشحنة انفعالية قوية سمى **عاطفة** sentiment كعواطف الحب والكره والصداقة والطموح وكالعاطفة الوطنية والدينية ، وعاطفة الامومة ، وعاطفة احترام الذات . ويعرف مكدوجل العاطفة بأنها تنظيم وجدانى ثابت نسبيا ومركب من عدة انفعالات تدور وتتبلور حول موضوع معين فعاطفة الأمومة تبدو فى فرح الأم بنجاح ابنها ، وحزنها لاخفاقه ، وسرورها بلقياه وابتئاسها لفراقه أو مرضه ، وفزعها ان كان فى خطر ، وغضبها ان اعتدى عليه أحد ، واغتمامها ان انحرف سلوكه ... بل ان المبادىء والمثل التى يسترشد بها المرء فى توجيه سلوكه يمكن اعتبارها عواطف نحو معان اخلاقية واجتماعية مجردة كحب العدل وكره الظلم . وليس **التعصب** الا عاطفة أو اتجاها اعمى عنيدا مشحونا بشحنة انفعالية قوية يحول دون صاحبه أن يتقبل الأدلة على خطأ رأى أو حكم اتخذه ازاء موضوع معين ، التعصب الطبقى أو السياسى أو الاقتصادى .

تكون الاتجاهات والعواطف :

تتكون الاتجاهات والعواطف من تكرار ارتباط الفرد بموضوع الاتجاه أو العاطفة فى مواقف مختلفة ترضى فيه دوافع مختلفة وتثير فى نفسه مشاعر سارة لذيذة ، أو تحبط لديه بعض الدوافع وتثير فى نفسه مشاعر منافرة مؤلمة . فعاطفة الولاء للوطن تتكون من تكرار ارتباط الوطن بمواقف ترضى فى المواطن دوافع كثيرة . فالوطن الذى يوفر العمل للمواطن ويضمن له الاجر العادل ، ويساويه فى الفرص بغيره ، ويكفل له الحريات الأساسية والضمانات الاجتماعية ، ويؤمنه من عوادى الزمن ، ويكفل له الامن والطمأنينة والعزة والكرامة ، ويحميه من العدوان الداخلى والخارجى ، ويتيح له الفرص لتوكيد ذاته والتعبير عن رأيه .. هذا الوطن خليق أن يبث فى نفوس المواطنين

الولاء له والتضحية من أجله • وعاطفة الصداقة تنشأ وتتكون تدريجيا نحو شخص يفتح صدره لك ويقاسمك متاعبك ويعينك فى الشدة وعند العثار ويحتمل أخطاءك ويدافع عنك فى غيبتك ويستمع الى شكواك ويشعرك بأنك غير وحيد ويحول بينك وبين السخط على الناس ، يشاركك فى مسراتك فيضاعفها وفى أحزانك فيخففها ، ويعطيك من تجاربه ما يفيدك •• مما يزيد شعورك بالامن وباحترام النفس • كذلك الحال فى عاطفة الكره لشخص أو لشىء ، فهى تكون نتيجة لارتباطه مرات عدة بما يثير فى نفسك الغضب والخوف والنفور والألم وخلف الظن • فتكرار رسوب الطالب فى مادة معينة يجعله ينفر من هذه المادة أو يكرهها •

ومع هذا فقد يتكون الاتجاه أو العاطفة أحيانا فى أثر صدمة انفعالية واحدة • فحب الزوج زوجته قد ينهار على حين فجأة لتحل محله الكراهية والبغضاء ان اتضح له حيودها عن الوفاء والاخلاص له •

ويقوم **الايحاء** **suggestion** بدور كبير فى تكوين اتجاهاتنا وعواطفنا ازاء الآراء والأفكار والمعتقدات والنظم الاجتماعية • ويقصد بالايحاء أو الاستهواء التأثير دون اقناع منطقى ودون أمر أو قسر لقبول رأى معين أو احتضان اتجاه معين أو أداء فعل معين • وتزداد قابلية الفرد للايحاء أى لتقبله ما يوحى به اليه دون مناقشة أو نقد أو تمحيص أن كان طفلا أو جاهلا أو منفعلا أو مريضا أو فى حشد من الناس أو كان الايحاء صادرا من شخصيات بارزة أو ذات نفوذ •• على هذا النحو يتشرب الطفل كثيرا من الآراء والاتجاهات والمعتقدات الشائعة فى أسرته ، دون قصد منه ، ودون نقد أو تحليل ، كاتجاهات الاسرة نحو الدين والوطن والنظام الاجتماعى أو الاقتصادى ، نحو المباح أو المحظور ، نحو النظام أو الفوضى ، نحو المسالمة أو العدوان ، نحو حب جماعة أو كره أخرى •• لذا فنحن نحمل معنا من عهد الطفولة كثيرا من الانحيازات الضحلة والاتجاهات الحمقاء ازاء بعض الاشخاص أو الجماعات أو الآراء أو العادات •

وليست الأسرة وحدها مصدر ما نكتسبه من اتجاهات عن طريق القابلية للايحاء ، فهناك المدرسة والصحافة والاذاعة والتلفزيون والدعاية والمطالعات الخاصة وأفكار قادة الرأى وما نسمعه من أصدقائنا

وزملائنا من آراء .. على هذا النحو تتكون الـكثرة من اتجاهاتنا وعواطفنا . فنحن لم نكتسبها ، صغارا أو كبارا ، عن طريق التعقل والتفكير والتحليل . بل بطريقة لا شعورية غير مقصودة عن طريق التكرار والقابلية للايحاء والعدوى الاجتماعية . وهذا لا ينفى اننا نكتسب اتجاهات وعواطف نتيجة تعليم مقصود يقوم به الآباء والمربون .. هذا فضلا عن فئة من الاتجاهات نكتسبها ونحن كبار عن قصد وعن طريق التفكير الهادىء والتحليل . ويكون ذلك حين نريد أن نحدد موقفنا من موضوع جدلى أو مشكلة اجتماعية يدور عليها النقاش فى بيوتنا أو مجتمعنا ، كمشكلة تحديد النسل أو الغاء عقوبة الاعدام .

تؤكد مدرسة التحليل النفسى أهمية الاتجاهات والعواطف التى نتشربها من محيط الاسرة ونحن صغار فى اتجاهاتنا نحو الناس وصلاتهم العاطفية بهم ونحن كبار . فالطفل الثائر على أب متعسف مستبد يحتمل أن يثور فيما بعد على النظم الاقتصادية أو الاجتماعية المقررة، أو يثور على مهنة أبيه فلا يختارها لنفسه .. ثم ان الاتجاهات التى تتكون داخل الأسرة نتيجة الصراع بين الطفل ووالديه أو بينه وبين اخوته تكون أعمق وأبقى أثرا وأكثر اصطباغا بالانفعال واستعصاء على التغير من الاتجاهات التى نكتسبها عن طريق الجرائد أو الاذاعة .. فهذه تكون اتجاهات سطحية ذات شحنة انفعالية ضعيفة نسبيا ، ومن ثم لا يصعب تغييرها .

فلو عرف كل أب أن اتجاهات الطفولة ذات أثر باق فى حياة الفرد كلها وفى خلقه وطرق معاملته للناس ، وأنها تستعصى على التغيير الى حد كبير لبادر الى غرس ما يجب غرسه منها فى نفس طفله من غير تسويف ، ولبادر أيضا الى علاج غير الصالح منها قبل أن يعز اصلاحه .

اثر الاتجاهات فى الآراء والسلوك :

الرأى opinion هو حكم أو وجهة نظر الى موضوع معين : هو اعتقاد يأخذ به الشخص على أساس من المعرفة والواقع لا على أساس العاطفة والرغبة . غير أن هذه الموضوعية المفترضة للرأى غالبا ما تكون خداعا للذات ، اذ الواقع أن أغلب آرائنا وأحكامنا تعبر عن

اتجاهاتنا وعواطفنا بدرجة أكبر مما نظن ، فان كان اتجـاه المرءوس نحو رئيسه اتجاها جافيا بغيضا ، فسر المرءوس كل ملاحظة أو نقـد من رئيسه على أنه تحكم فيه واستبداد به أو محاولة لتسقط أخطائه. اما ان كان اتجاها راضيا طيبا فسر الملاحظة أو النقد على أنه توجيه لصالحه . ولو سألت المرءوس فى الحالة الأولى عن رأيه فى رئيسـه لبدأ يعدد لك مساوئه ويغلو فى وصفها ، ومن البعيد أن يذكـر لك محاسنه ومزاياه . وقديما قيل « حبك الشىء يعمى ويصم » أى يعمى عن رؤية العيوب ويصم عن سماع المثالب والمـآخذ . وبمـا أن كل اتجاه ينطوى على رأى ، ويتضمن حكما . بالقبـول أو الـرفض ، بالموافقة أو المعارضة ، فآراء الفرد أو الجماعة تعطى فكرة يعتد بها عن اتجاهاتها النفسية . لذا تدرس الاتجـاهات الجماعية للشعب أو لفئة منه عن طريق استطلاع الآراء الجماعية (الرأى العام) ويكون ذلك مثـلا حين نريد معرفة اتجاهات الناس حيال موضوعات مثـل تحديد النسل أو التسعيرة الجبرية أو فوز أحد المرشحين أو احتمال وقوع الحـرب .

٤ ــ الميول المكتسـبة

الميل المكتسب أو الاهتمام interest اتجاه نفسى ، لكنه اتجـاه موجب بطبيعة الحال . فنحن نميل الى شخص أو الى مهنة أو هواية أو كتاب معين . وكل من الميل والاتجاه مصطبغ بصبغة وجدانية تكون سارة فى حالة الميل ، لكنها تكون سارة أو منافرة فى حالة الاتجاه .

ويميل كثير من الكتاب المحدثين الى قصر موضوعات الميـول على الأشخاص والأشياء الخاصة النوعية كالميل الى صديق أو مهنة أو نشاط رياضى أو اجتماعى معين ، فى حين يستخدمون اصطلاح الاتجاه حين تكون الموضوعات أوسع واشمل ، كالاتجاهات نحو الجماعات والشعوب أو المؤسسات أو الأفكار العامة أو المشكلات الاجتماعية .

ثم أن الميل يكون فى العادة أكثر فاعلية فى دفعنا الى النشاط والعمل من الاتجاه . فالذى يميل الى قراءة مجلة معينة أو تصـوير مناظر معينة فانه يبحث ويفتش عنها ، فى حين أن اتجاهاتنا قد تجعلنا ننتظر حتى يحين الوقت الملائم للتعبير عنها . غير ان هذا لا يعنى أن الميول

أشد قوة من الاتجاهات ، فاتجاهاتنا لها من القوة على توجيه أفعالنـا وتفكيرنا ومشاعرنا مثل ما للميول •

وتختلف الميول باختلاف السن والجنس والبيئـة والحضـارة • فللاطفال ميولهم ، وللشباب ميولهم وللشيوخ ميولهم أيضـا • ومن الملاحظ أن البنين يميلون الى الالعاب العنيفة التى تتطلب مجهودا ، كما أنهم يميلون الى المغامرات خارج المنزل والى قراءة سير الابطـال والمخاطرين والجوالة والمكتشفين فى حين أن البنات يملن الى الفنون المنزلية والأعمال الفنية والاجتماعية والالعاب الهادئة وقراءة القصص الغرامى والخالى من العنف •

٥ ـ حـكم العـادة

يقصد بحكم العادة ميل الفرد الى الاستمرار على ارضاء دوافـع معينة بطرق خاصة دون غيرها ، أو ميله الى تكرير السلوك المـألوف والتشبث به ومقاومة السلوك الجديد أو الغريب • فمن اعتاد أن يأكل بالشوكة والسكين عز عليه أن يأكل بأصابعه ، ومن اعتـاد أن يرضى دافع الجوع بأطعمة أعدت بطريقة خاصة رفض تناولهـا ان أعـدت بطريقة أخرى ، ومن ألف أن يلتمس الاستجمام والراحة عن طـريق القراءة لم يجد راحة فى الذهاب الى السينما ، ومن الناس من يصيبهم الأرق ان تغير مكان نومهم • كأن العادات أصبحت نفسها دوافع تحملنا على الاستمرار فى السلوك المألوف بدلا من اصطنـاع طرق أخـرى لارضاء دوافعنا•الواقع أن الانسان لو راقب نفسه من لحظة استيقاظه حتى يعود الى مخدعه لرأى أن أغلب أفعاله لا تعدو أن تكون صورا تتكرر بعينها يوما بعد يوم ، فأسلوبه فى حديثه ومشيته ، وطريقتهفى مأكله ومشربه وزينته والترويح عن نفسه ، بل وطريقته فى ضحـكه وتأمله وتفكيره : هذا الى مواعيد نومه وطعامه وذهابه الى عمله ، كل تلك تتكرر على وتيرة واحدة ثابتة لا تتغير • فسلطان العادة يتحكم فى الشطر الأكبر من سلوك الانسان ، حتى قيل أن العادة طبيعة ثانية ، وحتى قال بعض العلماء أن لدى الانسـان ميلا فطـريا الى تكـرار المألوف وتفضيله على الجديد •

وربما كان الميل الى تكرار المألوف يرجع الى أن الانسـان ينزع بطبعه الى بذل أقل جهد لبلوغ غايته ، أو لأن المألوف يعفينا من تركيز

الانتباه لادائه بما يتيح لنا أداء أكثر من عمل فى وقت واحد » ، وربما كان السبب توجس الانسان من الجديد ومن المجهول •

ويلاحظ أن حكم العادة يختلف عما يراه أولبورت من استمرار العادة حتى بعد زوال الدافع اليها كاستمرار السلوك الجنسى بعد سن اليأس•

٦ ـ مستوى الطموح

مستوى الطموح [١] هو المستوى الذى يضعه الفرد لنفسه ويرغب فى بلوغه ، أو يشعر أنه قادر على بلوغه وهو يسعى لتحقيق أهدافه فى الحياة أو انجاز أعماله اليومية • هذا يصبو أن يظفر بعمل يدر عليه ربحا كثيرا ، وآخر يطمح الى عمل يكفل له درجة كبيرة من الأمن مهما كان دخله ، وثالث يقنع بمهنة متواضعة أو دخل يسير • هذا يشعر أنه قادر على أن يجمع ثروة فى عامين ، وذاك فى عشرة أعوام •

وقد يتساوى شخصان فى مستوى طموحهما ولكن لأسباب مختلفة كل الاختلاف • فقد يتوقان الى مهنة الطب مثلا ولكن نتيجة لمجموعتين مختلفتين من الدوافع والبواعث الآتية : لأنها مهنة تدر ربحا كبيرا ، أو رغبة فى مجاراة تقاليد الاسرة ، أو فى الامتثال لرأى الوالدين ، أو فى تحدى رأيهما ، أو الاعجاب بشخصية طبيب بارز ، أو الرغبة فى تخفيف آلام الناس ، أو لأن كثيرا من الزملاء التحقوا بكلية الطب ، أو بدافع الخوف من الموت أو المرض ، أو بدافع لا شعورى لارضاء الأم من حيث عضو الأسرة الذى يتعهد المرضى ، أو نتيجة لميل طفلى خفى لم يشبع لاستطلاع خفايا جسم الانسان •

ومن العوامل التى تسهم فى رسم مستوى الطموح **فكرة الفرد عن نفسه** [٢] وهى الصورة التى يكونها الفرد لنفسه عن نفسه من حيث ما يتسم به من صفات وقدرات جسمية وعقلية وانفعالية • هل يرى نفسه ضعيف الجسم أم قويا ، ماهرا أم أخرق ، رشيقا أم غليظا ، هل يحسب نفسه ذكيا أم غير ذكى ، هل يرى نفسه طموحا أو مثابرا أو خجولا أو ودودا أو سريع الغضب •• ويتوقف قرار الفرد واختياره على هذه الصورة التى يراها لنفسه ، فان كان يظن نفسه غير ذكى تجنب الاعمال التى تتطلب مستوى عاليا من التفكير والتقدير ، وان

---

(١) Level of aspiration
(٢) Self - concept

سمع الناس يصفونه على الدوام بانه أخرق الحركات توقع أن يفشل فى الأعمال التى تتطلب مهارة حركية .. لذلك نـــرى المغرور المصاب بتضخم خبيث فى شعوره باهميته وتقديره لذاته ، نـــراه يضع لنفسه مستوى طموح أعلى بكثير من **مستوى اقتداره**[1] أى مستوى قدراته الفعلى . أما المصاب بضمور شديد فى تقديره لذاته أو من كان شديد الحساسية لنقد المجتمع فيكون مستوى طموحه فى العادة دون مستوى اقتداره بكثير لأنه يرى الفشل خطرا يهدد احترامه لنفسه .

وكثيرا ما تكون فكرة الفرد عن نفسه ناقصة أو غامضـــة أو غـــير صحيحة وذلك لميل الانسان الى أن يعمى عن رؤية عيوبه ومثالبه ، فنحن نرى أنفسنا كما نحب لا كما هى عليه فى الواقع . لكنها عامل بالغ الأثر فى توجيه سلوكه ورسم مستوى طموحه ، فهى التى توجهه فى اختيار أعماله وأصدقائه وزوجته ومهنته وملابسه والـــكتب التى يقرؤهـــا والأماكن التى يرتادها ..

ومن العوامل الهامة فى رسم مستوى الطموح ذكاء الفـــرد ودرجة اتزانه الانفعالى . فالذكى أقدر على فهم نفسه والحكم على قدراتـــه وميوله وما تتطلبه الأعمال المختلفة من قدرات وصفات ، لذا لا يكون مستوى طموحه مسرفا فى البعد عن الواقع أى عن مستوى اقتداره . أما المصاب بمرض نفسى وغير المتزن انفعاليا فكثيرا ما يرسم لنفسه مستوى طموح عاليا كنوع من التعويض عن عدم شعوره بالأمن .

ويشعر الفرد بالنجاح ويزداد اعتباره وتقديره لنفســـه متى بلغ مستوى طموحه ، أما ان قصر عن بلوغه شـــعر بالفشـــــل والنقص والحرمان وهبط تقديره لنفسه ، فكأن مستوى الطموح معيار يحكم به الفرد على نجاحه أو فشله فيما يقوم بـــه من أعمال ويســـتهدف تحقيقه من غايات .

وتدل الملاحظات الدارجة والتجارب المعمليـــة على أن مســـتوى الطموح يتغير من آن لآخر تبعا لما يصادف الفرد من نجاح أو فشل فى تحقيق أهدافه ، فالنجاح من شأنه رفع هذا المستوى ، والفشـــل من شأنه الهبوط به . فالطلبة الذين يطمحون فى أن يكونوا أطباء ان لم

(1) Level of achievement

يقبلوا بكلية الطب خفضوا من مستوى طموحهم واتجهوا الى كليات أخـرى ٠

ومن أشد ما ينغص على الفرد حياته ويهيئه لاضطراب الشخصية بعد الشقة بين مستوى طموحه ومستوى اقتداره ، أى بين ما يرغب فيه وبين ما يقدر عليه بالفعل ٠ فهذا يولد فيه الشعور بالنقص والعجز وكذلك الشعور بالذنب واستصغار الذات أو كرهها ٠ فمن أكثر الناس شقاء ذلك الطالب الذى يلتحق بالجامعة فيرسب عاما بعد آخر اما لنقص فى ذكائه أو فى القدرات والصفات اللازمة للتحصيل الجامعى٠ هنا يجب أن تستخدم اختبارات الذكاء واختبارات الاستعـــدادات الخاصة لانتقاء الصـــالحين للدراسة الجـــامعية دون غيرهم ٠ فحبذا لو استطاع المرء أن يعرف مالديه من قدرات وصفات ، وما يتسم به من نواحى القوة والضعف حتى يستطيع تحديد مستوى طموحه وفق حقيقته لاوفق رغبته أو خياله ٠ « ورحم الله امرء عرف قدر نفسه »٠

ومما يذكر أن بعض الآباء يحفزون أولادهم على أن يضعوا لانفسهم مستويات طموح يعجزون عن بلوغها ولا يقبلون منهم مادون ذلك ولا يشجعونهم الا اذا بلغ نجاحهم القمة ٠ وعاقبة هذا توتر نفسى وقلق شديد موصول يصيب الطفل وشعور بالنقص وشـــعور بالذنب لأنه خيب ظن والديه فيه ٠

ومن احصاء أمريكى حديث أن النساء العاملات هناك أكثر تعرضا من ربات البيوت للاصـــابة بضغط الدم المرتفـــع وتصلب الشرايين والانهيار النفسى ٠ ويقال ان السبب فى ذلك لا يرجع الى جمع المرأة بين عملها والبيت بقدر ما يرجع الى ارتفاع مستوى طموحها ٠

الفصل الثالث

الدوافع اللاشعورية

١ ـ تمهيـــــد

لا يشعر الانسان دائما بما يحفزه من دوافع شعورا واضحا صريحا، أو يقوم بأعمال لا يعرف لماذا قام بها ؟ • فهو يستيقظ فى الصباح على صوت الساعة الرنانة فيغسل وجهه وينظف أسنانه ويحلق ذقنه ويتناول الافطار ويقرأ جريدة الصباح ••• كل أولئك وهو لا يفطن الى طبيعة الدوافع التى تقوم وراء أعماله هذه • اذ لا سلوك بدون دافع • ومن الناس من يكتب خطابا لكنه ينسى أن يلقيه فى صندوق البريد فيظل الخطاب فى جيبه أو على مكتبه أياما • وقد يزل لسان الفرد وهـــويتكلم فينطق بكلمة أو عبـــارة لم يقصد اليهـــا بل قد تكون عكس ما يـــريد فتسبب له من الحرج الشىء الكثير ، وقد ينسب هذه الزلة الى السهو أو الغفلة أو التعب أو الانفعال الى غير تلك من الأسباب التى يبعد ان تكون الاسباب الحقيقية لزلته • ومن الناس من يخـــاف عبـــور الشوارع أو رؤية الدم أو المكث فى مكان مقفل أو من حيوان غير ضار كالفأر أو الصرصار ، وهو لا يعرف لذلك دافعا أو سببا • ومنهم من يسرف فى غسل يديه كلما صافح شخصا أو فتح بابا أو لمس كتابا •• وظاهرة النوم المغناطيسى تزودنا بدليل قاطع على ما يحفز الانســـان من دوافع لا يشعر بوجوها •

النوم المغنـــاطيسى Hypnosis

هو نوم صناعى يحدث عن طريق الاسترخاء الجسمى وتركيز الانتباه فى مجال ضيق من الاشياء أو الافكار بايحاء من المنوم ، ولا يحدث نتيجة لمواد مخدرة • ولهذا النوم درجات مختلفة من العمق • ومما يتميز به تضخم قابلية النائم لايحاء المنوم تضخما شديدا•فان وضع المنوم فيد النائم عود ثقاب وأوحى اليهأنوزن العود يزداد رويدا رويدا تخاذلت

يد النائم حتى لا يستطيع حمل عود الثقاب ، بل لو أوحى اليه بأنه كلب قام النائم فمشى على أربع وأخذ فى النباح ! ومن خصائص هذا النوم أيضا أن ينفذ النائم بدقة بعد استيقاظه ما أوحى اليه المنوم به ، حتى لو طلب اليه المنوم أن ينسى كل ما حدث له فى أثناء النوم . فلو كلفه المنوم القيام بعمل معين بعد استيقاظه بوقت محدد ككتابة خطاب الى شخص معين أو الذهاب الى حجرة معينة أو ملء ساعة الحائط .. فانه ينفذ هذا العمل المحدد دون أن تكون لديه عند استيقاظه أية ذكرى عما أوحى اليه به . من ذلك أنه أوحى الى شخص أثناء نومه أن يقوم بالأعمال الآتية فى ساعة محددة بعد مرور خمسة عشر يوما : يخرج الى الشارع ومعه مظلة يفتحها ويسير بها فى الطريق مهما كان نوع الطقس ، ثم يشترى شيئا معينا تافها لا حاجة له به .. فلما كان اليوم المحدد والساعة المحددة شعر الشخص بشىء من الضيق وبدافع ملح الى أداء ما أوحى اليه به ثم قام بتنفيذه . فلما سئل عن السبب فى قيامه بهذه الافعال قال انه لا يعرف ، وكل ما فى الامر أنه فى الساعة المحددة من اليوم المعين طرأت على ذهنه فكرة القيام بهذه الاعمال ، لكنه حين رأى أنها أعمال سخيفة عزم على ألا ينفذها ، غير أنه لم يستطع أن يقاوم هذا العزم وشعر أنه لو قام بأدائها تخفف مما يعانيه من ضيق وتوتر .. أمثال هذه الظاهرة تكفى وحدها للتدليل على وجود دوافع لا شعورية ، بل تدل فوق ذلك على ما لهذه الدوافع من أثر جبرى لا يقاوم .

٢ ـ أسباب عدم الشعور بالدافع

لعدم الشعور بالدافع أسباب كثيرة منها :

١ ـ أن طرق ارضائنا لدوافعنا الفطرية والمكتسبة ثبتت وأصبحت عادات نقوم بها دون أن نتنبه أو نفكر فيما يقوم وراءها من دوافع . فنحن نراعى العرف ، ونحترم القوانين ، وننتمى الى جماعة ، ونعبر عن آرائنا ، ونتعاون مع الناس أو ننافسهم ، ونعقد الصداقات .. كل أولئك دون شعور صريح بالدوافع التى تحملنا على هذه الاوجه المختلفة من النشاط .

٢ ـ أن الانسان لا يحاول استشفاف دوافعه الا اذا اعترضت تنفيذ هذه الدوافع عقبات مادية أو اجتماعية . فالحب الذى ينشأ وينمو ببطء

وبالتدريج لا يشعر به المحب الا حين يعترضه فتور أو فراق أو موت أو منافس يثير الغيرة ، هنا يبدو الحب المحبط على صورة انفعال يثير الحاجة الى الفهم والتحليل • فنحن لا نحس فى العادة بدرجة حرارة الجو أو ضغط الهواء على أبداننا الا حـين تنخفض درجة الحـرارة أو يتخلخل الهواء بشدة وعلى حين فجأة •

٣ — وحتى ان حاول الانسان أن يتأمل فى سلوكه وأن يجعل من دوافعه موضوعا لتفكيره وتحليله فقد لا يوفق لاسباب عدة منها :

(أ) أن السلوك الانسانى يندر أن يصدر عن دافع واحد ، وأغلب الامر أن يكون حصيلة نتداخل عدة دوافع يتضافر بعضها مع بعض ، أو يتنافر بعضها مع بعض • فالانسان قد يتصدق اختيارا أو اضطرارا ، طمعا أو خوفا ، سخاء أو تساخيا ، حرصا أو زهدا أو اختيالا أو ذرا للرماد فى العيون ، والاغلب أن يكون بمجموعة من هذه الدوافع • كما أنه قد لا يتصدق مع وجود دافع يحمله على الصدقة لانه لديه دوافع أخرى تمنعه من ذلك كالاستحياء مثلا • كذلك الانسان لا يكد ويكدح فى الحياة للحصول على لقمة العيش فقط ، بل وطلبا للامن والتقـدير الاجتماعى ، أو للظهور والسيطرة ، أو لكى يساعد أهله وأقاربه ، أو لكى يتزوج ويسهم فى الخدمات العامة ، أو لأن العمل يتيح له التعبير عن شخصيته واظهـار ما لديه من قدرات ومواهب • والاغلب أن يكون بمجموعة من هذه الدوافع •• ولا يخفى أن تشابك الدوافع على هذا النحو يجعل تحليلها والكشف عنها أمرا يعز على غير الخبير الذى لا يملك ثقافة سيكولوجية •

(ب) وقد يتعذر أو يستحيل على الفرد معرفة أصول دوافعه الحالية لأنها ذات تاريخ قديم لفه النسيان من عهد الطفولة فغطى على تلك الاصول فمن الرجال من يميلون الى الشقراوات دون السمراوات من النساء • وقد يكون الدافع الى هذا الميل حدثا قديما سارا مع شقراء، أو حدثا منافرا أو مؤلما مع سمراء • ومن الناس من لا يطيق أية ملاحظة أو نقد يوجه اليه ، كما لا يطيق أى مدح أو اطراء يوجه الى غيره • وأكبر الظن أن هؤلاء لا يدرون أن اتجاههم هذا ترجع أصوله الى عهد الطفولة يوم كان الوالدان يتخذان من مدح أحد أطفالهما وسيلة للوم آخر أو عقابه أو السخرية منه •

(جـ) بيد أن أهم العوامل التى تحول دون الشعور بالدافع ومعرفة طبيعته أن يكون الدافع ثقيلا على نفس الفرد يجلب له القلق أو الخزى أو الذعر أو يمس كرامته ان بدا له الدافع واضحا فى بؤرة شعوره ، لذا فهو يعمى عن رؤيته ، بل وينكره انكارا ان انكشف له • فمن العسير أو المحال أن تكاشف أما تسرف فى العناية بطفلها بأن الدافع الحقيقى لاسرافها هذا هو كراهية تحملها فى أعماق نفسها لطفلها ، وهى كراهية لا تشعر بها • ومن العسير أو المحال أيضا أن نفاتح أحد الزهاد المسرفين بما يحمله فى أعماق نفسه من دوافع شهوية خفية هى أساس اسرافه هذا • وكم من معتد أثيم لا يفطن الى أن ما يدفعه إلى العدوان شعور خفى عميق بالنقص •• نقول من المحال أن نكاشف الناس بما يجهلونه فى أعماق نفوسهم من دوافع لانهم لا يعرفونها ، وحتى ان كاشفناهم بها أنكروها انكارا ، أو أخذوا يبررون سلوكهم بشتى المبررات والدوافع الس لحية غير الحقيقية كما يبرر الوسواسى اسرافه فى غسل يديه بحبه للنظا ة !• لذا يجب علينا ألا نأخذ ما يقوله الناس عن دوافعهم على •، لا لأنهم يكذبون ولكن لأنهم لا يعرفون •• ويسمى هذا التنكر للدوافع الكريهة الاليمة بالكبت مما سندرسه بعد قليل •

تعريف الدافع اللاشعورى

للدافع اللاشعورى معنيان ، معنى عام يسير عليه جمهرة علماء النفس، ومعنى خاص تأخذ به مدرسة التحليل النفسى • فالدافع اللاشعورى بمعناه العام هو الدافع الذى لا يشعر به الفرد أثناء قيامه بالسلوك أيا كان السبب فى عدم الشعور به • بهذا المعنى العام كثيرا ما تكون الحاجات النفسية والاتجاهات النفسية والعادات الدافعة ومستوى الطموح دوافع لا شعورية ، هذا علاوة على الدوافع المكبوتة •

أما الدوافع اللاشعورية ، عند مدرسة التحليل النفسى ، فتنقسم قسمين : دوافع لا شعورية مؤقتة أو شبه شعورية preconscious وهى الدوافع التى لا يشعر بها الفرد أثناء قيامه بالسلوك لكنه يستطيع أن يكشف عنها وأن يحدد طبيعتها ان أخذ يتأمل فى سلوكه وفى الدوافع تحركه • ودوافع لاشعورية دائمة unconscious وهى الدوافع القديمة أو المكبوته التى لا يستطيع الفرد أن يميط اللثام عنها مهما حاول وبذل من جهد وارادة ، والتى لا يمكن أن تصبح شعورية الا بطرق خاصة

كطرق التحليل النفسى أو التنويم المغناطيسى • فالشخص الذى نسى أن يلقى خطابا فى البريد ان أخذ يبحث عن السبب فى نسيانه هذا لوجد أنه رغبة دفينة عنده فى عدم القائه •• كانت هذه الرغبة دافعا شبه شعورى ؛ أما ان استحال عليه هذا الكشف كانت هذه الرغبة عنده دافعا مكبوتا • ومما يجب ذكره أن كتب علم النفس والتحليل النفسى الدارج كثيرا ما تخلط بين الدوافع اللاشعورية الدائمة والدوافع اللاشعورية المؤقتة فتجمع بينهما •

٢ ــ عملية الكبت Repression

الكبت بمعناه العام هو استبعاد دافع أو فكرة أو صدمة انفعالية أو حادثة أليمة من حيز الشعور • وكبت الحوادث والصدمات يعنى نسيانها • أما كبت الدافع فيعنى انكار وجوده ، والعزوف عن التحدث عنه أو تذكره أو التفكير فيه ، والرغبة فى عدم مواجهته ، ورفض الاعتراف به ان أصبح واضحا فى شعورنا • فمن الدوافع ما يؤذى نفوسنا أو يجرح كبرياءنا واحترامنا لانفسنا ، ويسبب لنا القلق والالم والضيق ان ظل ماثلا فى شعورنا ، كشعورنا بالنقص من عيب فينا ، أو شعورنا بالذنب من جرم أتيناه ، أو رغبتنا فى الانتقام من صديق ، أو كراهية الطفل لابيه الذى يقسو عليه أو خوفنا من الفشل ، أو ارتيابنا فى شخص نثق فيه ، أو غيرتنا من منافس ، أو ميلنا الجنسى الى بعض محارمنا •• كل هذه دوافع نستبعدها من شعورنا ، أى ننكر الاعتراف بوجودها حتى لا تكون مصدر ازعاج لنا •

وينجم عن كبت الدافع بطبيعة الحال منعه من التعبير الصريح عن نفسه ، لان الانسان مادام ينكر الدافع ولا يعترف بوجوده لم يستطع ارضاءه بطريقة مباشرة • فكأن للكبت وظيفتين أساسيتين فى الحياة النفسية : فهو وسيلة دفاعية وقائية لأنه يقى الفرد مما تعافه نفسه وما يسبب له الضيق والقلق ، وما يتنافى مع مثله الاجتماعية والخلقية والجمالية ، وما يمس احترامه لنفسه • وبعبارة أخرى فهو وسيلة لخفض التوتر النفسى • أما الوظيفة الثانية للكبت فهى منع الدوافع الثائرة المحظورة خاصة الدوافع الجنسية والعدوانية من أن تفلت من زمام الفرد وأن تتحقق بالفعل بصورة سافرة مباشرة مما قد يكون خطرا على الفرد أو ضارا بصالحه فى المجتمع •

غير أنه بالرغم مما للكبت من هذه الفوائد الظاهرة الا أنه ينطوى على أضرار وعواقب وخيمة منها أنه خداع للنفس • فالذى يعانى كبتا جنسيا ينكر أن للدافع الجنسى سلطانا عليه وهذا يمنعه من أن يلتمس النصح لحل أزمته الجنسية فتظل الازمة قائمة غير محسومة ، كذلك من يكبت شعوره بالنقص فانه لا يعترف بهذا الشعور بل ولا يعترف بنقصه ، وهذا يمنعه من تقويم هذا النقص ، والطفل الذى يكبت رغبته فى تقبل العطف والحب من والديه لا يزال يحن حنينا لا شعوريا الى هذا العطف لكنه ينكر ذلك ولا يعترف به لنفسه وللناس • والجندى الذى يصاب بشلل فى ساقيه وهو فى جبهة القتال من جراء كبته لخوفه ، لا يبرح ينكر هذا الخوف ولا يعترف به لنفسه وللناس • ولو قد اعترف به ما أصابه الشلل • وكم من مغرور أو بخيل أو أنانى أو معتد يرفض الاعتراف بما يحركه من دوافع رذيلة، بل قد يعتقد المعتدى أنه شخص مسالم ودود •• من هذا يتضح لنا أن الكبت يشطر الشخصية شطرين ، شطر يريد وشطر لا يريد ، شطر يعترف وشطر ينكر ، شطر يحب وآخر يكره ، شطر يخاف واخر لا يخاف • وهذا الانشطار فى الشخصية هو أساس ما يصيب الشخصية من اضطرابات شتى كما سيتضح لنا من ثنايا هذا الكتاب • فكأن عملية الكبت حيلة ساذجة غشيمة كحيلة النعامة حين تفاجأ بخطر فتدفن رأسها فى الرمل ظنا منها أنها مادامت لا ترى الخطر فالخطر غير موجود • انه حيلة ظاهرها فيه الرحمة وباطنها من قبله العـــذاب •

الكبت والقمع

القمع suppression هو الاستبعاد الارادى المؤقت للدوافع من حيز الشعور ، أو هو ضبط النفس بمنع الدوافع والانفعالات من التعبير عن نفسها تعبيرا صريحا ، كما يقمع المرءوس مظاهر غضبه من رئيسه ، أو كما يقمع الفرد اشمئزازه من عمـــل أتاه ، أو مظاهـــر خوفـــه من الامتحان ••

أما الكبت فعملية لا شعورية أى تصدر عن الفرد دون قصد أو ارادة منه • وتأويل ذلك أن كل استجابة تريح الفرد من الالم وتخفض ما يعانيه من توتر فان الفرد يميل الى تكرارها حتى تثبت وتصبح عادة مكتسبة • فالطفل يكرر السلوك الذى يلاقى استحسان والديه ، والكلب يذهب الى

المكان الذى اعتاد أن يجد فيه طعاما • وقد رأينا أن للكبت وظيفة وقائية فهو يدفع عن الفرد مشاعر القلق والنقص والذنب والخجل •• فمتى وقع الفرد عليه ـ أى الكبت ـ عن طريق المحاولة والخطأ ورآه وسيلة مريحة يتخفف بهـا من توتره مال الى تكراره حتى يصـبح عادة أى استجابة تصدر عنه بطريقة آلية لا شعورية أى غير مقصودة ، لا تسبقها روية أو تفكير كأغلب العادات •

فالقمع عملية شعورية ارادية ، والكبت عملية تلقائية لا شعورية • وفى القمع نشعر بالدافع ونعترف به ولا ننساه ،أما فى الكبت فلا نشعر بوجود الدافع بل لا نعترف بوجوده •• ونشير أخيرا الى أن تكرار قمع الدافع ـ رغبة كان أم انفعالا ـ يؤدى الى كبته ، وأن الكبت فى عهد الطفولة أشيع من القمع بكثير ، لان القمع يتطلب جهدا وضبطا للنفس لا يقدر عليهما الطفل •

٤ ـ أمثلة من حياتنا اليومية للدوافع اللاشعورية

كان العلماء حتى أواخر القرن الماضى يرون أن الحياة النفسية ليست أكثر من الحالات والدوافع الشعورية ، كما ظلوا يفسرون جميع الظواهر النفسية بعمليات وعوامل شعورية ، حتى ظهرت لبعض أطباء النفس اضطرابات فى الشخصية لا يمكن تفسيرها وتأويلها الا بافتراض عمليات وعوامل نفسية لا شعورية لا يفطن المريض الى وجودها اطلاقا ، ومن ثم افترضوا وجود جانب خفى من النفس ، وأطلقوا عليه اسم « الجانب اللاشعورى » أو اللاشعور أو العقل الباطن The unconscious • وقد كان للعـالم « فرويد » مؤسس مدرسة التحليل النفسى الفضـل فى دراسة هذا الجانب المظلم من النفس وبيان أثره فى السلوك السـوى والسلوك الشاذ للانسان • من ذلك أنه بين أن الدوافع اللاشـعورية لا يتضح أثرها فى اضطرابات الشخصية فقط ، بل وفى سلوكنا العادى فى حياتنا اليومية أيضا : فى فلتات اللسان وزلات القلم ونسيان المواعيد وألعاب الأطفال •• وبعبارة أخرى ليست الدوافع اللاشعورية كالزائدة الدودية لا تصبح ذات أهمية وخطر الا متى التهبت فنجمت عن ذلك الأمراض النفسية والعقلية ، لكنها قوة حيوية دافعة فى النشاطالعادى للانسان • من ذلك مثلا :

١ ــ فلتات اللسان وزلات القلم

هي تلك الهفوات والاخطاء التي يتورط فيها لسان الانسان أو قلمه على غير قصد ظاهر منه والتي قد تقلب المعنى الذي يريده رأسا على عقب فتسبب له كثيرا من الحرج أحيانا • فمن أمثال فلتات اللسان أن وقف أستاذ في الجامعة يثني على سلفه فاذا به يقــول أمام الحفل : لا يسعني الا أن أهنئه على « جموده » في البحث بدل أن يقول على « جهوده » في البحث • ومن ذلك أيضا ما قاله رجل لزوجته « اذا مات أحدنا قبل الآخر فسأتخذ الاسكندرية مقاما لي ! » : ومن زلات القلم ما كتبه رجل لآخر : لقد كان لقاؤنا « أنحس » مناسبة لعقد الصفقة ، بدل أن يقول « أحسن » مناسبة لعقد الصفقة • وما كتبه شخص الى زميل له : أشكر الله على ما أنت فيه من « نقمة » وذلك بدلا من « نعمــة » •

لقد كانت أمثال هذه الهفوات تنسب قبل فرويد الى السهو والغفلة أو الى المصادفة أو العجلة أو التعب •• غير أنه بأسلوبه الخاص في التحليل النفسي بين أن وراء كل هفوة دافع لا شعوري لا يفطن الشخص الى وجــوده أو الى صلته بالهــفوة : كراهية لا شــعورية أو غيرة لا شــعورية ••

٢ ــ النســـيان :

كذلك اتضح أن كثيرا من حالات النسيان تكون تعبيرا مباشرا عن دوافع لا شعورية كنسيان المواعيد التي نحددها للناس مخلصي الرغبة في حضورها • هنا يكون النسيان رمزا الى رغبة لا شعورية في الفرار من الشخص وعدم لقائه لأمر ما • وقل مثل ذلك في نسيان بعض الناس ما يستردونه من كتب أو ما يقترضونه من مال ، ونسيان الزوج عيد ميلاد زوجته • ونســيان القاء خطاب في البريد أياما معــدودة •• ويحدثنا أحد أئمة التحليل النفسي أنه أعد مرة خطابا ليرسله لكنه تركه على مكتبه عدة أيام • وقد دهش أول الامر لهذا السهو ثم أخذه معه ليلقيه في صندوق البريد فاذا الخطاب يرد اليه لأنه نسي أن يعنونه بالعنوان الكافي ، فأكمل العنوان وألقاه في البريد لكن الخطاب كان في هذه المرة غفلا من طابع البريد • وعندئذ اضطر الى أن يعترف لنفسه بأنه لم يكن مرتاحا لارسال هذا الخطاب •

ومن حالات النسيان الغريبة بل المذهلة أن ينسى أحدهم فى التاكسى حقيبة مملوءة بالاوراق المالية أو المجوهرات ، أو ينسى الشاب موعد عقد قرانه ، أو تنسى الام طفلها النائم فى القطار وهى تغادره !

٣ ــ اضاعة الاشياء :

لا تكون اضاعة الاشياء دائما نتيجة اهمال • بل ان الظروف والملابسات تشير فى كثير من الاحيان الى أنها نتيجة قصد دفين لا شعورى لا نفطن الى وجوده • فنحن نضيع الاشياء متى رثت أو بليت أو أردنا أن نستبدل بها خيرا منها أو ان انصرفت النفس عنها أو ان جاءتنا من أشخاص لم يعد بيننا وبينهم ود موصول • فقلم الحبر الذى تريد تغييره بآخر أحدث منه يختفى على حين فجأة • وكم من تلميذ حريص لا تضيع ساعته أو حافظة كتبه الا فى اليوم السابق لعيد ميلاده • ويصرح علماء التحليل النفسى بأن كثيرا من الفتيات اللاتى يضعن خاتم الخطبة ينتهى زواجهن بالطلاق أو الشقاق •• فضياع الخاتم رمز الى رغبة مستخفية فى عدم اتمام الزواج •

٤ ــ تحطيم الاثاث :

يحدثنا « فرويد » أن مكتبه كان يزخر بكثير من التحف الفنية القابلة للكسر لكن لم يتفق له أن كسر شيئا منها • وذات يوم اذا بحركة طائشة من ذراعه تطيح بالغطاء المرمرى لمحبرة المكتب فتلقيه كسارا • ويقول فرويد انه كان قبل الهفوة بقليل يطلع أخته على مجموعته الفنية الثمينة ، فأعجبت بها الا هذه المحبرة التى قالت انها لا تنسجم مع سائر ما على المكتب • وما كاد يعود من نزهته حتى نفذ « القضاء » فى هذه المحبرة بعينها دون غيرها من التحف • ويعلق فرويد على ذلك بأن حركة يده لم تكن طائشة كما وصفها بل كانت حركة ماهرة مقصودة ــ لا شعوريا ــ اذ أنها حققت له غرضا فى نفسه • والدليل على ذلك أنها تجنبت جميع الأشياء الثمينة المحيطة بالمحبرة •• ولعل أمثال هذه الحادثة تبين لنا أن اسراف بعض الخدم فى كسر الاوانى أو تحطيم الاثاث لا يمكن أن تفسر جميع حالاته بالاهمال أو نتيجة خرق فى حركات الخادم •

٥ ــ الأفعال الرمزية :

هى أفعال اتفاقية لا يبدو على ظاهرها ما تنطوى عليه من دلالات خافية • فالتعثر والزلل أثناء المشى تقوم وراءهما دوافع دفينة

لا شعورية هي الخوف من الاعدام أو من الفشل أو عدم الترحيب بتنفيذ ما يسمى انيه العاثر .. وذلك القائد الروماني الذى تعثر على عتبة بابه وهو يزمع السفر فى حملة حربية .. لقد فسر القائد تعثره هذا بأنه لا يرغب « من أعماق قلبه » فى السفر . ومما يذكر أن عامة النـــاس يتطيرون من العثرة ويعدونها نذير سوء . وقد اتفق لـــ « فرويد » وهو يزور أحد مرضاه فى منزله أن وقف أمام باب المريض وأخرج مفتاح مسكنه هو بدل أن يدق جرس الباب . ويعزو فرويد ذلك الى رغبـــة خافية لديه فى أن يكون بمنزله فى تلك الساعة لا فى منزل المريض . وليست فلتات اللسان وزلات القلم الا أفعالا رمزية من هذا القبيل .

٦ ــ ألعاب الاطفـــال :

ترى مدرسة التحليل النفسى أن ألعاب الاطفال ، خاصة المشكلين منهم ، تقوم بوظيفة هامة فى الحياة النفسية للطفل هى معونته على التخفف من القلق الذى ينجم عن احباط حاجاته الفسيولوجية والنفسية الأساسية . فاللعب عند هذه المدرسة تعبير رمزى عن رغبات وعواطف محبطة أو مكبوتة أو مخاوف لا شعورية ، وهو تعبير من شأنه خفض مستوى التوتر والقلق لدى الطفل . فالطفل الذى يحمل لابيه كراهيـــة لا شعورية ان أتيحت له الفرصة أن يلعب بدمى وشخوص وأشـــياء مختلفة،قد يختار واحدة منها يخال أنها الأب فيفقأ عينها أو يلقيها على الأرض أو يدفنها فى التراب .. انه يعبر بلغة رمزية عن مشكلته حين عجز عن التعبير عنها بلغة صريحة .. وهذا طفل فى منتصف الثانية من عمره كانت أمه تتركه وحده فترات طويلة ، فكانت لعبته المفضلة التى يكررها مرات ومرات هى أن يمسك ببكرة عليها قطعة من الخيط فيقذف بها تحت السرير حتى تختفى ، وهنا يصيح منزعجا ، ثم يجذبها اليه وما أن يراها حتى يصيح فرحا بعودتها مرحبا بظهورها . فالطفل فى لعبته هذه يمثل بصورة رمزية مأساة يكابدها ، ويجسم خبـــرة مؤلمة يعانيها ، هى مأساة اختفاء المحبوب وعودته ، وبذا كان يتخفف مؤقتا من حالة القلق التى تسيطر عليه .

٥ ــ خصائص الدوافع المكبوتة

١ ــ رأينا مما تقدم أن الدوافع المكبوته ليست قوى خامدة بل قوى فعالة وان كانت كامنة ، فهى تتحين الفرص للظهور،وقد تبدو سافرة

صريحة فى انفجارات الغضب والاندفاعات الجنسية مثلا عند الصغار والكبار ، أو تبدو فى صور رمزية كفلتات اللسان وزلات القلم ، وغيرها من الهفوات وتتضح صفتها الرمزية بوجه خاص فى أحـلام النوم وأعراض الامراض النفسية كما سنرى فيما بعد •

٢ ـ أنها أقوى أثرا وأصعب ردعا من الدوافع الشعورية ، ذلك انها دوافع مجهولة فلا تسمح للفرد بارضائها ارضاء ملائما ، أو ارجاء ارضائها ، أو توجيهها وجهة مناسبة ، أو التحكم فيها وضبطها بالارادة • فمن عرف دوافعه استطاع أن يتحكم فيها ومن جهلها تحكمت هى فيه • هذا زوج كان يثور ويغضب كلما عاونته زوجته على ارتداء ملابسه وهو يستعد للخروج • وكان يدهش لثورته هذه من شىء تافه كهذا • وقد دل التحليل على أن سلوك زوجته هذا يذكره بسلوك أمه نحوه وهو صغير • فقد كانت أما صارمة تتدخل فى شئونه أكثر مما يجب ، لذا كان يكرهها كرها شديدا • وقد كان هذا الكشف كافيا لزوال ثورتـه على زوجته •• ومن هنا يتضح لنا أيضا أن السلوك الصادر عن الكبت غالبا ما يكون سلوكا غريبا أو شاذا أو سخيفا •

٣ ـ فان عملت الظروف على استفزاز هذه الدوافع واسـتثارتها بصورة موصولة زادت شدة وضراوة وعنفا بما يجعل الفرد عاجزا عن ضبط سلوكه حتى ان أدرك أنه يتصرف تصرفا غريبا • لذا يكون السلوك الصادر عنها قسريا يحدث بالرغم من ارادة الفرد • هذه هى حالة الموظف الذى لا يستطيع أن يكف نفسه عن الاحتكاك برؤسائه حتى ان كان على يقين من أنه سيضار من هـذا الاحتكاك • كذلك الشـاب الذى يعض شفتيه ويقضم أظفاره فى عنف واستمرار مرغما مقسورا • بل قد يتخذ السلوك القسرى طابعا اجراميا فاذا بالفرد تمتد يده رغما عنه الى سرقة شىء لا حاجة له به ، أو الى طعن صديق أو اشعال النار فى كومة من القش دون مبرر أو اصرار سابق كأنما تحركه يد ساحر •

٦ ـ العقد النفسية

العقدة complex مجموعة مركبة من ذكريات وأحداث مكبوتة مشحونة بشحنة انفعالية قوية من الذعر أو الغضب أو الكراهية أو الاشمئزاز أو الغيرة أو الاحساس الخفى بالذنب • والعقدة استعداد مكبوت يقسر الفرد على ضروب شاذة من السلوك الظاهر والشعور والتفكير •

وقد تنشأ العقدة من صدمة انفعالية واحدة أو من خبرات مؤلمة متكررة ، أو من تربيـــة رعناء فى عهـــد الطفـــولة ، تسرف فى الكبح والتخويف أو التدليل أو التأثيم أى اشعار الطفل بأنه خاطىء مذنب من كل ما يفعل • مثل هذه التربية من شأنها أن تخلق فى نفســه مشاعر بغيضة بالنقص والذنب والقلق والغيرة أو عواطف هدامة كالحقـــد والكراهية • وهى مشاعر وعواطف ثقيلة على النفس لا تلبث أن تكبت فتنشأ عنها عقدة أو عدة عقد •

والعقدة استعداد لا شعورى لا يفطن الفرد الى وجوده ولا يعرف أصله ومنشأه ، وكل ما يشعر به هو آثار العقدة فى سلوكه وشــعوره وجسمه : كالقلق الذى يغشاه ، أو الشكوك التى تساوره ، أو اضطرابات فى وظائف المعدة أو القلب أو التنفس أو غيرها • فالذين يقولون ان لديهم عقدة معينة كعقدة النقص مثلا انما يبنون حكمهم هذا على ما استنتجوه مما قرءوه فى الكتب أو سمعوه من الناس •

وقد تكون عناصر العقدة وملابساتها منسية نسيانا تاما أو نســيانا جزئيا • والاغلب أن ما ينسى منها هو تفاصيلها الهامة •

وتسمى العقدة بالانفعال الغالب فيها فيقال « عقـــدة النقص » ، « عقدة الذنب » ، « عقدة الغيرة » أو باسم الموضوع الذى تتركز حوله الانفعالات فيقال : « عقدة الام » أو تسمى « عقدة أوديب » ، « عقدة الاب » ، « عقدة المحارم » ، « عقدة زوجة الاب » ، « عقدة قابيل » الاخ الاكبر لهابيل •

وسنضرب مثالين لعقدتين ، ثم نستعرض بعض العقـــد الهامة :

مدرسة شابة ذات طبع هادىء منطو • كلما وجدت نفسها بمفردها فى حجرتها اعتراها خوف شديد أن يكون أحد خلفها واضطرت الى الالتفات وراءها ولا تزال خائفة حتى تفتش كل أركان الحجرة • لقد كانت تعترف بسخف هذا الفعل القسرى الذى تجد نفسها مرغمة على القيام به ، لكنه كان الشىء الوحيد الذى ينقذها من الخوف الشديد • وقد دل فحص التاريخ الماضى لها على حادثة مخيفــة وقعت لها فى طفولتها • فقد حبستها أخت لها ذات يوم فى المرحاض ثم تركتها وحدها وخرجت من المنزل ، فذعرت الطفلة وأخذت تتلفت خلفها خشية أن يكون

فى الظلام أحد • ومما يذكر أنها حين تذكرت هذه الحادثة التى كانت قد نسيتها نسيانا تاما ، اعترتها نوبة شديدة من الخوف ؛ أى انطلق ما كانت تحمله من خوف مكبوت فتلاشى الفعل القسرى من فوره •

وهذه فتاة أخرى يعتريها خوف شديد من رذاذ الماء والماء الجارى • وقد دام هذا الخوف الشاذ لديها سنين طويلة ، فكان يصيبها الذعر من نافورات الماء فى الطريق ، وكان أهلهـا يتكاتفون جميعا لحملها على الاستحمام اذ كانت ترتعد منه •• وكانت اذا ركبت القطار أسدلت ستائر النوافذ حتى لا يقع نظرها على الترع ومجارى المياه مما يمر به القطار • ولم تكن تعرف لهذا الخوف الشاذ أصلا أو سببا الى أن بلغت العشرين من عمرها • اذ ذاك زارتها خالة لها لم تكن قد رأتها منذ ثلاثة عشر عاما ، فدار بينهما حديث أدت شجونه بالفتاة الى أن تتذكر حادثة وقعت لها وهى فى السابعة من عمرها ، اذ كانت تسير مع خالتها هذه فى غابة من الغابات • لقد خرجت البنت فى هذه السن للتنزه مع خالتها بعد أن وعدت أمها أن تطيع أوامر خالتها ولا تعصى لها أمرا • غير أن البنت أفلتت من خالتها فى الطريق وانسلت بعيدا عنها •• وقد ذهب الناس يبحثون عنها فألفوها ملقاة بين الصخور على حافة مجرى ماء سقطت فيه بين رذاذه المتناثر • وكان الماء يتدفق فوق رأسها وهى تصرخ من الرعب • فأنقذتها خالتها من هذه الكارثة ووعدتها ألا تخبر أمها بها • وكان من الطبيعى ألا تخبر البنت أمها بهذه الحادثة المزعجة التى نجمت عن مخالفتها أوامر أمها وخالتها فأسرتها البنت فى نفسـها خوفا وخجلا مما أدى الى كبت ذكرى هذه الصدمة ونسيانها ، فكانت نتيجة الكبت تلك المخوفة الشاذة • ومن الغريب أن تذكر الفتاة لهذه الحادثة والكلام عنها والخوض فى تفاصيلها واعترافها بذنب الطفولة ، ونظرتها الى الحادثة كلها نظرة شخص راشد لا نظرة طفل •• كل أولئك أدى الى شفائها من خوفها الشاذ •

عقدة النقص Inferiority complex

يشعر الفرد بالنقص حين يدرك أن به نقصـا جسـميا أو عقليا أو اجتماعيا أو اقتصاديا ، حقيقيا كان هذا النقص أو متوهما • والشعور بالنقص حالة نفسية يدركها الفرد ادراكا مباشرا ويعترف بها • وليس من الضرورى أن يكون بالفرد نقص كى يتملكه هذا الشعور ، فكثير من

الناس يشعرون بالنقص حين يقارنون أنفسهم بغيرهم من الممتازين والمتفوقين فى نواحى الحياة المختلفة • وهو شعور طبيعى غير شاذ ، بل قد يكون دافعا يحفز الناس على اصلاح ما لديهم من عيوب ، وعلى التقدم والارتقاء ، كما يحفز الاطفال على محاكاة الكبار •• أى أنه **قد يبعث على التعويض** الموفق الناجح بطريق مباشر كما يعمد ضعيف الجسم الى تقوية بنيته ، أو بطريق غير مباشر كما يعمل الطالب المتخلف فى دراسته على التفوق فى مجال النشاط الرياضى مثلا •

ويرى « آدلر » Adler مؤسس مدرسة علم النفس الفـردى أن الشعور بالنقص من أقوى الدوافع لدى الانسان لان غريزة السيطرة هى أقوى الغرائز • كما يرى أن الفرد يحاول أول الامر التعويض عن نقصه ، فان فشل التعويض الناجح لجأ الى التعويض الوهمى كأن يهرب من مواجهة نقصه الى أحلام اليقظة يعوض فى خيالاتها عما به من نقص كما يشاء ، أو يصاب بمرض نفسى يتخذه عذرا وجيها عن عجـزه ونقصه ، لانه لو لم يكن مريضا لم يعرف العجز اليه سبيلا ، بل لتفوق على غيره • وهكذا يعفيه الاحتماء بالمرض من لوم الناس ولوم نفسه•

أما عقدة النقص فاستعداد لا شعورى مكبوت أى لا يفطن الفرد الى وجوده ، وينشأ من تعرض الفرد لمواقف كثيرة متكررة تشعره بالعجز والفشل وقلة الحيلة•ومتى اشتدت وطأة هذا الشعور على الفرد مال الى كبته أى الى انكار وجوده ، بل والى عدم الاعتراف بما لديه من عيوب فعلية • غير أن كل ما يذكره بالنقص يحمله على الفور وبطريقة تلقائية على الدفاع عن نفسه بأن يستجيب بعنف • والسلوك الصادر عـن عقدة النقص يتسم بما يتسم به كل سلوك صادر عن الكبت ، فغالبـا ما يكون سلوكا غريبا غير مفهوم هذا الى طابعه القسرى • من ذلك، العدوان والاستعلاء والزهو الشديد والتظاهر بالشجاعـة والاسراف فى تقدير الذات • وقد يبدو فى صور متكلفة سخيفة كمحاولة استرعاء الاهتمام والانتباه بالتفاخر الكاذب والتباهى الزائف والاختلاق والكذب أو التأنق غير المحتشم فى الملبس أو التحذلق فى الكلام أو التطرف فى كل ما يقول ويفعل ••

ومن العوامل التى تلهب الشعور بالنقص فى نفس الطفل وتحيله الى عقدة نقص : أن يكون بالطفل عيب أو عاهة جسمية تجعله قاصرا بالفعل

بالقياس الى غيره ، ومنها فشله المتكرر لتكليفـــه القيام بأعمال فوق مقدوره ، أو فشله بعد فترة نجاح ، ومنها كذلك تطلب الكمال منه فى تحصيله الدراسى ، أو قسره على مباراة من هم أقوى منه•ومن هذه العوامل موازنة الآباء بين أطفالهم موازنة طائشـــة تثير فى بعضـــهم الغرور وفى البعض الآخر الحقد والشعور الشديد بالنقص ، ومنهــا الاحباط الشديد لحاجةالطفل الى التعبير عن نفسه وتوكيد شخصيته•

عقدة أوديب : Oedipus complex

فى أساطير الاغريق أن أوديب كان طفـــلا لأحد الملوك فتكهن أحد المنجمين بأنه سيقتل أباه حين يكبر ، فأمر الملك بنبذ ابنه فى العراء ، فلما كبر أوديب التقى بأبيه فى احدى رحلاته — ولم يكن يعرفه — ولأمر ما تنازعا فقتل أوديب أباه ثم مضى حتى بلغ مدينة أبيه فتزوج ملكتها — وهى أمه — دون أن يعرفها • وقد استعار شـــيخ مدرســـة التحليل النفسى اسم هذه الاسطورة فأطلقه على مأساة شبيهة بهـــا يعانيها الطفل الانسانى ابان طفولته الباكرة فى صلته بوالديه ، سماها عقدة أوديب • وهى ذات خطر كبير — عند التحليليين — اذ هى ذات صلة وثيقة بتكوين ضمير الفرد وخلقه ، كما أنها حجر الزاوية ونواة جميع الأمراض النفسية • وتتلخص فى رغبة مكبوتة لـــدى الـــولد فى الاستئثار بأمه والاستحواذ عليها ، مع غيرة ونفور وخوف وكراهيـــة مكبوتة للأب • هذا هو المعنى العام لعقدة أوديب • أما بالمعنى الخاص فتقتصر على رغبة الولد فى أمه وشدة تعلقه بها ، وفى هـــذه الحـــال تسمى « عقدة الأم » •

وتفصيل ذلك أن الطفل خلال السنوات الثلاث أو الأربـــع الأولى من حياته تكون علاقاته العاطفية والاجتماعية بوالديه قد أخذت تنمو وتتعقد • والطفل الذكر يحب والديه فى أول الأمـــر على حد سواء • غير أنه لا يلبث أن يزداد تعلقه بأمه وحبه لها كما تأخذ بوادر العزوف عن ابيه والاعراض عنه تدب فى نفسه وتبدو فى سلوكه حتى ان تساويا فى الاحسان اليه والعطف عليه • وهذا أمر يجب ألا يبدو غريبا أو بعيد الاحتمال • فلعل الطبيعة تعده بهذا لوظيفته الطبيعية فى سن البلوغ، وتعينه على حب شخص آخر من غير جنسه . وعلى أن يكون لنفســـه فكرة عن الجنس الآخر•والطفل — ككل محب — يؤذى نفسه أن يكون

له شريك فيمن يحب ، كما تأخذه الغيرة ممن ينافسه فى هــذا الحب ، بل يأخذه الحنق على كل من يعتدى على « حقه » فى هذا الحب الغامر لكنه حقد يولد فى نفسه الخوف من أبيه ، كما يقترن فى نفسه بالشعور بالنقص والشعور بالذنب تجاه هذا المنافس القوى • هذا المــوقف الغريب الذى يمتزج فيه حب الأم والتعلق الشـــديد بها بالخوف من الأب والرغبة فى استبعاده ومشاعر أخرى متصارعة بغيضـــة يســـمى « الموقف الأوديبى » • وبما أنـــه يتألف من عواطف ومشاعر كريهة غير مساغة فسرعان ما يلفه الكبت فتتكون من ذلك « عقدة أوديب »•ويحدث عكس هذا على وجه التقريب لدى الطفلة •

وترى مدرسة التحليل النفسى أن هذه العقدة لا ينجو منها طفل ، فهى عامة بين الاطفال جميعا • غير أن التربية الرشيدة فى عهد الطفولة المبكرة ــ حتى السادسة من العمر تقريبا ــ تستطيع تصفيــة هــذه العقدة وانقاذ الطفل من شرورها الوبيلة فيما بعد • ويقصد بتصفيتها حلها حلا سليما يزيل من نفس الطفل خوفه وكراهيته وغيرته من أبيه، وكذلك فرط اعتماده وتعلقه بأمه •

الفصل الرابع

الانفعالات

١ ـ تعريف الانفعال

يستخدم بعض العلماء اصطلاح الانفعال emotion بمعنى واسع يشمل جميع الحالات الوجدانية ، رقيقها وغليظها . وبذا يجمعون بين الخوف والغضب والفرح والحزن وبين ذلك الشعور السار الهادىء الذى يجده الانسان فى نفسه وهو يتأمل منظرا جميلا أو يقرأ كتابا مسليا أو يشرب فنجانا من الشاى الجيد ، أو ذلك الشعور المنافر غير المساغ الذى يجده الفرد وهو يلمس قطعة من ورق الصنفرة أو وهو ينتظر طعام الافطار .. أما الانفعال بمعناه المحدود الذى يأخذ به كثير من المحدثين فيتسم بسمات ثلاث :

١ ـ فهو حالة وجدانية عنيفة تصحبها اضطرابات فسيولوجية حشوية وتعبيرات حركية مختلفة كانفعال الخوف والحزن والخجل والشعور بالذنب والرثاء للذات والضحك والشهوة الجنسية .. وهذا لا ينفى أن تكون الانفعالات على درجات مختلفة من الشدة ، فهناك الانفعالات المعتدلة والانفعالات الحادة الثائرة .

٢ ـ وهو حالة تبده الفرد بصورة مفاجئة .

٣ ـ كما يتخذ صورة أزمة عابرة طارئة لا تدوم وقتا طويلا .

وعلى هذا يمكن تعريف الانفعال بانه حالة جسمية نفسية ثائرة ، أى يضطرب لها الانسان كله جسما ونفسا . أو بأنه حالة من الاهتياج العام تفصح عن نفسها فى شعور الفرد وجسمه وسلوكه ولها القدرة على حفزه على النشاط . وبذا يكون الرعب والهلع من الانفعالات ولا يكون الاشفاق من شىء انفعالا ،ويكون الحزن انفعالا لا الابتئاس أو القنوط ، ويكون الغضب انفعالا ولا تكون الضغينة من زمرة الانفعالات ، وتكون الشهوة لا الحب انفعالا ..

لذا يجب التميز بين الانفعال **والعاطفة** • **ففي حين أن الانفعال** حالة عابرة طارئة اذا العاطفة استعداد ثابت نسبيا ومركب من عدة انفعالات تدور حول موضوع معين (انظر ص ٩٨) وعلى هذا يكون الحب والكره من العواطف لا من الانفعالات •

ومع أن الانفعال حالة طارئة الا أن هناك حالات انفعالية **مزمنة** • فمن الناس من تبدو لديهم حالات مزمنة من القلق أو الاكتئاب ، وترجع هذه الحالات الى عدة عوامل تعمل فرادى أو مجتمعة ، منها تكرار الظروف المثيرة للانفعال ودوامها كالظروف المثيرة للخوف فى جبهة القتال أو المثيرة للهم فى منزل الفرد أو عمله ، ومنها اطالة التفكير فى حوادث ماضية مؤلمة أو مخيفة ، أو توهم موصول من الفرد بأن زوجته تخونه ، أو أنه سيطرد من عمله ، أو أنه سيموت قريبا من مرض معين •

أما ما يسمى **بالحالة المزاجية** mood فهو حالة انفعالية معتدلة نسبيا تغشى الفرد فترة من الزمن أو تعاوده بين حين وآخر ، أى أنها حالة مؤقتة قد تصطبغ بالمرح أو الاكتئاب ، بالسعادة أو الحزن ، وبالهدوء أو الاهتياج أو التجهم • ان استثير الفرد فى أثنائها انطلق الانفعال الغالب على الحالة عنيفا ، كما أنها تجذب الافكار التى تنسجم معها ؛ فالمكتئب تراوده أفكار الاكتئاب ، والمهتاج يرحب بأفكار الاعتداء •• موجز القول أن الحالة المزاجية أقل عنفا وأطول بقاء من الانفعال • فالانسان حين يسمع خبرا سيئا قد يشعر بالحزن وهذا انفعال عابر ؛ فإن لازمه الحزن يوما أو عدة أيام أو أسابيع سمى « أسى » والأسى grief حالة مزاجية •

والانفعالات اما فطرية كالغضب والخوف لأنها تظهر مبكرا فى حياة الفرد ولأن مثيراتها بسيطة ، أو تكون مكتسبة ثانوية كالخجل والشعور بالذنب • والانفعالات الفطرية انفعالات أولية أى لا يمكن ردها الى أبسط منها ، أما الانفعالات المكتسبة فغالبا ما تكون مركبة من عدة انفعالات ، كالازدراء الذى يمكن اعتباره مزيجا من الغضب والاشمئزاز ، وكالغيرة التى تتألف من الغضب والخوف والشعور بالنقص وحب التملك ؛ وكالوجل التى يعد مزيجا من الاعجاب والخوف •

ومن الانفعالات ما هو منشط **كالفرح والغضب** . ومنها **ما** هو **مثبط** كالحزن والاكتئاب depression •

٢ ـ الانفعالات والدوافع

الصلة بين الانفعالات والدوافع صلة وثيقة لكنها صلة معقدة لذا اختلف العلماء فى النظر اليها • فيرى « مكدوجل » أن الانفعــال هو الجانب المــركزى الثابت للغــريزة أى الذى لا يتغير حتى ان تغيرت مثيراتها والسلوك الصادر عنها • وهو القوة المحركة فى الغريزة • ويرى « فرويد » أن الانفعال هو المظهر العيانى للغريزة ، ان أرضيت الغريزة كان الانفعال سارا وان أعيقت كان الانفعال منافرا أليما • ويقــول « دريفــر » Drever ان الانفعال ينتج عن احباط الدوافع واعاقة السلوك الغريزى ، فالخوف لا يظهر ان استطاع الفرد أن يهرب من الخطر المحيق به • وقريب من هذا الرأى ما يذهب اليــه « جانيه » الفرنسى Janet من أن الانفعال يظهر حين يحدث تغير فجــائى غير متوقع فى البيئة المادية أو الاجتماعية بحيث لا يستطيع الفرد أن يرضى دوافعه بأسلوب ملائم أو لا يكون لديه وقت كاف لذلك كما لو فجأته سيارة سريعة أو عجز عن رد اهانة • ويرى « كانن » الامريكى Cannon أن الانفعال رد فعل طبيعى يصدر عن الفرد بأسره لمواجهة الطوارىء واعداد الفرد للهرب أو القتال ، فوظيفة الانفعال هى تعبئة طاقة الفرد لتحقيق التكيف بينه وبين بيئته •

المشاهد المعروف أننا ننفعل حين تعاق دوافعنا أى يعطــل السلوك الصادر عنها عن بلوغ هدفه ، أما ان انساب سهلا الى هدفه لم يشعر الفرد من الانفعال الا أقله • ويحدثنا المحاربون الذين شهدوا المعارك أن الخوف يبلغ أشده لديهم فى ساعات الانتظار وهم لا يعملون شيئا ، فاذا ما بدأ القتال خفت حدة الخوف • كما يحدثنا صيادو الوحوش أن الخوف لا يكون عنيفا ان وفق أحدهم الى طريقة سهلة للهرب حين يفجؤه الوحش على حين غرة • ومثل ذلك فى الرعب العنيف الذى نصاب به أثناء احلام الكابوس لأننا لا نستطيع الحركة والهرب • كذلك الحــال فى انفعــال الغضب فانه يســتد حين لا يدرى الفــرد كيف يتصرف بالقول أو الفعل ازاء من أغضبه ، بل ان الرغبة المعتــدلة فى شراء سلعة أو كتاب تزداد وتلح ان لم نجد فى الأسواق ما نريد •

والمشاهد أيضا اننا ننفعل حين ترضى حاجاتنا وميولنا ارضاء فجائيا لا نتوقعه ، كأن ينجح تلميذ كان من المحقق رسوبه ، أو ينجو شخص

من عملية جراحية كان من المرجح فشلها ، هنا ينخفض التوتر على حين فجأة ويأخذنا الابتهاج والتهلل والفرح أو الضحك بل قد نأخذ في البكاء .

وسواء كان الانفعال مصاحبا ضروريا للدافع يخدم السلوك الصادر عنه ويقويه ، أو كان الانفعال نتيجة لاحباط الدافع ، فمن الممكن اعتبار كل انفعال دافعا لأنه لا يعدو أن يكون حالة من التوتر الجسمى النفسى تنزع بالفرد الى القيام بالسلوك اللازم لخفضه أو ازالته كى يستعيد توازنه الذى اختل (مبدأ استعادة التوازن) .

٣ — جوانب الانفعال

اذا حللنا انفعالا كالغضب أو الخوف رأينا أنه يتألف من جوانب ثلاثة يمكن ملاحظتها ودراستها دراسة علمية :

١ — جانب شعورى ذاتى يخبره الشخص المنفعل وحده ، ويختلف من انفعال الى آخر تبعا لنوع الانفعال . وهذا الشعور بالانفعال يمكن دراسته عن طريق التأمل الباطن ، أى عن طريق التقرير اللفظى الذى يدلى به الشخص المنفعل .

٢ — جانب خارجى ظاهر يشتمل على مختلف التعبيرات والحركات والأوضاع والألفاظ والايماءات التى تصدر عن الشخص المنفعل : الابتسام ، الضحك ، الصراخ ، التنهد ، العبوس ، التجهم ، البكاء ، الأنين .. وهذا هو الجانب الذى نحكم منه فى العادة على نوع الانفعال عند الآخرين .

٣ — جانب فسيولوجى داخلى كخفوق القلب وتغير ضغط الدم واضطراب التنفس والهضم وافراز الغدد الصم وتغير النشاط الكهربى فى الدماغ .

هذه الجوانب الثلاثة ليست جوانب منفصلة أو ينتج بعضها عن بعض ، بل استجابات متكاملة تصدر عن الانسان بأسره من حيث هو وحدة نفسية جسمية . والواقع ان اصطلاح « التعبير عن الانفعال » اصطلاح مضل لأنه يوحى أن مظاهر الانفعال الخارجية ليست جزءا من الانفعال نفسه .

الحكم على نوع الانفعال :

لا يكفى التأمل الباطن وحده للحكم على نوع الانفعال وذلك لصعوبة تعبير المنفعل عن خبرته الشعورية فى اثناء الانفعال ، لكنه يكون ذا قيمــة ان اقترن بغيره من ضروب الحكم كما سنرى . كذلك لا يكفى تسجيل التغيرات الفسيولوجية المصاحبة للانفعال للحكم على نوعــه لأنه ليس لكل انفعال تغيرات فسيولوجية مميزة ، ولأن هذه التغيرات تكاد تكون متشابهة فى انفعالات مختلفة كل الاختلاف كالخوف والغضب، بل ان الحزن الهادىء وفرح «المجذوب» فى حالة «الاستغراق» extasy يشتركان فى بعض هذه التغــيرات : بطء التنفس والــدورة الدموية وانخفاض ضغط الدم وتخاذل عضلات الجسم .

بل لقد دلت التجارب على أنه من الصعب التعرف على نوع الانفعال من التعبيرات الانفعالية الظاهرة كأسارير الوجه وحــركات اليــدين وأوضاع الجسم ونبرات الصوت والابتسام والعبوس ... صــحيح أن هناك أوضاعا جسمية وحركات منعكسة لا ارادية لا يمكن التحكم فيها ، لكن هناك تعبيرات فطرية اخرى تتحور بفعل الارادة وتــأثير البيئة والتعلم لتتخذ دلالة اجتماعية . فالابتسامة مثلا فعل منعكس لا ارادى تبدو لدى الرضيع فى الشهــر الأول من حيــاته حين يكون فى حالة ارتياح جسمى ، لكنها تتخذ بفضل التعلم والمحاكاة صورا مشتقة شتى من حيث هيئتها الجسمية ومن حيث مــا تعبر عنــه ، فهنــاك الابتسامة الصفراء ، وابتســامة التهكم ، وابتسامة النفاق والمــداراة، وابتسامة الازدراء وابتسامة التكبر والاستعلاء . وابتســامة المــودة والقبول .. هذا كله الى جانب التعبيرات الارادية التى تكون مجــالا للتصنع بما يموه على حقيقة الانفعــال . ولا ننسى أن التعبــيرات الانفعالية تختلف من حضارة لأخرى . فنحن نعبر عن انفعال الدهشة مثلا برفع الحاجبين واتساع العينين ، لكن سكان الصين يعبرون عن الانفعال نفسه باخــراج ألسنتهم ، ونحن نعبر عن الارتبــاك بحك مؤخر الرأس أو هرش الأذن والخد ، لكن هذا هو التعبير عن السعادة عند الصين .

وقد دل التجريب على أن الحكم على نوع الانفعال من التعــبيرات الانفعالية لا يكون صادقا الا اذا اقترن بمعــرفة الموقف الذى أثار الانفعــال .

والذى يجمع عليه العلماء اليوم هو أن التعبيرات الانفعالية الظاهرة مقترنة بالتقرير اللفظى للشخص المنفعل وبمعرفة الموقف الذى أثار الانفعال ، تزودنا مجتمعة بحكم أدق على نوع الانفعال من معرفة التغيرات الفسيولوجية وحدها •

٤ ـ نظريات الانفعال

هناك نظريات عدة للانفعال تستهدف كل واحدة منها تعيين العلاقه بين جوانب الانفعال الثلاثة سنقتصر على ذكر اثنتين منها ·

نظرية جيمس ـ لينج James-Lange

كان الشائع بين الناس أن رؤية الاسد تثير فينا الشعور بالخوف ، وأن هذا الشعور يولد تغيرات جسمية،فسيولوجية وخارجية هى الهرب• غير أن عالم النفس الامريكى جيمس (١٨٨٤) ، مستقلا عن الفسيولوجى الدانماركى لينج خرجا بنظرية تضاد هذا الوضع ، اذ زعمت أننا نرى الأسد فتضطرب لهذا الادراك أحشاؤنا واجسامنا ، وليس الشعور بالانفعال الا الاحساس بهذه التغيرات الفسيولوجية والجسمية • فنحن نرى الحيوان فنجرى أو نرتجف ومن ثم نشعر بالخوف • فالشعور بالخوف هو الاحساس بالرعشة والجرى • ونحن نسمع خبرا مزعجا فنبكى ومن ثم نحزن • ونحن نسمع اهانة فنضرب المعتدى ثم نغضب •• وفى هذا يقول جيمس : لا نشعر بالانفعال ان لم نحس بخفوق القلب والعرق البارد وتجمد الأطراف •

وقد وجهت الى هذه النظرية عدة اعتراضات منها :

١ ـ أن جميع الاضطرابات العضوية التى يقال انها سبب الشعور بالانفعال توجد فرادى أو مجتمعة فى حالات ليست لها صبغة انفعالية • فنحن نرتجف وتشحب وجوهنا فى حالة الخوف كذلك ان كنا مصابين بالبرد ، وتعترينا القشعريرة ويغمرنا العرق البارد فى حالة الحمى دون أن يكون لذلك تأثير انفعالى ، والمعروف أن القلب يزداد خفوقه فى حالة الخوف أو الغضب كما يزداد بعد الجرى أو بعد تناول جرعة كبيرة من القهوة ، وحقن شخص بالادرنالين يسبب أعراضا جسمية بارزة كسرعة النبض وبرودة اليدين والقدمين وارتجاف الاطراف

والصوت ، وشعور الشخص بالضيق والاهتياج ، لكن الشخص المحقون لا يصرح بأنه يشعر بانفعال معين مميز .

٢ — ولقد رأينا فى الفقرة السابقة أن التغيرات الفسيولوجية تحدث نفسها فى انفعالات يختلف بعضها عن بعض اختلافا كبيرا كالحزن والفرح .

٣ — وقد اجريت تجارب على الحيوانات — القطط — قطعت فيها الاتصالات العصبية بين المخ والأحشاء ، أى استحال فيها ادراك الحيوان لحالة احشائه ، ومع ذلك استمر الحيوان يبدى مظاهر الغضب والحركات التعبيرية عنه وهى الزمجرة وابراز الاسنان وتراجع الاذنين الى الخلف ورفع الساق اليمنى استعدادا للهجوم .. ومع أننا لا نستطيع أن نؤكد أن الحيوان يشعر بالانفعال الذى لاحظنا مظاهره، الا أنه يتضح من سلوكه أن ادراك الاضطراب العضوى ليس شرطا ضروريا فى انفعال الغضب .

من هذه التجارب وأمثالها يتضح لنا أن الاضطراب العضوى ، وان كان يهيىء الفرد لانفعال معين ، الا أنه ليس شرطا ضروريا أو شرطا كافيا للشعور أو السلوك الانفعالى .

نظرية الطوارىء Emergency theory

يرى الفسيولوجى الامريكى « كانن » Cannon (١٩١١) أن ادراك الموقف المثير للانفعال يؤدى الى تنبيه منطقة عصبية توجد فى وسط الدماغ تسمى الهيبوثلاموس hypothalamus تنبيها شديدا ، وهذا التنبيه يؤدى الى الشعور الانفعالى والتغيرات الجسمية فى آن واحد .

كما انه قام بدارسة التغيرات الفسيولوجية التى تصحب الانفعال فوجد أن هرمون الادرنالين يزداد افرازه فى حالات الانفعال العنيف كالخوف والغضب والالم الجسمى ، واستنتج أن هذه الزيادة فى الافراز لها نتائج ذات فائدة حيوية للفرد ، فهى تعينه على الهرب أو القتال . فازدياد افراز هذا الهرمون يؤدى الى :

١ — زيادة سرعة النبض وشدته بما يساعد على سرعة توزيع الدم الى جميع اجزاء الجسم والى الاطراف خاصة ليزيد من نشاطها ،

٢ ــ ارتفاع ضــغط الدم •

٣ ــ انقباض الأوعية الدموية التى فى الجلد مما يدفع بالــدم الى العضلات أكثر منه الى الجلد والامعاء •

٤ ــ اتساع مسالك الهواء فى الرئتين مما يسهل عملية التنفس •

٥ ــ انطلاق السكر المخزون فى الكبد مما ينشــط العضلات ويؤخر ظهور التعب العضلى •

٦ ــ زيادة عــدد الكرات الحمراء بدرجة كبيرة نتيجة لتأثـيره فى الطحــال •

٧ ــ زيادة سرعة تخثر الدم مما يقى الفرد من النزيف الموصــول ان أصيب بجراح •

٨ ــ تأخير ظهور التعب بما يمكن الفرد من القيام بأعمال لايستطيع القيام بها فى الأحوال العاديــة •

وقد حدا هذا بكانن الى أن يصــوغ نظــرية فى الانفعالات تسمى نظرية الطوارىء وفحواها أن الانفعال رد فعل طبيعى يصــدر عن الفرد بأسره لمواجهة الطوارىء واعداده للهرب أو القتــال • وينسب كانن الى هذه التغيرات الفسيولوجية تلك الأعمال الخارقــة للعــادة التى يأتيها الفرد فى حالة الطوارىء كالقفز فوق سور ارتفاعه متران والتى تمكنه من الخلاص •

وقد تعرضت هذه النظرية بدورها الى النقد والاعتــراض من بعض علماء النفس التجريبى والفسيولوجى فيما يتصل باشراف الهيبوثلاموس على الشعور بالانفعال • ومع أن هذه النظرية ، هى وسابقتهــا ، لم تحلا مشكلة الانفعال ، الا أنهما ألقيتا كثيرا من الضوء على العمليات الفسيولوجية المتضمنة فى الانفعال •

كشــاف الكذب : Lie detector

أفاد بعض العلماء من التغيرات الفسيولوجية التى تصاحب الانفعال فى التحقيق الجنائى لمعرفة ما اذا كان المتهم يكذب • وقد ابتكروا لذلك جهازا مركبا من عدة اجهزة تسجل فى آن واحد التغيرات التى تحدث فى النبض وضغط الدم والتنفس وارتعاش الأصابع ودرجة التوصيل

الكهربى للجلد فى أثناء الانفعال بواسطة « السيكوجلفانومتر » اذ المعروف أن مقاومة الجلد لمرور التيار الكهربى تقل أثناء الانفعال نتيجة لزيادة افراز العرق . كذلك يسجل النشاط الكهربى للدماغ ... ثم يواجه المتهم بمجموعة من الأسئلة بعضها يتصل بالجريمة وبعضها الآخر لا يتصل بها . والمفروض أن الشخص البرىء لا يرى فى أسئلة الفئة الأولى شيئا يثيره فلا تكون استجابته الانفعالية لها أشد من استجابته لأسئلة الفئة الثانية . وهذا على خلاف المجرم الذى يهتز لأسئلة الفئة الاولى دون الثانية . على أن تسجيلات هذا الجهاز لا تتخذ دليلا قانونيا على ادانة المتهم أو براءته . غير أنه أثبت انه يفيد فى حصر عدد المشتبه فيهم وفى حمل كثير من المجرمين على الاعتراف .

٥ ـ نمو الانفعالات وتطورها

يتوقف النمو الانفعالى ـ شأنه فى ذلك شأن النمو الجسمى والنمو العقلى والنمو الجنسى ـ على كل من النضج الطبيعى والتعلم . ويقصد بالنضج الطبيعى ذلك النمو الذى يحدث بتأثير الوراثة فى ظروف البيئة العادية المناسبة دون حاجة الى تعلم أو ممارسة أو تدريب خاص . أما التعلم فهو النمو الذى يتوقف على الخبرة والتدريب والممارسة وتأثير العوامل الاجتماعية المختلفة .

اثر النضج الطبيعى :

دلت ملاحظات وتجارب كثيرة على عدد كبير من الرضعاء ولمدة أشهر متتابعة على أن انفعالات الرضيع ليست واضحة المعالم يتميز بعضها عن بعض كما هى الحال عند كبار الأطفال والراشدين . فالرضيع ان أثرناه بأشياء مما تثير الانفعال عند الكبار ـ كأن سلطنا على وجهه تيار هواء ، أو وخزناه بابرة ، أو قيدنا حركاته ، أو أحدثنا أصواتا عالية بجواره ـ لم يبد عليه الا انفعال واحد غير متمايز نستطيع أن نسميه «الاهتياج العام[1]» . وحوالى الشهر الثالث من العمر يمكن ملاحظة نوعين من هذا الاهتياج هما « الابتهاج [2] » و « الضيق [3] » وخلال

---

distress excitement

الأشهر الثلاثة التى تليها يتمايز الضيق الى خوف وغضب ونفور •وفى تمام السنة الأولى تقريبا يتمايز الابتهاج الى انفعالى المرح والعطف ثم انفعال الفرح بعد ذلك •• ثم يستمر تمايز الانفعالات كلما تقدم الطفل فى العمر وزادت خبراته كما تتفرع الفـــروع والأغصان على جـــذع الشجرة • أما انفعال الغيرة فيظهر بين الشهر الثانى عشر والثامن عشر ••وأكبر الظن أن هذا النمو والتمايز فى الانفعالات خلال العام الأول من حياة الطفل يرجع الى النضج الطبيعى أكثر مما يرجع الى التعلم •

كذلك يتضح أثر النضج فى النمو الانفعالى من أن صغار الأطفـــال يأخذون جميعا فى الصياح والبكاء والابتسام والضحك فى نفس السن تقريبـــا دون أن تكون لديهم فرص لملاحظة هذه التعبيرات الانفعالية عند الآخرين ومحاكاتها • ومما يؤيد الدور الكبير الذى يقوم به النضج ما لوحظ من أن الأطفال الذين يولدون صما عميا فى آن واحد تظهر عليهم تعبيرات انفعـــالية كتلك التى تظهر لدى من يولدون ســـليمى الحواس • فهم يضحكون ويغضـــبون ويبتهجون مع أنهم لم يروا أو يسمعوا أحدا يضحك أو يغضب أو يبتهج •

اثـــر التعلم :

يتضح أثر التعلم والعوامل الاجتماعية فى اكتساب الطفل مثيرات جديدة لانفعالاته • فالطفل الرضيع ، بعد الشهر الثـــالث من عمـــره لا تخيفه الا الأصوات العالية المفاجئة ، والازاحة المباغتة له من مكان الى آخر ، وفقد السند أى أن يكون متكئا أو محمـــولا على شىء ثم يهوى به هذا الشىء • أما بعد ذلك فهو لا يخاف شيئا مما يخيفنا نحن الكبار : لا يخاف الكلاب أو الظلام أو البرق أو أمواج البحر أو الموت أو القانون •• ثم تزداد مخاوفه بعد ذلك عن طريق التعلم • وكذلك الرضيع لا يثير غضبه الا تقييد حركاته واحباط حاجاته الفسيولوجية، أما بعد ذلك فيتعلم بالتدريج أن يغضب من اهماله وعدم الاهتمام به ، ومن المواقف التى تثير فيه الشعور بالعجز ، ومن اسراف الوالدين فى أمره ونهيه ••• حتى يغضب آخر الأمر مما يتدخـــل فى حقوقه ، أو يصطدم بمبادئه ومعتقداته واحترامه لذاته ، أو من كل شىء يشعره بالتحكم والضغط والحرمان •

كذلك يبدو أثر التعلم فى التعبيرات الوجهية للانفعال • وقد رأينا فى الفقرة الثالثة من هذا الفصل كيف تتـــأثر هـــذه التعبيرات بالعوامل الاجتماعية والحضارية •

ومما يتعلمه الطفل بتقدمه فى العمر وتحت ضغط المجتمع هو ضبط انفعالاته • فهو يتعلم أن يخفف وأن يعدل من تعبيراته الانفعالية خاصة فى حالات الخوف والغضب والفرح والالم ، بل انه يتعلم اخفاء انفعالاته عن الغير أو تزييفها • فنحن نقابله بالسخرية أو الاستهجان ان صاح أو بدت عليه علائم الخوف أو أسرف فى غضبه ، بل تقتضيه قواعد الادب أن يبتسم أحيانا حتى وهو غضبان أو أن يبدى الدهشة لسماع أخبار عادية ليس فيها جديد أو طريف[1] •

٦ — دراسة بعض الانفعالات

الخـــوف Fear

يرث الانسان ، وكذلك الحيوان ، استعدادا عاما للخوف والابتعاد عن الأشياء والمواقف التى تؤلم الجسم وتؤذيه أو التى يتوقع منها الألم والأذى • وكل شىء أو موقف يهدد بهذا الألم والأذى يشكل لدى الفرد « خطرا » أو « مخافة » • فالألم الجسمى أول مثير للخوف عند الانسان • وهو مثير فطرى بطبيعة الحال • وقد اختلف العلماء فى تحديد عدد المثيرات الفطرية للخوف•فمنهم من يقول أن الألم الجسمى هو المثير الفطرى الوحيد للخوف عند الانسان ، وما عدا ذلك من المخاوف فهو مكتسب مشتق من هذا الألم عن طريق عملية التعلم• ويرى « وطسن » Watson مؤسس المدرسة السلوكية أن الأصوات العالية المفاجئة وفقد السند مثيرات فطرية للخوف عند الطفل • ويرى آخرون أن أية تغيرات مفاجئة غير متوقعة فى البيئة من مثيرات الخوف الفطرية • فالخوف من المجهول ومن المفاجىء ومن الغريب يشاهد لدى الحيوان ، وعند الصغار والكبار من بنى الانسان • وربما كان

---

(١) يجب التمييز بين ضبط الانفعال أو قمعه وبين كبت الانفعال . فضبط الانفعال يعنى تأجيل التعبير المباشر عنه بما يتيح للفرد التفكير واختيار انسب الاستجابات . والطفل لا يقدر على ذلك ، لكن يمكن تدريبه عليه بالتدريج . اما كبت الانفعال كالخوف أو الشعور بالنقص فهو انكار الفرد مخلصا أنه يشعر بالانفعال كأن يقول لنفسه ويعتقد انه ليس خائفا من الامتحان أو شاعرا بالنقص من رسوبه . وهنا يتجلى خداع الذات . ومن علامات الكبت ان يتجنب الفرد المواقف والأشياء والمناقشات التى يحتمل ان تثير الانفعال . كذلك يتجنب التفكير فيها . والمكبوت يشعر بتوتر وقلق لا يستطيع تحديد مصدرهما ومن ثم لا يستطيع ازالتهما .

السبب هو عجز الكائن الحى عن التصرف الملائم المأمون حيال هـذه التغـيرات • كأن الكائن الحى ينظم بيئته بحيث يحمى نفسـه من أخطارها . فأى اضطراب فى هذا التنظيم يثير فيه الخوف •

ومهما يكن من آمر فالطفل يكتسب الغالبية العظمى من مخاوفه عن طريق التعلم • فقد يصيبه الخوف من الكلاب مثلا لان كلبا عضه أو لأننا حذرناه من الكلاب أو لأنه رأى علامـات الخـوف منهـا على وجوهنـا أو لأنه سمع قصة عن ذلك • وقد ظهر من تجربة عرض فيها المجرب ثعبانا كبيراغير ضار على مجموعة من الناس وطلب اليهم أن يلمسوا جلده •• ظهر منها أن ليس هناك طفل دون الثـانية من العمر يبدى خوفا أو توجسا منه ، أما اطفال الثالثة والرابعـة فيبـدو عليهم بعض التوجس : فى حين بـدا الخوف بل الـذعر واضحا على طلبـة الجامعة • وقد دلت بعض الدراسات على أن الأب أو الأم ان كانا يخافان الظلام أو البرق أو الثعابين فغالبا ما يكتسب أطفالهما هـذه المخاوف عن طريق العدوى الاجتماعية •

والتجربة المأثورة التى أجراها « وطسن » تبين لنـا كيف يكتسب الطفل مخاوف جديدة شاذة عن طريق **الاقتـران** ، اقتران شىء مخيف بآخر غير مخيف •• لقد كان الطفل « ألبرت » Albert طفلا صحيح الجسم عمـره أقل من عـام بقليل ، وكان يألف اللعب مع الكـلاب والأرانب والفيران البيضاء••قدم المجرب اليه فارا أبيض. وبينما هو يهم بامساكه أحدث المجرب صوتا عاليا مفاجئا وراء الطفل فخاف الطفل وارتعد • وبتكرار هذه التجربة ثلاث مرات فقط لم يعد الطفل يجرؤ على اللعب مع الفأر بل كان يتهيبه ويتراجع عند رؤيته : بل بدأ فضلا عن ذلك يخاف الارانب والكلاب بل يخاف لمس الملابس الفرائية وقطع القطن •• وهذا انتشر خوفه وأمتد أثره الى كثير من الاشـياء التى لا تخيف ولكنها تتشابه مع الفأر فى شكلها أو ملمسها • وهـذا نـوع من التعلم يسـمى « التعلم الشرطى » سـندرسه تفصـيلا فى فصل التعـلم •

وهناك طرق أخرى للتعلم منها التعلم عن طريق المحاولات والاخطاء، والتعلم عن طريق الملاحظة والفهم والاستبصار ، والتعلم عن طريق

الايحاء والعدوى الاجتماعية .. عن طريقها يكتسب الطفل مخـاوف جديدة كثيرة كلما تقدم به العمر : مخاوف مادية كالخوف من الوالدين أو من المدرس أو الظلام أو الميكروبات أو المرض أو الفقر .. ومخاوف معنوية كالخوف من الضمير ومن العار ومن القانون ومن كل ما يهدد حياته وما يملكه أو يهتم به من ماديات ومعنويات .

وكما يتحور انفعال الخوف ويتعدل من ناحية مثيراته ، كذلك يتعدل من ناحية السـلوك الصـادر عنه . والسـلوك الفطرى للخوف هو الانتفاض والاجفال والصـياح أو التجنب أو الاختفـاء أو الهرب الجسمى .. لكننا لا نعود نعبر عن جميع مخاوفنا بهذه الطرق البدائية، بل بمراعاة القانون والمحـافظة على الصحة وحسن معاملة النـاس أو الانتماء الى جمعية ترضى فينا الحاجة الى الأمن . بل قد تبـدو مظاهر الخوف عند بعض الناس فى تجنب المغامرات ، والحرص والحذر الشديد ، والمحافظة على القديم ، واعتناق الاباطيل الشائعة بين الناس مجاراة لهم ... وقد ينسحب الخائف من الناس وينطوى على نفسه تجنبا لشرورهم ، أو يحتمى بمرض جسمى أو نفسى خوفا من مواجهة مسئولية أو موقف عصيب .

القلـق anxiety

الخوف الحقيقى فى المجتمعات المتحضرة أمر نادر نسبيا ، لأن الناس يستطيعون فيها أن يعالجوا أغلب المواقف المثيرة للخوف . ثم ان معظم الناس لا يتعرضون لحوادث السيارات أو احتراق الطائرات أثنـاء ركوبها أو للاعتداء المسلح فى الطريق ... غير أن هـذا لا يعنى أن حياتهم خلو من الخوف .. لان للانسان القدرة على أن يتوقع مختلف الاخطار ، وهنا يصيبه القلق . فالقلق هو الخوف من خطر أو ألم أو عقاب يحتمل أن يحدث لكنه غير مؤكد الحدوث ، كخوف المجـرم من افتضاح أمره وخوف المريض من الموت . هذا الى أنه خوف لا يستطيع الفرد التحرر منه بالهرب أو الاختفـاء ، كخوف التـلميذ بعد تأدية الامتحان ، اذ كل ما يستطيعه هو الانتظار والقلق . والقلق انفعال مكتسب مركب من الخوف والألم وتوقع الشر ، لكنه يختلف عن الخوف فى أن الخوف يثيره موقف خطر مباشر ماثل أمام الفرد يضر بالفعـل كالخوف من سيارة مارقة أو عقرب وجدها الانسان فى ملابسه . وعلى

هذا يكون خوف الطفل « البرت » من الأرانب بعد خوفه من الفأر نوعا من القلق • كذلك الطفل الذى لاقى خبرة مؤلمة مع طبيب أسنان فان القلق يعتريه حتى من مجرد ذكر اسم الطبيب •

والقلق ينزع الى الازمان ، فهو يبقى ويدوم أكثر من الخوف العادى ، لأن الخوف متى انطلق فى سلوك مناسب استعاد الفرد توازنه وزال خوفه ، أما القلق فيبقى لأنه خوف معتقل لا يجد منصرفا •• والقلق أنواع منها :

١ ــ القلق الموضوعى العادى ، وفيه يكون مثير الخوف خارجيا كخوفنا من موت شخص عزيز ، وخوف التاجر من الافلاس ، وخوف الأم على ابنها الغائب ، وخوف الموظف من فقد عمله ، وخوف المسافر قبل أن يركب طائرة لاول مرة •• الواقع أن للخوف فى هذه الحالات ما يبرره ، لكنه ليس خوفا بالمعنى الدقيق لأن الفرد لا يستطيع أن يفعل حياله شيئا • ومخاوف صغار الاطفال من هذا النوع لأن الرضيع الخائف أو المذعور لا يستطيع أن يفعل شيئا محددا إزاء ما يخيفه •

٢ ــ القلق الذاتى العادى : فيه يكون مصدر القلق داخليا يشعر الفرد بوجوده • فالانسان لا يخاف فقط من القنابل أو المرض أو فقد عمله ، بل يخاف أيضا من ضميره ان أخطأ أو اعتزم القيام بعمل غير صالح ، ويخاف من فقدان السيطرة على دوافعه المحبطة المحظورة، الجنسية والعدوانية ، حين تلح بالاشباع • لكن الانسان لا يستطيع أن يهرب من نفسه ، وهنا يندلع القلق •

٣ ــ القلق العصابى هو قلق لا يكون سبب الخوف فيه ذاتيا فقط بل يكون فوق ذلك لا شعوريا مكبوتا ، ومن ثم يكون الفرد فى حالة خوف لايعرف له أصلا ولا سببا ولا يستطيع أن يجد له مبررا موضوعيا أو مصدرا صريحا واضحا فهو خوف أسباب لا شعورية مكبوتة • كما أنه قلق تثيره مثيرات غير كافية أى ضغوط بيئية خفيفة، فان كانت المثيرات كافية بدا الخوف عنيفا مشتطا موصولا أو على صورة نوبة حادة •

وبما أنه خوف غير ذى موضوع لذا فهو يبدو فى صورة توجس هائم طليق يتأهب لأن يلقى بنفسه على كل شىء يستطيع أن يتخذ منه

نعلة لوجوده ، فنرى الفرد يتوقع الشر من كل شيء ومن كل مصدر ، ان سافر قدر أن القطار سيصطدم أو أن الباخرة ستغرق أو أن الطائرة ستحترق ، وان تبعه أحد فى الطريق ظن أنه مكلف بمراقبته ، وان رأى سيارة المطافى مسرعة فهى ذاهبة الى منزله •• والقلــق العصــابى (بضم العين) عرض مشترك فى جميع الأمراض النفسية والأمــراض العقلية • وهو أشد وطأة على نفس الفرد من الشعور بالخــوف لان أسبابه غير محددة فلا يستطيع الفرد محوه وازالته •

الغضب anger

لدى الانسان ، وكذلك الحيوان ، استعداد فطرى للغضب ومقاومة كل ما يقيد حركاته ، ويعوق سلوكه ويقف عقبة فى سبيل تحقيق دوافعه• والسلوك الفطرى لهذا الدافع هو تحطيم العائق وتهشيمه • وما عليك الا أن تقبض على طفل فتقيد حركات ذراعيه أو ساقيه ، أو تنتــزع قطعة من اللحم من كلب جائع ، أو أن تحاول ابعاد دجاجة عن فراخها، ثم انظر ما يحدث • وقد دلت دراسات على أن الحرمان من الطعام أو من النوم يؤدى بالرضعاء الى الصياح الغــاضب ، وبالفيران الى الاسراف فى العض •

ثم يكتسب الطفل عن طريق الاقتران وغيره مغاضب كثيرة منها منعه من عمل ما يريد ، وأمره بعمل ما لا يريد ، ومنها اهماله وعدم الاهتمام به ••• ولنذكر أن الغضب أكثر شيوعا فى حياة الطفل الصــغير من الخوف لأن المواقف التى تثير غضبه أكثر من تلك التى تثير خوفــه • وسرعان ما يتعلم أن الغضب لا يزيل القيود فقط بل هو كذلك وسيلة لجذب الانتباه اليه بل ومكافأته أحيانا بحصوله على ما يريد •• أما الراشــد الكبير فيثير الغضب لديه كل ما يعــوق أعمــاله ويتدخل فى شــئونه ويصطدم بمبــادئه ويمس احتــرامه لذاته ويحبط حاجاته الاساسية ، أو يثور للحق ونصرة المظلوم ••

وعن طريق التعلم أيضا يتخلى الفرد عن كثير من التعبيرات البدائية للغضب حين يرى استنكار المجتمع لها • فالانسان المتحضر يلجأ الى طرق محورة معلاة غير مباشرة للتعبير عن غضبه ، فاذا به يستعيض عن أسلوب التحطيم والتهشيم والعض والرفس والشتم بأسلوب مهذب

كالسخرية باللفظ أو الايماءة أو النكتة أو الابتسامة . وكالتعريض المتقنع . واستصغار المغضوب عليه أو هجره أو مقاضاته .

ومن أهم ما يجب أن تعنى به تربية الطفل تعليمه كيف يسوس غضبه ومشاعره العدوانية وأن يتصرف تصرفا سليما في مواقف الاخفاق والحرمان . ذلك أن الغضب المقموع أو المكبوت غالبا ما يصبه الفرد على أشياء أو أشخاص أبرياء لا صلة لهم بمثير الغضب ، فترى الطفل يصب غضبه وعدوانه على العابه أو الحيوانات الضعيفة ، وترى الأب الغاضب الذي لم يقدر على رد اهانة لحقت به في عمله ، قد أخذ ينهر زوجته أو يصفع ابنه أو يكز خادمه أو يرفس قطة المنزل . كذلك التلميذ الحانق على أبيه قد يأخذ في احداث الشغب بالمدرسة فيعاكس مدرسيه أو يعتدي على من يستضعفهم من زملائه . وقد لوحظ أن العامل المتأزم الغاضب من مشاكل عائلية يرحب بالتمرد والاضراب . ونشير أخيرا الى أن من اشيع أسباب القلق العصابي كبت الغضب والمشاعر العدوانية لدى من يعجزون عن الدفاع عن أنفسهم ان ظلموا أو اتهموا أو عوقبوا بغير وجه حق .

الشعور بالذنب والخجل والندم :

الشعور بالذنب أو وخز الضمير[1] هو الشعور الذي ينجم عن قيام الفرد بعمل لا يرضاه ضميره ، اجتماعيا كان هذا العمل أم خلقيا أم دينيا ، وهو شعور سوي ذو قيمة تهذيبية للفرد ، تثيره مثيرات محددة يعرفها الفرد ويدركها بوضوح كالتورط في كذبة أو نميمة أو تجاوز أو تقصير غير مشروع . غير أن هناك شعورا بالذنب يكون هائما طليقا، غير واضح المصدر — مثله في ذلك كالقلق العصابي — وكثيرا ما يقترن بالقلق واستصغار الذات أو الاشمئزاز منها ، فترى الفرد لا يعرف لماذا يشعر بالذنب ، يغشاه شعور غامض موصول بأنه مذنب آثم حتى ان لم يكن أذنب أو أتى شيئا يستحق عليه العقاب ، أو يلوم نفسه على أمور لا يلومه عليها أحد ، ويرى في أهون اخطائه ذنوبا لا تغتفر .. في هذه الحال يقال أن الفرد يعاني «عقدة ذنب» [2] . كما أنه يشعر بحاجة ملحة الى التكفير ، ولو بعقاب نفسه ، التماسا للراحة وتخففا

---

(1) sense of guilt   (2) guilt complex

مما يكابده من توتر مجهول المصدر .. وتأويل ذلك أننا نشأنا ودرجنا منذ الصغر على أن المذنب متى حل به العقاب فقد كفر عن ذنبه وتخفف من وخز ضميره . انظر الى الطفل الصغير ان أخطأ فى غيبة والديه ظل فى حالة من القلق والتوتر لا تهدأ أو تزول الا اذا اعترف لهما بذنبه فانزلا به العقاب .. وهذه فتاة منعها والداها من قراءةكتابمعين غير أنها اخبرتهما ذات يوم ، كذبا ، أنها قرأته فأوقعا عليها العقاب ، اذ ذاك شرعت تقرأ الكتاب وهى مطمئنة مرتاحة البال .. لقد اقترن وخز الضمير فى نفوسنا اقترانا وثيقا بالعقاب بحيث أصبح الشعور بالذنب يجعل الفرد فى حاجة الى التكفير ، بالاعتذار أو التوبة أو الصدقة أو الاعتراف أو انزال العقاب بنفسه ، حتى يتخلص من وخز ضميره — وكل عقاب يهون الى جنب وخز الضمير . ولقد كنا نلتمس هذا العقاب عن قصد ونحن صغار ، ثم أصبح الامر عادة ، فاصبحنا دون قصد أو تفكير نحس بالحاجة الى التكفير كلما اشتدت بنا وطأة عقدة الذنب .

وهكذا نرى أن من يعانى عقدة ذنب يندفع من تلقاء نفسه الى عقاب نفسه ، تدفعه **حاجة لا شعورية** الى عقاب نفسه ، سواء كان هذا العقاب ماديا أو معنويا وذلك بالتورط وتكرار الحوادث التى تضر بجسمه أو ممتلكاته أو سمعته أو عمله ، فتراه يورط نفسه — عن غير قصد ظاهر منه — فى متاعب ومشاكل وصعوبات مالية أو مهنية أو عائلية أو صحية لا يناله منها الا العنت والتعب والمشقة والعذاب . بل قد يستفز عدوان الغير عليه أ وعدوان المجتمع بارتكاب جريمة . فاذا حل به العقاب هدأت نفسه وزال عنه ما يغشاه من توتر أليم . من هؤلاء من يدمن المخدرات او يتهاون فى رعاية صحته ، أو يتغافل عن انتهاز الفرص التى تفيده ، أو يتكاسل فى عمله ، أو يتقبل الاهانات دون دفاع عن نفسه .. والانتحار أقصى حالات عقاب الذات . ويطلق على الشخص الذى يفتش عن عقاب نفسه ويجد راحة بل لذة فى هذا العقاب، بالشخص المازوخى masochist .

وتنشأ عقدة الذنب من ضمير صارم ورغبات محرمة مكبوتة ككراهية الاب أو الاخ الاكبر أو اشتهاء بعض المحارم أو الغيرة من أخ أصغر وتمنى الموت له . وهى تنشأ فى بواكير الطفولة من تربية تسرف فى لوم الطفل وتأنيبه وعقابه واشعاره بالذنب من كل ما يفعل ، أو تمعن

فى تهويل أخطائه وتهوين حسناته ممــا يؤدى الى تضخم خبيث فى تكوين ضميره ـــ والضمير يتكون الى حد كبير من تعاليم الوالدين وأوامرهما ونواهيهما ـــ فاذا بهذا الضمير الصارم قد أخــذ يحاسب الفرد على الهفوة والسهوة ، ويعاقبه على اللفتة والحــركة ، ويجعله شديد الحساب لنفسه والناس ، شديد السخط على ما يفعله أو يفكر فيــه •

أما الشعور **بالخجل** Shame فينشأ من ارتكاب الفرد حماقة تمس احترامه لنفسه لكنها لا تغضب ضميره أو تخرق المعايير الاجتماعية والخلقية التى يؤمن بها كأن يأكل بأصابعه ويديه فى مأدبة دون أن يستخدم الشوكة • هنا يشعر بالخجل دون أن يشعر بالذنب • وقد يشــعر بالذنب دون أن يشــعر بالخجل حين يرى أن الخطــأ الذى ارتكبه لا يمس احتــرامه لنفسه ، حين لا يؤمن بالمعــايير الخلقيــة للمجتمع لكنها من القوة بحيث تشعره بالذنب حين يخرقها ، كأن يتهاون فى أداء بعض العبادات •

أما ان ضــبط وهو يسرق سكينا من المأدبة فانه يشــعر بالذنب والخجل معا •

والندم remorse هو الشــعور بالذنب من خطأ ارتكبناه فى الماضى • وغالبا ما يكون أشــد ايلاما من الشــعور بالذنب المصاحب لارتكاب الخطأ • بل انه ليس من الضرورى أن يكون الفــرد شاعرا بالذنب ساعة ارتكاب الخطأ بل يشعر به بعد ذلك حين يستبطن نفسه فتبدو له أعماله فى ضوء جديد فيرى اليوم خطأ ما لم يره بالامس خطأ • وقد يبلغ الشــعور بالندم حــدا بعيدا من الشدة ، ويدوم سنوات بعد الخطأ ، وذلك حين يدرك الفرد عجزه عن تصحيح خطئه•

٧ ـــ الانفعال والمزاج

المزاج temperament هو مجموعة الصفات التى تميز انفعــالات الفرد عن غيره • من هذه الصفات :

١ ـــ درجة تأثر الفرد بالمواقف التى تثير الانفعــال : هل هو تأثر سطحى أو عميق ، سريع أو بطىء •

٢ ـــ نوع الاستجابة الانفعالية : هل هى قوية أو ضعيفة ، سريعة أو بطيئة ، تتسم بالحيوية أو بالخمول والفتور •

٣ — ثبات حالاته المزاجية moods أو تقلبها من المرح الى الاكتئاب مثــلا •

٤ — الحــالة المزاجية الغــالبة على الفــرد : المرح أو الاكتئاب ، السعادة أم الحزن ، الاهتياج أم الهدوء •

ويتوقف المزاج فى المقــام الأول على عــوامل وراثية منها حــالة الجهــازين العصـــبى والهــرمونى ، كمــا يتوقف على عمليـــة الأيض metabolism أى التغيرات الــكيميائية والفيزيقية التى تحدث فى الجسم . كذلك يتوقف الى حد ما على الصحة العامة للفرد وتاريخ حياته المــاضى — الجسمى والنفسى •

ومما يدل على أن المزاج يتوقف على الوراثة الى حد كبير مالوحظ من أن الرضعاء حديثى الولادة تبدو لديهم فوارق مزاجية واضحة ، فبعضهم لا يكاد يصدر صوتا بينما لا يكف آخرون عن الصراخ ماداموا غير نائمين ، وبعضهم يتسم بالحيــوية فيطوحون أذرعهم فى قــوة ويرفسون بأرجلهم فى عنف بينما يسيطر على غيرهم السكون والهدوء، وبعضهم يمسك بالثدى فى تشبث واصرار بينما يبدو على غيرهم عدم المبالاة عند الرضاعة •• وهذه صفات تلازمهــم وتلون سلوكهم طول الحياة بلونها الخاص • غير أن هذا لا ينفى أثر البيئة فى تعيين المزاج ، فقد ظهر من أحــد البحوث أن الأشخاص الــكبار الذين تعرضــوا للأمراض أكثر من غيرهم فى مرحلة الطفولة المبكرة كانوا أكثر تأثرا بانفعالى الخوف الغضب من غيرهم •

٨ — النضج الانفعالى

يتوقف النجاح فى الحيــاة الى حد كبير على عوامل انفعــالية • فاضطراب الصلات الاجتماعية والعلاقات الانسانية مرهون فى المقام الأول باضطراب الحياة الانفعالية • وحسبنا أن نشير الى أثر سرعة الاهتياج وفرط الخوف والارتياب المسرف والغيرة الشديدة فى صلات الفرد بغيره ، والى أن أغلب من يلجئون الى المعالجين النفسيين يعانون من اضطرابات انفعالية كالعجز عن ضــبط نوبات الغضب ، أو القلق الشــديد من أشياء تافهة ، أو غيرة مســتبدة ، أو مخاوف شــاذة ،

أو اكتئاب مقيم .. والنضج الانفعالى Emotional maturity حالة تتميز بالسمات الآتية :

١ ـــ ألا تثير الفرد مثيرات الانفعال الطفلية أو مثيرات تافهة .. حتى لتستطيع أن تعرف « حجـــم » الشخص من حجم الأشياء التى تثيره . وأن يكون متحررا من الميول الصبيانية كالأنانية والاتكال على الغير والخوف من تحمل المسئولية .

٢ ـــ تعبير الفرد عن انفعالاته بصورة متزنة بعيدة عن التعبيرات البدائية والطفلية للانفعال ، وألا ينم سلوكه على أنه مقسور أو مذعور أو واقع تحت ضغط شديد . فالناضج لا يتشنج ولا يثور بل يفرض ويرفض فى هدوء وثبات وصرار . أما غير الناضـــج فتكون تعبيراته الانفعالية فى العادة مشتطة مسرفة فى الشدة لا تتناسب مع مثيرات الانفعال التى لا تثير فى أسوياء الناس الا انفعالات معتدلة أو لا تثير فى نفوسهم شيئا . ويعرف هذا بالاستقرار الانفعالى .

٣ ـــ القدرة على ضبط النفس فى المواقف التى تثير الانفعال أى البعد عن التهور والاندفاع وتأجيل التعبير المباشر عن الانفعال بمـــا يتيح للفرد التفكير واختيار أنسب الاستجابات . وهذا يشمل القدرة على تحمل الاحباط والحرمان وعلى تأجيل اللذات العـــاجلة من أجل الظفر بلذات آجلة وأهداف أشمل وأبعد، أى القدرة على تغليب الأهداف البعيدة على الأهداف القريبة .. وهذه القدرة تعوز الأطفال وكثيرا من المجرمين .

٤ ـــ الثبـــات المزاجى ويقصد به أن تكون الحيـــاة الانفعاليـــة رزينة لا تتذبذب لأسباب تافهة بين المـــرح والاكتئاب ، بين الحزن والفرح ، بين الضحك والبكاء ، بين التحمس والفتور .. والملاحظ أن التذبذب الانفعالى من صفات الطفل فهو يضحك والدموع ما زالت فى عينيه ، وكذلك من صفات الانسان البدائى والشـــخص العصابى أى المصاب بمرض نفسى .

والنضج الانفعالى شرط ضرورى من شروط الصحة النفسية للفرد بل يراه البعض مرادفا للصحة النفسية . لذا يختلف الناس من حيث درجة اتسامهم بهذا النضج . ويمكن تشبيه ذلك بخط مستقيم يمتد بين نقطتين تمثل احداهما أعلى درجات النضج والأخرى أكبر قـــدر من الفجاجة ، وبين النقطتين يحتل سواد الناس مواضع مختلفة .

٩ — أثر الانفعال فى العمليات العقلية والسلوك

بتأثير الانفعال المعتدل يزداد الخيال خصوبة ، وينشط التفكير فتتدفق المعانى والأفكار فى سرعة وسلالة ، كما تنشط الحركة ويزداد الميل الى مواصلة العمل .

أما الانفعالات الثائرة الهائجة فلا تكاد تنجو من أثرها الضار وظيفة من الوظائف العقلية . فالانفعال العنيف يشوه الادراك ، ويعطل التفكير المنظم والقدرة على حل المشكلات ويضعف القدرة على التذكر ، ويشل سيطرة الارادة بما يجعل الزمام يفلت من الفرد فيندفع الى ضروب من السلوك الصبيانى أو البدائى أو غير المهذب .. فترى المناقش الهادىء الرزين يلجأ حين يفحم ويرتج عليه الى الصياح أو اللجاج والمكابرة ، واذا به أضحى عاجزا عن الفهم ، عاجزا عن اخفاء ما تنطوى عليه نفسه من شك وارتياب أو خوف أو بغض . بل قد يرتد العالم الرصين فينكص الى مستوى التفكير الخرافى والحجة الأسطورية .

أما عن أثر الانفعال الثائر فى تشويه الادراك فحسبنا أن نشير الى سلوك الغضبان الذى لا يرى فى خصمه الا عيوبه ، ولا يسمع فى كلامه الا اهانات موجهة اليه ، أو الى سلوك الغيران الذى يرى فى كل حدث برىء أشياء ومعانى لا وجود لها فى الواقع ، أو الى سلوك المذعورين الذين يحسبون كل صيحة عليهم العدو .

وأما أثر الانفعال فى القدرة على التذكر فيبدو بجلاء فى نسيان الخطيب ما يريد أن يحدث به الجمهور خوفا منه ، وفى اعتقال لسان الفتى وهو يخاطب الفتاة خجلا منها . وكلنا يعرف أن كثيرا من الطلبة يعجزون عن تذكر الأجوبة الصحيحة فى رهبة الامتحان ليتذكروها بعد خروجهم منه !

والانفعال الشديد هو العدو اللدود للتفكير الهادىء المنظم . ذلك ان الانفعال يركز ذهن المفكر ويجمده فى فكرة واحدة ليس غير هى موضوع انفعاله ، كما أن الانفعال يعميه عن رؤية كثير من الحقائق ، ولا يتيح له الهدوء والتأمل اللازمين للتفكير السليم الذى يقتضى النظر الى الموقف من نواح مختلفة وتحليله الى عناصر ووزن كل

عنصر • وآية ذلك ندم المنفعل على ما قد يتخذه من قرارات أو يصدره من أحكام أو يصل اليه من نتائج أثناء انفعاله •

والانفعال ينكص باللغة الى مستوى طفلي مما يبدو لدى كثير من الطلبة أثناء الامتحان الشفوى فبدل أن يجيبوا على السؤال تراهم يكررونه ويتكلمون كالأطفال • وفى حالات الغضب يتكلم بعض الناس بلهجة مبتذلة أو بأسلوب تركوه منذ عهد بعيد •

يضاف الى هذا أن الانفعـــال العنيف يجعل صاحبه ساذجا سريع التصديق شــديد القابلية للايحاء • فاندماج الفرد فى حشــد منفعل يسارع به الى تصديق ما يتطاير من أقوال واشاعات • كذلك الحال أثناء الغارات الجوية •

ومما يذكر أن قمع الانفعال لمدة طويلة مع بقاء الظروف المثيرة له يؤدى الى اضطراب فى الادراك والتفكير والأعمال اليدوية التى تحتاج الى مهارة كالعزف والخراطة ، كأن الطاقة اللازمة لهذه الأوجه من النشاط تستنفد فى قمع الانفعال ، هذا الى اضطرابات جسمية كالتعب المزمن وارتفاع ضغط الدم ، بل وانفجارات خطيرة كالقتل ، والشخص السوى وسط بين التعبير المباشر والقمع المزمن لانفعالاته •

١٠ ـــ الانفعال والأمراض الجسمية

قدمنا أن الانفعالات حالات جسمية نفسية ثائرة أى حالات شعورية تقترن باضطرابات فسيولوجية حشوية مختلفة تغشى الأجهزة الداخلية جميعا ، كما تقترن بحركات تعبيرية وسلوك خارجي ظاهر تنصرف عن طـــريقه هذه الطاقة الحشوية • فـــان حدث أن أعيقت هـــذه الطاقة الحشوية عن الانطلاق فى سلوك خارجى مناسب بالقول أو بالفعل ، كأن امتنع الهرب فى حالة الخوف أو الدفاع فى حالة الغضب ، زاد تراكمها واشتدت وطأتها فتضخمت الاضطرابات والتوترات الحشوية• فان دامت الأسباب المثيرة للانفعال واضطر الفرد الى قمعه أو كبته مالت هذه الاضطرابات الى الازمان بمـــا قد يؤدى آخر الأمر الى أمراض جسمية خطيرة مزمنة كارتفاع ضغط الــدم الخبيث أو الربو أو قرحة المعدة الى غير تلك من الأمراض الجسمية النفسية المنشأ

التى تعرف بالأمراض السيكوسوماتية[1] • وبعبارة أخرى اذا لم تمكن انفعالاتنا من التعبير الظاهر عن نفسها بصورة ملائمة تولت أجسامنا التعبير عنها بما تستهلكه من لحم ودم •

لقد دلت بحوث دقيقة على فريق كبير من المصابين بضغط الدم الجوهرى ، أى الذى لا ينشأ من الأسباب العضوية المعروفة ، على أنهم يعانون من أزمات انفعالية عنيفة قوامها الحقد والعدوان ، وأنهم لم يجدوا لهذا العدوان المكظوم مخرجا أو متنفسا يخفف ما لديهم من توتر مزمن تخفيفا كافيا • وقد لوحظ أن أمثال هؤلاء المرضى تتحسن حالتهم حين يتاح لهم التعبير عن دوافعهم العدوانية أثناء جلسات التحليل النفسى أو حين يتعلمون طرقا أفضل لسياسة دوافعهم العدوانية فى أعمالهم وفى بيوتهم • كما دلت الاحصاءات الحربية على أن قرحة المعدة والأمعاء سببت للجيوش البريطانية خسائر فادحةخلال الحرب العالمية الثانية ، وجاء فى التقرير عمن أصيبوا بها أنهمشخصيات عصابية ظاهرة تعرضوا لتوترات نفسية موصولة من جراء توقع العدوان عليهم دون أن تكون لديهم فرص للقتال •

هذه الأمراض السيكوسوماتية أمراض تتفشى فى الحضارات المعقدة التى يشيع فيها الصراع والاحتكاك الشديد بين الناس والتنافس القاتل والظروف الاقتصادية القلقة والبطالة والتحرش بغريزة الجنس •• الى غير تلك من الظروف التى تستفز الفرد وتثير فى نفسه العداوة والبغضاء والقلق والخوف ولا تسمح له أن يعبر عن هذه الانفعالات تعبيرا صريحا •

ومما يؤيد هذا الرأى أنها أكثر شيوعا فى المجتمعات المعقدة منها فى المجتمعات البسيطة ، وفى الحضر أكثر منها فى الريف • فقد ظهر من بحث حديث على الاسكيمو (١٩٥١) أن نسبة شيوع هذه الأمراض بين من يأخذون بأساليب الحياة الشائعة فى الحضارة الغربية وبين السكان الأصليين ٥ : ١ • كما لوحظ أنها بدأت تنتشر فى البلاد الآخذة بأسباب التصنيع كالهند وغرب أفريقية • وفى جنوب أفريقية حيث تقطن قبائل الزولو لا يكاد مرض السكر يعرف لديهم لكنه بدأ يعرف

---

(1) psychosomatic diseases

طريقه اليهم بعد انتقالهم الى المدن الصناعية بعشر سنوات • ومما يجدر ذكره ما لوحظ من أن هناك فارقا احصائيا ذا دلالة بين ضغط الدم لدى زنوج أفريقية وبينه لدى الزنوج الذين يعيشون فى الولايات المتحدة ، وقد تأكد أنه فارق يرجع الى نوع الحضارة لا الى السلالة • وقد سجلت الاحصاءات فى الولايات المتحدة أن أمراض القلب بمختلف أنواعها إرتفعت نسبة الاصابة بها من ٨٪ عام ١٩٠٠ الى ٣٢٫٧٪ عام ١٩٤٨ أى بزيادة أكثر من ٤٠٠٪ ، كما دلت نفس الاحصاءات على أن نسبة الوفيات بأمراض الشريان التاجى الذى يغذى القلب فى انجلترا أقل منها فى الولايات المتحدة ، لكنها آخذة فى الارتفاع بدرجة كبيرة ، وأنها فى سويسرة أقل منها فى انجلترا ، لكنها تزداد بسرعة •

من هذه الأمراض الجسمية النفسية المنشأ نذكر : ضغط الدم الجوهرى ، وقرح المعدة والأمعاء ، وطائفة من أمراض القلب على رأسها أمراض الشريان التاجى والذبحة الصدرية والجلطة الدموية ، وبعض حالات الامساك والاسهال المزمن ، والتهاب المفاصل الروماتزمى ، وتضخم الغدة الدرقية ، وكثير من حالات الصداع النصفى ، والطفح الجلدى ، والبهاق والبول السكرى ، وسلس البول العنيد ، واللمباجو ، وعرق النسا •

انها أمراض جسمية ترجع فى المقام الأول الى عوامل نفسية سببها مواقف انفعالية تثيرها ظروف اجتماعية • لذا فهى أمراض لا يجدى فى شفائها العلاج الجسمى وحده ، فى حين أنها تستجيب للعلاج النفسى الى حد كبير •

الطب السيكوسوماتى

ظل اهتمام الطب الى عهد قريب مقصورا على جسم الانسان ، غير أن ذيوع الأمراض السيكوسوماتية أدى الى الاهتمام بالعوامل النفسية والاجتماعية فى نشأة الأمراض وعلاجها والى ظهور اتجاه جديد فى الطب يعرف بالاتجاه السيكوسوماتى ، وهو اتجاه يؤكد أثر العوامل النفسية والاجتماعية فى جميع العلل الانسانية دون أن يغض من أثر العوامل الجسمية • فهو يهتم بالمتاعب الاجتماعية والمالية والعائلية للمريض ويعيرها ما هى أهل له من العناية • وبعبارة أخرى فهو يهتم

بالمريض اهتمامه بالمرض ، وينظر الى العوامل الانفعـالية والأزمات النفسية على أنها عوامل حقيقية فعالة فى احداث الاضطرابات الجسمية كالميكروبات والسموم على حد سواء •• انه ينظر الى الانسان على أنه وحدة نفسية جسمية اجتماعية متكاملة متضامنة ان اشتكى منها عضو تداعت له سائر الأعضاء بالسهر والحمى •

أسئلة فى باب الدوافع

١ ــ ما الدوافع التى يحتمل أن تلقى اشباعا كبيرا فى حياة كل من · الطبيب ، الوزير ، العالم ، عامل التليفون ؟

٢ ــ بين كيف قامت عاطفة الصداقة بينك وبين أحد أصدقائك ٠

٣ ــ بين أهمية انتماء الفرد الى جماعة فى ارضاء دوافعه الفطرية والمكتسبه ٠

٤ ــ العادة نعم الخادم وبئس السيد ــ اشرح هذه العبارة ٠

٥ ــ ما العوامل المختلفة التى تسهم فى رسم مستوى الطموح ؟

٦ ــ جهل الانسان بدوافعه مصدر لكثير من متاعبه ومشاكله واندفاعاته ــ اشرح ٠

٧ ــ اذكر أمثلة تبين أن السلوك لا يمكن فهمه وتفسيره دون الاستعانة بالدوافع اللاشعورية ٠

٨ ــ لماذا نقوم أحيانا بأفعال لا نرضاها ، ونمتنع عن أداء أفعال نود القيام بها ؟

٩ ــ ماذا كان يحدث لو كان الناس جميعا لا يشعرون بالنقص ؟

١٠ ــ ما الآثار المختلفة التى تنجم عن شعور الطفل بالفشل ؟

١١ ــ اذا كان الكبت أساس ما يصيب الشخصية من اضطرابات مختلفة ، فما الطرق العملية التى يجب اتباعها للحيلولة دون الطفل أن يسرف فى كبت دوافعه وانفعالاته ؟

١٢ ــ اذكر أمثلة توضح أن السلوك يندر أن يكون نتيجة دافع واحد ، بل غالبا ما يكون نتيجة تضافر عوامل شتى ٠

١٣ ــ اشرح العبارة التى تقول ان الطبيب يعرف المرض و « الحكيم » يعرف المريض والمرض ٠

١٤ ــ الى أى حد أفادتك دراسة الدوافع فى معاملة الآخرين ؟

الباب الثالث

العمليات العقلية

الفصل الأول
الانتباه والإدراك الحسي

١ ـ تمهيد

ان تعامل الانسان الدائم مع بيئته وتفاعله معها يتطلب منه أولا وبالضرورة أن يعرف هذه البيئة حتى يتسنى له التكيف لها واستغلالها وحماية نفسه من أخطارها واشتراكه فى أوجه نشاطها • والشرط الأول لهذه المعرفة هو أن ينتبه الى ما يهمه من هذه البيئة وأن يدركه بحواسه كى يستطيع أن يؤثر فيها وأن يسيطر عليها بعقله وعضلاته • فالانتباه والادراك الحسى هما الخطوة الأولى فى اتصال الفرد ببيئته وتكيفه لها •

بل هما الأساس الذى تقوم عليه سائر العمليات العقلية الأخرى فلولاهما ما استطاع الفرد أن يعى شيئا ، أو أن يتذكر أو يتخيل شيئا • أو أن يتعلم شيئا ، أو أن يفكر فيه • فلكى نتعلم شيئا أو نفكر فيه يجب أن ننتبه اليه وأن ندركه •

وللادراك بوجه خاص صلة وثيقة بسلوكنا ، فنحن نستجيب للبيئة لا كما هى عليه فى الواقع بل كما ندركها ، أى أن سلوكنا يتوقف على كيفية ادراكنا لما يحيط بنا من أشياء وأشخاص ونظم اجتماعية • من ذلك أن الطفل الصغير لا يخاف من كثير مما نخافه نحن الكبار ولا يغضب لكثير مما يغضبنا نحن الكبار و لايهتم لكثير مما نهتم به وذلك لاختلاف ادراكه عن ادراكنا •

وللانتباه والادراك علاقة متينة أيضا بشخصية الفرد وتوافقه الاجتماعى • فالعجز عن الانتباه وعن أدراك ما يرغب فيه الناس ، وما يشعرون به حيالنا وعن أثر سلوكنا فيهم وسلوكهم فينا ، مدعاة لسوء الفهم والتفاهم بيننا وبينهم وسبيل الى سوء التوافق الاجتماعى • وحسبنا أن نشير الى أن اضطراب الانتباه واضطراب الادراك الحسى

من السمات المميزة والمشتركة بين المصابين بأمراض عقلية على اختلاف أنواعها وشدتها .

الانتبـاه والادراك

لقد جمعنا بين دراسة الانتباه والادراك لأنهما عمليتان متلازمتان فى العادة.فاذا كان الانتباه هو تركيز الشعور فى شىء ، **فالادراك هومعرفة** هذا الشىء . فالانتباه يسبق الادراك ويمهد له أى أنه يهيىء الفرد للادراك أو كأن الانتباه يرتاد ويتحسس ، بينما الادراك يكتشف ويعرف . فأنا أنتبه الى هذا الصوت المفاجىء فأدرك أنه صوت باب يقفل،وأنتبه الى شخص قادم يلبس منظارا فأدرك أنه ليس صديقى الذى أنتظره ، غير أن الانتباه قد لا يعقبه ادراك أحيانا فقد ننظر لكننا نعجـز عن الرؤية ، أو ننصت لكنا نعجز عن سماع ما نتوقع سماعه .

وثمة فارق هام بين الانتباه والادراك . فقد ينتبه جمع من الناس الى موقف واحد ، كسماع خطيب أو مشاهدة مسرحية ، لكن يختلف ادراك كل منهم له عن الآخر اختلافا كبيرا ، وذلك لاختلاف ثقافتهم وخبراتهم السابقة ووجهات نظرهم وذكائهم ودوافعهم .

٢ ــ الانتبـــــاه

الانتباه اختيار وتركيز :

يزخر العالم الخارجى بأشتات من المنبهات الحسـية المختلفـة ــ البصرية والسمعية واللمسية والشمية والذوقية وغيرها ، كما أن جسم الانسان نفسه مصدر لكثير من المنبهات الصادرة من أحشائه وعضلاته ومفاصله ، كذلك يزخر الذهن بسيل من الخواطر والأفكار ، لكن الفرد لا ينتبه الى جميع هذه المنبهات التى تتوشه من كل جانب وفى كل لحظة ، بل يختار منها ما يهمه معرفته أو عمله أو التفكير فيـه ومـا يستجيب لحاجاته وحالاته النفسية الوقتية والدائمة . وكمـا أنه يختـار بعض الموضوعات ويركز شعوره فيه فهو يتجاهل ما عداه ولا يهتم له.وتسمى عملية الاختيار هذه بالانتباه .

ويتضمن الاختيار فى العادة استعداد الفرد وتهيؤه لملاحظـة شىء دون آخر أو التفكير فى شىء دون آخر . فاذا قلت لآخر «انتبه» فأنت

تطلب اليه أن يستعد لادراك ما سنقول أو نعمل • والرياضي قبيل البدء في السباق يكون مستعدا لسماع صوت الصفارة وللانطلاق على الفور • فالانتباه اذن اختيار و « تهيؤ ذهني » set • أو هو توجيه الشعور وتركيزه في شيء معين استعدادا لملاحظته أو أدائه أو التفكير فيه •

والانسان حين يكون منتبها الى شيء — كأن يكون منهمكا في قراءة موضوع مهم أو التفكير في مسألة عويصة — فهو لا يشعر بما حواه من الناس والأشياء الا شعورا غامضا • في هذه الحال يقال ان موضوع انتباهه يحتل «بؤرة» شعوره • أما ما عداه فيكون في «هامش» شعوره أو «حاشيته» • فالضوضاء التي يعج بها الشارع والأشخاص الذين يروحون ويجيئون من حوله ودرجة حرارة الجو وضغط الملابس على جسمه •• كل هذه تكون في هامش الشعور ، بل أن فرقعة انفجار أو طرقة عنيفة من باب لا يكاد يسمعها من كان منهمكا في عمل أو مستسلما لأحلام اليقظة •

٣ — أنــواع الانتبــاه

يقسم الانتباه من ناحية مثيراته أقساما ثلاثة :

١ — **الانتباه القسري** : فيه يتجه الانتباه الى المثير رغم ارادة الفرد كالانتباه الى طلقة مسدس أو ضوء خاطف أو صدمة كهربية عنيفة أو ألم واخز مفاجيء في بعض أجزاء الجسم • هنا يفرض المثير نفسه فرضا فيرغمنا على اختياره دون غيره من المثيرات •

٢ — **الانتباه التلقائي** : هو انتباه الفرد الى شيء يهتم به ويميل اليه • وهو انتباه لا يبذل الفرد في سبيله جهدا ، بل يمضي سهلا طيعا •

٣ — **الانتباه الارادي** : هو الانتباه الذي يقتضي من المنتبه بذل جهد قد يكون كبيرا كانتباهه الى محاضرة أو الى حديث جاف أو ممل أو يدعو الى الضجر • في هذه الحال يشعر الفرد بما يبذله من جهد في حمل نفسه على الانتباه • وهو جهد ينجم عن محاولة الفرد التغلب على ما يعتريه من سأم أو شرود ذهن اذ لابد له أن ينتبه بحكم الحاجة أو الضرورة أو التأدب • ويتوقف مقدار الجهد المبذول على شدة الدافع الى الانتباه وعلى وضوح الهدف من الانتباه • هذا النوع من الانتباه

لا يقدر عليه الأطفال فى العادة اذ ليس لديهم من قوة الارادة والصبر والقدرة على بذل الجهد واحتمال المشقة الوقتية فى سبيل هدف أبعد ما يمكنهم منه ، لذا يجب أن تكون الدروس التى تقدم اليهم قصيرة شائقة أو ممزوجة بروح اللعب •

عوامل اختيار المثيرات :

ونتساءل الآن عن العوامل التى تجعل بعض المنبهات والمواقف تجذب انتباهنا دون غيرها من المنبهات والمواقف ، أى عن العوامل التى تهيمن على اختيار المنبهات • هناك منبهات خاصة تفرض نفسها علينا فرضا بحكم خصائصها فتجذب انتباهنا اليها • كالرعد القاصف أو البرق الخاطف غير أن انتباهنا لحسن الحظ ليس ألعوبة فى يد هذه المنبهات، فهناك عوامل داخلية ذاتية تعارض أثرها أو تخفف من قوتها كما سنرى •

٤ ـ عوامل الانتباه الخارجية

أجريت بحوث تجريبية كثيرة فى هذا الميدان كانت لها قيمة كبيرة فى الاعلان عن السلع التجارية وغيرها • فكل اعلان يجذب الانتباه ويحتفظ به مدة من الزمن اعلان ناجح • فمن عوامل الانتباه الخارجية :

شدة المنبه : فالأضواء الزاهية والأصوات العالية والروائح النفاذة أجذب للانتباه من الأضواء الخافتة والاصوات الضعيفة والروائح المعتدلة • غير أن المنبه قد يكون شديدا ولا يجذب الانتباه وذلك لتدخل عوامل أخرى أكثر وزنا فى جذب الانتباه من الشدة كأن يكون الفرد مستغرقا فى عمل يهمه •

تكرار المنبه : فلو صاح أحد « النجدة » مرة واحدة فقد لا يجذب صياحه انتباه الآخرين ، أما ان كرر هذه الاستغاثة عدة مرات كان ذلك أدعى الى جذب الانتباه •• على أن التكرار ان استمر رتيبا وعلى وتيرة واحدة فقد قدرته على استرعاء الانتباه • وهذا ما يلاحظه المعلنون اذا يلجأون الى التنويع المستمر فى اعلاناتهم • وصوت المدرس ان كان رتيبا أدى الى اغفاء التلاميذ •

تغير المنبه : عامل قوى فى جذب الانتباه • فنحن قد لا نشعر بدقات الساعة فى الحجرة لكنها ان توقفت عن الدق فجأة اتجه انتباهنا اليها• كذلك الحال أثناء قيادة السيارة فأى تغير فى صوت الماكينة يلفت نظر السائق • فانقطاع المنبه أو تغيره فى الشدة أو الحجم أو النوع أو الموضوع له أثر فى جذب الانتباه • وكلما كان التغير فجائيا زاد أثره•

التباين : contrast كل شىء يختلف اختلافا كبيرا عما يوجد فى محيطه من المرجح أن يجذب الانتباه اليه •فنقطة حمراء تبرز فى مجال انتباهنا ان كانت وسط نقط سوداء ، كذلك وجود امرأة بين عدد من الرجال•ويمكن اعتبار تغير المنبه نوعا من التباين • والتباين عامل يبدو فى الاعلانات الجيدة • فالاعلان غير الجيد يحتـوى على كثـير من التفاصيل التى تزحمه فلا يلاحظ منها بوضوح الا جزء قليل • وخير منه الاعلان الذى تحيط به هوامش ومسـاحات بحيث يبرز وسـطها بفضل التباين • وقد وجد أن الاعلان الذى يستغرق ربع صفحـة اذا نشر على نصف صفحة وكانت حدوده واضحة زادت قيمته فى جـذب الانتباه بمقدار ٣٠٪ فى المتوسط •

حركة المنبه : الحركة نوع من التغير • فمن المعروف أن الاعلانات الكهربية المتحركة أجذب للانتباه من الاعلانات الثابتة • والملاحظ أن بعض الحيوانات تحرك ذيولها أثناء القتال كما لو كانت تريد تشتيت انتباه العدو •وأن حيوانات أخرى يصيبها الشلل ان فاجأها العدو وقد يكون فى ذلك نجاتها • وكثيرا ما يلجأ « الحواة » الى هذا العمل لخداع النظارة • فالحاوى يعمل على تركيز انتباههم فى حركة يبدو أنها مهمة فى اللعبة لكنها فى الواقع حركة عرضية •وبينما هم يلاحظون يده اليمنى تكون يده اليسرى اتمت اللعبة •

موضع المنبه : وجد أن القـارىء العـادى أميل الى الانتباه الى النصف الأعلى من صفحات الجريدة التى يقرؤها منه الى الانتباه الى النصف الأسفل وكذلك الى النصف الأيسر منه الى النصف الأيمن — هذا فى الجرائد الأجنبية •

• ــ عوامل الانتباه الداخلية

هناك عوامل داخلية مختلفة ، مؤقتة ودائمة ، تهيىء الفرد للانتباه الى موضوعات خاصة دون غيرها • فمن العوامل المؤقتة :

الحاجات العضوية : فالجائع ان كان سـائرا فى الطـريق استرعت انتباهه الاطعمة وروائحها بوجه خاص •

الوجهة الذهنية Mental set : فاذا كنت تريد شراء سلعة معينـة كانت أول شىء تراه فى المحل الذى تدخله • كذلك نرى الممرضة حساسة لنداء المريض ، والطبيب لجرس التليفون ليلا • والأم النائمة الى جوار طفلها قد لا يوقظها صوت الرعد ، لكنها تكون شديدة الحس لكل حركة أو صوت يصدر من الطفل •

ومن العوامل الدائمة الدوافع الهامة والميول المكتسبة التى تعتبـر تهيئوا ذهنيا دائما للتأثر ببعض المنبهات والاستجابة لها :

الدوافع الهامة : فلدى الانسان وجهة ذهنية موصولة للانتبـاه الى المواقف التى تنذر بالخطر أو الألم • كما أن دافع الاستطلاع يجعله فى حالة تأهب مستمر للانتباه الى الاشياء الجديدة أو غير المألوفة • ثم أن اهتمام المرء بما يقوله الناس ويفعلونه وبأداء واجباته نحوهم يجعله فى حالة استعداد مستمر لأداء هذه الواجبات : تحيتهم عند لقائهم ، وملاحظة آداب الطريق ، والاصغاء اليهم حين يتحدثون •

الميول المكتسبة : يبدو أثرها فى اختلاف النواحى التى ينتبه اليها عدد من الناس حيال موقف واحد : فى اختلاف الأشياء التى ينتبه اليها رجل وزوجته وطفله وهم يسيرون فى الطريق ، أو فيما ينتبه اليـه قاض ومدرس وطبيب وهم يشهدون منظرا طبيعيا ، أو فيمـا يلتفت اليه عالم نبات وجيولوجى وسيكولوجى يزورون حديقة الحيـوان : أما أولهم فتلفت نظره غالبا وبوجه خاص الزهور والنباتات ، وأما الثانى فينتبه بوجه خاص الى ما قد يوجد بالحديقة من أحجار وصخور وأما الثالث فيجذبه سلوك الحيوانات داخل الأقفاص ، أو بالأحرى سلوك من يتفرجون عليها خارج الأقفاص !

٦ — حصر الانتباه

لا يثبت الانتباه على شيء واحد الا لحظة وجيزة من الزمن . وما عليك الا أن تلاحظ عيني شخص يستطلع منظرا طبيعيا أو لوحة فنية، لترى أنهما تنتقلان من نقطة الى أخرى كل ثانية أو ثانيتين وحتى اذا كانت العينان مثبتتين على موضوع خارجي خاص ، لم يلبث الانتباه أن ينتقل منه الى فكرة أو خاطر في ذهن الفرد . ثم حاول أن تنتبه الى دقات تلك الساعة التي يأتيك صوتها من بعيد .. فأنت تجد أنك تسمع دقاتها لحظة ثم ينقطع الصوت ، ثم تعود تسمعه وهكذا .

ومع هذا فمن الممكن أن يحصر الشخص انتباهه ان كان ينتبه الى موضوع يثير في نفسه ذكريات وأفكار كثيرة ، أو كان يعرف عنه الكثير، او كان الموضوع متغيرا أو متحركا أو مركبا.في هذه الأحوال يتسنى للمرء حصر انتباهه لمدة طويلة اذ ينتقل بانتباهه من جانب الى آخر من جوانب الموضوع ، أو بتقليب الموضوع على وجوهه الكثيرة . فالمختص في موضوع يستطيع أن يحصر انتباهه فيه مدة طويلة . فكأن الانتباه المستمر الموصول ليس انتباها جامدا لا حراك فيه ، بل انتباه متحرك يتغير بسرعة ولكن في دائرة اهتمام واحدة ، لا يحيد عنها ولا يستسلم للمشتتات .

أما الذين يشكون من ضعف القدرة على الانتباه — سواء كانوا من التلاميذ أو غيرهم — فليست مشكلتهم العجز عن الانتباه بصورةمطلقة، بل الانتباه الى أشياء أخرى أحب الى نفوسهم من تلك التي يجب عليهم الانتباه اليها . فلا شيء يعين على حصر الانتباه الى موضوع معين مثل الميل اليه والاهتمام به والتحمس له . لذلك نرى التلميذ لا يقدر على الانتباه الى مادة جديدة أ وجافة ، حتى اذا ما تقدم فيها وبدأ يميل اليها زاد انتباهه اليها . فكأن الانتباه والاهتمام جانبان لشيء واحد. وفي هذا يقول أحد علماء النفس : الاهتمام انتباه كامن ، والانتباه اهتمام نـاشط .

ومن ثم يتعين على المدرس أو الخطيب الذي يريد الابقاء على انتباه سامعيه أن يثير اهتمامهم أول الأمر بالموضوع ثم يمضي في عرضه لكن دون استطراد كبير . فالاستطراد غالبا ما يكون مدعاة الى حيود الانتباه

عن موضوعه الأصلى • وحتى ان كان لذيذا شائقا فى ذاته أو وسيلة من وسائل الايضاح الا أنه يشغل السامعين عن الموضوع الرئيسى فاذا بهم قد خرجوا من الدرس أو المحاضرة وهم يتذكرون الامثال الايضاحية ولا يذكرون شيئا عن النواحى والنقط التى كان الاستطراد يرمى الى ايضاحها •

وتتوقف القدرة على حصر الانتباه على عوامل عدة منها الوراثة والسن والخبرة والاهتمام والتعود ، وعوامل جسمية ونفسية سنعرضها بعد قليل •

٧ ـ مشتتات الانتبـاه

يشكو بعض الناس من شرود انتباههم ، بقدر قليل أو كبير ، أثناء العمل أو الحديث أ والقراءة أ ومذاكرة الدروس ان كانوا طلابا • فهم يعجزون عن التركيز الا لبضع دقائق ثم ينصرف انتباههم الى شيء آخـر ، كما يجدون صعوبة فى تركيز انتباههم من جديد • وكلماجاهدوا على علاج ذلك لم يجدهم المجهود شيئا • وغنى عن البيان ما يسببه شرود الذهن ان أصبح عادة مستعصية من عواقب وخيمة•ويذكركثير من الطلاب أنه كان العامل الرئيسى فى تخلفهم وتعثرهم مرة بعد أخرى ، هذا فضلا عما تسببه هذه العادة من شعور صاحبها بالنقص والعجز عن اصلاح نفسه بل وسخطه أو نفوزه من نفسه •

ويرجع العجز عن الانتباه ـ الانتباه الارادى بطبيعة الحال ـ الى عدة عوامل بعضها يرجع الى الفرد نفسه وهذه عوامل جسمية ونفسية وبعضها الى عوامل خارجية ، طبيعية أو اجتماعية •

العوامل الجسمية : قد يرجع شرود الانتبـاه الى التعب والارهاق الجسمى وعدم النوم والاستجمام بقدر كاف أو عدم الانتظام فى تناول وجبات الطعام ، أو سوء التغذية أو اضطراب افرازات الغدد الصمم• هذه العوامل من شأنها أن تنقص حيوية الفرد وأن تضعف قدرته على المقاومة بما يشتت انتباهه • وقد لوحظ أن اضطراب الجهازين الهضمى والتنفسى مسئول بوجه خاص عن كثير من حالات الشرود لدى الأطفال• فقد أدى علاج هذه الاضطرابات ـ كاستئصال لوزتين ملتهبتين أو تطهير الأمعاء من الديدان ـ الى تحسن ملحوظ فى قدرتهم على التركيز •

العوامل النفسية : كثيرا ما يرجع تشتت الانتباه الى عوامل نفسية كعدم ميل الطالب الى المادة وبالتالى عدم اهتمامه بها ، أو انشغال فكرة واغرامه الشديد بأمور اخرى رياضية أو اجتماعية أو عائلية ، أو اسرافه فى التأمل الذاتي واجترار المتاعب والآلام ، أو لأنه يشكو لأمر ما من مشاعر أليمة بالنقص أو السب أو القلق أو الاضطهاد .. وهنا يجب التمييز بين شرود الذهن حيال مادة دراسية معينة أو موضـوع معين وبين الشرود العام مهما اختلف موضوع الانتبـاه . ذلك أن الشرود القسرى الموصول كثيرا ما يكون نتيجة لأفكار وسواسية تسـيطر على الفرد وتفرض نفسها عليه فرضا فلا يستطيع أن يتخلص منها بالارادة وبذل الجهد مهما حاول . كأن تستحوذ عليه فكرة فحواها أن الناس تضطهده أو أنه مصاب بمرض معين . أو أنه مذنب آثم . أو أن الفتيات ينفرن منه ولا يحببن الحديث معه .. فى هذه الحال يكون شرود الذهن عرضا لاضطراب نفسى ، ويكون علاجه على يد خبير نفسى . أما بذل الجهد للخلاص من هذا المرض فلا يجدى شيئا لانه يجعل الفرد يركز على الجهد لا على العمل ، وفى هذا ما يصرفه عن العمل نفسه .

العوامل الاجتماعية : قد يـرجع الشرود الى عـوامل اجتمـاعية كالمشكلات غير المحسومة ، أو نزاع مستمر بين الوالدين ، أو عسر يجده الفرد فى صلاته الاجتماعية ، أو صعوبات مالية ، أو متـاعب عائلية مختلفة . لذا لا يلبث الفرد أن يلتجىء الى أحلام اليقظة يجد فيها مهربا من هذا الواقع المؤلم..ويلاحظ أن الأثر النفسي لهذه العوامل الاجتماعية يختلف باختلاف قدرة الناس على الاحتمال والصمود . فمنهم من يكون أثرها فيهم كأثر الكوارث والصدمات العنيفة .

العوامل الفيزيقية : من هذه العوامل عدم كفاية الاضاءة أو سـوء توزيعها بحيث تحدث الجهر « الزغللة » ، ومنها سوء التهوية وارتفاع درجة الحرارة والرطوبة ، ومنها الضوضاء . وهنا تجدر الاشارة الى ما يصرح به بعض الناس والطلاب من أن انتاجهم يزداد فى الضوضاء عنه فى مكان هادىء .. وهذا موضوع كان مثارا لكثير من التجـارب فى علم النفس . وقد أسفرت هذه التجارب عن أن تأثير الضوضاء من حيث هى عامل مزعج مشتت للانتباه يتوقف على : ١ ـ نوع الضوضاء، ٢ ـ نوع العمل . ٣ ـ وجهة نظر الفرد الى الضوضاء .

فالضوضاء الموصولة أثرها دون أثر الضوضاء المتقطعة أو غير المألوفة، أى أن الضوضاء المتواصلة التى تصدر عن جماعة يكتبون على الآلةالكاتبة ليس لها من الاثر المشتت ما للضوضاء التى تصدر عن أبواق السيارات فى الطريق أو عن أشخاص يدخلون الحجرة بين آن وآخر ويطرقون وراءهم الابواب أ وعن أشخاص يرفعون أصواتهم بالكلام بين حين وآخر •

كما دلت التجارب أيضا على أن الاعمال العقلية بوجه عام تتأثر بالضوضاء أكثر مما تتأثر بها الاعمال الحركية البسيطة •

وقد أسفرت التجارب أيضا عن أن تأثير الضوضاء فى الفرد يتوقف، على وجهة نظره اليها ودلالتها عنده • فان كان يرى أنها شيء ضرورى لابد منه ولا يتم العمل بدونه — كضوضاء آلات المصانع بالنسبة للعمال — لم تكن مصدر ازعاج كبير له فى انتاجه • أما ان سعر العامل أن الضوضاء ترجع الى عدم اكتراث ادارة المصنع براحته ، كانت مصدر ازعاج وتشتيت •••

والخلاصة التى يمكن الخروج بها من مختلف هذه البحوث هى أن الانسان يستطيع أن ينتج فىالضوضاء قدر ما ينتجه فى الهدوء بشرط أن تكون دوافعه الى العمل قوية وأن يبذل جهدا يزداد بازدياد الاثر المشتت للضوضاء • وبعبارة أخرى فالجهد الذى يبذله للتغلب على أثر الضوضاء يكون على حساب أعصابه • ولكل فرد حد للاحتمال وبذل الجهد ان تجاوزه سارع التعب اليه وزاد اهتياجه وكثرت أخطاؤه فى عمله وأصبح عاجزا عن أقل الانتباه •

الادراك الحسى

١ — الاحساس والادراك

الاحساس Sensation :

حين تقرع المنبهات الحسية حواسنا ينتقل أثر هذه التنبيهاب عن طريق أعصاب خاصة — هى الأعصاب الموردة — الى مراكز عصبية خاصة فى المخ • وهناك تترجم هذه الآثار ، بطريقة لا تزال لغزا من الغاز العلم ،الى حالات شعورية نوعية بسيطة هى ما تعرف

بالاحساسات • فالاحساس هو الاثر النفسى الذى ينشأ مباشرة من تنبيه حاسة أو عضو حاس وتأثر مراكز الحس فى الدماغ ، كالاحساس بالألوان والأصوات والروائح والمذاقات والحرارة والبرودة والضغط وتنقسم لاحساسات بوجه عام أقساما ثلاثة :

١ ــ احساسات خارجية المصدر هى الاحساساتالبصرية والسمعية والجلدية [١] والشمية والذوقية •

٢ ــ احساسات حشوية تنشأ من المعدة والأمعاء والرئــة والقلب والكليتين وغيرها من الاحشاء ، كالاحساس بالجوع والعطش أو غثيان النفس أو انقباضها •

٣ ــ احساسات عضلية أو حركية تنشأ من تأثر اعضاء خاصة فى العضلات والأوتار والمفاصل •وهى تزودنا بمعلومات عن ثقل الاشياء وضــغطها وعن وضع أطرافنا وحركاتها ــ سرعتهــا واتجاهها ومدى تحركها ــ وعن وضع الجسم وتوازنه ، وعن مدى ما نبذله من جهد وما نلقاه من مقاومةونحن نحرك الاشياء أو نرفعها أو ندفعها •

الادراك الحسى Perception :

لو اقتصر موقفنا من العالم الخارجى على هــذا الحد من الحس والشعور الخام لم يكن نصيبنا من هذا العالم الا مجموعة منطمســة متداخلة متزاحمة من احساسات غفل : بصرية وسمعية وجلدية وشمية وغيرهــا ، ولما استطعنا أن نكيف أنفسنا للبيئة التى نعيش فيها • فلو أننى قابلت فى الطريق نمرا فلم يصبنى من مروره الا بضعــة ألوان جذابة وأصوات ورائحة ما كنت أحفل به أو أحرك ساكنا ، لكنى أدركه حيوانا ذا صفات تنطوى على معنى خطير ، ومن ثم أسلك نحوه السلوك اللائق به • ولو أننىقابلت عند مفترق الطريق وأنا أسوق سيارةضوءا أحمر فلم أحس حيائه الا باحســاس بصرى كان المرجــح أن أرتطم بسيارتى ، لكننى ادركه فى الواقع رمزا يفيد معنى هو التــوقف عن

---

(١) تتألف الحساسية الجلدية من اربعة احساسات رئيسية : الاحساس باللمس والضغط ، والاحساس بالألم ، والاحساس بالبرودة ، والاحساس بالسخونة .

السير ،ولو أننى نظرت الى هذه الصفحة المكتوبة فلم أحس حيالهـا الا باحساسات بصرية ما خرجت من انظر اليها بشىء ؛ لكننى أدرك فيما أراه منها رموزاً تفيد معانى مختلفة •

للواقع أن الانسان يكاد يستحيل عليه أن يحس احساسا خالصالأنه لا يلبث أن يضيف اليه شيئا من عنده يجعل له «معنى» خاصا•وبعبارة أخرى فنحن لا نرى أو نسمع منبهات حسية بصرية أو سمعية بل نرى أشياء وأحداثا ومناظر ونسمع أصوات أناس أو حيوانات • ولا نشم مجرد رائحة بل ندرك أنها رائحة ورد أو زهر البرتقال • وغنى عن البيان أن المنبهات تختلف عن « الاشياء » اختلافا كليا • فحـين أرى شجرة فى الأفق،فالذى يحدث هو أن الضوء المنعكس من الشجرتيقرع عينى ، وليس أن الشجرة تأتى الى فتقرع عينى • وحين أسمع أزيزا تزداد شدته أدرك أنه طائرة قادمة ،والطائرة ليست بالازيز •

فالادراك الحسى هو عملية تأويل الاحساسـات تأويـلا يزودنـا بمعلومات عما فى عالمنا الخارجى من أشياء • أو هو العملية التى تتم بها معرفتنا لما حولنا من أشياء ، عن طريق الحواس ، كأن أدرك أن هذا الشخص الماثل أمامى صديق لى ، وأن الحيوان الذى اراه حمار ،وان هذا الصوت الذى أسمعه صوت سيارة مقبلة أو مدبرة ، وأن هذه الرائحة التى أشمها رائحة سمك يقلى ، وكأن أدرك أن هذا التعبير الذى ألمحه على وجه شخص هو تعبير الغضب ، وأن هـذه التفاحة أكبر من تلك ، أو أن جلدى قد لوحته الشمس — وجسم الانسان جزء من عالمه الخارجى — أو أن عضلة معينة فى ساقى فى حالة تشنج •

ولعله لم يفتنا أننا نستخدم كلمة « الأشياء » بمفهوم واسع شامل لا يقتصر على ما ندركه من مجسمات ومسطحات ومسافات ، بل يشمل أيضا ما ندركه من أحداثكشروق الشمس أو اصطدام سيارة أوانتشار وباء ، كما يشمل ما ندركه من صفات كعلامات الحزن على وجـهشخص، كذلك ما ندركه من علاقات كأن تدرك أن هذا الخط أو أقصر من ذاك ، هذا الى ماندركه من رموز كما ندرك أن النور الاحمر رمز للتوقف عن السـير •

ماذا ندرك ؟

يتلخص ما ندركه فى : (١) أشياء متمايزة منفصل بعضها عن بعض (٢) وهى أشياء تنطوى على دلالة ومعنى • فلو ألقينا نظرة من النافذة لرأينا على الفور بيوتا وأشخاصا وعربات متمايزة لا يتداخل بعضها فى بعض ولم نر مجموعات متراكبة من رقع ملونة • وهذه اللوحة الفنية التى أنظر اليها ليست مجرد مجموعات من أشعة وموجات ضوئية ذات ذبذبات مختلفة ، بل وحدة مستقلة منفصلة عما حولها من أشياء . ولها معنى خاص ••كذلك الحال فى صوت الاستغاثة الذى أسمعه من مسكن جارى • فهو ليس مجرد موجات صوتية تقرع أذنى، بل انه صوت متمايز يبرز فى مجال ادراكى على ما أسمعه من أصوات أخرى : كما أنه ينطوى على معنى خاص •

كيف نـــدرك ؟

والآن يبدو لنا أن نتساءل : كيف يتم هذا التحول المذهل من أشعة وموجات ودقائق شاردة تسبح فى العالم الخارجى الى ادراك وحدات منفصلة محددة — أو « صـــيغ » كمـا تسمى اصطلاحـــا — ذات دلالة ومعنى ؟

لقد كان علم النفس الترابطى القديم يرى أن الأشياء تبرز فى مجال ادراكنا نتيجة نشاط عقلى يربط بين احساسات منفصلة مختلفة ، ومن هذا الترابط تتألف الأشياء التى ندركها كما يتألف الحائط من قوالب مترابطة من الطوب • وبعبارة أخرى فالعالم الخارجى عـــالم فوضى وعماء يقوم العقل بتنظيمه • حتى اذا ظهرت مدرسة « الجشطلت أو الصيغ » بينت أن العالم الذى يحيط بنا عالم يتألف من أشياء ومواد ووقائع منظمة وفق قوانين خاصة ، وبفعل عوامل خارجية موضـــوعية تشتق من طبيعة هذه الاشياء نفسها لا نتيجة نشاط عقلى أو خبـــرات سابقة ، وتعرف هذه بقوانين « التنظيم الحسى » •

فبفضل هذه العوامل تنتظم المنبهات الحسية فى وحدات ، فى صيغ مستقلة ، تبرز فى مجال ادراكنا • ثم تأتى الخبرة اليوميـــة والتعلم فتفرغ على هذه الصيغ معانى ودلالات • وعلى هذا تتلخص عمليـــة الادراك فى خطوتين أو مرحلتين :

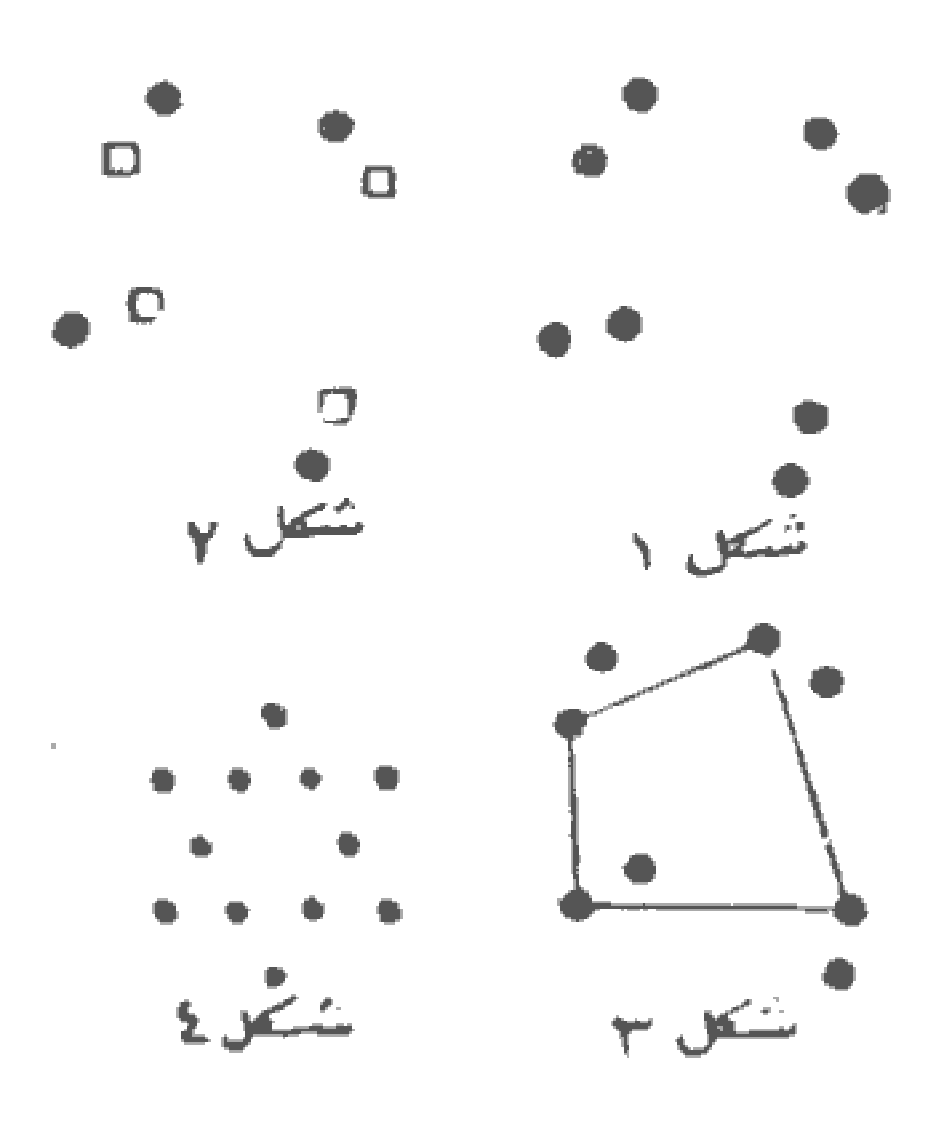
١ — التنظيم الحسى • ٢ — عملية التأويل •

٢ ـ قوانين التنظيم الحسى

هى القوانين التى تنتظم بمقتضاها التنبيهات الحسية فى وحـــدات مستقلة بارزة أى صيغ بفضل عوامل موضوعية من أهمها :

١ ـ عــامل التقــارب : فالتنبيهات الحســية المتقاربة فى المكان أو الزمان تبدو فى مجال ادراكنا وحدة مستقلة محددة وصيغة بارزة • ففى الشكل (١) لا ندرك كل نقطة على حدة بل ندرك كل زوج من النقط صيغة ولو حاولنا أن نؤلف صيغة من نقطة فى أحد الأزواج مع نقطة فى زوج آخر لصعب علينا ذلك • وقل مثل ذلك فى عدد من الدقات المتتالية، فانها تفرض نفسها على ادراكنا فى صورة وحدة وصيغة متماسكة • أما ان كانت الدقات متباعدة سمعناها فرادى لا على هيئة صيغة •

٢ ـ عامل التشابه : فالتنبيهات الحسية المتشابهة ، كالأشــياء أو النقط المتشابهة فى اللون أو الشكل أو الحجم أو السرعــة أو الشــدة أو اتجاه الحركة •• ندركها صيغا مستقلة « أنظر شكل ٢ » وسلسلة من النغمات العالية يدعو بعضها بعضا فى مجال الادراك ، كذلك النغمات المنخفضة أو التى تعزف بآلة واحدة ، كذلك الألفاظ التى تصــدر عن شخص واحد ، فهى تنزع الى الائتلاف والتفرد والبروز فى مجــال الادراك وسط الضوضاء والجلبة لأنها متشابهة من حيث مصدرها •



٣ ـ **عامل الاتصال** : فالنقط ألتى تصل بينها خطوط مستقيمة أو غير مستقيمة تدرك صيغة « شكل ٣ » • كذلك الحال فى سلسلة من النغمات الصاعدة أو الهابطة •

٤ ـ **عامل الشمول** : فشكل « ٤ » يميل بنا الى أن ندركه نجمة لا شكلين سداسيين أو مثلثين متداخلين . لأن النجمة تتميز باحتوائها وشمولها جميع العناصر • صحيح أن هذين الشكلين يفرضان نفسيهما على الناظر بين حين وآخر . لكنهما لا يضاهيان فى قوتهما وبروزهما شكل لنجمة •

٥ ـ **عامل التماثل** : فالتنبيهات المتماثلة تمتاز على غيرها من التنبيهات فتبرز صيغا •

٦ ـ **عامل الاغلاق** : من الملاحظ أن التنبيهات والأشكال الناقصة تميل الى الاكتمال فى ادراكنا • فنحن نرى الدائرة التى بتر جزء منها دائرة كاملة . ونستطيع أن ندرك وجه شخص معين من عدة خطوط بسيطة مرسومة • ومن « الشكل ٥ » ندرك صورة حيوان مكتمل • كذلك الحال فى التنبيهات السمعية • فقد دلت التجارب على أن الناس حتى أدقهم سمعا لا يسمعون بالفعل الا ٧٥٪ من الأصوات فى محادثاتهم

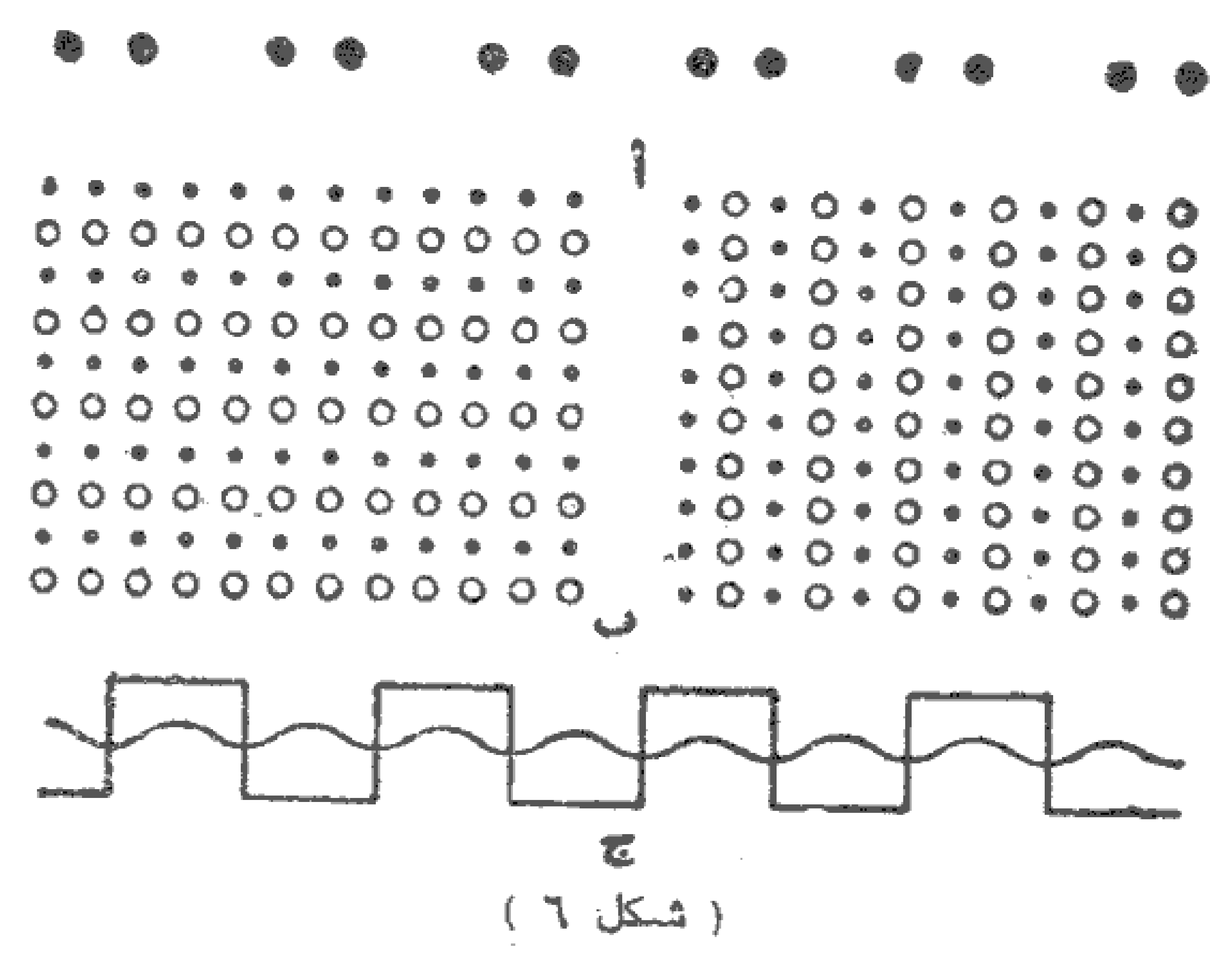


شكل ٥

العادية ، وهم يملئون الثغرات من ملابسات الحديث وموضوعه • وفى الادراك الذوقى نشعر بأن الطبق الذى نتناوله ينقصه «شىء» حتى أن لم نعرف على وجه التحديد ما ينقصه • هذا الاتجاه الفطرى الى

اكمال الاشياء والاعمال المبتورة هو الذى يميل بنا الى افراغ معنى على الاشياء والمواقف التى لا معنى لها ، والذى يميل بالطبيب الى أن يدرك جميع الاعراض المعروفة لمرض معين حتى ان لم توجد بعض هذه الأعراض لدى المريض ، وهو الذى يميل بنا الى تصنيف الأشـياء المبعثرة وتنظيمها كأن الأشياء المبتورة أو الناقصة أو غير المنتظمة تخلق فينا توانرات نفسية لا تزول الا بادراكها كاملة . وهنا يبدو الشبه بين مبدأ الاغلاق ومبدأ استعادة التوازن .

ويلاحظ أننا فى حياتنا اليومية ندرك صيغا مركبة معقـدة ليست فى بساطة الصيغ التى استعرضناها . وهو ادراك تفرضه علينا طبيعـة المنبهات الخارجية وتركيب جهازنا العصبى . لذا فهو ادراك عـام مشترك بين الناس جميعا .



(شكل ٦)

تبين رسوم هذا الشكل تأثير التقارب والتشابه والاتصال ، فى (أ) نرى ازواجا من نقط متقاربة لا ازواجا من نقط متباعدة . فى (ب) يسهل علينـا رؤية اعمدة أو صفوف من عناصر متشابهة ويشق علينا رؤية اعمدة من عناصر مختلفة . فى (جـ) يشق علينا كثيرا أن نفصل عن الاتصال فى كل من الخطين المتعرج والزاوى بأن نرى رسما مكونا من عدة اجزاء من الخط الاول مؤتلفة مع أجزاء من الخط الثانى .

٣ ـ عمليـــة التـــأويل

ينظر الطفل الصغير الى جهاز الراديو أو الى كتاب أو دولاب فيرى أشياء مجسمة لكنه لا يدركها • وهو يسمعنا نتحدث لكنه لا يدرك مانقول فعليه أن يبدأ فى تعلم أسماء الأشياء وخواصها وفوائدها واستعمالاتها، عليه أن يتعلم معانى الألفاظ التى يسمعها ، ومعانى الكلمات التى يراها مكتوبة • عليه أن يتعرف أترابه وزوار المنزل وأقاربه ، عليه أن يتعلم أن الابتسامة علامة الرضا ، وأن العبوس علامة السخط • وهو ينفق وقتا طويلا فى ملاحظة الناس فى المواقف المختلفة ، وما يتضمنه هـــذا الســـلوك من دلالات ومعنى •• وهـــذا أساس ما يســـمى **بالادراك الاجتماعى** : ادراك العلامات التى تفصح عن مشاعر الغير أو عواطفهم ومقاصدهم عن طريق ملامح مختصرة cues

ولا شك أن بعض المعانى تكون فطرية غريزية عند الحيوانات الدنيا• فالطائر يستجيب بالغريزة ، أى دون تعلم سابق للمواد التى يبنى بها عشهكما لو كان يعرفها ، لكن الانسان عليه أن يتعلم الغالبية العظمى من هذه المعانى •

أما نحن الكبار فنؤول على الفور ما يبرز فى مجال ادراكنا من صيغ، ان كانت صيغا مألوفة لنا : فنحن نتطلع حوالينا ونؤول ما نـــراه • ونسمع الاصوات ونؤولهـــا ، وتمر أيدينا على الاشياء فنتعرفها • فان كانت الصيغ غريبة أو جديدة أو معقدة • عجزنا عن افراغ معنى عليها وتعرفها ، أو احتجنا الى شىء من الجهد والتحليل حتى يتضح لنـــا



(شكل ٧)

معناها • فطالب الطب المبتدىء حين ينظر فى المجهر الى شريحـــة غير مألوفة له ، يرى رقعة سوداء أو ملونة ، لكنه لا يعرف ما اذا كانت نسيجا مصابا بالسرطان أو باليرقان • كذلك الانسان البدائى حين يرى كتابا أو ساعة لأول مرة • بل كذلك حالنا حين نرى شيئا مبهما غامضا (أنظر شكل ٧) •لقد قال أحدهم انه رسم حشرة ، وقال آخـــر انه رسم شمعدان ، وقال ثالث انه صورة توأمين ملتصقين من الظهر ، وقال رابع انه انفجار قنبلة ذرية • فنحن حين نكون بصدد شيء مبهم غامض أو غريب مسرف فى الغرابة •• ينفسح أمامنا المجال لنؤوله تـــأويلات شتى •وهى تأويلات تتوقف على حالاتنا النفسية والمزاجية ، الدائمة والمؤقتة ، الشعورية واللاشعورية • فهذا الصوت الذى اسمعه من بعيد قد أحسبه صوت صديق ينادينى ، وقد يحسبه غيرى صوت طفل يصيح أو مؤذن ينادى للصلاة ، وقد يدركه آخر صوت سيارة مسرعة تتوقف عن السير • وهذه الاشارة المبهمة التى تصدر من رئيس لمرءوسه قد تؤول على أنها اشارة استخفاف أو ازدراء أو تحد أو عدوان • وقد أفاد علماء النفس من هذه الخاصة الادراكية فصاغوا على أساسها اختبارات تكشف عما لدى الفرد من ميول أو رغبات أو مخـــاوف أو توقعات شعورية ولا شعورية ، وأطلقوا عليها اسم « الاختبـــارات الاسقاطية » مما سنفصله عند دراسة موضوع الشخصية •

التنظيم يسبق التأويل عادة : مما سبق يتضـــح لنـــا أن التنظيم الحسى سابق على التأويل بل قد يكون مستقلا عنه ، والدليل الحاسم على ذلك ما يشاهد لـــدى الاشخاص الذين يولدون مكفوفى البصـــر ثم يستردونه بعد ذلك فى سن العشرين مثلا بعد عملية جراحية • أيرون الأشياء كما يراها المبصرون ؟ كلا انهم يرون فقط أشياء بارزة فى مجال ادراكهم ، ووحدات منفصلة بعضها عن بعض ، وعن الأرضيـــات التى تقوم وراءها ، لكنهم لا يتعرفونها ولا يعرفون معناها ، فان كان أحدهم يستطيع ، قبل العملية، أن يفرق بحاسة اللمس بين الكرة والمكعب، فانه يرى بعد العملية أنهما شيئان مختلفان لكنه لا يستطيع أن يتعرف كل واحد منهما على حدة الا بعد أن يتاح له أن يلمسهما بيديه ويراهمـــا بعينيه فى آن واحد • حتى أصدقاءه المقربين فهو لا يستطيع تعـــرفهم

بالبصر وحده الا بعد أن يستعين على ذلك بالبصر واللمس أو البصر والشم فى آن واحد . وبعبارة أخرى لابد أن يتعلم قبل أن يدرك .

أثر الخبرة والتعلم : نحن نؤول الحاضر فى ضوء الماضى وخبراتنا السابقة . فهذا الصوت الذى أسمعه من بعيد أدركه سيارة مقبلة أو مدبرة ، أو سيارة صديق لى ، أو سيارة تنتجها شركة معينة . وأنت لا ترى فى السماء ما يراه الفلكى ، ولا تدرك فى الساعة ما يدركه الساعاتى ولا تدرك تحت المجهر ما يدركه عالم الاحياء ، ولا تدرك فى اللحن الموسيقى ما يدركه الفنان .. وهذه التفاحة التى أمامك ، تراها ولا تلمسها ، كيف أدركت ملمسها الناعم وطعمها الحلو ورائحتها الزكية ؟ بل كيف حكمت أنها كريه الشكل مع أن صورتها التى تنطبع على شبكية العين صورة مستوية ؟ عرفت هذا كله من خبراتك السابقة بالتفاح وسلوكك نحوه . فالأشياء المألوفة لدينا ندركها من «ملامح مختصرة» Cues اذ تكفى لادراكها سمة واحدة بسيطة منها . وهذا ما يحدث فى عملية القراءة .

من أجل هذا يختلف الناس فى ادراكهم للشىء الواحد اختلافا كبيرا ، وذلك لما بينهم من فوارق فى السن والخبرة والذكاء والثقافة والمعتقدات ووجهات النظر (انظر البيئة السيكلوجية ص ٢٨) .

واليك تجربة تبين أثر الخبرة السابقة والتعلم فى الادراك : نسقط على ستار معتم عددا من الحروف المضيئة ، ونقدر الزمن اللازم لقراءتها . ثم نؤلف من هذه الحروف نفسها كلمات مألوفة أو بضع جمل مألوفة ونسقطها مضيئة على الستار ، فنرى أن الزمن اللازم لقراءتها أقصر بكثير منه فى الحالة الاولى . فزمن العرض الذى يكفى لقراءة ٦ حروف منفصلة يكفى لقراءة ١٠ حروف مجتمعة فى مقاطع ، ١٥ حرفا مجتمعة فى كلمات و ٣٠ حرفا مجتمعة فى جملة قصيرة . ذلك أننا لا نقرأ حرفا بحرف ، بل نتعرف مجموعة من الحروف تتميز بتفصيل خاص أو سمة خاصة تكون بمثابة ستار تسقط عليه الذاكرة بطريقة لا شعورية بعض ما تختزنه .

وها هى ذى تجربة أكثر غرابة : فقد صنعت نظارة خاصة بحيث تقلب المرئيات رأسا على عقب . وقد استخدمها شخص بصورة مستمرة ، فكان يرى الأشياء فى أول الأمر مقلوبة ، لكنه لم يلبث أن استقامت الاشياء واعتدلت فى ناظريه ، وذلك من أثر العادة والخبرة السابقة .

أثر الملابسات فى التأويل : مما يســـهم فى تأويل المدركات ما يحيط بالشيء المدرك من ملابسات وما يقوم بينه وبين غيره من علاقات • ذلك أن نفس الجزء يختلف معنـــاه باختلاف الكل الذى يحتويه • فنفس الكلمة يختلف معناها باختلاف الجملة التى تحويهـــا • من ذلك أن الكلمـــات الآتية : « قدر » ، « دفع » ، « ملك » لا يمكن أن تفهم دلالاتها الا فى السياق الذى توجد فيه •• والصرخة فى ملعب كرة غير الصرخة فى مستشفى ، ورسم الفم نفســـه قد يبدو جميلا فى صـــورة قبيحا فى صورة أخرى ، والحركة الصحيحة فى السباحة قد تكون نفسها معيبة فى الرقص ، وقطع الشطرنج لا تعنى فى ذاتها شيئا بل يتحدد معنى كل قطعة بعلاقاتها بالقطع الأخرى • ولو أنك قابلت فى الطريق رجلا يصفع قفاه مرات متتالية لحسبته مجنونا ، ولكنك لو عرفت أنه يحاول طرد حشرة تلح عليه ، أى لو عرفت الملابسات التى تحيـــط بسلوكه هذا ، لبدا لك سلوكه معقولا •• فالتأويل يتوقف على الموقف الكلى الذى يوجد فيه الشيء لأن الجزء لا يمكن فهمه الا فى صلته بالكل الذى يضمه ويشتمل عليه •

الخلاصـــــة :

مما تقدم نرى أن الادراك ليس عملية بسيطة بل عملية معقدة ، اذ تتدخل الذاكرة والمخيلة وادراك العلاقات فى تأويل ما ندرك •

ومنه يتضح أيضا أن الادراك ليس عملية سلبية تتلخص فى مجرد استقبال انطباعات حسية • فكما أن وظيفة أعضاء الهضم لا تقتصر على مجرد استقبال الطعام بل تؤثر فيه وتمثله وتحيله أنسجة حية ، كذلك العقل يضـــيف ويحذف وينظم ويؤول ما يتأثر به من انطباعات حســـية •

فاذا كنا من دون الاحساس لا ندرك شيئا فنحن بالاحساس وحده لا ندرك شيئا • وهذا يعنى أن نشاط الحواس ليس كل شيء فى عملية الادراك •

وسنرى بعد قليل أن **الادراك** كالانتباه عملية انتقائية •

٤ ـ الادراك يسير من المجمل الى المفصل

لو ألقى الانســـان بنظره على شـــخص أو على صـــورة أو منظر طبيعى ، لكان أول ما يراه من الشخص شكله العام ، ومن الصـــورة أو المنظر انطباعا عاما مجملا . فلو أطال النظر والتأمل أخذت تفاصيل الشخص أو المنظر تثب الى عينيه واحدة بعد أخرى . كذلك الحال حين يستمع الى لحن موسيقى أو حين يذوق شيئا مرا . ولو أنك دلفت الى مكان به جمع من الناس لاستطعت أن تشعر من فورك ان كانوا يُرحبون بمقدمك أو لا يرحبون دون أن ترى أية علامة خاصة على فرد معين منهم . بل يســـتطيع بعض الرعـــاة أن يحســـوا بنقص غنمة فى القطيع دون أن يعدوه . فالنظرة الاجمالية العامة ، والادراك الاجمالى العام ســـابق على التحليل وتعرف الأجزاء : هذا هو السير الطبيعى لعملية الادراك ــ من المجمل الى المفصل ، ولا يبدو هذا غريبا لأن التحليل والتفصـــيل يقتضى بذل الجهد ، والانســـان يميل بطبعه الى القصد فى الجهد .

ويبدو الادراك الاجمالى على نحو يبهـــر ويروع عند الحيوان . فالعنكبوت يعرف الذبابة ويهجم عليها ان رآها تضطرب فى نسيجه . أما ان قدمناها له على طرف عصا ، لم يهتم بها ولم يهاجمها حتى ان كان جائعا . فان ألححنا عليه هرب وولى الأدبار . ذلك أن الذبابة فى النسيج غير الذبابة على العصا . انها تؤلف مع النسيج وحدة وكلا . فان انفصلت عن هذه الوحدة لم يعد الحيوان يدركها فى ذاتها ، لم يعد لها معنى بذاتها . ولقد لاحظ أحد الباحثين أن طائرا عاد الى عشه فلم يجـــد فرخه فيه ، بل ألفاه بعيدا عنه ، فسارع اليه ، ولكنه أخذ يحطم رأســـه ثم شرع يأكله . ذلك أن الفرخ يكون موضـــع الرعاية والعناية ما دام فى العش ، فان انفصل عن العش أصبح فريســـة . فالجزء ــ وهو الفرخ ــ لا معنى له الا فى الكل الذى يحتويه ، فان انفصل عنه اكتسب معنى آخر .

كذلك الطفل لا يحلل وليست به حاجة الى التحليل . وقد أفـــاد رجال التعليم من هذه الظاهرة فى عرض الدروس وفى عمل الأفـــلام التعليمية وتدريس المواد فتبدأ الدروس أو الأفلام بفكرة عامة مجملة لما يراد عرضه . ومن هذه الفكرة تنفرد الأجزاء والتفاصيل تدريجيا .

كما أفادوا منها فى تعليم القراءة بالطريقة الكلية — وهى طريقة لها مزاياها وعيوبها — وتتلخص فى تعريف الطفل بالجملة أو الكلمة قبل تعليمه الحروف منفصلة •

وقد أجريت تجارب عدة دلت على أن الادراك عند الانسان — خاصة الادراك البصرى — يكون فى مبدئه اجماليا كليا • فالطالب الكبير ، فى عملية القراءة لا يقرأ حرفا بحرف أى لا تنتقل عيناه من حرف الى حرف بل تنتقلان فى قفزات تعقب كل قفزة وقفة ، ويتم الادراك أثناء الوقفات ، اذ يتعرف القارىء مجموعات معينة من الحروف يشغله ادراكها الاجمالى عن ادراك تفاصيلها • ولهذا السبب نفسه لا يدرك الانسان أحيانا الخطأ أو الحذف أو التغيير فى الكلمات المقروءة خاصه ان كانت مألوفة لديه • وهذا ما يحدث فى تصحيح مسودات المطابع ، أو حين نرى كلمة (قسنطيطة) فنقرؤها (قسطنطينية) •

٥ — الفروق الفردية فى الادراك

سبق أن ميزنا بين البيئة الواقعية (المحيط) والبيئة السيكولوجية (المجال) ، فالأولى هى البيئة كما هى عليه فى الواقع ، والثانية هى البيئة كما تبدو للفرد ، كما يدركها ويشعر بها ، كما ذكرنا أن الانسان لا يستجيب للبيئة كما هى عليه فى الواقع بل كما يدركها أى حسب ما يفرغه عليهـا من معنى وقيمة وأهميـة ، فنحـن لا نهـرب من نمر فى قفص كما نهرب من نمر فر من حديقة الحيوان ، والطفل الذى عضه كلب قد يرى الكلاب جميعها خطـرة فيتجنبهـا • لذا قد تكون البيئة الواقعية واحدة بالنسبة لعدد من الأفراد ، لكنها تكون بيئـات سيكولوجية مختلفة جد الاختلاف بالنسـبة لكل فرد منهم ، وذلك لاختلافهم فى السن والخبرة والميـول • فالبيت الواحـد ليس بيئـة سيكولوجية واحدة لجميع من به اخوة واخوات ، كذلك الحال فى طلاب الفصل الواحد أو المرضى فى مستشفى واحد •

ونريد الآن أن نذكر بشىء من التفصيل العوامل التى تفـارق بين الناس فى ادراكهم فتجعلهـم يختلفون فى ادراكهم منظـرا واحـدا أو سماعهم لحنا موسيقيا واحدا ، أو تجعل أحدهم يرى فى هذا الرجل الذى يسير فى الطريق رجلا عجوزا متهالكا ، فى حين يرى فيه آخـر

رجلا له ملامح يهودية . ويرى آخرون أن له وجه شرير .. وقد شرحنا منذ قليل أثر الخبرة السابقة في تحديد معنى ما ندركه . فالفلكي يرى في السماء غير ما تراه أنت ، والفنان يدرك في اللحن مثلا يدركه غير الفنان .. ونضيف الآن أن ادراكنا يتأثر الى حد كبير بتوقعاتنا ودوافعنا بالمعنى الواسع لاصطلاح الدافع الذى يشمل الحاجات الفسيولوجية والميول والعواطف والانحيازات والانفعالات والقيم والمعتقدات ... حتى لنستطيع أن نقول ان ما ندركه يتوقف الى حد كبير على شخصياتنا . واليك البيان :

التوقع : نحن نرى أو نسمع ما نتوقع أن نراه أو نسمعه . من ذلك اننا نقرأ الكلمة الخطأ صوابا ، ولو كنت تنتظر صديقا في مفترق الطريق رأيته في مئات القادمين من المارة ، ولو عزمت على الاستيقاظ في ساعة معينة سهل عليك سماع الساعة الرنانة ، والأم المنشغلة عن طفلها في حجرة أخرى تحسبه يصيح كلما سمعت صوتا من الخارج . ومن يخاف العفاريت فانه يراها ، ويرى بعض الفلكيين قنوات في المريخ لا يراها آخرون .. كل يدرك ما يتوقعه .

الحاجات الفسيولوجية : عرض أحد الباحثين عددا من الرسوم **الملونة الغامضة** وراء حاجز من الزجاج المصنفر غير الشفاف على **فريقين من الأفراد** أحدهما في حالة جوع والثانى في حالة شبع فرأى **الفريق الأول** في هذه الرسوم شطائر وفواكه وأطعمة مختلفة ، وذلك **على خلاف الفريق** الثانى . وقديما قال أبو الطيب بما يشير الى أثر الحالة الجسمية في افساد المدركات :

من يك ذا فم مر مريض — يجد مرا به الماء الزلالا

ومن ذلك أيضا أن يرى الظمآن بحيرة من الماء العذب وهو يجوب الصحراء .

الميول والعواطف والانحيازات : لا يخفى ما لميولنا من أثر في توجيه ادراكنا . فقد يمضى العامل يوما كاملا مع زميلة له في المتجر فلا يعرف على التحديد ماذا كانت ترتديه . لكن أغلب النساء يستطعن بعد مقابلة امرأة لبضع دقائق فقط وصف كل قطعة من الملابس كانت ترتديها .

ولعواطفنا أثر كبير فى تشويه ما ندركه حتى قيل « حبك الشىء يعمى ويصم » وقديما قال الشاعر :

وعين الرضا عن كل عيب كليلة • • • ولكن عين السخط تبدى المساويا

وقد أشرنا من قبل الى أن الانحياز من أهم العوامل التى تفسد الملاحظة العلمية ، لذا كان «دارون» يسجل على الفور جميع الملاحظات والوقائع المضادة لرأيه ، فقد علمته خبرته أن أمثال هذه الملاحظات أسرع الى النسيان من تلك التى تؤيد صدق فروضه ••

الانفعال والحالة المزاجية : ذكرنا من قبل أن الادراك يشوه وتزداد ميوعته فى حالة الانفعال ، فالغضبان يرى من عيوب خصمه ما لايراه فى حالة هدوئه ، والزوج الغيران يؤول كل حدث برىء تأويلا فاسدا • ولقد كلف أحد الباحثين بضعة أشخاص وصف صورة معينة وهم فى حالات مزاجية مختلفة من الرضا والتزمت والقلق • أما الصورة فتمثل أربعة من التلاميذ يجلسون فى الشمس ، يكتبون ويستمعون الى الراديو • فجاءت الأوصاف مختلفة اختلاف الحالات المزاجية لأصحابها • قال أحدهم وكان فى حالة الرضا : ان التلاميذ فى حالة استجمام تام ، يستمعون الى الموسيقى ، ولا يفكرون فى شىء على الاطلاق • وقال آخر وهو فى حالة التزمت : انهم يحاولون المذاكرة عبثا ، وها هو أحدهم قد أتلف بنطلونه المكوى بجلسته المهملة • ثم قال ثالث وهو فى حالة القلق : انهم يستمعون الى مباراة فى كرة القدم، ويبدو أنها مباراة حامية ، ويظهر على أحدهم أن فريقه خسر المباراة•

أثـر المعتقـدات : عثر الأنثروبولوجى الشهير « ملينوفسكى » Malinowski على جزيرة يقطنها شعب بدائى يعتقد أفراده أن الانسان يرث صفاته كلها من أمه ولا يرث شيئا من أبيه • فلما لفت نظرهم الى التشابه الصارخ بين أحد الأبناء وأبيه دهشوا لذلك أشد الدهش ، وبدت لهم هذه الملاحظة سخيفة •• لقد عجزوا عن ادراك هذا التشابه لأن معتقداتهم تنكره ولا تعترف به •فكأنهم يرونون بأعين الناس لا بأعينهم •

أثر القيـم : Values القيم معايير اجتماعية ذات صبغة وجدانية قوية يمتصها الفرد ويجعل منها موازين يزن بها أفعاله كما يتخذها

هاديا ومرشدا فى سلوكه • وهى اتجاهات نفسية مكتسبة تؤلف جانبا هاما من شخصية الفرد وتؤثر فى سلوكه وشعوره وادراكه •• وهناك القيم الدينية والاقتصادية والجمالية وغيرها •

وثمة تجربة مأثورة قام بها « برونر » Bruner و « جودمان » Goodman تبين كيف يتأثر الادراك بالقيم الاقتصادية التى يؤمن بها الناس • فقد طلب هذان الباحثان الى مجموعة من الأطفال أن يقدروا مساحات قطع مختلفة من النقود : مليم ، قروش ، نصف ريال ، ريال مثلا وذلك بواسطة جهاز خاص يسقط ضوءا مستديرا يمكن زيادة مساحته وانقاصها، ثم جاء بمجموعة أخرى من الأطفال وطلب اليهم — عن طريق الجهاز نفسه — تقدير مساحات دوائر من الورق المقوى مساحتها كمساحات النقود فى التجربة الأولى • فظهر أن أطفال المجموعة الأولى يميلون الى المبالغة فى تقدير مساحات النقود ، على حين أن أطفال المجموعة الثانية لم يختلف تقديرهم لمساحات الدوائر عن الواقع الا اختلافا يسيرا • فكان فى هذه التجربة اشارة الى أثر القيم الاقتصادية فى الادراك • بعد ذلك أجرى الباحثان تجربة تقدير مساحات النقود وحدها على مجموعتين من أطفال فقراء وأطفال أغنياء، فجاءت النتيجة تعزز نتيجة التجربة الأولى ، اذ كان الفقراء يبالغون فى تقدير مساحات النقود بدرجة أكبر بكثير من مبالغة الأغنياء فى تقديرها •

مما تقدم يتضح لنا أننا لا ندرك العالم الخارجى بحواسنا فقط ، بل وبعقولنا وشخصياتنا أيضا •

أثر الكبت : الكبت يفسد ادراكنا للواقع ولأنفسنا • فهو يجعلنا ننكر ونعمى عن عيوبنا ونقائصنا كما ننكر ونعمى عن دوافعنا ومقاصدنا السيئة ، وهو يجعلنا نرفض مواجهة كثير من مشاكلنا أو مناقشة الموضوعات التى تؤذى أنفسنا ، كما يجعلنا نتجاهل أو ننكر ما يوجه الينا من نقد ، وهو الذى يجعل الآباء يعمون عن رؤية ما بأطفالهم من عيوب ، ويجعل العصابى يرى الخطر ماثلا أمامه فى كثير من مواقف الحياة التى يراها الأسوياء غفلا من أى خطر •• ولا غرو فالكبت كما قدمنا خداع للنفس يجعلنا نغفل أو ننكر ادراك كثير مما يلزمنا للتكيف السليم •

بل انه يجعلنا نسقط عيوبنا ومقاصدنا السيئة على غيرنا من الناس فنسىء تأويل سلوكهم • فالمرتاب فى نفسه الذى لا يعترف لنفسه بذلك يــرى الريبة فى غيره . والذى يكبت العداوة للغير يرى العداوة فى سلوكهم . والزوج الذى تنطوى نفســـه على رغبة مكبوتة فى خيـــانة زوجته يميل الى اتهامها بالخيانة . والأنانى أو البخيل أو المغرور الذى ينكر هذه الخصـــلة لديه . ينســــبها الى الناس ويغالى فى تقديرهـــا لديهـــم •

٦ ــ الادراك والســـلوك

اذا كنت عطشانا وظننت أن بهذه الكأس زيت خروع تركتها ، أو ماء شربته . وان كنت فى السوق ورأيت تفاحا أخضر فجا أعرضت عنه ، فان كان أحمر ناضجا اشتريته ، والطفل « الشقى » ان رأى أن شقاوته فى المدرسة تجلب له الألم والعقاب لزم السكينة والهدوء حتى يذهب الى البيت •• من هذا يتضح أن الادراك يوجه السلوك • أنظر الى سلوك القط وهو يطارد الفأر تر أن حركات القط واتجاهاتها يحددها ادراكه لحركات الفأر واتجاهاتهـــا • كذلك حــــال الفأر • وقد يكون ادراكنا خاطئا ، لكن سلوكنا يتوقف دائما على كيفية ادراكنا ، صوابا كان أو خطئا • فقد أستجيب لابتسامة شخص بالغضب ان ظننت أنها ابتسامة سخرية ، وقد لا تكون فى الواقع ابتســـامة ســـخرية • وقد يسكت المرءوس على اهانة وجهت اليه من رئيسه ان كان يعتقد أنه مجنون ، فان كان يحسبه متعاليا أو مزدريا اختلف سلوكه نحوه فى هذه الأحوال • وقد يكون الأب مجرما يراه المجتمع شريرا ، لكن أولاده ان رأوا أنه يحبهم ويحميهم قاوموا كل هجوم عليه أو تعــريض به •• فليس المهم هو الظروف التى تحيط بالفـــرد ، بل كيفية ادراكه هذه الظروف • هذا مبدأ من أهم المبادىء التى يجب أن تراعى فى تفسير الســـلوك •

من أجل هذا يختلف سلوك جماعة من الناس حيال شـــخص واحد أو نظام واحد لاختلاف ادراكهم له بل يختلف سلوك الفرد الواحد من موقف الى آخر ، كالرئيس الذى يكون مستبدا فى عمله ، مستكينا فى بيته ، والبائع الذى يبدو ظريفا مع عملائه ، خشنا مع أصحابه ••

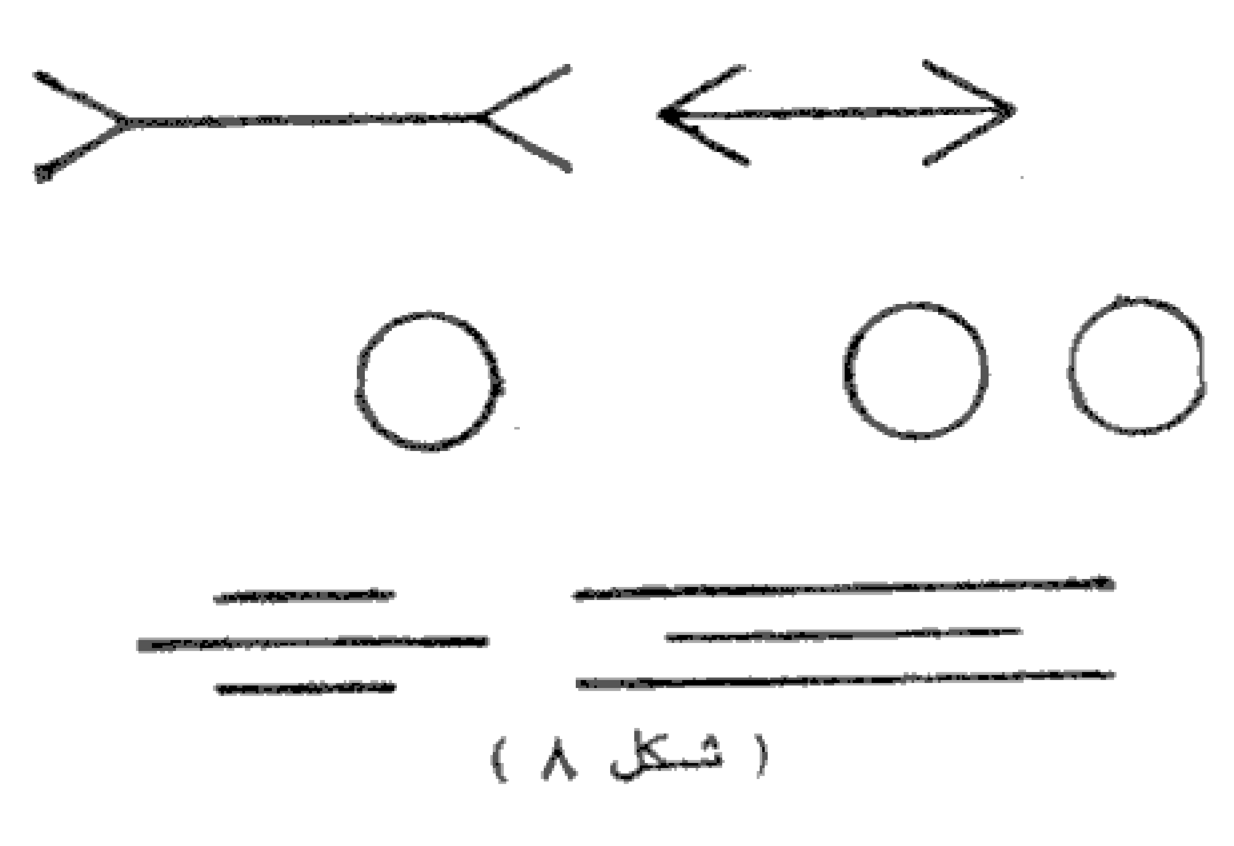
٧ ــ الخداعات والهلاوس

الخداع Illusion سوء تأويل للواقع ، هو ادراك حسى خاطىء ، كأن تسمع صرير الباب فتظنه صديقا يناديك ، أو صرخة ألم ، أو شخصا يسب آخر ، واذا كنت تعتقد أن أشخاصا بالغرفة المجاورة لك ، فالأصوات التى تصل اليك منها أصوات كلام أو وقع أقدام ، والذرة الصغيرة ان دخلت العين حسبتها فى حجم الحمصة ، وجميع المؤثرات الصوتية التى تستخدم فى الاذاعة والسينما ما هى الا خداعات مسروضة عرضا بارعا ، والحواة مهرة فى التضليل بالخداعات .

وترجع الخداعات اما الى عوامل خارجية فيزيقية ، أو الى عوامل ذاتية نفسية .

فمن الخداعات الفيزيقية رؤية القلم منكسرا فى الماء ، ومن الخداعات السيكولوجية ما يرجع الى العادة والألفة ، كالخداع الذى يعرف بخداع أرسطو : فاذا وضعت قلما بين السبابة والوسطى وقد تراكب أحدهما فوق الآخر ، أدركت أنك تمس قلمين اثنين لا قلما واحدا . ومنها أيضا ما يسمى خداع « مسودات المطابع » فمن النادر جدا ألا يخطىء المصحح فى تصحيحه حتى ان كان محترفا . ذلك لأنه كما قدمنا لا يقرأ حرفا بحرف ، بل قراءة اجمالية وعن طريق ملامح مختصرة Cues .

ومن الخداعات السيكولوجية ما يرجع الى التوقع والتهيؤ الذهنى ، فلو انسربت منك قطعة من النقود وأخذت تبحث عنها ، رأيتها فى كل شىء مستدير يلمحه بصرك ملقى على الأرض .



(شكل ٨)

ومن هذه الخداعات أيضا ما يرجع الى « الانطباعات الاجمالية » • ويدخل فى نطاقها ما يسمى بالخداعات البصرية الهندسية ، مثل خداع « مولر لاير » Muller-Lyer. • أنظر شكل ٨ وقارن بين طولى الخطين الأفقين فى الرسم العلوى ، وكذلك بين طولى الخطين الأوسطين فى الرسم السفلى ، ثم قارن بين طول الخط الخارجى الذى يفصل الدائرتين اليسرى والوسطى وبين الخط الداخلى الذى يجمع الدائرتين الوسطى واليمنى • هذه الأبعاد الستة متساوية فهل بدت لك كذلك ؟ أكبر الظن أن تكون الاجابة بالنفى • بل انه خداع يقع فيه الناس جميعا • وهو يرجع الى أن الانسان لا يميل بطبعه الى التحليل بل الى ادراك الأشياء ادراكا اجماليا ، قصدا فى الجهد • وهو كما قدمنا ادراك تختفى فيه التفاصيل • والدليل على أن الخداع هنا وليد الانطباع الاجمالى أنك لو بدأت تحلل هذه الأشكال وتدقق فى الانتباه الى التفاصيل زال الخداع •

الهلاوس Hallucinations

أما الهلاوس فمدركات حسية خاطئة لا تنشأ عن موضوعات واقعية فى العالم الخارجى كما هى الحال فى الخداعات بل عن نصوع الأخيلة والصور الذهنية وسيطرتها على الفرد • انها أخيلة يحسبها الانسان وقائع ويستجيب لها كما لو كانت وقائع بالفعل • وبعبارة أخرى فهى اختلاقات ذهنية •

والهلاوس اما بصرية كأن يرى الشخص أشباحا تهدده ، أو سمعية كأن يسمع أصواتا وهواتف تهيب به ، أو لمسية كأن يعتقد أن أشخاصا تلمسه أو حشرات تلسعه ، أو شمية كأن يشم روائح تثير الارتياب فى نفسه •

والهلاوس شائعة فى حالات التسمم بالمخدرات ، وأثناء النوم المغناطيسى ، وقبيل النوم وفى حالات النعاس واحلام النوم • كما أنها تعرض للناس جميعا بصورة عابرة طارئة • غير أنها ان كانت معاودة قسرية ، وتحدث فى غيبة الظروف التى تدعو الى اللبس بين الخيال والواقع ، كانت فى أكبر الظن أعراضا لأمراض عقلية ، أى لجنون • وقد تدفع بالمريض الى الاعتداء على الغير أو الى الانتحار تنفيذا لما توحى به الهلاوس •

وتختلف الهلاوس عن « الواقع » فى ان الشىء الواقعى يمكن ادراكه بعدة حواس : فالشجرة نراها ويمكن أن نلمسها وأن نضغطعليها ، وأن نشم رائحتها وأن نذوقها وأن نحس بحرارتها .. هذا الى أن الناس لا يختلفون اختلافا جوهريا فى ادراك الواقع .

أسئلة وتمارين

١ – تصفح جريدة أو مجلة واذكر العوامل التى تجذب انتباهك بوجه خاص الى ما بها من اعلانات .

٢ – أذكر بعض عادات عدم الانتباه التى تؤدى الى تكدير الصلة بين الصديق وصديقه ، وبين الزوج وزوجته .

٣ – أذكر بعض الطرق التى تستطيع بها حصر انتباهك فى عمل من المحتمل أن يشرد ذهنك وأنت تؤديه .

٤ – اشرح العبارة التى تقول : نحن من دون الاحساس لا ندرك شيئا ، وبالاحساس وحده لا ندرك شيئا .

٥ – من الخطأ أن نقول أننا نرى بأعيننا فقط وأننا نسمع بآذاننا فقط – ناقش هذه العبارة .

٦ – كثيرا ما نرى بأعين الناس لا بأعيننا – ما المقصود بهذه العبارة ؟

٧ – الى أى حد يشوه الكبت ادراكنا للعالم الخارجى ؟

٨ – يتوقف سلوك الفرد فى موقف معين على كيفية ادراكه لهذا الموقف – اضرب أمثلة لذلك .

٩ – بين بالمثال أننا لا ندرك الا ما نريد ادراكه .

١٠ – ما الصلة بين الادراك والشخصية ؟

١١ – اضرب مثلا من الحياة اليومية لخداع حسى يرجع الى أسباب موضوعية خارجة عن الفرد ، ومثلا آخر يرجع الى عوامل شخصية .

١٢ – يمكن اتخاذ الادراك كوسيلة ذات قيمة لدراسة حاجات الفرد وميوله وما لديه من قيم ؟ – اشرح مع التمثيل .

١٣ – نحن نشكو من أن الناس لا يعرفوننا جيدا ، والواقع أنهم يعرفوننا أكثر مما نظن ، ولكن بما لا نحب – اشرح

الفصل الثانى

التعلم .. نظرياته

١ ـ صور التعلم وأهميته

يستخدم اصطلاح التعلم فى علم النفس بمعنى أوسع بكثير من معناه فى اللغة الدارجة • فهو لا يقتصر على التعلم المدرسى المقصود أو التعلم الذى يحتاج الى دراسة ومجهود وتدريب متصل أو على تحصيل المعلومات وحدها دون غيرها من ضروب المكتسبات ، بل يتضمن التعلم كل مايكتسبه الفرد من معارف ومعان وأفكار واتجاهات وعواطف وميول وقدرات وعادات ومهارات حركية وغير حركية ، سواء تم هذا الاكتساب بطريقة متعمدة مقصودة أو بطريقة عارضة غير مقصودة • فاللحن الموسيقى الذى أسمعه عدة مرات دون أن أقصد الى حفظه ثم أجد نفسى أتغنى به .. لحن تعلمته • •والنفور من طعام معين لأنه ارتبط بظروف منفرة، نفور مكتسب تم عن طريق التعلم • والخوف من الظلام أو من الكلاب نتيجة حادثة عارضة خوف مكتسب متعلم .. بهذا المعنى يكون التعلم مرادفا للاكتساب **والتعود** بأوسع مفهوم لهما •

أما العادة فهى استعداد مكتسب دائم لاداء عمل من الأعمال ــ حركيا كان أم ذهنيا ــ بطريقة آلية سريعة دقيقة لا تتطلب بذل جهد كبير أو تركيز الشعور • والعادات أنواع فمنها العادات الحركية أى التى يغلب فيها النشاط الحركى كعادة السباحة أو الكتابة على الآلة الكاتبة أو سوق سيارة أو العزف على آلة موسيقية أو تعلم حيوان جائع الخروج من صندوق مقفل • وهناك العادات اللفظية وهى العادات التى يغلب فيها النشاط اللفظى كعادة النطق الصحيح أثناء القراءة ، أو استظهار قصيدة من الشعر • هذا فضلا عن العادات العقلية كعادة استخدام الاسلوب العلمى فى التفكير أو عادة الحكم الموضوعى على الاشياء • وهناك العادات الاجتماعية والخلقية كالأمانة والتسامح والتعاون واحترام

القانون أو المحافظه على المواعيد.وهناك أيضا العادات الوجدانية كالعواطف والاتجاهات والمخاوف الشاذة أو عادة ضبط النفس . هذا كله بالاضافة الى التعلم المعرفي الذى يرمى الى اكتساب المعانى والمعلومات ..

ولقد أشرنا من قبل فى أكثر من موضع الى أثر التعلم فى الحياة النفسية والسلوك ، فرأينا دوره فى تحوير الدوافع الفطرية واكتساب الدوافع الاجتماعية وطبع التعبيرات الانفعالية بطابع اجتماعى ، وفى تعلم الانسان معانى الاشياء فى عملية الادراك الحسى . وسنرى فيما بعد أثره فى اكتساب المعانى والأفكار العامة ، واكتساب القدرة على التفكير السليم والقدرة على التذكر ، وكذلك فى تكوين الشخصية والخلق والضمير ، وخطره فى توجيه الصحة النفسية للفرد الى السواء أو الاعتلال .. هذا الى ارتباط التعلم بالذكاء ارتباطا وثيقا ، فمن التعاريف الشائعة للذكاء أنه القدرة على التعلم .

وتبدو أهمية التعلم وخطره فى حياة الانسان لو تصورنا شخصا كبيرا فقد كل ما تعلمه وما أكتسبه طول حياته . ترى ماذا تكون حاله ؟ لاشك أنه لن يستطيع ارضاء دوافعه حتى حاجاته الفسيولوجية بصورة انسانية ، ولن يستطيع أن يلبس ملابسه أو يعرف معناها ، ولن يقدر على النطق الا ببضعة أصوات أو مقاطع غريبة ، أما الآداب الاجتماعية وعادات النظافة ، والتمييز بين الصواب والخطأ أو بين الحق والباطل ... فمن الطبيعى الا يكون لها أثر عنده البتة ، بل تصبح البيئة المحيطة به لامعنى لها فى نظره ، فوالداه واخوته وأصدقاؤه تكون مخلوقات غريبة لا يعرفها ولا يتعرفها .. هذا الى أنه سيكون محروما من جميع مظاهر التراث العلمى والاجتماعى التى تناقلتها أجيال الانسان عن طريق اللغة والحضارة .

وتبدأ عملية التعلم منذ مرحلة الرضاعة . فنحن نتعلم أن نصيح كي يحملنا أحد ، وأن نبتعد عن بعض المنبهات المؤلمة قبل أن تصيبنا. وفى الطفولة المبكرة نتعلم عادات حركية كثيرة كالقبض على الاشياء ، والوقوف دون مساعدة الأم ، وأن نلبس ثيابنا بأنفسنا . كذلك نبدأ فى كسب بعض المهارات اللفظية كنطق الالفاظ وجمعها فى جمل ثم قراءتها وكتابتها . وفى هذه المرحلة أيضا نتعلم حل بعض المشكلات البسيطة

كالاختفاء من شخص يعاكسنا ، أو الصعود على كرسى لأخذ شىء نريده من الرف ، أو حمل غيرنا من الاطفال والكبار على مساعدتنا ، أو التخلص من بعض المواقف التى تسبب لنا الضيق •• وكلما مرت الايام تعلمنا حل مشكلات أصعب كاصلاح لعبة عطبت •• وان ما نكتسبه من معلومات وأفكار عن أنفسنا وعن العالم الذى يحيط بنا يسهل علينا كسب عادات وحل مشكلات أخرى •• على هذا النحو ننتقل تدريجا من ضروب التعلم البسيطة الى مستوى حل المشكلات التى تتطلب استخدام التفكير •

ونشير أخيرا الى أن الانسان أكثر الحيوانات حاجة الى التعلم ، كما أنه أقدرها على التعلم • فالحيوانات تولد مزودة بالفطرة بأنماط سلوكية تكفى لاشباع حاجاتها وتمكنها من التكيف لبيئاتها المحدودة الضيقة الثابتة نسبيا ، أما الانسان فلا يوجد لديه عند ولادته الا النزر اليسير من هذه الانماط الموروثة (ص ٨٨) . اذا كان عجزه عند الميلاد عن مواجهة مطالب الحياة المادية والاجتماعية أكبر من أى حيوان آخر ، ومن ثم كان لزاما أن تطول مدة حضانته ورعايته حتى يتعلم ضروبا من السلوك تمكنه من ارضاء دوافعه التى لا حصر لها ، وتعينه على العيش فى بيئته الانسانية المعقدة المتغيرة التى تتطلب مرونة بالغة فى التكيف لأن ما يصلح للفرد فيها قد لا يصلح لأولاده •

وسندرس فى هذا الفصل ثلاثة موضوعات هى :

١ ــ ماذا يتعلمه الفرد •

٢ ــ كيف يتعلمه •

٣ ــ لماذا يتعلمه •

أما الفصل التالى فسنعرض فيه لأهم مبادىء التعلم التطبيقية •

تعريف التعلم وشروطه :

من التعاريف الشائعة للتعلم أنه تغير ثابت نسبيا فى السلوك ينشأ عن نشاط يقوم به الفرد أو عن التدريب أو الملاحظة ، ولا يكون نتيجة لعملية النضج الطبيعى أو لظروف عارضة كالتعب أو المرض أو التخدير أو الاصابة الجسمية أو الجراحة •

ويقصد بالسلوك هنا السلوك بمعناه الواسع الذى اخترناه فى هذا الكتاب والذى لا يقتصر على الاستجابات الحركية الظاهرة بل يشمل أيضا الاستجابات الداخلية الباطنة كالعمليات العقلية والحالات الشعورية • والتعلم تغير ثابت أى يبدو أثره فى نشاطات الفرد التالية بحيث يجعله يميل الى أن يعمل أو يفكر أو يشعر كما عمل أو فكر أو شعر من قبل• غير أن هذا الثبات نسبيغير مطلق ، اذ قد ينسى الفرد بعض ما تعلمه أو أن يتحور ما تعلمه فى ضوء خبراته التالية • ثم انه تغير ينجم عن طريق الممارسة أ والتدريب أو الملاحظة والمحاكاة • ويشترط ألا يكون نتيجة للنضج الطبيعى الذى تحدده الوراثة أو نتيجة لظروف عارضة كالتى ذكرنا • فالاضطراب فى افراز الغدة الدرقية قد يجعل الفرد فاتر الهمة بليدا أو ثائرا مهتاجا ، وهذا التغير يخرج من دائرة التعلم ، كذلك الحوادث والعمليات الجراحية قد تؤدى الى تغيرات ملحوظة فى السلوك ، لكنها سواء كانت عابرة أو دائمة ، لا ترجع الى التعلم •

وللتعلم الارادى المقصود ، حركيا كان أم ذهنيا أم اجتماعيا ، شروط ثلاثة لا يتم بدونها :

١ — وجود الفرد أمام **مشكلة** يتعين عليه حلها • والمشكلة هى كل موقف جديد غير معهود للفرد يكون بمثابة عقبة تعترض ارضاء حاجاته ورغباته ، ولا يكفى لحله السلوك التعودى أو الخبرة السابقة ، كقصيدة يريد حفظها ، أو لعبة يريد اتقانها ، أو اجراء عمليتى الجمع والطرح بطريقة مختصرة ، ومن المشكلات الاجتماعية كسب الرزق ، ومجاراة الناس ، واستغلال أوقات الفراغ •• فان كان الموقف مألوفا استعان الفرد بالذاكرة أو بسلوك تعودى ولم يكن هناك مجال للتعلم •

٢ — على هذا يتضمن التعلم وجود دافع يحمل الفرد على التعلم •

٣ — وبلوغ الفرد مستوى من النضج الطبيعى يتيح له أن يتعلم •

٢ — التعلم والنضج الطبيعى

النضج الطبيعى maturation هو النمو الذى يتوقف على التكوين الوراثى للفرد فى ظروف البيئة العادية المناسبة دون حاجة الى تمرين أو تدريب أو ملاحظة خاصة • أما التعلم فهو يتطلب ممارسة وتدريبا أو ملاحظة خاصة ، لكنه يتوقف الى حد ما على مستوى النضج الذى بلغه الفرد • فالطائر الصغير يستطيع الطيران حتى لو قيدنا حركات جناحيه فترة من الزمن مما يدل على أن الطيران لا ينتج عن تمرين جناحيه . وغريزة اصطياد الفأر لا تظهر لدى القطيطة الا بعد شهرين من ولادتها ، أما قبل هذا التاريخ فتستطيع القطيطة التى تنشأ بمعزل عن أمها أن تعايش الفأر فى أمن وسلام ، حتى اذا ما استوت المقومات العصبية والعضلية للغريزة بدت على حين فجأة وبجميع مظاهرها : مطاردة الفأر والقبض عليه ومداعبته ثم قتله وهى تزمجر ثم نهشه • والمشى عند الاطفال يتوقف على النضج الى حد كبير لأن الطفل يستطيع المشىء دون تدريب متى بلغ جهازه العضلى وجهازه العصبى درجة من النضج تسمح له بهذا النشاط • الواقع اننا لا نعلمه المشى بل نساعده عليه ونشجعه على الاستمرار فيه ونحول دونه أن يؤذى نفسه • وقل مثل ذلك فى قدرة الطفل على النطق ببعض الأصوات • أما قدرته على احتجاز بوله فقد تنشأ عن النضج أو عن التعلم الذاتى أو عنهما معا • ويقصد بالتعلم الذاتى أن الطفل يتعلم من تلقاء نفسه احتجاز بوله لتجنب الضيق الذى يشعر به من بلل نفسه • ومهما يكن من أمر فقد لوحظ أن تدريب الطفل على احتجاز بوله لا يثمر الا متى بلغ درجة معينة من النضج العضلى والعصبى •

وكما تبدو آثار النضج الطبيعى فى مجال النمو الجسمى والحركى كذلك تبدو فى مجال النمو العقلى • فالقدرة على الحفظ والتذكر بوجه عام والقدرة على التخيل أو التفكير أو التعلم تربو وتنمو بتقدم الطفل فى العمر دون أن يتدرب عليها تدريبا خاصا ، بل يكفى لهذا النمو مجرد التغذية والمنبهات العادية فى بيئة الفرد • أما النمو الانفعالى فقد شرحنا من قبل أثر كل من النضج والتعلم فيه

غير أن هناك استعدادات وقدرات لايمكن أن تنمو بل لا يمكن أن تظهر الا بتدريب وتعليم خاص . كالقدرة على السباحة أو العزف أو على حل معادلات من الدرجة الثانية مثلا .

مما تقدم نرى أن الصلة بين النضج والتعلم صلة وثيقة . فالفرد لا يستطيع أن يتعلم شيئا الا اذا بلغ مستوى كافيا من النضج يتيح له أن يتعلمه . فلم يستطع أحد أن يعلم الطفل القراءة أو احتجاز بوله فى نهاية العام الأول من عمره . وقد دلت التجارب على أنه من الخطأ البدء بتعليم الطفل القراءة قبل أن يصل الى درجة معينة من حدة البصر والسمع والضبط الانفعالى والرغبة فى القراءة ، هذا الى عمر عقلى لا يقل عن ست سنوات ونصف ، ويقصد بالعمر العقلى مستوى الذكاء الذى بلغه الطفل بالنسبة للطفل المتوسط من نفس عمره الزمنى .. ومن دون هذا فمن المرجح أن يجد صعوبة فى القراءة مما قد ينفره منها .

موجز القول أن النضج الطبيعى عملية تلقائية تحددها استعدادات وراثية ، ومن ثم فهى عملية حتمية عامة يشترك فيها جميع الافراد الذين ينتمون الى نوع واحد . أما التعلم فتحدده وتوجهه مطالب وأهداف مفروضة على الفرد . وبعبارة أخرى فالنضج يقارب بين أفراد النوع الواحد بقدر قليل أو كبير ، أما التعلم فيؤدى الى زيادة الفروق بين الأفراد من حيث ما يتعلمون .

٣ — نظريات التعلم

هل الصور المختلفة للتعلم التى عرضناها منذ قليل صور يختلف بعضها عن بعض اختلافا جوهريا بحيث يجب تفسير كل واحدة منها بنظرية خاصة ، أم أنها يمكن أن ترد جميعها الى نظرية واحدة مشتركة ؟ لقد أدى اختلاف العلماء فى تفسير عملية التعلم الى ظهور نظريات مختلفة للتعلم . ومهما يكن من أمر هذا الاختلاف فكل نظرية

تستهدف تفسير هذه العملية أى تحـديد مختلف الشروط الـداخلية والخارجية التى لا يتم التعلم بدونها[1] .

أما نظريات التعلم فيمكن تصنيفها بوجه عام صنفين :

١ ـ النظريات الترابطيـة أو نظريات المثير والاستجابة وهى ترى أن عمليـة التعـلم تتلخص فى عقد أو تقـوية روابط بين مثيرات واستجابات . ويندرج فيها نظرية التعلم الشرطى ونظرية المحاولات والأخطاء ونظرية التدعيم .

٢ ـ النظريات الادراكية واظهرها نظرية الجشطلت وهى ترى أن عملية التعلم عملية فهم وتنظيم واستبصار قبل كل شىء .

وسنرى أن كل نظرية تتضـمن عددا من المبـادىء والفروض أو المسلمات المؤتلفة فى صورة موحدة متناسقة .. وهذا هو المعنى الشامل لاصطلاح « النظرية » .

وسنلتقى فى دراستنا لعملية التعلم بتجارب كثيرة تجرى على مختلف الحيوانات . ولا يقتصر الغرض من هـذه التجارب على معرفة قدرة الحيوانات على التعلم ، وهو موضوع يهتم بـه علم النفس من دون شك ، بل تستهدف فوق ذلك دراسة هذه العملية فى صورتها البدائية البسيطة مما عساه أن يلقى الضوء عليها عند الانسـان كما تلقى دراسة هيكل الكوخ الصغير الضوء على هيكل البناء الـكبير . ذلك أن الانسان على درجة كبيرة من التعقيد مما يجعل دراسـة العمليـات العقلية عنده أمرا شاقا فى كثير من الأحيان . وهو فى تعلمـه يلجـأ ويستعين بوسائل كثيرة يعجز عنها الحيوان ، منها اللغة والرمـوز ، فضلا عن تأثره فى تعلمه بعوامل اجتماعية وثقافية لا توجـد لـدى الحيوان ، وهى عوامل لا يسهل التحكم فيها وضبطهـا عند اجـراء التجارب عليه . غير أن الباحث يجب ألا يطبق ما يظفر به من وقائع

---

(١) مما يجدر ذكره ان دراسـة التعلم يشترك فيها أكثر من فرع من فروع علم النفس . فعلم النفس العام يقتصر اهتمامه على موضوعات الحفظ والتذكر واكتساب المهارات الحركية واللفظية وحل بعض المشكلات . وعلم النفس الاجتماعى يدرس اكتساب الاتجاهات والعقـائد والقيم والأخـلاق والعادات الاجتماعية . وعلم النفس التربوى يهتم بدراسة عملية التعلم فى صلتها بالمعلم والمتعلم ، كما يعنى بطرق تعلم وتعليم المواد الدراسية .

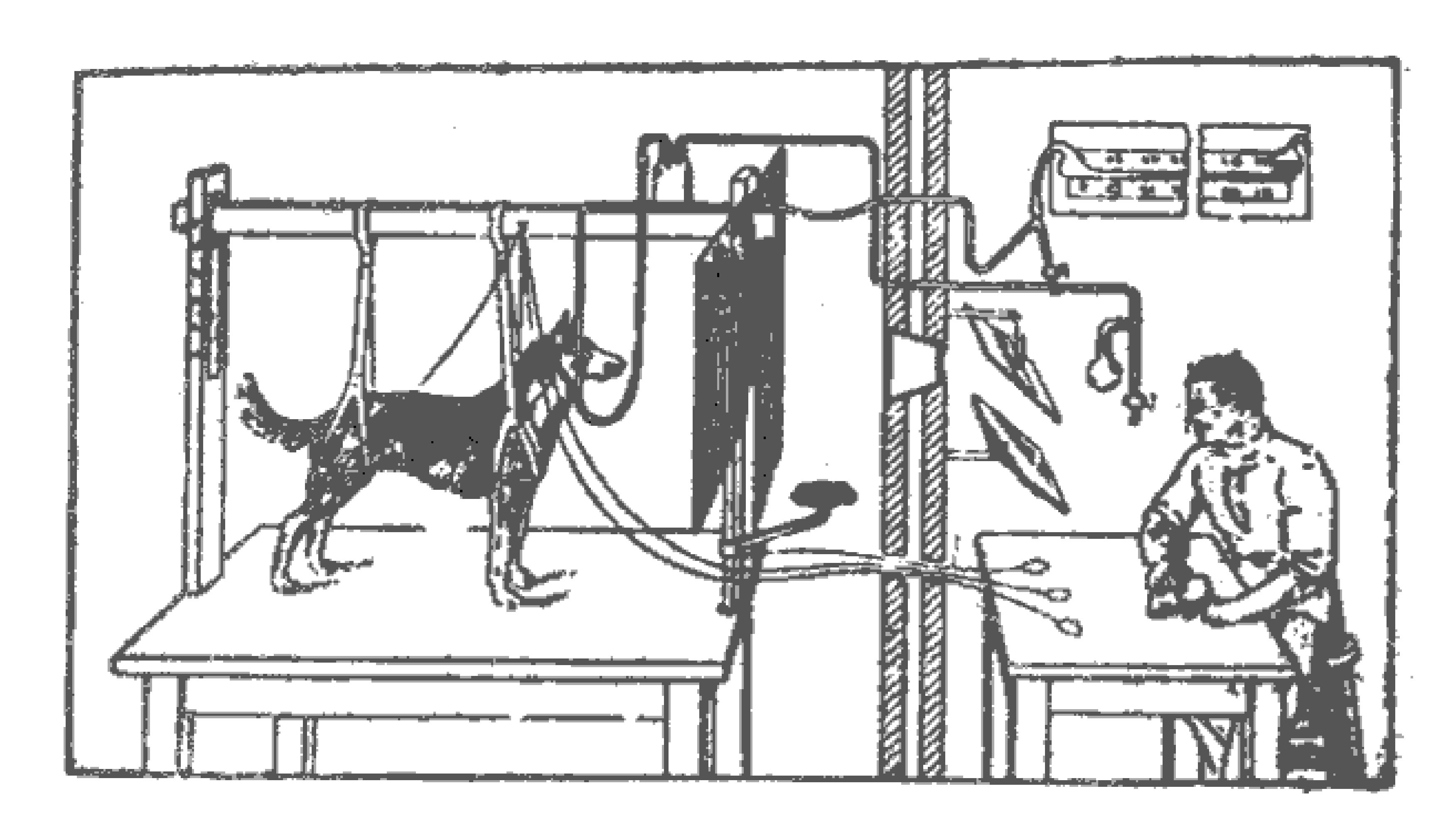
فى عالم الحيوان الا بعد أن يتحققها على المستوى الانسانى بدراسات أخــرى •

٤ ـ نظرية التعلم الشرطى التقليدى

حوالى سنة ١٩٠٠ كان الفسيولوجى الروسى « بافلوف Pavlov يقوم بدراسة عملية الهضم عند طائفة من الكلاب المروضة فى معمله • غير أنه لاحظ بعض ملاحظات جعلته يغير اتجاهه فى البحث وأن يجرى تجارب جديدة أحدثت انقلابا فى علم النفس الحديث خاصة فى النظر الى عملية التعلم وتفسيرها : من المعروف أن الكلب يســيل لعابه حين يوضــع الطعام فى فمه . وهذا فعل منعكس طبيعى reflex غير أن بافلوف لاحظ أن الكلب يسيل لعابه أيضا لمجرد رؤية الشخص الذى يقدم له الطعام . أو لمجرد سماعه وقع أقدام هذا الشخص وهو قادم• أى انلعابهيسيل قبل أن يوضع الطعام فى فمه •

وقد أطلق بافلوف على افراز اللعــاب فى هــذه لحالة « الافراز النفسى » تمييزا له عن الافراز الذى يثيره وضع الطعام فى الفــم •• هذه الملاحظة لم تكن فى ذاتها تنطوى على دلالة كبيرة اذ من المعروف أن لعاب الانسان يسيل عند رؤيته الشخص الذى يقدم له الطعام أو عند سماعه الجرس الذى يؤذن بالطعام •

غير أن بافلوف رأى أنه من الممــكن أن يتخذ من هذه الاستجابة وسيلة لدراسة وظائف المخ ، وافترض أن حدوث هذا الافراز النفسى يعنى انفتاح ممرات عصبية جديدة فى المخ ، فاذا به يتــرك دراســة فسيولوجيا الهضم الى دراسة فسولوجيا المخ الذى كان يعتبره المركز الرئيسى المسئول عن السلوك الراقى لدى الفقريات العليا ، واذا به يبدأ فى اجراء سلسلة من التجارب للتحقق من صحة ما طرأ على ذهنه من فروض •• فمن التجــارب النموذجيــة التى أجراها أنه كان يجىء بكلب فيثبتــه على مائدة التجـــارب (شــكل ٩) ثم يضــع على



(شكل ٩)

لسانه مقدارا من مسحوق اللحم المجفف فيسيل لعابه بطبيعة الحال.
بعد ذلك كان يقرع جرسا كهربيا يسمعه الكلب **قبل** أن يضع المسحوق
فى فمه مباشرة — ببضع ثوان — فكان يلاحظ بعد تكرار هذه التجربة
عدة مرات تتروواح بين ١٠ و ١٠٠ مرة — والكلب جائع فى كل مرة —
كان يلاحظ أن مجرد قرع الجرس يكفى لافراز لعاب الكلب دون أن
يتلو ذلك وضع الطعام فى فمه ، لكن الافراز يكون بكمية أقل فى هـذه
الحالة .. فأعاد التجربة مستعيضا عن قرع الجرس باضاءة مصـباح
أمام الكلب قبل أن يلقمه المسحوق مباشرة ، فجاءت نتيجة هذه التجربة
كنتيجة سابقتها . فأعاد التجربة وهو يربت على ظهر الكلب أو كتفه
قبل أن يضع المسحوق مباشرة ، فكان يسيل لعاب الكلب بعد تـكرار
التجربة عدة مرات .. ومن أمثال هذه التجارب التى قام بها بافلوف
وزملاؤه أنه كان يعرض الكلب لصدمة كهربية خفيفة فى ساقه قبل أن
يعطيه المسحوق مباشرة ، فوجد أنه بتكرار هذه التجربة يسيل لعاب
الكلب لمجرد تعرضه للصدمة الكهربية ..

ترى ماذا يمكن استخلاصه من أمثال هذه التجارب ؟

ان صوت الجرس أو اضاءة المصباح او الربت على جسم الكلب أو تعريض ساقه لصدمة كهربية ليست مثيرات فطرية طبيعية لافراز لعاب الحيوان ، فلابد أنها أكتسبت هذه الخاصة لاقترانها المباشر بالمثير الطبيعي وهو وجود الطعام فى فم الحيوان • وقد أطلق بافلوف على هذه المثيرات البديلة الجديدة اسم « المثيرات الشرطية » كما أطلق على الاستجابة للمثير الشرطى أسم الفعل المنعكس الشرطى أو المشروط لأنه يحدث بشروط خاصة منها :

١ — الاقتران الزمنى للمثير الجديد بالمثير الأصلى الطبيعى اقترانا مباشرا بحيث تكون الفترة بينهما وجيزة جدا • فقد وجد أن الفترة المثلى هى نصف ثانية ، ومن تجارب كثيرة أنها ان زادت على ٣٠ ثانية لم يحدث الفعل المنعكس الشرطى •

٢ — أن يتكرر هذا الاقتران مرات عدة كانت تبلغ فى بعض الاحيان ١٠٠ مرة أو تزيد ، مع فوارق فردية بين الكلاب •

٣ — أن يكون الحيوان جائعا متيقظا وفى صحة جيدة •

٤ — عدم وجود مشتتات لانتباه الحيوان فى المعمل •

ونضع ما تقدم فى صورة أخرى فنقول ان الحيوان قد تعلم أن يستجيب بافراز اللعاب لمثيرات رمزية بديلة جديدة ليس بينها وبين المثيرات الطبيعية الاصلية علاقة منطقية . ان هو الا ظهورها قبيل المثيرات الطبيعيه عدة مرات • ومنذ ذلك الحين أطلق بافلوف على هذا النوع من التعلم البسيط اسم التعلم الشرطى أو الاشراط • ويتلخص فى تعود الاستجابة لمثيرات جديدة . أو اكتساب أفعال منعكسة شرطية. وبعبارة أخرى فهو تعود الاستجابة لرموز الأشياء • ورمز الشىء هو كل ما ينوب عنه أو يشير اليه أو يعبر عنه أو يحل محله فى غيابه •

ولم تقف تجارب بافلوف وتلاميذه عند اكتساب الأفعال المنعكسة الشرطية اللعابية عند الكلاب . بل تجاوزتها الى الافعال المنعكسة الحركية والانفعالية عند الكلاب وغيرها من الحيوانات : بل عند الانسان أيضا كأن يسحب الحيوان أو الانسان ساقه مثلا عند سماعه جرسا معينا يسبق صدمة كهربية تصيبه فيها •

الاشراط عند الانسان :

اتسع نطاق التجريب فى ميدان التعلم الشرطى بما أثبت وجود هذا النوع من التعلم لدى الحيوانات الدنيا والأطفال حديثى الولادة والكبار • فمن الأفعال المنعكسة الشرطية التى أمكن اثارتها تجريبيا بمثيرات شرطية لدى الانسان : افراز اللعاب وفتح الفم وتحريك جفن العين وتغير سرعة النبض وسرعة التنفس ومنعكس الركبة وانقباض حدقة العين •• من ذلك مثلا أن انسان العين يتسع ان قل الضوء ويضيق ان اشتد — وهذان فعلان منعكسان طبيعيان • وقد أمكن عن طريق الاقتران الشرطى جعل انسان العين يتسع أو يضيق عند سماع الشخص صوت جرس معين • ففى احدى التجارب سبق صوت الجرس الضوء بنصف ثانية ، وبعد تكرار هذا الأقتران حوالى ٤٠٠ مرة « تعلم » انسان العين أن يتسع أو يضيق عند سماع الصوت وحده ، أى أصبح الصوت وهو مثير غير طبيعى وغير فعال يحدث ما يحدثه المثير الطبيعى وهو الضوء • وتجربة « وطسن » على الطفل « ألبرت » مثال آخر على التعلم الشرطى الانفعالى (ص ١٣٣) •

وقد أمكن عن طريق الاقتران الشرطى أيضا فضح ادعاء الاشخاص الذين يزعمون أنهم صم لا يسمعون فى حين أنهم أسوياء يسمعون • ويكون ذلك بقرع جرس متدرج الشدة بالقرب منهم « مثير شرطى » يعقبه مباشرة تعريضهم لصدمة كهربية فى أيديهم (مثير طبيعى) تجعلهم يسحبون أيديهم (فعل منعكس طبيعى) • وبتكرار ذلك عدة مرات كان الشخص غير الأصم يسحب يده عند مجرد سماع الجرس كما لو كان المثير هو الصدمة الكهربية • وهذا دليل على أنه كان يسمع الصوت • أما الغرض من جعل الصوت متدرجا فى الشدة فهو معرفة المستوى الذى يصبح فيه الصوت غير مسموع دون الاعتماد على سؤال الشخص •

الاستجابة الشرطية :

اتضح أن كثيرا مما سماه بافلوف بالمنعكسات الشرطية ليس أفعالا منعكسة بالمعنى الدقيق لانها لا تتسم بما تتسم به هذه الافعال عادة من جبرية وتحجر واستعصاء على التعديل والتحوير ، بل هى استجابات يبدو فيها أثر الادراك والتمييز والمرونة والتكيف للموقف•

من ذلك مثلا أن افراز لعاب الكلب عند سماعه الجـرس أو رؤيتـه الضوء أقل بكثير منه عندما يأكل بالفعـل ، وأن حركات الكلب عند سـماعه الجرس تختلف عن حركاته وهو يأكل ، وأن الكلب يكف عن الافراز ان تكرر سماعه الجرس دون أن يتبع ذلك بتقديم الطعـام اليه . فالكف عن الافراز في هذه الحالة يعني أن الكلب ميز بين الموقف الذي يقدم له فيه الطعام وبين الموقف الذي لا يقدم له فيه ، أي أنه تكيف للموقف الجديد . ولو كان افراز اللعاب استجابة آلية لما تغيرت صورته ولما ظهر في صورة أخرى تلائم ما حدث في الموقف من تغيير . كذلك الطفل الذي أحرقت النار يديه ذات مرة فهو لا يستجيب لرؤية النار مرة أخرى بسحب يده أو بالبكاء بل بعدم الاقتراب من النـار .. لذا اتفق العلمـاء على تسمية هذه المنعكسـات الشرطية بالاستجابات الشرطية ، لأن كلمة الاستجابة أوسع وأشمل من الفعل المنعكس ، ولأنهـا تشـمل الحركات الارادية والحركات اللاارادية جميعا .

٥ — مبادىء بافلوف الاشراطية

لم تقف تجارب بافلوف عند بيان أثر المثيرات البديلة حين تقترن بالطعام في تكوين الاستجابة الشرطية ، بل قام هو وتلاميذه وأتباعه بدراسة خصائص هذه الاستجابة والعوامل التي تؤثر فيها . وسرعان ما حورت طـرقه في البحث بحيث يمكن اسـتخدامها مع الأطفـال والراشدين . وقد ربط بافلوف بين ملاحظاته وتجاربه وبين كثير من الظواهر المألوفة في حياتنا اليومية ، كما خصص الشطر الأخير من حياته لملاحظة مضطربي الشخصية في مستشفيات الأمراض العقلية وحـاول تفسير ملاحظاته على ضوء دراساته الفسيولوجية . وقد خـرج من هذا كله بعدد من المبادىء أيدتها بحوث أجريت في معامل أخرى ، وهي مبادىء من المرونة والشمول بحيث يمكن أن تفسر جوانب كثيرة من عملية التعلم وتكوين العادات عند الانسان والحيوان . وقـد سميت بمبادىء الاشراط التقليدي [١] تمييزا لها عن مبادىء نوع آخـر من الاشراط سنعرض له بعد قليل ، ويسمى بالاشراط الاجرائي [٢] :

---

(١) Classic conditioning

(٢) Operant Conditioning

١ ـ مبدأ الاقتران المتآنى والمتتابع

اتضح أن المثير الشرطى يكون له أثر فعال ان صاحب المثير الأصلى فى الزمان أو سبقه ، أما ان تلاه لم تحدث الاستجابة الشرطية الا بصعوبة بالغة . كما وجد أن الفترة المثلى بين المثيرين هى نصف الثانية . وعلى هذا يكون المبدأ الأساسى الأول للتعلم الشرطى هو مبدأ الاقتران المتآنى والمتتابع .

٢ ـ مبدأ المرة الواحدة

لقد كان بافلوف فى تجاربه الأولى يكرر ربط المثير الشرطى بالمثير الأصلى عدة مرات قد تبلغ المائة أو تزيد ، غير أنه اتضح أن الاستجابة الشرطية قد تتكون من فعل المثير الشرطى مرة واحدة ليس غير . ويحدث هذا بوجه خاص فى الحالات التى تقترن فيها التجربة بانفعال شديد ولذلك أمثلة كثيرة فى الحياة اليومية . فالطفل الذى لسعته النار أو لدغه زنبار مرة واحدة يحجم عن الاقتراب منهما بعد ذلك ، كذلك الطفل الذى أوشك على الغرق أو الذى عاقبناه مرة بشدة على خطأ ارتكبه ، بل لقد استطاع « وطسن » وغيره أن يجعل الطفل يخاف الفأر من مرة واحدة (ص ١٣٣) . هذا المبدأ كما نرى يقلل من أهمية التكرار فى التعلم الشرطى وتكوين العادات .

٣ ـ مبدأ التدعيم Reinforcement

لاحظ بافلوف أن الاستجابة الشرطية لا تتكون أصلا الا اذا اقترن المثير الطبيعى (الطعام) بالمثير الشرطى (الجرس) أو تبعه مباشرة مرات متتالية ولعدة أيام متتالية ، كما أنها متى تكونت فانها لا تثبت وتبقى الا اذا قويت من آن لآخر وبصورة منتظمة ، شأنها فى ذلك شأن كل عادة وكل استجابة مكتسبة . وتسمى تقوية الرابطة بين المثير الشرطى والاستجابة الشرطية بالتدعيم . والاستجابة الشرطية متى تكونت وتمكنت بقيت عدة شهور أو ما يزيد . ويلاحظ أن التدعيم فى هذه الحالة نشأ عن اشباع دافع الجوع عند الحيوان أى انخفاض حالة التوتر لديه ، فكأن تقديم الطعام كان بمثابة مكافأة للكلب ونوع من الثواب على استجابته المقبلة .

٤ ــ مبدأ الانطفـــاء extinction

هو عكس مبدأ التدعيم • فالانطفاء هو اثارة دون تدعيم • ويتلخص فى أن المثير الشرطى ان تكون ظهوره دون أن يتبعه المثير الأصـــلى من آن لآخر أى دون تدعيم تضاءلت الاستجابة الشرطية الثابتة بالتدريج حتى تزول قاطبة • فالكلب الذى تعود أن يسيل لعابه عند ســماعه جرسا لا يعود يسيل لعابه ان تكرر سماعه الجرس مرات كثيرة دون أن يتلو ذلك تقديم الطعام اليه • والأمثلة على ذلك كثيرة فى الحياة اليومية • فالطفل الصغير لا تعود تبدو عليه علامات البشر والسرور (استجابة شرطية) ان تكرر سماعه صوت أمه (مثير شرطى) دون أن تحضر الى جانبه (مثير أصلى) ؛ وقل مثل ذلك فى الطفل الذى نكثر من تهديده بالعقاب (مثير شرطى) ولا نعاقبه (مثير أصلى) فانه لا يعود يكترث لتهديدنا ، ونحن لا نعود نخاف صفارات الانذار (الخوف هنا استجابة شرطية) ان تكرر سماعنا لها (مثير شرطى) دون أن يقترن ذلك باطفاء الأنوار أو القصف (مثير أصلى) • ذلك أن المثير الشرطى ان لم يتبعه المثير الطبيعى ظل الفرد فى حـــالة من التوقع والاستعداد المصحوب بالتوتر ، وهذا نوع من العقاب يميل بالاستجابة الشرطية الى الانطفاء •

وقد دلت التجارب على أن الاستجابات الشرطية التى تكتسب فى مواقف مثيرة للقلق والخوف تقاوم الانطفاء الى حد كبير وتنزع الى التعميم بسهولة أى الى أن تثيرها مواقف مشابهة ، كما كانت الحال مع الطفـــل « البرت » الذى أصـــبح يخاف من كل ما يشبه الفـــأر ، وبينما اكتسب الطفل هذه المخافة الشاذة من ثلاث مرات ، اذا بعلاجه منها يقتضى ثلاثين جلسة •

وقد أفاد بعض المعالجين النفسيين من مبدأ الانطفاء فى علاج بعض المخاوف الشرطية الشاذة كخوف الطفـــل من أرنب أو من الظـــلام أو خوف الكبار من ركوب المصاعد الكهربية • والطريقة هى أن يقدم الشىء المخيف الى الشخص الخائف عـــدة مرات فى ظروف آمنـــة أو سارة لا تثير فى نفسه الخوف ، كأن يعرض الأرنب على الطفل وهو على مسافة بعيدة منه ، أو وهو محبوس فى قفص ، أو مجـــرد صـــورة للأرنب •• ومتى تكررت رؤيتـــه للارنب دون أن يناله منه أذى ، أى فى ظروف لا تدعم الخوف فى نفسه ، تضـــاءل خوفه من

الأرنب تدريجيا حتى ينطفىء • وتسمى هذه الطريقة فى العلاج بطريقة الاستئصال الشرطى deconditioning •

ونشير أخيرا الى أن انطفاء الاستجابة نوع من التعلم ، هو تعلم الكف عن القيام بعمل لا يقترن بتدعيم •

٥ ـ مبدأ تعميم المثيرات St. Generalization :

لوحظ أن الكلاب تستجيب بافراز اللعاب ، فى أول الأمر ، لجميع المثيرات التى تشبه المثير الشرطى من بعض الوجوه •• فالكلاب التى تعلمت أن يسيل لعابها عند سماع نغمة ذات تردد معين (١٠٠٠ ذبذبة/ثانية) يسيل لعابها أيضا عند سماعها نغمات تقترب فى ترددها من هذه النغمة (٨٠٠ ذبذبة/ثانية) ، وأن الكلاب التى تعودت أن يسيل لعابها لرؤية دائرة مضيئة يسيل لعابها أيضا عند رؤية قطع ناقص ، وأن تلك التى تعلمت ان تستجيب باللعاب ان وبتناها على كتفها أو خاصرتها يسيل لعابها أيضا ان ربتناها على نقطة أخرى قريبة من الأولى •• وكلما زاد التشابه بين المثير الشرطى والمثير الأصلى زادت قوةالاستجابة الشرطية وكانت أكثر دواما وبقاء • والمواقف تتشابه من حيث الحجم أو الشكل أو الموقع أو الشدة ، وتكون الاستجابة لاى واحد من هذه الجوانب أولها جميعا •

هذا هو مبدأ تعميم المثيرات ويتلخص فى انتقال أثر المثير أو الموقف الى مثيرات ومواقف أخرى تشبهه أو ترمز اليه • وهو يفسر لنا كثيرا من سلوكنا اليومى ، فمن لدغه ثعبان فانه يخاف من رؤية الحبل ، والطفل الذى عضه كلب معين يخاف من جميع الكلاب الأخرى • كذلك الطفل الذى يخاف أو يكره أباه فانه يخاف أو يكره كل من شابه أباه فى المركز أو النفوذ أو الشكل فاذا به يتوجس أو ينفر من المدرسين والرؤساء ورجال الشرطة والاطباء •• والشب الذى نشأ على خجل شديد من المحرمات من قريباته قد يمتد خجله الى النساء جميعا • وتهيب الطالب من مواجهة جماعة والحديث اليها قد يكون منشؤه سخرية المدرس منه أمام زملائه فى الصف وهو تلميذ صغير •• والمصاب بمرض نفسى يتأثر ويشتد انفعاله حيال المواقف التى تشبه الموقف الاصلى الذى أصيب فيه بصدمة ، فالبنت التى سقطت فى جدول ماء

بين الصخور وكادت تموت أصابها خوف شديد شاذ من رذاذ المـاء والماء الجارى (ص ١١٨) ومما يذكر أن مدرسة التحليل النفسى تؤكد أهمية استجابات الطفل الانفعالية لوالديه وصلاته العاطفيـة فى تحديد استجاباته لمدرسيه ورؤسائه والدولة وكل ما يمثل النفوذ .

وهذا يعنى أن العادات التى أكتسبناها فى موقف معين يميل أثرها الى أن ينتقل الى مواقف أخرى شبيهة بالموقف الأول ، كعادة المثابرة أو الأمانة . .وكلما زاد هذا التشابه كان احتمال انتقال الاثـر أى التعميم كبيرا .

٦ — مبدأ التمييز Discrimination

لوحظ أن المثيرات المتشابهة التى يستجيب لها الكلب بافراز اللعاب فى أوائل التجربة ، لو تدعم أحدها — أى اقترن بتقديم الطعام — ولم يتدعم الآخر استجاب الكلب للمثـير الذى ناله التـدعيم ولم يستجب للآخر . من ذلك أن أحد الكلاب قد تعلم أن يستجيب عند سماع نغمة ترددها ٨٠٠ ذبذبة فى الثانية ، فكان فى أول الأمر يستجيب لنغمـات أعلى حتى ما بلغ تردده ١٠٠٠ ذبذبة فى الثانية . لكن المجرب عن طريق تدعيم بعض هذه المثيرات وعدم تدعيم الأخرى استطـاع أن يجعل الكلب يميز بين نغمات ترددها ٨٠٠ و ٨١٢ و ٨٢٥ ذبذبة فى الثانية ، أى يستجيب لبعضها ولا يستجيب لبعضها الآخر .

فالتمييز هو التغلب على التعميم أى التفرقة بين المثير الأصـلى والمثيرات الأخرى الشبيهة به نتيجة لتدعيم المثير الأصلى وعدم تدعيم المثيرات الشبيهة به . فهو نوع من « التدعيم الانتقائى » أسـاسه التدعيم والانطفاء .

ويبدو أثر هذا المبدأ فى مظاهر كثيرة . فالطفل الصغير يسمى كل رجل يراه « بابا » ، لكنه بفضل التدعيم وعدم التدعيم من البيئة الاجتماعية لا يلبث أن يصحح خطأه هذا وتعميمه الفضفاض فلا يعود يطلق هذا اللفظ الا على أبيه فقط . كذلك الحال وهو يتعلم أسماء الأشياء : كلب قط ، تفـاح ، قلم .. فهو يعمم أولا ثم يصحح أخطاءه بالتمييز تدريجيا . كذلك الطفل ان رأى أن سلوكا معينا يحوز رضاء والديه مال الى تكرار هذا السلوك مع الغير (تعميم) . فان رأى أن هذا السلوك يقابل بالاستهجان من الآخرين تركه الى غيره (تمييز) .

٧ ــ مبدأ الاستتباع :

دلت التجارب على الحيوانات أن المثير الشرطى ينتقل أثره الى مثير آخر يسبقه مباشرة • فان كان الضوء الذى يبشر بقدوم الطعام يسيل لعاب الكلب فالجرس الذى يسبق الضوء يسيل لعابه أيضا • وتسمى الاستجابة الشرطية فى هذه الحالة استجابة من الرتبة الثانية • فاذا كان ظهور العصا يحمل الطفل على تلبية ما نأمره به ، فسماعه كلمة التحذير التى تسبقظهور العصا يكفى لحمله على الاطاعة • بل نستطيع أن نذهب الى أبعد من ذلك فنجعل الكلب يسيل لعابه لصدمة كهربية خفيفة تسبق دقة الجرس السابق مباشرة ، أى أننا نستطيع تكوين استجابة شرطية من الرتبة الثالثة •• وهكذا •• وهذا يبدو فى حالة الطفل الصغير اذ يكف عن البكاء حين ترضعه أمه ، ثم حين تحمله، ثم حين يراها ، بل حتى حين يسمع صوتها قبل أن يراها •

٦ ــ دور الاشراط فى التعلم

يعتقد علماء التعلم الشرطى أن المبادىء السابقة التى تفسر الاستجابات الشرطية ــ وهى عادات بسيطة كما رأينا ــ تستطيع أن تفسر أيضا أنواع التعلم المعقدة كاكتساب المهارات وحل المشكلات ، ويرى آخرون أنه يجب التمييز بين أنواع مختلفة من التعلم •• بل لقد بدا لبافلوف وأصحابه أنهم يستطيعون تفسير جميع مظاهر السلوك الانسانى والحيوانى عن طريق المنعكسات الشرطية تفسيرا موضوعيا بحتا دون الالتجاء الى مفهومات علم النفس ومصطلحاته • وعلى هذا يكون مفتاح فهم السلوك هو علم الفسيولوجيا • وقد استهوت هذه الأفكار « وطسن » مؤسس المدرسة السلوكية التى لا تدخل فىتفاسيرها فكرة « الشعور » أو « الغرض » أو « الجهد » أو « المشكلة » •• فنادى بأن جميع ضروب التعلم وتكوين العادات عند الانسان والحيوان تتلخص فى اكتساب منعكسات شرطية • وبعبارة أخرى فكل تعلم ترابط آلى بين مثيرات شرطية واستجابات طبيعية أصلية فيه يثار السلوك برموز واشارات تنوب عن مثيراته الأصلية : من تعلم القراءة الى تعلم الهندسة التحليلية ، ومن تعلم لعبة التنس الى تعلم لعبة الشطرنج ، ومن تعلم القط الخروج من قفص

الى تعلم الطفــل ربط حــذائه ، ومن تعلم القفز فوق ســـور الى ادمان المخدرات •• وأيا كان مقطع الرأى ، فالتعلم الشرطى يقوم بدور هام فى كسب العادات • فليست العادة ــ كل عادة ــ الا استعداد الفرد لأن يستجيب لعلامات ورموز تنوب عن المثيرات والمواقف الاصــلية • خذ على سبيل المثال ترويض الحيوان ترى أنه يتلخص فى الاستعاضة عن مثيرات طبيعية ، كاطعامه أو ضرب أو ملاطفته ، بعلامات منهــا كلام المروض أو حركات يديه أو مثيرات صناعية أخرى • فلتعليم الدب أن يرقص عندسماعه الموسيقى يضع المروض الدب فوق لوحة معدنية ساخنة ، فيبدأ الدب فى رفع قدمه واحدة بعد أخرى لاتقــاء حــرارة اللوحة التى تلسعه ، وفى هذه الاثناء تعزف الموسيقى •• وهكذا حتى يتعلم الحيوان آخر الأمر أن يرفع قدميه على التتالى أى يرقص عند سماعه الموسيقى وحدها • لقد أصبحت الموسيقى وهى مثير غير طبيعى يؤدى مهمة المثير الطبيعى وهو الحرارة المسلطة على قدمى الحيوان • والخيل يمكن تعليمها التوقف عن السير بأن نسمعها كلمة « هس » مثلا وربط هذه الكلمة بجذبة قوية مؤلمة للجام الموضوع فى فمها •

أما فيما يتصل باكتساب العادات عند الانسان فحسبنا أن نشير الى أن الرضيع تقوم شفتاه بحركات ارتشاف اللبن لمجرد رؤيته أمــه أو زجاجة اللبن قبل أن يوضع الثدى فى فمه ، وأن النوم يبدأ فى مداعبة الطفل حين يرانا نعد له فراشه أ ونغنى له أغنية خاصة •

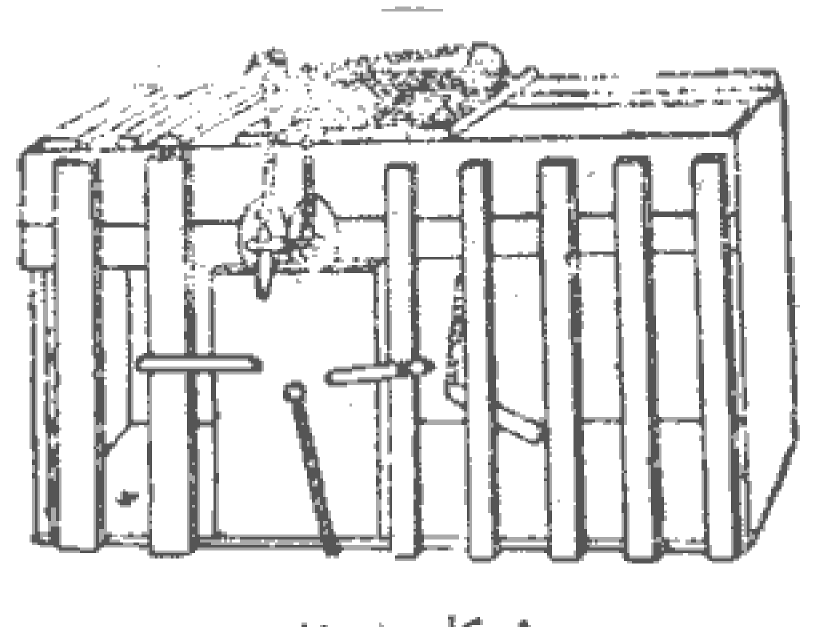
كذلك يبدو أثر التعلم الشرطى واضحا فى تعلم الطفل الكلام • فهو ينطق بكلمة « بابا » مثلا ويسمع نفسه وهو ينطقها ، أى ان النطــق ارتبط بسماع الكلمة فتصبح الكلمة المسموعة مثيرا شرطيا يدعو الطفل الى نطقها مرة أخرى ، وهكذا يمضى فى تكرارها حتى يغلبه التعب أو يشغله شىء آخر •

وفى تعلم القراءة يعرض المدرس للتلميذ على السبورة رسم حيوان صغير والى جانبه رمز معين هو كلمة « قط » • ففى أول الأمر لا يكون هناك ارتباط من أى نوع بين هذا الرمز ومعنى القط ، أما بعد التدريب فيمكن الاستغناء عن صورة القط • وهنا تكفى رؤية كلمة « قط » لاثارة معنى القط فى ذهنه • وكذلك الحال فى جميــع ما يتعلمه من أســماء وصفات •

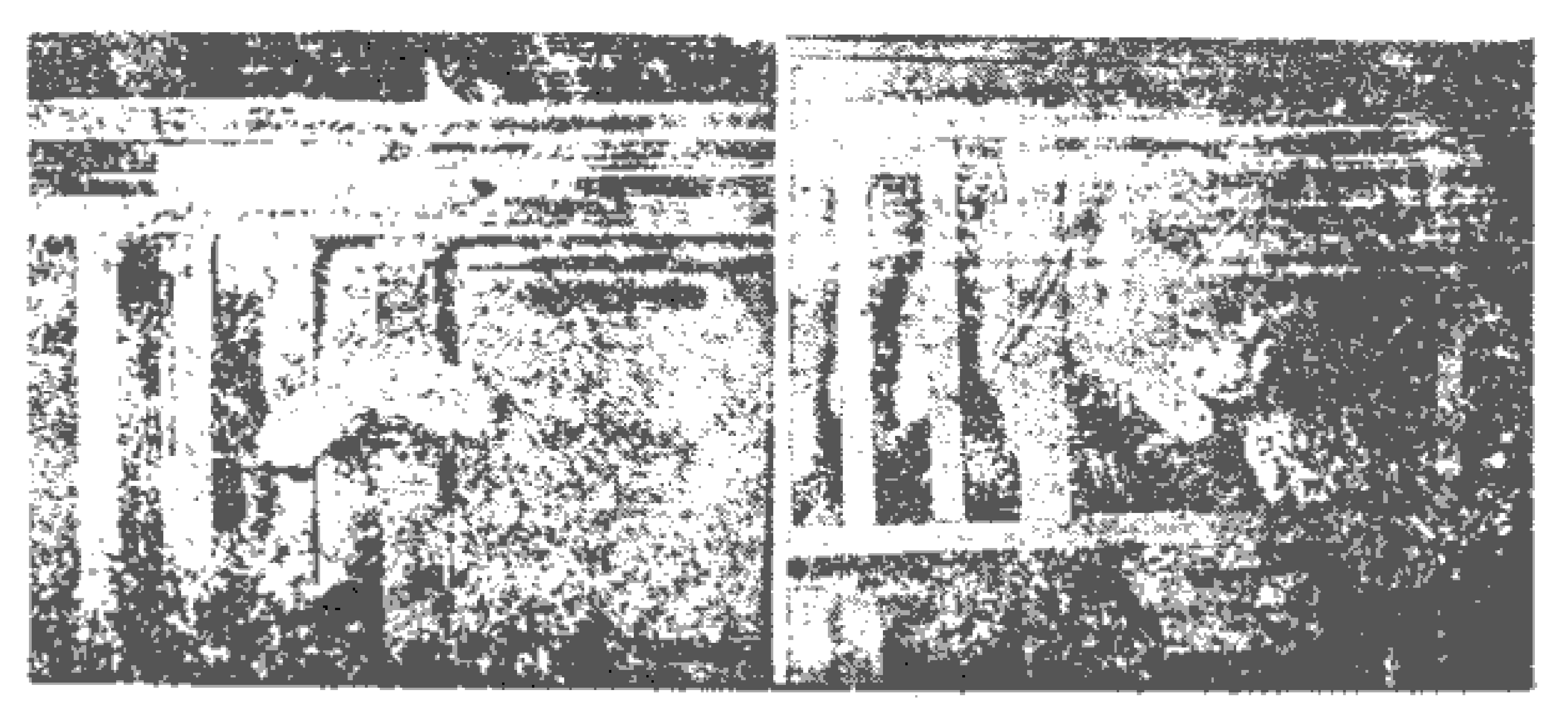
وقد رأينا من قبل أثر التعلم الشرطي في تحوير دوافعنا الفطرية من ناحية مثيراتها . وكذلك في اكتساب المخاوف الشاذة Phobias من ذلك أن ألم الجوع عند الرضيع يثير فيه الخوف ، وهذه استجابة طبيعية . لكن تكرار شعوره بالجوع وهو في مكان مظلم ، أو في مكان هادىء أو بعيدا عن أمه •• قد يجعله يتعلم الخوف من الظلام أو من المكث في مكان ساكن ، أو من ابتعاده عن أمه •• بل نستطيع أن نقول ان التفاؤل والتشاؤم نتيجة تعلم شرطي ، أى ارتباط شخص أو شيء معين بخبرة سارة أو مؤلمة ذات يوم •

٧ ــ نظرية التعلم بالمحاولة والخطأ

قام العالم الأمريكي « ثورنديك » Thorndike (١٨٧٤ ــ ١٩٤٩) وهو عالم سلوكي النزعة أى من علماء التعلم الشرطي باجراء تجارب عدة على أنواع مختلفة من الحيوانات ــ كالكلاب والقطط والدجاج والأسماك والقردة •• وذلك لدراسة قدرتها على التعلم • فمن تجاربه المأثورة وضع قط جائع في قفص لا يمكن أن يفتح بابه الا بالضغط على لوحة خشب أو جذب حبل ثم رفع مزلاج بسيط أو ادارة مقبض (أنظر شكلى ١٠ و ١١) ، ثم اغراؤه بقطعة من السمك خارج القفص • لقد لاحظ أن القط يصبح في حالة عنيفة من التهيج والاضطراب : يعض قضبان القفص ويضربها بمخالبه ويحاول أن يقحم جسده بين القضبان •• ويأتى بكثير من الحركات العشوائية الفاشلة، الى أن يتفق له أن تمس يده أو جزء من جسمه لوحة الخشب أو المزلاج فيفتح الباب ، فيندفع الحيوان الجائع ليلتهم طعامه • وكان المجرب يسجل الزمن الذى يستغرقه القط في تخبطه هذا حتى يتاح له فتح الباب ، ثم يعيد التجربة ويسجل الزمن الذى يمضيه القط في محاولته الثانية ثم الثالثة وهكذا حتى يستطيع الحيوان تعلم فتح الباب ، أى الخروج من القفص بمجرد وضعه دون محاولات أو أخطاء هنا يقال ان القط قد اكتسب عادة فتح الباب • وقد خرج ثورنديك من هذه التجربة وأمثالها ــ على القط وغيره من الحيوانات ــ بأن الحركات العشوائية الفاشلة التى يقوم بها الحيوان تزول بالتدريج وببطء في محاولاته المتكررة ، كما يتناقص الزمن اللازم لخروجه أيضا لكنه تناقص غير ثابت أو منتظم ، أى أن سلوك الحيوان لا يتحسن



شكل (١٠)



شكل (١١)

تدسنا مطردا • وقد جرت العادة فى أمثال هذه التجربة أن تسجل نتائجها فى صورة رسم بيانى يسمى « منحنى التعلم » • وهو رسم يبين الصلة بين عدد المحاولات التى قام بها الحيوان وبين الزمن [1] اللازم لفتحه الباب (أنظر شكل ١٢) •

تحليل هذا الموقف التعلمى :

١ — يلاحظ أن القط كان حيال موقف جديد لم يسبق له أن خبره أى أنه كان حيال « مشكلة » •

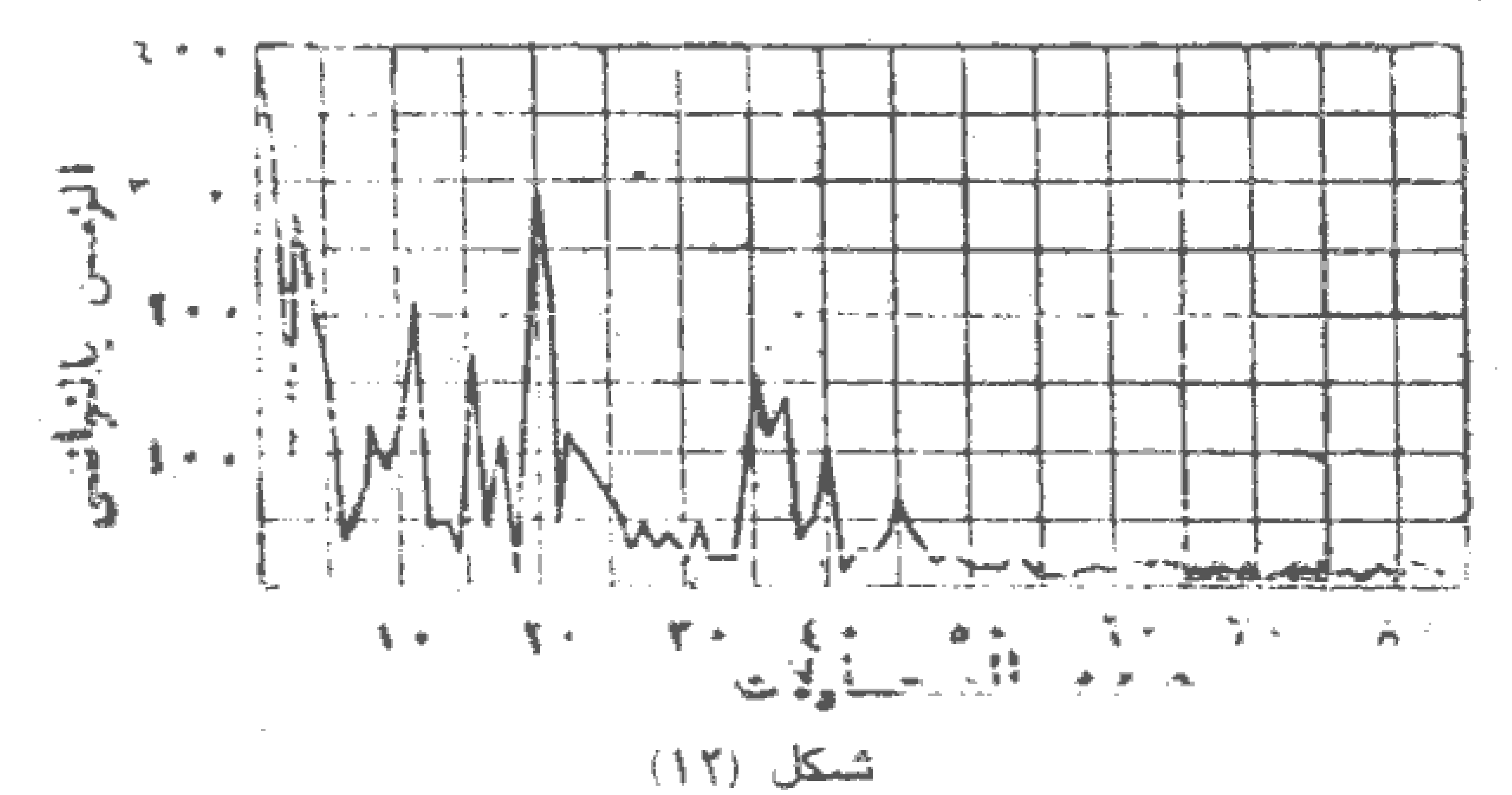
٢ — كما كان فى حالة جوع أى تحت تأثير دافع معين •

٣ — وقد اضطره الجوع الى القيام بعدد من الاستجابات للتغلب على المشكلة وازالة العائق ، وقد مضى فى محاولاته حتى نجحت

---

(١) الزمن بالثوانى لاحدى القطط : ١٦٠ — ٣٠ — ٩٠ — ٦٠ — ١٥ — ٢٨ — ٢٠ — ٣٠ — ٢٢ — ١١ — ١٥ — ٢٠ — ١٢ — ١٠ — ١٤ — ١٠ — ٨ — ٨ — ٥ — ١٠ — ٨ — ٦ — ٦ — ٧ .

احداها فأشبع الحيوان دافعه ، أي أن التعلم تم نتيجة للنشاط الذاتي للحيوان .



شكل (١٢)

منحنى التعلم لقط من قطط ثورنديك . وفيه يتضح تناقص الزمن بتكرار المحاولات لكنه تناقص غير منتظم . ففي المنحنى ارتفاعات بعد انخفاضات . وهذا ما جعله يعتقد أن الحيوان يتخبط في تعلمه .

٤ — كما يلاحظ أن الاستجابة الناجحة تثاب وتدعم اذ يظفر الحيوان بعدها مباشرة بالطعام .

نتائج ثورنديك :

من هذه التجارب وأمثالها بدأ ثورنديك يتساءل : هل يتعلم الحيوان عن طريق التفكير ، أي استخدام الأفكار ، أم عن طريق التخبط الأعمى والتعبيث [1] الذى لا يقوم على الملاحظة والفهم وادراك العلاقات ؟ غير أنه ما لبث أن استبعد الفرض الأول لأن منحنيات التعلم تدل على تحسن تدريجي غير منتظم ولا تشير الى أن الحيوان قد انتقل انتقالا فجائيا من حالة الجهل الى معرفة حل المشكلة ، فلو كان الحيوان يتعلم عن طريق التفكير لاستطاع أن يحل المشكلة سريعا حين تعاد عليه التجربة ؛ كما استبعد أيضا أن الحيوان يتعلم عن طريق المحاكاة . فقد دلت تجارب قام بها على أن القطط والقردة لا تستطيع أن تفيد من خبرة حيوان آخر يعرف حل المشكلة ويقوم بهذا الحل أمامها بل تلجأ الى التخبط حين توضع في هذا

(١) التعبيث هو أن يطلب المرء الشيء بيده قبل أن يبصره .

الموقف نفسه • لذلك وصل الى النتيجة الآتية : وهى أن الحيوان لا يتعلم عن طريق الملاحظة والتفكير بل عن طريق التخبط الحركى الأعمى الذى تزول فيه الحركات الفاشلة بطريقة آليةتدريجية عمياء وتثبت الحركات الناجحة حتى يأتى الحل مصادفة واتفاقا • وقد سمى هذا التعلم بالتعلم عن طريق المحاولات العمياء [1] أو التعلم بالمحاولة والخطأ لأنه يتلخص فى محاولة عدة طرق أغلبها خاطىء •

ولم تقتصر تجارب ثورنديك على الحيوانات فقط بل أجرى فيضا من التجارب المنوعة على الانسان وخرج منها بأن التعلم بالمحاولة والخطأ ليس وقفا على الحيوان ، فالانسان يتعلم المهارات الحركية ، كلعبة التنس ، لا عن طريق التفكير والفهم والاستبصار بل عن طريق استجابات حركية منوعة تزول منها الخاطئة وتثبت الناجحة •

وقد ترتب على مقارنة خطوط التعلم عند الانسان بخطوط التعلم عند الحيوان ان اقتنع بأن الصفة الالية التى تهيمن على تعلم الحيوان هى أساس تعلم الانسان أيضا • ومع أنه لا ينكر أن تعلم الانسان أكثر دقة وأبعد مدى من تعلم الحيوان الا أنه كان يميل ميلا شديدا الى تفسير التعلم المعقد بالتعلم البسيط ، والى مضاهاة الصور البسيطة من التعلم الانسانى بتعلم الحيوان • فليس التفكير عند الانسان الا مجموعة عادات آلية تتكون عن طريق المحاولة والخطأ • وقد يختلف التفكير عن النشاط الآلى فى الظاهر لكنهما يتشابهان من حيث الأساس •

وقد أراد ثورنديك أن يصوغ نظريته هذه فى قالب فسيولوجى فقال ان التعلم الانسانى والحيوانى يتلخص فى تكوين روابط فى الجهاز العصبى بين الأعصاب الحسية التى تتأثر بالمثيرات وبين الأعصاب الحركية التى تحرك العضلات فتؤدى الى الاستجابة الحركية •

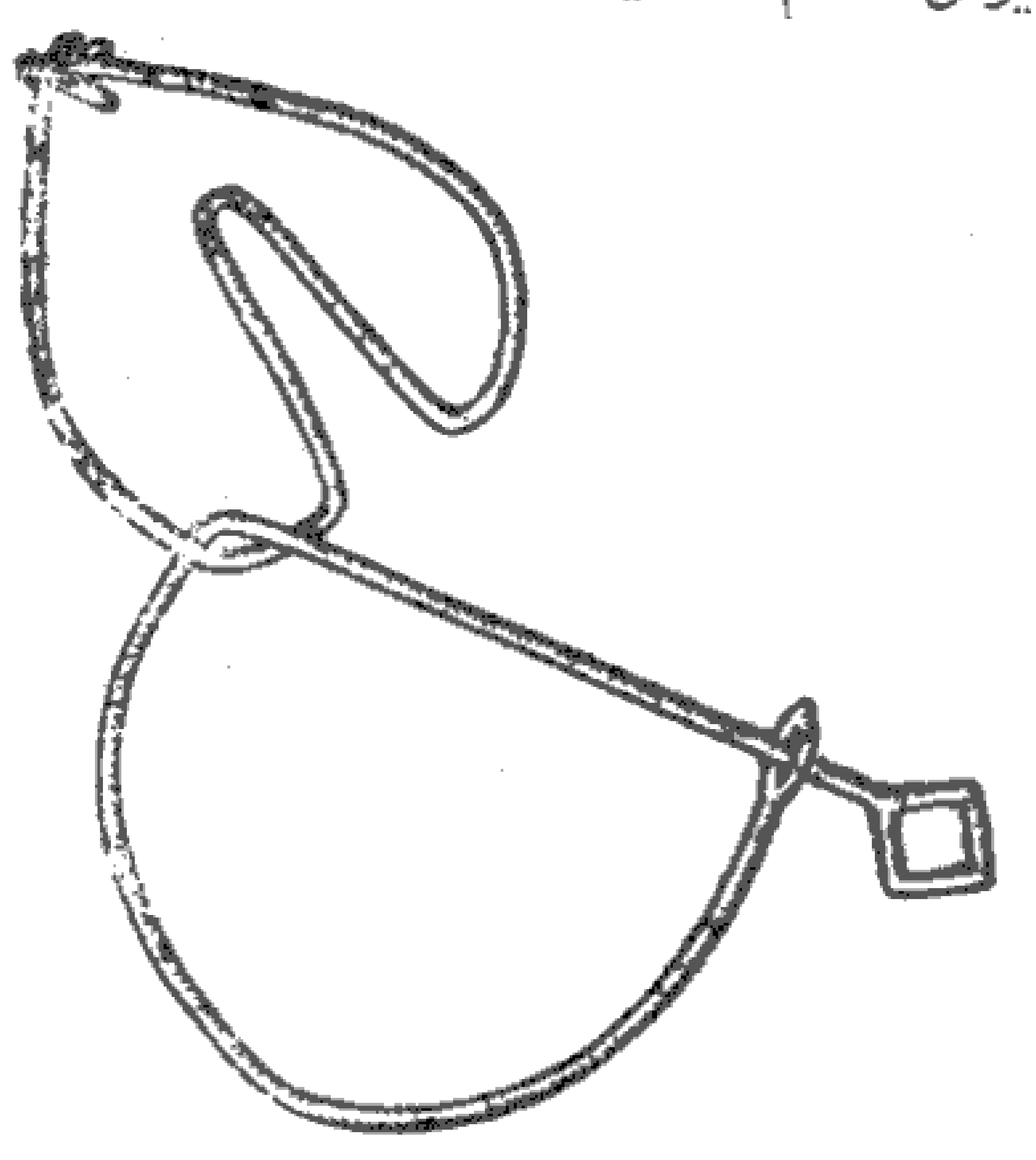
موجز هذه النظرية أن التعلم عند الانسان والحيوان يحدث عن طريق المحاولات والأخطاء ، ويتلخص فى ترابط آلى بين مثيرات واستجابات •

---

(1) يرى بعض علماء التعلم الشرطى مثل « كلارك هل » أن هذه المحاولات عشوائية الى حد كبير ، بينما يرى « جيتس » أنها غير عشوائية لكنها محاولات منوعة .

المحاولة والخطأ عند الانسان :

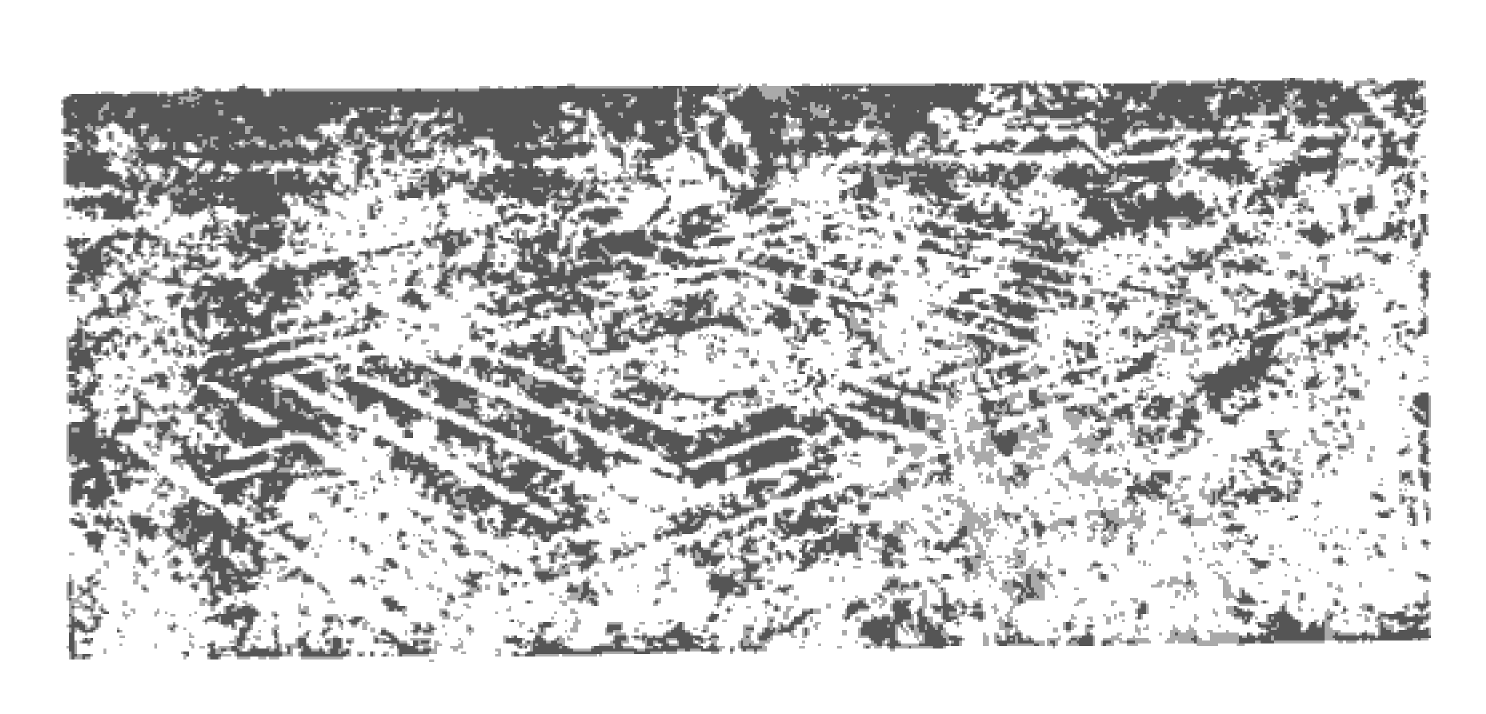
ترى هل يتعلم الانسان حقا بالمحالات العمياء التى يراها ثورنديك أساس تعلم الحيوان ، أم أنه يختلف عنه وما هو وجه الاختلاف ؟



شكل (١٣)

ولما كان من المحرج وضع انسان فى قفص بعد تجويعه فالمتبع أن يعطى لغزا ميكانيكيا ليحله . ومن الألغاز التى تستخدم حلقتان من السلك متداخلتان (انظر شكل ١٣) لا يمكن فصل احداهما عن الأخرى الا اذا كانت كل منهما فى وضع خاص . تدل الملاحظة على أن الانسان يبدأ فى العادة بمحاولات عشوائية كثيرة يبدو أنها لا تختلف عن تخبطات القط المحبوس فى القفص . فاذا به يندفع فى شد الحلقتين وجذبهما وتقليبهما فى كل اتجاه ، واذا به يكرر أحيانا نفس الحركات الخاطئة عدة مرات . وقد يأخذه الانفعال فيزداد تخبطه وتزداد حركاته بقدر ما تقل ملاحظته . غير أن الملاحظة الدقيقة تبين أن سلوكه هذا لا يخلو من شىء من التفكير : لأننا نراه يتوقف بين حين وآخر ليتأمل وضع الحلقتين ويفحصهما كأنه يبحث عن مفتاح يحل به هذه المشكلة المستغلقة . وحتى ان اتفق له أن يقع على الحل مصادفة — فلم يفهم مفتاح الحل — ثم أعدنا عليه التجربة لم يسرف فى التخبط كما فعل فى المرة الأولى ، بل نراه قد أفاد من محاولاته وملاحظاته السابقة فلم يعد يكرر كثيرا من أخطائه : بل

أخذ يركز انتباهه فى الأوضاع التى يرجح أنها كانت السبيل الى حل المشكلة ٠ وهكذا يقترب من الحل الصحيح أسرع بكثير من الحيوان ٠ ولا ننسى أن الانسان يستخدم فى هذه الحالة أسلحة لا توجـد لدى الحيوان ، منها اللغة ٠ فباللغة يسـتطيع الانسان عقـد حديث مع نفسه ٠ وتحليل محاولاته وتذكرها ٠ هذا الى ما لديه بطبيعة الحال من قدرات أضخم على التصور والملاحظة والتذكر والتفكير ، وما ينعم به من قدرة على ضبط النفس تحد من اندفاعه وتهوره بما لا يقاس الى الحيوان ، ثم ما يتميز به من مهارة يدوية فائقة ٠



شكل (١٤)

الفـأر فى المتاهة : من الوسائل الأخرى التى تسـتخدم لدراسة التعلم عند الحيوان ، أن نضعه — وهو جائع أو عطشان [١] — عند مدخل متاهة maze مرتفعة الجدران ، وقد وضع طعامه أو شرابه عند مخرج المتاهة ٠ وتتكون المتاهة من عدة دهاليز متداخلة بعضها مسدود والآخر مفتوح ، وعلى الحيوان أن يجد طريقه الصحيح الى نهايتها للظفر بما يشبع دافعه (أنظر شكل ١٤) ٠ والحيوان المفضل فى هذه التجربة هو الفأر الأبيض ٠ لقد لوحظ أن الفأر يجرى خلال الدهاليز أول الأمر بصورة عشـوائية ، وكثيرا ما يعود الى الجرى فى دهاليز خاطئة أو مسدودة ٠ ثم يظل فى تخبطه هذا حتى يقع على الطعام آخر الأمر مصادفة ٠ غير أنه لوحظ أنه بتكرار المحاولات يوما بعد آخر ، تقل أخطاؤه تدريجيا ، ويقل تلكؤه فى الدهاليز المسدودة ، حتى انه ليتردد بعد عدد من المحاولات فى أن يلجهـا ، وأخيرا يمر بها دون

---

(١) يجوع عادة ٢٤ ساعة قبل كل محاولة .

آن يلتفت اليها .. وبعبارة أخرى لقد تعلم الفأر شيئا ما . كما لوحظ أننا اذا عرضناه لصدمة كهربية وهو يسير فى دهليز مسدود تجنب السير فيه على نحو أسرع .

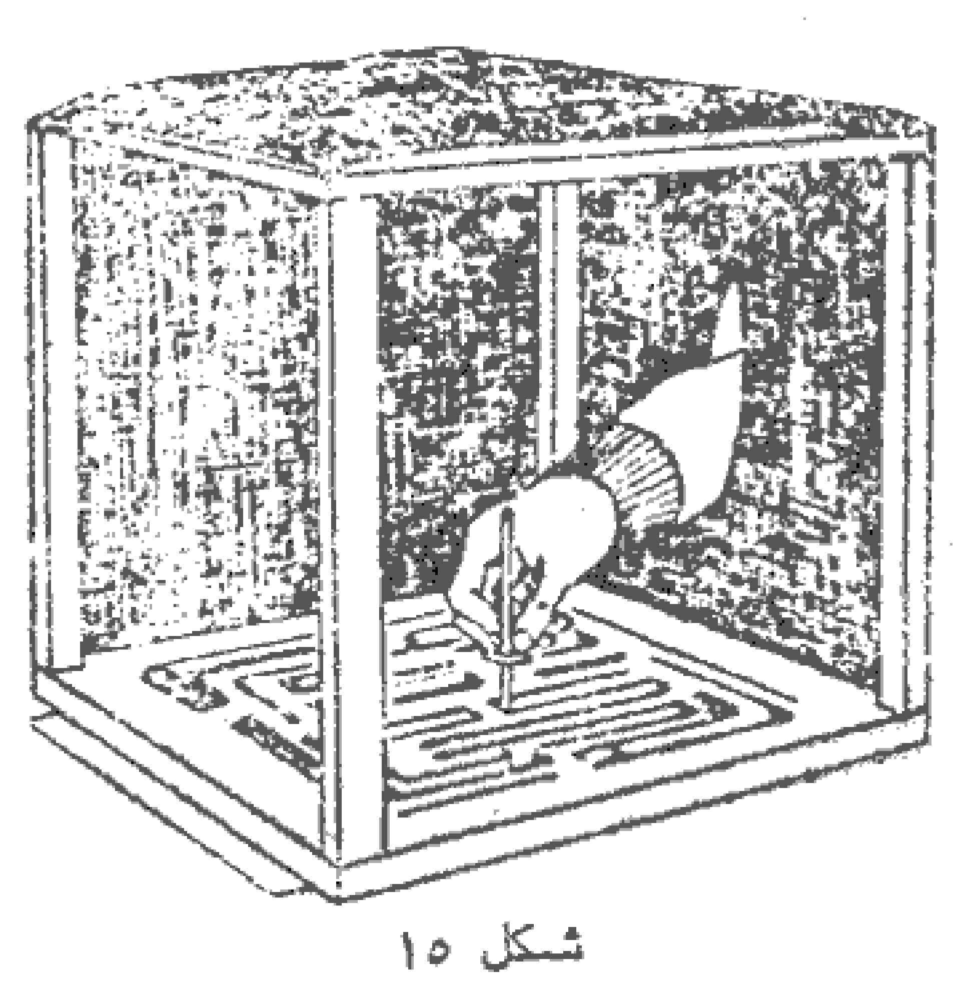
تقول المدرسة السلوكية الميكانيكية لمنشئها « وطسن » ان التعلم فى هذه الحال كان نتيجة لترابط آلى متسلسل بين مثيرات واستجابات عضلية . غير أن هذا التفسير لا يلبث أن ينهار حيال التجربة الآتية : فقد صنعت متاهة خاصة وغمرت دهاليزها بالماء بحيث تضطر الفأر الى أن يسبح فيها حتى يصل الى طعامه أى يستخدم حركات وعضلات مختلفة عن الحركات التى كان يقوم بها فى المتاهة العادية . فكان الفأر المدرب يتبع نفس الطريق الصحيح الذى تعلمه من قبل . مثل الفأر فى هذه الحال كمثل كلب كسرت احدى سيقانه ، فهل يعجز عن الذهاب الى بيته ؟ . انه لا يزال يتعرف بيته فيذهب اليه جبريا على سيقانه الثلاث الباقية . وفى هذا ما يدل على أن ما تعلمه الفأر ليس مجرد حركات آلية متسلسلة . فماذا يتعلمه الفأر اذن ؟ . يبدو أنه يكون فكرة عامة غامضة عن المتاهة من حيث هى وحدة وكل ، وأنه يدرك بعض العلاقات بين أجزاء المتاهة ، دهاليزها المسدودة والمفتوحة وجدرانها واتجاهاتها وزواياها والطعام والرائحة المنبعثة منها والأصوات التى تصدر عن وقع أقدامه ، ويحاول تحديد هذه الأجزاء جميعها فى المتاهة فيكون مثله كمثل شخص يهبط لأول مرة مدينة كبيرة لا يعرفها . فاذا به يأخذ فى تحديد ما يراه من شوارع وحارات ومفترقات ومسافات وعلامات مميزة بما يعينه على بلوغ المكان الذى يقصده ، كما يهتم بتمييز بعضها عن البعض تبعا لبعض علاماتها التى تثير انتباهه ، حتى تصبح المدينة بالتدريج مكانا مألوفا . وبعبارة أخرى لا تكون حركات الفأر آلية عمياء ، بل يحكمها ويسيطر عليها اداركه وانتباهه الى المعالم التى يكتشفها تدريجيا وتمييزه بين الدهاليز المسدودة والمفتوحة . على هذا النحو تقل أخطاؤه رويدا رويدا بتقدمه فى التدريب حتى تزول . وبعبارة أخرى لا يكون التعلم فى هذه الحالة آليا أعمى ، بل تعلم يهتدى بالانتباه وادراك العلاقات والتمييز ولا يخلو من الملاحظة والفهم والاستبصار .

---

(١) مما يذكر أننا لو ادرنا المتاهة بمقدار ١٨٠ درجة اضطرب الحيوان اضطرابا شديدا ولجأ الى كثير من التخبط ، والمرجح ان يكون ذلك نتيجة لتغير المنبهات خارج المتاهة كضوء الحجرة ، والتى كان يتخذها علامات مميزة يهتدى بها .

على هذا النحو أيضا يتعلم الحمر أن يعود وحده من الحقل كل مساء الى منزل صاحبه . ويستطيع الحمام الزاجل أن يعود الى مأواه الأول بفضل طائفة من المعالم تراها عيناه الحادتان .

الانسان والمتاهة : تستخدم للتجريب على الانسان متاهات مرسومة على الورق ، أو من قطع من المعدن بها أخاديد تقوم مقام الدهاليز فى متاهات الحيوان . وعلى الشخص المفحوص أن يمر بقلم معدنى فى هذه الأخاديد حتى نهاية المتاهة ، بحيث لا يرى المتاهة أو يكون معصوب العينين (أنظر شكل ١٥) . وقد أسفرت هذه التجارب بدورها عن عدة فوارق يتميز بها تعلم الانسان عن تعلم الحيوان . من ذلك ان الراشد يكون أكثر أناة وروية وأقل اندفاعاً من الحيوان . كما أنه يحاول تجنب الممرات المسدودة حين يكتشفها حتى لا يقع فى الخطأ مرة أخرى . يضاف الى هذا أنه يستعين باللغة فى تعلم



شكل ١٥

المتاهة . فهو يقول لنفسه مثلا « مرة الى اليمين ثم مرتين الى اليسار ثم مرتين الى اليسار أيضا » مما يثبت فى ذهنه التفاصيل وخط المسير . ويشير التأمل الباطن الذى يقوم به المفحوصون الى ما يتعلمه الشخص فى المتاهة : فقد قال أحدهم انه يعرف الاتجاه العالم نحو الهدف بعد محاولة أو اثنتين ، وأنه بعد محاولات أخرى يلاحظ المعالم البارزة للطريق الصحيح ، وأنه يتعرف هذه المعالم حين يعود اليها مرة أخرى فيعرف أنه يسير فى الطريق الصحيح . وسرعان ما يحفظ هذه المعالم التى تكون بمثابة موجهات تهديه الى بلوغ

هدفه • وهنا يجب أن نشير الى ما يتميز به الانسان عن الحيوان من قـدرة كبيرة على التذكر والاسترجاع • فالانسان بعد أن يتعلم المتاهة يستطيع أن يعمل لها رسـميا تخطيطيـا يبين فيه الطـريق الصحيح الى الهدف فى حين أننـا لا نسـتطيع أن نثبت أن الفـأر يستطيع أن يتذكر شيئا عن المتاهة بعد خروجه منها •

٨ ــ دور المحاولات والاخطاء فى التعلم

تراءى لنا مما تقدم أن التعلم بالمحاولة والخطأ يبعد أن يكون ــ عند الحيوانات الثديية وخاصة عند الانسان ــ مجموعة من استجابات عشوائية صرفة أو تخبطا أعمى محضا أى لا صلة له بالهـدف الذى يرمى الفرد الى بلوغه ، بل هو محاولات لا تخلو من التنظيم والادراك والتمييز • وقد دلت التجارب على أنه تعلم يتـراوح بـين التلمس التدريجى الى التخبط الأعمى • فهناك استجابات تتضمن فهما جزئيا مقترنا بمحاولات عمياء ، وأخرى يبلغ فيها التخبط ذروته ويكون التحسن فى التعلم تدريجيا وفيه لا يفهم الفرد بوضوح كيف يحدث التحسن • انه نوع من التعـلم يلجأ اليه الانسـان والحيـوان حين تعوزهمـا الخبرة أو المهارة أو الذكاء لحل مشاكلهما خاصة حين تكون غامضـة أو معقدة يكون الطريق فيها الى الهدف خافيا مستغلقا •
هنا يحاول الفرد استجابة بعد أخرى حتى يقع على الحل الصحيح •

وهو نوع شائع من التعلم لدى الحيوانات الدنيا ، وربما كانت لا تعرف غيره حين ترتطم بمشكلة : فلو وضعنا حيوانـا هـدبيا من النقعيات Infusoria : وهو حيوان ذو خلية واحدة يعيش فى الماء لو وضعناه فى جفنه ساعة بها ماء وأضفنا الى الماء نقطة من حامض ، بدأ الحيوان يتكيف للبيئة الجديدة بحركات عمياء تبدو فى ابتعاده عن الحامض ثم اقترابه منه ثم دخوله منطقة الحامض وهكذا •• وكل تغير فى حركاته يعدل من اتجاهه بعض التعديل • ومن المحتمـل أن يخرج من المنطقة الخطرة عن طريق المصـادفة المحض • هـذا هو التخبط الأعمى الصريح عند حيوان لم تبزغ لديه وظيفة الذاكرة بعد •

كما أن الطفل يفضله على التأمل المتئد والتفكير لأن ذلك يتطلب منه جهدا كبيرا وضبطا للنفس لايقدر عليهما • بل يلجأ اليه الراشد فى حالات

الانفعال أو حين تستعصى المشكلة عليه من كل طريق . كما أنه أساس اكتساب العادات والمهارات الحركية كتعلم السباحة والتنس والعزف على آله والكتابة على الآلة الكاتبة أو القفز على حاجـز .. اذ ليس فى وسع انسان أن يعرف أية مجموعات من الانقباضات العضلية يتعين عليه القيام بها لأداء الافعال اللازمة . فالطفل الذى يحاول أن يسير على حافة الرصيف لا يعـرف على التحقيق شـيئا عن الشروط النظـرية للتوازن ، لكنه يكرر الحركات التى تجعله يحتفظ بتوازنه ويتجنب تلك التى تؤدى الى سـقوطه ولا يفهم السبب فى قيـامه ببعض هـذه الحركات .. كذلك الحال فى التدريب الصناعى حـين يأخذ العـامل المبتدىء فى التمرن على استخدام الأدوات المختلفة كالمطرقة أو المخرطة أو المثقاب .. وعن طريق المحاولة والخطأ أيضا يتعـلم المريض أو الجريح تجنب الحركات المؤلمة أثناء مشيه أو نومه .

وقد تكون المحاولات والأخطاء صريحة ظاهرة كجـرى الفـأر فى متاهة ، أو أن تكون مضمرة باطنة تحدث بأسرها فى الذهن كما فى حل مسألة حسابية ، أو تكون خليطا من محاولات ذهنية وحركية كمـا هى الحال فى حل الألغاز الميكانيكية .

نستطيع الآن تعريف التعلم عن طريق المحاولة والخطأ بأنه نوع من التعلم يستجيب فيه الفرد للمعالم العامة للموقف بمحـاولات كثيرة منوعة ، ثم تزول الاستجابات الفاشلة تدريجيا وتثبت الاستجابات الناجحة حتى يقع على الحل . أو هو تعلم يتلخص فى نشاط ارتيادى عشوائى فى ظاهره لا يسبقه تخطيط وغالبا ما يكون المرحلة الاولى فى كسب المهارات والتكيف للمواقف الجديدة .

وهو يختلف عن التعلم عن طريق الملاحظة والفهم والاستبصار كما سنرى بعد قليل ، غير أن هـذا لا ينفى أن كلا النـوعين من التعلم يشتركان معا فى حل المشكلات والتكيف للجديد .

٩ ــ كيف تؤدى المحاولات والاخطاء الى التعلم

قانون التكرار Law of Exercise :

تصف لنا المحاولات والأخطاء سلوك الفرد أثنـاء التعلم لكنهـا لا تفسره . فهى لا تبين لنا السبب فى زوال الأخطاء وثبات الحـركات

الناجحة • وقد كان ثورنديك يرى أول الأمر أن « التكرار » يقوى الروابط العصبية بين المثيرات والاستجابات ويسهل حدوث السلوك فأداء عمل معين يسهل أداءه في المرات التالية ، ويقلل أيضا من احتمال الخطأ في أدائه في حين أن الترك وعدم الاستعمال والتكرار يضعف هذه الروابط • لكن سرعان ما ظهر أن عامل التكرار لا يفسر عملية التعلم ، فالحيوان يكرر الحركات الخاطئة أكثر بكثير من الحركات الناجحة أى التي تقود الى الهدف ، ومع هذا فالذى يثبت هو الحركات الناجحة • وفي هذا ما يدل على أن تكرار عمل معين أقل أهمية من النجاح فيه • كما دلت تجارب أخرى على أن التكرار وحده لا يكفي للتعلم • من ذلك أن المحاولات المتكررة التى يقوم بها شخص معصوب العينين لرسم خط مستقيم طوله ١٠ سم بالضبط لم تؤد الى تحسن في الأداء مهما بلغ عدد مرات التكرار • أما اذا أخبرنا هذا الشخص بنتيجة رسمه بعد كل محاولة فذكرنا له أن الخط أطول أو أقصر من ١٠ سم ، أدت به هذه المعرفة بنتائج عمله الى تحسن ملحوظ •• فاستنتج ثورنديك من ذلك أن التكرار وحده لا قيمة له ، وأن التعلم لابد أن ينطوى على عامل آخر يقوى الرابطة في حالة النجاح ويضعفها في حالة الفشل • وقد صاغ هذا العامل الجديد في صورة قانون سماه « قانون الأثر » •

قانون الاثر Law of effect :

يتلخص هذا القانون في أن الفرد يميل الى تكرير السلوك الذى يصحبه أو يتبعه ثواب ، كما ينزع الى ترك السلوك الذى يصحبه أو يتبعه عقاب• فالاستجابة الناجحة في موقف معين تقترن بحالة من الرضا والارتياح والسرور ، وهذا من شأنه تقوية الرابطة بين المثير والاستجابة الناجحة بما يؤدى الى تثبيت هذه الاستجابة وتذكرها واطراد حدوثها حين يتكرر الموقف ، أى أن النجاح يدعم الاستجابة• في حين أن حالة عدم الرضا والارتياح التى تنجم عن فشل استجابة معينة تقلل من احتمال حدوث هذه الاستجابة مرة أخرى •

يتضح من هذا أن التعلم لا يحدث دون ثواب أو عقاب • ففى تجارب الفأر والمتاهة كان وجود الطعام في نهاية المتاهة بمثابة ثواب ، وكانت الصدمة الكهربية التى يتعرض لها حين يمر في دهليز مسدود بمثابة

عقاب . كذلك الحيوان أو الصياد يعود الى المكان الذى وجد فيه طعاما أو صيدا ، ويتجنب المكان الذى وجد فيه خطرا أو لم يجد فيه رزقا . ومنذ أقدم العصور كان الآباء والمربون يثيبون السلوك المرغوب الذى يريدون تعليمه لأبنائهم ويعاقبون السلوك المرذول الذى يريدون منهم تركه فالثواب يجعل الفرد يختار ويكرر الاستجابة الصحيحة. والعقاب يجنب الفرد الاستجابة المخطئة أو يجعله يتركها الى غيرها . غير أن الثواب والعقاب هنا يأتيان بعد الاستجابة لا قبلها كما فى التعلم الشرطى التقليدى .

غير ان ملاحظات وتجارب كثيرة قام بها ثورنديك وغيره دلت على أنه بينما يؤدى الثواب دائما الى تكرار السلوك المثاب ، اذا بالعقاب نتائجه غير مؤكدة وغير مضمونة ،فقد لا يمنع من معاودة الخطأ بل قد يؤدى الى رسوخه . وتلك حال الاطفال الذين لا يستمعون الى نصائح آبائهم أو مدرسيهم بالرغم من تكرار عقابهم ، أو حال الاطفال المشكلين — كالذين يهربون من البيت أو يقضمون أظفارهم على الدوام أو يتبولون تبولا لاارادياً اذ لا يزيدهم العقاب الا نشوزا أو حال المازوخيين الذين يعانون من حاجة لا شعورية الى عقاب النفس (ص ١٣٨) . وهكذا اضطر ثورنديك الى التخلى عن النصف الثانى من قانون الأثر .

غير أن هذا لا يعنى أن العقاب لا أثر له فى التعلم ، اذ لاشك فى أن الطفل الذى لسعه موقد النار يتعلم أن يتجنب هذا الموقد وغيره ، وأن الصدمة الكهربية التى تصيب القط الجائع وهو يكاد يثب على فأر تجعله ، متى تكررت ، يتجنب هذا السلوك ، بل يعنى أن للعقاب ظروفا وشروطا يجب مراعاتها حتى يكون مثمرا فى عملية التعلم . وهى ظروف وشروط سنعالجها فى الفصل التالى . وبعبارة أخرى فقانون الأثر فى صورته الاصلية لا يزال صحيحا .

١٠ — التعلم الشرطى الاجرائى

من التجارب النموذجية التى توضح قانون الأثر تجربة العالم الأمريكى « سكنر » Skinner وتسمى صندوق سكنر . وتتلخص

فى صندوق صغير ذى غطاء زجاجى ولا يحتوى الا على وعاء صغير وقضيب من المعدن بجوار الوعاء • وخارج الصندوق آلة ان دارت أسقطت قطعا صغيرة من الطعام فى منحدر يصل الى هذا الوعاء الصغير قطعة فى كل مرة • وهى تدور ان وقع ضغط على قضيب المعدن •• يوضع فأر جائع فى الصندوق فيأخذ فى ارتياده واستطلاع أنحائه واللعب بمحتوياته . فان اتفق أن ضغط على القضيب مصادفة دارت الآلة فهبط عليه الطعام فبادر الى التهامه (ثواب) . وسرعان ما يتعلم أن يضغط على القضيب كى يظفر بقطع أخرى من الطعام اذ أن ما يأكل منه فى المرة الواحدة لا يكفى لاشباع جوعه • وقد لوحظ أن الفأر ان تكرر ضغطه على القضيب دون أن يهبط اليه الطعام كف عن الضغط ، أى انطفأت استجابته • وفى هذا ما يدل على أن الطعام « ثواب » يدعم الاستجابة ويثبتها ويقويها . فى حين أن الحرمان من الطعام « عقاب » يتضاءل بالاستجابة ويطفئها ••وقد استخدم هذا الصندوق نفسه بعد تعديله لاجراء تجارب على القردة والشمبانزى والاطفال •

ويرى سكنر وغيره أن التعلم حدث فى هذه الحال عن طريق الاشراط الاجرائى . وهو نوع من التعلم يشبه الاشراط التقليدى لبافلوف من نواح ويختلف عنه فى أخرى • فكلاهما يتلخص فى اكتساب استجابة شرطية . هى سيل اللعاب عند سماعه الجرس فى تجارب بافلوف ، وضغط الفأر على القضيب فى تجربة سكنر • وفى كليهما ثواب وتدعيم ، لكن هذا التدعيم (الطعام) حدث قبل الاستجابة الشرطية فى تجارب بافلوف ، فى حين أنه حدث بعدها فى صندوق سكنر • أما الفوارق بينهما فكثيرة من أهمها أن الاستجابة الشرطية المكتسبة فى تجربة سكنر وهى الضغط على القضيب استجابة مجزية « اجرائية » أى تؤدى بالفعل الى اثابة هى الظفر بالطعام ، أما فى تجارب بافلوف فالاستجابة المكتسبة الشرطية وهى سيل اللعاب ليست مجزية أى لا تؤدى بأية حال الى الطعام مهما سال لعاب الحيوان • وبعبارة أخرى فاذا كان الاشراط التقليدى يتلخص فى اكتساب استجابة شرطية هى نفسها الاستجابة الاصلية (سيل اللعاب) ، فالاشراط الاجرائى يتلخص فى تعلم استجابة شرطية (الضغط على القضيب) تختلف عن الاستجابة الاصلية (الاكل) وتكون وسيلة الى الهدف وهو الطعام • فى الحالة الأولى يدرك الفرد شيئا (سماع الجرس) فيظفر بالطعام ، وفى الحالة الثانية يعمل الفرد شيئا

ليظفر بالطعام • الفارق الثانى هو أن الاستجابة فى الاشراط الاجرائى استجابة ارادية كتحريك اليدين أو الجسم ، فى حين أن الاستجابة فى الاشراط التقليدى غالبا ما تكون استجابة لاارادية كافراز اللعاب أو سحب اليد نتيجة صدمة كهربية •

ومن ناحية أخرى لو أمعنا النظر لوجدنا أن صندوق سكنر يشبه قفص ثورنديك الى حد كبير • ففى كليهما محاولات واخطاء تسبق الحل ، وفى كليهما يعمل الحيوان شيئا ليظفر بالطعام • غير أن صندوق سكنر أبسط من قفص ثورنديك فلا يتيح للحيوان مجالا كبيرا للتخبط، لذا يتم التعلم فيه بسرعة ، لكنه يتبع نفس الخطوات :

رؤية القضيب أو رؤية أكرة الباب (مثير شرطى) ـ الضغط على القضيب أو ادارة الاكرة (استجابة شرطية) ـ الظفر بالطعام (مثير اصلى) ـ الأكل (استجابة أصلية) •

من هذا يتضح أن التعلم بالمحاولات والاخطاء ما هو آخر الأمر الا ارتباط مثير شرطى باستجابة شرطية اجرائية •

مبادىء الاشراط الاجرائى :

تنطبق أكثر مبادىء الاشراط التقليدى على الاشراط الاجرائى • فعن طريق الاشراط الاجرائىيكتسب الانسان والحيوان عادات كثيرة ويقلعان عن عادات أخرى • من ذلك ان الاستجابة الشرطية يجب أن تدعم لتبقى والا انطفأت • وقد رأينا الفأر ان تكرر ضغطه علىالقضيب دون أن يهبط اليه الطعام كف عن الضغط (مع مراعاة أن التدعيم هنا يأتى بعد السلوك لا قبله كما فى الاشراط التقليدى) • ثم أنظر الى الرضيع وهو يتعلم الرضاع من ثدى أمه ، تره يحل هذه المشكلة كما تعلم فأر سكنر حل مشكلته على وجه التحديد • فالرضيع يقوم أول الأمر بحركات عشوائية توجهها أمه الى حد ما ، حتى يضع فمه فى الثدى فيشبع دافع الجوع كما ضغط الفأر على القضيب فأشبع جوعه •• كذلك يتعلم سلسلة من الحركا تمستخدما الاشراط الاجرائى لارضاء حاجاته الجسمية الأخرى •• والطفل ان اتفق له أن يضع اصبعه فى فمه فوجد لذة فى مصه مال الى تكرار هذا السلوك وسرعان

ما تتكون لديه عادة مص الاصبع •وان اتفق له أن يلمس شيئا حارا فسرعان ما يتعلم أن يبتعد عنه •

أما فيما يتصل بانطفاء العادات والاقلاع عنها عن طريق العقاب ــ أى التدعيم السلبى ــ فيكفى أن نذكر أننا اذا عرضنا فأرا ذكرا لصدمة كهربية فى كل مرة يقترب فيها من فأرة أنثى فسرعان ما يتجنب الاقتراب من اناث الفيران •• ومدمن الخمر يبدأ فى النفور من شربها ان قدمناها له عدة مرات وقد مزجت بعقار يثير عنده قيئا عنيفا •• والطفل الذى يمص أصابعه قد يقلع عن هذه العادة السيئة ان دهنا أصابعه بمادة مرة •

وعن طريق التدعيم أى الثواب أو العقاب والتعميم تتكون أغلب اتجاهاتنا النفسية نحو الناس والأشياء وكذلك عاداتنا الخلقية كالصدق والامانة والكذب والقسوة ••• فهى تتكون تدريجيا فى مواقف خاصة واحدا بعد الآخر ثم يمتد أثرها الى مواقف أخرى •

ويبدو مبدأ التمييز فى حالة الطفل الذى يرى سلوكا معينا يحوز رضاء والديه فيميل الى تكريره مع الغير أى تعميمه على المواقف المشابهة ، لكنه كثيرا ما يرى أن السلوك الذى ينال استحسان والديه ــ أى يدعم تدعيما ايجابيا ــ يقابل بالاعراض والاستهجان من الغير ــ أى يدعم تدعيما سلبيا ــ وهنا يضطر الطفل الى أن يتعلم التمييز أى أن يتصرف مع البعض بسلوك خاص ومع الآخرين بسلوك مغاير •

١١ ــ نظرية التدعيم : كلارك هل

قدمنا أن « بافلوف » كان يرى أن كل تعلم تعلم شرطى • وقد أثارت هذه الفكرة كثيرا من الجدل النظرى والبحوث التجريبية أدت جميعها الى تعديلات مختلفة فى نظرية بافلوف الأصلية • ومن أشهر النظريات التى لا تزال تقول بوجود عملية تعلم واحدة ، والتى تلاقى قبولا كبيرا هى نظرية العالم الامريكى « كلارك هل » C. Hull (١٨٨٤ ــ ١٩٥٢) •لقد استعرض هذا العالم دراسات من سبقه ومن عاصره من علماء التعلم الشرطى : التقليدى والاجرائى . وحاول التحقق مما أكدته وابراز ما أغفلته •

يرى « هل » أن التعلم عند الانسان والحيوان هو اكتساب عادات آلية تعين الفرد على التكيف للبيئة ، وتتكون هذه العادات من الارتباط الشرطي بين مثيرات واستجابات تكرارا يقترن بالتدعيم • كما يرى ان مبدأ « الغرضية » لا مجال له فى عملية التعلم ، وهو المبدأ الذى ينص على أن الأغراض علاوة على المثيرات تقوم بدور هام فى تعيين السلوك وتوجيهه أثناء التعلم • ويذهب « هل» الى أنه يوم يتسنى لنا أن نعرف بدقة كيف يتم الارتباط بين الاستجابات المكتسبة والمثيرات التى أثارتها سوف نستطيع أن نبسط هذه المعرفة لتشمل كل تعلم مهما كانت درجة تعقيده •

ونظرية « هل » تفسر جميع حالات التعلم بمبدأ واحد هو مبدأ التدعيم • فالتدعيم شرط ضرورى وشرط كاف لحدوث التعلم • فان لم يوجد دافع وتدعيم استحال التعلم • ولقد أشرنا من قبل الى أن التدعيم هوتقوية الرابطة بين المثير والاستجابة • ويرى « هل » وكثير غيره أن التدعيم ينشأ عن كل ما يخفض التوتر الناجم عن دافع مثار ، فطريا كان هذا الدافع أم مكتسبا ، أى أنه ينشأ من استعادة التوازن الذى اختل نتيجة لاستثارة الدفع • أما العامل الذى يدعم فيسمى بالمدعم وهو ما نسميه عادة بالثواب كالطعام الذى يظفر به الحيوان بعد جوع[1] • وقد رأينا من تجارب بافلوف أن التدعيم نشأ عن تقديم الطعام للكلب قبل الاستجابة بافراز اللعاب، لكنه أى التدعيم ، فى تجارب ثورنديك على القط المحبوس فى قفص ، نشأ عن ظفر القط بطعامه بعد الاستجابة الصحيحة وهى فتح باب القفص ، وقد فسره ثورنديك بقانون الأثر •

وتذهب هذه النظرية أيضا إلى أن الدوافع نوعان ، فطرية أولية ، وثانوية مكتسبة • فالاولية هى ما سبق أن اسميناها الحاجات الفسيولوجية كالحاجة الى الطعام والشراب والنوم والجنس وتجنب الألم الجسمى • أما الدوافع الثانوية فهى مثيرات تكتسب صفة الدوافع لاقترانها المتكرر بالدوافع الاولية كالدوافع الاجتماعية بما تجتويه من ميول واهتمامات وقيم ، وكالحاجة الى التقدير والتشجيع والرغبة فى

---

(١) كثيرا ما يطلق اصطلاح التدعيم ايضا على العامل الذى يدعم .

جمع المال . وكالقلق والخجل . وكالخوف الذى يشتق ويكتسب من الألم الجسمى . ومنها أيضا المثيرات التى تبشر بارضاء الدافع كصوت الجرس السابق للطعام أو منظر الطعام أو رائحته أو الاناء الذى يوضع فيه •

وعلى هذا يكون هناك نوعان من التدعيم . الأولى والثانوى • فالأولى هو ما ينتج عن ارضاء دافع أولى . والثانوى هو ما ينتج عن ارضاء دافع ثانوى • فتناول الطعام يؤدى الى تدعيم أولى . وكذلك تجنب فأر المتاهة صدمة كهربية ان دخل دهليزا مسدودا اذ أنه يقوى استجابة التجنب عنده • أما صوت الجرس المقترن بالطعام أو رؤية الطعام قبل أن يوضع فى الفم •• فمدعمات ثانوية تتخذ قيمة الثواب وان كانت لا ترضى الجوع مباشرة •

ومبدأ التدعيم عند « هل » يصدق على كل من التدعيم الذى يتبع الاستجابة (ثورنديك) والذى يسبقها (بافلوف) • ان ثورنديك يبدو أنه يرى أن الاستجابة سبب والتدعيم نتيجة لها ، لذا فهو يفسر التعلم بقانون سماه قانون الاثر أى النتيجة • لكن التدعيم وهو الاكل فى تجارب بافلوف يسبق الاستجابة وهى افراز اللعاب ، أى أنه ليس نتيجة لها ومن ثم لا يمكن تفسيره بقانون الاثر • على أن « هل » يرى أن التدعيم يجب أن يشمل الحالتين • وبعبارة أخرى فمبدأ التدعيم عنده يفسر كلا من التعلم الشرطى التقليدى والتعلم بالمحاولة والخطأ لانه يرى أن العلاقة بين الاستجابة الصحيحة والتدعيم ليست علاقة سبب بنتيجة ، بل علاقة اقتران وتلازم ليس غير • فمجرد اقتران الجرس بالطعام وبافراز اللعاب ينقل أثر التدعيم أى الثواب الى الجرس (تدعيم ثانوى) ، فتتكون الرابطة بين سماع الجرس وافراز اللعاب •

ثم يوفق « هل » بين بافلوف وثورنديك مرة أخرى • فبينما يؤكد الأول أهمية الاقتران الزمنى فى تكوين الاستجابة الشرطية أكثر من اهتمامه بارضاء الدوافع والحاجات . وبينما يؤكد ثورنديك أهمية الأثر السار المريح فى تكوين وتقوية الاستجابة الشرطية ، اذا بـ « هل » يؤكد أثر الاقتران الزمنى المتكرر المصحوب بأثر سار مريح • فهو لم لم يهمل قانون التكرار كما فعل ثورنديك ، ولم يهمل عامل الأثر كما فعل

بافلوف . بل ينص على أن تكوين العـــادة ، أى الرابطة بين المثير والاستجابة وقوتهـــا يتوقفان على عدد مرات التكرار المقترن بتدعيم فان تكررت الاستجابة الشرطية دون تدعيم أو بتدعيم سلبى تضاءلت حتى تنطفىء •

غير أن «هل» يختلف مع بافلوف الذى يرى أن الفسيولوجيا . وليس علم النفس ، هى التى تستطيع تفسير عملية التعلم ، كذلك يختلف معه اذ يرى أن الاشراط كما وصفه بافلوف ليس الا حالة خاصة من التعلم لا يفسر معظم أنواع التعلم المعروفة ، ذلك أن التدعيم الأولى لايقوى الرابطة الشرطية بين المثير والاستجابة اذا زادت الفترة الزمنيـــة بين المثير الشرطى والاستجابة الشرطية على ٣٠ ثانية ، وهذا لا يتوافر فى معظم أنواع التعلم عند الانسان • وعلى هذا فالـــذى يفسر أغلب حالات التعلم عند الانسان هو التدعيم الثـــانوى الذى يتلخص فى خفض التوتر الناشىء عن دوافع ثانويةكالحاجة الى التقدير والتشجيع بالالفاظ والمكافآت والرغبة فى جمع المال ••

هذه بعض الملامح الرئيسية لنظرية تعتبر من أعقد وأفضل عمليات التعلم فى الوقت الحاضر • فقد شرحها صاحبها فى ستة عشر مسلمة وعرضها عرضـــا منطقيا دقيقا محبـــوك الأطراف وأقامها على أسس تجريبية مستخدما الاحصاء فى شرحها وتفسيرها ، مما لا يحتمله كتاب مبدئى فى علم النفس • وحسبنا أن نشير الى أنه أكد أهمية الدوافع والتدعيم فى عملية التعلم كما لم يؤكده عالم آخر من علمـــاء التعلم الشرطى ، هـــذا فضلا عن جهوده فى التوفيق بين النظريات الاشراطية المختلفة •

مبدأ التدعيم وقانون الاثر : يؤكد ثورنديك كما قدمنا أهمية الاثر السار المريح فى تقوية الرابطة بين المثير والاستجابة الناجحة بما يؤدى الى تثبيتها وتكريرها (قانون الاثر) • لكن هذا القانون لا يفسر لنـــا لماذا نعـــاود ونكرر السلوك الذى يوصلنا الى تحقيق رغباتنا وأمانينا مهما لا قينا فى سبيل ذلك من مشقة وألم ؟ أو لماذا يمضى الطفل فى قضم أظافره فى عنف ، ويكرر هذا السلوك كلما ارتطم بمشكلة ، مـــع

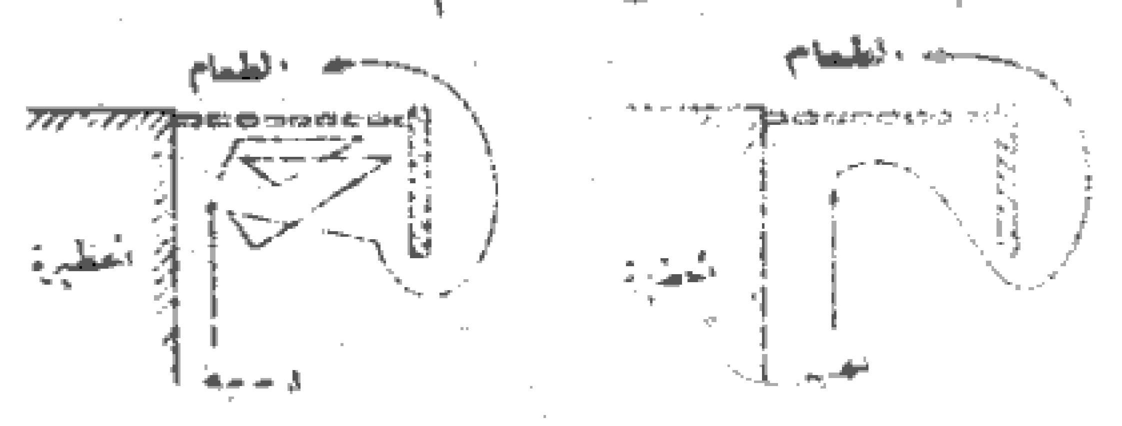
ما يصحبه سلوكه هذا من ألم جسمى ونفسى ؟ أو لماذا يستمر المصاب بعقدة ذنب ، أى الذى يعانى من حاجة لا شعورية الى عقاب نفسه ، فى تكرير الحوادث التى تضر بصحته أو بسمعته أو بماله أو عمله ؟٠٠ الملاحظ فى هذه الأمثلة وغيرها أن السلوك يستهدف خفض ما لـــدى الفرد من توتر وقلق نشأ من دافع مثار أو دافع مكبوت ٠ وهذا يدعونا الى اعادة النظر فى مفهومى الثواب والعقاب حتى يصبح قانون الاثر أكثر تمشـــيا مع الواقع ٠ فيكون الثـــواب اذن هو كل ما يؤدى الى خفض التوتر والقلق عند الفرد حتى أن اقترن بالألم ،ويكون العقاب هو كل ما يؤدى الى زيادة التوتر حتى ان كان غير مؤلم ٠ فارغام طفل على تناول طعام لا يسيغه نوع من العقاب ٠ هنا يكون الثواب مرادفا للتدعيم الايجابى والعقاب مرادفا للتدعيم السلبى ، فتجنب فأر المتاهة صدمة كهربية تصيبه ان دخل دهليزا مسدودا يمكن اعتباره نوعا من الثواب يدعم استجابة التجنب عنده وافلات التلميذ دون عقاب من ذنب ارتكبه كالغش مثلا نوع من الثواب يشجعه على تكرار الغش ٠ والطالب الذى يتعين عليه أن يختار بين كليتين فى الجامعة ، وهو فى حيرة وتردد شديدين ، ان قطع فى الامر واستراح ، تكون راحته هذه نوعا من الثواب تدعم هذا القرار وتثبته فى نفسه ، والعامل المستجد الذى يتدرب على آلة جديدة ان ظل يتدرب دون أن يعرف هل يتقدم ويتحسن فى تدريبه أم يتأخر ، كان جهله مصدر قلق وتوتر لديه ، فان عرف استراح ، فكانت هذه الراحة حافزا له على التقدم فى تدريبه ٠

ومع أن مبدأ التدعيم وقانون الاثر يصفان نفس الظـــواهر الا أن بعض العلماء يفضلون استخدام الاول على الثانى لان مفهوم التدعيم كما رأينا أوسع من مفهوم الأثر ٠ ذلك لأن الأثر لا يتحتم أن يكون على الدوام سارا مريحا ٠ ثم أن مفهوم التدعيم أكثر موضوعية من مفهوم الأثر لأنه لا يتضمن الاشارة الى الحالة الشعورية للمتعلم خاصـــة ان كان حيوانا ٠٠ هذا جدل مفيد يؤدى الى زيادة الدقة فى اســـتخدام المصطلحات ، لكنه يهم الباحث النظرى أكثر مما يهم طالب علم النفس من الناحية العملية ٠

١٢ ـ نظرية التعلم بالاستبصار

عابت مدرسة الجشطلت على ثورنديك أن الاقفاص التي كان يستخدمها فى تجاربه لا تسمح للحيوان باظهار قدرته على التعلم ، لأن المزاليج والأكر والأزرار وغيرها من مفاتيح الأقفاص مخبوءة خافية بحيث لا يستطيع الحيوان معالجتها الا عن طريق المصادفة وهو يتلمس الخروج من مأزقه ، فى حين أن الاختبار الصالح لقياس القدرة على التعلم يجب أن تكون جميع عناصره واضحة ماثلة أمام عينى الحيوان ؛ فان كانت لديه قدرة على الملاحظة وادراك العلاقات تسنى له أن يحل المشكلة بغير هذا التخبط الذى تفرضه طبيعة المشكلة. لذا اجرى أتباع هذه المدرسة تجارب تفادوا فيها هذا العيب ــ أجروها على الطيور والأسماك والأرانب والقطط والقردة والأطفال . وكان من أبرعها تلك التجارب التى أجراها « كهلر » Koehler على القردة العليا .

فمن الاختبارات الواضحة البسيطة التى استخدموها أن يضعوا الحيوان الجائع أمام عقبة بطبيعة الحال ــ فى قفص مؤخره غير مغلق وواجهته من قضبان يستطيع الحيوان أن يرى من خلالها طعاما (شكل ١٦) . من هذا الشكل يتضح لنا الى أى حد يختلف سلوك الدجاجة عن الكلب فى حل هذه المشكلة . فالكلب لم يلبث أن قام بحركة التفاف [1] بمجرد ولوجه القفص دون تردد أو تريث أو اندفاع الى الأمام للوصول الى الطعام ، فى حين أن سلوك الدجاجة



شكل (١٦)

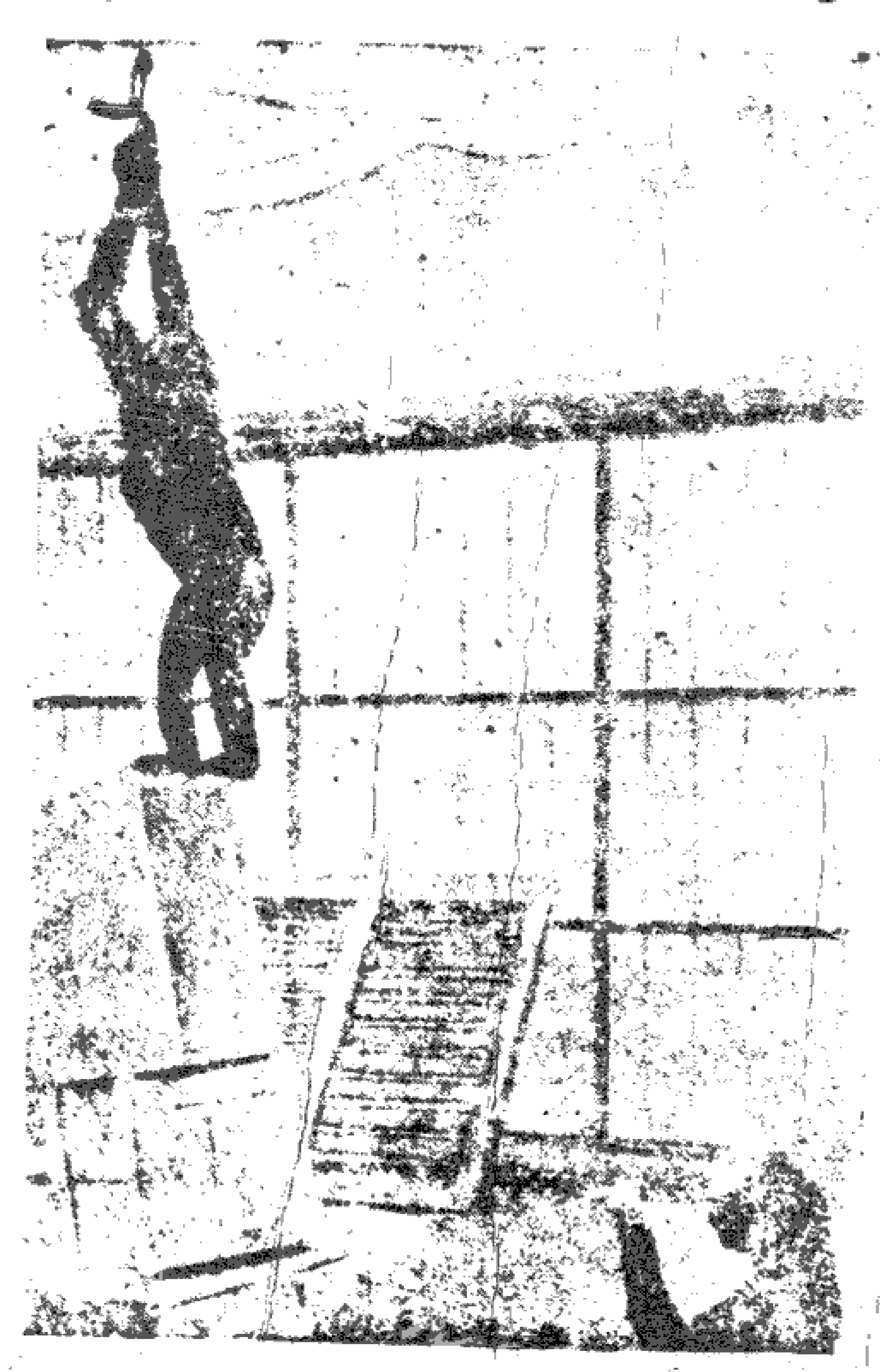
يبدو فيه التخبط والمحاولات العمياء والاندفاع المباشر للنفاذ من واجهة القفص . ولو أعدنا التجربة وجدنا الدجاجة تظل فى تخبطها

(١) من العسير جدا على الحيوانات الدنيا القيام بحركات الالتفاف اى الابتعاد عن الهدف بغية الوصول اليه لأنها تعنى أن الحيوان تغلب على اندفاعه الغريزى . وهذه المشكلة يسهل على كبار الكلاب حلها الا اذا كانت فى حالة جوع شديد . هنا يجذبها الطعام بقوة تعميها عن رؤية حلول اخرى ممكنة .

ولكن بدرجة أقل منه فى المرة الأولى . أما الكلب فيدو من سلوكه أنه لاحظ وأدرك على حين فجأة العلاقة بين الوسيلة والهـدف ، بين حركة الالتفاف والظفر بالطعام . وهذا يأذن لنا أن نستنتج أنه حل المشكلة حين لاحظ أن الطريق المباشر الى الطعـام لا يجدى ـ هذا الحـل الفجـائى للمشـكلة الذى يقوم على الملاحظة وادراك العـلاقات هو التعلم بالاستبصار .

تجارب كهلر على الشمبانزى :

من تجارب هذا العالم أنه وضع أحد القردة العليا ، وهو جائع ، فى حظيرة يتدلى من سقفها بعض ثمرات الموز مما لا يستطيع الحيـوان

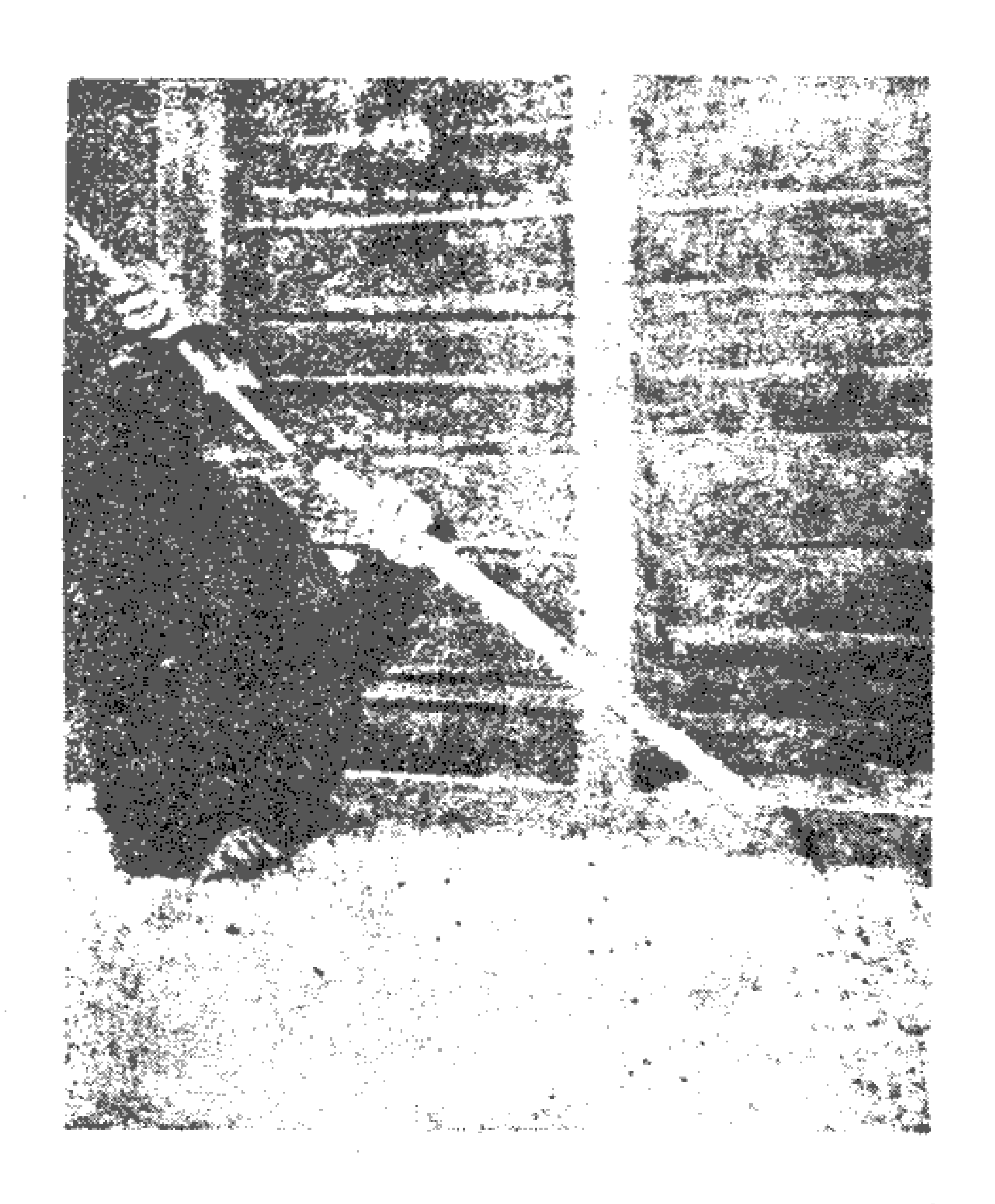


شكل (١٧)

الوصول اليه بذراعه أو بالوثوب اليه • وكان بالحظيرة عدة صناديق فارغة تقع فى مجال ادراك الحيوان (أنظر شكل ١٧) • فبدأ الحيوان بمحاولات كثيرة للوثوب لم تنته بالنجاح طبعا ، وكان يستسلم بعدها ويرتد الى مؤخرة الحظيرة غضبان أسفا ، وعلى حين فجأة اندفع الى أقرب صندوق وأخذ يزيحه حتى أصبح أسفل الموز ثم وثب عليه فلم يفلح فى بلوغ غايته ، فبدت عليه مظاهر اليأس والانفعال • وعلى حين فجأة اندفع الى صندوق آخر وأخذ ينظر اليه تارة والى الموز طورا ، ثم دفعه دفعة خفيفة ، ثم عاد ينظر الى الموز مرة أخرى ، حتى اذا ما أصبح الصندوق قاب قوسين أو أدنى من مسقط الموز حمله فوضعه على الصندوق الأول ، ثم وثب عليهما لكنه لم يوفق ، فأعاد محاولاته الفاشلة واعتراه الانفعال ، حتى انتهى الى وضع صندوق ثالث ، ثم وثب عليها جميعا واستولى على غنيمته فرحا بها وجديرا بها أيضا •• الحق أنه اكتشف « مبدأ » لا يقل فى روعته عن مبدأ الوصول الى القمر بصاروخ ذى عدة مراحل ! لكننا يجب ألا ننسى أنه بدأ معالجته للمشكلة عن طريق المحاولات والأخطاء الصريحة ••

ومما يجدر ذكره أن الصناديق ان كانت بمنأى عن مجال ادراك الحيوان ازدادت المشكلة صعوبة أو تعذر عليه حلها •

واليك تجربة أخرى أجراها العالم نفسه على الشمبانزى «سلطان» أذكى ما لديه من القردة العليا ، ولم يفلح فى حل المشكلة من بينها غيره • وضع سلطان فى حظيرة واجهتها من قضبان حديدية ، ووضع خارج الحظيرة ثمرات الموز مما لا يستطيع القرد بلوغه بذراعه ، وكان بداخل الحظيرة ، وفى مجال ادراك الحيوان ، قصبتان احداهما طويلة والأخرى قصيرة • وكل منهما لا تكفى وحدها لبلوغ الموز ان اتخذها القرد أداة لجذبه ، فلبث القرد أكثر من ساعة يجرب كل قصبة بمفردها ويفشل بطبيعة الحال ، حتى يأس واستسلم وارتد الى مؤخرة الحظيرة • ثم أخذ يلعب بالقصبتين ، وبينما هو كذلك اذا بطرف قصبة يلج فى طرف الأخرى ، عن طريق المصادفة فيما يبدو . عندها وثب القرد على التو الى واجهة الحظيرة وأخذ يستخدم هذه القصبة المركبة فى جذب الموز ، وبينما هو كذلك اذ انفصلت القصبتان



شكل (١٨)

احداهما عن الاخرى فسارع الى وصلهما (أنظر شكل ١٨) . وظفر سلطان بالموز عن استحقاق يتفق مع « فخامة » اسمه • لكنه لم يقف ليأكل الموز . بل طفق يجذب بأداته المبتكرة أشياء أخرى مُلقاة على الأرض وقد بدت على وجهه أمارات الفرح والرضا كما يفرح الانسان بمسألة حلها أو اختراع وفق اليه • فلما أعيدت عليه التجربة فى اليوم الثانى لم يلبث غير بضع ثوان ثم شبك القصبتين كما فعل بالأمس • بل لقد استطاع فى تجارب تالية أن يركب قصبة طويلة من ثلاث قصبات قصار • ومما يجدر ذكره مرة أخرى أن القصبات ان لم تكن فى مجال ادراك الحيوان ازدادت المشكلة صعوبة أو تعذر عليه حلها •

مفهوم الاستبصار insight

الاستبصار عند مدرسة الجشطلت هو الادراك الفجائي أو الفهم الفجائي لما بين أجزاء الموقف الأساسية من علاقات لم يدركها الفرد من قبل ، وذلك أثناء محاولات وأخطاء تطول أو تقصر • أو هو الحل الفجائي للمشكلة سواء سبقته أم لم تسبقه محاولات وأخطاء • والاستبصار دليل على أن الفرد فهم المشكلة وعرف ما يجب عمله لحلها • ومما يدل على أن الحل جاء عن طريق الاستبصار فى التجارب السابقة :

١ ـ أن الحيوان انتقل انتقالا فجائيا لا تدريجيا من محاولاته الفاشلة الى استخدام القصبة المركبة • فالتحسن فى التعلم بالاستبصار يحدث بصورة فجائية لا بصورة تدريجية كما فى التعلم بالمحاولات والاخطاء . ويبدو على هيئة انخفاض مفاجىء فى منحنى التعلم •

٢ ـ أن الحيوان حين أعيدت عليه التجربة لم يكرر المحاولات الفاشلة بل حل المشكلة فى بضع ثوان مما يدل على أنه فهم « سرها » ومفتاحها •

ومما يجدر ذكره أن عناصر الموقف ان لم تكن ماثلة فى مجال ادراك الحيوان ازدادت المشكلة صعوبة أو تعذر عليه حلها • فالقصبات ان كانت بعيدة لا تقع فى مجال ادراك القرد أو كانت فى مؤخرة الحظيرة فانه يجد صعوبة فى استخدامها أو لا يستخدمها حتى ان سبق له استخدامها من قبل، وهذا يدل على أن الحل حدث فى المجال الادراكى للحيوان • ويعبر الجشطلتيون عن ذلك بقولهم ان الحيوان أعاد تنظيم مجاله الادراكى فاستطاع أن يدرك بين أجزائه علاقات لم يكن يدركها من قبل • ومن المعروف أن الفرد ، انسانا أم حيوانا ، ان كان تحت تأثير دافع فى موقف معين تغير ادراكه لهذا الموقف وأخذ يستجيب بطرق جديدة . فالادراك كما قدمنا يوجه السلوك (ص ١٧٥) • وبعبارة أخرى فكل تغير فى السلوك لابد أن يكون مناظرا لتغير فى الادراك ، وكل تحسن فى التعلم لابد أن يكون نتيجة لزيادة فى تنظيم المجال الادراكى •

ومما يذكر بهذا الصدد أن مدرسة الجشطلت أكدت أثر الدوافع فى عملية التعلم توكيدا كبيرا • فالتعلم محاولة لحل مشكلة • والفرد ان واجهته مشكلة ظل فى حالة من التوتر حتى تحل المشكلة ويستعيد توازنه • فكأن التعلم صورة من صور استعادة التوازن Homeostasis

خصائص التعلم بالاستبصار

أجرى كثير من العلماء — من أتباع مدرسة الجشطلت وغيرهم — تجارب مختلفة على الحيوانات الدنيا والعليا وعلى الأطفال والراشدين فخرجوا منها بالنتائج الآتية :

١ — أن الاستبصار لا يتضح فى تعلم الحيوانات الدنيا اتضاحه فى تعلم الحيوانات العليا وخاصة القردة وذلك لما لها من قدرة أكبر على الملاحظة . كما أنه أظهر لدى الراشدين منه لدى الأطفال ، وأظهر لدى كبار الأطفال منه لدى صغارهم • وبعبارة أخرى تتوقف قدرة الفرد على التعلم بالاستبصار على مستوى ذكائه وكذلك على سنه وخبراته • ولا غرابة فى هذا فالذكاء عند مدرسة الجشطلت ضرب من الاستبصار •

٢ — كما دل الاستبطان على أن التعلم بالاستبصار تسبقه غالبا مرحلة من المحاولات والأخطاء الذهنية لدى الكبار من بنى الانسان ، وربما كان الأمر كذلك لدى الأطفال •

٣ — والفهم الذى يتضمنه الاستبصار قد لا يظهر على نحو فجائى كما تصرح مدرسة الجشطلت ، بل قد يكون هذا الفهم تدريجيا خاصة ان كانت المشكلة صعبة ، أما الاستبصار الفجائى فأجدر أن يسمى « بالالهام » Inspiration أو « الاشراق » Illumination •

٤ — أن الحل الذى يظفر به الفرد عن طريق الاستبصار فى موقف يفيد منه فى مواقف أخرى جديدة تختلف عن الموقف الأول بعض الاختلاف ، وهذا على خلاف التعلم عن طريق المحاولات والأخطاء • فالقرد الذى تعلم استخدام عصا للاستيلاء على ثمرات من الموز معلقة فى سقف حظيرته ، ان لم يجد العصا استخدم بدلا عنها أشياء تختلف عنها شكلا وحجما ولونا ومادة ، فقد يستخدم بدلا منها غصن شجرة أو لوحا من الخشب أو قضيبا من الحديد أو قصبة من الخيزران ، كأنه اكتشف « مبدأ » • كما أنه يستخدم العصا نفسها للاستيلاء على أشياء أخرى غير الطعام ليست فى متناوله • وقد دلت تجارب على أن

الأطفال الذين استطاعوا الكشف عن مبدأ الحل فى موقف مشكل تسنى لهم الافادة من هذا المبدأ فى حل مشكلات مماثلة . وهذا ما يعرف بانتقال أثر التعلم .

١٣ ـ تعلم الانسان وتعلم الحيوان

مع أن مبادىء التعلم متشابهة ، كما رأينا ، عند الانسان والحيوان ، الا أن هناك فوارق جمة فى التعلم بينهما مما جعل قدرة الانسان على التعلم أكبر وأشمل منها عند الحيوان :

١ ـ دوافع الانسان الى التعلم وبواعثه أكثر عددا وأوسع مدى من دوافع الحيوان وبواعثه .

٢ ـ والانسان أدق فى الملاحظة ، وأقدر على التصور الذهنى والتذكر ، ورؤية العلاقات الهامة ، وما لديه من ذكاء لا يدانيه فيه أى حيوان .

٣ ـ وهو أقدر على ضبط انفعالاته وأبعد عن الارتباك والتخبط الحيوانى مما يتيح له توجيه طاقة أكبر الى حل مشكلاته .

٤ ـ ومن ميزات الانسان قدرته على استخدام الرموز : اللغة والاعداد والأشكال الهندسية .. كذلك قدرته على التخطيط واستنتاج المبادىء العامة ، ووزن الاحتمالات المختلفة فى ذهنه لا بحركاته .

٥ ـ هذا الى ما لديه من مهارة يدوية يبز بها أى حيوان آخر .

وقد رأينا أن كلا من الانسان والحيوان يكتسب مهارات حركية ويتعلم حل مشكلات تتطلب الالتفاف حول الهدف واستخدام أدوات .. وذلك عن طريق المحاولات والأخطاء الحركية الظاهرة وعن طريق ادراك العلاقات الهامة أى الاستبصار أحيانا . أما الانسان فأقدر على كسب المهارات وحل المشكلات عن طريق المحاولات والأخطاء الذهنية والاستبصار .

١٤ — الموقف الحاضر من عملية التعلم

هل هناك عمليات تعلم مختلفة أم عملية واحدة لها مظاهر مختلفة ؟ يميز بعض العلماء النظريين بين أنواع مختلفة من التعلم كالتعلم الحركي واكتساب المعلومات ، ويرى أحد هؤلاء أن هناك ستة أنواع مختلفة من التعلم • ومن ناحية أخرى هناك آخرون مثل بافلوف واتباعه يرون أن هناك عملية تعلم واحدة ، فكل تعلم عندهم تعلم شرطى •

وفى مقابل الترابطيين الاشراطيين الذين يرون أن التعلم عند الانسان والحيوان ترابط آلى بين مثيرات واستجابات ، ترى مدرسة الجشطلت أن التعلم عند الانسان والحيوان لا يتم عن طريق ترابط آلى ، أو بمحاولات وأخطاء عمياء ، بل عن طريق الاستبصار أى عن طريق الملاحظة والفهم وادراك العلاقات ، أى تنظيم المجال الادراكى• فعملية التعلم عملية غرضية ارتيادية ابتكارية قوامها الفهم والتنظيم •

الواقع أنه ليس لدينا اليوم فى علم النفس نظرية واحدة تفسر مختلف أنواع التعلم ، بل هناك أكثر من نظرية . بل خلاف حتى بين النظريات المتعددة التى تنطوى تحت مدرسة واحدة كاختلاف النظريات الاشراطية المتعددة فى كيفية حدوث التعلم الشرطى •

وقد يرجع هذا الخلاف الى أن التعلم عملية شديدة التنوع لأنها تتصل بكل تغير يطرأ على أفعالنا وأفكارنا وحالاتنا النفسية الشعورية واللاشعورية ، كما أنها على درجة مختلفة من التعقيد ، كما قد يرجع الى اختلاف المواقف التعلمية التى يدرسها العلماء ويجرون عليها التجارب ، ثم محاولة تعميم التفسير على مواقف من نوع آخر •

ونشير أخيرا الى أنه يجب التمييز بين طرق التعلم ونظريات التعلم • فهناك التعلم عن طريق الاشراط ، والتعلم عن طريق المحاولات والأخطاء ، والتعلم عن طريق الاستبصار • وغالبا ما تشترك هذه الطرق بعضها مع بعض فى ضروب التعلم المعقدة كتعلم لعبة الشطرنج أو قيادة سيارة أو الأسلوب العلمى فى التفكير • وبعبارة أخرى فطرق التعلم ليست متمانعة أو متنافية ، وهذا على خلاف النظريات التى تزعم كل واحدة منها أنها تفسر جميع صور التعلم •

الفصل الثالث

التعلم.. تطبيقاته

لم يقتصر البحث فى موضوع التعلم على التجريب على الحيوانات فى معامل علم النفس ، بل أجريت بحوث وتجارب كثيرة فى فصول الدراسة وفى ميدان الصناعة والتدريب المهنى وفى حلقات التوجيه والاصلاح الاجتماعى وفى ساحات القوات المسلحة .. وخرج الباحثون بعدة مبادىء تهيمن على عملية التعلم أيا كان نوعه : من التعلم الذى يستهدف حفظ قصيدة من الشعر الى تعلم ادارة مخرطة أو منشار كهربى ، ومن التعلم الذى يستهدف تحصيل المعانى والأفكار الى تعلم القواعد الخلقية والاتجاهات الاجتماعية .. هذه المبادىء ما هى الا قواعد تسهل عملية التعلم على المتعلم والمعلم جميعا ، أو هى بعبارة أخرى شروط للتعلم الجيد . ويقصد بالتعلم الجيد ذلك الذى لا يتطلب وقتا أطول مما يجب ، أو جهدا كبيرا لا داعى له ؛ وهو التعلم الذى لا يسارع اليه النسيان ، والذى يستطيع المتعلم استخدامه والافادة منه فى مواقف جديدة كثيرة .

١ ــ مبدأ الدافعية والتدعيم

يتعلم الانسان ان كانت لديه رغبة فى التعلم ، وكانت لديه القدرة على التعلم ، واتيحت له الفرصة للتعلم ، وقدم اليه الارشاد فيما يتعلم . غير أن القدرة والفرصة والارشاد لا تجدى جميعا ان لم يكن لدى المتعلم ما يدفعه الى التعلم . فلا تعلم بدون دافع . ذلك أن التعلم كما قدمنا هو تغير فى السلوك ينجم عن نشاط يقوم به الفرد ؛ والفرد لا يقوم بنشاط من غير دافع . لقد رأينا من التجارب التى تجرى على الحيوانات أن الحيوان لا يبدأ نشاطه التعلمى الا بتأثير دافع الجوع أو العطش أو الاستطلاع أو الهرب من قفص أو تجنب موقف مؤلم ، كذلك الحال فى تعلم الانسان السير فى متاهة أو حل لغز ميكانيكى ،

فقد يكون الدافع هنا مجرد الرضا من تعلم اليسير فى المتاهة ، أو كلمة تشجيع من المجرب . أو دافع الظهور والتغلب على العقبات . كمـا رأينا من قبل أن « التدعيم » يتوقف على الدوافع . فان كان الحيوان جائعا وجب اثابته بالطعام . وان عثوره على الطعام يحدد اختياره الطريق الصحيح فى المتاهة . فالتدعيم عامل اختيار .

فالدافع شرط ضرورى لكل تعلم . وكلما كان الدافـع قويا زادت فاعلية التعلم أى مثابرة المتعلم عليه واهتمامه به ، على أن نذكر أن الدافع ان زادت شدته على حد معلوم عطل التعلم . فالخوف الشديد من الفشل فى الامتحان قد يعطل الطالب عن التحصيل .

وقد أدى اهمال الدوافع والميول فى ميدانى التعليم والصناعة بوجه خاص . أدى الى نتائج سيئة أو خطيرة ، منها استخدام المتعلم أو المتدرب قدراته الى أدنى حد ، أو استخداما عقيمـا ، أو مسارعة التعب والملل الى نفسه . فمن الملاحظ أن تلاميذ المدارس ينفقون ثلاثة أعوام أو تزيد فى تعلم لغة أجنبية لا يتقنها أغلبهم ، مع ما دلت عليه الملاحظة من أن الجندى المتوسط فى الجيش الأمريكى يستطيع الحديث بلغة أجنبية فى بضعة أشهر ولا شك أن هذا الفارق الكبير يرجع بعضه الى أن الجيش يصطنع طرقا أفضل فى التعليم ، غير أن أغلبه يرجع فى أكبر الظن الى قوة الدافع لدى الجندى لأنه يستطيع أن يفهم وأن يلمس السبب الواقعى لدراسة اللغة وذلك على نحو أسرع وأسـهل من التلميذ الذى قد يرى أن تعلم اللغات مطلب تفرضه عليه برامج التعليم ليس غير . وكثيرا ما نخفق فى تعليم الأميين من الكبار القراءة والكتابة لأننا لم نخلق فى نفوسـهم الرغبـة فى التعلم قبل البدء فى تعليمهم . بل كثيرا ما نجد صعوبة فى تعليم الأطفال القراءة والكتابة للسبب نفسه . والملاحظ أن الموظف الذى يوعد بالترقية الى درجـة أعلى ان ظفر بشهادة معينة فى دراسة معينة ، الملاحظ أنه ينكب على الدراسة حتى يتمها فى وقت قصير . كذلك الفتاة التى تصبو أن تشغل وظيفة سكرتيرة سرعان ما تتعلم الكتابة على الآلة الكاتبة وتلخيص ما يملى عليها فى بضعة أسابيع . ودون هذه الدوافع الخاصة قد يتلكأ الموظف أو الفتاة فلا يتعلمان ما تعلماه الا بعد عدة سنين .

والدوافع ليست ضرورية لبـدء التعلم فحسب بل ضرورية أيضا للاسـتمرار فيه ولاتقانه وللتغلب على ما يعترضـه من صـعوبات وعقبات ولاستخدامه فى مواقف جديدة • ذلك أن الدافع القوى يزيد من اليقظة وتركيز الانتباه ، ويؤخر ظهور التعب ، ويحول دون ظهور الملل ، ويجعل المتعلم أكثر تقبلا لما يوجه اليه من نصح وارشاد كمـا يزيد من مثابرته وقدرته على مقاومة ضروب الاغراء •

وسندرس فيما يلى أثـر الدوافع والبواعث التالية : ١ ـ الثواب والعقـاب ، ٢ ـ المنافسـة ، ٣ ـ معـرفة المتعلم نتـائج تعلمه ، ٤ ـ تعمد التعلم •

الثواب والعقـاب

ان قانون الأثر الذى صاغه ثورنديك جعـل الدوافع تحتل مركـز الصـدارة فى عملية التعلم ، وقـد أدى ذلك الى الاهتمـام بقضـية الثواب والعقاب فى المدارس والاصلاحيات والسجون ، كما أدى الى اجراء بحوث تجريبية كثيرة فى هذا الموضوع • الواقع أن الناس من قبل قانون الأثر كانوا دائما يرون أن للعقاب شروطا يجب أن تراعى كى يكون مثمرا : منها أنه يجب أن يتلو الذنب مباشرة ، وألا يكون من الخفة بحيث لا يجدى ، أو من الشدة بحيث يشعر بالظلم ، أو من النوع الذى يجرح الـكبرياء ، ومنهـا أن الاسراف فى العقاب يذهب بقيمته ، كذلك الحال فى التهديد دون عقـاب •• ثم جـاءت التجارب تؤيد هذه الشروط وتزيد عليها • من ذلك :

١ ـ أن الثواب أقوى وأبقى أثرا من العقاب فى عملية التعلم ، وأن المدح أقوى أثرا من الذم بوجه عام • ومن التجارب التى تذكر بهذا الصدد أن كلفت مجموعات ثلاث من الاطفال تعلم بعض المسائل الحسابية ، وكانت الأولى تتعلم دون نقد أو تشجيع ، على حين كان المجرب يخبر أفراد المجموعة الثانية على الـدوام بمـدى تقـدمهم وتحسنهم ، أما المجموعة الثالثة فكان يقال لأفرادها أثناء التعلم أنهم أغبياء كسالى غير أكفاء • وقد أسفرت التجربة عن أن المجموعة الاولى كان تقدمها فى التعلم دون المجموعتين الأخـريين ، أما المجموعتـان الأخريان اللتان أثيبت احداهما وعوقبت الأخرى أثناء التعلم فقـد

ارتفع مستوى التعلم لديهما فى أول الامر ، لكن سرعان ما انحط مستوى المجموعة التى عوقبت انحطاطا ملحوظا فى حين ظل تقدم المجموعة التى أثيبت مستمرا موصولا • وفى هذا ما يشير الى أن أثر العقاب مؤقت لا يدوم •

٢ — أن الجمع بين الثواب والعقاب أفضل فى كثير من الاحوال من اصطناع كل منهما على حدة ، فيستخدم العقاب لكف السلوك المعوج حتى يستقيم فيثاب عليه الفرد ، فيكون العقاب فى هذه الحالة بمثابة ألم مؤقت فى سبيل لذة أكثر دواما • يعزز هذا ما لوحظ من أن كثير من نزلاء السجون لا يجدى فى تهذيبهم ما يبذل من مجهود مثبية ان لم يقترن ذلك بالتهديد بالعقاب ، وكل أب أو مرب يلمس ضرورة استخدام العقاب واللوم فى تطبيع الاطفال •

٣ — أن أثر الثواب ايجابى فى حين أن أثر العقاب سلبى ؛ لأن العقاب يحذر الفرد من أن يسلك سلوكا معينا فى موقف معين يجلب له الأذى والألم ، أو لأنه يخيف الفرد من شىء معين ، وذلك دون أن يرشده الى ما يجب عمله •

٤ — ومما وجده ثورنديك وغيره أن أثر الجزاء — ثوابا كان أم عقابا — يبلغ أقصاه حين يعقب السلوك مباشرة ، ولكن أثره يضعف كلما طالت الفترة بينه وبين السلوك • فلكى يكون الجزاء مثمرا يجب أن يكون عاجلا مباشرا ، أو على الاقل لا يكون متأخرا الى حد كبير — خاصة مع الاطفال • فخير الجزاء عاجله •

٥ — أن العقاب المعتدل المعقول مدعاة فى كثير من الاحيان الى أخذ الحيطة والحذر وتجنب الاخطاء ، أما العقاب الذى يجرح كبرياء الفرد أو الذى يتخذ شكل توبيخ علنى فنوع ضار عقيم من العقاب تزيد أضراره على فوائده اذ أنه قد يولد فى نفس المعاقب الكراهية أو الشعور بالنقص أو فقد الثقة بالنفس ومن التجارب التى تدل على الاثر النافع للعقاب المعتدل تجربة أجريت على مجموعتين كل منهما ٤٠ طالبا يتعلمون السير فى متاهة يدوية وكان المخطىء فى المجموعة الأولى يجازى على خطئه بصدمة كهربية خفيفة ، فى حين كان الخطأ فى المجموعة الثانية لا يعاقب عليه بشىء • وقد أسفرت النتيجة عن أن هذا العقاب

تعتدل أنقص عدد المحاولات اللازمة للتعلم بمقدار النصف ، كما أنقص الزمن اللازم للتعلم بمقدار ٣٠٪ ،وكان أفراد المجموعة الاولى أكثر حرصا اذ كان الزمن الذى يستغرقونه فى المحاولة الواحدة أطول من الزمن الذى يستغرقه أفراد المجموعة الثانية ، كما أنقص هذا العقاب العدد الكلى للأخطاء بمختلف أنواعها •• على أن هناك تجارب أخرى تدل على أن العمل الذى يراد تعلمه ان كان بسيطا والعقاب شديدا ، عرقل العقاب التعلم بدل أن يساعد عليه •

٦ — اتضح من بحث تجريبى دقيق أن الاطفال المنبسطين يضاعفون جهودهم عقب اللوم ، فى حين أن المنطوين يضطرب انتاجهم عقب اللوم • كما ظهر أيضا أن بطىء التعلم يحفزه الثناء أكثر من النقد ، فى حين أن النقد واللوم أجدى مع الموهوبين منه مع بطاء التعلم •

هذه التجربة الأخيرة توجه أنظارنا الى ضرورة مراعاة الفروق بين الأفراد فى توقيع العقاب • فالعقاب الذى يجدى مع المرأة قد لا يجدى مع الرجل ، والذى يجدى مع الطفل قد لا يجدى مع الكبير •

لكن ما بال الطفل يعاود ارتكاب الذنوب بالرغم من تكرار عقابنا اياه ؟ قد يعتبر الطفل ضربنا له نوعا من الثواب لو كان يؤول هذا الضرب على أنه مظهر للاهتمام به ان كان ظمئا الى اهتمامنا به ،أو ربما كنا نكثر من ضربه فى مناسبات مختلفة فاختلط عليه الامر فلم يعد يستطيع أن يميز بين الأعمال التى يعاقب عليها وبين غيرها ، واذا به أصبح يتقبل الضرب على أنه أمر عادى عليه أن يحتمله بحكم العادة، أو ربما كان على درجة كبيرة من عدم النضج العقلى يجعله يعجز عن الربط بين العقاب والممنوع . أو لعله يعانى من حاجة لا شعورية الى عقاب النفس . فاذا به يجد فى العقاب راحة ومفزعا يهرع اليه للتخفف من وخز ضميره .هنا تكون جاذبية الممنوع أكبر من ألم العقاب ؛ أو ربما كان يرتكب الخطأ مرغما مقسورا بدوافع مكبوتة لا سلطان له عليها . كالطفل المشكل •

المنافسة :

تلجأ بعض المدارس والجامعات الى اذكاء روح التنافس بين الطلاب لاستفزاز ما لديهم من دوافع الى التعلم وذلك ببذل العطاء والدرجات

والمكافآت للممتازين المتفوقين — وهم قلة قليلة فى العادة — وحرمان غيرهم من هذه الامتيازات أو اشعارهم بالتخلف والقصور • غير أن جمهرة كبيرة من المربين المحدثين لا يقرون التنافس على هذا الوجه ؛ اذ يرون أن التنافس بطبيعته يحمل فى ثناياه قدرا كبيرا من الكراهية المدمرة ، وبذا يكون عامل هدم وتحطيم للعلاقات الانسانية الطيبة فى الصف أو المدرسة بأسرها • بل يرون أنه لا يتمشى مع المثل الديمقراطية التى تنص على تكافؤ الفرص بين الناس ويرون الاستعاضة عنه بالقوة الدافعة التى تنجم عن العمل الجماعى المشترك والتعاون الديمقراطى اذ يشترك أفراد الجماعة فى انجاز عمل يرون فائدته وأهميته ، ويتضافرون طوعا لا كرها على اتمامه •

الواقع أن التنافس هو فى جوهره صراع يستهدف الانتصار والتفوق على الغير ، ويتضمن احباط نجاح الغير وجهوده أى يتضمن تعارض المصالح • وكثيرا ما يرى المتنافس فى منافسيه أعداء له ؛ أو على الاقل حجر عثرة فى سبيل تقدمه • على أن التنافس يصبح محقق الضرر وباعثا على الحسد والبغضاء وثبوط الهمة فى الاحوال الآتية :

١ — حين يكون من الشدة والعنف بحيث يؤدى الى اضطراب انفعالى لدى المتنافسين وسوء توافق اجتماعى بينهم •

٢ — حين يقوم بين أفراد متباعدين فى القوى والامكانيات بحيث يصبح الفوز وقفا على فئة قليلة من المتنافسين • اذ المرجح فى هذه الحال أن يكون التنافس ضارا بالكاسب والخاسر جميعا •

٣ — اذا ترتب على الاخفاق فى المنافسة ضياع احترام الفرد فى أعين زملائه أو غيرهم من الناس •

٤ — حين يكون التوكيد على الفوز واحتلال مركز الصدارة عنيفا ملحا بحيث يحول دون أى تعاون جماعى ويذهب بالقيمة الذاتية للتعلم • فحين يصبح الهدف الرئيسى من التنافس أن يكون الطالب أحسن زملائه أو أولهم ترتيبا يصبح ما دون ذلك مرادفا للفشل والاخفاق • فى هذه الحال لا تعود للتعلم قيمة فى ذاته بل يصبح مجرد وسيلة للانتصار أو الهزيمة • وبما أن الصفوة الممتازة من الطلاب يؤلفون فى العادة فئة قليلة فأغلب الطلاب مقضى عليهم بالفشل • بل ان مثل هذا الجو قد

يضطر الطالب الصادق الامين الى اصطناع الغش والخداع أو العمل على تحطيم جهود غيره •

فان كان لابد من التنافس فليكن التنافس الودود بين أفراد يتقاربون فى القوة ، أو ليكن التنافس الذاتى بين المرء ونفسه اذ يقوم بمقارنة انتاجه اليوم بانتاجه فى الأمس ، ومن ثم يستطيع تقييم عمله والكشف عما به من عيوب وأخطاء فيعمل على تجنبها وعلى تحسين نفسه بحيث يصبح فى الغد خيرا منه اليوم • ولنذكر أن الانسان لا يزعجه فشله فى التفوق على نفسه كما يزعجه فشله فى التفوق على منافس . خاصة ان كان خجولا أو ممن تثبط همتهم بسهولة • ولنذكر كذلك أن الحكم على الطالب بالقياس الى غيره فيه اعتداء على مبدأ الفروق الفردية فى القدرات والاستعدادات ، ذلك المبدأ الذى يجب أن يراعيه كل معلم •

ومن شروط التنافس المحمود أن يتوقع كل طالب منه ثوابا على مجهوده ، لذا يجب ألا يشترك الطالب فى منافسة لا يكون لديه فيها أى احتمال للكسب •

معرفة المتعلم مدى تقدمه :

هذه المعرفة من أقوى دوافع التعلم • فلو كنت ترمى هدفا بسهم مرات متتالية دون أن تعرف نتائج رميك لم تستطع أن تتعلم التصويب ، فى حين أن معرفتك بالنتائج أولا فأول تعينك على تكييف رميتك ، ان كانت أعلى من الهدف خفضتها ، أو كانت دونه أعليتها ، وقد دلت تجارب كثيرة على أن ممارسة العمل دون علم بنتائجه لايؤدى أحيانا الى تعلم البتة ، وان علم المتعلم بنتائج تعلمه يعينه على اجادة التعلم وزيادة انتاجه من حيث مقداره ونوعه وسرعته • ذلك أن هذه المعرفة :

١ — تعين المتعلم على تصحيح استجاباته الخاطئة وعلى تكرار الاستجابات الناجحة وحدها •

٢ — كما أنها تجعل العمل أكثر تشويقا ، لأن الميل الى اداء عمل يأخذ فى الفتور بمرور الزمن عادة ، ومعرفة مدى التقدم ينشط الميل ان كان قد أخذ يفتر •

٣ ــ هذا الى أن معرفة المتعلم مدى تقدمه تحمله على منافسة نفسه وغيره بأن يعمس على أن يبذ نفسه أو غيره • أما الجهل بنتائج التعلم فقد يلقى فى روع المتعلم أنه قد وصل الى الذروة فلا يبذل جهدا فى سبيل التقدم والتحسن . أو يلقى فى روعه أنه لا يتقدم فيفتر تحمسه واهتمامه •

٤ ــ ولقد أشرنا من قبل الى أن معرفة المتعلم مدى تقدمه عامل تدعيم يعين على اختيار الاستجابات الصائبة وتثبيتها •

لقد أجريت تجربة طلب فيها الى عدة أشخاص أن يرسموا خطوطا ذات أطوال معينة وهم معصوبوا العينين • وكان المجرب يطلعهم على نتائج أعمالهم بقوله « ان هـذا الخط أقصر من اللازم ، أو أطـول من اللازم » وذلك بمجرد انتهائهم من الرسم • كما أجريت التجربة على مجموعة ضابطة لم يطلع المجرب أفرادها على نتائج رسومهم ، وكذلك على مجموعات ثلاث أخرى كان يخبر الأولى بالنتائج بعد ١٠ ثوان ، والثانية بعد ٢٠ ثانية ، والثالثة بعد ٣٠ ثانية من انجاز أعمالهم • فكان معدل الاجوبة الصحيحة فى ٥٠ محاولة على النحو التالى : ٢٧ر٤ للمجموعة التجريبية و ٢٥ر٤ للمجموعة الضابطة و ٢١ر٨ و ١٥ و ١٤ للمجموعات الثلاث الاخرى •

والفائدة العملية من هذا هى ضرورة اطلاع المتعلم أو المتدرب على نتائج عمله بأسرع ما يمكن • وهذا من الاسباب التى تدعو المدارس اليوم الى الاكثار من الاختبارات الدورية والشهرية •

التعلم العارض والتعلم المقصود :

كثيرا ما نتعلم أشياء لا نقصد الى تعلمها • فقد نتعلم لحنا موسيقيا من تكرار سماعه دون قصد الى حفظه • وقد يتعلم الطالب من مدرسه الدقة أو النظام أثناء تدريسه وذلك عن طريق القابلية للايحاء • ونحن نكتسب كثيرا من المعانى والاتجاهات النفسية والمخاوف الشاذة بطريقة عارضة غير مقصودة • هذا هو التعلم العارض أو السلبى أو اللاشعورى • ودور الدوافع فى هذا النوع من التعلم غير واضح فى كثير من الاحوال • غير أننا كثيرا ما نعجز عن التعلم ان لم نقصد الى التعلم • فنحن نصعد درجات السلم مئات المرات

فى الشهر الواحد ومع هذا قد لا نعرف عددها على التحديد • كذلك سرعان ما ننسى أسماء الأشخاص الذين نتعرف بهم ولا نأبه لحفظ أسمائهم • ولو سألك أحد عن لون عينى أحد أصدقائك ممن تراهم كل يوم فقد لا تستطيــع ذلك لأنك لم تقصد اليـــه • وفى الشهـــادات القضائية يكثر خطأ الشاهد وتحريفه للواقع عن غير قصد لأنه لم يقصد الى تذكر ما رآه من تفاصـــيل الحادثة • ومن هذا القبيل أيضا ذلك الطالب الذى يقرأ درسا وهو شارد الذهن ، ثم يشكو من أنه لـــم يحفظ شيئا منه بالرغم من تكراره :

لذا يتعين على المتعلم ــ طالبا كان أم غير طالب ــ أن يحدد لنفسه الغرض من قراءة كتاب معين أو مذاكرة درس معين ، اذ لاشك أن هناك فارقا أساسيا بين القراءة لمجرد القراءة أو لقتل الوقت وبين القراءة بقصد الفهم أو الحفظ أو لغرض خاص عند القارىء ككتابة مقال ، أو لاجتياز امتحان أو استقصاء موضوع معين ، أو تلخيص أحد فصول الكتاب • ذلك أن القراءة أو الدراسة لغرض خاص تحمل الفرد على رؤية العلاقات بين الأشياء التى يريـــد تحصيلهـــا ، والربط بين بعضها وبعض ، والاهتمام بها مما يجعله يفكر فيها بطريقة شعـــورية ولا شعورية ، وهذا ما يفوت القارىء الذى لا يقرأ لغرض خاص • ولنفرض أنك أجريت التجربة الآتية على أحد زملائك : تطلب اليه أن يذكر لك الكلمة اليسرى حين تنطق أمامه بالكلمة اليمنى :

قماش	ليمون
خبز	مدرسة
فنجان	محراث
كتاب	قبعـــة

وافرض أنك طلبت اليه بعد حفظه الكلمات بهـــذا الترتيب الأفقى أن يسترجعها بترتيبها الرأسى • المرجح أنه لا يستطيع لأنه لم يقصد الى الحفظ بهذا الترتيب •

واليك تجربة أخرى تبين أثر الحفظ والتحصيل لغرض خـــاص : كلفت مجموعات ثلاث من الطـــلاب حفظ قطعة أدبيـــة ، على أن تهتم المجموعة الأولى بملاحظة المعانى فى هذه القطعة ، والثانية بمـــلاحظة عدد الكلمات ونوعها ، والثالثة بمجرد قراءتها ، ثم اختبرت المجموعات

الثلاث فى المعانى التى تضمنتها القطعة ففاقت المجموعة الأولى المجموعتين الآخريين فوقا ملحوظا ٠

٢ ـ مبدأ النشاط الذاتى

يستطيع الفرد أن يتعلم عن طريق الملاحظة أو محاكاة الغير لكن أفضل أنواع التعلم هو القائم على العمل والنشاط الذاتى ٠ والتعلم بالنشاط الذاتى هو التعلم الذى يقوم على استجابة المتعلم ـ ذهنيا أو حركيا ـ لما يقرأ أو يسمع ٠ وهو نقيض التعلم عن طريق التلقين والألفاظ أثناء الجلوس والاصغاء أو التقبل السلبى لما يقرأ أو يسمع ٠ الواقع أن المعلومات التى يقدمها المعلم لطلابه لا تعلمهم ، أما الذى يعلمهم فهو استجابتهم الخاصة لهذه المعلومات ، وذلك بالتفكير فيهما وانتزاع معناها أو تطبيقها أو الاجابة على أسئلة عنها أو مناقشتها مع زملائهم ٠ وأقدر المعلمين لا يستطيع أن يمنح طلابه معلوماته ومهاراته ، وكل ما يستطيع أن يفعله هو أن يحفزهم على التعلم الصحيح بنشاطهم الذاتى ٠ أما من يحاول التعلم من القراءة السلبية أو الاستماع السلبى فمثله كمثل من يحاول تعلم مهارة يدوية بتركه يده يحركها ويقودها شخص آخر ٠ فالاستذكار الحقيقى للدروس هو مجهود شخصى وبحث وتنقيب وموازنة وتفكير ومحاولات وأخطاء يقوم بها الطالب نفسه بمعونة المعلم ٠ مثل المعلم فى التربية الحديثة كمثل الدليل ، ومثل الطالب كالسائح فى بلد غريب٠ غير أنه من المؤسف أن نرى كثيرا من الدروس تصف الرحلة للسائح وهو جالس يصغى دون أن يترك مكانه !

ليس المهم اذن ما يبذله المعلم من جهد فى الشرح والايضاح ، بل المهم هو ما يبذله الطالب من جهد فى البحث والتفكير ٠ لذا فكثيرا ما يتعلم الطالب من زملائه أو خارج المدرسة أو عن طريق المراسلة أو الانتساب خيرا مما يتعلمه فى فصول الدراسة ، لأن هذه الطرق تثير من نشاطه الذاتى ما لا يثيره المعلم ٠

وقد دلت تجارب كثيرة على أن المعلم أو المدرب ان قام بتوجيه تلاميذه وارشادهم فى تعلم مهارة عقلية أو حركية بطريقة آلية ، أو أسرف فى توجيههم بما لا يتيح لهم بذل نشاطهم الذاتى والافادة

بأنفسهم من أخطائهم .. فشل الارشاد ولم يؤد الغرض المقصود منه .

ومبدأ النشاط الذاتي ينسحب على التعلم بمختلف صوره : التعلم الحركي والمعرفي والاجتماعي والخلقي . فكما ان الانسان لا يستطيع أن يتعلم السباحة الا بالسباحة ، ولا يستطيع الكتابة على الآلة الكاتبة الا اذا قام هو نفسه بأداء الحركات اللازمة لهذا العمل ، ولا يستطيع تحريك أذنيه كما تفعل بعض الحيوانات مهما وضحنا له الطريقة . وكما أنه لا يستطيع النطق الصحيح من مجرد معرفته بقواعد النحو، كذلك فهو لا يستطيع التفكير الصحيح الا اذا فكر وقدر بنفسه عدة مرات وأصاب وأخطأ . وقل مثل ذلك في اكتساب الاتجاهات النفسية والصفات الخلقية والاجتماعية . فالانسان لا يستطيع ضبط نفسه الا بمجاهدتها ورياضتها ومقاومة أهوائها بالفعل مرة بعد أخرى . كذلك لا يستطيع أن يتعلم معنى الحرية أو المسئولية أو الديمقراطية أو الفضيلة الا بعد أن يمر هو نفسه في عشرات من الخبرات والمواقف المختلفة يشعر فيها بمزايا هذه المعاني . ومن العبث أن يحاول تعلم هذه القدرات والصفات بمجرد أن يقرأها في كتاب أو يستمع اليها من معلم أواب أو ناصح . لذلك قيل أن الأخلاق تتكون ولا تلقن . بل انشخصية الفرد لا يمكن أن تنمو عن طريق الوعظ والنصح والتلقين بل عن طريق الاتصال بالناس ، والأخذ والعطاء معهم ، وعن طريق مواجهة الصعوبات والتمرس بالتبعات .

٣ ـ مبدأ الفهم والتنظيم

دل التجريب على أن المادة التي يراد تحصيلها متى كانت مفهومة منظمة وذات معنى كان تحصيلها أسرع وأدق وكانت أعصى على النسيان، واستطاع المتعلم أن يستخدمها وأن يطبقها في مواقف جديدة . نعم، قد يتعلم الفرد أشياء لا يفهمها .لكن التعلم في هذه الحالة يكون ابطأ وأبعد عن الدقة وأقرب الى النسيان . والطلاب الذين يحفظون دروسهم بتكرارها تكرارا آليا أصم دون تنظيمها وفهم ما تنطوي عليه من معنى لا تثبت الدروس في أذهانهم ولا يسهل عليهم الافادة منها . فالمواد المفهومة كالأطعمة المهضومة هي التي يفيد منها الجسم

ويذر ماعداها . هذا الى أن الفهم يثير اهتمام المتعلم ورغبتـه فى التعلم .

ومما يعين على فهم المادة ويسهل تعلمها وتذكرها : تنظيمها والربط بينها وبين غيرها من المواد المتصلة بها . ويقصد بتنظيم المادة المدروسة أن يلخصها المتعلم بلغته الخاصة . وأن يقسمها أقساما معنوية وأن يبحث عما بين هذه الأقسام من أوجه للشبه أو التضاد ، وأن يحاول ادماج هذه الاقسام فى وحدات متكاملة : منطقيـة أو طبيعية تسهل فهمها وتجعل لها معنى . ويكون ذلك بالربط بين اجزاء الموضوع مثلا — بين موضوعات الدوافع والتعلم وتكوين الشخصية أو بين موضوعات التذكر والانتباه والتفكير ، وبالربط بين المواد المتشابهة أو المتقاربة كعلمى النفس والاجتماع ، وكذلك بالربط بين النواحى النظرية والتطبيقية للمادة . ذلك أن فهمنا للشىء يزداد كلما زاد ارتباطه بغيره من الاشياء . أما المعلومات المتناثرة غير المترابطة فلا قيمة لها ولا يمكن أن تسمى « معرفة » الا اذا تكاملت وتآلفت فى صيغة واحدة ، أما ان ظلت فرادى مستقلة كانت كأجزاء الاناء المكسور حين تلصق جنبا الى جنب كيفما اتفق فلا تلبث أن تتطاير من أول صدمة . واليك تجربة تبين أن المادة التى يراد حفظها متى كانت ذات معنى مترابطة الأجزاء كانت أسهل فى التعلم وأسهل فى التذكر وأثبت فى الذهن : حاول أن تحفظ القوائم الآتية التى تتألف أولاها [1] من الفاظ لا معنى لها .

(١)	(٢)	(٣)	(٤)
كمر	غطاء	رأس	خرج
حجل	خرج	ياقـة	محمد
رنب	ليمون	كرافتة	من
صحو	فرس	جاكته	البيت
ملس	رباط	جسم	فى
سرم	ثعلب	يد	ساعة
طبس	يأكل	حذاء	مبكرة
مرى	قلعة	قـدم	أمس

والثـانية[٢] من كلمـات ذات معنى لـكن لا صـلة بين بعضهـا وبعض ، والثالثة من كلمـات ذات معنى وبينهـا ارتباط منطقى ، والرابعة من كلمات تنتظمها جملة أى ذات ارتباط طبيعى . حاول أن تحفظ كل قائمة منها وسجل عدد المرات اللازمة لتكرار كل واحدة ، ثم

حاول أن تتذكرها بعد يوم ويومين وأسبوع وشهر . وسجل ما بقى فى ذاكرتك من كل قائمـة .

والآن حاول أن تحفظ هذا العدد ٢٦٢٢١٩١٥١٢٨٥ فما أفضل طريقة لحفظه فى سرعة وسهولة ؟

٤ ـ مبدأ التـكرار

يستطيع الانسان أحيانا أن يتعلم أشياء وأعمالا بسيطة من مـرة واحدة ، غير أن الأعمال المعقدة تحتاج فى العادة الى تكريرها عدة مرات. فالطفل ان أحرقت النار يده تعلم من مرة واحدة ألا يقربها . وعن طريق المحاكاة قد نتعلم شيئا من مرة واحدة . غير أن تعلم الكتابة على الآلة الكاتبة أو استخدام الأسلوب العلمى فى التفكير يحتاج الى تكرار كثير.

على أن التكرار لا يكفى وحده للتعلم وتكوين العـادات . فكلنـا يعرف أن تكرار تعاطى الدواء لا يؤدى الى اكتساب عادة تعاطيـه . ونحن نصعد السلم يوميا ولا نعرف عدد درجاته . ونرى البيت مرات ولا نعرف عدد نوافذه لأننا لا نشعر بميل أو بحاجة الى معرفة ذلك .. فالتكرار دون تدعيم لا يثبت الأشياء فىأذهاننا بطريقة آليةفوتغرافية. ولقد رأينا ثورندايك من قبل يقرر أن أساس التعلم هو التكرار المقترن بثواب أى بتدعيم . وقد استدل على ذلك من تجربته المشهورة على أشخاص معصوبى الأعين يحاولون رسم خط طوله ١٠ سم دون أن يخبروا بنتائج ما يعملون . فلم يبد التحسن فى رسـومهم مهمـا كانت مرات التـكرار .

يضاف الى هذا الى أن التكرار الحرفى الاصم لحركات خاطئـة أو طرق خاطئة فى التحصيل لا يؤدى البتة الى التعلم والتحسن . بل فيه تبذير للوقت والجهد . وقد يميت الدافع الى التعلم . أنظر الى الطفل المبتدىء فى تعلم الكتابة وقارن بين حركاته أول الامر وحركاته بعـد اتقانه الكتابة ، تر أن حركاته تكون فى البدء بطيئة خرقاء غير متآزرة تختلف من الناحيتين الفسيولوجية والنفسية عن الحركات الدقيقـة

السريعة المتآزرة التى يقوم بها بعد اتقان الكتابة • فلو كان التكرار يعنى تكرار الحركات الخاطئة وحدها ما تعلم الكتابة قط •

من هذا نرى أن التكرار المثمر الذى يفيد فى عملية التعلم هو :

١ ــ التكرار المقترن بالانتباه والملاحظة وفهم الموقف والتمييز بين الاستجابات الخاطئة والصائبة •

٢ ــ وهو التكرار الذى يقترن بمعرفة الفرد مدى تقدمه فى التعلم أى المقترن بتدعيم •

٣ ــ كما أنه التكرار المقترن بتعمد الحفظ والتعلم •

بل قد يؤدى تكرار الاستجابات الخاطئة عن قصد الى زوالها واكتساب الاستجابات الصحيحة • فهاهو ذا « دنلاب » Dunlap يحدثنا أنه كان يخطىء فى كتابه كلمة the على الآلة الكاتبة فيكتبها دائما hte ، لكنه بدلا من أن يجلس الى الآلة الكاتبة فيكرر كتابة الكلمة الصحيحة عزم على أن يكرر كتابة الكلمة الخاطئة عن عمد عدة مئات من المرات ، وسرعان مازال هذا الخطأ من كتابته • بل يؤكد أنه استطاع بهذه الطريقة استئصال عادة التدخين المستعصية دون رجعة • فكان المدخن يحضر يوما بعد يوم فيجلس معه ساعة يدخن فيها باستمرار سيجارة بعد أخرى دون هواده أو تمهل ، وهو يركز انتباهه عامدا على كل نفس يأخذه وعلى كل احساس يشعر به فى حلقة وصدره وقد سمى طريقته هذه بطريقة **الممارسة السلبية** فى العلاج النفسى ، أى الممارسة التى تؤدى الى الكف عن القيام بعمل من الأعمال •• وتأويل ذلك أن العادات ليست الا تكرارا آليا لا شعوريا لعمل معين كصعود السلم أو النزول منه • ولو أنك حاولت أن تهبط درجات السلم ، لا بالطريقة الآلية العادية ، بل ركزت انتباهك فى كل خطوة تخطوها ، وأخذت تفكر وتتأمل فى الموقع الذى ستضع فيه قدمك على التحديد •• لو فعلت هذا لم تلبث أن تجد نفسك فى أسفل السلم بساق مكسورة وباعتقاد راسخ فى أهمية العادة • وبعبارة أخرى فاننا نستطيع استئصال عادة باستبعادها عن حيز اللاشعور وتركيز الانتباه فى جميع تفاصيلها •• هذا هو المبدأ الذى استغله « دنلاب » فى طريقته •

مما تقدم يتضح ان التكرار فى ذاته لا يقوى التعلم ولا يضعفه ، بل يتيح الفرص لعوامل أخرى تؤثر فى التعلم تأثيرا ايجابيا أو سلبيا، أى أنه يتيح الفرص لاكتشاف الطرق التى تؤدى الى النجاح ، كرؤية تفاصيل جديدة أو علاقات جديدة أو أوجه شبه جديدة أو فرصة لاعادة تنظيم الموقف أو لمعرفة الاخطاء . وفى ميدانى التعليم والصناعة هناك أناس لا يبدون تحسنا طوال سنوات عدة الى أن يتلقــوا تدريبــا خاصا فاذا بادائهم قد تحسن تحسنا ملحوظا فى مدة قصــيرة ؛ ذلك أن التدريب يتيح للفرد فرصة يعرف فيها أخطاءه .

٥ ــ مبدأ التعميم : انتقال أثر التعلم

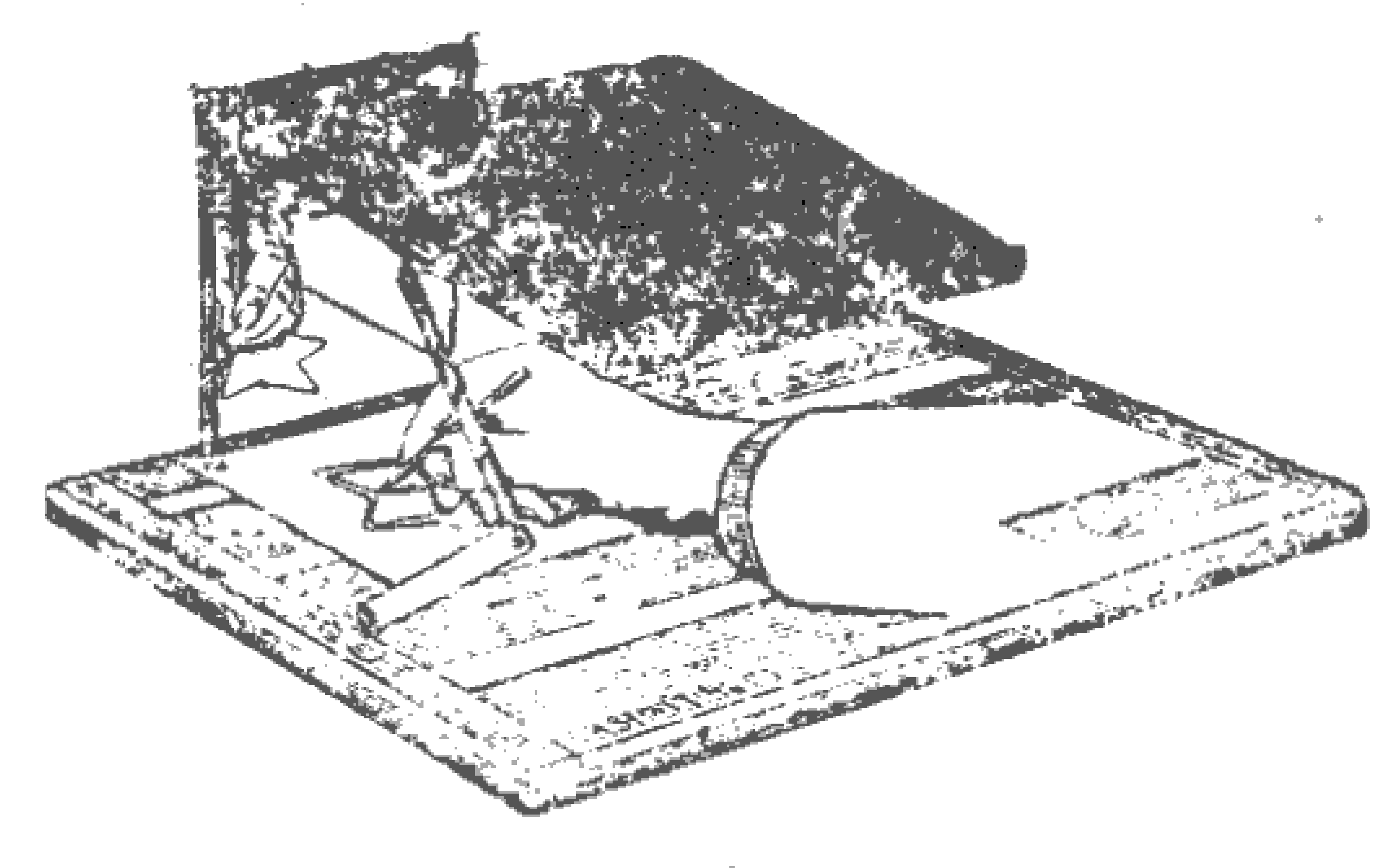
أصحيح ما يقال من أن تعلم الرياضيات يقوى التفكير بوجه عام ؟ أى فى النواحى السياسية والتجارية والقانونية وفى حل مشاكل الحياة اليومية ؟ وأن دروس مشاهد الطبيعة تقوى الملاحظة بوجه عام ؟ وأن حفظ الشعر يقوى الذاكرة بوجه عام ؟ وهل اذا تعلمنا اللغة الانجليزية سهل علينا تعلم الفرنسية ، وهل ما يتمثله الرياضى من نظام واحترام للقانون فى ساحة اللعب ينتقل أثره فيبدو فى تعامله مع الناس ؟ وهل ما يتعلمه الطالب من مبادىء فكرية وخلقية فى المدرسة أو الجــامعة يفيد منه فى حياته العامة ، وهل التدرب على عمل صناعى معين كالخراطة يسهل أداء عمل صناعى آخر كالبرادة ؟

تدل التجارب على أن اكتساب معلومات أو عادات أو مهارات معينة يؤثر فى اكتساب معلومات أو عادات أو مهارات أخرى . وقد يكون هذا الأثر ايجابيا فيسهل التعلم السابق التعلم اللاحق ، أ ويكون سلبيــا فيبطل التعلم السابق التعلم اللاحق . وفى الحالة الأولى يقال اننــا بصدد انتقال ايجابى لأثر التدريب أو انتقال لاثر التدريب فقط ، وفى الثانية نكون بصدد انتقال سلبى لاثر التدريب ، أو بصدد « تداخل » أو « تعطيل » . inhibition .

ومن أبسط الأمثلة على الانتقال الايجابى أن معرفة اللغة الفرنسية تسهل تعلم اللغة الايطالية ، وأن تعلم الجبر يسهل تعلم التفاضــل والتكامل ، وأن تعلم التنس يساعد على تعلم لعبة كرة الطاولة ، وأن

تدريب اليد اليمنى على أداء عمل معين يؤدى الى تحسن فى أداء اليد اليسرى لهذا العمل نفسه ، بل قد ينتقل أثر التدرب من اليد الى الساق أو العكس • ومن الامثلة على الانتقال السلبى أن معرفتك رقم التليفون الجديد لصديقك تتداخل مع الرقم القديم فتخلط بينهما ، وأن وجود أو اكتساب طرق وحركات خاطئة فى التدريب على عمل معين يعوق المتدرب على الأداء الصحيح لهذا العمل • فتعلم الكتابة على المكتاب باصبع واحدة يعوق تعلمها بطريقة اللمس •

والتجربة الآتية تبين هذين النوعين من الانتقال (أنظر شكل ١٩) : يطلب الى الشخص أن يمر بالقلم ، وبأسرع ما يمكن بين الخطين المتوازين اللذين يكونان الاطار الخارجى للنجمة السداسية التى لاترى الا صورتها فى المرآة ، ويكون السير فى اتجاه عقرب الساعة ، ثم



شكل (١٩)

يسجل الزمن اللازم لكل محاولة وعدد الاخطاء — أى الخروج عن المتوازين — فى كل منها • وتتلخص الصعوبة فى هذه التجربة ، والتى تعوق الشخص عن التقدم السريع الصحيح ، فى أنه مضطر الى القيام بمجموعات جديدة من الحركات المتآزرة تخالف مالديه من مجموعات متآزرة وتعاندها — وهذا هو الانتقال السلبى • وقد لوحظ أن الرسم يكون فى أول الأمر متعرجا وبه أخطاء كثيرة ثم تقل الأخطاء والزمن بالتدريج حتى أنه بعد ١٥ محاولة تقريبا يبدو تحسن ملحوظ عند أغلب الأشخاص • فاذا ما أعيدت هذه التجربة باليد اليسرى التى لم تدرب كان الزمن اللازم للتعلم والأخطاء التى يرتكبها المفحوص أقل

منه فى حالة اليد اليمنى . وذلك لدى جميع من أجريت عليهم التجربة دون استثناء — وهذا هو الانتقال الايجابى • بل لقد بدت آثار هذا الانتقال بنوعية حين استخدمت الساقان بدلا من اليدين لاجراء نفس التجـربة •

أفكار خـاطئة عن الانتقال :

يظن الكثيرون أن الانتقال يحدث من تلقاء نفسه بطريقة آليـة ، فما يتعلمه الطالب من أساليب علمية ومبادىء وقواعـد خلقيـة فى المدرسة ينتقل أثره تلقائيا الى حياته العامة خارج المدرسة • غـير أن الواقع يشهد بأن كسب المعلومات والمهارات فى المدرسة لا يضمـن تطبيقها واستخدامها والافادة منها خارج المدرسة ؛ بل يشهد بـأن كثيرا مما يتعلمه الطـلاب فى موقف معين يعجـزون عن تطبيقـه فى مواقف أخرى تختلف اختلافا بسـيطا عن الموقف الأول • من ذلك ما اتضح من أن كثيرا من الطلاب الذين تعلموا حل مسائل الجبر التى تكون فيهـا المجهولات س ، ص قد يعجزون عن حل المسائل نفسها حين يستعاض عن الرمزين س و ص بالرمزين أ و ب • فقد ظهر من أحـد البحوث أن ٧٢٪ من مجموعة من طلاب الثانويات استطاعوا ايجـاد مربع (أ + ب) لكن ٦٪ من هؤلاء عجزوا عن تربيع (س+ص) •

ومن أشيع هذه الأفكار الخاطئة أن الانتقـال يحدث عن طـريق التدريب الشـكلى وهو مـذهب خاطىء من مذاهب التربية القـديمة يزعم أن مناهج الدراسة يجب أن تتضمن مواد دراسية ؛ قد لا تكون لها قيمة عملية للطالب ؛ لكنها تقوى « ملكات العقل » كملكة الذاكـرة أو ملكة الحكم أو ملكة التفكير العلمى •• ومما يزعمه هذا المذهبفوق ذلك أن الملكة متى دربت فى ناحية قويت فى سائر نواحيها • فالتدريب على حفظ الشعر أو حفظ التاريخ أو حفظ الأرقـام يقوى الذاكـرة بوجه عام ، والتدريب على التعبير أو على كتابة القصص يقوى ملكـة التخيل بوجه عام ، والتدريب على المنطق أو على حل المسائل الرياضية يقوى ملكة التفكير بوجه عام فى مجالات السياسية والتجارة والاقتصاد وغيرها • فكأن الملكة كالسـكين متى شـحذت قطعت الجلـد والورق والقماش والخشب وغيرها •

وقد قام العلماء فى أوائل هذا القرن بتجارب عـدة للتحقق ممـا يزعمه مذهب التدريب فبنيت التجارب الأولى أن أثر التدريب خاص

وليس عاما ، فالتدريب على حفظ الشعر يسهل حفظ الشعر فقط لا حفظ شيء غيره ، ودراسة الهندسة أو الجبر لا تقوى التفكير فى غير هذين المجالين ثم اتضح بعد ذلك أن الانتقال يمكن أن يحدث لكن بشروط موضوعية وذاتية خاصة :

فمن الشروط الموضوعية : (١) تشابه محتويات وعناصر المادة الأولى مع محتويات وعناصر المادة أو المهارة الثانية • فتعلم اللغة الانجليزية يسهل تعلم الفرنسية لتشابه كثير من الكلمات فيهما ، وتعلم لعبة التنس يسهل تعلم تنس الطاولة ، لكنه لا يسهل تعلم الكرة الطائرة ، أو أية لعبة أخرى لا تشبه لعبة التنس فى عناصرها • (٢) تشابه طرق التعلم والتحصيل : فمعرفة اللغة العربية أو الانجليزية أو الفرنسية تعين على تعلم أية لغة أخرى حتى الصينية لأن هناك طرقا خاصة لتعلم اللغات بوجه عام • وتعلم الطريقة العلمية فى حل مسائل الطبيعة يسهل حل المسائل فى العلوم الأخرى • كذلك الحال فى تعلم التصويب الى هدف باليد اليمنى فانه يسهل التصويب باليسرى ان استخدم الفرد نفس طريقة التعلم فى التصويب • (٣) تشابه مبادىء التعلم فى الحالتين : فقد قام « جد » Judd بتعليم مجموعة من التلاميذ مبادىء انكسار الضوء ، وترك مجموعة أخرى لم يعلمها هذه المبادىء ، ثم كلف المجموعتين التصويب بأسهم الى هدف مغمور فى الماء ، فكان نجاح المجموعتين متساويا تقريبا • لكنه عندما أزاح الهدف من موضعه الى موضع آخر ارتبك التلاميذ الذين لا يعرفون مبادىء انكسار الضوء ، أما الآخرون فقد تكيفوا بسرعة للموقف الجديد •

أما الشروط الذاتية لانتقال أثر التعلم فمنها : (١) الذكاء ، اذ لاشك فى أن الذكى أقدر على ادراك أوجه التشابه بين الأشياء والمواقف المختلفة أى على أن ما ينطبق على موقف ينطبق أيضا على مواقف أخرى شبيهة به — أى أقدر على التعميم • (٢) ادراك المتعلم ادراكا صريحا ما بين المواقف المختلفة من عناصر مشتركة • فلا يكفى أن يتعلم الطالب قاعدة أو مبدأ فى درس من الدروس على أنه قطعة مستقلة من المعرفة ، بل يجب أن يعرف بوضوح أن هذه القاعدة أو المبدأ يمكن تطبيقه فى مواقف أخرى • لا يكفى أن يعرف الطالب خطوات المنهج العلمى فى مختبر الفيزيقا أو الكيمياء ، بل يجب أن

يعرف فوق ذلك أن هذا المنهج يمكن تطبيقه فى حل المشـــكلات العملية والاجتماعية خارج المدرسة •

موجز ما تقدم أن التعليم الذى يكفل انتقال أثر التعلم والتدريب هو الذى يعـــين على التعميم وتطبيق المبـــادىء العامة فى مجـــالات مختلفـــة •

الانتقـــال السـلبى

يحدث الانتقال السلبى لأثـــر التعلم حين يعطل التعلم الســـابق التعلم اللاحق • ومن الأمثلة عليه فى التعلم اللفظى أننا فى نهـــاية العام قد نستمر فى كتابة تاريخ العام الماضى فى رســـائلنا ، أو نســـتمر فى كتابة شهر مايو بدلا من شهر يونية •• أما فى التعلم الحركى فيبدو فى أن من تعلم سوق سيارة عجلة قيادتها الى اليسار يجد صعوبة فى سوق سيارة أخرى عجلة قيادتها الى اليمين • ومن المعروف أن مدربى كرة القـــدم لا يرحبون بممارســـة لاعبى الكرة للسباحة لأن السباحة تؤدى الى طراوة العضـــلات ورخاوتها فى حين يتطلب لعب الكـــرة عضلات قوية صلبة كذلك يبدو الانتقال الســـلبى فى التعلـــم العقلى ، فكثير من أخطائنا فى التفكير وحل المشكلات ينتقل أثره فيعطلنا عن التفكير الصحيح فى المواقف الجديدة •

ونشير أخيرا الى أن الانتقال السلبى كالانتقـــال الايجابى لأثـــر التعلم يقوم على أساس تشابه المحتويات أو الطرق أو المبادىء لكنه يؤدى الى التعطيـــل لا الى التســـهيل ، لأن المحتويات أو الطـــرق أو المبادىء التى يتضمنها الانتقال السلبى تكون مضـــادة لتلك التى يتطلبها الموقف الجديد •

٦ ــ الطرق الاقتصادية للتعلم

لا تكفى المبادىء السابقة وحدها للوصول الى أفضل تعلم : فقـــد دل التجريب على وجود طرق تكفل القصد فى الجهد والوقت فضـــلا عن أنها تسهل التعلم والتذكر جميعا •

الطريقة الكلية والطريقة الجزئية

اذا كان المقصود حفظ قصيدة من الشعر عن ظهر قلب أو استيعاب المعاني في فصل من كتاب : فهل الأفضل أن يجزىء المتعلم المادة الى أجزاء ويتقن كل جزء منها على حدة ، ثم يؤلف أخيرا بين الأجزاء ، أم أن يحصلها بكليتها دون تجزئة أى أن يركز انتباهه عليها بأسرها دون انتباه خاص للأجزاء • لكل طريقة محاسنها وعيوبها ومجالها ، ويتوقف نجاحها على عدة عوامل منها طول المادة ونوعها وصعوبتها وسن المتعلم وذكاؤه وخبرته •• وقد دل التجريب على أن الطريقة الكلية تفضل الطريقة الجزئية حين لا تكون المادة طويلة أو صعبة، وحين تكون لها وحدة طبيعية أو تسلسل منطقى • فدراسة فصل من كتاب بالطريقة الكلية تسمح للمتعلم أن يدرك ما بين أجزائه من علاقات هامة وأن يفهم بعض الأجزاء التى لا يستطيع فهمها الا فى ملابساتها الكلية ، وهذا ما لا يتسنى له ان قسم الفصل الى أجزاء ودرس كل جزء على حدة • أما ان كانت المادة مسرفة فى الطول أو فى الصعوبة فيحسن تقسيمها الى أجزاء ملائمة يؤلف كل جزء منها وحدة طبيعية ثم تدرس كل وحدة على حدة •

وتبدو قيمة الطريقة الكلية بوجه خاص لدى الكبار والأذكياء وذلك لما لهم من قدرة على ادراك العلاقات الهامة بين المعانى واستيعاب المادة كوحدة • كما ظهر أنها أفضل فى حفظ الشعر ان لم تكن القصيدة طويلة والا وجب تجزئتها • غير أنها قد لا تلائم الطفل لأنه يريد أن يشعر أنه حفظ شيئا ولا صبر له على الانتظار حتى يتم تحصيله الموضوع بأسره ، فى حين أن الطريقة الجزئية تشعره بذلك وتشعره بمدى تقدمه أو تخلفه • ومن عيوب الطريقة الكلية حتى مع الكبار أنها تقتضى من المتعلم تكرير الأجزاء السهلة دون داع حين تختلف أجزاء المادة فى صعوبتها •

وفى كثير من الأحيان يجدر بالمتعلم أن يصطنع طريقة مرنة تجمع بين محاسن الطريقتين ، فيبدأ بدراسة الكل واستيعاب معناه الاجمالى، ثم يركز اهتمامه بعد ذلك على الأجزاء الصعبة يحصلها جزءا جزءا ثم يدمج كل جزء فى الاطار الكلى •• هذه الطريقة «الجزئية التراجعية» أفضل من الطريقة الجزئية البحتة •• وتتلخص الأولى فى ربط كل جزء

يحفظ أو يستوعب معناه بالجزء السابق الذى تم تحصيله • وقد يبدو أنها طريقة بطيئة أى تستغرق وقتا طويلا لكن التجريب يدل على أنها أكثر اقتصادا للوقت •

طريقة التسميع الذاتى

تتلخص فى محاولة المتعلم استرجاع ما حفظه أو فهمه من مادة يحصلها وذلك أثناء التحصيل أو بعده بمدة معقولة • ولهذا التسميع اكثر من فائدة : ١ — فهو يبين للفرد مدى تقدمه ، وهذا عامل تدعيم يساعد على اختيار الاستجابات الصائبة وتثبيتها — ٢ — كما أن شعور المتعلم بأنه سيسمع لنفسه بعد قليل يعتبر دافعا ؛ والتعلم المقصود أجدى من التعلم العارض — ٣ — انها تقوم على النشاط الذاتى للمتعلم ، وهو أفضل أنواع التعلم • وغنى عن البيان أنه لا يجب البدء فى التسميع الذاتى الا بعد أن تكون المادة قد فهمت واستوعبت الى حد معقول • فمن بعض البحوث أن هذا التسميع قد يكون ضارا ان لم تكن المادة قد فهمت فهما كافيا •

ومن خير الطرق للتسميع الذاتى أن يحاول المتعلم الاجابة على أسئلة تتصل بالموضوع ، أو يقوم بتلخيص ما تم حفظه أو فهمه •

التعلم المركز والموزع :

دل التجريب على أن التعلم الموزع على فترات أفضل بوجه عام من التعلم المركز فى وقت واحد • ويصدق هذا المبدأ على استظهار الشعر والنثر وعلى كسب المهارات الحركية ؛ كما تتضح فائدته فى تعلم الأعمال الصعبة أو الطويلة أكثر منه فى الأعمال اليسيرة أو القصيرة • فان اقتضى استظهار موضوع معين أن يكرر ٢٠ مرة مثلا ، فالأفضل أن يكرر فى يومين كل ١٠ مرات من أن يكرر ٢٠ مرة فى يوم واحد وفى جلسة واحدة ولو لزم حفظ موضوع تكراره لمدة ٥٠ دقيقة فى يوم واحد فالافضل أن يكرر لمدة ١٠ دقائق على خمسة أيام من ان يكرر لمدة ٥٠ دقيقة فى يوم واحد ومن أن يكرر فى يومين كل يوم ٢٥ دقيقة أو ثلاثة أيام كل يوم ١٧ دقيقة • ودراسة علم النفس ساعة واحدة كل يومين لمدة عشرة أسابيع افضل من دراسته لمدة ٣٥ ساعة فى الأيام الثلاثة الأخيرة قبل الامتحان • ومن الملاحظ أن الطالب الذى يستذكر دروسه من أول العام بنظام يكون أحفظ لها وأوعى ممن يتركها ثم ينكب على مذاكرتها قبيل الامتحان •

ويبدو أن التعلم الموزع أفضل :

١ ـ لأن التعلم المركز يؤدى غالبا الى التعب أو الملل .

٢ ـ ثم ان ترك التعلم فترة من الزمن يجعل المتعلم يقبل عليه بعد انتهائها باهتمام وانحفاز أكبر .

٣ ـ وقد اتضح أن الاستجابات الخاطئة تنسى أسرع من الاستجابات الصحيحة ، فى أثناء فترة الراحة .

أما طول فترات التعلم وتوزيعها فيتوقفان على سن المتعلم وخبرته ونوع العمل . غير ان هناك ما يدل على أفضلية التعلم الموزع بالرغم من هذه العوامل .

أسـئلة فى التعلم

١ ـ بين كيف يفسر التعلم الشرطى كثيرا من استجاباتنا الانفعالية ؟

٢ ـ تعلم السير فى متاهة مثال شائع لما يجرى فى حياتنا اليومية من مواقف ـ اشرح مع التمثيل .

٣ ـ قارن بين استئصال العادات عن طريق الانطفاء الشرطى وعن طريق الممارسة السلبية .

٤ ـ هل الأفضل لمن يريد تعلم لعبة التنس أن يأخذ عدة دروس فيها قبل أن يبدأ فى تعلمها ، أم يأخذ هذه الدروس بعد عدة محاولات للعب ؟

٥ ـ اضرب بعض أمثلة للتعلم بالاستبصار عند الانسان .

٦ ـ وضح بالمثال أن التكرار ليس شرطا ضروريا وليس شرطا كافيا للتعلم .

٧ ـ حلل موقفا تعلميا يبدو فيه تضافر الاشراط والمحاولات والأخطاء مع الاستبصار .

٨ ـ يكتفى بعض الطلبة بأخذ مذكرات موجز أثناء المحاضرات ثم اكمالها وتفصيلها بعد ذلك . ويعمد آخرون الى كتابة كل

ما يستطيعون أثناء المحاضرات والاكتفاء بقراءته بعد ذلك — أى الطريقتين أفضل ولماذا ؟

٩ — ان تعلم لغة أجنبية لا يساعد على التكلم بها — لماذا ؟

١٠ — أذكر أمثلة لمواقف من شأنها أن تثير التنافس الضار بين طلبة المدارس أو الكليات •

١١ — اذا عهد اليك الاشراف على مشكلة الجريمة فى المجتمع . فما هى التغيرات التى تقترح ادخالها على معاملة المجرمين ، مستعينا بمبادىء التعلم •

١٢ — اضرب أمثلة تبين أثر العوامل الحضارية فى عملية التعلم •

١٣ — التعلم فى الصغر كالنقش على الشجر وليس كالنقش على الحجر — ما رأيك فى هذه العبارة •

١٤ — اذكر أهم العوامل التى تؤثر فى سرعة التعلم وفى بقاء أثره •

١٥ — ترسخ بعض أنواع المعرفة فى الذهن دون حاجة الى تكرار تحصيلها — بين أسباب ذلك •

١٦ — ان قيام المدرس بتعليم طلابه أيسر عليه من أن يحفزهم على أن يتعلموا بأنفسهم — اشرح •

١٧ — يقول بعض علماء الأخلاق ان اكتساب فضيلة من الفضائل يساعد على اكتساب غيرها — ما الأساس النفسى لهذه العبارة •

١٨ — الى أى حد نجحت مدارسنا فى نقل أثر ما يتعلمه الطلاب فيها الى حياتهم العامة خارج المدرسة ؟

١٩ — أشرح قول أفلاطون : كل تعلم بالاكراه لا يستقر فى الذهن •

٢٠ — اشرح قول الغزالى : أعمل بما تعلم لينكشف لك ما لم تعلم •

٢١ — يقول « ديوى » : اعطو التلاميذ شيئا يعملونه لا شيئا يحفظونه — اذكر الأساس النفسى لهذه العبارة •

الفصل الرابع

التذكر والنسيان

١ ـ معنى التذكر وطرقه

الاسترجاع والتعرف :

التذكر بمعناه العام هو استحياء ما سبق أن تعلمناه واحتفظنا به . فاذا تذكرت اسم صديق ، فهذا يعنى اننى تعلمت هذا الاسم فى زمن مضى واننى احتفظت به طول هذه الفترة التى انتهت بتذكرى اياه . فكأن التذكر يتضمن التعلم والاكتساب كما يتضمن الوعى والاحتفاظ . واذا قابلت شخصا فشعرت بأننى أعرفه من قبل ، فهذا أيضا ضرب من التذكر يتضمن كسابقه أننى رأيت هذا الشخص من قبل ، واحتفظت بصورته فلما رأيته الآن لم يبد لى شيئا غريبا عنى أو جديدا على . وعلى هذا يكون هناك طريقتان للتذكر ، هما الاسترجاع والتعرف .

فأما الاسترجاع recall فهو استحضار الماضى فى صورة ألفاظ أو معان أو حركات أو صور ذهنية . فنحن نسترجع بيتا من قصيدة ، أو فكرة من الأفكار ، أو حادثة وقعت لنا منذ عهد بعيد ، أو منظرا من رحلة قمنا بها ، كما نتذكر طريقة السباحة أو العزف على آلة موسيقية .

وأما التعرف recognition فهو شعور الفرد أن ما يدركه الآن جزء من خبراته السابقة ، وأنه معروف مألوف لديه وليس شيئا غريبا عنه أو جديدا عليه . ويبدو التعرف فى قولنا « أنا أعرف هذه القطعة الموسيقية من قبل » أو « هذا هو الكتاب الذى أبحث عنه » أو « ليس هذا هو الكتاب الذى أبحث عنه » .

وقد يحدث الاسترجاع دون تعرف . فقد استرجع الاسم الذى أبحث عنه لكنى أشعر أنه ليس الأسم الصحيح . وقد ينتحل

الكاتب أو الشـاعر فكرة أو بيتا دون أن يشعر أنها من صنع غيره •
كذلك قد يتم التعـرف دون استرجاع ، فقد أعجـز عن استرجاع اسم أو رسم أو قصـيدة أ وتاريخ لكنى استطيع أن أتعـرف هذه الاشياء متى عرضت على •

فالاسترجاع اذن هو تذكر شيء غير ماثل أمام الحواس ، في حين أن التعرف هو تذكر شيء ماثل أمام الحواس • هـذا الشخص الواقف أمامك ، تتعرف وجهه وتسترجع اسمه • وهذا الاسـم الذى يذكر لك ، تتعرفه ، وتسترجع وجه صاحبه •

مما تقدم نرى أن البحث في عملية التذكر يتضمن دراسة عمليات أربع :

١ ـ التعلم أو التحصيل أو الحفظ •

٢ ـ الاحتفاظ أو الوعى •

٣ ـ الاسترجاع •

٤ ـ التعـرف •

أما التعلم ويشمل الحفظ والتحصيل فقد فصلناه تفصيلا في الفصلين السابقين ، فلندرس العمليات الثلاث الباقية •

٢ ـ الوعى والنسـيان

يقصد بالوعى (١) retention احتفاظ الفـرد بما مر به من خبرات وبما حصله من معلومات وكسبه من عادات ومهارات • ولولا هذه القدرة على الوعى ما استطعنا أن نسترجع درسا حفظناه ، أو نتعرف شخصا رأيناه ؛ بل لولاها ما استطعنا أن نتصور شيئا أو أن نفكر فيـه . أو أن نتعلم شيئا على الاطلاق • والقدرة على الوعى استعداد فطرى له على أساس عصبى باختلاف الأفراد . فلا سلطان للفرد على انمائه أو تقويته بالتدريب •

ويبدو لنا أن نتساءل : هل ما حفظه الانسان ووعاه يمكن أن ينسى كل النسيان وأن يمحى امحاء تاما ؟ يجيب أغلب علماء النفس بالنفى ،

---

(١) وعى الشيء جمعه وحواه • ووعى الزاد ونحوه جمعه في الوعاء •

اذ يرون أن هناك من الأدلة ما يؤيد خلود آثار الخبرات فى الذهن ، وأنه ليس من المحال نظريا على الأقل تذكر أى شيء مر بنـا • فان صعب تذكره فما ذلك الا لضعف هذه الآثار أو سوء تنظيمها أو عدم وجود التنبيهات الكافية لاستثارتها أو لاختفائها مؤقتا وراء خبرات وأحداث أخرى • هؤلاء يرون أنه من الاحرى أن يكون سؤالنـا : « لمـاذا نعجز عن التذكر ؟ » بدل أن يكون « لمـاذا ننسى ؟ » • ومن الأدلة التى يسوقونها أن خبرات الطفولة التى يظن أنها تنسى كل النسيان يمكن استحياؤها بطرق خاصة كالتنويم المغناطيسى والتحليل النفسى ، اذ بهما أمكن استحياء ذكريات منسية منذ ٣٠ أو ٤٠ عاما • كما أنها قد تطفو بتـأثير مرض شـديد كالحمى • ومن المعـروف أن الانسان تعرض له فى أثناء الغرق والاختناق صور ذهنية حافلة سريعة لحياته السالفة جميعا •• وآخرون لا يرون هذا الرأى •

وأيا كان مقطع الرأى فى هذا الموضوع فمن المحال أن نبرهن على أننا ننسى شيئا تعلمناه نسيانا تاما • والذى يهمنا من الناحية العملية هو تذكر المـاضى عند الحاجة اليه ، واعتبار ما دون ذلك فى حالة نسيان سواء أمحى أو صعب تذكره • فالذاكرة الجيدة هى ما أسعفت صاحبها بما يحتاج اليه من المعلومات والمعانى والخبرات فى الوقت الملائم • فان أمدته بأكثر مما يحتاج اليه الموقف أو بأشياء أخرى لا تلائم الموقف ، عطلته عن التصرف السليم أو حل المشـكلة التى يواجهها ، كأن يثب الى ذهن الطالب فى الامتحان لحنا موسيقيا أو قصيدة شعرية وهو يجيب على أسئلة فى الهندسة أو التاريخ •• وان عجزت عن أن تزوده بما يحتاج اليه الموقف أو المشكلة عشل فى حلها، كالطبيب الذى يعجز عن تذكر ما يجب عليه أن يعمله حيال شخص أصيب فجأة بأزمة قلبية •• من هذا يتضح أن للنسيان فوائد كما أنه لـه أضرارا • ومن علامات الذاكرة الجيدة قدرتهـا على استبعـاد الذكريات والتفاصيل الطفيلية التى لا علاقة لهـا بالموقف أو التى تعطل الفرد عن أداء عمله • من هذا نرى أن النسيان ليس أمرا سلبيا بل جهـد ايجابى ، بل هو فن يحتاج الى مهارة لا تقل عن فن التذكر • ويمكن اعتباره من الناحية البيولوجية شرطا ضروريا لعملية التعـلم لأننا يجب ان ننسى الاسـتجابات المخطئة كى نقـوم بالاستجابات

الصحيحة • ومن ثم لا يكون النسيان دائما نقيض التذكر بل كثيرا ما يكون مساعدا عليه •

وعلى هذا يمكن تعريف النسيان بأنه فقدان طبيعي ، جزئي أو كلي، مؤقت أو دائم . لما اكتسبناه من معلومات ومهارات حركية • فهو عجز عن الاسترجاع أو التعرف أو عمل شيء •

ويجب التمييز بين النسيان الطبيعي والنساوة (بكسر النون) amnesia اذ يفقد الفرد ذاكرته على حين فجاة عقب اصابة دماغية أو صدمة انفعالية • من ذلك أن رجلا صدمته سيارة وهو عائد من عمله الى منزله فأغمي عليه . فلما أفاق استطاع أن يتذكر الأحداث التي وقعت له في الصباح لكنه عجز عجزا تاما عن تذكر ما حدث منذ أن خرج من عمله حتى أفاق •• أو تكون النساوة تدريجية كما في بعض الأمراض العقلية •

٣ ــ أسباب النسيان

ان ما يبدو نسيانا قد يكون نتيجة لانطباعات ضعيفة أو عارضة أو غير كافية أثناء التأثر بالملاحظة • فكثيرا ما نعجز عن تذكر الأسماء أو الناس أو الأشياء لأننا لا ننتبه اليها عند سماعها أو رؤيتها انتباها كافيا • وتلك هي الحال أيضا في تذكر الحوادث أثناء الشهادات القضائية • وفي تذكر ما يقع أثناء الحوادث المزعجة أو المثيرة • لكن لنفرض أن الملاحظة أو الادراك قد تم بانطباع كاف ودون صدمات انفعالية • فلماذا يحدث النسيان اذن ؟ هناك نظريات ثلاث تحاول تعليل النسيان هي .

١ ــ نظرية الترك والضمور :

ترى أن الذكريات والخبرات السابقة تضعف آثارها وتضمر نتيجة لعدم استعمالها كما تضمر العضلة ان تركت مدة طويلة من الزمن دون استعمال • هذه النظرية ربما تفسر بعض حالات النسيان في عقابيل بعض الأمراض وفي الشيخوخة • غير أن هناك أدلة كثيرة على خطئها من ذلك ما تدل عليه الملاحظات الكلينيكية من أن الطفل ان فقد بصره في سن الرابعة أو الخامسة وصل الى سن النضج دون أن يفقد

ه تعلمه عن طريق حاسة الابصـــار ، بحيث يمكن تمييزه بوضوح فى
سن النضج عن شخص ولــد أعمى • وهذا يعنى أن الترك لا يحدث
أثرا •

٢ ــ نظرية التداخل والتعطيل :

لوحظ أن النسيان فى أثناء النوم أبطأ منه فى أثناء اليقظة ، كمـا
لوحظ أن الأطفال يتذكرون فى سهولة ووضوح ما يروى لهم من قصص
قبيل النوم على حين لا يتذكرون تفاصيل ما يتلى عليهم من قصص
أثناء النهار • وقد فسر ذلك بأن أوجه النشاط المتعاقبة التى يقوم بهـا
الفرد أو التى تعرض له أثناء النهـــار يتداخل بعضهـــا فى بعض كما
تتداخل الوان الطيف فينجم عن هذا التداخل أن يطمس بعضها بعضا •

التعطيل الرجعى Retroactive inhibition

كما لوحظ أيضا أن الشخص ان أتم حفظ موضوع معين كقصيدة
من الشعر مثلا ، ثم شرع بعد ذلك مباشرة ــ ودون أن يأخذ فترة من
الراحة [1] فى حفظ مادة أخرى كقائمة من الأرقام ، فان نسبة ما ينســاه
من الشعر تكون أكبر بكثير منهـــا لو كان قد استـــراح فترة بعد حفظ
الشعركأن حفظ الأرقام قد تداخل فى حفظ الشعر فطمس عليه فساعد
على نسيانه • وقد سميت هذه الظاهرة التى أيدها التجريب بالتعطيل
الرجعى ، ويقصد به تداخل التعلم اللاحق فى التعلم السابق بما يؤدى
الى نسيان بعض ما تم تعلمه • لذا يتعين على الطالب ألا يبـــادر
بتحصيل موضوع بعد آخر الا بعد أن يأخذ فترة من الاستجمام الكافى •

التعطيل البعدى Proactive inhibition

كما دل التجريب أيضا على أن التعلم السابق قد يحرف أو يعطل
التعلم اللاحق ويساعد أيضا على نسيانه أو تشويهه بقدر قليل أو
كثير • فتعلم السباحة قد يعطل تعلم كرة القدم وحفظ درس فى اللغة
الاسبانية قد يعطل حفظ درس يتلوه فى اللغة الايطالية ويساعد أيضا
على نسيانه ، وذلك للتشابه الكبير بينهما •

---

(١) يقصد بالراحة الاسترخاء او النوم او قراءة مجلة غير دسمة.

هذان النوعان من التعطيل مثالان للانتقال السلبى لأثر التدريب الذى شرحناه فى الفصل السابق •

ومما أسفرت عنه التجارب :

١ — أنه كلما زاد التشابه بين المادتين ، السابقة واللاحقة ، فى المعنى أو المحتوى أو الشكل ، زادت درجة انطماس احداهما بالأخرى • وكلما اختلفا كأن تكون احداهما قصيدة تحفظ والأخرى أغنية تنشد — قلت درجة نسيان كل منهما • من أجل هذا يتعين على الطالب ألا يذاكر مادتين متشابهتين احداهما بعد الأخرى ، وينبغى على ادارة المدرسة مراعاة ذلك أيضا فى ترتيب جداول الدروس فلا تتتبع درسا فى اللغة بدرس فى لغة أخرى فى ترتيب جداول الدروس فلا تتبع درسا فى اللغه بدرس فى لغة أخـرى ، أو تتبع درس التاريخ بدرس الجغرافيا أو الأدب ، اذ الأفضل أن يتبع درس اللغة درسا فى الرياضيات وأن تتبع درس التاريخ درسا فى الألعاب الرياضية مثلا • بل ربما تدعونا هذه الظاهرة الى عدم تعليم الطلاب لغتين أجنبيتين فى وقت واحد •

٢ — أن التعطيل بنوعيه يكون ضعيف الأثـر ان تم تعلم المـادتين وفق شروط التعلم المثمر • فالمـواد المفهومة والمنظمة لا ينال منها التعطيل ما يناله من غيرها • فمن أراد ألا ينسى فليحسن التحصيل •

فالنسيان وفق هذه النظرية ليس عملية سلبية تنجم عن مجرد مرور الزمن ، كما ترسم نظرية الترك والضمور ، بل عملية تنشأ عن تداخل ايجابى لأوجه نشاط مختلفة من بعض الوجوه : أى عما يقع فى الزمن من أحداث •

٢ — نظرية الـكبت :

رأينا عن دراسة الدوافع اللاشعورية أن نسيان المواعيد والتواريخ والأسماء والأحداث • قد ينجم عن رغبات مكبوته • ويرى « فرويد » أنا ننسى — عن طريق الكبت — مالا نهتم به ، ومالا نريد تذكره ، وما هو مصطبغ بصبغة وجدانية منفرة أو مؤلـمة ، خاصة ما يجرح كبرياءنا • وقد دلت الملاحظات وكذلك التجريب على صـدق هذه

النظرية الى حد كبير وعلى أنها تفسر كثيرا من حالات النسيان لا كلها. فقد ننسى اسم شخص لأننا نكرهه أو لأنه يذكرنا بشخص آخر نكرهه، أو نخافه أو نغار منه • ويندر أن ننسى أسم شخص نحبه أو رقم تليفونه • ولو سجل الانسان فى قائمة قبيل نومه ما يعتزم القيام به فى الغد من أعمال وواجبات ومطالب . ثم عاد الى هذه القائمة فى تمام اليوم التالى لوجد أن مانسيه هو مالم يكن يرغب لا شعوريا فى أدائه. ولقد كان « داروين » يسجل على الفور جميع الوقائع والملاحظات والأفكار المضادة لرأيه ، فقد علمته خبرته أن أمثال هذه الأفكار والوقائع أسرع الى النسيان من تلك التى تؤيد صدق نروضه • وهؤلاء الأشخاص الذين يتحسرون على الماضى ويرددون دائما « الله يرحم زمان » انما يفعلون ذلك لالأن الماضى كان غفلا ممايكدر ويزعج ولكن لأن الانسان يميل الى نسيان المؤلم وتذكر السار •

وقد أجريت تجارب كثيرة جدا فأيدت هذه النظرية • من هذه التجارب أن طلب الى ٥١ طالبا أن يسجلوا جميع خبراتهم السارة وغير السارة خلال الأسابيع الثلاثة التى سبقت التجربة ، وبعد ثلاثة أسابيع طلب اليهم أن يسترجعوا القائمتين فوجد أنهم استرجعوا ٥١٪ من الخبرات السارة و ٣١٪ من غير السارة • كما دل التجريب أيضا على أن كلا من الخبرات المؤلمة والسارة أسهل تذكرا من الخبرات التى لا يهتم بها الفرد ولا يلقى اليها بالا •

والنسيان وفق هذه النظرية عملية انتقائية لها وظيفة حيوية هى حماية الفرد مما ينغصه ويؤلمه ، وحمايته من التوافه الطفيلية ومالا قيمة له فى نظره حتى يتاح له أن يتفرغ لما هو أهم وأجدى •

الواقع أن النسيان بالكبت يمكن اعتباره نسيانا بالتداخل ــ تداخل رغبة لا شعورية لا يفطن الفرد الى وجودها مع رغبة شعورية هى القصد الظاهر للفرد كما هى الحال فى فلتات اللسان وزلات القلم •

ومما يذكر أن النسيان بالكبت يعتبر عجزا عن الاسترجاع وليس قصورا أو ضعفا فى الوعى والاحتفاظ ؛ اذ أن المكبوت المنسى يمكن أن يظهر ويستحى أثناء جلسات التحليل النفسى أو أثناء النوم المغناطيسى أو فى حالات الخدر الخفيف ، وقد ينطق به الفرد أثناء نومه •

الخلاصة : ان نسيان المواد المختلفة والنسيان فى المواقف المختلفة يتطلبان تفاسير مختلفة • فبعض الحالات ترجع الى ضعف الانطباع الأصلى ، وبعضها يرجع الى عدم الاهتمام ، وحالات أخرى ترجع الى التعطيل الرجعى أو البعدى ، أو الرغبة فى النسيان ، أو الاضطراب الانفعالى • وأكثـــر حالات النسيان التى يشكو منها الطلاب سببها عدم مراعاة شروط التحصيل الجيد ••• وقد يتضافر عـــدد من هذه العوامل مما يجعلنا لاندهش لظاهرة النسيان بل لظاهرة التذكر •

قياس الوعى والنسان :

هناك طرق ثلاث لقياس درجة الوعى أو النسيان :

١ـ طريقة الاسترجاع : وتتلخص فى تقدير قدرة الشخص على استرجاع درس حفظه أو قائمة من الأسماء أو الأرقام أو الصور بعد فترة معينة من الزمن ويلاحظ أنه اذا كان المطلوب قياس الوعى عن ظهر قلب ، فيجب أن تكون المـــادة جديدة وغير مألوفة حتى لا يتدخل عامـل المعنى أو الميل أو أثر المعلومات الســابقة • وهنا يستخدم الباحثون قوائم من الفاظ غير مترابطة أو مقاطع عديمة المعنى أو قائمة طويلة من الأرقام ، وذلك حتى يكون لدى الحافظ شىء يتعلمه ، وحتى يكون فى موقف جديد عليه كموقف الفأر فى المتاهة •

٢ ـ طريقة التعرف : وفيهـــا تعرض على المفحوص مادة معينة كمجموعة من الجمل أو من الصور الفتوغرافية • وبعد فترة تطول أو تقصر ، تعرض عليه نفس المجموعة وقد أضيفت اليها طائفة جديدة من الجمل أو الصور • وعليه أن يتعرف ما سبق أن رآه فى العرض الأول •

٣ ـ طريقة اعادة الحفظ : وفيها يكلف المفحوص حفظ قائمة من الأرقام أو قصيدة من الشـــعر أو فقرة من فصـــل حتى يتســنى له استرجاعها دون خطأ • ثم يطلب اليه أن يسترجعها أو أن يتعرفها بعد فترات متفاوتة الطول : بعد ساعة ويوم وعشرة أيام وشهر وعشرة شهور ، فان عجز عن تذكرها دون خطأ ، كلفه أن يعيد تحصيلها حتى يحفظها جيدا • فاذا فرضنا أنه كررها فى التجربة الأولى ٥٠ مرة ،

وفى التجربة الثانية ١٠ مرات فقط ، كان الرقم ٤٠ مقيـاس الوعى والرقم ١٠ مقياس النسيان ، أى انه نسى ٢٠٪ من المـادة •

وقد وجد أن الشعر المحفوظ ، حتى ان ترك ٤٠ عاما دون استرجاع، فمن الممكن حفظه مرة أخرى فى وقت أقل من حفظ شعر جديد • وحتى ان نسى الحافظ ما حفظه نسيانا تاما فانه يجد سهولة نسبية فى اعادة الحفظ • ويتخذ العلماء هذه الظاهرة دليلا على أن النسـيان ليس امحاء ما سبق اكتسابه بل مجرد صعوبة فى تذكره •

نتائج تجارب النسيان :

أدت التجارب التى أجريت فى موضوع النسيان الى نتائج كثيرة من أهمهـا :

١ ــ أن بين الناس فروقا كبيرة من حيث قدرتهم على الوعى ومن حيث سرعة النسيان •

٢ ــ أن العادات والمهارات الحركيـة أعصى على النسـيان من المعلومات والمحفوظات اللفظية •

٣ ــ أن المبادىء والاتجاهات والأفكار العامة وطرق التفكير أعصى على النسـيان من الوقائع والمعـلومات • فنحن ننسى كثـيرا من المعلومات التى حصلناها فى المدرسة . لكننا نحتفظ بكثير من المهارات العقلية والاتجاهات العلمية التى اكتسبناها فيها . كطرق الاستذكار المثمرة والطرق الصحيحة لحل المشكلات العملية •

٤ ــ أن المـادة المفهومة ذات المعنى والمـادة التى أشبع حفظها يكون نسيانها أبطأ من غيرها •

٥ ــ أن نوع النشاط الذى يمارسه الفرد بعد الحفظ والتحصيل يؤثر الى حد ما فى درجة النسيان •

٦ ــ أن النسيان أثناء النهار أسرع منه أثناء النوم •

٧ ــ أن النسيان يكون فى أول الأمر أى بعد الحفظ والتحصـيل سريعا جدا حتى لقد يفقد المرء نصف ما حفظه خلال العشر الساعات

الأولى من حفظه ، ثم يأخذ النسيان فى التباطؤ تدريجيا بمضى الزمن حتى يصبح فى النهاية بطيئا جـدا •• وتتوقف هذه السرعـة بطبيعة الحال على نوع المـادة ودرجة تنظيمها وفهمها واشباعها • من هذا نرى أن اختبارا قصـيرا أو مراجعة يجريها المدرس فى آخر الدرس تتلوها مناقشة أجدى فى تأخير النسيان من المراجعات الشكلية التى التى يجريها بعد عدة أيام أو أسابيع •

٨ ـ ولم تؤيد التجارب الرأى الشائع بأن من يحفظ سريعا ينسى سريعا • فان كانت سرعة الحفظ ترجع الى يقظة الحافظ وانتباهه الى الحقائق والعلاقات فيما يحفظ كان حفظه أثبت ممن يحفظ ببطء لعدم انتباهه أو ضعف ذكائه •

٤ ـ الاســترجاع

الاسترجاع هو استحضار المـاضى فى صورة ألفـاظ أو معـان أو حركات أو صور ذهنية • وقد يكون جزئيا أو كليا ، ناقصا أو مكتملا• فالاسترجاع المكتمل أو **الاســتدعاء** recollection هو استرجاع تكون فيه الذكريات محـددة فى الزمان والمـكان • فقد أستطيع أن أسترجع اسم شخص أو بيتا من الشعر لكن لا استطيع أن أتذكر متى حفظت هذا البيت أو رأيت هذا الشخص ، وفى أى مكان حفظت البيت أو رأيت الشخص • فالاستدعاء استرجاع وتحديد فى الزمان والمكان• وقد يكون الاسترجاع استجابيا مقصودا أو تلقائيا يحدث دون مؤثر ظاهر ودون قصد كوثوب اسم أو أغنية الى الذهن دون مناسبة صريحة لظهورها ، وكتلك الأحداث الهامة التى لا نعيرها انتباها فى زحمة أعمالنا اليومية لـكنها سرعان ما تطفو وتستحوذ على أذهاننـا فى لحظـات الاسترخاء • وقد يتخذ الاسترجاع التلقائى شـكل ميل قسرى الى استرجاع الأفكار والمشاعر دون مؤثر ترابطى ظاهر ، كما هى الحال فى القلق الموضوعى الذى يفرض نفسه علينا فرضا ويشغل بالنا حين لا تتم الأمور التى بدأناها أو التى ننتظرها كما نريد ، وكتلك الأحـلام التى تتكرر رؤيتنا لهـا أياما أو أسابيع متتالية ، يدور فيها الحلم حول مشكلة معلقة يستعصى علينا حلها وغالبا ما ينتهى الحلم حين تحل المشكلة • ويسمى هذا الميل الى استمرار النشاط حتى ينتهى ، حسـيا كان أم حركيا

أم انفعاليا ، يسمى الاستمرارية أو «القصور النفسي» perseveration وهو يبدو بشكل واضح حين يحال بين الفرد أن يتم عملا بدأه أو انهمك فى انجازه ، أو حين تحول الظروف دون حل مشكلة عرضت له ، أو دون التعبير المناسب عن انفعالاته بالقول أو الفعل ، فاذا به يظل يجتر الانفعال ، وهو فى حالة موصولة من التوتر لا تنتهى حتى يتاح له اتمام عمله ، أو حل مشكلته ، أو التعبير عن انفعاله.وهنا يبدو ما بين ظاهرة الاستمرارية ومبدأ استعادة التوازن من تشابه (ص ٧٤) .

معطلات الاسترجاع

التعلم وحده لا يضمن الاسترجاع ، فقد يكون الذهن حاشدا بالمعلومات لكن على صورة مهوشة غير مرتبة بحيث يشق على الفرد أن يتذكر ما حصله حين يحتاج اليه وهو فى ذهنه . بل ان الاسترجاع ليس نتيجة حتمية للوعى الجيد ، فقد نعرف اسم شخص لكننا لا نستطيع استرجاعه الآن ، بل فيما بعد . وكثير من الطلبة يعرفون الاجابة على أسئلة الامتحان ، لكنهم فى زحمة الامتحان يدلون بأجوبة خاطئة أو لا يتذكرون الأجوبة الصحيحة الا بعد انتهاء الامتحان . كذلك الحال فى تهيب الخطيب من الجمهور . وخجل الفتى من محادثة الفتاة ، والصدمات الانفعالية التى يكبتها الفرد فينساها ؛ ومع هذا فهو يراها أو يتحدث عنها فى أثناء نومه أو يسترجعها بوضوح بعد شفائه .. ويسمى هذا **بالتعطيل الانفعالى** .

والتداخل من العوامل التى تعطل الاسترجاع . فقد يحاول الفرد أن يسترجع اسم شخص معين فتثور فى ذهنه عدة أسماء يضرب بعضها بعضا فيستعصى استرجاع المنشود . وقد تعرض للخطيب فى آن واحد طريقتان للتعبير عن نفس الفكرة فاذا به يتردد أو يرتج عليه .

وقد يكون الاصرار على الاسترجاع معطلا للاسترجاع خاصة ان كان الاصرار فى اتجاه خاطىء فالملاحظ أن الانسان ان استعصى عليه استرجاع اسم شخص أو تاريخ أو حادثة وأصر على استرجاعه لم ينفع هذا الاصرار . فان ترك هذه المحاولة وأعمل فكره فى موضوع آخر فقد يثب الاسم الى ذهنه من تلقاء نفسه . ولهذا السبب نفسه

يطلب المحلل النفسي الى المريض أثنـاء جلسـات التحليل النفسي أن يضطجع على أريكة وأن يسترخي حتى يتسنى له أن يطلق العنـان لخواطره وأفكاره وأن يذكر كل ما يطرأ على ذهنه من ذكريات قديمة .

ميسرات الاسترجاع :

هناك عوامل كثيرة ذاتية وموضوعية تيسر عمليـة الاسترجاع من أهمهـا :

١ — الوجهة الذهنية mental set ويقصد بها استعداد الفرد وتأهبه للقيام بنشاط معين ، ذهنيا كان أم حركيا . ويبدو أثره حـين نذكر أن ما ينساه الطلبة من المواد بعد الامتحان أكثر بكثير مما ينسونه قبيل الامتحان وهم فى حالة تهيؤ شديد لاسترجاعه . وقد وجـد أن الطلبة الذين يهيئون لاسـترجاع مـادة معينـة فى وقت معين يكون استرجاعهم لها أكثر وأحسن مما لو استرجعوها وهم لا يتوقعون أن نطلب اليهم استرجاعها .

٢ — الاستمرارية perseveration : أشرنا منـذ قليل الى أن لدى الانسان ميلا قويا الى الاستمرار فى نشاطه متى بدأ هذا النشاط حتى ينتهى ، ذلك أن الأعمال المبتورة تخلق فى نفسه توترات لا تزول الا أتم هذه الأعمال وأغلق دائرة نشاطه [1] . وقد أجرت الباحثـة الألمانية « تزيجارنك » Zeigarnik تجربة بينت أن الأعمال المبتورة أسهل استرجاعا من الأعمال المكتملة ، فقد كلفت مجموعة من الأشخاص القيام بأعمال بسيطة مختلفة عددها عشرون ككتابة قصيدة معروفة من الذاكرة ، وعمل تماثيل صغيرة من الصلصال ، ورسم اناء به زهور ، وحل لغز ، وعمليات ضرب بسيطة .. وبينما هم منهمكون فى أعمالهم هذه اذا بها تطلب الى فريق منهم الكف عن العمل قبل أن يتموه بينما سمحت للباقين أن يمضوا فى أعمالهم حتى النهاية . بعد ذلك طلبت الى أفراد المجموعة كلها أن يتذكروا جميع الأعمال التى طلب اليهم القيام بها فكان الفريق الأول أكثر حفظا وتذكرا من الفريق الثانى وبعبارة أخرى فالأعمال المبتورة كانت أيسر استرجاعا لأن التوتر القائم وراءه

---

(١) يلاحظ ما بين ظاهرة الاستمرارية وعامل الاغلاق عند مدرسة الجشطلت من تشابه انظر ص ١٦٤ .

لم يستهلك • ولعل فى هذا درسا يفيد منه المعلمون والمحاضرون • فالدروس التى تثير اهتمام الطلاب دون الاجابة على كل ما تتطلبه من أسئلة أو التى تحملهم على اكمال معلوماتهم عنها من المراجع تكون أسهل فى التذكر من الدروس المكتملة التى ترضى استطلاعهم بما ليس بعده مزيد • لذا يحسن أن تعد الدروس والمحاضرات بحيث تجعل الطلاب فى حالة تأهب للمزيد عليها والاضافة اليها كى تعيش فى ذاكرتهم بعد الخروج من الدروس وتثير فى نفوسهم عددا من علامات التعجب والاستفهام •

٣ ــ اكتمال الملابسات : ان وجود الفرد فى نفس المجال الذى اكتسب فيه الذكرى يعينه على استرجاعها • فقد تعجز عن تذكر اسم شخص تراه فى بيئة جديدة بينما تستطيع تذكر اسمه فى بيئته العادية ، واحضار الشاهد الى مكان الجريمة قد يثير فى ذهنه سلسلة جديدة من الذكريات والخواطر المتصلة بها • والتلميذ الذى تعلم غناء نشيد معين وهو واقف قد يعز عليه تذكره وهو جالس أو وهو أمام حفل من الناس • وقد دل التجريب على أن أداء الطلاب للامتحان يكون أحسن حين يجرى فى نفس المكان الذى تلقوا فيه دروسهم •

٥ ــ تحريف الذكريات

ليست الذكريات مناديل محفوظة فى صندوق ، وليست صورا مثبتة على شريط سينمائى بحيث يمكن استرجاعها بنصها وفصها كما كانت عليه فى الأصل كاملة دقيقة ، بل الأمر على خلاف ذلك اذ تبدأ الذكريات فى التغير والتحور عقب الادراك مباشرة ، فان كان الادراك الأصلى للموقف أو المنظر أو الحادثة •• ادراكا غير دقيق أو غير صحيح نجم عن ذلك حذف بعض التفاصيل أو اضافة أخرى • ويتخذ التحريف صورا عدة منها الحذف والاضافة ، وتضخيم بعض التفاصيل أو الغض منها ، واختيار بعضها دون بعض ، وسد ما بالذكرى من ثغرات ، وافراغ معنى على ما ليس له معنى •• وهذا بفعل عوامل شتى سنعرض لها فيما يلى ، حتى لنستطيع أن نقول ان الذكريات التى نسترجعها لا تكون صورا طبق الأصل من أصولها اطلاقا ، بل قد يبلغ التحريف حدا يباعد بين الذكرى وأصولها بعد النقيضين فيما يصفه أحد الكتاب فيقول : شتان بين ذاكرتى ومذكرتى ، ان رجعت الى مذكرتى

وجدتنى شخصا ساخطا جزعا متبرما بالحياة لا أجد لذة فيهـا • فان سألت ذاكرتى لم أر الا أياما جميلة وحياة تشع بالرضا والحـب •

وقد رأى بعض العلماء أن يبرز أثر العوامل التى تؤدى الى تحريف الذكريات باجراء تجارب قوامها أشكال بسيطة لا معنى لها ، تعرض لمدة وجيزة ، ١٥ ثانية مثلا ليفحصـها الشـخص ثم يعيد رسمها من الذاكرة (أنظـر شكل ٢٠) • فلو كانت الأشـكال المعروضة أشـكالا هندسية مألوفة كالمربع أو الدائرة لم يجد الشخص صعوبة فى اعـادة رسمها ولو كانت رسما لكلب أو زجاجة أو شىء مألوف حفظ المفحوص اسمها ورسمها دون نقص أو تحريف • ولكن بما أن الأشكال المعروضة (وهى المرسومة فى العمود الأيسر) لا معنى لها كانت مهمته أصعب • وقد خرج العلماء من أمثال هذه التجارب بعدة عوامل تعمل على تحريف الذكريات من أهمهـا :

١ ـ **عامل التسوية** Leveling : وهو عامل يميل بالفرد الى سد الثغرات واكمال النقص فيما يسترجع ، وكذلك الى تنظيمه وتنسـيقه وحذف التفاصيل غير المفهومة منه وتبسيطه (صف ٤ و ٥) •

٢ ـ **عامل الارهاف** Sharpening : عكس العامل السابق ، وقـد يقترن به • ويتلخص فى ابراز بعض العناصر والمبالغة فيها وتوكيـد العناصر التى تؤثر فى الشخص تـأثيرا خاصـا ـ ويبـدو أثر هذين العاملين معا فى الصفين ٤ و ٥ من الشكل السابق •

1
2
3
4
5

شكل ٢٠

٣ ـ عامل التمثيل Assimilation ويتلخص فى تحويل الأشياء غير المألوفة الى أشياء يألفها الشخص وافراغ معنى على ما ليس له معنى ـ الصفان ٢ و ٣ ٠

وقد وجد أن هذه العوامل نفسها تؤدى الى تحريف ما يدور على ألسنة الناس من قصص واشاعات . خاصة عامل التمثيل الذى ينجم عنه تحريف الذكريات وفق ميول الفرد ومعتقداته وانحيازاته وما يؤمن به من قيم ٠

الشهادات القضائية :

دلت نتائج التجارب التى أجريت فى هذا الموضوع على أن صدق الشهادة أمر نادر شاذ لا يتفق مع توكيد الشاهد وشعوره اليقينى ٠ ومن هذه النتائج أيضا :

١ ـ ان كثيراً من أخطاء الشهادة يرجع الى ادراك مضطرب غير دقيق للحادث نتيجة التأثر الانفعالى للشاهد فى أثناء ادراكها ٠

٢ ـ ان أكثر الأخطاء شيوعا فى الشهادة هو حذف التفاصيل ٠

٣ ـ أما التحريف الايجابى وهو اضافة تفاصيل لم تقع ، فأقل شيوعا من حذفها ٠

٤ ـ أن الشاهد الذى يذكر التفاصيل بحذافيرها يدعو الى الظن بأنه شاهد زور ٠

٥ ـ أن تقارير الشهود عن الأشياء والأشخاص ونشاطهم أدق من تقاريرهم عن صفات الأشياء والأشخاص ومميزاتهم ٠

٦ ـ أن سؤال الشاهد يزيد من مقدار شهادته لكنه يزيد أيضا من أخطائه ويتوقف عدد الأخطاء الى حد كبير على درجة الايحاء فى الأسئلة التى توجه اليه ٠ والأسئلة الايحائية عامل هام فى تحريف الشهادة ، كأن يقال للشاهد : هل كان المتهم يلبس معطفا أزرق أو أسود ، فى حين أنه لم يكن يرتدى معطفا ٠

٧ ـ أن تقارير الشهود عن الزمان والمسافات خاطئة الى حد كبير ٠

٨ ــ كلما طال **الزمن** بين الحادثة والشهادة ، زادت الشهادة تحريفا . وازداد **يقين الشاهد** فى الوقت نفسه •

٩ ــ أن الشهادة ان اقتصرت على الأشياء التى يوقن الشاهد بحدوثها أو وجودها ، زاد صدقها بعض الشىء •

١٠ ــ أن السماح للشاهد بتكرار شهادته يزيد من شعوره ايقينى دون أن يزيد من صدق شهادته •

١١ ــ كلما كثر عدد الشهود قلت قيمة الشهادة •

عوامل التحريف : من العوامل المحتملة لتحريف الذكريات : ١ ــ عدم الادراك الدقيق للموقف الأصلى ، هذا ان لم يكن الادراك نفسه محرفا بفعل العوامل الذاتية التى تفرق بين الناس من حيث ادراكهم (ص ١٧١) • ٢ ــ ثم ان ما لدى الفرد من ميول واتجاهات وتوقعات وانحيازات لا يؤثر فقط فى ادراكه بل وفى تذكره أيضا • فقد أجريت تجربة عرضت فيها لبرهة وجيزة صورة لمنظر مشاجرة فى أحد أحياء مدينة أمريكية وكان من بين ما فيها منظر رجل أمريكى أبيض يطعن زنجيا بسكين • فلما طلب من المشاهدين استرجاع ما رأوه فى الصورة تذكر أغلب « البيض » أن الزنجى هو الذى كان يمسك بالسكين ويطعن • ٣ ــ كما أن مرور الزمن قد يؤدى الى نسيان فعلى لبعض التفاصيل التى أدركها الفرد ادراكا صحيحا ، ومتى حدث هذا النسيان فلدى الانسان ميل قوى الى سد الثغرات وافراغ معنى على الأشياء والمواقف التى لا معنى لها وتضيف الأشياء المبعثرة وتنظيمها (أنظر عامل الاغلاق ص ١٦٤) • وربما كان هذا من أهم العوامل فى تحريف الشهادات القضائية حين يروى الشاهد ، عن غير قصد الى الكذب ، ما يراه معقولا أو محتملا وليس مارآه بالفعل • ٤ ــ ولنذكر فضلا عن ذلك أثر الحالة الجسمية والمزاجية فى الاسترجاع ، ومنها التعب والمرض والانفعال • فنحن فى حالة الحزن تراودنا الذكريات الحزينة ، وفى حالة الغضب ننسى ما يتسم به خصمنا من محاسن ومزايا • ٥ ــ ومن عوامل التحريف فى الشهادات القضائية بالذات اختلاط ما سمعه الشاهد أو رآه بما سمعه من الناس أو قرأه فى الصحف ، وعدم تعمده تذكر مارآه من تفاصيل الحادثة ، وثمة فارق بين التعلم العرضى والتعلم المقصود (ص ٢٣١) •

من هذا نرى أن عملية الاسترجاع ليست مجرد استحضار لصور مخزونة بل هى عملية اختيار وتنظيم وخلق واختلاق • ولو صحت النظرية التى ترى أن الذكريات تسجل فى الجهاز العصبى كما تسجل الصور الفتوغرافية على الشريط السينمائى لكانت الذكريات المسترجعة صورا طبق الأصل من أصولها •

٦ ــ التعرف

التعرف هو الشعور بالألفة حيال الأشياء والأشخاص التى أدركها الفرد من قبل • وهو حالة شعورية قد تكون مضمرة أو صريحة ، غامضة أو واضحة ، وقد تكون سريعة أو بطيئة كما لو نظرت الى شخص يبدو مألوفا لديك وشعرت بأنك لابد أن تكون قد رأيته فى مكان ما • فلا يزال هذا الشعور ملازما لك حتى تتذكر أين رأيته وفى أية مناسبة وللتعرف صورة أخرى عملية تبدو فى سلوكنا حيال الأشياء العادية المألوفة ، كما يتعرف الفرد طريقه الى منزله بينما هو يفكر فى شىء آخر ، أو كما يبتسم الطفل لشخص سره من قبل ، أو كما نعرف استخدام الأدوات العادية كالكرسى والقلم والساعة والتعرف أيسر من الاسترجاع • فقد يعجز الفرد عن استرجاع اسم أو رسم أو قصيدة أو تاريخ لكنه يستطيع تعرف هذه الأشياء حين تعرض عليه • ذلك أن الفرد فى الاسترجاع يتعين عليه أن يستحضر ما سبق أن حصله أو خبره أو درسه ،بينما تعرض عليه المادة أو الموضوع فى عملية التعرف • الواقع أن التعرف أقرب الى الادراك الحسى منه الى الاسترجاع • فهو الخطوة الأولى بعد الادراك • فأنت تدرك أن هذا الشىء كتاب ، وأنه الكتاب الذى أهداه لك صديقك •

وقد يعين الاسترجاع على اكمال التعرف الجزئى كما لو لقيت أحد من تعرفهم فى بيئته غير العادية فقلت لنفسك انى أعرفه ، ولكن من هو ؟ فاذا بك تحاول أن تسترجع الزمان والمكان والظروف التى عرفته فيها من قبل • كذلك قد يكمل التعرف الاسترجاع كما لو كنت تحاول تذكر اسم شخص فاسترجعت عدة أسماء لم ترضك ، وأخيرا تسترجع اسما يبدو لك أنه الاسم الصحيح أى تتعرفه ، فتتم عملية الاسترجاع •

خداعات التعـرف :

التعرف كالادراك عرضة للأخطاء والخداعات ، فمن بين خداعاته :

١ — الشعور بالألفة حيال موقف جديد غير مألوف ، كأن يشعر الفرد أنه لم سبق له أن زار مكانا وهو لم يزره أو أنه سمع هذا اللحن مع أنه لم يسمعه من قبل ، أو أنه صاغ هذا الرأى مع أنه ليس من بنات أفكاره ، بل من صوغ غيره • ويسمى هذا الخداع خداع الشعور بما سبقت رؤيته paramnesia وأخطاء الشهادات القضائية ترجع اليه أكثر مما ترجع الى النسيان •

٢ — العجز عن تعرف المألوف : وقد يرجع هذا العجز الى أن الفرد لم يكن يتوقع أن يرى ما رآه ، أو الى رؤية الشيء المألوف فى ظروف غير ظروفه العادية • ويبدو هذا الخداع بشكل صارخ فى بعض الأمراض العقلية • فترى المريض لا يعود يعرف صديقه أو زوجته ، بل يراهما غرباء عنه ، أو تراه لا يعود يتعرف الأشياء المألوفة ، كالسكين أو القلم أو الساعة ، فلا يعود يقدر على استعمالها •

ومع أن التعرف يكون فى العادة أكثر صدقا وأبعد عن التحريف من الاسترجاع ، غير أننا يجب أن نحذر من خداعاته • وفى سجلات المحاكم حالات أدين فيها المتهم وحكم عليه بالسجن مدة طويلة ثم ثبت أخيرا أنه لم يكن فى مكان الجريمة ، بل لم تكن له صلة بالجريمة • أمثال هذه الحالات تهيب بنا أن نلزم الحذر فنقف من ذكرياتنا موقفا ناقدا حريصا وذلك فيما يتصل بالتعرف والاسترجاع جميعا ، ان كنا من الشاهدين •

٧ — هل يمكن تقوية الذاكرة ؟

دل التجريب على أن الانسان ليست له ذاكرة عامة واحدة ان كانت قوية لديه حسن تذكره كل شيء مهما كان نوعه ، وان كانت ضعيفة كان تذكره جميع الأشياء رديئا • بل ان للانسان ذاكرات متعددة مستقلة : للاشكال وللالوان وللاصوات وللالفاظ ولوجوه الناس وللمعاني وللحركات وللعلاقات المنطقية ••• وقد تكون احداها أو بعضها قوية والأخرى ضعيفة عند الشخص نفسه • فقد تكون للعالم

ذاكرة منطقية فى علمه الخاص لكنه يملك ذاكرة مهوشـــة أو مضـــطربة لأوجه الناس أو للأدوار الموسيقية أو لأرقام التلفونات • وكى لا يظن أن الذاكرة ملكة عامة مستقلة كما كانت تزعم نظرية بائدة من نظريات علم النفس تسمى « نظرية الملكات » ، أصبح العلماء يفضلون التحدث عن عملية التذكر مع التخصيص فيقولون التذكر الحركى والتذكر اللفظى وتذكر المعلومات والتذكر المنطقى وهو التذكر الذى يقوم على الفهم والتفكير دون التقيد بالألفاظ والتفاصيل ••

ومن ناحية أخرى لقد قدمنا أن للتذكر وظائف أربع هى التعلـــم أو التحصيل والوعى والاسترجاع والتعرف ، فأية وظيفة من تلك نعنى حين نتحدث عن تدريب الذاكـــرة وتقويتها ؟ فأما الوعى فاســـتعداد فطرى موروث لا يمكن تحسينه بالتدريب بل باجراءات صحية ، وأما الاسترجاع والتعرف فلا يتسنى ضبطهما ، كما رأينا ، الا بمقدار والى حد محدود • وعلى هذا فالذى يمكن تدريبه وتحسينه هو القدرة على التعلم أى التحصيل • ولقد خصصنا الفصل الثالث من هـــذا الباب لدراسة شروط التحصيل الجيد وطرقه الاقتصادية • وسنعيدها موجزة مع اضافة وصايا أخـــرى تعين الطالب على التحصـــيل والاستذكار المثمـــر :

١ ــ حدد لنفسك وقتا خاصا تبدأ فيه المذاكرة ومكانا خاصا تذاكر فيه • فكثير من العادات تتخذ صورة الدوافع •

٢ ــ اتخذ جلسة الانتباه لا جلسة الاسترخاء والتكاسل التى تعطل التحصيل بالفعل •

٣ ــ قاوم شرود الذهن ما استطعت متبعا ما قدمناه من وصـــايا فى موضوع الانتباه •

٤ ــ كثيرا ما يكون البدء فى المذاكرة صعبا ، لذا يستحسن البـــدء بأعمال روتينية كتنظيم المذكرات أو نقل محاضرة ناقصة فيكون هـــذا بمثابة « تحمية » وشحذ على المذاكرة •

٥ ــ راجع الدرس الماضى قبل البدء فى الدرس الحاضر •

٦ — قم باجراء تجربة على نفسك لترى أيهما أصلح لك ، البدء بالأعمال الصعبة أو السهلة . الفترات الطويلة أو القصيرة في التعلم الموزع .

٧ — حدد الغرض من تحصيلك وما تريد تذكره . فالتعلم المقصود غير التعلم العارض .

٨ — ابدأ بقراءة المحاضرة أو الفصل كله من أوله لآخره لاستيعاب المادة كوحدة تساعدك على فهم الأجزاء . ثم ركز بعد ذلك على الأجزاء الصعبة .

٩ — اقرأ بسرعة وحاذر من القراءة بفتور . وقد تؤدى السرعة الى عدم وضوح الفهم في أول الأمر ، لكنك لو ثابرت عليها فسرعان ما ستجد أن تحصيلك قد ازداد أضعاف ما كنت تحصله من قبل .

١٠ — تذكر أن التحصيل الجيد عملية تفكير تتطلب نشاطا ذاتيا لا موقفا سلبيا . لذا حاول أن تجيب على أسئلة تتصل بموضوع المذاكرة . وأن تلخص الدروس بلغتك الخاصة . وأن تشرحها لغيرك أو تناقشها مع نفسك . وأن تطبق ما تحتويه من أفكار ، وألا تتطلب المعونة من غيرك الا اذا كنت في حاجة ماسة اليها .

١١ — اصرف حوالى ٤٠٪ من وقت المذاكرة في التسميع الذاتي . تخيل أنك تدرس ما تذاكره لغيرك . فان أجدت شرحه له فهذا دليل على أنك قد فهمته .

١٢ — من الأفضل مذاكرة أجزاء من مواد مختلفة كل يوم ، بدلا من أن تخصص يوما لكل مادة .

١٣ — لا تكف عن التحصيل بمجرد شعورك أنك حفظت أو فهمت ، بل امض في تكرار ما تم لك تحصيله وتجاوز به حد الحفظ بالتفكير المتواصل فيه ، أو ربطه بمواد أخرى ، أو بالاجابة عن أسئلة عليه : فهذا أدعى الى ثباته في الذهن وآمان له من النسيان .

١٤ — خذ فترة راحة كافية بين فراغك من دراسة مادة والبدء في أخرى خاصة ان كانت المادتان متشابهتين منعا من ظاهرة « التداخل » ، واترك أهم الدروس لما قبل النوم مباشرة بشرط ألا تكون متعبا .

أســــئلة

أذكر عدة أمثلة تبين أن ميولنا واهتماماتنا تؤثر فيما نتذكره ٠

٢ ــ حاول أن تتذكر أكبر عدد من الحقائق والمبادىء التى عرفتها من دراستك علم النفس ، والتى أعانتك على فهم مواد أخرى كالتاريخ أو الأدب أو الفلسفة أو العلوم الاجتماعية ٠

٣ ــ اضرب أمثلــة من تجاربك الخاصــة تدل على أثــر العــوامل الانفعالية فى تعطيل عملية التذكر ٠

٤ ــ اشرح أفضل الطرق التى ترى أن تتبعها فى مذاكرة موضــوع من موضوعات علم النفس كى يثبت فى ذهنك ، مبينا الأسس النفسية التى تقوم عليها هذه الطرق ٠

٥ ــ ناقش العبارة التى تقول ان من يحفظ سريعا ينسى سريعا ٠

٦ ــ كيف يســتطيع الفــرد أن يســتخدم ذاكرته فى تحســين شــخصيته ؟ ٠

٧ ــ ما أقدم ذكرى تستطيع أن تسترجعها من ذكريات طفولتك ، وكيف تعرف أنها ذكرى واقعية وليست من نسج خيالك ؟ ٠

٨ ــ اضرب أمثلة لأثر العوامل الاجتماعية الحضارية فى عمليــة التذكــر ٠

٩ ــ صمم تجــربة تبين قيمة « الشــهادة » عند الأطفــال وعند الراشــدين ٠

١٠ ــ يقول بعض الكتاب : « الثقافة الحقة هى ما يبقى فى عقولنا بعد أن ننسى ما حصلناه » ــ اشرح هذه العبارة ٠

١١ ــ لماذا ينسى الانسان أحيانا حوداث قريبة ويتذكر حــوادث بعيــدة ؟ ٠

١٢ ــ قوة الذاكرة عند طالب الجامعة تعنى أنه اكتسب عادات جيدة فى التحصيل والتفكير ــ اشرح ٠

الفصل الخامس

التفكير

١ – تعريف التفكير

للتفكير thinking فى علم النفس معنيان : معنى عام واسع ومعنى خاص ضيق . فالتفكير بمعناه العام هو كل نشاط عقلى أدواته الرموز أى يستعيض عن الأشياء والأشخاص والمواقف والأحداث برموزها بدلا من معالجتها معالجة فعلية واقعية . ويقصد بالرمز كل ما ينوب عن الشىء أو يشير اليه أو يعبر عنه أو يحل محله فى غيابه . والرموز التى يستخدمها التفكير أدوات له مختلفة شتى منها الصور الذهنية والمعانى والألفاظ والأرقام ، ومنها الذكريات والاشارات والتعبيرات والايماءات ، وكذلك الخرائط الجغرافية والعلامات الموسيقية والصيغ الرياضية . بهذا المعنى العام يشمل التفكير جميع العمليات العقلية من أبسطها الى أكثرها تعقيدا . فأحلام اليقظة وأحلام النوم وتصور الشخص رحلة قام بها ، أو تذكره تاريخ ميلاده، أو تخيله مستقبل أولاده ، أو تفكيره فى اعادة تنظيم غرفة بمنزله ، أو محاولته تخطيط مشروع يزمع القيام به،أو ابتكاره جهازا ، أو اتخاذه قرارا .. كل تلك تدخل فى نطاق التفكير بمعناه العام .

أما التفكير بمعناه الخاص فيقتصر على حل المشكلات حلا ذهنيا أى عن طريق الرموز . هو حل المشكلات بالذهن لا بالفعل . وهذا هو ما يعرف بالتفكير الاستدلالى أو الاستدلال

غير أن المعالجة الفعلية للاشياء لا تعنى أننا لا نفكر ، كما أن التفكير لا يعنى أن نكف عن المعالجة الفعلية للاشياء ، اذ كثيرا ما يندمج التفكير والملاحظة والعمل فى نشاط واحد متكامل كحل مشكلة عملية أو تشخيص مرض . هنا يكون التفكير مندمجا فى النشاط الحركى .

وسنعالج فى هذا الفصل أدوات التفكير المختلفة وصلة التفكير باللغة بوجه خاص ، أما الفصل التالى فسنخصصه لدراسة طرازين من طــرز التفكير الراقى المعقد هما : الاستدلال والابداع أو الابتكار •

٢ ـ أدوات التفكــير

لا يمكن التفكــير دون استرجاع ما تعلمنــاه من قبــل • فنحــن لا نستطيع حل تمرين هندسى أو الاجابة على سؤال أو حل مشــكلة أو حتى الاستسلام لأحلام اليقظة دون اســتخدام ما تعلمنــاه فى الماضى • فالاسترجاع شرط ضرورى للتفكير • غير أن التفكير يتضمن أكثر من مجرد الاسترجاع ان كان يستهدف حل مشكلة أو ابتكار شىء جديد ، اذ يقتضى فى هذه الأحوال اعادة تنظيم الماضى لحل المشكلة الحاضرة • وقد دل الاستبطان التجريبى على أننا نستطيع أن نسترجع الماضى بطرق مختلفة منها :

١ ـ الصور الذهنية وتشمل الصور الحسية والصور اللفظية كما سنرى بعد قليل • وهذا هو التصور أو التخيل •

٢ ـ عن طريق الكلام الباطن واللغة الصامتة ، أى عن طريق نشاط حركى دقيــق غير ظاهر لأعضاء النطــق وهى الحنجــرة واللســان والشفتان • وتبدو هذه اللغة الصامتة حين يتحدث الانسان الى نفسه وهو يفكر • فكثيرا ـ لا دائما ـ ما يكون التفكير حديثا أو حوارا بين المرء ونفسه ، يكلم الفرد فى أثنائه نفسه ويصدر أوامر الى نفسه ، وينقد نفسه ، أو يزجى لها النصح •• وقد يكون هذا الحوار الداخلى من العنف بحيث يرتفع صوت المفكر أثناء تفكيره ، كما هى الحال لدى الأطفال وهم يفكرون بصوت يسمعه من يحيط بهم من الناس • كذلك يبدو هذا الكلام الباطن أثناء القراءة الصامتة وأثناء الكتابة • وقد دل التجريب على أن التفكير غالبا ما يقترن بهذا الكــلام الباطن • ففى احدى الدراسات كان يوضــع قطبان كهربيان على لســان المفحوص أو تحت شفتيه ثم يوصل القطبان بجلفانومتر ـ وهو جهاز يســجل مرور التيارات الكهربية ـ فكان مؤشر الجهاز يتحرك اذا طلب الى الشخص أن يعد سلسلة من الأرقام ، أو يتذكر قصيدة أو أغنيــة ، أو يتخيل أنه يــذكر تاريخ اليوم لأحد أصــدقائه ، أو أن يفكر فى اللانهايــة والخلود •

٣ — كما دلت التجارب الاستبطانية أيضـــا على أننا نســـتطيع أن نسترجع الماضى وأن نفكر دون صور ذهنية ودون كلام باطن ، بل عن طريق التصور العقلى لمعان وأفكار غير مصوغة فى ألفـــاظ ، كمـــا فى التفكير الرياضى والفلسفى . بل ان ظهور الصور والكلام الباطن فى مثل هذه الأحوال قد يعوق التفكير ويعطله عن السير فى مجراه المتدفق .

٣ — الصــور الذهنية

اذا كنت تنظر الى كتاب امامك وتراه ، فالكتاب فى هـــذه الحـــالة « مدرك حسى Percept » ، فان أغمضت عينك استطعت أن تراه أيضا ، وما تراه فى هذه الحالة يسمى « صـــورة حســـية » بصرية للكتاب . واذا كنت تفكر فى صديق غائب فأكبر الظن أنك تستطيع أن تتمثله « بعـــين العقـــل » وأن تســـمع صـــوته أيضا . وهاتـــان صورتان حسيتان أولاهما بصرية والثانية سمعية . ولو تسنى لك أن تنعم فى خيالك بشذى وردة أو طعم تفاحة فالخيـــال الأول صورة شمسية والثانى صورة ذوقية . ولو استطعت أن تتصـــور ملمس قطعة من الجليد أو من « الصنفرة » فهذه صورة حسية لمسية . ولو تصورت قيامك بحركة انحناء لالتقاط شىء من الأرض فهذه صـــورة حســـية حركية . .

فى مقابل هذه الصور الحسية توجـــد الصور اللفظية . وهذه امـــا لفظية بصرية كتصور كلمة مكتوبة على ورقة ، ولفظية سمعية كتصور كلمة ينطق بها أحد ، ولفظية حـــركية كتصور كتابة كلمة ، ولو تسنى لك أن تتصور نطق كلمة من الكلمات عن طريق الاحساسات العضلية التى تشعر بها عند النطق فهذه صورة لفظية صوتية حركية .

فالصورة الذهنية اذن اما حسية او لفظية . هى خبرة أو واقعـــة ذات طابع حسى يستحضرها الفرد فى ذهنه . واذا كان الادراك الحسى هو تفطن الفرد لأشياء حاضرة بالفعل تؤثر فى حواسه ، فالتصـــور هو استحياء هذه الأشياء فى الذهن على هيئة صـــور فى غيبة التنبيهات الحسية .

طرز التصور : ويختلف الناس من حيث نوع الصور الذهنية التى تغلب على تفكيرهم . فبعضهم يسهل عليه تصور المناظر وأشكال الأشياء ، وآخرون يسهل عليهم تصور الأصوات والأنغام . ويقال ان فريقا من الناس يسهل عليهم تصور المرئيات والمسموعات ، وأن هناك من يتصورون الأشياء عن طريق رائحة خاصة • وقد حدا هذا ببعض العلماء الى تصنيف الناس حسب الصور الغالبة على تفكيرهم الى طرز تصورية فهناك « البصريون » و « السمعيون » و « الحركيون ». فالبصريون يفضلون استخدام الصور البصرية ويعجزون عن استخدام غيرها من الصور أو يستحضرونها فى غموض • غير أن التجارب الحديثة دلت على فساد هذا الرأى ، فأغلب الناس صغارا كانوا أم كبارا من صنف خليط ، وأقلهم يقتصر تصوره كله على نوع واحد من الصور • كما دلت التجارب أيضا على أن التصور البصرى غالب فى مرحلةالطفولة عنهفى أى مرحلة أخرى ، وأن الصور البصريةوالسمعية أكبر أرا فىتفكير الانسان من الشمية والذوقية وغيرها •

ومما يجدر ذكره أن أغلب الصور الذهنية مركب أى يتكون من من عناصر حسية مختلفة يندمج بعضها فى بعض ، وأننا نصف الصورة غالبا بأظهر عنصر فيها •

٤ ــ المعانى

فى الادراك الحسى نكون بصدد أشياء وأحداث فردية جزئية خاصة• فنحن نرى بيتا معينا أو نسمع صوتا معين أو نشم رائحة معينة هى الأشياء الماثلة أمام حواسنا ، وبذا لا نستطيع أن نتحدث أو نفكر الا فى هذه الجزئيات الخاصة وبعبارة أخرى فالمعانى التى نفرغها على الأشياء فى الادراك الحسى معانى مصطبغة بأعراض حسية خاصة بهذه الأشياء وحدها دون غيرها • وغنى عن البيان أن تفكيرنا لو وقف عند هذا المستوى من الادراك ما استطعنا أن نفكر أو أن نتحدث عن البيوت بوجه عام أو عن الكتب بوجه عام أو عن الأصوات أو الروائح بوجه عام • غير أننا نحن الكبار نستطيع أن نفكر فى البيوت أو المعادن أو الكتب بوجه عام مهما اختلفت أشكالها وألوانها وحجومها وما بها من تفاصيل وعرضيات •• وبعبارة أخرى فنحن

نستطيع أن نستخدم الأفكار العامة والمعانى الكلية أدوات لتفكيرنا ، أى أننا نستطيع أن نفكر فى مستوى أعلى وأرقى من مستوى الادراك الحسى •

والمعنى الكلى أو المعنى فقط concept هو فكرة عامة نخرج بها نتيجة لخبراتنا بصنف معين من الأشياء يشترك أفراده فى بعض الصفات وتختلف فى صفات أخرى • فمعنى « القط » يشير الى صنف من الحيوان يشترك أفراده فى بعض الصفات مع أنها تختلف فى صفات أخرى كالحجم واللون والشكل وطول الشعر وكثافة الذيل • ومعنى « المثلث » يشير الى صنف من الأشكال يشترك أفراده فى بعض الصفات مع اختلافها فى المسافة أو اللون أو الزوايا أو طول الاضلاع، ومعنى « الشجرة » يشير الى صنف يتشابه أفراده فى نواح وتختلف فى الشكل والحجم والطول ونوع الزهور أو الثمار •• وان قسطا كبيرا من الكلمات فى أية لغة معقدة راقية يمثل معانى وأفكارا عامة • فكلمات « المعدن » أو « الكلب » أو « السائل » أو « الجمال » وغيرها تعبر فى لغتنا عن أوجه للشبه بين أشياء وموضوعات يختلف بعضها عن بعض فى كثير من النواحى •

المعنى السيكولوجى والمنطقى : وبما ان معنى الشىء هو حصيلة خبراتنا بهذا الشىء لذا تختلف معانى الأشياء باختلاف السن والثقافة والذكاء ومدى الاتصال بالناس والأشياء وقد يكون هذا الاختلاف كبيرا بما يؤدى الى سوء التفاهم بين الناس فى أحاديثهم ومناقشاتهم ومعاملاتهم • فمعنى « المسجد » أو « العدل » أو « الفضيلة » قد يختلف اختلافا كبيرا أو اختلافا كليا بين الناس • لذا يجب نميز بين « المعنى السيكولوجى » و « المعنى المنطقى » • فالأول معنى ذاتى خاص بالشخص الذى يحمله ويملكه أى أنه مثقل بكثير من الصور الحسية والمشاعر والذكريات ، أما المعنى المنطقى فهو المعنى الذى يحاول العلم تحديده ، وهو معنى موضوعى محدد • ومن الوظائف الأساسية لكل علم تحديد المعانى التى يتناولها حتى يتفق الجميع عليها • فالفيزيقا تحدد معنى الحرارة والضوء والطاقة ، وعلم النفس يحدد معانى الذكاء والشخصية والانفعال •

والمعانى اما عيانية مشخصة concrete وهى ما يمكن ادراك مفهومها بالحواس كالمـاء والكتاب • أما المعنى المجرد abstract فهو مالا يمكن ادراك مفهـومه بالحواس كالعدل والفضيلة والطول والبيـاض •

التعريف الاجرائى operational definition

ليس من اليسير دائما الوقوع على تعريفات منطقية دقيقة محددة للمفاهيم والظواهر مما يؤدى فى كثير من الأحيان الى اختلاف الباحثين فى فهمها والى الخلط واللبس بينها وبين غيرها من المفاهيم والظواهر • ولئن صح هـذا فى كل علم فهو أصح فى علم النفس وقد رأينا كيف يختلف العلماء فى تعريف أكثر مصطلحاته : فى تعريف الدافع والانفعال والمنبه والسلوك واللاشعور •• بما يؤدى بالفعل الى كثير من الحيرة والارتباك خاصة لدى المبتدئين فى دراسة هذا العلم • وقد اتجهت العلوم الطبيعية الى طراز من التعريفات لا يهتم بالوصـف اللفظى للظواهر والمفاهيم بل بوصف الاجراءات والعمليـات التجريبية التى تستخدم لملاحظتها وقياسها • فعلماء الفيزيقا يعرفون « السعر » بأنه كميـة الحرارة اللازمة لرفع أو خفض جـرام من الماء المقطر درجـة واحدة من ١٤٫٥° — ١٥٫٥° ، ويعرفون « الأوم » وهو الوحدة العملية لقياس المقاومة الكهربية بأنه مقاومة عمود من الزئبق فى درجة الصفر المئوى اذا كان طول العمود ١٠٦٫٣ سم ومساحة مقطعه مليمتر مربع واحد • وميزة هذه التعريفات الاجرائية أنها تحول دون الاختلاف فى فهم الظاهرة وتفسيرها ، وتميز بينها وبين غيرها من الظواهر تمييزا واضحا ، وتسمح باجراء التجارب عليها •

وينحو علماء النفس الى الأخذ بهذا النوع من التعريفات لتحديد المفهومات والظـواهر السيكولوجية وذلك بعرضها فى صـورة اجراء تجـريبى محدد يمكن أن يعيده آخـرون وأن يتحققوا صحته • من ذلك أن « بنيـه » Binet يقول ان الذكاء يتألف من القدرات العقلية الآتية : الفهم والابتكار والنقد والقدرة على التوجيه الهـادف للسلوك • وهى قدرات محددة يمكن قياسها • ومن ذلك أيضا تعريف المرض النفسى بأنه اضطراب فى الشخصية يبدو فى صورة قلق واكتئاب

ومخاوف شاذة ووساوس وأفكار متسلطة •• الى غير تلك من السمات التى يمكن قياسها باختيارات خاصة •

٥ ـ كيف تكتسب المعانى

قدمنا أن المعنى هو فكرة عامة نخرج بهـا نتيجـة لخبراتنا بأشياء متشابهة فى بعض النواحى ومختلفة فى نواح أخرى • ويقوم اكتساب المعانى على عمليتى التجريد والتعميم •

أما التجريد abstraction فهو ملاحظة أوجه الشبه بين أشياء مختلفة ، كما نلاحظ أوجه الشبه بين الماء واللبن والزيت والبترول • فالاشخاص الذين ابتكروا كلمة « كلب » لأول مرة لابد أنهم لاحظوا أن الكلاب مهما اختلفت ألوانها وأشكالها وحجومها تشترك فى صفات معينة • كذلك الطفل وهو يتعلم معنى « كلب » لابد أن يقوم بهذه الملاحظات نفسها • فقد يكون أول كلب رآه كلبا عاديا من النـوع البلدى يسمعنا نسميه « كلب » ، لكنه بعد ذلك يسمع كلمة كلب تقترن بحيوان آخر يختلف عن الأول فى ظاهره اختلافا كبيرا ألا وهو الكلب السلوقى • ثم يسمعنا بعد ذلك نسمى الكلب الأرمنتى بالكلمة نفسها• وانه ليوازن بين هذه الحيوانات المختلفة وينتزع الصـفات المشتركة بينها دون انتباه الى غيرها من الصفات العرضية • وهذه هى عملية التجريد • انها عملية تحليل واختيار •

فان رأى الطفل بعد ذلك كلبا من فصيلة البولدوج لم نسمه من قبل فى حضوره كلبا واستطاع أن يقول انه كلب فلابد أنه لاحظ أنه يشترك مع الكلاب الاخرى التى تختلف عنه فى الحجم والشكل واللون•وتسمى هذه العملية التى يصل بها الى فكرة عامة أو « مبـدأ » من خبرات متنوعة ، التى يصل بها الى حكم عام من عدة أفراد ، والتى يطلق بها صفة أو أكثر من الصفات المجردة على جميع الأفراد التى تشترك فيها أو أكثرها ، تسمى عملية التعميم generalization

ومتى تم اكتساب معنى كلى انصب فى قالب « كلمـة » حتى يمكن الاحتفاظ به والافادة منه •

من هذا نرى أن هناك خمس خطوات فى اكتساب المعنى الكلى :

١ ــ الادراك الحسى والملاحظة •
٢ ــ الموازنة •
٣ ــ التجريد •
٤ ــ التعميم •
٥ ــ التسمية •

على هذا النحو يتعلم الطفل معنى « الكتاب » و « الحصان » و « الكرة » ومعنى « الخضرة » أو « الحمرة » من خبرات متعددة بأشياء مختلفة خضراء أو حمراء ــ ملابس ومنازل وزهور وأثاث ، أو يكتسب معنى « المثلثية » من خبرات متعددة بمثلثات مختلفة الزوايا والاضلاع والمساحات والألوان • ومعنى « العدل » لا يتكون فى نفس الفرد الا بعد أن يكون قد مر بمواقف خاصة كثيرة مختلفة يشعر فى بعضها بالعدل فيسعد ، وفى بعضها بالظلم فيألم ، أو يصيب غيره فيثور ويسخط ، حتى ينتهى به الأمر الى تكوين حكم عام مجرد من الملابسات والظروف الحسية الفردية التى خبرها •• هو العدل ، دون التفكير فى فاعل العدل أو فى الظروف التى حدث فيها • وفى هذا ما يحرر **العقل** من قيود الزمان والمكان •

وهكذا يتضح لنا أن اكتساب المعانى يبدأ من مفردات محسوسة وينتهى بأفكار عامة • وهذه ناحية يجب مراعاتها فى تعليم الأطفال المعانى الكلية المختلفة بأن نتيح لهم فرصا كافية للاتصال المباشر بالناس والمعالجة الحسية للاشياء حتى يتسنى لهم تكوين أفكار واضحة عنها، والا كان محصولهم ألفاظا جوفاء لا يفقهون معناها •

٦ ــ المعانى واللغة

لكى يفيد الانسان مما يكسبه من معان ويتسنى له أن يعبر عنها وان يستخدمها فى تعامله لا معدى له عن أن يرمز اليها برموز حسية تشير اليها : بكلمات أو أعداد أو علامات • هذه الرموز المجسمة هى القوالب التى تصب فيها المعانى حتى يمكن الاحتفاظ بها والافادة منها • فالمعانى تظل حائرة فى الذهن حتى تستقر فى رموز مناسبة

فتثبت وتتبلور وتتركز وتتحـدد ، وعنـدئذ يسهل وعيهـا وتـذكرها واستخدامها فى التفكير ، كما يمكن التعامل بها ونقلها من جيل الى جيل. وأوضح مثال على هذا رموز الجبر والكيمياء فهى تثبت نتائج تفكيرنا وتنقله الى الغير . فبغير لغة أو رموز مجسمة من أى نوع كان يستحيل علينا أن نحتفظ بأغلب المعانى التى تعلمناها ، أو أن ننقل أفكارنا الى الغير. فاطلاق الأسماء على المعانى يحفظها من الضياع ، ويسهل تذكرها عند الحاجة اليها ، ويميز بينها وبين غيرها من المعانى . مثل الأسماء فى هذه الحـالة كمثل البطاقات التى تلصق على قنـانى الدواء تيسر استخدامها وتميز بعضها عن بعض اذ تبين محتوى كل منها ، أو كمثل الخواتيم التى تطبع بها قطع المعدن فى دار سك النقود فتبين قيمة كل قطعة وتحيلها عملة شرعية قابلة للتداول بين الناس . وهكذا تكون اللغة عونا كبيرا على التفكير .

معانى دون الفـاظ :

ولا يذهب بنا الظن مما تقدم أنه من المحال أن تقوم للمعانى قائمة من دون ألفاظ . فلدينا نحن الكبار طائفة لا حصر لها من المعانى لا نجد لها الألفاظ المناسبة ، وكثرة من الأفكار يستعصى علينا التعبير عنها . من ذلك أننا نقول ان الطيف الشمسى يحتوى على سبعة ألوان ، مع أن مناطق تداخل هذه الألوان تحتـوى على ظلال شتى دقيقة لطيفة من الألوان ليست لدينـا أسماء لتسميتها وفى هـذا يقـول « سبيرمان » Spearman « ماأشبه ميدان المعرفة بمحيط تناثرت فوق سطحه جبال الجليـد . وليست هـذه الجبال الا الفـكر الذى أمكن تجميـده فى ألفاظ » .

كذلك الحال لدى الطفل الصغير فكثير من المعانى البسيطة تقوم فى ذهنه قبل أن يستطيع الكلام . ونحن نستنتج هذا من سلوكه الظاهر حين يكون هذا السلوك واحدا حيال أشياء متشابهة ومختلفة فى آن واحد ، حين يعبر بحركاته وانفعالاته عن معنى « السخونة » مثلا كلما شرب لبنا أو شايا ساخنا وكلما مست يده ماء ساخنا .

المعانى فى اللغات البدائية :

مما لاحظه علماء الأنتربولوجيا أن المعانى الكلية العامة لا توجد فى لغات كثير من الشعوب البدائية • فمعنى « الشجرة » لا وجود له فى لغات بعض القبائل الاسترالية ، فترى القوم يستخدمون لفظا معينا للدلالة على شجرة الجوز ، وآخر للدلالة على شجرة الصمغ ، وثالثا للدلالة على شجرة الكافور،وليس لديهم لفظ للاشارة الى ما هو مشترك بين هذه الأشجار جميعا وعند الاسكيمو كلمات مختلفة للثلج وهو يغطى الأرض،والثلج أثناء سقوطه،وللثلج وهو يدور فى مهب الريح••وفى قبائل أخرى لا توجد كلمة واحدة للفعل « يجرى » بل كلمات مختلفة للجرى عند كل حيوان • أما الصفات ، وهى ألفاظ مجردة ، فلا توجد الا على قلة وندور • لذا لا تستطيع بعض القبائل التعبير عنها الا عن طريق الموازنة بأشياء محسوسة،فبدل أن يقولوا هذا « جامد » يقولون «مثل الحجر » ، وبدل أن يقولوا « هذا طويل » يقولون « مثل الشجرة »• ولذلك نجد هذه اللغات البدائية تزخر بعدد ضخم من الألفاظ،غير أن هذا الثراء الظاهر فى الألفاظ ما هو فى الحقيقة الا جدب فى المعانى والأفكار العـــامة •

مزالق اللغـــة :

غير أن اللغة كثيرا ما تحجب الفكر الواضح وتضله وتموه عليه • فهناك الألفاظ المبهمة والملتبسة والمزوقة والملتوية ، وهناك الألفـــاظ الرنانة والجوفاء وتلك التى تقـــول شيئا وتعنى شيئا آخر ، وهنـــاك الألفـــاظ التى تثير العاطفة والانفعال والانحيـــاز فتسد الطريق دون التعقـــل والتفكير السليم • ففى الدعاية كثيرا ما يهتم الخطيب بوقـــع ألفاظه لا بوقع أفكاره • وقد يكون الرأى وجيها أو مشروعا لكن طريقة التعبير عنه تشوهه أو تجعله يبدو غير مشروع ، أو يكون الرأى حرجا أو شائكا أو غير مشروع لكن طريقة التعبير عنه تجعله يستحق المناقشة •• من هذا يتضح لنا أن مجرد الكلام قد لا يكون تفكيرا ، بل قد يكون لغوا وببغائية لا معنى لهـــا • انما يقتصر التفكير على الكلام ذى المعنى •

ومن مزالق اللغة وأخطارها فضلا عن ذلك أنها كثيرا ما تميل بنا الى تجسيم المعانى المجردة التى لا وجود لهـــا الا فى أذهاننا فتجعلنـــا نحسبها أشياء ووقائع وموجودات مستقلة قائمة بذاتها • فكثير من

الناس يحسبون الأسماء أشياء فيعتقدون أن « النفس » أو « الذاكرة » أو « المرض » أشياء مستقلة قائمة بذاتها ، أو يظنون أن « الارادة » أو « الضمير » أو « اللاشعور » سلطات مستقلة تتحكم فى الانسان.

٧ — التفكير كلام باطن !

رأينا مما تقدم أن التفكير يتوقف الى حد كبير على الصور اللفظية البصرية والسمعية ، وكذلك على الكلام الباطن • كما رأينا أن اللغة من عوامل تنظيم التفكير وتيسيره وتوضيحه • ومن ثم كانت اللغة عونا كبيرا على التفكير • وقد استهوت هذه الصلة الوثيقة بين اللغة والتفكير بعض العلماء فزعموا أن اللغة شرط ضرورى لكل تفكير ، أى أنه لا تفكير بغير لغة بل لقد صرح « وطسن » مؤسس المدرسة السلوكية الميكانيكية بأن « التفكير ما هو الا مجرد كلام باطن » • وأكبر الظن أنه اتضح لنا فساد هذا الرأى فى أكثر من موضع مما تقدم :

١ — فقد رأينا أن التفكير قائم لدى الحيوان ولدى الطفل قبل أن يستطيع الكلام •

٢ — ولسنا فى حاجة الى القول بأننا نستطيع أن نعبر عن أفكارنا بالاشارات أو الايماءات وما يماثلها دون حاجة الى اللغة •

٣ — هذا بالاضافة الى مادل عليه الاستبطان التجريبى من أننا نفكر أحيانا بالصور الذهنية ، ومن أن التفكير قد يتم دون أن يقترن بكلام باطن ، بل انه قد يتهرب أحيانا من هذا الكلام ويتجنبه •

٤ — ولو كانت اللغة شرطا ضروريا للتفكير لاستطعنا أن نعبر عن أفكارنا جميعا لكن المشاهد المعروف أن اللغة قد لا تتمشى مع التفكير فى كلامنا العادى ، اذ قد يفكر الانسان فى شىء وينطق بآخر • وقد يستطيع الانسان أن يعيد قصيدة حفظها عن ظهر قلب وهو يفكر فى موضوع آخر يختلف عنها كل الاختلاف •

٥ — وقد يكون التفكير سريعا متلاحقا بحيث لا تسعفه اللغة ، فيريد المرءالتعبير عن معنى لكنه يعجز عن اقتناص الكلمات اللازمة للتعبير

عنه . أو يقف الاسم الذى يريد استرجاعه « على طرف لسانه » دون أن يتجسم فى اللفـظ . والمشاهد أننـا كثيرا ما نفهم قبل أن نصوغ الجواب ، أو نتردد بين عدة صيغ لفظية ممكنة نرفض بعضها ثم ينتهى الأمر بأن نختار واحدة منها . وفى هذا كله ما يدل على أن الفكر أسرع من أن تلحقه اللغة وأغزر من أن تعبر عنه اللغة .

٦ ـ وقد دل التجريب على أن الزمن اللازم لقراءة صفحة من كتاب قراءة صامتة أقل من نصف الزمن لقراءتها قراءة جهرية مهما كانت سريعة . فقد تبلغ السرعة فى القراءة الصامتة ٨٠٠ كلمة فى الدقيقة ، أما فى القراءة الجهرية فتتراوح بين ١٤٠ و ١٥٠ كلمة فى الدقيقة . ذلك أننا فى القراءة الصامتة لا نقرأ حرفا بحرف بل نفهم المعنى من تعرف مجموعات معينة من الحروف المـألوفة تعرفا اجماليا (أنظر ص ١٧١). فلو كان التفكير كلاما باطنا لتساوى زمن القراءة الصامتة مع زمن القراءة الجهرية .

على هذا النحو يتراءى لنا أن التفكير ليس مرادفا للكلام الباطن ، بل هو نشاط عقلى أسرع من هذا الكلام وأسبق وأكثر منه وفرة وثراء وعكس هذا صحيح ، فكل كلام باطن أو ظاهر لا يعنى تفكيرا لأن المرء قد ينطق بألفـاظ لا يفقه لهـا معنى . ولئن كانت اللغـة هى العملة الورقية التى يتداولها الفكر ، فهذه العملة تستمد قيمتها من رصيدها الذهبى وهو المعانى ، والا كنا حيال عملية شقشقة وببغائية لا عملية تفكير .

وهكذا يتضح لنا ما بين رأى « وطسن » ورأى صغار الأطفال من شبه . فالطفل الصغير ان سألته « بأى شىء تفكر ؟ » أجاب بأنه يفكر بفمه ؟

٨ ـ تطور المعانى وترقيها

ليس المعنى الذى نكونه عن الشىء صورة ذهنية لهذا الشىء ، كما أنه ليس لصيقا بهذا الشىء . فهو لا يوجد الا فى العقل الذى يتصوره أو يستجيب له . بيد أن معانى الأشياء تتحور وتغزر وتنضج وتنمو باطراد ، لا لأن الأشياء تتغير فى العالم الخارجى بل لازدياد خبراتنا

بها وادراكنا ما بها من تفاصيل ومميزات وما بين بعضها من علاقات • فمعنى « علم النفس » يتغير عدة مرات لدى من يدرسه ويتحدد ويغزر كلما أوغل فى دراسته • ومعنى « الصديق » يتغير من كثرة اختلاطنا بالناس والأصدقاء ، وكذلك معنى « الحرية » ومعنى « الواجب » ، فالألفاظ تبقى كما هى ، لكن المعانى تتغير وتتحـور وتتهذب وتتحدد وتدق •

وقد قام العالم السويسرى « بياجيه » Piaget ببحوث طريفة على الأطفال فيما بين الثالثة والثالثة عشرة من العمر • فألقت الضوء على ما يجول فى أذهانهم من معان عن العالم الذى يحيط بهم • من ذلك أن الطفل الصغير ينسب الحياة الى الجمادات [1] ، وأن الحياة فى نظره مرادفة للشعور • فالشجرة تحزن حين تغيب الشمس ، والمسمار يتألم وهو يدق فى الحائط • وحوالى الخامسة أو السادسة من العمر يمر بمرحلة أخرى تكون فيها الحياة مرادفة للحركة • فأوراق الشجر حية حين تطير مع الريح ، ميتة حين لا تطير • ولا تتخذ هذه المعانى فى ذهنه دلالاتها عند الراشد الكبير الا حوالى الثانية عشرة من عمره• عندئذ لا يعود ينسب الحياة الا الى الحيوانات والنباتات •

والملاحظ أن الأطفال يدور أغلب تفكيرهم فى مستوى الادراك الحسى أى يدور حول أشياء مفردة ، محسوسة ومشخصة ، لاعلى أفكار عامة ومعان كلية • ويبدو هذا فيما لو طلبت الى أطفال فى المدرسة الابتدائية أن يذكروا لك بضعة أشياء أو أن يكتبوا أى شىء يريدون كتابته فى موضوع يختارونه ، فكل ما يستطيعون كتابته لا يعدو أن يكون أوصافا لمواقف وأحداث محسوسة • كما يبدو ذلك فى تعاريف الأطفال للأشياء — وتعريف الشىء يعكس معناه عند الفرد — فالطفل فى سن الخامسة أو السادسة يعرف الأشياء بفوائدها وطرق استخدامها أو بتعاريف عملية ساذجة : فالكرة شىء يلعب به ، والسكين شىء يقطع به الخبز، والكرسى شىء نجلس عليه ، والنمر حيوان يأكل الانسان •• وكلمـا تقدم الطفل فى العمر اقترب على التدريج من فهـم المعانى المجردة واستخدامها أداة لتفكيره • وقد دل التجريب على أن الطفل ، قبـل

---

(١) تسمى هذه الظاهرة بالاحيائية •

الثانية عشرة من عمره ، يعجز عن تعريف « الشفقة » أو « العدل » تعريفا مرضيا ، بل يكون تعريفه لهما أبتر ويدور حول أشياء وأمثلة حسية حتى اذا بلغ الثانية عشرة أجاب بأن « العدل » هو أن تعطى الناس ما يستحقون ، وأن « الشفقة » هى أن تحزن لمصائب الغير ، وأن « الاحسان » هو أن تساعد المحتاجين •

ومن بحوث تجريبية كثيرة ظهر أن الأطفال كثيرا ما يعرفون الألفاظ دون أن يدركوا معانيها ، وأن معانيها تكون بعيدة كل البعد عن المعانى الصحيحة • فأفكارهم العامة عن الحيوانات والنباتات ومشاهد الطبيعة والأزمنة البعيدة والأماكن البعيدة •• أفكار غامضة ممسوخة الى حد كبير •

٩ ـ مستويات التفكير

المستوى الحسى : يتعذر التفكير أو يستحيل أحيانا ان لم يعتمد على موضوعات وأشياء ماثلة أمام حواس الفرد ومؤثرة فيها ، كما هى الحال عند الطفل الصغير والحيوان • فقدرة كل منهما على التفكير فى الاشياء فى غيبتها محدودة جدا • فالطفل ان اعترضته مشكلة لجأ فى حلها الى طريقة المحاولات والاخطاء الحسية الحركية لأن هذه الطريقة تقوم على المعالجة الفعلية لا الذهنية للموقف ، وتستهدى بما يزوده الادراك المباشر لخصائصه • والقرد « سلطان » حين شبك القصبتين فى التجربة المشهورة كان يفكر فى مستوى الادراك الحسى مستعينا بخبراته السابقة عن القصبات والمسافات •

والتفكير فى المستوى الحسى يدور حول أشياء ومعان حسية أكثر منه على صفات ومعان مجردة • فهو تفكير يوجهه الادراك الحسى •

المستوى التصورى : فيه يستعين التفكير بالصور الحسية المختلفة• والتفكير بالصور أكثر شيوعا عند الاطفال منه عند الكبار من حيث مقداره ووضوح الصور حتى ليمكن القول بأن تفكير الطفل يكاد يقع كله فى هذا المستوى بالاضافة الى المستوى العيانى الحسى •

التفكير المجرد : هو التفكير الذى يعتمد على معـانى الاشـياء وما يقابلها من ألفاظ وأرقام لا على ذواتها المادية المجسمة أو صورها الذهنية • هو التفكير الذى يرتفع عن مستوى الجـزئيات العينيـة الملموسة والاشياء الخاصة الى مستوى المعانى والقواعد والمبـادىء العامـة ••كالتفـكير فى معنى « المسئوليـة » أو « الدمقراطيـة » وكالتفكير الرياضى والتفكير الفلسفى • ويلاحظ أن التفكير المجـرد لا يستعين ويسترشد بالمعانى وهو فرادى فقط ،بل انه يستعين بهـا كذلك وقد أئتلفت فى مجموعات مختلفة • فاذا تعلمنا النظرية الهندسية التى تنص على أن « مجموع زوايا المثلث يساوى زاويتين قائمتين » ــ وهذه عبارة تجمع بين عدة معان جمعا يبين ما بين بعضها وبعض من علاقات أصبحت فى يدنا أداة نافعة لحل كثير من المسائل الهندسية • كذلك الحال فيما نتعلمه من قواعد الحساب وقواعد النحو وقواعد آداب السلوك وقواعد لعبة معينة وقواعد السير فى الطريق •• فما هذه القواعد كلها الا مجموعات من المعانى نستهدى بها فى تفكيرنا وأعمالنا •

وقد دلت التجارب الاستبطانية على أننا نستطيع أن نفكر دون أن نتمثل فى أذهاننا صورا حسية أو لفظية أيا كان نوعها ، بل ان ظهور هذه الصور قد يعطل التفكير فى هذه الاحوال • حتى اذا حدث ما يـربك التفكير أو يستوقفه أو يعوقه عن السير فى مجراه المتدفق ، انبعثت الصور فى الذهن فكان مثلها كمثل الملقن المسرحى لا يتدخـل الا اذا تردد الممثل أو توقف أو أرتج عليه •

الفصل السادس

الاستدلال والابتكار

١ ـ تعريف الاستدلال

التفكير فى حل المشكلات :

الاستدلال ضرب من ضروب التفكير يستهدف حل مشكلة أو اتخاذ قرار حلا ذهنيا أى عن طريق الرموز والخبرات السابقة • هو عملية تفكير لكنها تتضمن الوصول الى نتيجة من مقدمات معلومة • وهذا ما يميز الاستدلال عن غيره من ضروب التفكير • فالجديد فيه هو الانتقال من معلوم الى مجهول • فرجل المباحث الجنائية يستدل على المجرم من مجموعة من العلامات ، والعالم يصوغ فرضا أو نظرية جديدة من مجموعة من الوقائع ، والطبيب يستدل على نوع المرض من مشاهدة أعراض معينة والسيكولوجى يستدل على البناء الاساسى للشخصية من ملاحظة سلوك الفرد •• والاستدلال يقتضى تدخل العمليات العقلية العليا كالتذكر والتخيل والحكم والفهم والاستبصار والتجريد والتعميم والاستنتاج والتخطيط والتمييز والتعليل والنقد •• كما أنه وثيق الصلة بالذكاء •

أما المشكلة فقد سبق أن عرفناها بأنها موقف جديد يكون بمثابة عقبة تعوق ارضاء حاجات الفرد ورغباته ، ولا يكفى لحله السلوك التعودى أو الخبرة السابقة • والمشكلات أنواع فمنها النظرى والعملى ، ومنها الشخصى والاجتماعى والاقتصادى والثقافى •• وأما الدوافع التى تقوم وراء حل المشكلات فتتصل اما بالاستطلاع الفكرى الذى يدفع العالم الى تفسير ظاهرة أو اختبار فرض أو تطبيق مبدأ عام على حالات فردية للتحقق من صحته • أو يتصل الدافع بضرورات الحياة العملية كالخروج من مأزق اجتماعى أو ورطة مالية أو أزمة صحية •• ومما يجدر ذكره أن الدافع ان كان عنيفا عطل الاستدلال ، وان كان ضعيفا لم يكف لحث الفرد على المثابرة للوصول الى الحل •

وليس الاستدلال الوسيلة الوحيدة لحل المشكلات ، فقد تحل عن طريق المحاولات والأخطاء في مستوى الادراك الحسي . أما حلها بالاستدلال فعملية اختيار وتنظيم وفهم واستبصار ، ذلك أنه يتضمّن:

١ ـ اختيار الخبرات السابقة المناسبة لحل المشكلة .

٢ ـ ادراك العلاقات الأساسية بين الوسائل المحتملة والهدف .

٣ ـ اعادة تنظيم الخبرات السابقة على ضوء هذه العلاقات ..

وما عليك الا أن تفكر في اعادة تنظيم غرفة بمنزلك لترى عناصر الاستدلال وخصائصه في حل المشكلات . ولحل المشكلات بالاستدلال خطوات معينة سنتناولها بعد قليل..

الاستدلال والمحاولات والاخطاء .يرى بعض العلماء أن الاستدلال ما هو الا محاولات واخطاء مضمرة أي تقع في الذهن ، ويرى آخرون أنهما نقيضان . لقد رأينا من قبل أن المحاولات والاخطاء نشاط يقوم به الحيوان (والانسان) حين يعجز عن رؤية طريق واضح الى الهدف، فاذا به يبدأ بارتياد الموقف ، يحاول هذا المسلك وذلك ، ويرتد عن المسلك المسدود ليجرب غيره حتى يصل آخر الأمر الى هدفه ـ وهو في محاولاته هذه يستهدي بالملاحظة المباشرة لخصائص الموقف ، ويجرب المسالك المختلفة عن طريق نشاط حركي صريح لا يسبقه تأمل أو تخطيط . هذا هو الطراز النموذجي[1] للمحاولات والاخطاء . ومنه نرى أنه يشترك مع الاستدلال في ناحية ويختلف عنه في نواح . ذلك أن كلا منهما نشاط ارتيادي يستهدف بلوغ هدف يضبط هذا النشاط ويوجهه . لكنهما يختلفان اختلافا جوهريا في ناحيتين : ففي الاستدلال يجرب المفكر المسالك والاحتمالات المختلفة في ذهنه بدلا أن يندفع على الفور في نشاط حركي لا يسبقه تأمل أو تخطيط . الثانية أن الشخص في الاستدلال يستهدي في حل المشكلة بما توحيه اليه ذاكرته وخبراته السابقة لا بمجرد ما تزوده به الملاحظة المباشرة لخصائص الموقف المشكل ـ فاذا أردت أن تبحث عن كتاب مفقود من منزلك مثلا فاندفعت من غرفة الى أخرى ، ومن هنا الى هناك ، وأخذت تثب فوق الاثاث وتدخل تحت السرير دون تروٍ،فهذه هي المحاولات والاخطاء التي

---

(١) نقول الطراز النموذجي اي الحركي الظاهر لان هناك طرازا آخر هو المحاولات والأخطاء التي تحدث بأسرها في الذهن والتي يرى البعض انها مرادفة للاستدلال .

تقترب من التخبط • أما ان أخذت تتأمل وأمسكت نفسك عن الحـركة وأخذت تفكر فى آخر مكان تركته فيه ، وغيما اذا كنت أعرته لصديق أو أخذته معك الى الكلية ، فهذا هو التفكير الاستدلالى الذى يعفيك من كثير من الجهد والوقت وسخرية الناس •

٢ ــ خطوات الاستدلال وشروطه

لو تتبعنا حركة العقل وهو يقوم بعملية استدلال نموذجية ألفيناه يمر فى الخطوات أو المراحل الآتية • لنفرض أن الاستدلال يدور حول مرض عضال يحاول الطبيب تشخيصه وعلاجه :

١ ــ الشعور بوجود مشكلة ، أى الشعور بضرورة التصرف والا لم يكن هناك دافع الى حلهـا • فلو كان المرض الذى يحاول الطبيب تشخيصه مرضا مألوفا لديه واضح الأعراض لم يكن بمثابة مشكلة فى نظر الطبيب •

٢ ــ تحديد أبعاد المشكلة أى تحليلها الى عناصرها وتقدير قيمة كل عنصر ، وجمع البيانات والمعلومات واسترجاع الذكريات المختلفة ثم محاولة التأليف بين كل أولئك والنظر فيما ينطوى عليه هذا التأليف من معنى • هذه مرحلة جمع وتحليل واختيار وحذف وتأليف • والطبيب يبدأ فى العادة بالاستماع الى ما يشكو منه المريض من اعراض : متى بدأت ومتى اشتدت ، ثم يأخذ فى قياس درجة حرارته والتسمع الى دقات قلبه ورنين صدره ، وقد يقيس ضغط الدم أو ينظر فى حلقه أو باطن جفونه •

٣ ــ فرض الفروض أو استشفاف الاحتمالات المختلفة أو اقتراح حلول مؤقتة • ولنلاحظ أن العنـاصر الموجـودة ، مـدركات كانت أم ذكريات ، لا تعطى الحل وانما تعين على اقتراحه ، وأن كل محاولة للحل يمكن اعتبارها فرضا مضمرا •• والطبيب أثناء فحص المريض تعرض لذهنه عدة فروض واحتمالات : أيكون المرض حمى ميـكروبية ، أم اضطرابا فى الكبد ، أم اضطرابا فى مفـرزات بعض الغـدد الصم •• وفرض الفروض أهم خطوة فى الاستدلال الانسانى •

٤ — مناقشة الحلول أو غربلة الفروض أو تجربة الاحتمالات المختلفة ومناقشتها واحدا واحدا لاختبار صحة كل منها وقيمته المنطقية والعملية بما يؤدى الى استبعاد بعضها والتمسك بالبعض الآخر . وهذه مرحلة تتطلب التؤدة وعدم التسرع فى الحكم ، كما تتطلب النقد والبحث عن الحالات المناقضة التي قد تلقى الشك على الفرض .. والطبيب الذى يفحص المريض يختبر ما يعرض له من فروض اختبارا ذهنيا ، أو اختبارا فعليا صريحا بأن يطلب تحليل دم المريض أو بوله أو عمل رسم بالاشعة لمرارته ونتيجة لهذه الاختبارات الذهنية والفعلية يستبقى بعض الفروض ويذر البعض الآخر .

٥ — التحقق من صحة الرأى الأخير أو الحل النهائى وذلك بالاستمرار فى جمع الملاحظات والبيانات ، أو التنبؤ بما يمكن أن يترتب على هذا الفرض من نتائج فان أيدت الملاحظات والواقع هذا التنبؤ كان الفرض صحيحا والا وجب استبعاده الى غيره .. فالطبيب المدرب قبل أن يقطع بصحة الفرض الأخير الذى انتهت اليه كل الفروض قد يطلب الى المريض اجراء كشوف وتحليلات أخرى ، أو يصف له دواء يتعاطاه لمدة محدودة ليرى ما يؤدى اليه من نتائج ، أو يطلب اليه الكف عن تناول أطعمة معينة أو عن الاجهاد العقلى ثم يتتبع حالته ، وفى هذا التتبع ما يكشف له عن صحة فروضه أو بطلانها .

هذه هى الخطوات التى ينبغى أن تتبعها عملية الاستدلال والتى لا يتم الحل الصحيح الا بها ، وليس من الضرورى أن تتعاقب هذه الخطوات واحدة بعد الأخرى على النحو الذى قدمناه ، فقد يثب الحل الى الذهن دون تحديد واضح صريح للمشكلة ، كما أن مناقشة الحلول قد تؤدى الى التراجع بحثا عن معلومات جديدة لزيادة وضوح المشكلة .

ومما يجدر ذكره أن خطوات الاستدلال هذه توازى خطوات المنهج العلمى الذى يتبعه العلماء للوصول الى النظريات والقوانين (انظر ص ٤٥) .

الاستقراء والقياس : ينتقل المفكر فى مرحلة فرض الفروض من الجزئيات التى أمامه الى نوع من الاعتقاد أو التخمين هو ما نسميه بالفرض . ويعرف هذا الانتقال بالاستقراء induction والاستقراء

بوجه عام هو تتبع الحالات الجزئية للوصول منها الى فكرة عامة أو حكم كلى • أما فى مرحلة تحقيق الفروض فيسير المفكر على عكس هذا ، اذ ينتقل من نتيجة عامة الى حالات جزئية ، ويسمى هذا الانتقال بالقياس deduction • والقياس بوجه عام هو تطبيق النتيجة العامة أو المبدأ على حالات فردية جزئية • فاذا كان الاستقراء عملية تكوين فالقياس عملية تطبيق ، واذا كان الاستقراء عملية بحث فالقياس عملية برهان ، وكلاهما كالشهيق والزفير فى عملية التنفس الفكرى •

والاستقراء والقياس من دعامات كل بحث علمى • فالعلم يستهدف الوصول الى قوانين عامة من وقائع فردية ، وهذا هو الاستقراء ، ثم تطبيق القانون العام على وقائع فردية لتفسيرها ، وهذا هو القياس • فتفسير الظاهرة يعنى ردها الى قانون عام • لقد توصل العلم الى قانون الجاذبية من الوصف المفصل الدقيق لأشياء كثيرة تسقط على الأرض ، ثم استخدم هذا القانون لتفسير كثير من الظواهر الفلكية • وقانون « التعميم » فى التعلم الشرطى وصل اليه العلماء عن طريق الوصف المفصل لوقائع فردية كثيرة ثم اتخذ أداة لتفسير كثير من ضروب السلوك •

٣ ـــ نمو القدرة على الاستدلال

كانوا يزعمون فى الماضى أن الاستدلال ملكة لا تظهر لدى الفرد الا فى مرحلة المراهقة وعلى نحو فجائى • فالطفل عاجز عن الاستدلال وقد ترتب على ذلك أن انصرفت المدارس الابتدائية عن تدريب التلاميذ على الاستدلال ، وركزت جهودها فى تدريب الذاكرة ـــ كانوا يسمون الطفولة بالعهد الذهبى للذاكرة • غير أن هذا الرأى لا تسانده الوقائع فى الوقت الحاضر ، وكانت تؤيده فى الماضى نظرية خاطئة فى علم النفس كانت تسمى نظرية « الظهور المتعاقب للقوى العقلية » • الواقع أن الأطفال يفضلون المحاولات والاخطاء على الاستدلال فى حل مشاكلهم ، لكننا لا نستطيع أن ننكر أن الطفل يفكر ويقدر ويبتكر ويجد فى بعض الآونة حلولا لما يعترضه من مشكلات فى ألعابه وفى صلاته بالناس والاشياء ، قد تكون على درجة كبيرة من الأصالة والابداع • صحيح أنه يخطىء ، ومن منا لا يخطىء ؟ • وصحيح أنه يعتمد فى

استدلاله الى حد كبير على المحسوسات المشخصات ويقوم بمحاولات وأخطاء كثيرة لا نلجأ اليها نحن الكبار ، لكنه مع هذا يفكر ويدرك من العلاقات ما يعينه على التصرف وحل مشكلاته الصغيرة حلا ذهنيا يبدو فيه أثر افادته من خبراته السابقة . فالفارق بين استدلاله واستدلال الراشد فارق في الدرجة وليس فارقا في النوع . والواقع أننا نستطيع أن نجد مظاهر الاستدلال عند الأطفال في سن الرابعة أو مادون ذلك . فالأسئلة اللانهائية التي يرشقنا بها الطفل ذو الثالثة عن أسباب الاشياء والأحداث تدل على شعوره بمشكلات ورغبته في حلها . وقد دلت بعض البحوث على أن الأطفال في سن الثالثة يستطيعون التعبير عن بعض مشكلاتهم العملية وأن يجدوا لأنفسهم منها مخارج معقولة . كما دلت بحوث أخرى على أن الاطفال الأكبر من هؤلاء سنا يستطيعون حل مشكلات أعقد وأن يسوقوا أدلة مقنعة على ما يقدمونه من حلول . بل تشير بعض الدراسات الى أن الاطفال في سن الثالثة يستطيعون اكتشاف مبدأ وتطبيقه على مواقف جديدة . وكلما تقدمت بهم السن زادت سرعتهم وقلت أخطاؤهم في حل المشكلات .

خصائص استدلال الطفل :

غير أن استدلال الطفل تعوزه الدقة والضبط لأسباب كثيرة منها قلة خبرته وقلة ثروته اللغوية مما يجعله عاجزا عن التعبير عن أفكاره، ومنها غموض المعانى فى ذهنه ، وعجزه عن ادراك العلاقات المجردة ، وضعف قدرته على النقد والتحقيق ، ومنها تسرعه فى التعميم ووثوبه الى النتائج من مقدمات غير كافية . ومن هذه الأسباب أيضا تقديره الأمور من ناحية ذاتية غير موضوعية ، ومنها أن أحكامه على الأشياء والأشخاص والسلوك أحكام نفعية ، فهو يحكم على هؤلاء من حيث فائدتهم أو ضررهم له لا من حيث حقيقتهم أو من حيث المعايير الاجتماعية ، يضاف الى هذا غلبة الانفعال والهوى والتحيز على عقله . غير أن تقدمه فى السن والذكاء ، واكتسابه عادات صحيحة للتفكير كفيل بأن يجعل استدلاله أكثر وضوحا وتنظيما **وتجريدا** .

بحوث بيرت Burt أجرى العلماء اختبارات عقلية القياس قدرة الأطفال على الاستدلال فى الأعمار المختلفة . فظهر للعالم الانجليزى

« بيرت » أن الاطفال فى سن السادسة والنصف يستطيعون الاجابة عن أسئلة كالآتية : « اذا كان أحمد أذكى من حسن ، وعثمان أغبى من حسن : فأى الثلاثة أغبى ؟ » ، وأنهم فى سن السابعة يستطيعون الاجابة عن أسئلة كالآتية : « اذا كان للحيوان آذان طويلة فهو اما حمار أو بغل ، واذا كان له ذنب غليظ فهو اما حمار أو بغل ، فماذا يكون الحيوان ان كانت له آذان طويلة وذنب غليظ ؟ » وأنهم فى الثامنة يستطيعون الاجابة عن أسئلة كالآتية : « اذا كنت لا أحب الرحلات البحرية ، ولا أحب شواطىء البحار ، فالى أين أذهب لأقضى أجازتى : الى اليونان أم الى الأرياف أم الى الاسكندرية ؟ » ، غير أنهم يعجزون عن الاجابة على أمثال الأسئلة الآتية قبل الحادية عشر من العمر : « اذا كان معى أكثر من ١٠٠ قرش فسأذهب بتاكسى أو بالقطار ، واذا أمطرت الدنيا فسأذهب بالقطار أو الأتوبيس ، فاذا أمطرت وكان معى ٥٠٠ قرش فكيف أذهب ؟ » .

وقد خرج هذا العالم من دراساته هذه بأن الطفل يستطيع ابتداء من سن السابعة أن يفكر تفكيرا منطقيا [1] ، لذا يجب تدريبه منذ هذه السن على الاستدلال العلمى والمناقشة المنطقية بشرط أن تكون المقدمات التى يستخلص منها النتائج قليلة بسيطة مألوفة محسوسة وأن تكون المعانى والمفهومات العلمية التى تعرض عليه مما يتسنى له فهمه فهما واضحا .

وقد ظهر أن هناك وثبة ملحوظة فى القدرة على الاستدلال ابتداء من الثامنة من العمر ، ومن المرجح أنها تتوقف على : ١ — زيادة قدرته على ادراك العلاقات بين الاشياء ، ٢ — زيادة خبرته ، ٣ — اكتسابه بعض عادات التفكير .

بحوث بياجية Piaget يرى هذا العالم السويسرى أن الطفل لا يستطيع أن يستدل استدلالا منطقيا قبل الحادية عشرة أو الثانية عشرة ، اذ يعجز عن ادراك ما بين المقدمات والنتائج من علاقات

---

(١) التفكير المنطقى هو الذى يصل الى نتيجة تلزم عن مقدماتها ، فاذا سلمنا ان كل حيوان له أجنحة هو طائر ، واذا كان النحل له أجنحة ، فالنتيجة المنطقية هى ان النحل طائر . من هذا نرى أنه ليس من الضرورى أن تكون النتيجة المنطقية صحيحة فى الواقع .

منطقية ، كما أنه كثيرا ما يقلب الأوضاع فيجعل النتيجة سببا والسبب نتيجة ، أى أنه يعجز عن التعليل الصحيح .

كذلك يرى أن الاستدلال الصورى لا يظهر لدى الطفل قبل سن ١١ أو ١٢ .ويقصد به الاستدلال الذى يحترم قواعد المنطق دون أن يهتم بمادة الفكر ، أى دون أن يهتم بما اذا كانت المقدمات مطابقة أو غير مطابقة للواقع . فقبل هذه السن يجد الطفل صعوبة كبرى فى التفكير من مقدمات نفترضها ونسلم بها لمجرد الافتراض والتسليم : كل الحيتان من الثدييات ، والانسان نوع من الحيتان ، اذن فالانسان من الثدييات .

النقد المنطقى : تدل كثير من الدراسات على أن القدرة على النقد المنطقى أو ما يسمى « التفكير الهدمى » لا تبدو لدى الطفل الا فى سن متأخرة فقد وجد أن الطفل لا يستطيع قبل العاشرة أن يكشف عن الأغلوطة فى العبارة الآتية : « لى ثلاثة أخوة هم حسن وشعبان وأنا » . كما وجد أن ٤٠٪ من الاطفال لا يستطيعون قبل سن ١٣ أو ١٤ أن يكشفوا عما تنطوى عليه العبارة الآتية من تناقض : « قام أحد الرحالة بثلاث رحلات حول العالم ، وقد قتلته الوحوش فى احدى هذه الرحلات ، فأية رحلة كانت هذه ، الأولى أم الثانية أم الثالثة ؟ » .

٤ ـ عوائق الاستدلال السليم

قلة قليلة من الناس هم الذين يستدلون استدلالا سليما فيكون تفكيرهم فى حل المشكلات واتخاذ القرارات موضوعيا لا ذاتيا ، واقعيا لا خياليا ، منطقيا يخلو من التناقض . فهناك عوائق شتى مختلفة تحول بينهم وبين الاستدلال السليم . منها ما يرجع الى قلة المعلومات ، ومنها ما يرجع الى طريقة الاستدلال . على أن أهم هذه العوامل المعوقة هى عوامل انفعالية وعاطفية كما سنرى .

١ ـ عدم كفاية المعلومات : من العوامل التى تعطل الاستدلال عدم كفاية المعلومات والمقدمات اللازمة لحل المشكلات واتخاذ القرارات أو أن تكون مقدمات ومعلومات لا صلة بينها وبين الموضوع مما يربك

المفكر ويعوق تفكيره • وربما كان هذا من أهم الأسباب فى سقم الاستدلال عند الشخص العادى الذى لا يملك قدرا كافيا من المعلومات الصائبة التى تكفل له التفكير فى أغلب مشكلات الحياة الحديثة . خاصة المشكلات الاجتماعية •هذا الى أنه لا يعرف مصادر هذه المعلومات ؛ وحتى ان عرفها فالاغلب أنه لا يستطيع فهمها واستيعابها •• واذا كانت وفرة المعلومات شرط ضرورى للاستدلال السليم ، فهى شرط غير كاف ، لأنها يجب أن تنظم وترتب كى تجدى فى حل المشكلة •

٢ ــ **غموض المعانى وابهامها** :غموض المعاني وابهامها من أكبر عوامل سوء الفهم والتفاهم بين الناس ؛ وعقبة كئود فى سبيل حل المشكلات واتخاذ القرارات الشخصية والاجتماعية • فمن موضوعات الجدل الذى لا ينتهى الكلام عن حقوق المواطنين وامتيازاتهم على أساس ما يقال من أن الناس خلقوا « متساوين » • ذلك أن كلمة « التساوى » هنا لا تعنى ما تعنيه فى الرياضيات ولا تعنى أن الناس يولدون متساوين فى القدرات والاستعدادات وسمات الشخصية ، بل تعنى وجوب التساوى بينهم فىالحقوق والفرص : حق الحرية وحق التمتع بالحياة .وأن يتكافئوا فى فرص التعلم والعمل والتقدم كل على حسب قدراته ومواهبه وانتاجه بصرف النظر عن المولدوالقرابة والطبقة الاجتماعية •

٣ ــ **عدم مراعاة شروط الاستدلال** : فالمشكلة التى لم تحدد عناصرها تحديدا كافيا أو صادقا لا يمكن أن تحل • والعجز عن تحديد المشكلة لا يرجع فىالغالب الى نقص فى الخبرة أو الذكاء بقدر مايرجع الى ما يغشى الفرد من انفعال حين تعترضه مشكلة • والانفعال من ألد أعداء التفكير كما بينا من قبل • وهذا هو السبب فى صعوبة حل المشكلات التى تقوم بين الزوج وزوجه أو الصديق وصديقه لأن كل طرف يرى عيوب خصمه ولا يرى عيوب نفسه ، فتظل المشكلة غير مكتملة العناصر بما يعرقل حلها •

الجمود : من شروط الاستدلال السليم فرض عدة فروض ومناقشة كل فرض فى تؤدة حتى يتبين السمين من الغث • وعلى هذا فمما يعطل الاستدلال استمساك المفكر بفرض أو فكرة والتشبث بها دون غيرها

مهما ظهر عدم جدواها دون محاولة لتجربة غيرها من الافكار والفروض، فيظل المفكر كأنه ابرة جرامفون قد علقت على اسطوانة مخدوشة وتوقفت عن السير مما يعطل عن سماع الأغنية هذا الجمود في التفكير يحول دون النظر الى المشكلة من زوايا مختلفة أى يحول دون حلها ••وقد يرجع هذا الجمود الى عوامل انفعالية • فقد وجد أن هناك تناسبا عكسيا بين المرونة فى التفكير وبين القلق وعدم الطمأنينة ومواقف الصدمات • وقد يرجع أيضا الى نقص فى الذكاء ، فمن تعاريف الذكاء أنه مرونة التكيف • لقد ظل أحد الاشخاص فى تجربة تجرى عليه لحل لغز ميكانيكى ، ظل عشر ساعات فى محاولة واحدة لم يتركها الى غيرها • ولما طلب اليه المجرب فى نهاية هذه المدة أن ينتقل الى محاولة أخرى لم يستمع اليه بل ظل ساعة ونصف ساعة أخرى دائبا على محاولته الفاشلة !

التعجل : عكس الجمود فى التفكير التعجل وسرعة الانتقال من فكرة الى أخرى أو من فرض الى آخر قبل أن يفحص الفرض الأول فحصا كافيا للتحقق من صحته أو بطلانه • فالمفكر المدرب من يثابر على اختبار الفروض فلا يتخاذل أو يسارع الى التسليم الا بعد جهد يبذله •

٤ ــ **التسرع فى الحكم والتعميم** : من أظهر عوائق الاستدلال المثمر التسرع فى الحكم والتعميم من مقدمات غير كافية أو ملاحظات عارضة أو غير مأمونة كما هى الحال لدى الطفل والشخص العامى • فالمفكر المدرب من يعلق أحكامه حتى يجمع من المعلومات والأدلة ما يأذن له بالقطع والبت • ذلك أن الانطباعات الأولى التى نأخذها عن الناس والأشياء غالبا ما تكون انطباعات مضلة • والمفكر المدرب لا يعمم من حالة واحدة دون النظر الى الحالات السلبية الكثيرة التى تحول دون التعميم المشروع • فالشخص العامى أن تحقق له حلم واحد اعتقد أن جميع أحلامه وأحلام غيره لابد أن تتحقق • بل تلك حالنا حين نحكم على شخصية فرد من مجرد تصرف واحد صدر منه ، أو خبر واحد سمعناه عنه ، أو مرة واحدة قابلناه فيها ، أو حين نزور بلدا أجنبيا زيارة عارضة فنحكم على أهله جميعا بأنهم بخلاء أو لصوص أو ملحدون من حادثة واحدة اتفق لنا أن خبرناها • وقل مثل ذلك فى كثير مما

يعتقده سواد الناس اذ يظنون أن التلميذ الفاشل فى المدرسة يكون ناجحا فى الحياة ، أو أن أقوياء الجسم ضعاف العقول • واذا رأينا الشذوذ باديا فى سلوك بعض العباقرة فهذا لا يعنى أن كل العباقرة شواذ • حتى العلماء أنفسهم ليسوا بمنجاة من الاسراف فى التعميم. فمما يأخذه النقاد على « فرويد » وأتباعه أنهم يعممون دون تحوط ما وجدوه فى مضطربى الشخصية أو ما وجدوه فى حضارة خاصة على الناس جميعا فى كل زمان ومكان •

ومما يذكر بهذا الصدد أن كثيرا من الخرافات[1] والأباطيل ما هى الا تعميمات سريعة خاطئة من حالات فردية عارضة كالزعم بأن الكنس بالليل يجلب الشر ، أو أن السفر يوم الاثنين يجلب الخير • أو أن المرأة الوحمى يولد طفلها وعلى جسمه آثار ما وحمته • أما العلم فلا يعمم من مشاهدات اتفاقية بتراء ، بل من مشاهدات منظمة متكررة على عدد كاف من الأفراد لا أثر للتحيز فى انتقائهم •

٥ — **التعليل السحرى :** هو اقامة علاقات غيبية بين الأشياء ، وعدم رد الظواهر الطبيعية الى ظواهر من نفس العالم الطبيعى • والتعليل السحرى [2] شائع لدى الطفل والانسان البدائى ، فكلاهما يعتقد أن العالم يزخر بأرواح خيرة وشريرة ومقاصد ونيات وأن أسباب الأحداث نوى شاعرة مغرضة ، وكلاهما يعتقد أن مجرد الرغبة فى وقوع حدث كموت شخص يؤدى بالفعل وبالذات الى وقوعه • من ذلك أن طفلا غضب من أمه واتفق أن ماتت الام بعد مدة وجيزة فاعتقد أن غضبه منها هو السبب فى موتها فتولاه من ذلك ذعر شديد وشعور عميق بالذنب كان له أسوأ الأثر فى صحته النفسية • كذلك الانسان البدائى يقيم بين الظواهر علاقات سحرية من نسج خياله وأوهامه أو متأثرا

---

(١) الخرافة اعتقاد جماعى خاطىء فيما يتصل بأسباب الأحداث وتفسير الظواهر ، كالاعتقاد القديم بأن فيضان النيل سببه بكاء الالهة ، وان القط له سبع أرواح .

(٢) السحر ضرب من الخرافة هو محاولة التأثير والتحكم فى العالم الخارجى ، عالم الناس والأشياء والأحداث ، بطرق غير الطرق الطبيعية وغير التوسلات . والفارق الجوهرى بين السحر والعلم هو السببية الخاطئة .

بمعتقداته • فان رأى تمساحا يأكلشخصا لم ينسب الموت الى التمساح بل الى روح شريرة أو رغبة عدو له فى موته ولن دنس أحد من الناس احدى مقدسات القبيلة ثم هبت عاصفة أتلفت الزرع والضرع ،فالأولى سبب الثانية •• وفى القرون الوسطى بأوروبا كان القوم يعتقدون أن الليمون يشفى أمراض القلب • لماذا ؟ • لأن الليمون له نفس شكل القلب تقريبا ، وكذلك لأن لونه ذهبى — والذهب ملك المعادن فلابد أن يشفى « ملك » أعضاء الجسم !

٦ — **اعتبار الارتباط سببا** : اذا ارتبط حدثان أو وقع أحدهما قبل الآخر باطراد ، فقد يكون الحدث السابق سببا فى اللاحق كارتفاع درجة الحرارة وتمدد الاجسام • وقد يكون هذا الارتباط عرضيا محضا كالارتباط بين زيادة عدد الوفيات فى الصين وارتفاع سمر السكتان فى الهند • وقد يرجع الارتباط الى أن لكل من الحدثين سببا مشتركا • فاذا كان الارتباط قويا بين وزن الاطفال وذكائهم فهذا لا يعنى أن زيادة الذكاء سبب فى زيادة الوزن أو العكس ، بل يعنى أن كلا من الوزن والذكاء يزداد بتقدم العمر • واذا ارتبطت زيادة محصول الارز بازدياد فى انتشار البعوض ،فهذا لا يعنى أن الظاهرة الاولى سبب الثانية أو العكس ، فقد ترجع كل من الظاهرتين الى زيادة سقوط الامطار فى المنطقة • واذا وجدنا أن كثيرا من الطلبة المتخلفين دراسيا لا يشتركون فى النشاط الاجتماعى ، فقد ترجع كلتا الظاهرتين الى اعتلال الصحة أو الى ظروف منزلية مضطربة • غير أننا كثيرا ما نتورط فى هذه الاغلوطة المنطقية بما يفسد تعليلنا للظواهر والحوادث • ولو صح هذا لتجنبنا النوم فى الفراش ، لان أغلب من يموتون يموتون وهم رقود فى الفراش !

٧ — **الاذعان لأفكار سابقة** : كانت عيوب النطق والكلام ، كاللجلجة والحبسة ، كانت تعالج فى أوروبا حتى أوائل القرن الحالى بكى اللسان أو قطع جزء منه لان « أرسطو » أفتى بأنها عيب فى اللسان نفسه •وكثيرا ما كان العلاج يؤدى الى زيادة العلة أو الى فقد القدرة على الكلام ، لكن أحدا من الجراحين أو المرضى لم يكن ليجرؤ على الكفر بكلام أرسطو الذى ظل مقدسا نحو ألفى سنة ، بل كان مجرد الشك فى هذا الكلام يعتبر فى القرون الوسطى الحادا ، حتى ظهر

أن العوامل الجوهرية فى أغلب هذه العيوب عوامل نفسية أهمها القلق وفقد الشعور بالأمن وفقد الثقة بالنفس والشعور بالنقص والرهبة من مواقف خاصة كالمواقف التي يشعر فيها الطفل بأنه مراقب وهو يتكلم. يؤيد هذا أن المصابين يستطيعون الكلام بطلاقة ان تحدثوا الى صديق يطمئنون اليه ، أو حيوان يحبونه ، أو ان تحدثوا لأنفسهم ، أو أثناء اللعب أو النوم وأن كثيرا من هـذه الحالات تتحسن بتزويد الفـرد بالثقـة فى نفسه .

٨ ــ **الميل والهوى** : يميل الانسان بفطرته الى تصديق ما يحب والى انكار ما يكره واعتبـاره باطلا ، وحين يكون الواقع مريرا يتخـاذل المنطق . غير أنه يعز علينا أن نعترف بأننا كثيرا ما نعتقد مانريد أن نعتقد ، وأن آراءنا تتأثر برغباتنا وعواطفنا الى حد كبير ، خاصة آراءنا فى الناس وفى أنفسنا . زد على ذلك أن قليلا هم الذين يفكرون قبل أن يعملوا ، فالأغلب أننا نسلك أولا ثم نلجأ بعد ذلك الى التفكير لتبرير سلوكنا وآرائنا والدفاع عنها ، أى أننا نبدأ من نتيجة مقررة من قبل لدينا بصورة نهائية ــ لا على شـكل فرض ــ ثم نأخـذ فى تبرير هـذه النتيجة . وهـذا عكس التفكـير المنطقى ، لأنه يستهدف الدفـاع لا البرهان ــ هذا هو « منطق العاطفة » .

وكثيرا ما نؤول الأمور والوقائع كما نرغب أن تكون عليه . وهذا هو التفكير الارتغابى [1] الذى توجهـه الرغبات لا الوقائع . وهـو نقيض التفكير الواقعى [2] الذى يبذل جهـدا فى تعرف الوقائع ثـم يقصر نشاطه العقلى عليها . والتفكير الارتغابى الذى لا يتقيد بالواقع ولا يحفل بالقيود الاجتماعية والمنطقية .. ينقص من تمتعنا بالحياة لأنه يعرضنا دائما لخيبة الأمل ، كما أنه يشوه الأمور فى أعيننا فنراها كما نريد لا كما هى عليه فى الواقع ، ومن ثم فهـو يحول دون حـل المشكلات . وتفكير كثير من الناس فى الزواج يعكس التفكير الارتغابى. فبالرغم مما شاهدوه وخبـروه بأنفسـهم من متاعب ومصاعب تحف

---

(1) Wishful thinking

(2) Realistic thinking

بالحياة الزوجية فانهم يصورنها لأنفسهم كما يرغبون فيها — مهادا من الورود خاليا من المتاعب والصعاب والأشواك .

٩ — **ضعف الثقة بالنفس** : دلت دراسة بعض كبار المفكرين على أن أكثرهم أصالة يتميز بقدر كبير من الثقة بالنفس . كما دلت بحوث كثيرة فى استدلال الأطفال على أن نجاحهم فى حل المشكلات مرهون الى حد كبير بما لديهم من ثقة فى نفوسهم وبما يتسمون به من جرأة واقدام فى معالجتها . وتنشأ هذه الثقة بالنفس عن عدة أسباب من أهمها نجاح الطفل وتشجيعه ، ومن أهم ما يفقد الطفل ثقته بنفسه اسراف الكبار فى نقد أخطائه ، والسخرية مما يبديه من روح المبادأة ، وكبحه حين يختلف رأيه عن آرائهم ، فسرعان ما يتعلم أن أفكاره تسبب له المتاعب ، ويرى من الخير أن ينقاد ويمتثل بدلا من أن يوجه نفسه بنفسه . لذا يجب على المدرسة أن تشعر كل طالب بقيمته .

٥ — الابداع والاستدلال

الابداع أو الابتكار creation هو ايجاد حل جديد وأصيل لمشكلة : علمية أو عملية أو فنية أو اجتماعية . ويقصد بالحل الأصيل الحل الذى لم يسبق صاحبه فيه أحد . والمشكلات على أنواع فمنها ما يستهدف تفسير ظاهرة أى معرفة أسبابها كالمشكلات الفلكية والفيزيقية والطبية التى تعرض لحلها أمثال نيوتن وجاليليو واينشتين وجينر ، أو مشكلة نشأة الأمراض النفسية التى عالجها « فرويد » . وهنا يكون الابداع من قبيل الكشف . ومن المشكلات ما يستهدف خلق شىء جديد أو أداة جديدة ، مادية أو معنوية ، أو ظروف اجتماعية معينة ، وهذا هو الاختراع invention كاختراع الميكرسكوب أو تأليف قصة أو اقامة نظام تربوى أو اقتصادى جديد .

وقد جرت العادة على التمييز بين الاستدلال والابداع فيقال ان الاستدلال هدفه الكشف عن أشياء أو علاقات خافية كانت موجودة من قبل ، فى حين أن الابداع هدفه خلق أشياء أو علاقات جديدة لم تكن موجودة من قبل ، كأن الاستدلال يقتصر على الكشف ، والابداع يقتصر على الخلق . فجاليليو ابتكر المنظار المسمى باسمه ، لكنه اكتشف توابع المريخ . الواقع أن الاستدلال كالابداع يتلخص كل

منهما فى حل مشكلات وادراك علاقات . وليس الفارق بينهما مطلقا كما يبدو لأول وهلة فكل اكتشاف يمكن اعتباره ابداعا ان جاء بحل جديد أصيل للمشكلة . وكل ابداع مهما بلغت أصالته يستعين بمواد قديمة موجودة من قبل . والجديد فيه هو التأليف بين هذه العناصر القديمة . على أن هناك فارقا بين الاستدلال والابداع من حيث الطريق الذى يسلكه كل منهما . فالاستدلال يتبع طريقا مستقيما ذا معالم واضحة هي خطوات الاستدلال التى بيناها من قبل ، والذى يتجلى فيه خضوع التفكير للواقع . أما الابداع ففيه يتحرر الفكر من قيود الماضى ولا يتقيد بالواقع ، وقد يتطلب تحطيم وجهات النظر القديمة التى تسيطر على عقول الناس وتقيدها وتجعلهم أسرى القديم . لذا يرتطم الابداع غالبا بعقبات شتى منها ميل المجتمع بل تشبثه بالمحافظة على القديم والقصور الذاتى للأنظمة الاجتماعية . لذا كثيرا ما تثير الكشوف والاختراعات روح العداء فى الميدان العلمى وغيره . فالمبتكرون فى الفلسفة يعتبرون مجانين ، وفى الميادين الاجتماعية والخلقية متمردين أو دعاة فوضى ، وفى ميدان الفن يعتبرون شواذا منحرفين ، وفى ميدان العلم تتهم نظرياتهم بأنها تصدم الفهم العام وتميل الى الهدم والتدمير .

ومتى تحرر العقل من قيود العلاقات القديمة ووجهات النظر القديمة استطاع أن يفرغ على عناصر المشكلة معانى جديدة ووظائف جديدة ، وأن يؤلف بين هذه العناصر فى وحدة جديدة ذات خصائص فريدة . وكثيرا ما تبزغ هذه الوحدة الجديدة أو الفكرة الجديدة على حين فجأة ودون توقع من المبدع ، كأنها ضرب من الوحي أو الالهام قد هبط عليه .. لقد كانت الأحلام وأعراض الأمراض النفسية وأساطير الأولين وطقوس البدائيين والمبتكرات الفنية .. تفسر قبل ظهور « فرويد » تفسيرات شتى تجافى الصواب بقدر قليل أو كبير .. غير أنه استطاع أن يتحرر من القيود الثقيلة لهذه التفسيرات ، وأن يرى وحدة وراء هذه الظواهر التى تختلف فى ظاهرها اختلافا كبيرا ، اذ رأى أنها تشترك جميعها وتتشابه فى أنها تعبيرات رمزية عن رغبات ومخاوف لا شعورية يخشى الفرد أن يعبر عنها بصورة سافرة صريحة . هذه القدرة على ادراك الوحدة فى تنوع الطبيعة ، أو بين أشياء لم يتوقع أحد أن تكون بينها وحدة .. من أهم دعامات الابداع .

الذكاء والقدرات الابداعيه : كان الابداع يعتبر الى عهد قريب مرادفا لحدة الذكاء . فكان ذو الذكاء الرفيع يسمى عبقريا genius وكان الطفل متوقد الذكاء يسمى موهوبا gifted .. ولا شك أن بين الذكاء والابداع صلة وثيقة ، غير أنه اتضح من الدراسات التجريبية الحديثة والقياس العقلى أن الذكاء وان كان شرطا ضروريا للابداع الا أنه شرط غير كاف .. فلابد أن تقوم الى جانبه قدرات ابداعية معينة .. من ذلك ما اتضح من أن اختبارات الذكاء بوضعها الحالى لا تصلح للتمييز بين المبدعين وغير المبدعين . كما اتضح من الدراسة التتبعية لترمان على الأطفال الموهوبين (أنظر ص ٥٤) أن ليس من بينهم من يبشر بأنه سيكون على شاكلة دارون أو جوته أو تولستوى أو بيتهوفن .. ذلك أن اختبارات الذكاء لا تتطلب جدة فى الاجابة عليها أو ابداعا ، مع أنها تقيس القدرة على الاستدلال الى حد كبير .

ولقد أسفرت بحوث « جلفورد » Guilford (١٩٥٠) — وهو من أتباع مدرسة تحليل العوامل — عن وجود قدرات ابداعية مستقلة عن القدرات العقلية التى تقيسها اختبارات الذكاء . من هذه القدرات : الأصالة ، ومرونة التفكير ، والطلاقة ، والتحليل ، والتأليف ، والنفاذ ، والحساسية للمشكلات وغيرها .. وسنكتفى بكلمة موجزة عن أهم هذه القدرات التى لاتعدو أن تكون فروضا قابلة للتحقيق .

(١) الأصالة : originality وهى قدرة الفرد على التجديد واعراضه عن الاذعان للمألوف والمبتذل والمعتاد . فالابداع يتعارض مع هذه السلبية التى تبدو فى الامتثال للقديم والمألوف .

(٢) مرونة التفكير : flexibility وهى قدرة الفرد على تغيير وجهة نظره الى المشكلة التى يعالجها بالنظر اليها من زوايا مختلفة . وهى عكس جمود التفكير الذى أدرجناه فى زمرة عوائق الاستدلال السليم (ص ٢٩١) والذى يرجع الى القلق والتوتر أو الى ظاهرة الاستمرارية والقصور النفسى فى التفكير عند حل المشكلات ، والتى تبدو فى ميل الفرد الى الاستمرار فى نشاط بدأه حتى ينتهى هذا النشاط ، كما يبدو فى صعوبة انتقاله من عمل الى آخر أو من فكرة الى أخرى (ص ٢٥٩) . ويصور لنا شوبنهاور هذه المرونة بقوله « ليس المهم أن نرى شيئاجديدا بل الأهم أن نرى معنى جديدا فى شىء يراه كل الناس » .

أى أن توحى الينا الأشياء المألوفة بأفكار جديدة • انكثيرا من الاختراعات والكشوف العلمية والأدبيــة والفنية ظهرت حين أفرغ المختــرعون والمكتشفون معانى جديدة على الوقائع التى يعرفها كل الناس • فقد أوحى سقوط التفاحة من الشجرة الى نيوتن بأسس قانون الجاذبية ، كما أوحى فيضان الماء على جوانب حمام الســباحة الى أرشميدس بقاعدته المشهورة فى الأجسام الطافية ، والقصصى المبدع ليس فقط من يأتى بموضوعات وأفكار جديدة ، بل هو أيضا من ينظر الى الموضوعات المتداولة من زوايا جديدة أو يلقى عليها أضواء جديدة •

(٣) الطلاقة : fluency هى قدرة الفرد على أن يتذكر عددا كبيرا من الأفكار والألفاظ والمعلومات والصور الذهنية فى سهولة ويسر • وهذا يحتم أن يكون المبدع ذا ثقــافة واسعة ، اذ لا تذكر بدون تحصيل • أما القول بأن الموهبة وحدها تكفى للابداع فقول خاطىء • وقد صرح نيوتن بأنه غير صحيح أنه اكتشف الجاذبية بمجرد رؤيتــه تفاحة تسقط من شجرة ، بل لأنه كان يفكر فيها دائما ، وان نتــائج بحوثه ترجع الى العمل والكد الدائب الصبور •

(٤) التــأليف : synthesis هو القــدرة على ادماج أجزاء مختلفة — معان وصور ذهنية — فى وحدات جديدة • كالتأليف بين رأس الانسان وجسم الاسد فى وحدة أبى الهول ، وكتأليف القصصى بين شخصيات مختلفة فى قصة جديدة وكالتأليف بين جسم الطائر وجناحيه وبين مروحة الباخرة وآلة السيارة فى ابتكار الطــائرة •

٦ — مراحــل الابداع

سئل كثير من ذوى المواهب الابداعية عن الطريقة التى يظفرون بها بتلك النفحات والومضات فلم يتسن لهم أن يجيبوا بوضوح أو أجابوا بأن الالهام inspiration هو أهم عامل فى الابداع •• الالهام الذى يهبط عليهم على حين فجأة بينما تكون أذهانهم منصرفة عن موضوع الابداع • فهذا يأتيه الالهام وهو سائر فى الطريق أو وهو فى قاعة السينما أو وهو فى الحمام وذاك يأتيه الالهام فى أثناء النوم أو وهــو يهم بركوب السيارة أو وهو منهمك فى عمل لا صلة له البته بموضوعه ،

كأن الالهام . قوة خارجة خارقة مسيرة • فهذا يقول « لست أنــا الذى أفكر انما هى أفكارى التى تفكر لى ! » ، وذاك يقول « لست أنا الذى يصنع الألحان بل هى التى تصنعنى ! » وثالث يقول « لست أعمـل بل أنصت كأن شــخصا مجهــولا يهمس فى أذنى » • ولقـــد رأى « ترتينى » Tartini الموسيقى الكبير ، رأى فى نومه أن الشــيطان يعزف المقطوعة التى بــذل فى تاليفها جهودا موصــولة دون جدوى ، فاستيقظ وسجل على الفور ما ألفه « الشيطان » فى الحلم ، وكانت هذه هى « سوناتا زمردة الشيطان » • كأن الالهام يهبط على المبدع من خارج كما يقول أفلاطون • ومما لا شك فيه أن الالهام من خلـق المبدع نفسه لكنه فى العادة يكون سريعا خاطفا بحيث لا يستطيع الملهم ملاحظته عن طريق التأمل البــاطن • ويرى علماء النفس ، بنــاء على ما يذكره أغلب المبدعين ، أن العملية التى يتم بهــا الابداع الملهم تجتاز أربع مراحل :

١ ـــ مرحلة الاعداد أو التحضير Preparation

فيها تحدد المشكلة وتفحص من جميع نواحيها وتجمع المعلومات من الذاكرة ومن المطالعات وتهضم جيدا • ويربط بعضها ببعض بصــور مختلفة ، ثم يقوم المبدع بمحاولات للحل يستبعد بعضــها ويستبقى البعض الآخر لكن يصعب الحل وتبقى المشــكلة قائمة • وقــد قال « جوته » Goethe فى وصف هذه المرحلة : « كل ما نستطيعه هو أن نجمع الحطب ونتركه حتى يجف ، وستدب النار فيه فى الوقت المناسب». ويقول اديسون Edison ان أكثر الهامه كان جهدا وكدا وعرقا ، ولعله كان يقصد الى المشقة التى كان يعانيها أثناء مرحلة الاعداد •

٢ ـــ مرحلــة الحضانة أو الاختمــار Incubation

هى مرحلة تريث وانتظار • لا ينتبه فيها المبدع الى المشكلة انتباها جديا • غير أنها ليست فترة خمود بل فترة كمون ، فيها يتحرر العقل من كثير من الشوائب والمواد التى لا صلة لها بالمشكلة ، وفيها تطفو الفكرة بين آن وآخر على سطح الشعور ، ويشعر المبدع شعورا غامضا بأنه يتقدم نحــو غايته ، وفيها تنزع المشــكلة التى استحوذت على الذهن الى اقتناص الذكريات والأفكار والصــور الذهنية التى يتم بها

الابداع • وقد تطول هذه المرحلة عند العلماء والفنانين والمخترعين لعدة سنين بل يعمد بعض المبدعين الى استبعـــاد أفكارهم عن قصد بعــد مرحلة الاعداد والقيام بعمل آخر أو ترويح آخر •

ويرى بعض علماء النفس أن المشكلة تكون ابان هذه الفترة تحت تأثير عمليات لا شعورية مختلفة مستمرة كتلك العمليات الهامة الخافية التى تحدث فى البيضة أثناء مرحلـــة الحضانة . غير أن هـــذا أمر من الصعب اثباته أو نفيه ، والأرجح فيما يراه البعض أن النشاط الذهنى الذى أثارته المشكلة يستمر بعد ترك المشكلة وفق ظاهرة « القصـــور النفسى » •

ولنا أن نتساءل عن السبب الذى يعوق المبدع عن حل المشكلة بعد أن جمع المعلومات والمقـــدمات اللازمة ربمـــا كان السبب أنه يسير فى طريق مسدود أو غير صحيح . أو لعله افترض افتراضا غير صحيح ، أو لعله ضـــل فى زحمة التفاصـــيل وعجز عن تحـــديد الاطار الكلى للمشكلة ، أو ربما انشغل وارتبك ببعض التفاصيل التى لا صلة لهـــا بالموضوع •• وهذه العوامل الطفيلية من شأنها أن تعطله وتعوقه عن الحل مادام يمضى فى تفكيره دون تمهل أو استجمام • فهـــو فى هـــذه الحالة يحتاج الى وجهة نظر طازجة الى المشكلة يتيحها الاستجمام وترك الموضوع دون الاستمرار بقلق فى مسالك عقيمة •

٣ ــ مرحلة الالهـــام أو الاشراق :

فيها يثب الحل الى الذهن ويتضح على حين فجأة : لحنا كان أم رسما ام كشفا علميا أم قصيدة •• كما يثب الاسم الذى يحاول الفـــرد تذكره الى ذهنه فجأة بعد أن عجز عن تذكره بالارادة • أو مثل ذلك كمثـــل من ينظر الى شىء بعيد غير واضح فى الأفق ، فتارة يبدو له هـــذا الشىء بصورة ، وطورا بصورة أخرى . واذا به قد اتضـــح وتحددت معالمه على حين فجأة ، أو كمثل من ينظر فى صورة من تلك الصـــور الملغوزة يحاول أن يكشف فيهـــا عن رسم غزال مختبىء . أو صـــياد

متربص ، أو طائر على شجرة ، فكان الالهام ضرب من « الاستبصار » insight أو « الحدس »[1] intuition بفضله تبرز الفكرة الجديدة أو الحل الجديد بغتة وعن طريقة تتكامل الأجزاء والعناصر فى وحدة جديدة فريدة .. وقد يكون الالهام مصحوبا فى بعض الآونة بانفعال شديد .

٤ — مرحلة اعادة النظر او التحقيق Verification

قد يكون الالهام الخطوة الأخيرة فى التفكير الابداعى أحيانا ، غير أنه فى أغلب الأحيان يتعين على المبدع أن يختبر الفكرة المبتدعة ويعيد النظر فيها ليرى هل هي فكرة صحيحة أو مفيدة أو تتطلب شيئا من الصقل والتهذيب ، الواقع أن كثيرا من المبدعين يجدون أن ابداعهم لا يولد مكتملا بل يكون فى حاجة الى تعديل كبير وتحوير وتصويب وتكييف غير قليل .. وفى هذا ما يدل على أن الالهام ليس آخر المطاف بل لابد أن تتلوه مرحلة مجهود آخر ، ولا شك فى أن هناك فارقا كبيرا بين الظفر بفكرة لصورة فنية ، أو لقصة أو لقصيدة أو لنظرية أو لاختراع وبين رسم هذه الصورة ، أو كتابة هذه القصة ، أو اخراج هذا الاختراع ، أو صوغ هذه النظرية والتحقق من صحتها — وظاهر أن هذه المرحلة فى التفكير الابداعى شبيهة بالخطوة الأخيرة فى الاستدلال

---

(١) الحدس : نوع من الادراك المباشر أو الحكم المباشر السريع أو الاستنتاج المباشر الفجائى الذى يصل اليه المرء عن طريق علامات طفيفة أو مقدمات لا يدركها ادراكا شعوريا واضحا .. هو حكم أو استنتاج لا يسبقه ويمهد له تأمل عقلى شعوري واضح . وكثيرا ما يؤدى الحدس الى أحكام دقيقة صادقة على الناس والأحداث قد تفوق فى صدقها ما نصل اليه من احكام عن طريق التفكير والتأمل الشعورى الصريح . ويقوم الحدس بدور كبير فى حياتنا اليومية واحكامنا على الناس والأشياء . دون ان نفطن الى وجوده . غير ان بعض علماء النفس يرون انه طريقة غير علمية للمعرفة والحكم والاستنتاج لأنه يقوم على انطباعات ذاتية مبهمة غير محددة، فى حين يرى آخرون انه ذو قيمة بالغة فلا يجب الاعراض عنه ، بل من الحكمة أن يوضع موضع اعتبار .

اسـئلة وتمـارين

١ ـ غالبا ما تكون اللغة عونا على التفكير ، لكنها تقف أحيانا عقبة فى سبيل التفكير الواضح ـ اشرح مع التمثيل .

٢ ـ بين كيف تؤدى وحدة اللغة بين القوم الى وحدة الفكر .

٣ ـ وضح بالمثـال كيف تعطـل لغتنا العامية التفكير الصـحيح الواضح .

٤ ـ ما الفوارق الأساسية بين استدلال الطفل واستدلال الراشد .

٥ ـ ما أوجه الشبه بين اسـتدلال العوام من الناس واسـتدلال الأطفـال .

٦ ـ وفرة المعلومات شرط ضرورى لكنها شرط غير كاف للاستدلال الصحيح ـ اشرح .

٧ ـ بين كيف يساعد التفكير على التذكر وعلى تحصيل الدروس .

٨ ـ مهما اختلفت المشكلات التى تعرض للفـرد من حيث نوعهـا ودرجة تعقيدها فان طرق حلها واحدة ـ وضح بالأمثلة .

٩ ـ ما العوامل المختلفة التى تعـوق الفـرد عن حل مشـكلاته الشخصية وأزماته النفسية ؟

١٠ ـ بين كيف يمكن استخدام المنهج العلمى فى تشخيص وعـلاج مشكلة سلوكية لدى طفل من الأطفال .

١١ ـ أذكر أمثلة للتفكير الخرافى الشائع بين عامة الناس .

١٢ ـ حاول أن تحل المسألة الآتية وبين الأسباب التى تعوقك عن حلها فى سهولة : كيف تصنع أربع مثلثات متساوية الأضلاع من ستة عيدان من ثقاب متساوية الطول ؟

١٣ ـ ما أوجه الشـبه وأوجه الخـلاف بين التفكير الاسـتدلالى والتفكير الابداعى .

١٤ ـ احباط دافع من الدوافع الأســاسية للانسان هو بمثــابة مشكلة تواجهه ويتعين عليه حلها ـ اشرح بالمثال •

١٥ ـ اشرح قول شوبنهاور : « ان الحق لم يعرفه الناس بعــد ، لا لأنهم لم يبحثوا عنه ، بل لأن الباحثين كانوا يستهدفون دائما العثور على أفكار عزيزة عليهم مقربة من نفوسهم » •

١٦ ـ اذكر بعض المعتقدات التى تقوم على الرغبة لا على المنطق •

١٧ ـ من قال ان الحاجة أم الابتكار فقد قال نصف الحق لا الحق كله ـ ناقش •

الباب الرابع

تمهيد فى الفروق الفردية

الذكاء والاستعدادات

الفصل الأول : طبيعة الذكاء وقياسه
الفصل الثانى : نتائج قياس الذكاء
الفصل الثالث : الاستعدادات .

تمهيد فى الفروق الفردية

قدمنا أن علم النفس يستهدف دراسة أوجه النشاط النفسى التى يشترك فيها الناس جميعا ، أى أوجه الشبه بينهم ، كالادراك والتفكير والتذكر والتعلم .. (علم النفس العام) ، كما يهتم بدراسة ما بينهم من فوارق فى الذكاء والاستعدادات والشخصية .. (علم النفس الفارق) . وقد درسنا فى الأبواب السابقة العمليات العقلية التى يشترك فيها جميع الناس . غير أن هذا الاشتراك والتشابه لا يعنى التطابق ، أى لا يعنى أنهم متساوون تساويا تاما فيما يدركون ويفكرون ويتذكرون ويتعلمون .. فحين ينظر فريق من الناس الى منظر واحد أو يستمعون الى محاضرة واحدة ، فنحن نفترض أنهم على حد سواء فى ادراكهم المنظر أو فهم المحاضرة . وهو افتراض صحيح ، لكن بوجه عام فقط . ذلك أن أحدهم قد يكون أحد بصرا من غيره فتكون رؤيته للمنظر أشد وضوحا ، أو تكون لديه خبرات سابقة تتصل بالمنظر فتجعل ادراكه له أكثر ثراء ، أو يعميه الكبت عن رؤية أشياء يراها الآخرون بوضوح (أنظر الفروق الفردية فى الادراك ص ١٧١). واذا اسلمنا بهذا التشابه العام بين الناس من حيث عملياتهم العقلية ، فلا مفر من أن نعترف ، دون حاجة الى اجراء تجارب ، بأنهم يختلفون اختلافا قد يكون كبيرا من حيث ما يتسمون به من صفات جسمية وقدرات عقلية ، وسمات خلقية واجتماعية : هـذا قوى البنية أو حسن المنظر أو رشيق الحركة ، وذلك رفيع الذكاء ، أو ينعم بقدرة خطابية عالية ، أو هو دون المتوسط فى القدرة الرياضية أو الموسيقية .. هذا فضلا عما بينهم من تفاوت كبير فى سمات شخصياتهم : أى من حيث ميولهم واتجاهاتهم ومستويات طموحهم واتزانهم الانفعالى ودرجة احتمالهم للاحباط والحرمان أو درجة حساسيتهم للمشكلات الاجتماعية أو مبلغ ما لديهم من تعاون أو مثابرة أو أمانة أو اعتماد على النفس

وقد دل القياس السيكولوجي على : (١) أن اختلاف الأفراد فى قدراتهم وسماتهم اختلاف كمى أى اختلاف فى الدرجة لا فى النوع ، (٢) وأن قدرات الفرد الواحد وسماته يختلف بعضها عن بعض من

حيث القوة والضعف ، أى أن هناك فروقا فى الفرد نفسه كما أن هناك فروقا بين الأفراد ، (٣) أن القدرات والسمات موزعة بين الأفراد توزيعا طبيعيا ، بمعنى أن أغلبية الناس على درجة متوسطة من القدرة أو السمة ، وأن قلة منهم من تعلو قدراته وسماته على المتوسط أو تكون دونه ، (٤) أن الفروق الفردية قد ترجع الى الوراثة أو الى البيئة أو لبيهما معا • هذا ما سيتضح لنا من دراسة الموضوعات الباقية من هذا الكتاب : الذكاء والاستعدادات والشخصية •

الفروق فى الفرد نفسه : كما يختلف الأفراد بعضهم عن بعض من حيث قدراتهم وسماتهم الشخصية ، كذلك تختلف قدرات الفرد الواحد وسماته من حيث القوة والضعف • فقد يكون الفرد رفيع الذكاء لكنه ضعيف الارادة أو سيء الخلق أو مصابا بمرض نفسى • وقد يكون متفوقا فى القدرة الموسيقية ودون المتوسط فى القدرة اللغوية ، أو يكون ماهرا فى ادارة الآلات وغير ماهر فى ادارة الناس ، ماهرا فى الرسم وغير ماهر فى الخطابة أو يكون شديد الميل الى دراسة العلوم الاجتماعية بادى النفور من دراسة العلوم الرياضية وقد يكون لديه استعداد كبير للأعمال الكتابية واستعداد ضعيف للأعمال الميكانيكية • أو أن يكون ذا قدرة كبيرة على احتمال الألم الجسمى لكنه ضعيف الاحتمال للألم النفسى وقد يكون ولوعا بالقراءة هلوعا من الاختلاط بالناس • ولعلك سمعت بأولئك الأشخاص الذين يستطيع أحدهم أن يجرى فى ذهنه ، ودون استعانة بالقلم والورق ، عمليات ضرب لستة أرقام فى سبعة أرقام ، أو استخراج الجذر التربيعى أو التكعيبى لاعداد كبيرة •• هؤلاء الأشخاص قد يكون مستواهم دون المتوسط فى الذكاء العام ، ودون المتوسط بكثير فى القدرة اللغوية •

وبناء على هذا فمن يصلح لدراسة أو لعمل معين قد لا يصلح لدراسة أو لعمل آخر • ومن يفشل فى دراسة أو عمل معين لا يتحتم أن يفشل فى أعمال أخرى ، ومن يكون بارزا نابها فى عمل لا يتحتم أن يحتفظ بمركزه هذا ان نقل أو رقى الى عمل آخر — وهذه حقيقة يجب أن تؤخذ بعين الاعتبار فى عمليات التوجيه التعليمى والمهنى والاختيار والتدريب المهنى وفى توزيع الطلاب على الشعب الدراسية المختلفة أو على الكليات الجامعية المختلفة وكذلك فى عمليات التعيين والنقل والترقية للعمال والموظفين •

١ — وجوب مراعاة الفروق الفردية

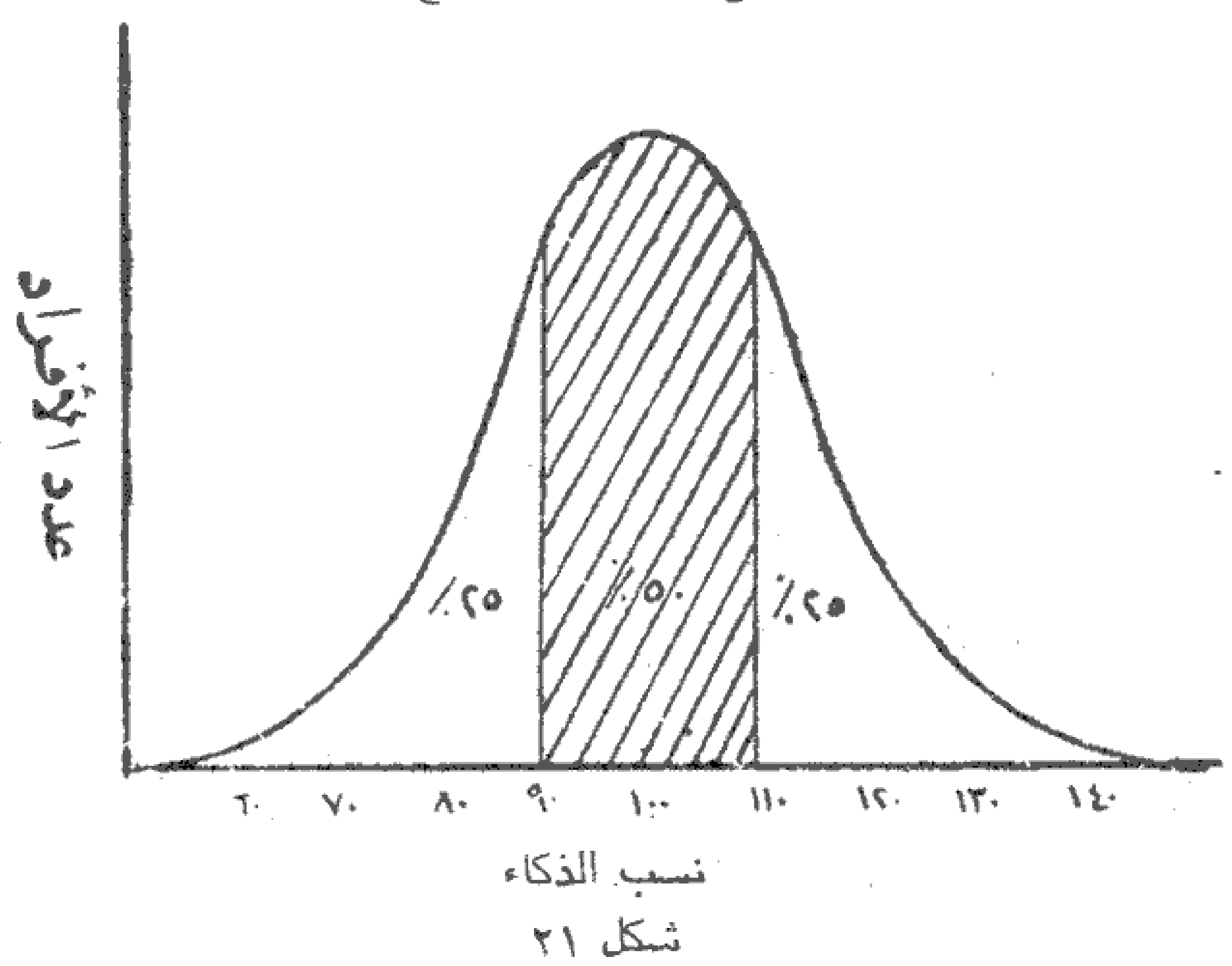
لن اغفال ما بين الأفراد — رجالهم ونسائهم ، كبارهم وصغارهم — من فوارق جسمية وعقلية ومزاجية واجتماعية .. له أسوأ الأثر بالفرد نفسه وبالمجتمع الذى يعيش فيه . فلو أغفلنا هذه الفوارق ما استطعنا إن نحفزهم على العمل ، أو نسوسهم ونعاملهم بما يستحقون ، أو أن نرعى العدل فى اثابتهم أو عقابهم ، بل ما استطعنا أن نحل مشاكلهم ، أو نوجههم الى المهن والأعمال ونوع التعليم الذى يناسبهم ، أو نختار من بينهم أكفأهم لعمل معين ، أى ما استطعنا أن نضع الشخص المناسب فى المكان المناسب.. وينسحب هذا على الطلاب فى المدرسة أو الجامعة، وعلى العمال فى المصنع أو المتجر ، وعلى الجنود فى الجيش . والنتيجة المحتومة لذلك هبــوط مستوى الانتاج ، واتســاع نطاق الاخفاق فى الدراسة ، واضطراب الصحة النفسية للفرد الذى نكلفه القيام بعمل أو بدراسة لا يقوى عليها أو لا يميل اليها ، وفساد العلاقات الانسانية ، هذا فضلا عما يصيب الاقتصاد القومى والتنظيم الاجتماعى من تبذير وخسارة وضياع .

الواقع أن الشخص العادى لا يستطيع أن يدرك ما بين الناس من فوارق ضخمة فى الذكاء والقدرات والشخصية.فآباء الأطفال الموهوبين لا يعرفون فى الغالب مستوى أطفالهم الرفيع من الذكاء ، وآباء الأطفال المتخلفين لا يدركون فى الغالب مدى ما يعانيه أطفالهم من قصور عقلى حتى يبدأ الطفل فى التعثر الدراسى الموصول . ولقد قيل ان الفرق بين ذكاء الشخص المتوسط فى يومنا هذا وبين ذكاء أرســطو كالفرق بين ذكاء الفرد المتوســط والانسان المتوسط . الواقــع أن الفــوارق بين الناس فى الذكاء على درجة من الاتساع بحيث يكون الفرد المتوسط أكثر ذكاء من الانسان المعتوه ضعيف العقل .. كذلك الحال فيما بين الناس من فوارق فى الشخصية والخلق والمزاج .. من مدير الأعمال الذى ينظم ويوجه ويقترح وينقد الى العامل الرعديد الذى يخشى تحمل أقل قدر من المسئولية .. ومن الشخص الطيب الذى يحاسب نفسه على الكلمة التى تصدر منه والحركة التى يأتى بها الى المجــرم العاتى الذى لا تغشاه مسحة من الشعور بالذنب لما يرتكبه من أعمال غير انسانية نكراء .

وفى مجتمعنا اليوم من الممكن أن نساوى بين الناس فى الحقوق والفرص لكنه من غير الممكن أن نساوى بينهم فى القدرات العقلية والسمات المزاجية بما يجعلهم قادرين على التنافس العادل المشروع بين بعضهم وبعض ، كما نستطيع أن نتيح لكل منهم فرصة التعلم والعمل لكننا لا نستطيع أن نساوى بينهم فى نوع التعليم أو العمل أو الأجر .

٢ — مدى الفروق الفردية

يدلنا الاحصاء على أننا اذا قسنا أية صفة لدى مجموعة كبيرة جدا من الأفراد وجدنا أن توزيع هذه الصفة يتبع نموذجا خاصا مهما كان



شكل ٢١

نوع الصفة المقيسة : جسمية كانت كالطول أو الوزن أو حدة البصر ، أو قوة القبضة باليد ؛ أم عقلية كالذكاء أو القدرة اللغوية أو القدرة على تذكر الأرقام ؛ أم خلقية كالصدق أو الأمانة ؛ أو مزاجية **كالاتزان** الانفعالى أو القدرة على احتمال الشدائد.أم اجتماعية كالتعاون أو الانطواء على النفس .. هذا النموذج يمثله رسم بيانى معين **يتضح** منه **أن أغلب** الأفراد يملكون هذه الصفة بدرجة متوسطة معتدلة ؛ ثم **يقل**

عددهم تدريجيا كلما اتجهنا الى طرفى الرسم • والمنحنى (أنظر شكل ٢١) يمثل توزيع نسبة الذكاء في مجموعة كبيرة جدا من الأفراد • ومما يلاحظ فى هذا التوزيع أن نصف المجموعة متوسط الذكاء ، أى تتراوح نسب ذكائهم بين ٩٠ و ١١٠ ، وأن عددا ضئيلا من المجموعة ينحط ذكاؤه عن ٦٠ ، ثم يزداد هذا العدد بصورة تدريجيةحتى يبلغ نهايته العظمى عند نسبة ١٠٠ ، ثم يتناقص بعد ذلك بصورة تدريجية أيضا وعلى نفس النحو الذى ازداد به حتى يصل الى نهايته العظمى عند نسبة ١٤٠ • وبعبارة أخرى فالشطر الأكبر من المجموعة متوسط الذكاء فى حين أن العباقرة وضعاف العقول أقل المجموعة عددا • وقل مثل ذلك فى سائر الصفات الانسانية •

ويسمى هذا المنحنى « منحنى التوزيع الطبيعى » أو « المنحنى الاعتدالى » وبما أنه يتكون من شقين متماثلين ، وأن شكله شبيه بشكل الجرس • لذا يسمى أحيانا « محنى الجرس » •

مما يجدر ملاحظته أن التوزيع توزيع متصل يمثل جميع نسب الذكاء من أصغرها الى أكبرها دون أن تتخله ثغرات ، أى أنه يمثل الذكاء فى مختلف درجاته ومستوياته • وهذا على خلاف ما يبدو للانسان العادى الذى يميل بطبعه الى ألا يرى من الأمور الا أطرافها : فاما ذكاء أو غباء ، واما طول أو قصر ، واما بياض أو سواد ، واما صحة أو مرض ، واما نوم أو يقظة ••• ولا شىء بين الطرفين •

٣ — أسباب الفروق الفردية

الوراثة والبيئة :

ترى هل ترجع الفروق الفردية الى الوراثة أم الى البيئة ؟ قبل الاجابة على هذا السؤال نود أن نشير الى أننا اذا كنا بصدد فرد واحد، فلا معنى لأن نتساءل : ايهما أهم فى تعيين ذكائه أو شخصيته ، الوراثة أم البيئة ، لأننا نكون كمثل من يتساءل : أيهما أهم لحياة الفرد : المعدة أو الطعام ؟ أو أيهما أهم لسير السيارة ، الماكنة أم البنزين ؟ ذلك أننا أبناء الوراثة والبيئة فى آن واحد ، ومن المحال أن نفصل أثر الوراثة عن أثر البيئة الا اذا استطعنا فصل مياه رافدين يصبان فى نهر واحد • وتفصيل ذلك أن الانسان منذ نشأته الأولى فى صورة بييضة مخصبة أصغر من رأس الدبوس ، تبدأ المورثات genes ، وهى

المحددات الكيماوية للوراثة البيولوجية ، فى التفاعل مع سيتوبلازم الخلية ، وهذه نوع من البيئة • وحين تتكاثر الخلايا تؤثر كل خلية فى الأخرى — وهذه بيئة خلوية أيضا • وحين تتكون الغدد الصم فان ما تفرزه من هرمونات فى مجرى الدم شرط ضرورى لنمو الجنين بأسره • هذا الى أن الجنين النامى يستمد غذاءه من الدورة الدموية للأم — وهذه هى بيئة الرحم • ثم يولد الانسان فى بيئة مادية وأخرى اجتماعية تؤثران فيه ويؤثر فيهما طول حياته : الاسرة والمدرسة والزملاء والأدوار الاجتماعية التى يقوم بها ، هذا بالاضافة الى طبقته الاجتماعية وثقافة المجتمع الذى يعيش فيه •• ليست البيئة اذن قوة مستقلة عن الوراثة أو قوة تضاف اليها بل قوة تتفاعل معها ، ومن هذا التفاعل يتم نمو الفرد وسلوكه وما يتسم به من صفات جسمية وعقلية ومزاجية واجتماعية شتى • فالاستعدادات الفطرية الوراثية كالاستعداد للكلام أو لمرض جسمى أو نفسى لايمكن أن تظهر وأن يتضح أثرها من دون عوامل البيئة • فالطفل الذى ينشأ بين الحيوانات يشب كالحيوان عاجزا عن الكلام بالرغم من أنه يملك استعدادا وراثيا للكلام يميزه عن الحيوان ، ولابد له من بيئة انسانية تحيل هذا الاستعداد الفطرى الى قدرة فعلية للتعبير بالعربية أو الاسبانية • هذه البيئة نفسها عبثا تحاول أن تحمل الحيوان على الكلام • غير أن البيئة الانسانية العادية ان كانت تكفى لكسب القدرة على الكلام فهى غير كافية لتحويل كثير من الاستعدادات الانسانية الكامنة الى قدرات فعلية كالقدرة على العزف على القيثارة أو القدرة على حل معادلات من الدرجة الثانية • هنا يجب أن يتعلم الفرد تعلما خاصا وأن يتدرب تدريبا قد يكون طويلا ••• ومن ناحية أخرى فالمهارات والاتجاهات والعادات المهنية والاجتماعية والخلقية التى نكتسبها كالقدرة على قيادة سيارة ، أو حب التعاون ، أو الشعور بالنقص لا يمكن أن تقوم ألا على أساس من استعدادات وراثية •

وبعبارة أخرى فالوراثة تزود الفرد بالامكانات والاستعدادات ، والبيئة تقرر ما اذا كانت هذه الامكانات ستتحول أولا تتحول الى قدرات فعلية وكذلك مدى استغلالها • فلو أن بيتهوفن نشأ فى مجاهل استراليا ما أتيح له قط أن يؤلف سيمفونياته الرائعة ، لكنه كان من المحقق أن يكون أمهر قارع للطبول فى قبيلته • ولو أن شخصا لا يملك استعدادا

موسيقياً أحضرنا له خير معلمى الموسيقى ما استطاع أن يجعل منه موسيقارا ممتازا .

موجز القول أن كل قدرة أوسمة لدى الفرد فطرية ومكتسبة فى وقت واحد . ومن اللغو أن نتحدث عن الاهمية النسبية للوراثة والبيئة فى تكوينها ، اذ أن كلتيهما شرط ضرورى لذلك[1] .

والعادة أننا لا نتحدث عن الاهمية النسبية لكل من الوراثة والبيئة الا اذا كنا نقارن فردا بآخر ونود أن نعرف ما الذى يجعل « زيدا » يفوق « بكرا » فى القوة أو الطول أو الذكاء أو الشخصية ؟ أهى الوراثة أم البيئة ؟ هنا نكون كمن يسأل : هل تفوق سيارة أخرى لجودة ماكنتها أو لجودة البنزين أو لهما معا . فيكون الجواب أن الفروق بينهما قد ترجع الى الوراثة وحدها أو الى البيئة وحدها أو الى كلتيهما .. وتفصيل ذلك أن وراثة أحدهما تختلف من دون شك عن وراثة الآخر ، الا أن يكونا توأمين صنويين[2] ، لذا يرجع بعض الاختلاف بينهما الى الوراثة . ولاشك أيضا فى أن البيئة السيكولوجية لأحدهما تختلف عن بيئة الآخر حتى ان كانا يعيشان فى بيت واحد ويذهبان الى مدرسة واحدة ، لذا يرجع بعض الاختلاف بينهما — خاصة فى الصفات النفسية — الى البيئة . اذن فالفارق بين فردين أو أكثر يرجع عادة الى كل من الوراثة والبيئة . لكن أيهما أكثر أهمية فى أحداث هذا الاختلاف ، الوراثة أم البيئة ؟ الجواب يتوقف

(1) مع اعترافنا بأن كل قدرة او سمة فطرية ومكتسبة فى آن واحد ، الا اننا نستطيع ان نقول — على التجوز — ان الذكاء او الاستعداد الموسيقى قدرة فطرية وأن الاعتماد على النفس سمة مكتسبة ، ويقصد بالصفة الفطرية فى هذه الحال الصفة الثابتة نسبيا اى التى لا تستطيع عوامل البيئة العادية أن تغيرها الا فى حدود ضيقة ، فى حين أن الصفة المكتسبة هى الصفة المرنة التى تستطيع عوامل البيئة أن تغيرها تغييرا كبيرا أو ان تمحوها

(2) التوائم الصنوية هى التى تتخلق من انشطار نفس البييضة المخصبة ، فتكون لها نفس المورثات اى نفس الوراثة . كما تكون دائما من جنس واحد، يشبه احدها الآخر عند الميلاد بحيث يتعذر التمييز بينها ، وكلما تقدم بها العمر زاد التشابه بينها بدل ان يقل ، هذا الى تطابق بصمات الاصابع وفصيلة الدم لديها . اما التوائم اللاصنوية فتنشأ من بييضات مستقلة مخصبة بحيوانات منوية مختلفة ، فوراثة احدها غير وراثة الاخر ، وقد يكونان من جنس واحد ، او يكون احدهما ذكرا والاخر انثى ، ولا يزيد التشابه الوراثى بينهما على تشابه اخوين غير توامين لنفس الابوين ، أى تكون درجته حوالى ٥٠ ٪ تقريبا .

على نوع الصفة التى نحن بصددها .. فاذا كنا بصدد صفات جسمية كالمظهر والحيوية فأى اختلاف بينهما عند الميلاد يرجع الى وراثة مختلفة لان المرجح أن تكون بيئة الرحم لكل منهما متشابهة . وحتى بعد الميلاد فاختلاف بيئة أحدهما عن بيئة الآخر لا يؤدى الا الى تغيرات جسمية سطحية . غير اننا اذا كنا بصدد قدرة كالذكاء ، هنا قد تكون الوراثة عاملا هاما ، لكننا لا نستطيع التأكد من ذلك تأكدنا منه فى حالة الصفات الجسمية ، والطريق الوحيد لمعرفة الأثر النسبى لكل من الوراثة والبيئة فى حالة الذكاء والشخصية وأمثالها من الصفات .. هو اجراء التجارب ، مما سنفصله فى بابى الذكاء والشخصية .. وقد دلت التجارب على أن الفروق الفردية ترجع : (١) اما الى الوراثة وحدها كالفروق فى لون العين (٢) أو الى البيئة وحدها كالفروق فى الاتجاهات الاجتماعية والميول والصفات الخلقية (٣) أو الى كل من الوراثة والبيئة بنسب متفاوتة كالفروق فى الذكاء ، الا فى حالة التوائم الصنوية اذ يرجع الاختلاف كله بينها الى عوامل بيئية .

٤ ــ قياس الفروق الفردية

تستخدم الاختبارات النفسية بمختلف أنواعها لقياس (١) الفروق بين الأفراد بعضهم وبعض كمقارنة ذكاء طفل بذكاء الطفل المتوسط فى مجموعة من نفس سنة أو (٢) الفروق بين الفرد ونفسه فى فترات مختلفة ، كمقارنة قدرة الفرد على حفظ الشعر قبل فترة من التدريب وبعدها (٣) والفروق بين الجماعات : كالمقارنة بين الذكور والاناث من حيث المهارة اليدوية أو الاستعداد الموسيقى .. موجز القول أننا نقيس لنقارن . أما الاختبارات فعلى أنواع منها :

١ ــ اختبارات ذكاء .

٢ ــ اختبارات قدرات واستعدادات : جسمية وحسية وحركية وعقلية وفنية .

٣ ــ اختبارات الشخصية : وتدخل فنطاقها اختبارات واستخبارات الميول والاتجاهات النفسية والقيم والسمات الخلقية والمزاجية ومستوى الطموح وقوة الدوافع .. هذا الى اختبارات تشخيصية تميز

بين الاسوياء والعصابيين ، واخرى للتمييز بين الاشــكال المختلفــة للعصاب والذهان[1] .

٤ ـ اختبارات التحصيل الدراسى للطلاب ، واختبارات الــكفاية المهنية للعمال والموظفين .

---

(١) العصاب (بضم العين) neurosis هو المرض النفسى ، والذهان (بضم الذال) psychosis هو المرض العقلى . وللتفرقة بينهما انظــر فصل « الأمراض النفسية والأمراض العقلية » .

الفصل الأول

طبيعة الذكاء ومقياسه

١ ــ معنى الذكاء

الذكاء عند عامة الناس مرادف « للنباهة » وهى يقظة المرء وحسن انتباهه وتفطنه لما يدور حوله أو لما يقوم به من أعمال .. وهم يصفون بالذكاء كذلك الشخص حسن التصرف الذى يصطنع الحيلة لبلوغ أهدافه والذى يقدر على التبصر فى عواقب أعماله .. كما أنهم يميلون عادة الى اعتبار الذكاء قدرة عامة شاملة يبدو أثرها فى ميادين مختلفة، فالذكى فى ميدان التجارة يغلب أن يكون ذكيا فى ميدان السياسة أو الخدمة الاجتماعية أو فى معالجة مشاكل أطفاله .. هذا الى أنهم يرونه موهبة طبيعية لا قدرة يكتسبها الفرد عن طريق الخبرة والتعلم والتحصيل ، فهم يفرقون بين الذكاء وبين العلم والثقافة .. يضاف الى هذا أن الناس يفرقون فى العادة بين الذكاء وبين الصفات الخلقية أو الاجتماعية فيقال ان فلانا ضعيف الارادة أو حاد المزاج بالرغم من ذكائه .

أما علماء النفس فقد تقدموا بتعريفات مختلفة . فيرى « ترمان » Terman الامريكى أن الذكاء هو القدرة على التفكير المجرد ، أى على التفكير بالرموز من ألفاظ وأرقام مجردة عن مدلولاتها الحسية . وهو تعريف لا غبار عليه ان نظرنا الى الانسان فحسب لكنه يتضمن أن أغلب الحيوانات لا تتسم بالذكاء ، كما أنه يغفل عن اختلاف مستويات الذكاء من حيوان الى آخر ، وهو اختلاف اثبتته التجارب. ويرى « شترن » الالمانى Stern أن الذكاء هو القدرة على التكيف العقلى للمشاكل والمواقف الجديدة ، أى قدرة الفرد على تغيير سلوكه حين تقتضى الظروف الخارجية ذلك . ويذهب « كلفن » الامريكى Colvin أن الذكاء هو القدرة على التعلم ، فأذكى اثنين أقدرهما على

التعلم وعلى تطبيق ما تعلمه •• وربما كان أشمل تعريف وأجمعه أن الذكاء هو القدرة على التعلم واستخدام الفرد ما تعلمه فى التكيف لمواقف جديدة أى حل مشكلات جديدة •

ومن الغريب أن العلماء مع عدم معرفتهم بطبيعة الذكاء واختلافهم على تقديم تعريف موحد له ، كانوا ولا يزالون يصوغون مقاييس شتى له تقوم على أساس عملى محض ، وهى مقاييس تميز بالفعل بين الاذكياء وغير الاذكياء ، بين الناجحين والفاشلين فى الدراسة والادارة والمهن الفكرية ، كما أن نتائجها وأحكامها على الذكاء تتفق الى حد كبير مع تقديرات المعلمين أو الرؤساء أو رجال الادارة ممن يتصلون بالناس فى شتى المجالات • هذا مادلت عليه مئات التجارب والدراسات • وقد كان هذا مبررا كافيا لاستخدام مقاييس الذكاء فى التنظيم المدرسى وانتقاء الطلبة للجامعات وفى ميدانى الاختيار والتنبؤ المهنى والتعليمى• الواقع أن قياس الشىء قبل معرفة حقيقته ليس بدعة فى تاريخ العلم، فنحن لانزال نجهل حقيقة الكهرباء ومع ذلك فنحن نقيسها •

٢ ــ نشأة مقاييس الذكاء وتطورها

اتجه الباحثون فى أول عهدهم بالقياس العقلى الى قياس بعض الأمارات والصفات الجسمية طمعا فى أن يجدوا فى بعضها دلائل على القوة العقلية ، فبدأ القياس العقلى بقياس الرأس وابعاد الجمجمة وما بها من نتوءات بحجة أن الرأس مستقر العقل • حتى جاء « بيرسون » Pearson فى أوائل هذا القرن وأثبت أن العلاقة بين القوة العقلية والمظاهر الجسمية علاقة جد ضعيفة لا يعتد بها •

بعد ذلك اتجه القياس العقلى الى تقدير بعض القدرات والصفات الجسمية البسيطة كالقدرة على التمييز الحسى ، ودرجة الحساسية للألم ، وسرعة الحركة ، والقدرة على تحمل التعب •• وكانت حجتهم أن القدرة على التمييز الحسى تتوقف على القدرة على تركيز الانتباه ، وهذه لها علاقة مباشرة بالذكاء • كما أن حساسية الجلد دليل على يقظة العقل وحدته أى دليل على الذكاء •

غير أنه اتضح بالتدريج أن الذكاء كما يعرفه الناس لا يمكن أن

يمس بأمثال هذه القدرات البسيطة . فاتجه الباحثون الى قياس العمليات العقلية العليا كالتفكير والفهم والحكم والتخيل ..

مقياس « بنيه » Binet

كان على قياس الذكاء أن ينتظر ظهور العالم الفرنسى « بنيه » حتى يظفر بأول مقياس معروف للذكاء يستعمل لتحديد المستويات العقلية المختلفة . ذلك أن وزارة المعارف الفرنسية عهدت فى عام ١٩٠٤ الى لجنة أن تبحث عن وسيلة دقيقة للتمييز بين الاطفال الاسوياء وبين شديدى الغباء والمتخلفين عقليا ممن لا يصلحون للدراسة بالمدارس الابتدائية . وكان « بنيه » أحد أعضاء هذه اللجنة ، فرأى أنه ليس من الانصاف أن يعتمد فى مهمته هذه على أحكام المدرسين لأنها ستكون من دون شك أحكاما ذاتية منحازة . وعمل على ابتكار وسيلة تقيس مستوى الذكاء العام لأى طفل كما يقيس المتر أطوال الاشياء . غير أنه لم يحفل بتعريف الذكاء تعريفا محددا ، بل ذهب الى أنه معقد التكوين ، متعدد المظاهر ؛ فهو يفصح عن نفسه فى أربع من القدرات العقلية هى: الفهم والابتكار والنقد والقدرة على التوجيه الهادف للسلوك . فبدأ يصوغ أنواعا من الاختبارات تجس العقل فى هذه النواحى المختلفة . وقد راعى فى مقياسه أن تكون اختباراته أى أسئلته :

١ — منوعة مختلفة بدل أن يقتصر على بضعة أنواع من الاختبارات كما كان يفعل سابقوه .

٢ — أن تكون من النوع الذى يقيس الذكاء الخالص من أثر المعلومات المدرسية أو التعلم الخاص .

٣ — أن تكون من النوع الذى يقيس العمليات العقلية العليا كالفهم والحكم والموازنة والاستخدام الصحيح للغة ..

وقد ظهر مقياسه الأول عام ١٩٠٤ ويتألف من ثلاثين سؤالا متدرجة فى الصعوبة وكان هدفه التمييز بين ذكاء الاطفال الأسوياء والمتخلفين عقليا ، فيما بين سن الثالثة والحادية عشرة . وفى عام ١٩٠٨ صاغ مقياسا آخر لم يكن هدفه عزل المتخلفين عقليا عن الاسوياء بل قياس ذكاء التلاميذ فى مختلف الاعمار . وفى عام ١٩١١ قام بتعديل هذا المقياس فاضاف اليه أسئلة جديدة وحذف بعض الاسئلة التى تتطلب تحصيلا مدرسيا خاصا ، فاصبح يتكون من ٥٤ سؤلا .

وقد ترجم مقياس « بنيه » الى عدة لغات وطبق فى كثير من البلاد فبدت الحاجة الى تعديله وتنقيحه حتى يلائم حـالة كل بلد وثقافته ، وامتدت مجموعات أسئلته فظهرت مجموعة تقيس ذكاء صغار الاطفال فى عامهم الاول أو ما دون ذلك ، وأخرى لقياس ذكاء الراشدين ، وثالثة لقياس ذكاء النابغين الممتازين • لكن ظلت مبادىء قياس الذكاء كما رسمها « بنيه » • ومن أشهر هذه التنقيحات تنقيح « ترمـان » الامريكى المسمى تنقيح « ستنفرد » نسبة الى الجامعة التى يعمل بها « ترمان » • كان ذلك عام ١٩١٦ ، ثم أجرى تنقيحا آخر عام ١٩٣٧ وكان أوسع المقاييس شيوعا لقياس ذكاء الاطفال ، وقد نقل هذا التنقيح الى اللغة العربية بعد أن ادخلت عليه بعض التعديلات كى يلائم البيئة المصرية • هذا وقد ظهر تنقيح ثالث عام ١٩٦٠ لأن كثيرا من اسئلة التنقيح السابق أصبحت مهجورة لا تلائم مقتضيات العصر •

ثم ظهرت بعد ذلك مقاييس الذكاء الجمعية التى لا تجرى على كل فرد على حدة كما فى مقياس « بنيه » ، كما ظهـرت المقـاييس غير اللفظية التى لا تكون الاجابة على اسئلتها باللغة كما هى الحال فى أغلب اختبارات « بنيه » •

أمثلة من مقياس منقح لبنيه :

لكى نأخذ فكرة عما تقيسه مقاييس الذكاء بالفعل ونعرف ماتستخدمه من مواد وما يتطلبه اجراؤها من عمليات عقلية ، اليـك أمثلة لبعض الاختبارات التى استخدمها « بنيه » وأتباعه لمستويـات الأعمـار المختلفـة :

مستوى ٨ شهور : يمد الطفل يده ليمسك بجسم صغير لامع مدلى فى متناول يده •

مستوى ١٢ شهرا : يقلد الطفل المختبر وهو يهز « شخشيخه » فى يـده •

مستوى ٢ سنة : يطلب الى الطفل أن يزيل الغلاف المحيط بقطعة من الشيكولاته قبل أن يضعها فى فمه •

مستوى ٥ر٢ سنة : يعرض على الطفل ٥ لعب معروفة له ويطلب منه تسمية ٤ منها .

مستوى ٣ سنين : يعطى الطفل خيطا وكمية من الخرز ويطلب اليه أن يسلكها في الخيط . وينجح اذا سلك ٤ خرزات على الأقل في مدة لا تتجاوز دقيقتين .

مستوى ٦ سنوات : تعرض عليه ٤ صور لوجوه انسانية وقد حذفت منها بعض الأجزاء كالأنف وعين واحدة مثلا ، ويطلب اليه الاشـــارة الى الأجزاء المحذوفة . وينجح اذا أعطى الجواب الصحيح لثـــلاث صــــور .

مستوى ٩ سنوات : يطلب اليه أن يذكر أوجه الشبه وأوجه الاختلاف بين الخشب والفحم وبين المركب والسيارة ، وبين التفاح والبرتقال .

مستوى ١٢ سنة : يطلب اليه أن يقدم تأويلا صحيحا لصورة حادثة تعرض عليـــه .

مستوى ١٤ سنة : تعرض عليه صورة أضيفت اليها وحذفت منهـــا بعض الأجزاء ،ويطلب اليه لماذا تبدو الصورة سخيفة ؟

٤ مستويات للراشدين : يطلب الى المفحوص أن يقدم تعريفات حرة لـ ٢٠ و ٢٣ و ٢٦ و ٣٠ كلمة من قائمة بها ٤٥ كلمة .

ويبدو لنا أن نتساءل على أى أساس يقوم تقدير الدرجات لهـــذه الاختبارات ؟ لماذا يطلب من المفحوص أن يعطى ٤ أجوبة صحيحة من ٥ ، أو ٤ من ٤ في اختبار آخر ، أو أن يعرف ٢٠ كلمة من ٤٥ ؟ الواقع أن هذا التقدير لا يقوم على أساس تعسفى ، فالاختبارات تجرب قبل أن تطبق على أعداد كبيرة من الاطفال والراشدين ممن هم في نفس العمر ، ثم تعدل وتكيف حسب مستوى الافراد المتوسطين في الاعمار المختلفة .

العمر العقلى ونسبة الذكاء

أدخل « بنيه » فكرة العمر العقلى [1] لقياس مستوى الذكاء . فاذا

(١) Mental Age ويرمز اليه بالحرفين MA .

نجح طفل في الاجابة على جميع الاختبارات في مقياسه الى اختبارات عمر ٩ سنين مثلا وعجز عن الاجابة فيما بعد ذلك قلنا ان عمره العقلي ٩ سنين مهما كان عمره الزمني ، أي أن ذكاءه يعادل ذكاء طفل متوسط عمره ٩ سنين • وان استطاع طفل عمره الزمني ٤ سنوات ان ينجح في اختبارات سن٦ فهو أذكى بكثير من المتوسط ، واذا كان عمره الزمني ٩ سنوات ولم يرق الى مستوى سن ٦ ، فهو متأخر وربما كان ضعيف العقل • فالعمر العقلي هو المستوى الذي بلغه الفرد في ذكائه في الوقت الذي نجرى عليه فيه مقياس الذكاء •

غير أن العمر العقلي في ذاته لا يدلنا على أن الفرد ذكي أو غبي • فالطفل الذي عمره العقلي ٨ سنوات مثلا يكون غبيا ان كان عمره الزمني ١٢ سنة ، ويكون طفلا ذكيا ان كان عمره الزمني ٥ سنوات ،

ومن ثم كان من الضروري أن نوازن بين العمر العقلي للفرد وعمره الزمني ، أي عدد السنين التي عاشها فعلا ان أردنا أن نحكم على ذكائه• فان كان عمره العقلي يقترب من عمره الزمني فهومتوسط الذكاء ، وان كان يزيد عليه فهو فوق المتوسط في الذكاء ، لذا اصطلح العلماء بعد « بنيه » على اتخاذ النسبة بين العمر العقلي والعمر الزمني وسيلة للدلالة على ذكاء الفرد أو غبائه • وتضرب هذه النسبة عادة في ١٠٠ لازالة الكسور • وتسمى القيمة الناتجة « نسبة الذكاء » intelligence Quotient أو IQ • فنسبة الذكاء لطفل عمره العقلي ١٠ سنوات وعمره الزمني ٨ سنوات هي ١٠/٨ × ١٠٠ = ١٢٥ ، وبقدر ما تزيد هذه النسبة على ١٠٠ يعلو ذكاء الفرد عن المتوسط ، وعلى قدر ما تقل عن ١٠٠ يكون ذكاء الفرد منخفضا بقدر قليل أو كبير •

طبقات الذكاء :

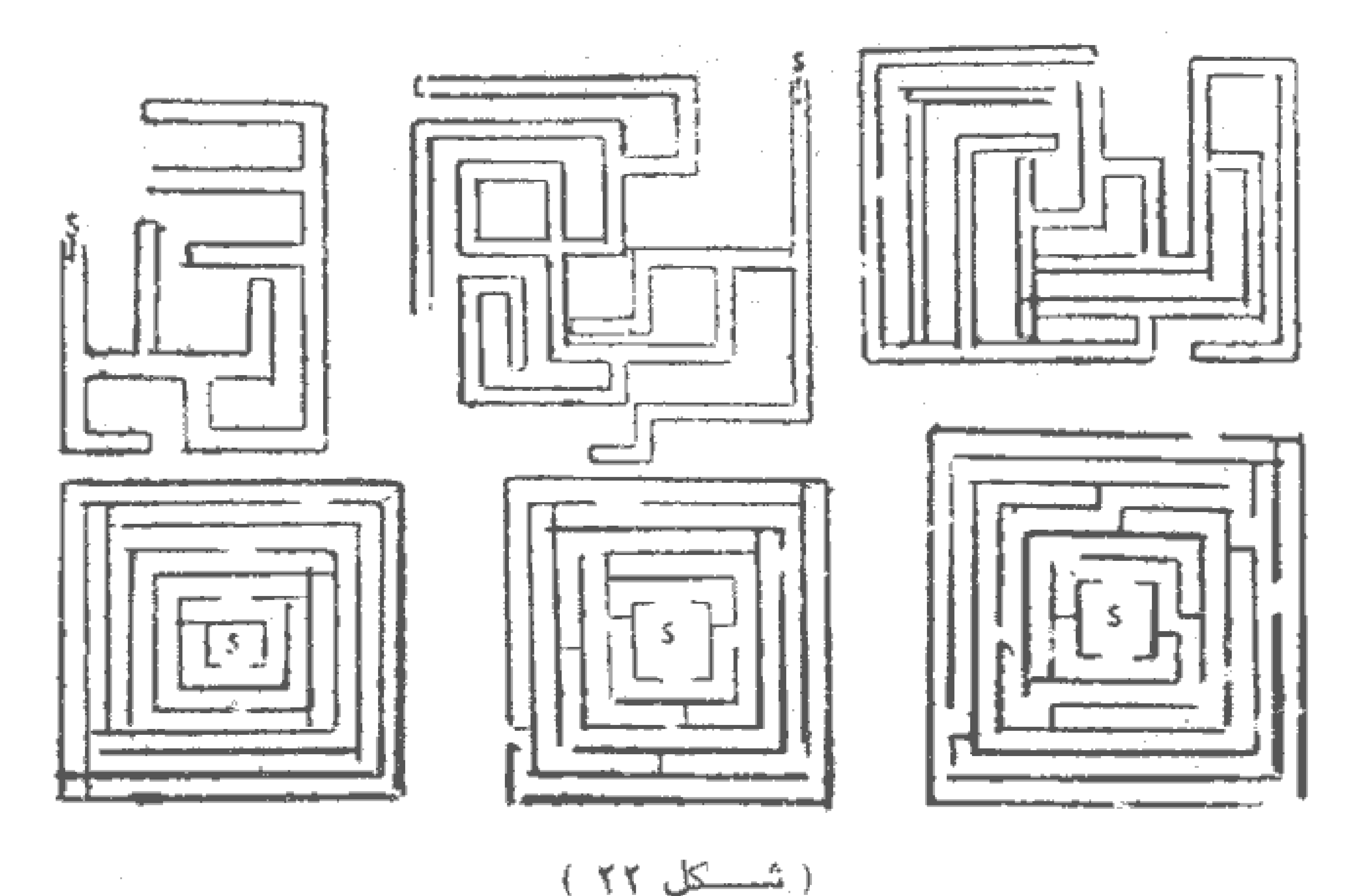
تدلنا نسبة الذكاء على أن الفرد ذكي أو غبي أو متوسط ، لكنها لا تدلنا على مدى ما لديه من تفوق أو تأخر ، فنسبة الذكاء ان زادت على ١٠٠ كانت دليلا على أن صاحبها فوق المتوسط في الذكاء ، لكن هل تشير النسبة ١٣٠ مثلا الى ذكاء خارق ونبوغ ، أم أنها أمر شائع بين الناس ؟ وهل النسبة ٨٠ تشير الى غباء مطبق أم أنها أمر مألوف، ومن ثم فالمدلول الحقيقي لنسبة الذكاء لدى فرد معين لا يمكن معرفته

على وجــه التحديد الا اذا درسنا توزيع نسب الــذكاء بين النـــاس جميعا • وقد طبقت مقاييس الذكاء على نطاق واسع فدلت نتائجها على أن الذكاء موزع بين الناس توزيعا طبيعيا وفق المنحنى الاعتدالى (أنظر ص ٣١٠) أى ان السواد الأعظم منهم متوسطون فى الذكاء فى حين أن النوابغ وضعاف العقل قلة قليلة • فالذين تزيد نسب ذكائهم على ١٤٠ لا يتجـاوزون ١٪ من الناس والذين تقـل نسبهم عن ٦٠ لا يتجاوزون ١٪ أيضا؛• وقد اتفق العلماء على أن :

من تزيد نسبة ذكائه على ١٤٠ يعد ألمعيا •
من تكون نسبة ذكائه من ١٢٠ الى ١٤٠ يعد ذكيا جدا •
من تكون نسبة ذكائه من ١١٠ الى ١٢٠ يعد فوق المتوسط •
من تكون نسبة ذكائه من ٩٠ الى ١١٠ يعد متوسط الذكاء •
من تكون نسبة ذكائه من ٨٠ الى ٩٠ يعد دون المتوسط •
من تكون نسبة ذكائه من ٧٠ الى ٨٠ يعد غبيا جدا •
من تكون نسبة ذكائه أقل من ٧٠ فهو ضعيف العقل •
فان كانت نسبة ذكائه من ٥٠ ــ ٧٠ فهو أهوك •
وان كانت نسبة ذكائه من ٢٠ أو ٢٥ ــ ٥٠ فهو أبله •
وان كانت نسبة ذكائه أقل من ٢٠ أو ٢٥ فهو معتوه •

٣ ــ مقاييس الذكاء غير اللفظية (العملية)

هى مقاييس لا تكون الاجابة على اسئلتها باللغة بل بالرسم أو القيام بعمل حركى كأن يطلب الى المفحوص أن يبنى برجا من عدة مكعبات ، أو أن يؤلف صورة لمنظر من أجزائها المبعثرة ، أو أن يرسم صورة لأى شخص لمعرفة ما اذا كان سيغفل عن بعض التفاصيل الهامة أو العلاقات الهامة فى رسمه ، أو أن يعطى لوحة بها ثقوب لأشكال هندسية مختلفة وعليه أن يملأ هذه الثقوب بقطع من الخشب ، ثم تسجل أخطـــاؤه والزمن الذى يستغرقه لانجاز هذا الاختبار • ومن الاختبارات غير اللفظية الشهيرة اختبار المتاهات الذى أعده « بورتيس » Porteus وهو يتألف من مجموعة من المتاهات متدرجة فى صعوبتها (شكل ٢٢) بحيث تناسب قياس ذكاء الاطفال من سن ٣ الى ١٤ • وعلى الفـــرد المفحوص أن يحدد بالقلم الرصاص اقصر طريق يصل بين مدخـــل المتاهة ونهايتها • وقد ثبتت فائدة هذا الاختبار مع الاغبيـــاء ودون

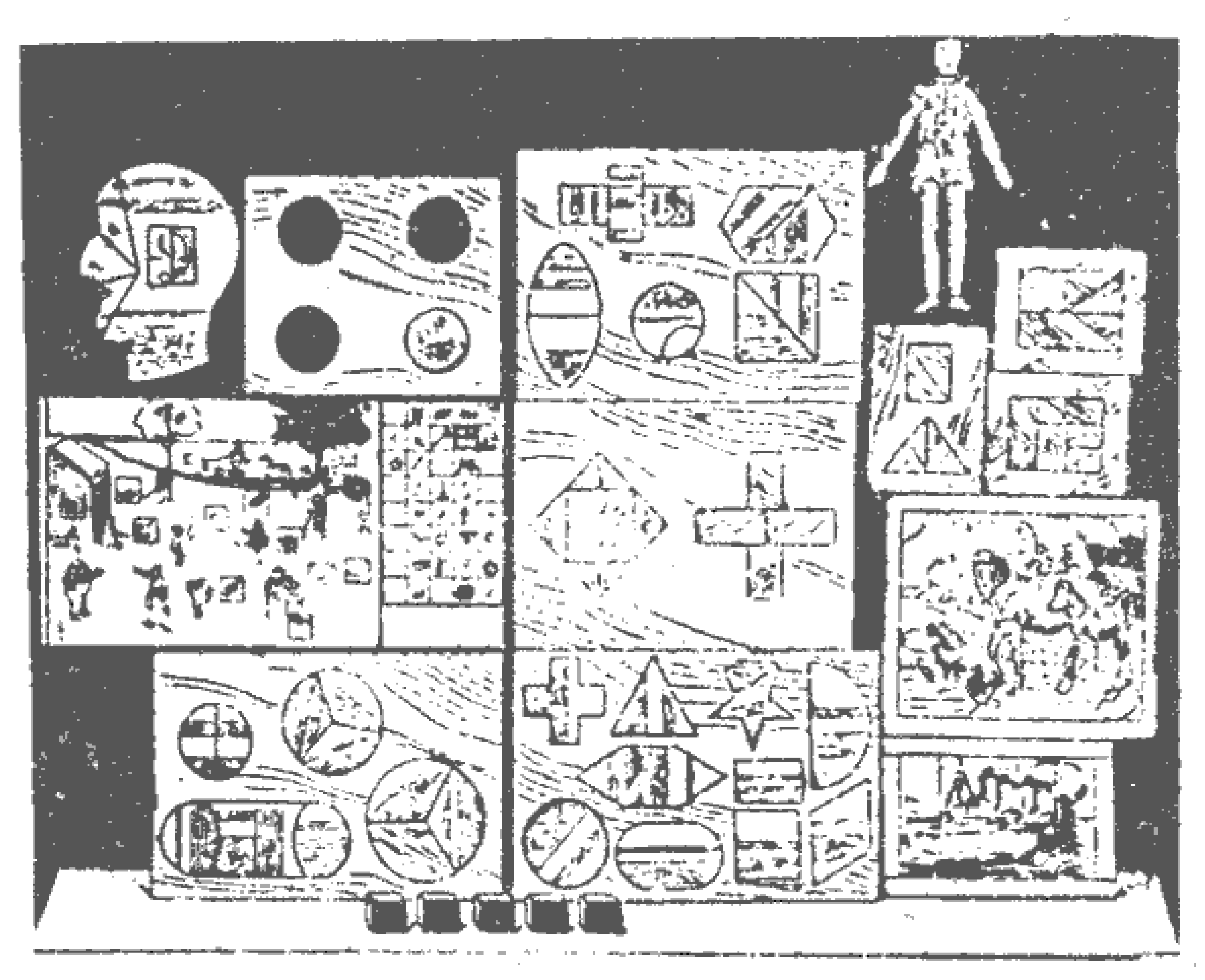


(شــكل ٢٢)
لاحظ تدرج المتاهات فى الصعوبة — كل متاهة تقدم مطبوعة على ورقة منفصلة فاذا نجح المفحوص فى اجتيازها تقدم له المتاهة التالية

المتوسطين والبدائيين . كما ظهر أنه يقيس الى جانب الذكاء درجـة الحرص أو الاندفاعية ، لذا غالبا ما يفشل فيه الاحداث الجـانحون بدرجة أكبر من فشل أحداث أسوياء يتساوون معهم فى الذكاء اللفظى .

ومن أحسن المقاييس العملية وأكثرها شيوعا مقياس «بنتنر» Pintner و « باترسون » Paterson (شكل ٢٣) ويطبق على الاطفال من سن ٤ الى ١٤ . ويتألف من ١٥ اختبارا مستقلا سبعة منها لوحات أشكال أى لوحات بها ثقوب توضع فيها كتل من الخشب ذات أشكال وأحجام مختلفة ، وثلاثة اختبارات لتكميل صور من أجزائها المبعثرة ، واختبارات أخرى لعدة كتل من الخشب وتكوين أشكال وعمليات تعلم بسيطة . أما المكعبات الظاهرة فى أسفل الرسم فتوضع أربعة منها أمام المفحوص ويستخدم المختبر المكعب الخامس للنقر عليها بنظام وترتيب معين ثم يطلب الى المفحوص فى كل مرة أن يحاكى النقر بنفس الترتيب .

وتستخدم المقاييس العملية لقياس ذكاء الأميين والاجانب والصم البكم وصغار الاطفال وضعاف العقول أى المتخلفين عقليا أو من لديهم عيوب فى النطق .

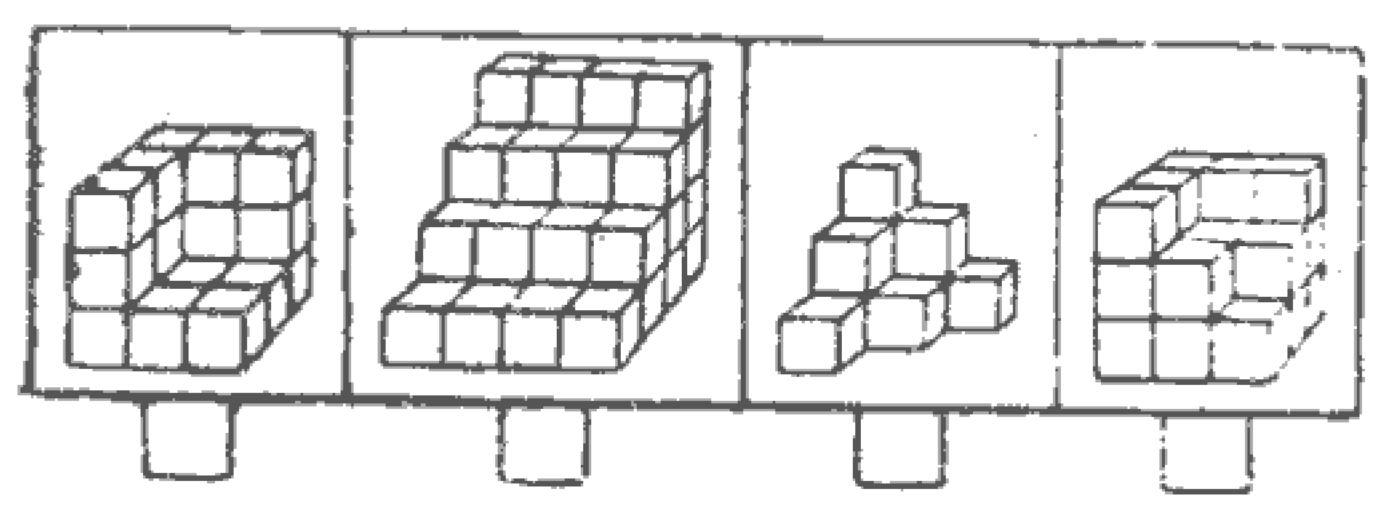


شكل (٢٣)

٤ — مقاييس الذكاء الجمعية

لا تجرى هذه المقاييس على كل فرد على حدة بل على مجموعة من الافراد فى وقت واحد ، وهى لا تتطلب أجهزة أو أدوات خاصة ، ان هو الا الورق والقلم ، ومن الأمثلة عليهـا « مقاييس الجيش » التى أجرتها الولايات المتحدة الامريكية فى الحرب العالمية الأولى على أكثر من مليون ونصف مليون من الجندين والضباط للتمييز بين الاغبياء الذين لا يصلحون للقيام بواجبات الجندى وبـين الأذكيـاء الذين يقدرون على القيـام بواجبات الضـابط وتتكون هذه المقـاييس من مقياسين « ألفـا » alpha و « بيتا » beta • وقد صيغ المقيـاس الأول لقياس ذكاء من يعرفون القراءة والكتابة لأنه مقياس لفظى • فيه اختبارات لقياس الانتباه وأخرى للتفكير اللغـوى ، وثالثـة تتلخص فى حل مسائل حسابية ، ورابعة لقيـاس القدرة على ادراك أوجـه الشبه والتضاد بين أشياء ، واختبارات يطلب فيها الى المفحوص ترتيب عدد من الكلمات أو تكملة سلاسل من الأعداد واختبارات لتقـدير المعلومات العامة •

أما مقياس « بيتا » فمقياس عملى للاميين مادته رسوم وأشكال ورموز ومتاهات ، أنظر شكل ٢٤ •



(شـــكل ٢٤)

كم مكعبا فى كل مجموعة ؟ اكتب العدد فى المربع الخالى

والمقاييس الجمعية أكثر اقتصادا فى الوقت والجهد من المقاييس الفردية كمقياس بنيه ، ولكنها لا تعدلها فى الدقة والضبط ، ولا تعطى فكرة عن الكيفية التى يستجيب بها الفرد للمقياس أى ملاحظة سلوكه أثناء الاختبار : هل هو مهتم بالاختبار أو غير مكترث ، هل هو خجول أو مذعور أو مسرف فى التأدب ، أو مجامل ، هل يكثر من السؤال ، هل هو قليل الصبر ، سريع الاهتياج ، هل يستطيع تركيز انتباهه ، ويثابر ان ارتطم بصعوبة ؟ لذا يجب تطبيق المقاييس الفردية على الأفراد الذين تبدو نتائجهم فى المقاييس الجمعية مريبة تقتضى مزيدا من الدراســة للتحقق من صحتها ،وكذلك يحسن استعمالها مع صــغار الاطفــال وضعاف العقول والاطفال المشكلين والجانحين . أما المقاييس الجمعية فيتعين استعمالها لتصفية الاعداد الكبيرة من العمال والموظفين المتقدمين لشغل عمل أو وظيفة معينة ، وكذلك لانتقاء الصالحين ممن يتقــدمون الى المدارس والجامعات .

٥ ــ مقياس الذكاء الثانوى لتلاميذ مصر

أعد هذا المقياس الاستاذ القبانى فى الثلاثينات لقياس ذكاء تلاميذ المدارس الثانوية (١٢ ــ ١٨ سنة) . ويتألف من ٥٨ سؤالا مكتوبة فى كراسة وتتدرج من السهل الى الصعب ، والزمن اللازم لاجرائه ٤٠ دقيقة . وهو مقياس يمكن اجراؤه بصورة فردية أو جمعية . واليك بعض أسئلته وأمام كل سؤال رقمه فى المقياس :

(١) ضع خطا تحت كلمتين من الكلمات الآتيــة تكون العــلاقة بين معنييهما كالعلاقة بين العين والبصر :

الأذن ــ الشعرة ــ أزرق ــ السمع ــ البحر ــ البحيرة .

(٤) اكتب العددين المكملين لسلسلة الأعداد الآتية :

٢ ــ ٤ ــ ٨ ــ ١٦ ــ ٣٢ ــ ٦٤

(٩) ضع خطا تحت الجواب الصحيح : الاسفنج هو : سنائل — عنصر — مادة ليفية — حيوان — حجر ذو مسام — شيء مصنوع •

(١٠) ضع خطا تحت كلمتين تكون العلاقة بين معنييهما مثل العلاقة بين مستشفى ومرضى : طبيب — ملجأ — سجن — قاض — جمعية خيرية — مجرمون — مفتش •

(١٤) اذا رسم ثلاثة أقطار في دائرة ، فالى كم قسم تنقسم ؟

(٢٧) رتب الكلمات الآتية في عقلك كي تكون جملة مفهومة ، ثم اعمل ما تكلفك به تلك الجملة — لا تكتب الجملة وانما اعمل ما تكلفك به فقط : خطا ، اسم ، تحت ، اكتب ، ايطاليا ، وضع ، عاصمة •

(٣١) اكمل الجملة الآتية بوضع كلمة واحدة في كل مسافة منقطة : انه من ••• أن ترتبط برباط الصداقة مع من يفوقك في •••

(٣٧) صندوق يحتوى على صندوقين آخرين ، وفي كل من هذين الصندوقين توجد ٣ صناديق أخرى • وفي كل من هذه الصناديق الأخيرة توجد ٤ صناديق أخرى • فما عدد الصناديق جميعا •

(٤٤) « لكل قاعدة شواذ ، حتى هذه القاعدة » — هذه العبارة غير معقولة ، والمطلوب منك أن تضع خطا تحت أحسن جملة تبين كونها غير معقولة : (أ) أنها ليست قاعدة • (ب) أن بعض القواعد ليس لها شواذ (جـ) أنها تناقض نفسها (د) أننا لا يمكننا معرفة ما هي الشـواذ •

(٥٣) ما عكس « مفاجيء » ؟

(٥٨) (٦٣ ، ٧٣٥١ ، ٤٢٦٧٣ ، ٧٩٢٣ ، ٦٥ ، ٧٣٥١ ، ٨١٠٧٣) هذه الأرقام تكون جملة مكتوبة بلغة سرية وكل رقم فيها رمز لحرف معين • والمطلوب منك ترجمتها مع ملاحظة (أولا) أن الحرف أ هو أكثر الحروف تكرارا في اللغة العربية (ثانيا) أن ١ = ج،٩=ص،٢ = ف •

٦ — مقياس وكسلر للراشدين

ظهر هذا المقياس عام ١٩٣٩ على يد السيكولوجي Wechsler بمستشفى Bellevue للطب النفسي بمدينة نيويورك ، لذا يعرف أحيانا بمقياس وكسلر — بلفيو • وهو مقياس فردى لقياس ذكاء

الراشدين ، المتعلمين والأميين ، من سن ١٦ الى ٦٠ ، وسرعان مالاقى رواجا وأصبح من أكثر المقاييس الفردية استعمالا وذلك بالرغم من ظهور تنقيح ستنفرد بنيه لعام ١٩٣٧ • ذلك أن هذا التنقيح كان عرضة لكثير من أوجه النقد من أهمها : أنه يستخدم اللغة الى حد كبير ، اذ يحتوى على اختبارات مفردات لغوية فى أعمار كثيرة بالاضافة الى أخرى تختبر قدرة المفحوص على فهم الألفاظ واستخدامها ، لذا فهو مقياس لفظى أى تتأثر نتيجته بالقدرة اللغوية للمفحوص • ثم انه وان كان قد نجح فى قياس ذكاء الأطفال الا أنه لـم ينجح فى قياس ذكاء الكبار لأنه لم يقنن على أفـراد فوق سـن١٨ ، لذا فكثير من اختباراته لا يثير اهتمام الراشدين وشوقهم لأنه موضـوع فى الأصل لمن هـم أصغر سنا • ومن ثم بدت الحاجة ماسة الى مقياس لذكاء الراشدين • ويتألف المقياس من قسمين ، قسم لفظى يحتوى على ستة اختبارات، وقسم عملى يحتوى على خمسة اختبارات عملية [1] • وقد اقتبسه وأعده للبيئة المصرية الاستاذان لويس كامل وعماد الدين اسماعيل ، ومنهما نستمد الأمثلة التالية :

القسم اللفظى : ويتألف من الاختبارات الآتية :

١ ــ المعلومات العامة : ويتكون من ٢٥ سؤالا متدرجا فى الصعوبة مثل : ايه هو الترمومتر ؟ السكر بيجى منين ؟ مين اللى كتب كتـاب الأيام ؟ ايه الاجراءات القانونية اللى لازم يعملهـا البـوليس قبـل ما يخش بيت واحد ؟

٢ ــ الفهم العام : ويضم ١٠ أسئلة لا يتطلب الاجابة عليها تحصيلا دراسيا خاصا مثل : ليه الجزم بتتعمـل من الجلد ؟ ليه اللى يتولد أطرش مايقدرش يتكلم ؟

٣ ــ الاستدلال الحسابى : يتكون من ١٠ أسئلة متدرجة فى الصعوبة تعطى الثمانية الأولى منها شفويا أما السؤالان الأخيران فيعطى كل منهما على بطاقة مثل : اذا اشترى راجل طوابع بوستة بثمانية صاغ وأعطى البائع ورقه بـ ٢٥ قرشا يبقى له كام عند البياع ؟ (الـزمن

---

(١) صاغ وكسلر مقياسا آخر خاصا بالأطفال دون سن ١٠ ، وهو يشبه مقياس الراشدين فى أن كليهما يحتوى على اختبارات لفظية وأخرى عملية .

المحدد للاجابة ١٥ ثانية) • اذا كان ٣ كيلو تين بـ ٢٥ قرشا فكم كيلو يشتريها الواحد بجنيه ؟ (الزمن المحدد ٦٠ ثانية) •

٤ — اعادة الأرقام : يعيد المفحوص ثلاثة أرقام ثم أربعة ثم خمسة الى تسعة أرقام يلقيها عليه المختبر ، ثم يعيد المفحوص عدة سلاسل من الأرقام بالعكس • وتكون درجته هى مجموعة عدد الأرقام المعادة اعادة صحيحة فى كل من المجموعتين •

٥ — المتشابهات : يذكر المفحوص أوجه الشبه بين شيئين يبدوان مختلفين كالبرتقال والموز أو الكلب والأسد أو الهواء والماء أو المدح والعتاب •

٦ — معانى الكلمات : يطلب الى المفحوص اعطاء معانى عدد من الكلمات تتدرج فى الصعوبة •

القسم العملى :

١ — ترتيب الصور : مجموعات من الصور تمثل كل مجموعة منها قصة مفهومة ، تعرض على المفحوص غير مرتبة ويطلب منه ترتيبها • وتقدر الدرجة على أساس صحة الأداء وسرعته •

٢ — تكميل الصور : ١٥ بطاقة على كل منها صورة ينقصها جزء ويطلب من المفحوص ذكر اسم الجزء الناقص — صورة لرجل لا يوجد الا نصف شاربه ، أو رجل فى الشمس لا ظل له • أما الدرجة فتكون على عدد الصور التى أعطيت عنها اجابات صحيحة •

٣ — تجميع الأشكال : نماذج من الخشب لثلاثة أشياء (وجه امرأة ويد انسان وشكل صبى) وقد قطعت قطعا مختلفة ، ويطلب من المفحوص جمع هذه القطع بحيث تكون الشكل الكامل • وتقدر الدرجة على أساس كل من سرعة الأداء ودقته •

٤ — اختبار المكعبات : تعرض على المفحوص مكعبات جوانبها ملونة بألوان مختلفة ، كما تعرض عليه بطاقات عليها رسوم ملونة • ويطلب منه أن يكون من المكعبات مثل ما يرى فى البطاقات • وتقدر الدرجة على أساس كل من الصحة والسرعة •

٥ — رموز الأرقام : تعرض على المفحوص عدة أرقام تحت كل رقم

منها رمز مختلف ، ثم تقدم اليه بطاقة بها عدة أرقام ويطلب منه أن يضع تحت كل رقم منها الرمز المناظر له • والدرجة هى المجموع الكلى للرموز الصحيحة •

هذا المقياس يعطى ثلاث نسب للذكاء : نسبة الذكاء اللفظى ، ونسبة الذكاء العملى ، ونسبة الذكاء الكلى • غير أن هذه النسب تحسب بطريقة غير الطريقة التى تحسب بها فى مقياس « بنيه » ، اذ تحسب من الدرجة التى يحصل عليها الفرد فى المقياس مباشرة دون استخدام العمر العقلى •

ويتميز مقياس وكسلر عن غيره من المقاييس بأنه :

١ ــ جمع بين اختبارات لفظية وأخرى عملية فى مقياس واحد شامل• وهذا لا يعنى أن هناك أنواعا مختلفة من الذكاء بل يعنى أن هناك طرقا مختلفة يعبر بها الذكاء عن نفسه •

٢ ــ لا يستخدم فكرة العمر العقلى لقياس ذكاء الراشدين ، لأن العمر العقلى ولو انه يفيد فى وصف النمو العقلى للطفل الا أنه لا يناسب بل يضل فى قياس ذكاء الراشدين •

٣ ــ بسط مفهوم الذكاء الذى تقيسه المقاييس فجعله يشمل مقومات أخرى غير عقلية كالاهتمام والرغبة فى النجاح والمثابرة والتحمس فى الأداء •• هى التى تدفع الفرد الى حل مسائل أكثر صعوبة وتعقيدا •

٧ ــ الحكم على الذكاء من مقاييسه

لو تأملنا مقاييس الذكاء التى استعرضناها لوجدنا أنها تشترك فى النواحى الآتية :

١ ــ أنها منوعة مختلفة الى حد كبير ، فهى تقيس القدرات اللفظية والعددية والمكانية ، ويقصد بالقدرة المكانية قدرة الفرد على تقدير المسافات والأبعاد بدقة ، وعلى ملاحظة ما بين الأشكال من تشابه أو اختلاف ، وعلى تكوين شكل من أجزائه المبعثرة ••

٢ ــ أن كثيرا من أسئلتها يتطلب استخدام المعلومات والخبرات السابقة • ويتضح هذا حين نسأل المفحوص أن يعرف كلمة معينة أو

نسأله عن فهمه معاني بعض الكلمات • كذلك الحال فى اختبار رسم شخص وتكملة صورة • غير أن هذا يبدو أقل وضوحا فى اختبارات المتاهة اذ من المحتمل ألا يكون المفحوص قد التقى من قبل بشىء كالمتاهة • ومع هذا فقد تعينه خبرته السابقة حتى فى هذه الحال ، اذ ربما يكون قد تعلم فائدة الحرص والتؤده وضرر التسرع والاندفاع مما هو ضرورى للنجاح فى هذه الاختبارات •

٣ ــ أما الاختبارات التى تتلخص فى مجرد استرجاع الماضى فقليلة جدا أو معدومة • وأغلب الاختبارات تضع المفحوص فى موقف جديد الى حد ما • فهو يعرف جيدا كلا من الفحم والخشب ، لكنه لم يسبق له فى أغلب الظن أن فكر فيم يتشابهان وفيم يختلفان • وقد سبق للمفحوص أن أجرى مسائل حسابية كثيرة ، لكن خلط عدة مسائل بعضها مع بعض يضعه أمام مشكلة جديدة • فاختبارات الذكاء لا تقيس المعرفة من حيث هى بل القدرة على تطبيقها واستخدامها • وسنرى مما يلى أن الذكاء قدرة عقلية وليس محتوى عقليا •

٤ ــ ومما يلفت النظر فى هذه المقاييس على اختلاف أنواعها أن الغالبية العظمى من أسئلتها تتطلب ادراك العلاقات : بين ألفاظ أو أرقام أو رسوم أو أشكال أو جمل •• ويبدو هذا بوجه خاص فى اختبارات التصنيف والاستدلال ، واختبارات التشابه وتكميل سلاسل الأعداد ، واكمال الجمل الناقصة أو الرسوم الناقصة وترتيب الصور وتجميع الأشكال •

٥ ــ ثم ان تدرج الاختبارات فى الصعوبة والتعقيد ، وتحديد أزمنة معينة لأغلبها يجعل لعامل المثابرة وعامل السرعة وزنا فى النجاح•

الى هنا نستطيع أن نقول ان الذكاء ــ الذى تقيسه المقاييس التى حسن تأليفها ــ يبدو فى قدرة الفرد على مواجهة مواقف جديدة وحل مشكلات فى ضوء الخبرات السابقة وذلك بفضل ادراك العلاقات الهامة بين أجزاء الموقف أو المشكلة ، وأن أذكى شخصين هو أقدرهما على حل مشكلات أكثر صعوبة وتعقيدا وفى وقت أقصر •

٨ ـ التحليل العاملى للذكاء

عندما أراد علماء الكيمياء معـرفة خواص المـواد المختلفة قامـوا بتحليلها لمعرفة العناصر التى تتألف منها والنسب التى توجد بها هذه العناصر والتشكيلات التى تكون عليها ، وبذا استطاعوا أن يميزوا بين أكثر من سبعمائة ألف مادة ، ربعها يتألف من أربعة عناصر بسـيطة هى الأكسجين والأزوت والإيدروجين والكربون • وبعبارة أخرى لقد أعانت معرفة العناصر ونسبها وتشكيلاتها على فهـم خواص المواد وكيفية تفاعلها • على هذا النحو تحاول مدرسة تحليل العوامل الكشف عن أقل عدد ممكن من العناصر أو العوامل الأولية ـ أى التى لا يمكن ردها الى أبسط منها ـ التى تتألف منها المركبات السيكولوجية كالذكاء والشخصية • وتعتمد هذه المدرسة فى بحوثها على تطبيق الاختبارات ومعالجة النتائج بطرق احصائية تصـل احيانا الى درجـة كبيرة من الصعوبـة والتعقيـد • وتحليـل معـاملات الارتبـاط جانب هـام من المعالجات الاحصائية التى تستخدمها •

معـامل الارتباط Correlation Coefficient

مقياس احصائى يدلنا على مدى التلازم فى التغير أو مدى التشابه فى العناصر بين متغيرين ـ أى بين ظاهرتين أو قياسين يتغيران معا • وهو معامل تتراوح قيمته بين + ١ و ـ ١ •

١ ـ فاذا كان التغير فى المتغير الأول يصحبه دائما وبنفس النسبة تغير فى المتغير الثانى قلنا ان معامل الارتباط بينهما تام أو مطلـق ورمزنا اليه بالرقم ١ كما هى الحـال فى الارتباط بين تمدد الأجسـام وارتفاع درجة الحرارة •

واذا سـلمنا جدلا بان معامل الارتباط تـام مطلق بين اختبـارين يقيسان قدرتين معينتين فهذا يعنى أنهما يقيسان نفس القدرة •

٢ ـ واذا كان التغير فى المتغير الأول يصحبه غالبا وبنفس النسـبة تغير فى المتغير الثانى كان معامل الارتباط بينهما موجبا جزئيا مرتفعا ورمزنا اليه بكسر من الواحد ٠،٧٠ أو ٠،٨٠ أو ٠،٩٠ كما هى الحال فى الارتباط بين ذكاء توأمين صنوين (٠،٩٥) ، أو بين القـدرة على تحصيل التاريخ والقدرة على تحصيل الجغرافية (٠،٧٥) ، أو بين سنة

السيطرة وسمة الانبساط[1] (٠٫٧٦) .. وهذا يعنى أن ذكاء توأم يكاد يطابق ذكاء أخيه ، وأن هناك تشـابها كبيرا واشتراكا كبيرا فى العناصر بين القدرتين أو السمتين . واذا فرضنا أن معـامل الارتباط بين الطول والوزن هو ٠٫٦٥ فهذا يعنى أن زيادة الطول ترتبط بزيادة الوزن لكنها ليست العامل الوحيد فى زيادة الوزن .

٣ ــ واذا كان التغير فى المتغير الأول يصحبه **أحيانا** وبنفس النسبة تغـير فى المتغير الثانى كان معـامل الارتباط بينهمـا موجبا جزئيـا منخفضا . فاذا كان معامل الارتبـاط بين الذكاء والخلق ٠٫٢٠ فهـذا يعنى أن الذكى يحتمل احتمالا ضعيفا أن يكون حسن الخلق ، وبعبارة أخرى أنه فى ٢٠٪ فقط من الحالات يكون الذكى حسن الخلق . واذا كان معامل الارتباط بين القـدرة اللغوية والقـدرة على الرسم ٠٫٢٥ فهذا يعنى أن العنـاصر المشتركة بين القدرتين طفيفة ، أو أن التشابه بينهما طفيف .

٤ ــ واذا لم تكن هناك علاقة بالمرة بين تغير المتغير الأول وتغـير الثانى قلنا أن معامل الارتباط بينهما « صفر » كما هى العـلاقة بين ذكاء الفرد وحجم أنفه ، أو بين القـدرة على حفظ الشـعر والقـدرة على رفع الأثقال .

٥ ــ فاذا حدث أن اقترنت كل زيادة فى المتغير الأول وبنفس النسبة بنقص فى المتغير الثـانى ، قلنا ان الارتبـاط بينهما « تام سلبى » ، ورمزنا الى معامل الارتباط بالرقم ــ ١ كما هى الحال فى العلاقة بين حجم الغاز وضغطه .

الارتباط والتنبؤ : لمعامل الارتباط فائدة كبيرة فى التنبؤ . فـاذا دل الاختبار على وجود ارتباط مرتفع بين المهارة اليدوية للفرد حين تقاس باختبار من الاختبارات النفسية الحركية وبين مهارته بعد أن يعمل فى مصنع من المصانع ، استطعنا أن نتنبأ باحتمال نجاح الفـرد أو فشله قبل أن يلتحق بالمصنع ووفـرنا عليه وقتـا وجهدا ومتاعب كثيرة . كذلك الحال ان كان معامل الارتباط مرتفعا بين الذكاء والتحصيل

---

(١) الانبسـاط ضد الانطواء على النفس .

الدراسى اذ نستطيع أن نتنبأ باحتمال نجاح طالب أو فشله قبل أن يلتحق بالجامعة • أما اذا كان معامل الارتباط جزئيا منخفضا لم يكن التنبؤ جائزا • فقد وجد أن معامل الارتباط بين المعلومات الأخلاقية والسلوك الخلقى للأطفال ٠٫٢٥ وهذا يعنى أننا لا نستطيع التنبـؤ بسلوك طفل من معلوماته عن الأخلاق الا بدرجة طفيفة من الدقة • ولقد كان الأمريكيون ابان الحرب العالمية الأولى يرتابون أول الأمـر فى قيمة اختبار ذكاء الجنود حتى ظهر أن الارتباط مرتفع بين نتـائج اختبارات الذكاء الموجزة ، وبين نتائج شهور من الجندية فى معسكرات التدريب وميدان القتال • عندئذ أيقنوا بفائدة اختبارات الذكاء حين اتضـح أن قيمتهـا التنبؤية أكبر من قيمة الامتحانات أو السـجلات المدرسية أو آراء المدرسين •

٩ ـ نظـرية سبيرمان فى الذكاء

أراد سبيرمان مؤسس مدرسة تحليل العوامل أن يتحقق عن طريق التجربة والاختبار من صحة الفرض الذى يقوله عامة الناس وهو أن الذكاء قدرة عامة يبدو أثرها فى نواح شتى • فالنـاس يرون أن الذكى فى الناحية السياسية لابد أن يكون ذكيا فى ميدان التجارة أو الاقتصاد أو الخدمة الاجتماعية أو فى مجال البحث العلمى أو فى معالجة مشاكل أطفاله • فان لم يكن الأمر كذلك فلا معنى للقول بوجود ذكاء عام ، بل يجب الكلام عن قدرات خاصة تفيد كل واحدة منها فى نوع خاص من المواقف • لذلك أجرى سبيرمان عددا كبيرا من الاختبارات العقلية والاختبارات الدراسـية ، أى التى تقيس التحصـيل الدراسى ، على مجموعات كبيرة من الأفراد ثم قدر معاملات الارتباط بين كل واحد منها وسائرها • فان كان التفوق فى قدرة يرتبط بالتفوق فى القدرات الأخرى كان دليلا على وجود « ذكاء عام » • وان كان التفوق فى قدرة مسـتقلا عن التفوق فى القدرات الأخرى لم يكن هناك ذكاء عـام • فلاحظ أن جميع المعاملات موجبة جزئية • أما كونها موجبة فيشير الى أن هناك عاملا مشتركا يؤثر فيها جميعا ، وأما كونها جزئية فيشير الى أن هناك عوامل أخرى ، غير هذا العامل المشترك تؤثر فيها • ومن ثم خلص الى النتائج الآتية :

١ — أن كل اختبار ، وبالتـالى كل انتـاج عقلى ، يؤثر فى أدائه عاملان : عامل عام مشترك يؤثر فى نتيجة هذا الاختبار أو الانتاج وفى نتيجة كل اختبار أو انتاج آخر يؤديه الفرد ، وعامل نوعى يقتصر أثره على هذا الاختبار أو الانتاج وحـده دون غيره • فقدرة الفـرد على الانشاء التحريرى ، أو التصميم الهندسى ، أو التفكير السياسى ، أو التعامل التجارى ، أو الاستدلال المنطقى ، كذلك قدرته على الخطابة أو السباحة أو حفظ الشعر أو العزف على آلة موسيقية تتوقف كـل واحدة منها على فعل عامل عام — هو القاسم المشترك الأعظم بينها — وعلى عوامـل نوعية خاصة بكل قـدرة منها • وقد أطلق سـبيرمان الحرف G على العامل العام والحرف S على العوامل النوعيـة فى مجموعها • وسـنطلق عليهما الحـرفين « ع » و « ن » فكأن « ع » يقابل الاستعداد العقلى العام للفرد ، وكأن « ن » يقابل الاستعداد العقلى الخاص لأداء عمل خاص : كالاستعداد الموسيقى أو الميكانيكى أو الرياضى •

٢ — كذلك وجد سبيرمان عن طريق الاختبار والاحصاء دائما أن الاختبارات التى تقيس العمليات العقلية العليا كالاسـتدلال والابتكار يتطلب النجاح فيها قدرا كبيرا من « ع » ، أى يتوقف النجاح فيهـا على العامل العام أكثر من توقفه على العوامل النوعية • ومن ثم قـال ان هذه العمليات العليا مشبعة بالعامل العام ، فى حين أن الاختبارات التى تقيس عمليات حسية حركية أو التى تقيس التذكر يتوقف النجاح فيها على العوامل النوعية أكثر من توقفه على العامل العام • وعلى هذا فقد يكون الاستعداد العقلى العام للفرد قويا ومع ذلك يعجز عن اجادة الرسم أو العزف أو الغناء أو الرقص ان كانت اسـتعداداته الخاصة فى هذه النواحى ضعيفة • وقد يكون استعداده العقلى العام غير قـوى ومع ذلك يتفوق فى هذه النـواحى ان كانت استعداداته الخاصة النوعية لها قوية •

ونضع ما تقدم فى صيغة أخرى فنقول ان العامل العـام يؤثر فى جميع القدرات والعمليات العقلية من الادراك الحسى الى التصـور والتخيل والتذكر الى الاستدلال والابداع •• لكنه يؤثر فيها بنسب متفاوتة • وهو أمس وألزم لبعضها منه للبعض الآخـر • فهو أمس

وألزم للتفكير فى مستواه الراقى ، أى لتلك العمليات التى تتطلب ادراك علاقات جديدة ، أو خلق علاقات جديدة . وفى هذا يقول سبيرمان « تكون العملية مشبعة بالعامل العام على قدر ما تتطلب من استنباط العلاقات وأطراف العلاقات أى المتعلقات »[1] .

٣ ـ وقد وجد سبيرمان وأتباعه أن أحسن الاختبارات التى تقيس الذكاء كما يفهمه عامة الناس هو أكثر الاختبارات تشبعا بالعامل العام ، فاتجهوا الى تسمية هذا العامل العام « ع » بالذكاء أو الذكاء العام .

خلاصة هذه النظرية :

١ ـ أن الذكاء ليس عملية عقلية معينة كالاستدلال والتذكر أو التعلم، بل عامل عام أو قدرة عامة تؤثر فى جميع العمليات العقلية بنسب متفاوتة وتشترك معه عوامل نوعية تختلف باختلاف العملية . وبعبارة أخرى فالذكاء جوهر النشاط العقلى كله . فهو يظهر فى جميع تصرفات الفرد وأوجه نشاطه المختلفة ، مع وجود استعدادات نوعية الى جانبه .

٢ ـ أن الفروق بين الناس فى الذكاء تبدو فى اختلاف قدرتهم على استنباط العلاقات والمتعلقات . فكلما استطاع الفرد استنباط علاقات أكثر تعقيدا وتجريدا كان مستوى ذكائه رفيعا . أى أن الذكاء فى جوهره ادراك للعلاقات الصعبة أو الدقيقة .

٣ ـ أن خير الاختبارات لقياس الذكاء ما كان مشبعا بالعامل العام أى ما تضمن استنباط العلاقات وأطرافها : العلاقات والمتعلقات الجديدة غير المألوفة . وهذا يبدو واضحا فى أسئلة مقاييس الذكاء التى عرضناها من قبل .

١٠ ـ نظرية ثرستون

يرى ثرستون ممثل مدرسة تحليل العوامل بأمريكا أن ما يسميه سبيرمان بالذكاء أو العامل العام يمكن تحليله الى عدد من القدرات أو العوامل الأولية . فقد طبق عددا ضخما من الاختبارات اللفظية

---

(1) المتعلقات Correlates : اذا كانت العلاقة بين البياض والسواد علاقة تضاد ، فالبياض والسواد طرفا هذه العلاقة .

والعملية المنوعة التى يقتضى أداؤها ما نسميه بالذكاء على عدد ضخم من طلبة المدارس الثانوية والكليات ، وقدر معاملات الارتباط بين كل اختبار وسائر الاختبارات فاتضح له ما يأتى :

١ — أن اختبارات الذكاء لا تقيس قدرة عامة واحدة بل سبعة من القدرات العقلية أو العوامل الأولية وهى .

(أ) القدرة على فهم معانى الألفاظ .

(ب) الطلاقة اللفظية ويقصد بها سهولة استرجاع الألفاظ أو تأليف كلمات من حروف معينة ، وهى غير القدرة على فهم معانى الألفاظ لأن الفرد قد يعرف ألفاظا قليلة لكنه يستطيع استخدامها بطلاقة .

(ج) القدرة العددية وهى القدرة على اجراء العمليات الحسابية الأربع ، وهى الجمع والطرح والضرب والقسمة فى سرعة ودقة.وهى غير القدرة على الاستدلال الحسابى .

(د) القدرة على التصور البصرى المكانى : وهى القدرة على تصور العلاقات المكانية والأشكال والحكم عليها بدقة ، أو على تصور حركات الأشياء وأوضاعها المختلفة أثناء هذه الحركة .

(هـ) سرعة الادراك وتبدو فى سرعة تعرف الشخص أوجه الشبه والاختلاف بين عدة أشياء .

(و) القدرة على التذكر الأصم أى الاسترجاع أو التعرف المباشر لكلمات أو رسوم أو أرقام .

(ز) القدرة على الاستدلال مثل : تتشابه ثلاث من مجموعات الحروف الآتية بصورة ما ، فما هى : أبحى—سطاأ—أهأدس—سأعأ .

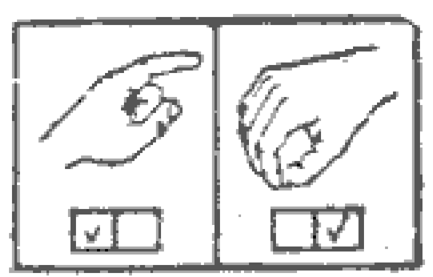
٢ — أن هذه القدرات الأولية مستقل بعضها عن بعض استقلالا نسبيا لا مطلقا بمعنى أن الشخص الذى يتفوق فى اختبارات قدرة منها كالقدرة العددية ينزع الى أن يتفوق فى اختبارات القدرات الأخرى ، غير أن هذه النزعة أضعف بكثير من نزعته الى التفوق فى الاختبارات التى تقيس قدرة واحدة . فالارتباط بين القدرة العددية والقدرة اللفظية أضعف من الارتباط بين القدرة على الجمع والقدرة على الطرح والقدرة على الضرب أو على القسمة .

٣ ـ أن هذه القدرات يتضافر بعضهـا مع بعض فى الانتاج العقلى خاصة المعقد •• فيندر أن يقوم الشخص بانتاج معقد لا تؤثر فيه هذه القدرات جميعا بنسب متفاوتة • من ذلك أن قدرة الشخص على حـل تمرين هندسى أو فهم مقال عن الطاقة الذرية أو نظم قصيدة من الشعر أو تعلم سياقه سيارة •• تتوقف على تضافر القدرات الأولية ، غير أن القدرة العددية والقدرة على التصور البصرى والقدرة على الاستدلال ألزم لفهم الهندسة منها لقرض الشعر مثلا •

على هذا النحو يرى ثرستون أن الذكاء العام مركب يتألف من بضع قدرات أولية بنسب معينة كما أن الضوء الأبيض يتألف من أضواء أولية بنسب معينة • لذا فهو يرى الاستعاضة عن اختبارات الذكاء التقليدية باختبارات للقدرات الاولية •

١١ ـ أمثلة لاختبارات لهذه القـدرات

القدرة على التصور البصرى المكانى : الشكل ٢٥ يبين اختبارا لقياس هذه القدرة •

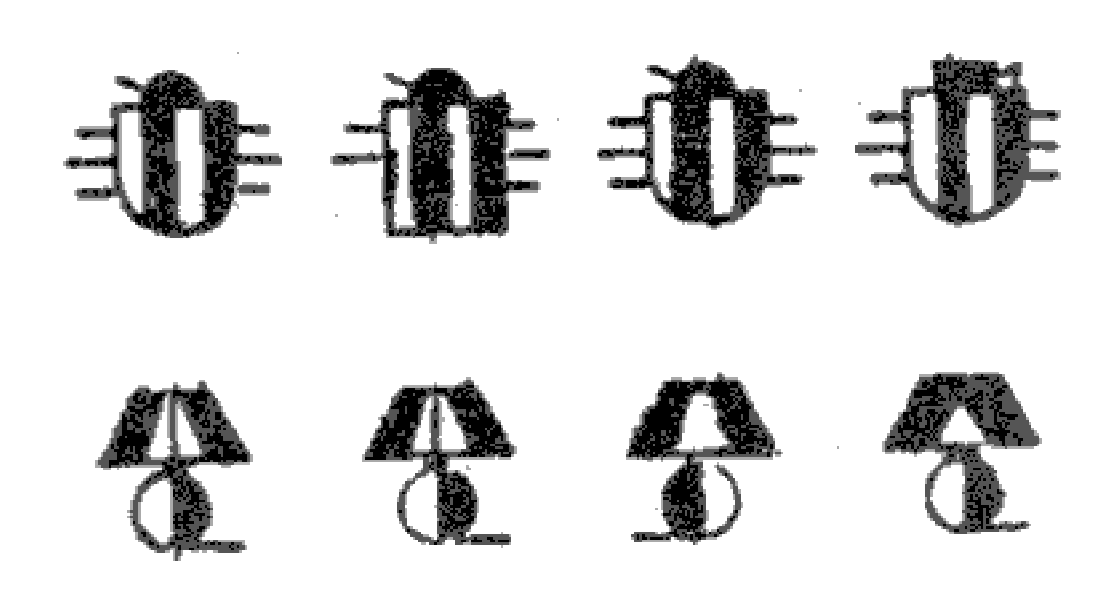


(شكل ٢٥)

ضع علامة فى المربع الأيمن ان كانت اليد هى اليمنى وعلامة فى المربع الأيسر ان كانت اليد هى اليسرى . وذلك على نحو ماتراه فى المربعين المرسومين فوق الشكل .

سرعة الادراك :

الشكل ٢٦ يبين اختبارا لقياس هذه القدرة •

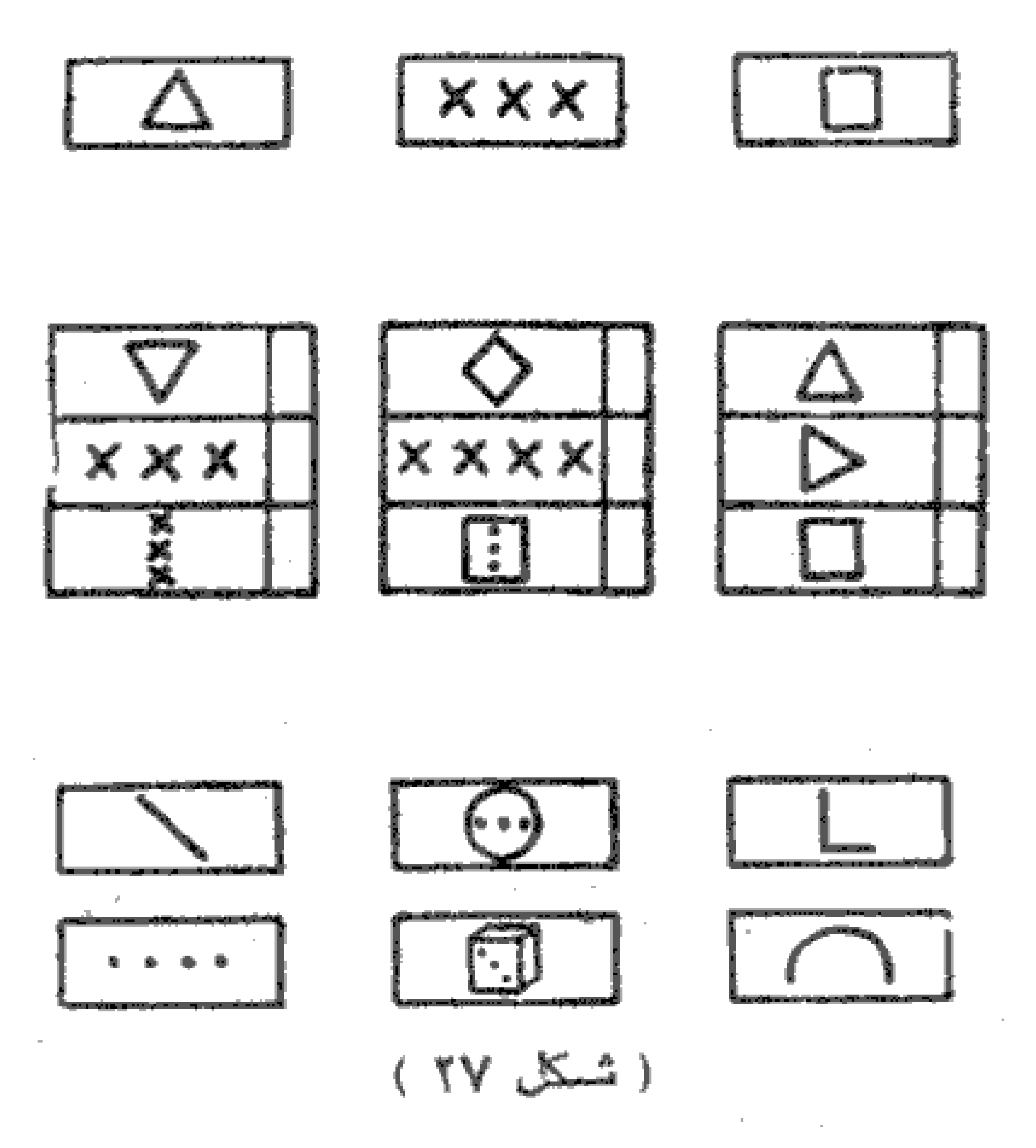


(شكل ٢٦)

ضع علامة على الشكلين اللذين يتشابهان تمام التشابه

القدرة على التذكر الأصم :

الشكل ٢٧ يبين اختبارا لقياس هذه القدرة •



(شكل ٢٧)

تأمل الصف الأعلى من الشكل لمدة كسر من الثانية تأملا يتيح لك ان تتعرف ما به من رسوم ان رايتها مرة أخرى . ثم انظر الى الصف الأوسط وضع علامة علىيمين الرسم الذى رأيته . ثم تأمل الصف الأسفل تأملا يتيح لك أن تتعرف ما به منرسوم ان رأيتها مرة أخرى ، ثم ضع علامة على ما تتعرفه منها فى مجموعةمن ٦٠ رسما آخر ستعرض عليك .

١٢ ــ التوفيق بين سبيرمان وثرستون

لقد وجد ثرستون كما قدمنا أن القدرات الأولية مستقل بعضها عن بعض استقلالا نسبيا لا مطلقا • كما اتضح بالفعل أن هناك ارتباطا بين ما يعرف بالذكاء وبين كل قدرة من هذه القدرات ، لكنه ارتباطتختلف قيمته من قدرة الى أخرى على نحو يستوقف النظر : فالارتباط بين الذكاء وبين القدرة على الاستدلال ارتباط مرتفع ملحوظ (٨٤ر٠) ، وهو أقل ارتفاعا ووضوحا بين الذكاء والقدرة اللفظية (٦٧ر٠).وبينه وبين القدرة العددية (٦٠ر٠) فى حين أن معامل الارتباط بينه وبين القدرة على التذكر يبلغ (٤٧ر٠) وبينه وبين القدرة على التصور المكانى (٢٤ر٠) ، الا يسمح لنا هذا بأن نقول ان الذكاء قدرة عامة تؤثر فىجميع العمليات العقلية لكن بدرجات متفاوتة ، فهو أهم والزم لبعضها من البعض الآخر • الواقع ان « ترستون » اضطر آخر الامر، وعن طريقه منهجه الخاص فى تحليل العوامل الى الاعتراف بوجود عامل عام مشترك يؤثر فى كل انتاج عقلى • وعلى هذا أصبح العامل العام ــ من حيث هو قدرة عقلية عامة ــ حقيقة لا يرقى اليها الشك عند أغلب أتباع مدرسة تحليل العوامل •

ونتساءل أخيرا : أهناك اختلاف بين مفهوم الذكاء كما وصل اليه العامليون وبين الذكاء كما حكمنا عليه من مقاييسه ؟ لقد اتضح أن جميع مقاييس الذكاء المعروفة بالرغم من أنها صيغت على أساس عملى محض ، أو على أسس تختلف كل الاختلاف عن مفهوم العامليين ، الا أن ما تقيسه ، أو ما تحاول أن تقيسه ، هو هذه القدرة العامة أو العامل العام« ع » •

لقد كان سبيرمان يرى أن العامل العام هو مقدار الطاقة العقلية لدى الفرد والتى تتوقف على طاقة الجهاز العصبى ومرونته ، وهو مقدار لا تؤثر فيه ظروف البيئة ، أى أنه فطرى • كما أنه ثابت لدى الفرد الواحد وان كان يختلف من فرد الى آخر • وهنا تجب الاشارة الى ضرورة التمييز بين الذكاء من حيث هو قدرة عقلية فطرية وبين الذكاء الذى تقيسه مقاييس الذكاء والذى يتوقف مقداره على مقومات أخرى غير عقلية ، منها اهتمام المفحوص بالموضوع ، واستعداده لبذل المجهود الكافى للاجابة عليه ، ومثابرته على ذلك ان كان المقياس طويلا،

وسرعته فى قراءة . الاسئلة وسرعته فى كتابة الاجابة عليهـا ... الى غير تلك من العوامل المزاجية والاجتماعية .

١٣ ـ تقنين الاختبارات

ليس صوغ الاختبارات النفسية ، أيا كان نوعهـا وهدفها بالأمر الهين . وليست كل مجموعة من الاسـئلة تؤلف اختبارا نفسـيا . ان كثيرا من الصحف والمجلات الشعبية تقدم للقراء سلاسل من أسـئلة ليجيبوا عنها وليختبر كل قـارىء نفسـه فى الذكاء أو الاسـتعداد أو الشخصية بدرجة « جيد » أو « ممتاز » أو « دون المتوسط » . غير أن هذه ليست اختبارات علمية ، بل شرذمة من الاسئلة تستغل تلهف الناس وحبهم لاستطلاع الجوانب المجهولة أو غير المفهومة من نفوسهم وسلوكهم . .أما الاختبار العلمى فله شروط يجب مراعاتها كى يكون صالحا للقياس . من هذه الشروط يتكون ما يسمى بتقنين الاختبـار .

والتقنين هو التوحيد . فالاختبار المقنن هو الذى توحدت اسئلته وتعليماته ، وطريقة اجرائه ، ومكان اجرائه ، والزمن اللازم لاجرائه، وطريقة تصحيحه .. بل تشمل عملية تقنين الاختبار فوق ذلك التأكد من أنه اختبار ثابت وصادق ، وتحديد معايير له لمعرفـة دلالة الدرجة التى يحصل عليها المفحوص فيه .. وتتلخص عملية التقنين فى الخطوات التـالية :

١ ـ **تجربة ارتيادية** تستهدف التأكد من صلاحية الاسئلة والأدوات التى تؤلف مادة الاختبار وذلك باجرائها على عدد كاف من الافراد فى سن معينة أو من جنس معين أو ثقافة معينـة وذلك لحذف الغـامض والمبهم منها أو ما تزيد صعوبته أو تنقص الى حد كبير عن مسـتوى العمر الذى سيطبق فيه الاختبار ، ولامكان تقدير درجة صـعوبة كل سؤال حتى يكون الاختبار متدرجا فى الصعوبة .. ومما تستهدفه هذه التجربة أيضا تحديد أنسب زمن لاجراء الاختبار وأفضـل طـريقة لاجرائه ، وافضل طريقة لتصحيحه بحيث لا يثير خلافا بين المختبرين والمصححين . وقد يكون من الضرورى أحيانا تحديد موعد الاختبـار ومكانه .. والغرض من هذا التحديد تثبيت جميع العوامل والظروف

التى يمكن أن تؤثر فى نتيجة الاختبار بحيث يمكن القطع بان اختلاف الافراد فى الاختبار يرجع الى اختلاف قدراتهم أو سماتهم ولا يرجع الى عوامل أخرى .

٢ ـ **تحديد المعايير** : بعد تأليف الاختبار يجب اعادة تجربته لمعرفة مدى صلاحيته فى مجموعه ، ولتحديد المعايير norms التى ننسب اليها نتيجة كل مفحوص لنعرف ما اذا كان متوسطا أو دون المتوسط أو ممتازا ، وبكم يفترق عن المتوسط . فالمعيار مستوى قياسى نرجع اليه لمعرفة دلالة الدرجة التى يحصل عليها الفرد فى الإختبار ، سواء كانت تشير هذه الدرجة الى الزمن الذى استغرقه الفرد فى الاجابة عن أسئلة الاختبار ، أو الى عدد الاجوبة الصحيحة .. فاذا فرضنا أننا نريد قياس سرعة فرد معين فى اجراء العمليات الحسابية الاربع فكلفناه أن يقوم باجراء عدد من هذه العمليات لمدة خمس دقائق وبأسرع ما يمكن ، فجاءت النتيجة أنه يجرى ٤٠ عملية فى الوقت المحدد. فماذا تعنى هذه الدرجة « الخام » ، أهو سريع أم بطىء أم متوسط؟ لكى نستطيع أن نفهم دلالة هذه الدرجة لدينا عدة طرق منها أن نكلف ١٠٠ شخص من نفس سنه وجنسه أن يقوموا بنفس الاختبار،ثم نقدر عدد العمليات التى يجريها كل شخص ، ثم نرتب النتائج تصاعديا أو تنازليا . ولنفرض أن النهاية الصغرى لعدد العمليات التى أجريت فى خمس دقائق هى ٢٠ عملية ، وأن النهاية العظمى هى ٨٠ عملية وأن القيمة المتوسطة هى ٥٠ عملية . هنا نستطيع أن نقول ان هذا الشخص دون المتوسط فى سرعة اجراء العمليات الحسابية . بل نستطيع أن نقدر بكم يزيد المفحوص أو ينقص عن المتوسط اذا نحن درجنا نتائج التجربة درجات متسلسلة فيصبح لدينا مقياس كالترمومتر يتسنى لنا بواسطته أن نقيس سرعة المفحوص بدرجة كبيرة من الضبط ، اذ ماعلينا الا أن نرجع الى مقياسنا ونبحث عن الدرجة المئوية التى تقابل ٤٠ عملية ... وهناك أنواع أخرى من المعايير يمكن الرجوع اليها فى كتب القياس العقلى .

٣ ـ **ثبات الاختبار** reliability : الاختبار الثابت هو الذى يعطى نتائج متقاربة أو متشابهة متى أعيد اجراؤه أو اجراء اختبار مكافىء له على نفس الفرد أو الافراد . فالاختبار الذى يعطى فردا معينا درجة

عالية فى المرة الاولى لتطبيقه ، ودرجة منخفضة مرة أخرى ، اختبار لايمكن استخدامه للتنبؤ بالاداء الفعلى ، ومن ثم فهو اختبار غيرثابت لا يعتمد عليه • وبعبارة أخرى فثبات الاختبار يعنى مدة الثقة التى نضعها فى نتيجته •

ان ما نرجوه من الاختبارات هو أن تكون مقاييس ثابتة ، كالمسطرة والترمومتر ، للقدرات أو السمات التى نقيسها • فـان كانت طبيعـة الاختبار أو مادته أو طـريقة اجرائه أو غموض تعليماته أو طـريقة تصحيحه مما يؤدى الى تغير كبير فى نتائجه فى المرات المتكررة لاجرائه، كان مقياسا لا يمكن الوثوق به •

٤ ــ **صدق الاختبار** validity : الاختبار الصادق هـو الذى يقيس بالفعل القدرة أو السمة التى يراد قياسها لاقدرة أو سمة أخرى• فان كان المفروض أنه يقيس الذكاء وجب أن يقيس الذكاء .لا قـدرة أخرى كالتذكر أو طلاقـه اللسان أو وفـرة المعلومـات • وان كان المفروض أنه يقيس درجة القلق عند الفرد وجب أن يقيس درجة القلق لا درجة العدوان •

والاختبار الصادق هو الذى يستطيع أن يميز بين الصالحين وغير الصالحين لدراسة معينة أو عمل معين ، هو الذى يستطيع أن يتنبـأ بالنجاح أو الفشل • فان عجز عن ذلك فهو اختبار غير صادق •

ولتقدير ثبات الاختبارات وصدقها طرق كثيرة فليرجع اليها المستزيد فى كتب القياس العقلى والاحصاء •

الفصل الثاني

نتائج قياس الذكاء

أسفر تطبيق مقاييس الذكاء عن نتائج ذات قيمة نظرية وعملية مختلفة . فقد بين لنا أن الفوارق بين الناس فى الذكاء ترجع فى المقام الاول والى حد كبير الى الوراثة بحيث نستطيع أن نقول انه قدرة فطرية ، كما بين لنا أنه لا يوجد فارق يستحق الذكر بين الذكور والاناث فى الذكاء، وأن الفروق الفردية فى الذكاء فى السلالة الواحدة أو الشعب الواحد أهم بكثير من الفروق بين سلالات والشعوب بعضها وبعض.. كما بينت لنا المقاييس أن العمر العقلى للفرد ينمو حتى يبلغ حدا يقف عنده ، وهو حد يتوقف على نسبة ذكائه . أما نسبة الذكاء فصفة ثابتة للفرد لا تتغير الا فى حدود طفيفة ...

ومن هذه النتائج أيضا أن الذكاء عامل رئيسى من عوامل النجاح فى الدراسة ، وأن مقاييسه تستطيع أن تتنبأ بالنجاح الدراسى والاكاديمى بدرجة كبيرة من الصدق ، هذا الى أنه عامل ضرورى للنجاح فى بعض المهن التى تتطلب التخطيط والتصميم والابتكار وسعة الحيلة . كما فندت مقاييس الذكاء الرأى الشائع بأن ضعف العقل أهم عامل فى ارتكاب الجريمة ، وبينت أن الجريمة قدر مشاع بين الناس فى جميع المستويات العقلية .

١ ــ نمو الذكاء (النمو العقلى)

لو كان لدينا طفلان أحدهما عمره الزمنى ٥ والثانى ١٢ سنة ، والعمر العقلى لكل منهما ٨ سنوات ، فهذا يعنى أن مستوى الذكاء الفعلى لكل منهما واحد ، لكن أصغرهما سنا أذكى من الآخر لأن نسبة ذكائه أعلى. فالعمر العقلى اذن يعبر عن **مستوى** الذكاء الفعلى للفرد ، فى حين أن نسبة الذكاء تعبر عن **طبقة** ذكاء الفرد من حيث ارتفاعها أو انخفاضها.

وقد أجرى العلماء عديدا من مقاييس الذكاء على نطاق واسع وفى أعمار مختلفة وخرجوا من ذلك بأن العمر العقلى أو مستوى الذكاء ينمو ويزداد بسرعة فى بضع السنوات الاولى من حياة الفرد ، ثم يبطىء نموه بالتدريج الى سن ١٣ . ثم يزداد هذا البطء وضوحا حتى سن ١٦ أو ١٨ ، أما بعد هذه السن فلا تسجل المقاييس زيادة ذات بال فى نموه • ثم يأخذ مستوى الذكاء فى الانحدار ببطء شديد ابتداء من سن ٣٠ تقريبا ، وبعد الخمسين تزداد سرعة هذا الانحدار نسبيا ، لكنه انحدار تدريجى غير ملحوظ لا يمكن الكشف عنه الا بالقياس الدقيق • فان أصاب نسيج المخ عطب أو تلف نتيجة لاصابة أو تورم أو تلوث ميكروبى أو تصلب فى الشرايين كان الانحدار سريعا ظاهرا ملحوظا •• ومما يجدر ذكره أن الحد الاعلى لنمو الذكاء يتوقف على نسبة ذكاء الفرد،فان كان غبيا وقف نموه العقلى عند سن ١٤ أو ما دون ذلك ، وان كان ذكيا أو موهوبا استمر نموه العقلى حتى سن ٢٠ أو ٢٥ فيما دلت عليه بعض المقاييس الحديثة للراشدين •

غير أن وقوف نمو ذكاء الفرد فى هذه السن المبكرة لا يعنى وقوف تقدمه العقلى وانتاجه العقلى • فالتعلم لا يقف حين يقف نمو الذكاء• وهنا يبز الكهل المراهق فى اتساع خبراته ومعرفته وألفته بالحياة ومشاكلها وما كسبه من عادات جيدة فى تفكيره وسهولة فى أداء أعماله مما يجعله أقدر بالفعل وأمهر فى التعامل مع بيئته • صحيح أن سلوك الفرد حيال المشكلات الجديدة وهو فى سن الاربعين قد لا يكون أذكى من سلوكه ازاءها وهو فى سن العشرين ، لكن ما كان يراه مشكلات وهو فى سن العشرين لا يعود يراه كذلك وهو فى الاربعين نظرا لاتساع خبراته ومعرفته • مثل الكهل والمراهق فى ذلك كمثل رجلين متساويين فى القوة العضلية يعملان على انتزاع أحجار من الارض ، لكن أحدهما وهو الكهل يستخدم رافعة لا يستخدمها الثانى ، فمن الطبيعى أن يكون أقدر على رفع أحجار أكثر واثقل وبجهد أقل • وكلما زاد طول الرافعة زادت قدرته • صفوة القول أن الذكاء باعتباره مستوى عقليا ينمو الى أن يبلغ حدا يقف عنده ، شأنه فى ذلك شأن النمو الجسمى•• أما الذى ينمو بعد ذلك فليس مستوى الذكاء بل المادة التى يستخدمها الذكاء ويستغلها وهى المعلومات والمهارات العقلية وغيرها من الخبرات المكتسبة •

لقد كان الكشف عن وقوف نمو الذكاء فى هــذه السن المبكرة مثارا لكثير من الدهشة والاحتجاج ، ومن الغريب أننا لا ندهش ونثور حين يقال لنا ان أجسامنا يتم نموها فى حوالى العشرين ، لكننا نعجب ونحتج حين يقال لنا ان ذكاءنا يتم نموه فى حوالى السابعة عشرة ، غير أننـــا يجب أن نذكر أن عقولنا لا تبدأ فى النمو الا بعد يتم نمو ذكائنـــا • فالحكمة والثقافة والتذوق لا تبدأ فى التفتح والظهور الا بعد السادسة عشرة عادة • ذلك أن تحصيلنا الفكرى فى الطفولة كان يقوم على ذكاء فج غير مكتمل •

ونشير أخيرا الى ما اتضح من عدم وجود تواز بين زيادة وزن المخ ونمو الذكاء فالمخ يصل وزنه الى نهايته العظمى فى سن ١٥ ، لكنه يصل الى أكثر من ٩٠٪ من وزنه فى منتصف الخامسة •

٢ ــ ثبــات نسبة الذكاء

من المقرر الثابت أن ذوى الذكاء الرفيع من الاطفال يظلــون طول حياتهم يتسمون بهذا الذكاء الممتاز ، وأن ضعاف العقــول وشــديدى الغباء يظلون كذلك أيضا لكن ما بال الاطفال الذين يتعــون بين هذين الطرفين ؟ لقد قدرت نسبة الذكاء لعــدد ضخم من هؤلاء خلال فترات مختلفة الطول فوجد أن نسبة ذكاء الفرد الواحد تظل ثابتة أو تتغير تغيرا طفيفا جدا[١] اذا قيس ذكاؤه مرتين بينهما عام أو أكثر منه بقليل• فنسبة الذكاء فى السادسة تكون بعينها فى السابعة من العمر•غير أنه ان طالت الفترة بين القياسين ، تغيرت نسبة الذكاء فى المتوسط،بزيادة أو نقص بين ٥ و ١٠ درجات ، مع استثناء حالات قليلة جــدا كان التغير فيها بين٢٠و ٢٥ درجة • وقد يرجع هذا التغير الى استخدام مقاييس مختلفة فى الأعمار المختلفة ، أو لاختلاف من يقومون باجراء القياس فى الاعمار المختلفة أو يرجع التحسن فى نسبة الذكاء الى ألفة الطفل

---

(١) مما يدعــو الى اللبس أننا نستخدم كلمة الذكاء بمعنيين ، فأحيانا نعنى به مستوى الذكاء او العمر العقلى الذى ينمو ويزداد ، وأحيانا نعنى به نسبة الذكاء وهى صفة ثابتة للفرد الى حد كبير تميزه عن غيره من الناس، لذا يرى بعض العلماء الاستعاضة عن اصطلاح « نمو الذكاء » بالنمو العقلى•

بمقياس الذكاء • هذه هي العوامل التي تؤثر في نسب الذكاء حين يختبر الأطفال أنفسهم مرات متتالية من بدء الطفولة المبكرة الى سن المراهقة• وقد اتضح أن التغيرات الطفيفة في نسبة الذكاء قد ترجع الى تغيرات مؤقتة في الحالة الجسمية أو النفسية للطفل ، أو الى عوامل انفعالية أو لاختلاف الدافع والاهتمام لديه ، أما التغيرات طويلة الأمد فقد ترجع الى تأثير عوامل انفعالية أو بيئية لمدة طويلة من الزمن • من هذا نرى أن لنسبة الذكاء المقيسة في الطفولة قيمة تنبؤية كبرى • فاذا كانت نسبة الذكاء لطفل في السادسة من العمر ١٣٣ مثلا ، استطعنا أن نتنبأ على وجه الترجيح لا على وجه اليقين ، أنها ستظل كذلك حين يبلغ من العمر ١٣ سنة زمنية ، وأنه بعد ذلك سيكون ممتازا في دراسته الجامعية • ولدينا اليوم مقاييس للذكاء يعتمد عليها في التنبؤ لدى الراشدين وكبار الأطفال ، أما قبل السادسة من العمر أي قبل دخول المدرسة فليست لدينا الى اليوم مقاييس يوثق بها في هذا التنبؤ •

على أن ثبات نسبة الذكاء دعا البعض الى الاعتقاد بأن الذكاء تحدده الوراثة تحديدا كليا وأنه لا يتأثر على الاطلاق بالتربية ومؤثرات البيئة • لكن المشاهد هو أن نسبة الذكاء تبقى ثابتة ما بقيت البيئة ثابتة ، فان حدث تغير ملحوظ أو بارز في البيئة تغيرت نسبة الذكاء بمقدار • وفي هذا ما يدل على أن للبيئة بعض الأثر في تعيين الذكاء • من ذلك أن الأطفال الذين يبرأون من عمى أو صمم جزئي تتحسن نسب ذكائهم بصورة دائمة وملحوظة بعد أن خرجوا من انعزالهم السيكولوجي عن كثير من المؤثرات الثقافية وأصبحت بيئتهم أكثر اثارة وتنشيطا [1] كما لوحظ أيضا أن التعليم المدرسي الممتاز قد يرفع نسبة الذكاء بدرجة محسوسة أحيانا لكنها محدودة • لكن هذا لا يعني أن التربية تستطيع أن تصنع من الاقزام عمالقة أو من الاغدام فلاسفة وكل ما تستطيعه هو أن تستغل ما لدى الفرد من عطاء موهوب •

موجز القول أن نسبة ذكاء الفرد تظل ثابتة طول حياته ، بوجه عام، مع تغير يتراوح بين ٥ و ١٠ درجات زيادة أو نقصا •

---

(١) وجد أن متوسط نسب ذكاء العمى حوالى ٩٠ والصم حوالى ٨٠ على فرض اختبارهم بمقاييس مناسبة.

٣ ـ الأثر النسبى للوراثة والبيئة فى الذكاء

يؤكد فريق من العلماء أثر البيئة والتربية فيما بين الناس من فوارق فى الذكاء الى حد يكاد يجعلهم ينكرون أثر العوامل الوراثية ، فى حين يؤكد فريق آخر أثر الوراثة بما لا يكاد يقيم للعوامل البيئية وزنا •[1] والسبيل الى البت فى هذا الامر هو أن نلجأ الى التجريب لفصل أثر الوراثة عن أثر البيئة ودراسة كل منهما على حدة • فلتقدير أثر البيئة لجأ الباحثون الى دراسة أفراد من وراثة واحدة ، أى الى توائم صنوية ، نشئوا فى بيئات مختلفة ، ولتقدير أثر الوراثة درسوا أفرادا من وراثات مختلفة نشئوا فى بيئات واحدة أو متشابهة على قدر الامكان •

طريقة التوائم :

طبقت اختبارات للذكاء على توائم صنوية ربيت معا فى بيئة واحدة وعلى توائم لاصنوية وعلى اخوة عاديين أى غير توائم ، فوجد أن الأولى اكثر تقاربا فى الذكاء من كل من الثانية والثالثة (تحسب درجة التقارب من تقدير معاملات الارتباط) ، من ذلك أن معامل الارتباط بين ذكاء التوائم الصنوية بعضها وبعض هو ٩٥ر٠ تقريبا ، فى حين أنه بين التوائم اللاصنوية بعضها وبعض ٦٥ر٠ تقريبا • وأن معامل الارتباط بين الاخوة العاديين يترواح بين ٥٠ر٠ و ٦٠ر٠ من هذا نرى أن ذكاء توأم صنوى وأخيه يكاد يكون كذكاء طفل واحد نقيس ذكاءه اليوم وبعد أسبوع • أليس هذا دليلا على أن للوراثة أثرا بالغا فى تعيين الذكاء ؟

لكن أنصار البيئة من العلماء يتخذون من هذه النتائج والارقام حجة تؤيد نظريتهم فيقولون ان التوائم اللاصنوية لا يزيد تشابههم الوراثى فى الذكاء على أخوة غير توائم • فاذا ظهر أنهم أقرب فى الذكاء من اخوة غير توائم فلابد أن ذلك يرجع الى البيئة • ذلك من التوائم ،

---

(١) يلاحظ أن لهذا الخلاف آثارا اجتماعية خطيرة ، اذ لو كان الحق فى جانب انصار البيئة كان امل الانسانية مرهونا بتحسين طرق التربية والاجراءات الصحية ونوع التغذية والظروف المواتية للعمل والترويح . وان كان الحق فى جانب انصار الوراثة فالأمل الوحيد هو تحسين النسل بمنع غير الصالحين من الانجاب .

صنوية كانت أم غير صنوية . اذا نشئوا فى بيت واحد كانت بيئتهم أقرب وأكثر تشابها من بيئة الاخوة غير التوائم ، فهم يعاملون نفس المعاملة تقريبا ، ويذهبون الى نفس المدارس ، ويقرءون نفس الكتب ،ويتحدثون الى نفس الاصدقاء ... ويبدو هذا التشابه فى البيئة على نحو أوضح وأظهر فى حالة التوائم الصنوية الذين يصعب التمييز بينهم بدرجة أكبر منها فى حالة التوائم اللاصنوية . وبعبارة أخرى فبيئة التوائم الصنوية تكاد تكون واحدة ، لذا يكاد ذكاؤهم يكون واحدا ، فى حين أن بيئة التوائم اللاصنوية مختلفة الى حد ما ، لذا كان ذكاؤهم مختلفا الى حد ما . أما بيئة الاخوة غير التوائم فأشد اختلافا لذا كان ذكاؤهم أكثر اختلافا . وبعبارة موجزة فالتقارب فى الذكاء يرجع الى البيئة لا الى الوراثة .

فاذا أردنا أن نجرى تجربة حاسمة فلابد أن نجريها على توائم صنوية نشئوا فى بيئات ثقافية مختلفة بقدر كبير أو قليل،أى على توائم صنوية افترقوا منذ الطفولة المبكرة ونشئوا فى بيئات مختلفة . وقد عثر الباحثون على حوالى عشرين زوجا من هؤلاء فى الولايات المتحدة وكندا ، فماذا كانت النتيجة ؟ لقد ظهر أن البيئة الثقافية الجيدة تؤدى الى تحسن فى الذكاء كما تقيسه مقاييس الذكاء ، لكنه تحسن محدود .. وفى هذا ما يدل على أن أثر البيئة محدود فى تعيين الذكاء ، وأن الوراثة أكبر بكثير من أثر البيئة ومما يعزز هذه النتيجة ما دلت عليه نتائج مقاييس الذكاء من أن التوائم الصنوية التى تربى وتنشأ فى بيئات ثقافية مختلفة تكون أكثر تقاربا فى الذكاء من التوائم اللاصنوية التى تربى معا ، وأن ذكاء الاطفال يقرب من ذكاء آبائهم حتى أن نشئوا فى بيوت غير بيوت آبائهم .

ذكاء أطفال الملاجىء :

من المعروف أن حياة اطفال الملاجىء تكون فى العادة متشابهة الى حد كبير : فى ظروف المعيشة والمعاملة والتعليم والزملاء والطعام وضروب الترويح .. فلو صح رأى أنصار البيئة لتساوى أو تقارب ذكاء من بالملجأ من أطفال ، خاصة أولئك الذين نشئوا فيه من سن مبكرة وأمضوا فيه وقتا طويلا . أما ان كانت الوراثة هى المسئول الاول عن الذكاء لاختلف الأطفال فى ذكائهم اختلافا ظاهرا . وقد دلت الدراسات

التجريبية على أن الفروق الفردية فى الذكاء بين أطفال الملجأ الواحد تكاد تكون كالفروق الفردية بين الاطفال خارج الملجأ •

ومن الوقائع المقررة أن الفروق فى الذكاء بين أفراد طبقة اجتماعية بعينهـا أكبر بكثير من الفروق بين متوسـطات الطبقات الاجتماعيـة المختلفة ، وهذه واقعة لا يستطيع أنصار البيئة تفسـيرها • كذلك لا يستطيعون تفسير واقعة أخرى غير نادرة بل تحدث كثيرا هى أن ينجب أبوان ذكيان طفلا أو طفلين من ضعاف العقول من بين أطفالهم الاسوياء ، ويكون ذلك حين يوجد بين الاسلاف المحدثين لكلا الابوين سلف ضعيف العقل •

من هذه التجارب والوقائع وأمثالها خرج الباحثون بأن الفـروق الفردية فى الذكاء تحددها الوراثة بقدر أكبر بكثير جدا من البيئة ، بحيث يمكن القول بأن الذكاء قدرة فطرية •

٤ ـ التخلف العقلى (ضعف العقل)

التخلف العقلى Mental deficiency انحطاط باد فى الذكاء يجعـل صاحبه عاجزا عن التعلم المدرسى وهو صغير ، وعاجزا عن تدبير شئونه الخاصة دون اشراف وهو كبير • والتخلف العقـلى طبقات متداخلة أحطها المعتوه ثم الابله ثم الاهوك •

فأما المعتوه idiot فشخص يعجز عن أن يقى نفسه من أخطار الحياة اليومية ، فهو يضع يده فى النار ويظل فى مكانه ان رأى سيارة قادمة ، كما يعجز عن الاتصال بغيره عن طريق اللغة ، فلغته لا تزيد فى العادة على بضع مقاطع ، هذا الى أنه لا يستطيع أن يتعلم كيف يغسل يديه أو يلبس ثيابه ، وأحطهم درجة يعجز عن أن يتعلم كيف يأكل بنفسه أو يضبط مثانته وأمعاءه • وتكون نسبة ذكاء المعتوه دون ٢٥ عادة •

وأما الابله imbecile فيستطيع أن يتجنب ما يعرض له فى الحياة من أخطار • كما أنه يقدر على بعض الكلام لكنه يعجز عن تعلم القراءة وعن القيام بكثير من الاعمال النافعة اللهم الا بعض الاعمال البسيطة

كتنظيف الارض والاثاث والكنس وقطع الحشائش . ونسبة ذكائه تتراوح بين ٢٥ و ٥٠ عادة .

وأما الاهوك moron فيتسنى له القيام ببعض الاعمال النمطيــة البسيطة دون اشراف موصول كترتيب الاسرة فى المنزل وشراء بعض الاشياء . وأعلى هؤلاء درجة يستطيع العناية بالحيوانات والاطفال والقيام بأعمال النجارة أو التجليد أو الكى أو الطباعة . وقد نجحت مؤسسات ضعاف العقول فى تدريب بعض الهوكى على كثير من المهن النافعة خاصة ان كانوا من ذوى المزاج المستقر غير المتقلب غير أنهم مع هذا فى حاجة الى اشراف عام من دونه يبعثرون أموالهم ويسيئون استخدام أوقات فراغهم ؛ ومن اليسير اغراء الذكور منهم بالنشــل والسرقة ، والاناث بممارسة البغاء . ونسبة ذكاء الاهوك تتراوح بين ٥٠ و ٧٠ عادة .

وضعف العقل اما أولى أو ثانوى . فالاولى ما يرجع الى أســباب وراثية ، والثانوى ما يرجع الى أسباب ولادية أى تصيب الفرد أثناء الحمل ولا تكون بالضرورة وراثيــة ، أو يرجع الى أمراض تصيب الجهاز العصبى أو الغدى من سن مبكرة .

ودراسة ضعاف العقول تبين لنا أهمية الذكاء فى التكيف التعليمى والتكيف المهنى والتكيف الاجتماعى بمختلف صوره .

٥ ــ الاطفال الموهوبون

الطفل الموهوب Gifted هو من يتمتع بذكاء رفيع يضعه فى الطبقة العليا التى تمثل أذكى ٢٪ ممن فى سنه من الاطفال ، أو هو الطفل الذى يتمتع بموهبة بارزة فى أية ناحية ، وقد قام « ترمان » Terman بدراسة ١٥٠٠ طفل من ذوى الذكاء الممتاز من الجنسين ممن تتراوح نسب ذكائهم بين ١٣٠ و ٢٠٠ ، وتتراوح أعمارهم بين ٤ و ١٣ سنة ، وأخذ يتتبعهم فى الدراسة وبعد أن أتموها وتزوجوا وانخرطوا فى الحياة العامــة .

وقد اتضح انهم كانوا أسرع وأسبق وأكثر تفوقا فى تحصيلهم الدراسى من زملائهم خاصة فى المواد التى يتطلب النجاح فيها القدرة على التفكير المجرد كاللغة والرياضيات ، كما كانوا أكثر اقبالا على القراءة وكلفا بها ، وكانت ميولهم العقلية والاجتماعية خارج المدرسة أحفل وأكثر تنوعا من ميول غيرهم • ومما يستحق الذكر أنهم احتفظوا بذكائهم مرتفعا منذ الطفولة الى مرحلة الرجولة • فقد كانوا فى الذروة من الذكاء وهم فى سن الثلاثين كما كانوا صغارا •

كما دلت اختبارات الخلق والشخصية على انهم بوجه عام يفوقون المتوسط فى قوة الارادة والمثابرة والرغبة فى التفوق ، والثقة بالنفس ، والحذر وحسن التصرف فى المواقف الاجتماعية ، والقدرة على القيادة والتزعم ، والابتعاد عن الغرور ، وحب زملائهم لهم ، والامانة ان عرضت لهم فرص للغش • وعلى الجملة فقد كانت مرتبة الطفل الموهوب ذى التاسعة فى هذه الاختبارات كمرتبة الطفل المتوسط ذى الثانية عشرة •

كما وجد ترمان أن من بين ٨٠٠ من الذكور الموهوبين ، حصل ٧٨ على شهادة الدكتوراه أو ما يعادلها ، كما حصل ٤٨ على اجازة الطب ، و ٨٥ على أجازة الحقوق ، كما امتهن ٧٤ مهنة التدريس بالمدارس الثانوية ، منهم ٥١ اشتركوا فى مركز البحوث للعلوم والهندسة • وكان أكثر من ١٠٠ مهندسين • وقد وجد أن هذه الأعداد أكبر منها لدى عامة السكان ممن يساوونهم فى الاعمار بما يتراوح بين ١٠ الى ٢٠ أو ٣٠ مرة • أما عدد الكتب الجدية التى ألفوها والمقالات التى كتبوها فلا عد لها ولا حصر • ومن ناحية أخرى كانوا فى جملتهم أصح أجساما وأطول أعمارا وأقوم خلقا ، وأقوى شخصية ، وأبرع فى التوافق الاجتماعى ، وأكثر توفيقا فى الحياة الزوجية ونجاحا فى المهنة ، وأقدر على التزعم والقيادة من متوسط عامة الناس • وقد اتضح أن الذين فشلوا من هؤلاء الموهوبين كانت تعوزهم الثقة بالنفس والقدرة على المثابرة ومقاومة ضروب الاغراء •

وهكذا أثارت هذه الدراسة كثيرا من الشك فيما كان يزعمه الناس من أن الشخص الممتاز الذكاء يكون فى العادة ضعيف الجسم أو منحل الاخلاق أو أكثر تعرضا للامراض النفسية والعقلية من غيره فى عهدى الصغر والكبر •

ومما يجدر ذكره أن أحدا من هؤلاء الموهوبين لم يرق الى مرتبة العبقرية الحقة التى تتجلى فى داروِن أو جوته أو فولتير أو بيتهوفن • ذلك أن الذكاء الرفيع شرط ضرورى لكنه غير كاف لبلوغ هذه المرتبة ، بل لقد دلت دراسات حديثة على أن الذكاء المتوسط قد يكون من حظ العبقرى متى توافرت لديه شروط أخرى منها تلك القدرات الابداعية التى سبق أن أشرنا اليها ونحن ندرس عملية الابداع (ص ٢٩٨) ، هذا فضلا عن سمات شخصية معينة منها الحساسية للمشكلات والطموح المرتفع والثقة بالنفس والشجاعة فى الجهر بالرأى والمثابرة أى المضى فى العمل رغم ما يعترضه من صعوبات وعقبات ومنها القدرة على التركيز الشديد وتحمل العمل الشاق وسخرية الناس ، فالعبقرية فى نظر سواد الناس نوع من العدوان عليهم لأنها تثير فيهم الشعور بالنقص •• وقبل هذا كله لابد للعبقرى من دافع قوى وانفعال عميق يستفزان ما لديه من قدرة على الخلق والابتكار ، يستمدهما العبقرى من تعارض وصراع بين أفكاره وأهدافه والقيم التى يؤمن بها وبين أفكار الجماعة التى يعيش فيها وأهدافها والقيم السائدة فيها •• مما يجعله فى حالة موصولة من التوتر النفسى تنشط خياله وتزوده بالطاقة اللازمة للمثابرة وبذل الجهد والتغلب على ما يعرض له من عقبات •• وهكذا لا تكون العبقرية مجرد ميل الى التعبير عن الذات ، بل ضرورة نفسية وحاجة ملحة للافصاح عن شىء لا يسبب للعبقرى سلاما داخليا •

٦ — اختلاف السلالات والجنسين فى الذكاء

هل تختلف السلالات فى الذكاء كما يختلف الافراد ؟ لقد طبقت مقاييس الذكاء على مجموعات هائلة من الاطفال فى أمريكا ، فكان البيض الامريكيون والصين واليابانيون أرقى فى متوسط ذكائهم من الزنوج والهنود الامريكيين •• غير أن أمثال هذه النتائج يأتيها العيب من أكثر من جانب • فمقاييس الذكاء التى طبقت على الزنوج والهنود كانت مقاييس مقننة على الاطفال البيض (مثل مقياس وكسلر وتنقيح ستنفرد) وهى مقاييس تحتوى دون شك على أسئلة وموضوعات وتعليمات لا تناسب الافراد فى حضارات تختلف عن الحضارة الغربية اختلافا كبيرا • فمن المبادىء المقررة لقياس الذكاء أنه لا يجوز الحكم

على ذكاء أفراد من تفكيرهم فى موضوع الا اذا كانت خبراتهم السابقة بهذا الموضوع واحدة • والمفروض أن مقياس الذكاء يجب ألا يستخدم الا معلومات ومهارات أتيحت لكل مفحوص الفرصة لتعلمها • فمقياس الذكاء الذى يصلح لقياس ذكاء الانجليز لا يتحتم أن يصلح لقياس ذكاء البرتغاليين ، والذى يصلح لقياس ذكاء أهل المدن لا يتحتم أن يصلح لقياس ذكاء أهل الريف •• وقد طبق أحد الباحثين اختبارا مادته رسم حصان على أطفال قبيلة من الهنود الحمر فكان مستواهم أعلى بكثير من مستوى البيض حين أجرى عليهم نفس الاختبار ، كما صاغ باحث آخر اختبارا لقياس ذكاء سكان استراليا الاصليين ، وكانت مادة الاختبار صورا فتوغرافية لمواقع أقدام ، فلم يقل مستوى اجاباتهم عن مستوى اجابات البيض الذين اختبروا عن طريق اختبارات لفظية •

تأتى بعد ذلك مشكلة اللغة • فالمعروف أن البيئة الثقافية والاجتماعية للزنوج لا تساعد على نمو اللغة • فليس لدى الابوين وقت للحديث مع أطفالهم ، وحتى ان كان لديهم وقت فيبعد أن يكون الاب أو الام الزنجية مثلا يحتذى لتعلم اللغة نظرا لقصورهما الثقافى • وبما أن اللغة تقوم بدور هام فى أغلب عمليات التفكير فلابد أن يتخلف الزنجى عن الابيض فى مقاييس الذكاء اللفظية • وقد أيدت التجارب هذا الرأى اذ كان تخلف الزنوج عن البيض كبيرا حين كانت الاختبارات لفظية ، أما حين طبقت على الاطفال ، فى مرحلة ما قبل المدرسة ، اختبارات عملية تساوى متوسط البيض مع متوسط السود •

ولنذكر فوق ذلك عامل « السرعة » ، فكثير من اختبارات الذكاء تتطلب السرعة فى الاداء ، وهذا عامل فى غير صالح الهنود الذين ألفوا التمهل فى أداء أعمالهم على خلاف الشعوب التى درجت على التنافس وانتاج أكثر ما يمكن فى وقت محدد •

موجز القول أن الفروق السلاليه التى كشفت عنها مقاييس الذكاء لايصح أن تتخذ أساسا لوجود فروق فطرية فى ذكاء هذه السلالات • غير أن هذه المقاييس زودتنا ببعض النتائج الاكيدة منها أن فى كل سلالة فروقا فردية بعيدة المدى فى الذكاء بحيث أن كثيرا من الزنوج يبزون الامريكى الابيض المتوسط ، وأن بعض الهنود يفوق متوسط الصين • فالفروق الفردية فى السلالة الواحدة أهم بكثير من الفروق

السلالية ، ومن ثم لا يصح الحكم على ذكاء الفرد من سلالته أو جنسيته •

أما فيما يتصل بالذكاء عند الجنسين فقد دلت المقاييس على أنه لا يوجد فارق يستحق الذكر بين متوسط الذكور والاناث فى الذكاء العام ، وان كانت الفروق الفردية بين الذكور أبعد مدى منها بين الاناث ، فعدد النابغين وذوى الذكاء الرفيع أكثر بين الذكور منه بين الاناث ، وكذلك عدد الاغبياء وضعاف العقول •• غير أن اتساع مدى الفروق الفردية بين الذكور قد لا يرجع الى عوامل وراثية بل الى عوامل اجتماعية وحضارية • فالمركز الاجتماعي للمرأة منذ القدم حال بينها وبين الاضطلاع بالاعمال التى يقوم بها الرجال والتى من شأنها أن تكشف عما لديها من ألمعية ونبوغ • ثم ان احتمال التحاق المرأة الضعيفة العقل بمؤسسات ضعاف العقل أقل منه عند الرجل • ذلك أن الرجل الضعيف العقل لا يلبث أن ينكشف عجزه فى ميدان للعمل والكفاح فيبادر المجتمع الى عزله فى هذه المؤسسات ، وهذا على خلاف المرأة المتخلفة عقليا اذ تستطيع أن تبقى بمنزلها ، أو تخدم فى البيوت أو تمتهن البغاء أو تجد من يتزوجها فتكون بمنأى عن هذه المؤسسات التى أجريت مقاييس الذكاء على نزلائها •

٧ ــ الذكاء والنجاح فى الدراسة

يتوقف النجاح فى الدراسة على عوامل شتى صحية وعقلية وانفعالية واجتماعية ، والذكاء عامل رئيسى من هذه العوامل • ولقد تأكدت فائدة اختبارات الذكاء على نحو لا يرقى اليه الشك فى التنبؤ بالنجاح الدراسى والاكاديمى بحيث يميل كثير من العلماء الى تسمية اختبارات الذكاء باختبارات « الاستعداد الدراسى » أو « القدرة الاكاديمية » • من ذلك أن الطالب لا يرجى له النجاح فى الدراسة الثانوية ان كان ذكاؤه دون المتوسط ، ولا يرجى له نجاح فى الدراسة الجامعية ان لم يكن ذكاؤه فوق المتوسط ، كما أن النجاح فى بعض الكليات يتطلب مستوى من الذكاء أعلى من النجاح فى كليات أخرى • فالدراسة بكلية الطب أو الهندسة تقتضى قدرا أكبر من الذكاء اللازم للنجاح فى كليتى التجارة والآداب •

على أنه قد اتضح أن الارتباط بين الذكاء والتحصيل الدراسى أكبر وأوثق منه فى مراحل التعليم الاولى منه فى المراحل العليا والجامعة • فمن احصاء أمريكي أن معامل الارتباط بين الذكاء والتحصيل الدراسى هو ٧٥ر٠ لدى تلاميذ المدارس الابتدائية ، وأنه يتراوح بين ٦٠ر٠ و ٦٥ر٠ بين طلاب المدارس الثانوية ، فى حين يهبط الى ٥٠ر٠ بين طلبة الجامعات • فأما كون هذه المعاملات جزئية فيشير الى أن التحصيل يتأثر بعوامل أخرى غير الذكاء ، وأما انخفاضها بتقدم المرحلة التعليمية فالمرجح أنه يرجع الى أن التحصيل فى الجامعة يتوقف الى حد كبير على الاستعدادات الخاصة وعلى الميول والاهتمامات والاتزان الانفعالى للطالب ، أو لأن بعض الأذكياء الممتازين ينصرفون عن التحصيل الى نواح أخرى • ومهما يكن الامر فالأرقام السابقة تشير الى أن التنبؤ بالنجاح الدراسى على أساس اختبارات الذكاء أصدق وأقل عرضة لخطأ فى مراحل التعليم الأولى • ومع هذا فقد أجريت اختبارات الذكاء فى الولايات المتحدة على آلاف مؤلفة من المتقدمين للجامعات فظهر أن المتفوقين فى هذه الاختبارات يتفوقون فى دراستهم الجامعية ، وأن من تكون نتائجهم فيها غير مرضية يفشلون فى دراستهم الجامعية أو يجتازونها فى عسر • وهذا يعنى أن نجاح الطالب فى الدراسة الجامعية يمكن التنبؤ به بدرجة كبيرة من الدقة على أساس نجاحه فى اختبار ذكاء يجرى عليه قبل دخوله الجامعة • وأكبر الظن أننا لو أجرينا عليه الى جانب اختبار الذكاء اختبارا يقيس استعداده الخاص للدراسة فى الكلية المعينة التى يريد الالتحاق بها لخفضنا الى حد كبير عدد من تلفظهم الكليات فى سنواتها الاولى • ومما يستأنس بذكره هنا ما دلت عليه دراسات واسعة فى أمريكا ولندن من أن الاختبار الشفوى الشخصى الذى تعقده بعض الجامعات لانتقاء طلابها قد فشل فشلا ذريعا فى التنبؤ بنجاح الطالب أو تعثره فى الدراسة الجامعية •

٨ ــ الذكاء والنجاح فى المهنة

يقتضى النجاح فى المهن والأعمال المختلفة نسبا مختلفة من الذكاء • فالمهن التى تتطلب التخطيط والتصميم والحكم والابتكار والدهاء وسعة الحيلة ، أو التى تتطلب أشخاصا يستطيعون العمل دون اشراف دقيق عليهم •• يتوقف النجاح فيها على قدر كبير من اذكاء على تفاوت

واختلاف فى هذا المقدار • من تلك مهن السياسة وادارة الشركات والطب والمحاماة والتدريس بالجامعات •• ومن ناحية أخرى فالمهن التى تقتصر على أعمال آلية رتيبة بسيطة لا تحتاج الى خبرة فنية أو تدريب خاص لا تتطلب الا قدرا طفيفا منه • من تلك مهن البواب والكناس والحمال والساعى وماسح الأحذية وبائع الصحف •• وبين هذين الطرفين مجال تترامى فيه مئات من المهن الصناعية والكتابية والادارية تتطلب مستويات مختلفة من الذكاء •

غير أن النجاح فى بعض المهن يتطلب من القدرات والاستعدادات الخاصة أكثر مما يتطلبه من الذكاء العام • فقد يكون نصيب الفرد من الذكاء كبيرا لكنه يعجز عن النجاح فى أداء الأعمال الميكانيكية أو الحركية أو اجادة الرسم والعزف أو الغناء أو الرقص ان كانت استعدادته الخاصة فى هذه النواحى ضعيفة • وقد يكون ذكاؤه متوسطا أو دون المتوسط لكنه يتفوق فى هذه النواحى ان كانت استعدادته الخاصة لها قوية • ومن هنا تكون اختبارات الذكاء محدودة الفائدة فى التنبؤ بالنجاح •

بل ان الذكاء الرفيع قد يكون ضارا ببعض المهن كالمهن الرتيبة البسيطة التى لا تتطلب تقديرا وتفكيرا • وقد دل التجريب على أن ذوى الذكاء المرتفع أكثر عرضة للملل من غيرهم ، تضجرهم الأعمال التكرارية التى لا تنوع فيها ، فان مارسوها زادت أخطاؤهم وكثرت حوادثهم ولم يبلغوا بها حد الاتقان ، فى حين أن أصحاب الذكاء الخفيض يرتاحون بوجه عام الى أوجه النشاط التى تجرى على وتيرة واحدة •

كما وجد أن هناك صلة بين ذكاء الفرد وترقيه فى وظيفته • فذوو الذكاء المنخفض ينزعون الى البقاء فى مناصبهم الدنيا ، فى حين يرقى الأذكياء الى مناصب أعلى • هذا ما اتضح فى الأعمال الكتابية والمكتبية بوجه خاص •

وقد اتضح أن هناك ارتباطا وثيقا بين الذكاء وحسن اختيار المهنة • وهذا ليس بمستغرب • فالذكى أقدر على فهم نفسه والحكم على قدراته وميوله وعلى ما تتطلبه المهن المختلفة من قدرات • وصفات ، كما أن مستوى طموحه لا يكون فى العادة مسرفا فى البعد عن الواقع •

من هذا نرى ما لاختبارات الذكاء من قيمة كبيرة فى كثير من النواحى المهنية والصناعية • وقد كان هذا مما شجع علماء النفس على الاستمرار فى تحسين هذه الاختبارات وجعلها أكثر صلاحية لقياس الذكاء من الاختبارات التى ظهرت فى مطلع حركة القياس العقلى • غير أننا رأينا أن النجاح فى بعض المهن يتطلب من القدرات الخاصة أكثر مما يتطلبه من الذكاء العام • لذا يتحتم فى كثير من الأحيان أن يقترن اختبار الذكاء باختبارات للقدرات الخاصة فى عمليتى التوجيه المهنى والاختيار المهنى •

٩ ـ الذكاء والخلق والجريمة

هل يتحتم أن يكون الذكى حسن الأخلاق ؟ قد يبدو هذا معقولا ، فالذكى أقدر على التبصر فى عواقب سلوكه من غير الذكى • غير أننا يجب أن نذكر أن الذكاء ليس الا عاملا واحدا من العوامل الكثيرة التى تسهم فى تعيين السلوك وتوجيهه • فالى جانب الذكاء هناك الدوافع الشعورية واللاشعورية ، وما لدى الفرد من معايير ومثل أخلاقية هذا فضلا عن قدرته على ضبط النفس ومقاومة الاغراء • وقد لا يعز على الفرد أن يميز بين النافع والضار ، بين المباح والمحظور لكنه يعجز عن ضبط اندفاعاته • بل قد يكون الذكاء عونا على التمويه والتعمية واخفاء ما يتورط فيه صاحبه من خطأ أو سلوك معاد للمجتمع • ولنذكر بعد هذا كله أن الذكاء يزود الفرد بالوسائل لا بالدوافع ، فهو يوجه ويرشد لكنه لا يدفع ويحفز • فهو يرشد اللص الى أفضل طريقة للسرقة لكنه لا يحفزه على السرقة • من هذا نرى أن الذكاء شرط ضرورى لكنه شرط غير كاف لاستقامة السلوك •• وقد ظهر من بعض البحوث أن معامل الارتباط بين الذكاء والصفات الخلقية ارتباط موجب لكنه طفيف قد يقل أحيانا عن ٢٠ر• وهذا يعنى أن الذكى يحتمل احتمالا طفيفا أن يكون حسن الخلق • فان قيل ان الأطفال الموهوبين فى دراسة « ترمان » سالفة الذكر كانوا ممتازين أيضا من الناحية الخلقية ، فلنذكر أنهم مجموعة مختارة من أفراد ممتازين لا تمثل جمهور الناس تمثيلا صحيحا ، ومن ثم فما يصدق على هذه المجموعة لا يصدق على الناس جميعا •

وحين ظهرت مقاييس الذكاء اتجه الاهتمام الى دراسة ذكاء المجرمين من الكبار والجانحين من الصغار • وقد أسفرت الدراسات الأولى عن أن أغلب هؤلاء ضعاف العقول ، فاستنتج الباحثون أن ضعف العقل أهم عامل فى الاجرام ان لم يكن العامل الوحيد • ومن ثم نشأت نظرية « المجرم الضعيف العقــل » التى لاقت رواجا كبيرا • فلما تحسنت طرق القياس وتحددت دلالة الضعف العقلى ظهر أن ضعاف العقول حقا لا يؤلفون الا نسـبة صـغيرة فقط من المجرمين ، كما اتضح أن الجريمة قدر مشاع بين الصغار والكبار فى جميع المستويات العقلية • ولئن كانت نسبة الأذكياء بين المجرمين أقل من نسبة الأغبياء وضعاف العقول فربما كان السبب أنهم أقدر على التعمية والافلات من قبضــة العدالة ، أو أقدر على الظفر بما يتوقون اليه دون حاجة الى الالتجاء الى الجريمة ، هذا الى ما يمتازون به من قدرة على التبصر فى عواقب أعمــالهم ••

والمقرر اليوم أن الجريمة لا تنجم عن عامل واحد بل عن تضافر عدة عوامل تختلف من فرد الى آخر [1] : الأمراض الجسمية والعاهات ، واضطراب الحياة الانفعالية ، وانحطاط الذكاء ، والتربية المنزليــة الكابحة أو المدللة أو الغافلة ، والجوار السيء ورفقاء السوء ، والفقر ، والأثر السيء للسينما •• هذه العوامل يتفاعل بعضها مع بعض فتمهد الطريق للجريمة ، فان ارتطم الفرد بحدث يلهب توتره وتأزمه النفسى تفجرت الجريمة فى أثره كما تنفجر القنبلة المشحونة ان مسها شرر : مرض يصيبه ، أو صدمة نفسية ، أو وفاة شخص عزيز ، أو ضائقة مالية شديدة ، أو خلف ظن بزوجة ، أو فقدان المركز الاجتماعى ••

---

(١) انظر كتاب « علم النفس الجنائى » للمؤلف ، طبع بغداد عام ١٩٤٣ الباب التاسع ص ٢٥١

الفصل الثالث

الاستعدادات

١ ـ الاستعداد والقدرة

قدمنا أن الذكاء ضرورى للنجاح فى كثير من الدراسات والمهن ، لكنه لا يكفى وحده للنجاح فيها ان كان آداؤها يتطلب وجود استعدادات خاصة لدى الفرد • فلا يكفى للنجاح فى الأعمال الميكانيكية أو الفنية أن يكون الفرد ذكيا بل لابد له أن يملك استعدادات خاصة فى هذه النواحى • ولا يكفى أن يكون الطالب ذكيا كى ينجح فى كلية الهندسة بل لابد له علاوة على ذلك من استعداد خاص للرياضيات العليا واستعداد للتصور البصرى المكانى •

ويقصد بالاستعداد aptitude قدرة الفرد الكامنة على أن يتعلم فى سرعة وسهولة وعلى أن يصل الى مستوى عال من المهارة فى مجال معين ، كالرياضيات أو الطيران أو الموسيقى أو الزعامة أو الدراسات الجامعية ، ان توافر له التدريب اللازم • فأحسن اثنين استعدادا من استطاع أن يصل الى مستوى أعلى من الكفاية ، بمجهود أقل ، وفى وقت أقصر ، أى كان انتاجه أعلى وتعلمه أيسر وأسرع من ذى الاستعداد الخفيض • فالطالب الذى يتفوق فى دراسة الرياضيات أو الأدب بجهد معقول يبذله فى التحصيل يملك استعدادا أكبر فى هذين المجالين ممن يبذل فى دراستهما جهدا مضنيا ولا ينجح الا بصعوبة • واذا أتيحت لشخصين مدة بعينها للتدريب على آلة موسيقية معينة أو للكتابة على الآلة الكاتبة فكان أحدهما أكثر اتقانا ودقة من صاحبه فى نهاية هذه المدة فهو أحسن استعدادا منه • وقد دلت التجارب على أنه فى اكتساب المهارات الحركية المعقدة قد يكون أمهر المتدربين أقدر بعشر مرات أو عشرين مرة من أقلهم مهارة فيها •

أما القدرة ability فهى كل ما يستطيع الفرد أداءه فى اللحظة الحاضرة من أعمال عقلية أو حركية سواء كان ذلك نتيجة تدريب أو من دون تدريب ، كالقدرة على ركوب الدراجة أو على تذكر قصيدة من الشعر أو الكلام بلغة أجنبية أو اجراء الحساب العقلى • وقد تكون القدرة بسيطة أو مركبة ، فطرية أو مكتسبة .•

من هذا نرى أن الفرد قد لا تكون لديه القـــدرة فى الوقت الحاضر على قيادة طائرة لكنه يملك استعدادا كبيرا يرشحه للتفوق البـــاهر فى هذا المجال ان أتيح له التدريب الكافى • أو يكون حاد البصر خفيف الأصابع قادرا على الادراك الدقيق للأشياء عن قرب الى غير تلك من الاستعدادات التى تؤهله أن يكون صانع ساعات ماهر • لكنه ان لـــم يتلق التدريب اللازم لم يعرف من الساعة الا كيف يديرها ويحملها •

موجز القول أن الاســـتعداد سابق على القدرة ، فهو قدرة كامنـــة يحيلها النضج الطبيعى والتعلم قدرة فعلية • ونحن نستدل على وجود الاستعداد عند الفرد فى مجال معين من قـــدرته على التعلم الســـهل السريع وعلى التفوق فى هذا المجال •

٢ ــ طبيعة الاستعدادات وتكوينها

قد يكون الاستعداد خاصا كاستعداد الفرد لأن يكون ربان طائـــرة أو كهربائى رادار أو جراحا أو مهندسا معماريا ، أو يكون الاستعداد عاما كالاستعداد الطبى الذى يؤهل صاحبه للنجاح فى مهنة الطب على اختلاف فروعها وتخصصاتها،وكالاستعداد الميكانيكى للتفوق فى الأعمال الميكانيكية بوجه عام على اختلاف أنواعها •

وقد يكون الاستعداد بسيطا من الناحية السيكلوجية كالاستعداد الذى يبدو فى قدرة الفرد على التمييز بين الألوان أو على سماع الاصوات الخافتة ، أو يكون الاستعـــداد مركبا من عدة قدرات أولية بسيطة كالاستعداد اللغوى والموسيقى والرياضى والاستعدادات المهنية المختلفة الخاصة والعامة • هذه الاستعدادات المركبة لا تظهر وتنمو من تلقاء نفسها أو نتيجة لمؤثرات البيئة العادية ، بل لابد ظهورها ونضجها من

تعلم خاص وتدريب قد يكون شاقا طويلا • فالاستعداد اللغوى مثلا يتألف من القدرة على فهم الألفاظ ، والقدرة على التعبير والطلاقة اللفظية وغيرها وسيكون كلامنا فى هذا الفصل منصبا على الاستعدادات المركبة وليس على القدرات الأولية البسيطة •

وتتوزع الاستعدادات بين الناس ، كالاستعداد الموسيقى مثلا من حيث قوتها وضعفها وفق المنحنى الاعتدالى ، فأغلب الناس أوساط من حيث مستوى الاستعداد لديهم ، وقلة من تكون استعداداتهم رفيعة أو هزيلة • وكما أن هناك فروقا بين الناس فى مستوى الاستعداد ، فهناك فروق فى الفرد نفسه • فقد يكون لدى الفرد استعداد كبير للدراسة الجامعية واستعداد خفيض للموسيقى ، أو يكون لديه استعداد مرتفع للأعمال الكتابية واستعداد ضعيف للاعمال الميكانيكية ، أو استعداد قوى للتدريس لا للطيران ، وربما استطعنا أن نجعل منه طيارا ، لكن هذا يقتضى وقتا وجهدا غير عاديين ، ومع هذا فلن يكون طيارا ناجحا بالقياس الى من لديهم استعداد كبير للطيران •• غير أن هذا لا ينفى أن يملك بعض الأفراد استعدادات واسعة المدى اذ يستطيعون التفوق فى كثير من الأعمال ، وآخرون تكون استعداداتهم ضيقة المدى فلا يستطيعون التفوق الا فى بضعة أعمال •

وترجع الفروق الفردية فى الاستعدادات الى كل من الوراثة والبيئة ، غير أن أثر الوراثة أعمق بكثير فى كثرة من الاستعدادات • فالذين يبدو استعدادهم عبقريا فى الموسيقى أو فى الرياضيات أو فى لعبة البلياردو قد يقلون عن أصابع اليد الواحدة فى كل جيل • غير أن الوراثة لاتكفى وحدها لتشرح قصة الاستعداد كلها • اذ لابد من قدح الاستعداد وصقله بالتعلم والتدريب كى يتضح أثره • كذلك يجب ألا ننسى أثر الميل والجهد وتحمل التعب • فبعض الأشخاص يرثون أصابع أطول وأخف فى الحركة من غيرهم ، فان اتيح لهم أن يتعلموا الكتابة على الآلة الكاتبة أو العزف على البيانو أو اصلاح الساعات أو اجراء عمليات جراحية كانوا أكثر تفوقا من غيرهم ممن يملكون أصابع قصيرة غليظة ، لكن ما فائدة هذه الصفات الموروثة ان كان الفرد لا يميل على الاطلاق الى أن يكون جراحا أو صانع ساعات ؟ أكبر الظن أنه ان انخرط

فى هذه المهن تفوق عليه شخص آخر يقل عنه فى القدرة الفطرية لكن يزيد عليه فى الميل .

ومما يجدر ذكره أن الاستعدادات المركبة ــ الدراسية والمهنية والفنية ــ كالاستعداد اللغوى أو الحسابى أو الموسيقى لا تبدو واضحة متمايزة فىمرحلة الطفولة ــ باستثناء الاطفال الموهوبين ــ بل تبدأ فى التخصص والتمايز من مطلع المراهقة وذلك نتيجة للنضج الطبيعى من ناحية ، ولتخصص الميول وزيادة فرص التدريب من ناحية أخرى .. لذا يجب عدم المبادرة بتوجيه الطفل الى دراسة معينة أو مهنة معينة من سن مبكرة ، أى من سن ١٠ سنوات مثلا .

٣ ــ الاستعداد والميل

من العلامات التى تبشر بنجاح الفرد فى مهنة معينة تشابه ميوله مع ميول أشخاص ناجحين فى هذه المهنة . غير أنه من الممكن أن يميل الفرد الى عمل دون أن يملك الاستعداد الكافى للنجاح فيه . وقد وجد سترونج Strong أن هذا المعيار صادق الى حد كبير اذ اتضح له أن الأشخاص الذين ينجحون فى دراسة معينة أو مهنة معينة كدراسة الهندسة أو مهنة البيع تتشابه ميولهم بينما تختلف عن ميول الناجحين فى مهن أو دراسات أخرى . فالشخص الذى تتفق ميوله اتفاقا كبيرا مع ميول المهندسين مثلا ينزع الى أن يكون مهندسا جيدا ، غير أن ميله الى الهندسة لا يضمن بطبيعة الحال أنه سينجح فى هذه المهنة ، لكنه يوحى بأنه سيحب هذه المهنة وينجح فيها بدرجة أكبر من نجاحه فى مهن أخرى لا يميل اليها . على هذا الأساس صاغ سترونج استخبارا يستهدف قياس درجة اتفاق ميول الفرد مع ميول الأفراد الناجحين فى مهنة معينة ، ويقدر ميل الفرد المهنى بمقارنة أجوبته بأجوبة هؤلاء الناجحين . ويسمى الاستخبار « صفحة الميول المهنية »[1] . وهو من أشيع استخبارات الميول وأدقها . ويستعان به فى عملية التوجيه المهنى للكبار .

---

(١) Strong's vocational interest Blank.

يتألف هذا الاستخبار من ٤٠٠ سؤال تمثل أوجه النشاط فى طائفة واسعة المدى من المهن ومواد الدراسة والألعاب الرياضية وضروب التسلية وأوجه منوعة من النشاط العقلى .. وعلى المفحوص أن يشير أمام كل سؤال بما اذا كان يحب هذا النشاط أو يكرهه أو لا يهتم به. وللاستخبار صورتان واحدة للرجال وأخرى للنساء . ثم تصنف الأجوبة على أساس تشابهها مع ميول رجال ونساء ناجحين فى أعمالهم .

وقد ثبت أن هذا الاستخبار أصدق فى الكشف عن الميول الحقيقية من سؤال الشخص عن طبيعة ميله وشدته .

٤ ـ اهمية الكشف عن الاستعدادات

لو استطعنا قياس استعدادات شخص نريد أن نختار له المهنة أو الدراسة التى تناسبه وفرنا عليه كثيراً من الوقت والجهد وعصمناه من فشل محقق يصيبه لو التحق بمهنة أو دراسة هو غير مؤهل لها . كذلك الحال لو أردنا أن نختاره لمهنة معينة . ولو استطعنا قياس استعداد شخص قبل أن يبدأ التدريب على عمل معين لأعفيناه والمجتمع من خسارة مؤكدة لا داعى لها . فكثير من الشبان يتوقون الى أن يكونوا طيارين ، لكن بعضهم يفشل فشلا ذريعا اثناء التدريب بما يكلف الدولة خسائر فى العتاد والأرواح . كذلك الحال فيمن يتوقون الى الدراسة بالجامعة وليست لديهم الاستعدادات الكافية للنجاح فيها . فمعرفة الاستعدادات ضرورية فى عمليتى التوجيه والاختيار المهنى والتعليمى .

التوجيه والاختيار المهنى والتعليمى :

التوجيه المهنى هو معونة الفرد على اختيار مهنة تناسبه ، وعلى اعداد نفسه لها ، وعلى الالتحاق بها ، وعلى التقدم فيها بصورة تكفل له النجاح فيها والرضا عنها والنفع للمجتمع . ولا تقتصر مهمة التوجيه على ذلك بل تتجاوزه الى نصح الفرد بالابتعاد عن مهن معينة لا يصلح لها . وتتطلب عملية التوجيه مطلبين :

١ — دراسة تحليلية شامله للفرد تكشف عن قدراته المختلفة الجسمية والحسية والحركية والعقلية ، وكذلك ميوله وسماته المزاجية والاجتماعية والخلقية •

٢ — تحليل المهن والأعمال المختلفة من نواحيها الفنية والصحية والاقتصادية والسيكولوجية أى من حيث ما تتطلبه من استعدادات ومهارات وسمات مختلفة •

والى جانب التوجيه المهنى هناك التوجيه التعليمى ويقصد به معونة الطالب وارشاده الى نوع الدراسة التى تلائمه ، أو نصحه بامتهان مهنة بدلا من المضى فى الدراسة ، أى معونته على فهم استعداداته وامكانياته المختلفة ومعرفة متطلبات الدراسة والمهن المختلفة • ومما يعنى به التوجيه التعليمى أيضا معونة الطلاب الموهوبين والمتخلفين دراسيا وارشادهم •

أما الاختيار المهنى فيقصد به انتقاء أصلح الأفراد وأكفئهم من المتقدمين لعمل من الأعمال • وهو يرمى الى نفس الهدف البعيد الذى يرمى اليه التوجيه المهنى ألا وهو وضع الشخص المناسب فى المكان المناسب • كما أنه يتطلب بدوره دراسة الفرد دراسة شاملة من ناحية، والاقتصار على تحليل المهنة أو العمل المعين تحليلا مفصلا لمعرفة متطلباته•ولا تقتصر وظيفة الاختيار على انتقاء اكفء الأفراد لمهنة معينة، بل هو يفيد أيضا فى توزيع الأعمال على العمال داخل المصنع أو المتجر أو الجيش ، كما يفيد فى ترقية العمال والموظفين الى مناصب أعلى ، وكذلك فى نقلهم من عمل الى آخر • كما يفيد بوجه خاص فى انتقاء رؤساء العمال والمشرفين عليهم •

ومما يجدر ذكره أن المصانع والشركات تهتم باختيار العاملين فيها من عمال وموظفين على أسس استعداداتهم لا على أساس قدراتهم الفعلية أثناء عملية الاختيار • فشخص ذو استعداد ضعيف قد تكون قدرته الحالية — انكان قد تلقى تدريبا طويلا — أعلى من قدرة شخص آخر ذى استعداد قوى لكنه لم يتق تدريبا • غير أن الثانى سرعان مايبز الأول بعد قليل من التدريب •

٥ ـ قيـاس الاستعدادات

للاستعدادات اختبارات خاصة تستهدف التنبـؤ بصلاحية الفـرد ومدى نجاحه فى عمل لم يتدرب عليه ٠ من هذه الاختبارات اختبارات الاستعداد الدراسى أو الاكاديمى واختبارات الاستعـداد المهنى ٠٠ وتستخدم الأولى فى التوجيه التعليمى والاختيار التعليمى للطلاب عند التحاقهم بالجامعة مثلا ٠ وتستخدم الثانية فى عمليتى التوجيه والاختيار المهنى ٠

ويتألف الاختبار من عدة أسئلة يجيب عنها المفحوص ، وقد تكون الأسئلة مشكلات أو تمارين يطلب منه حلها ، أو أعمالا يؤديها ٠ وهو يصاغ بحيث يستطيع التنبؤ بقدرة الفرد المستقبلة على تعلم أعمال أخرى لا يتحتم أن تكون شبيهة بالأعمال والتمارين التى يتضمنهـا الاختبـار ٠

وتختلف اختبارات الاستعدادات عن اختبارات الذكاء فى أن الثانية ترمى الى اعطاء فكرة عن المستوى العقلى العام للفرد مع أن ماتقيسه بالفعل هو قدرات خاصة : اللغوية والعـددية والمكانية والقدرة على التذكر والتفكير كما رأينا من قبل ٠ غير أنهـا تختلف عن اختبـارات الاستعدادات فى : ١ ـ أنها تقيس عددا كبيرا من القـدرات فى آن واحد ، ٢ ـ وفى أن أسئلة هذه القدرات بها أسهل وأقل تعقيدا منها فى اختبارات الاستعـدادات مما سيتضح لنـا بعد قليل ومع هـذا فاختبارات الذكاء نوع من اختبارات الاستعداد لأن كلا منهما يستهدف التنبؤ ٠

كما تختلف عن اختبارات التحصيل فى أن هـذه الأخيرة ترمى الى قياس القدرة على القيام بعمل بعد التعلم والتدرب عليه ٠ فالاختبارات المدرسية كلها اختبارات تحصيل ٠ وبعبارة أخرى فاختبارات الاستعداد تنظر الى المستقبل فى حين أن اختبارات التحصيل تنظر الى الماضى ٠ الواقع أن اختبار الاستعـداد ما هو الا اختبار قدرة لأن الاستعداد قدرة كامنة فلا يمكن أن يقاس الا عن طريق الأداء الفعلى ، فهو قياس أداء حالى اتضح بالتجربة أنه يستطيع التنبؤ بالقـدرة على التعلم فى المستقبل فى مجالات أخرى أوسع من مجال الاختبار ٠

أما قبل ظهور علم النفس العلمى فكانت الاستعدادات تقدر بطريقة عشوائية ، فكانوا ينصحون الطالب بالاتجاه الى دراسة معينة أو مهنة على أساس الحزر والتخمين ، وكان أصحاب المصانع يختارون العمال على هذا الأساس أيضا . فان لم يفلح الفرد فى أداء عمله كان مصيره الطرد . أما اليوم فيقوم التوجيه والاختيار التعليمى والمهنى على أساس من اختبارات موضوعية .

وسندرس فيما يلى بعض الاستعدادات الهامة وطرق اختبارها . ومما يجب ذكره أن ما سنعرضه ليس اختبارات كاملة بل مجرد أمثلة لنوع الأسئلة التى تتألف منها هذه الاختبارات ، وأن هذه الاختبارات يمكن تعديل صعوبتها بحيث تناسب المستويات العقلية المختلفة .

٦ — الاستعداد اللغوى

يبدو هذا الاستعداد فى القدرة على معالجة الأفكار والمعانى عن طريق استخدام الألفاظ . اذ لا يخفى أن الألفاظ رموز مجسمة وقوالب تصب فيها الافكار ، وبدائل عن أشياء وأحداث وصفات وعلاقات . ويبدو الاستعداد اللغوى فى عدة مظاهر منها :

١ — سهولة فهم الالفاظ والجمل والأفكار المتصلة بها .

٢ — ادراك ما بين الألفاظ أو ما بين الجمل من علاقات مختلفة، علاقات تشابه أو تضاد مثلا .

٣ — سهولة التعبير التحريرى والشفوى .

٤ — استرجاع أكبر عدد من الألفاظ فى سرعة . من هذا يتضح أن الاستعداد اللغوى ليس قدرة بسيطة كقدرات « ثرستون » الأولية بل قدرة مركبة يمكن تحليلها الى عوامل ابسط منها . ويقاس هذا الاستعداد باختبارات كالآتية :

١ — ما أقرب كلمة من الكلمات الآتية تفيد معنى كلمة « صريح »: شعبى ، مكشوف ، مندفع ، جرىء .

٢ ـ ضع علامة × أمام جملتين من الجمل الآتيــة يكون معنى كل منهما متفقا تام الاتفاق مع هذا المثل (معظم النـــار من مستصـــغر الشرر) :

(أ) اهمال الصغائر يولد الكبائر •

(ب) لا دخان بغير نار •

(ج) لكل جواد كبوة •

(د) القطرة الى القطرة بحر •

٣ ـ ضع خطا تحت كلمتين من الكلمات الآتية تكون العلاقــة بين معنييهما مثل العلاقة بين (العين والبصر):الأذن ـ الشعر ـ أزرق ـ السمع ـ البحر ـ البحيرة •

٤ ـ أكتب خمس كلمات تبدأ بالحرف ع وتنتهى بالحـرف ف لأشياء مختلفة •

٥ ـ أذكر ثلاثة مرادفات لكل من الكلمات الآتية : خشن ـ مرح صـدق •

ولا يخفى أن الاستعداد اللغوى ضرورى للنجاح فى مهن وأعمـال مختلفة كالتأليف والتحرير والخطابة والصحافة والتدريس والمحاماة • كما هو لازم بوجه خاص لمن يتولى قيادة المناقشـات الجمـاعية بين العاملين وادارة العمل لحل مشكلات أو اتخاذ قرارات أو عرض وجهات نظر جديدة •• اذ يتعين عليه أن يجيد صوغ الأسئلة التى تثير التفكير، واستعراض الآراء والمشاعر التى يعبر عنها الأعضاء بصـورة أوضح وأدق وأعمق منهم ، وتلخيص ما سبقت مناقشته من أفكار للتأكد من فهم الاعضاء لها •• والحق أن القدرة اللغوية فى ثقافتنا الراهنة ليس كمثلها شيء فى تذليل الصعاب وانقاذ صاحبها من الورطات •

٧ ـ الاستعداد الحسـابى

يبدو فى اجراء العمليات الحسابية فى سهولة وسرعة ودقة ، وكذلك القدرة على ادراك ما بين الأعداد من علاقات،وفى سرعة التفكير الحسابى ودقته بوجه عام • ويقاس باختبارات كالآتية : ـ

١ ــ راجع العمليات الآتية لترى ما اذا كانت نتائجها صحيحة أو خاطئة :

١٦ + ٣٨ + ٤٥ = ٩٩
٤٢ + ٦١ + ٨٣ = ١٨٦
٦٤ × ٧ = ٤٤٨
٣٩ × ٤ = ١٦٦

٢ ــ أكمل سلاسل الأعداد الآتية بعددين من عندك فى الخانات الشاغرة :

٨ ، ١١ ، ١٤ ، ــ ، ٢٠ ، ــ
٢ ، ٤ ، ٨ ، ١٤ ، ٢٢ ــ ــ
٣٧ ــ ، ٣٣ ، ٢٣ ، ١٩ ، ١٩ ، ــ

٣ ــ ضع بدل علامة ؟ شيئا يوضح المطلوب :

١٢ ÷ ؟ = ٤
٥ ؟ ٣ = ١٥

٤ ــ ضع علامة على كل عدد يزيد بمقدار ٣ على سابقه :

١٥ ١٩ ٢١ ٢٦ ٢٩ ٢٢ ٢٥ ٥ ٨ ٧ ١١

٥ ــ كيف يمكننا الحصول على ٧ لتر من الماء ، وليس معنا الا اناءين سعة الأول ٤ لتر والثانى ٩ لتر .

والاستعداد الحسابى لازم للنجاح فى مهن المحاسبة والاحصاء وتدريس الرياضيات وكثير من الأعمال الكتابية ..

٨ ــ الاستعداد الميكانيكى

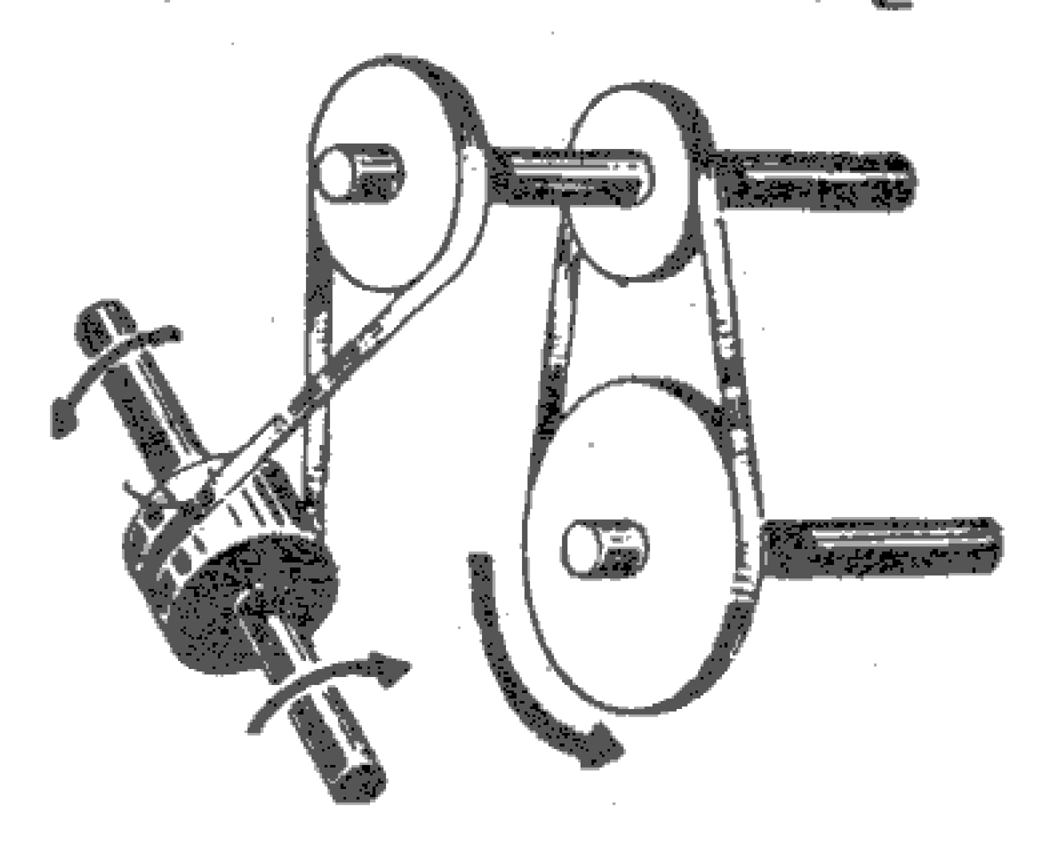
الاستعداد الميكانيكى استعداد ضرورى لكل من يدور عمله حول فهم الآلات وادارتها وصيانتها واصلاحها وحلها وتركيبها وادراك العلاقات بين أجزائها . وقد يظن البعض أن هذا الاستعداد مرادف أو أنه يتلخص الى حد كبير فى المهارة الحركية والعضلية . ولا شك أن المهارة الحركية والعضلية لها أثر فى الاستعداد الميكانيكى ، لكن فهم الآلات وادراك العلاقات بين بعض أجزائها وبعض ، وادارتها .. كل أولئك يتطلب قدرا من الذكاء ــ فالذكاء فى جوهره ادراك للعلاقات

ـ أو من الفهم الميكانيكي العام . بل لقد وجد أن العمال الميكانيكيين والصناع المهرة يتناسب نجاحهم أو فشلهم فى أداء أعمالهم على قدر مالديهم من قدرة على الفهم الميكانيكى العام لا على مالديهم من مهارة عضلية ؛ حتى لقد أدرج بعض العلماء هذا الاستعداد فى زمرة الاستعدادات العقلية . وعلى هذا يكون الاستعداد الميكانيكى بمعناه الضيق استعداد عقلى ، وبمعناه الواسع استعداد عقلى واستعداد حركى .

ثم أخذ هؤلاء العلماء يتساءلون هل هناك استعداد ميكانيكى عام مفرد يؤثر فى جميع الاعمال التى يؤديها الفرد ، أم أن هناك استعدادات ميكانيكية متخصصة مختلفة يؤثر كل واحد منها فى عمل بذاته دون غيره من الأعمال ؟ . وقد هداهم البحث والتحليل الى أن هناك استعدادا ميكانيكا مركزيا عاما أسموه « الاستعداد الميكانيكى العام » أو الذكاء الميكانيكى » والى جانب هذا الاستعداد العام ، استعدادات متخصصة مختلفة ، أو عوامل نوعية منها :

١ ـ عامل التصور البصرى Visualisation :

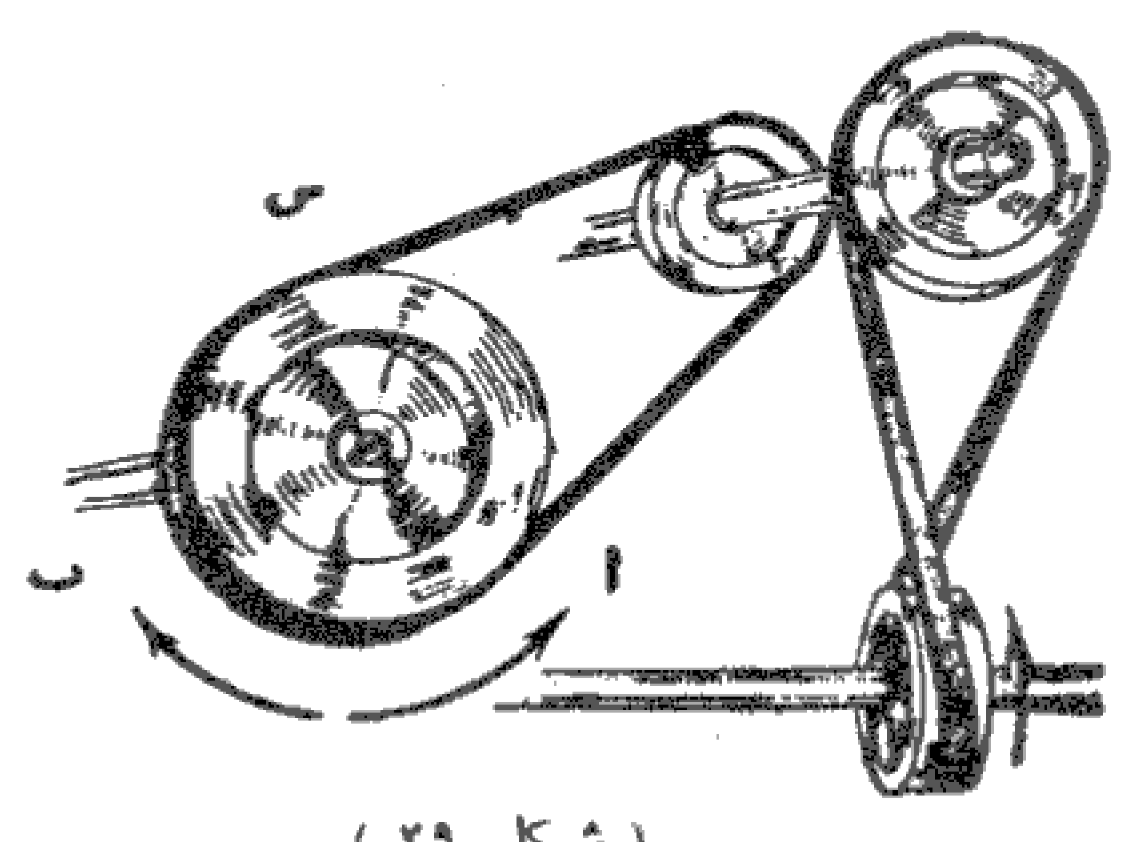
وهو يبدو فى القدرة على ادارة الأشكال ، المسطحة والمجسمة ، وتقليبها فى الذهن وتصور ما ستؤول اليه بعد دورانها ، أو تصور حركات الآلات والأجسام وأوضاعها المختلفة أثناء هذه الحركة ، وكيف تتطور هذه الأوضاع (انظر الأشكال ٢٨ و ٢٩) :



(شكل ٢٨)

اذا دارت العجلة الكبرى الى اليمين فى الاتجاه المبين ففى اى اتجاه تدور البكرة اليسرى ؟

كما يبدو في القدرة على تصور الاشياء الخفية أو الناقصة داخل أو خلف جهاز أ وآلة أو شكل هندسي مجسم .

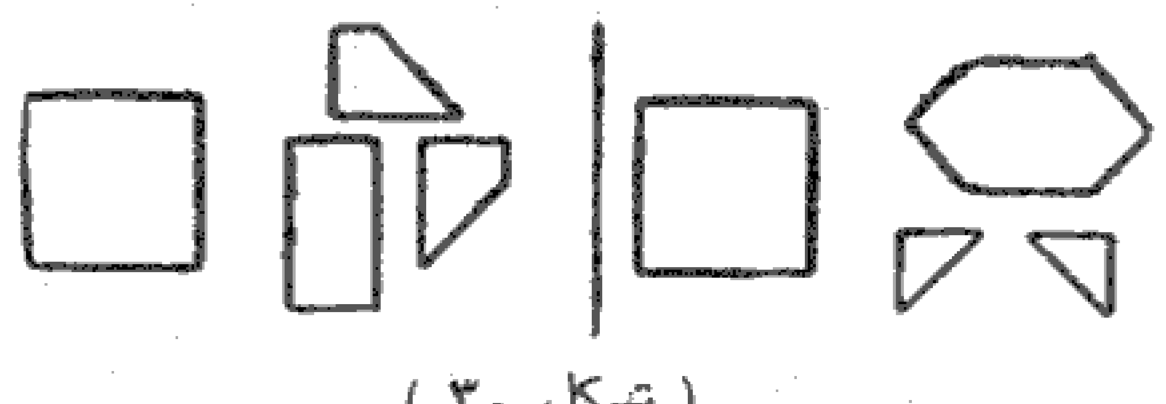


(شكل ٢٩)

في أى الاتجاهين تدور البكرة (س) اذا كانت البكرة اليمنى الى اسفل تدور في الاتجاه المبين ؟

٢ ــ عامل العلاقات المكانية :

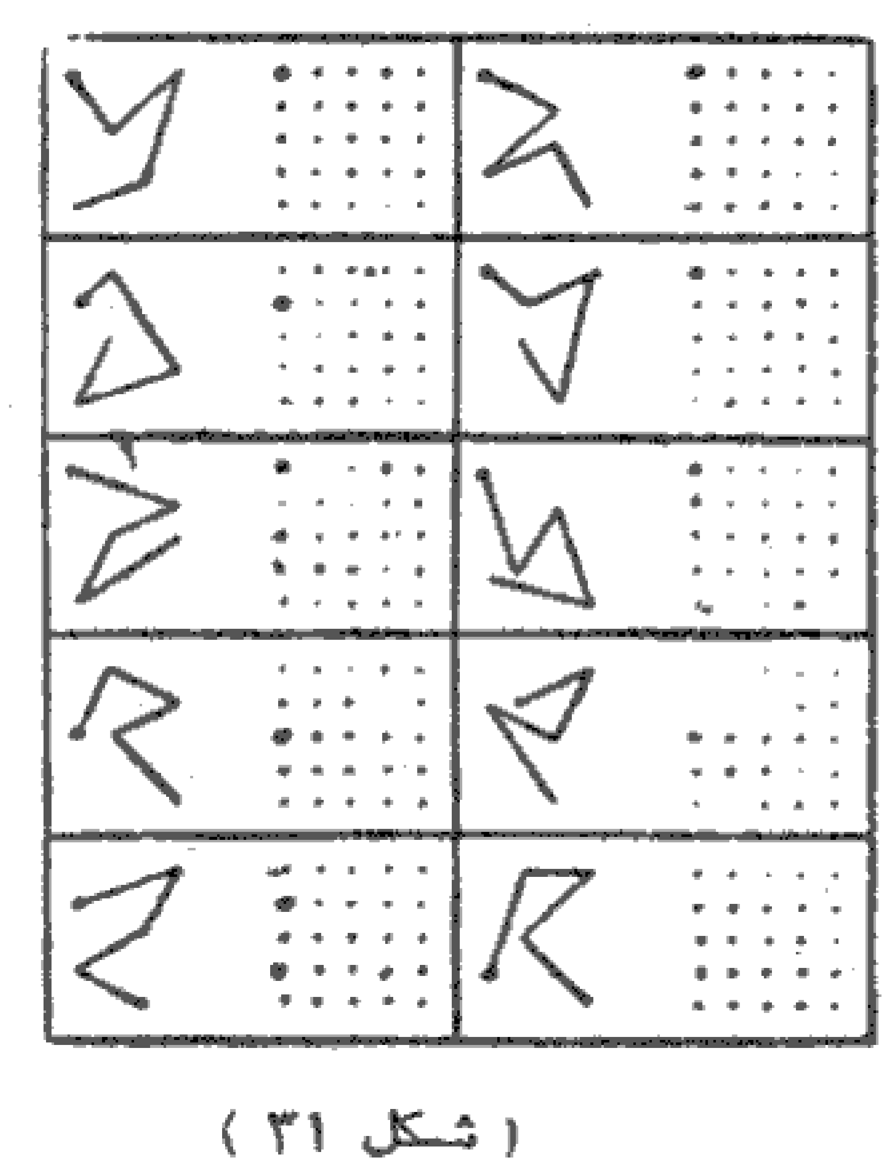
يبدو في القدرة على تقدير المسافات والابعاد بدقة ــ الطول والعرض والارتفاع والعمق والسمك أو المساحة أو الحجم ــ وكذلك في ملاحظة ما بين الأشكال من تشابه أو اختلاف ، والمقارنة بين أشكل الأشياء وأوضاعها وحجومها ، كم يبدو في القدرة على تكوين شكل من أجزائه المبعثرة . وسائق السيارة يحتاج الى قدر معين من هذا العامل ، وكذلك عامل « الونش » والا أخطأ في التقاط الأشياء وفي ارسائها وتسبب في اتلافها والشكلان (٣٠ و ٣١) نماذج لاختبارات تقيس هذا العامل .



(شكل ٣٠)

ففي الشكل (٣٠) يطلب الى الشخص أن يرسم في كل مربع خطوطا تبين موضع الأجزاء التي قسم اليها المربع ، ويسمى اختبار « التفصيل » . وفي الشكل (٣١) يطلب اليه أن يمر بقلمه على النقط اليمنى ليؤلف أشكالا كالاشكال المرسومة ، ويسمى « اختبار النقل » .

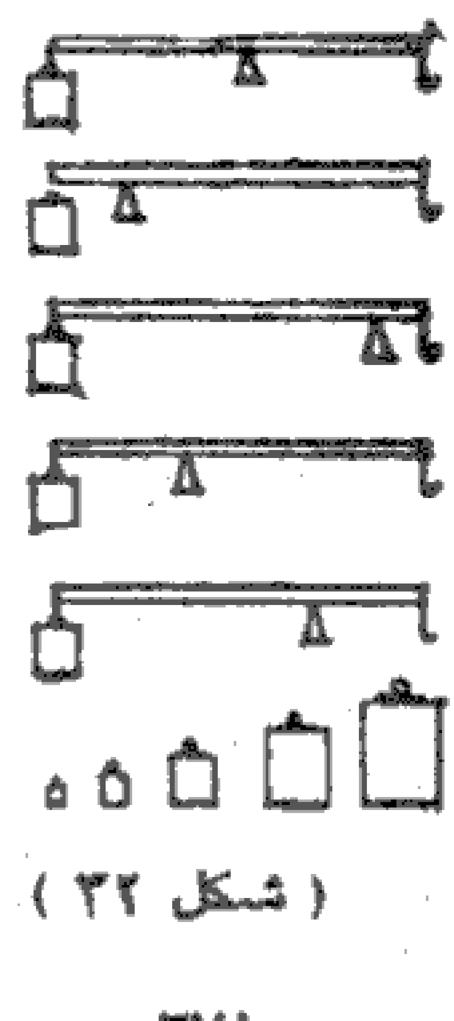
ولا يخفى أن عامل العلاقات المكانية به بعض الشبه بعامل التصور البصرى المكتنى ، غير أن هذا العامل الاخير يتصل بالقدرة على تقليب الصور الذهنية للأشياء ومعالجتها فى الذهن أكثر مما يتصل بمعــالجة مدركات حســية .



(شكل ٣١)

٣ ـ عامل المعلومات الميكنيكية :

عامل يتطلبه أداء كثير من الأعمال الميكانيكية ، والشكل (٣٢) يمثل أحد اختبارات هذا العامل . وفيه يطلب الى الشخص المفحــوص أن



(شكل ٣٢)

يختار من الأثقال الخمسة الموجودة فى أسفل الشكل الثقل الذى يحدث التوازن فى كل من الروافع الخمس •

ومما يذكر بهذا الصدد أن صاحب الاستعداد الميكانيكى يكون فى العادة أميل الى التقاط المعلومات الميكانيكية من غيره •

ومع أن الذكاء الميكانيكى أهم عامل للنجاح فى كثير من الأعمال الميكانيكية ، الا أن هذه العوامل النوعية الثلاثة ضرورية بوجه خاص للنجاح فى أعمال ميكانيكية معينة •

وتستخدم اختبارات الاستعداد الميكانيكى ، فى المقام الأول ، لاختيار العمال للأعمال التى تتطلب حذقا ميكانيكيا ، كتركيب الماكينات قبل ادارتها ، وصيانة الماكينات ، واصلاح الاجهزة والتركيبات المنزلية الميكانيكية •

٩ ـ الاستعداد للاعمال الكتابية

الأعمال الكتابية على أنواع مختلفة ، فمنها امساك الدفاتر ، واجراء الحسابات والكتابة على الآلة الكاتبة أو استخدام الآلة الحاسبة ، وحفظ الأوراق فى الملفات بعد تبويبها ، والنقل والتلخيص •• وهناك مجموعات مختلفة من الاختبارات تقيس الاستعدادات النوعيةوالسمات المختلفة اللازمة للنجاح فى هذه الأعمال على اختلافها وهى تستخدم عند اختيار أصلح المتقدمين للوظائف الكتابية • فمما تقيسه هذه الاختبارات :

١ ـ القدرة على التصنيف والتبويب والتنسيق •

٢ ـ القدرة على تلخيص الافكار الأساسية •

٣ ـ القدرة على اكتشاف الاخطاء •

٤ ـ القدرة على ملاحظة التفاصيل بسرعة والكشف عنها حين تكون مندمجة فى أشياء لا تمت اليها بصلة •

٥ ــ الدقة والسرعة فى النقل من الجداول •

٦ ــ القدرة على الكتابة بالآلة الكاتبة أو استخدام الآلة الحاسبة في سرعة ودقة ونظام •

٧ ــ الدقة والسرعة فى اجراء العمليات الحسابية البسيطة •

٨ ــ القدرة على فهم التعليمات •

٩ ــ الصبر على احتمال العمل الآلى الرتيب •

ولا يخفى أن هذه القدرات تختلف باختلاف نوع العمل الكتابى ومستواه ، فامساك الدفاتر لا يتطلب من الذكاء ما يتطلبه اجراء الحسابات ، والكتابة على الآلة الكاتبة تقتضى قدرا من المهارة الحركية واليدوية والقدرة اللغوية ، واستخدام الآلة الحاسبة يتطلب قدرةعددية ودقة فى الحساب وملاحظة التفاصيل أكثر من غيره •

١٠ ــ الاستعدادات الاكاديمية

تستخدم كثير من الجامعات فى الخارج إختبارات استعداد لمنيريدون الالتحاق بالكليات المختلفة • وهى تشبه مقاييس الذكاء الى حد كبير، غير أنها تختلف عنها فى توكيد النواحى اللازمة للنجاح فى كل كلية • فاختبارات الاستعداد الطبى تشتمل على اختبارات تقيس القدرة اللغوية والقدرة العددية والقدرة على التفكير المنطقى والقدرة على التذكر البصرى والقدرة على فهم المطبوعات الصعبة •• هذا بالاضافة الى اختبارات تتصل بالمبادىء الأساسية للعلوم الطبيعية كالفيزيقا والكيمياء وعلم الاحياء •• وهناك أيضا اختبارات استعداد لانتقاء الطلبة لكليات الحقوق أو المعلمين ، وكلها تشبه اختبارات الذكاء من عدة نواح وترتبط بها ارتباطا عاليا •

ومن أشمل هذه الاختبارات اختبـــار « زيــف » Zyve المسمى اختبار ستانفورد للاستعداد العلمى . ويتألف من ١١ قسما يستهدف كل قسم قياس واحدة من القدرات الأساسية اللازمة للنجـــاح فى البحث العلمى والهندسة ، وهى : الاتجاه التجريبى ، وضوح التعريفـــات ، الأحكام المعلقة ، الاستدلال ، تعرف التناقضات ، تعرف الاغاليط ، الاستقراء والقياس والتعميم ، الحرص والحـــذر والاتقان ، التمييز بين القيم فى اختيار وترتيب المعطيات التجريبية ، دقة التأويل ، دقة الملاحظـــة .

١١ — الاستعداد الموسيقى

من أظهر من بحثه العالم « سيشور » Seashore الذى ذهب الى أنه يمكن تحليله الى نحو ٣٠ عنصرا يمكن أن تجمع فى ست قدرات أساسية هى .

١ — تمييز الأنغام من حيث تردد ذبذبتها .

٢ — تمييز شدة الصوت من حيث الارتفاع والانخفاض .

٣ — تعرف الايقاع .

٤ — تذكر الأنغام .

٥ — التمييز بين المجموعات المتوافقة من الأنغام .

٦ — تمييز المسافات الزمنية بين الأنغام . هذه القدرات الســت مسجلة على اسطوانات تدار فيحكم على المفحوص وتقدر موهبتـــه الموسيقية على أساس أجوبته الصحيحة . وقد دلت التجارب على أن هذه القدرات مستقل بعضها عن بعض وعن الذكاء العام .

أسئلة في الذكاء والاستعدادات

١ — الذكاء شرط ضروري لكنه شرط غير كاف للتفكير العلمي — اشرح هذه العبارة •

٢ — الى أى حد تستطيع أن تستدل على ذكاء شخص من لغته ؟

٣ — ما أهم الوسائل الأخرى غير اختبارات الذكاء والتى يستطيع المعلم استخدامها للوقوف على مستوى ذكاء طلابه ؟ وما قيمة هـذه الوسائل ؟

٤ — كيف تقيس ذكاء طفل أعمى ؟

٥ — لو خلق الناس جميعا على مستوى واحد من الذكاء فما العواقب الاجتماعية والاقتصادية التى كانت تترتب على ذلك ؟

٦ — ما السبب فى اختلاف طبيبين من حيث النجاح ، مع انهما تلقيا نفس التدريب فى كلية واحدة •

٧ — ما الفرق بين الذكاء من حيث هو قدرة فطرية وبين الذكاء كما تقيسه اختبارات الذكاء •

٨ — اختبارات الذكاء اختبارات استعداد عام واختبارات قدرة عامة فى آن واحد — اشرح •

٩ — اذا كان معامل الارتباط منخفضا بين التفوق الدراسى والتفوق فى الألعاب الرياضية ، فماذا تستنتج من ذلك ؟

١٠ — التسليم بثبات نسبة الذكاء كاف للاستدلال على أن الأذكياء أسرع فى نموهم العقلى من الأغبيـــاء — اثبت صحة هذه العبارة •

١١ — ما نسبة الذكاء لرجل عمره الزمنى ٣٥ سنة وعمره العقلى ١٧ سنة ؟ واذا ظلت نسبة ذكائه ثابتة منذ أن كان عمره الزمنى ١٠ سنوات فماذا كان عمره العقلى فى ذلك الوقت؟

١٢ — كيف تفسر تغير نسبة الذكاء بخمس أو ست درجات اذا أعدنا قياس الذكاء للفرد بعد أسبوع ؟

١٣ — لماذا يكون التنبؤ بالنجاح فى الدراسة الجامعية على أساس اختبارات الذكاء أكثر عرضه للخطأ منه فى الدراسة الابتدائية .

١٤ — ولد فى العاشرة نسبة ذكائه ١٣٠ ، وآخر فى الثالثة عشرة نسبة ذكائه ١٠٠ — فيم يتشابهان وفيم يختلفان ؟

١٥ — صمم اختبار لقياس القدرة على التصور البصرى .

١٦ — ما الصلة بين الاستعداد لعمل معين والميل اليه ؟

١٧ — ما العلاقة بين الذكاء والتفكير ؟

١٨ — بين كيف يشبه الاختبار السيكولوجى التجربة العلمية .

١٩ — النجاح فى الدراسة الابتدائية يتوقف على الذكاء العام أكثر من توقفه على القدرات الخاصة .

٢٠ — الذكاء شرط ضرورى لكنه شرط غير كاف للتوافق الاجتماعى — ناقش هذه العبارة .

٢١ — وضح بالمثال العبارة التى تقول ان الذكاء استخدام للمعرفة أكثر مما هو امتلاك للمعرفة .

٢٢ — يعرف بعض العلماء الذكاء بأنه القدرة على الاستفادة من الخبرات السابقة ، ومع هذا فهم يحتمون ألا تتأثر مقاييس الذكاء بالخبرة السابقة . فما المقصود بذلك وكيف توفق بين الفكرتين ؟

الباب الخامس

الشخصية

الفصل الأول : بنـــاء الشخصية

الفصل الثانى : الحكم على الشخصية

الفصل الثالث : نمـــو الشخصية

الفصل الأول

بناء الشخصية

١ ـ تعريف الشخصية

كل صفة تميز الشخص عن غيره من الناس تؤلف جانبا من شخصيته ، فذكاؤه وقدراته الخاصة وثقافته وعاداته ونوع تفكيره وآراؤه ومعتقداته وفكرته عن نفسه من مقومات شخصيته ، كذلك مزاجه ومدى ثباته الانفعالى ومستوى طموحه وما يحمله فى أعماق نفسه من مخاوف ورغبات،وما يتسم به من صفات اجتماعيةوخلقية كالتعاون أو التسامح أو السيطرة ، هذا كله الى ما يتسم به من صفات جسمية كالقوة والجمال ورشاقة الحركات وحدة الحواس .. لذا نستطيع أن نعرف الشخصية بأنها جملة الصفات الجسمية والعقلية والمزاجية والاجتماعية والخلقية التى تميز الشخص عن غيره تميزا واضحا .

غير أن الشخصية يبعد أن تكون مجرد حزمة من صفات مستقلة منعزلة بعضها عن بعض ، بل هى وحدة متكاملة من صفات يكمل بعضها بعضا ، ويتفاعل بعضها مع بعض ، ويحور بعضها بعضا . فالذكاء والمثابرة والسيطرة والتعاون وغيرها لا تبدو فرادى فى سلوك الفرد ، بل تبدو مجتمعة مندمجة تطبع سلوكه بطابع خاص . ذلك أن كل سلوك مهما بدا بسيطا هو تعبير عن شخصية الفرد بأكملها . فالشخص الذكى المثابر غير الغبى المثابر ، وقد يصبح الاول رجل أعمال ناجح فى حين لا يصبح الثانى أكثر من بائع متجول . والشخص الذكى المتهور غير الذكى المتأنى ، كذلك الشخص المرح المتعاون يختلف سلوكه عن سلوك المرح الانانى أو المزاحم ، والمؤمن القوى خير من المؤمن الضعيف . **وهنا نستطيع أن نقدم للشخصية تعريفا أدق فنقول انها نظام متكامل** من الصفات يميز الفرد عن غيره .

على أن هذه الصفات منها ما يبرز أثره ويثقل وزنه حين تحكم على شخصية فرد من الافراد • فحدة الحواس أو قدرة الفرد على التذكر أو مهاراته اليدوية أو استعداده الدراسى •• لا يكون لها فى العادة وزن كبير اذا قيست الى قدرته على التعاون مع الناس ، أو على ضبط نفسه ، أو اتزانه الانفعالى ، أو مسايرته المعايير الاجتماعية والخلقية فى بيئته ، بل ان الذكاء نفسه قد يحجب أثره ما يتسم به الفرد من سمات اجتماعية وخلقية • فالدنيا تزخر بأذكياء فشلوا واهتزت شخصياتهم فى أعين المجتمع من سوء علاقاتهم بالناس • وبعبارة أخرى فمظهر الشخصية البارز هو **المظهر الاجتماعى** • وهذا ما حدا بكثير من العلماء الى قصر الشخصية على الصفات الاجتماعية والخلقية دون غيرها من الصفات العقلية والجسمية •

الشخصية والخلق : الخلق هو الشخصية اذ ننظر اليها فى ضوء المعايير الاخلاقية ، فنحكم على سلوك الشخص بأنه خير أو شر ، صواب أو خطأ • فالسرقة والخيانة من صفات الخلق ، فى حين أن التفاؤل أو الانطواء أو مرونة التصرف من صفات الشخصية . فالخلق جانب من الشخصية وليس الشخصية كلها • انه نظام من الاستعدادات التى تمكننا من التصرف بصور ثابتة نسبيا حيال المواقف الاخلاقية والعرف بالرغم من ضروب الاغراء •

الشخصية والمزاج : المزاج كما ذكرنا من قبل هو جملة الصفات التى تميز انفعالات الفرد عن غيره (انظر ص١٣٩) ومن ثم فهو يؤلف جانبا من الشخصية لا الشخصية كلها • وهو جانب يتوقف فى المقام الاول على عوامل وراثية منها حالة الجهازين العصبى والغدى الهرمونى ، كما يتوقف على عملية الايض وعلى الصحة العامة للفرد ، لذا كان من العسير تغيير الصفات المزاجية للفرد • فمن الصفات المزاجية : مستوى الحيوية والنشاط ، والمرح أو العبوس ، والخجل ، ودرجة الحساسية للمثيرات ، والاندفاعية ، وتقلب المزاج •• غير أن « أولبرت » Allport يرى أنه يجب قصر صفات الشخصية على الصفات التى يكتسبها الفرد أثناء نموه وهو يتكيف مع البيئة • وبما أن الصفات المزاجية نتاج الوراثة فى المقام الاول اذن يجب عدم اعتبارها من صفات

الشخصية ، ولو أنها تقوم بدور هام فى تلوين السلوك وأساليب التكيف التى يصطنعها الفرد •

الشخصية والذكاء : لا شك أن الشخص يتميز عن غيره بذكائه كما يتميز بقوة أخلاقه أو بسرعة غضبه . لذا فهو جزء متكامل من الشخصية كالخلق والمزاج • لكن أغلب علماء النفس وأطباء النفس المحدثين يستبعدون الذكاء وغيره من القدرات العقلية من بناء الشخصية • فاذا أرادوا الحكم على شخصية فرد أو قياسها اقتصروا على صفاته الاجتماعية والخلقية والمزاجية أى الانفعالية ليس غير • وحجتهم فى ذلك ما دل عليه التحليل العاملى من أن الارتباط بين الجوانب العقلية وغير العقلية من الشخصية ارتباط ضعيف لا يعتد به ، وما دلت عليه الدراسات الكلينيكية من أن اضطرابات الشخصية لا تحترم نسبة ذكاء الفرد ، فالامراض النفسية والامراض العقلية شائعة بين العباقرة قدر شيوعها بين ضعاف العقول ••

٢ ــ سمات الشخصية

نحن نحكم على شخصيات الناس فى حياتنا اليومية أحكاما عامة نخرج بها من انطباعات عامة ، فنقول ان فلانا ذو شخصية قوية أو جذابة أو مسيطرة أو مهزوزة • غير أن علم النفس لا ترضيه هذه الانطباعات العامة ولا تغنيه • فهو ينظر الى الشخص الذى تجرى عليه تجربة ، أو الذى يذهب الى العيادة النفسية للاستشارة فى مشكلة يعانيها ، أو الذى يذهب الى مركز التوجيه المهنى طلبا لمعونته على اختيار مهنة •. ينظر الى هؤلاء نظرة تحليلية منزوايا مختلفة•هذه الزوايا هىماتسمى « سمات[1] » الشخصية أو « أبعاد » الشخصية Dimensions ومفهوم البعد مستمد من مفاهيم العلوم الرياضية والطبيعية • وهو مفهوم عقلى نستنتجه ولا نلاحظه كمفهوم الدافع ومستوى الطموح

---

(١) السمة لغة هى العلامة المميزة . وهى فى علم النفس صفة ثابتة تميز الفرد عن غيره ، فهى بهذا المعنى الشامل تضم المميزات الجسمية والحركية والعقلية والوجدانية والاجتماعية ، أى أنها تضم الذكاء والقدرات والاتجاهات والميول والعادات .. ويميز أحيانا بين السمة والقدرة . فالقدرة هى ما يستطيع الفرد اداءه ، والسمة هى أسلوبه المميز فى الأداء ، أى كيفية استجابته .

والذكاء وغيرها .. فالامانة والسيطرة والميل الى اعتزال الناس وعقدة النقص والقدرة على احتمال الشدائد .. من سمات الشخصية أو من أبعادهـا .

وسمات الشخصية لا عد لها ولا حصر ، لذا يحسن تصنيفها على النحو الآتي تصنيفا عمليا يسهل دراستها ولو أنه تصنيف غير منطقى لأن أصنافه تتداخل بعضها فى بعض :

١ ـ سمات عقلية أو معرفية : الذكاء ، القدرات العقلية ، الثقافة والمعارف العامة والمهنية ، فكرة الفرد عن نفسه ، وجهة نظره وادراكه للناس وللواقع .. هذه هى السمات التى يرى أغلب العلماء صرف النظر عنها فى الحكم على الشخصية وقياسها ..

٢ ـ سمات وجدانية وانفعالية : الحـالة المزاجية ، الاسـتقرار الانفعالى ، ضبط النفس ، سرعة الاهتياج ، درجة الدفاعية .. من هذه السمات ما يرتبط ارتباطا وثيقا بتكوين الجهازين العصبى والغدى للفرد ، ومنها ما ينشأ من عملية التطبيع الاجتمـاعى للفرد كمسـتوى القلق والعدوان والشعور بالذنب .

٣ ـ سمات دافعية : كالرغبات والميـول والاتجـاهات والعواطف والمعتقدات والقيم . وهذه قد تكون شعورية أو لا شعورية .

٤ ـ سمات اجتماعية : الحساسية للمشكلات الاجتماعية ، الاشتراك فى النشاط الاجتماعى ، موقف الفرد من السلطة ومن القيم الاجتماعية ، ميله إلى السيطرة أو الخضوع ، الى التعاون أو التراحم ، الى المسالمة أو العدوان ، الى الاكتفاء الذاتى أو الاعتماد على الغير .. كذلك السمات الخلقية كالصدق أو الكذب ، الامانة أو الخداع ..

والسمات التى تدخل فى بناء الشخصية وتميز شخصيات الناس بعضها عن بعض هى السمات الثابتة ثباتا نسبيا ، أى التى يظهر أثرها فى عدد كبير من المواقف ، وليست السمات العارضة العابرة التى تتوقف على طبيعة الموقف ، أو نوع العمـل الذى يؤديه الفرد . فسمة السـيطرة

هى استعداد الفرد للظهور والتسلط فى أكثر المواقف التى تعرض له ــ نقول فى أكثرها لا فى جميعها • والمثابرة استعداد للاستمرار فى العمل رغم صعوبته وجفافه فى مواقف كثيرة يختلف فيها نوع العمل • والشخص الذى يتسم بالامانة ليس الشخص الذى يتصرف بأمانة فى جميع المواقف والظروف على اختلافها ، بل هو الذى يتصرف بأمانة فى عدد كبير منها وفى ظروف أتيح له فيها أن يكون غير أمين . ولو اتفق لشخص نسمه بضبط النفس أن يثور مرة أو مرتين ابان فترة طويلة من الزمن فهذا لا ينفى عنه سمة ضبط النفس • ولو كنت تغضب من شخص معين فهذه استجابة شرطية انفعالية نوعية مرهونة بموقف معين : أما اذا كنت تغضب فى مواقف كثيرة : من رئيسك ومرؤسك وزوجتك وزملائك وأقاربك •• فى مسائل السياسة والعقيدة والاقتصاد •• فهذه سمة • من هذا نرى أن نفور الفرد من طعام معين ، أو تفضيله ثوبا معينا أو محافظته على المواعيد فى عمله فقط لا تعتبر من سمات شخصيته •

فالسمة هى استعداد أو ميل عام ثابت نسبيا الى نوع معين من السلوك

السمات الأساسية والسطحية :

يبدو للبعض أن يتساءل عن عدد السمات المختلفة التى تتكون منها الشخصية ؟ وهذا سؤال عسير • أكبر الظن أننا لو استنبأنا قواميس اللغة لوجدناها تحتوى على آلاف من أوصاف الشخصية وسماتها . غير أن كثيرا من هذه السمات غالبا ما يعنى أو يكاد يعنى نفس الشىء : أى غالبا ما تكون مترادفة أو متداخلة أو متقاربة : كالقلق والخوف والرهبة والتوجس والجزع والانزعاج واضطراب البال •• وتحاول مدرسة تحليل العوامل التى سبق أن أشرنا الى جهودها فى باب الذكاء : تحاول الكشف عن أقل عدد من السمات الاولية الاساسية التى يتكون منها بناء الشخصية الاساسى •• ان تصرفاتنا اليومية المختلفة تصدر عن سمات سطحية ظاهرة ، وهى سمات متداخلة أو متقاربة أو مترادفة كما ذكرنا ، ألا يمكن رد هذه الكثرة الكثيرة من السمات الى قلة من السمات الاساسية أو الاولية تكون هى المصدر والاساس أو السبب فى السمات السطحية ؟ وتستخدم هذه المدرسة فى بحوثها : كما قدمنا . معاملات الارتباط كمنهج احصائى للاستدلال على مدى تداخل السمات أو استقلالها • فلو كان معامل الارتباط مرتفعا بين اختبار يقيس سمة التفاؤل مثلا وآخر يقيس سمة المرح ، كان هذا دليلا على أن التشابه

بين السمتين كبير ، أو على وجود سمة أساسية غير ظاهرة تجمع بينهما. ولو كان المعامل منخفضا فهذا دليل على أن التشابه بينهما طفيف أو لا يعتد به ، أما ان كان المعامل صفرا فهـذا دليل على أنهما سـمتان مستقلتان لا صلة بين احداهما والاخرى • ولو ظهر أن الارتباط مرتفع بين سمات الخجل وشـدة الحساسية وتجنب الاجتماع بالناس ، قيل ان هـذه السمات تصدر عن مصدر واحد هو سمة أولية أساسية •

ومن السمات الاولية أو العوامل التى كشف عنها بعض أتباع هـذه المدرسة وأكد وجودها : السيطرة أو الخضوع ، الذكورة أو الانوثة ، الاستقرار الانفعالى ، الاندفاعية ، حب الاجتماع بالنـاس ، التأمل الفكرى •• كما وجد « جلفورد » Guilford أن الخجل Shyness سمة أساسية تصدر عنها السمات السطحية الاتية :

١ ـ ميل الفرد الى أن يتوارى فى المناسبات الاجتماعية •
٢ ـ ميله الى تحديد معارفه بقلة يختارها •
٣ ـ ضجره من التعرف على أغلب الناس •
٤ ـ ميله الى أن يظل ساكتا حين يخرج فى جماعة •
٥ ـ عزوفه عن الحديث علانيـة •
٦ ـ تفضيله عدم التزعم فى النشاط الاجتماعى •
٧ ـ استصعابه الحديث مع الغرباء .

غير أن تعارض نتائج البحوث واختلاف بعضها عن بعض اختـلافا كبيرا لا يأذن لنا فى الوقت الحاضر بأن نقرر أننا اقتربنا من الهدف الذى تنشده هذه المدرسة •

السمة متصل بين طرفين Continuum

يميل الانسان الى ألا يرى من الامور الا أطرافها غافلا عما بين الطرفين من درجات ومستويات وسطى : فاما سـواد أو بياض ، واما صـحة أو مرض ، نوم أو يقظة ، شعور أو لا شعور ، ولا شىء بين الطـرفين • غير أن المنحنى الاعتدالى يعلمنا أن الناس لا ينقسمون الى مجموعتين متمايزتين من عمالقة وأقزام،أو عباقرة وأقدام ، أو مسيطرين وخانعين•

بل تتوزع هذه السمات وغيرها بينهم توزيعا متصلا لا ثغرات فيه من طرف الى آخر ، وأن السواد الاعظم منهم وسط بين هذين الطرفين • وخير طريق لتدارك هذا الخطأ هو أن نتصور السمة (البعد) ، كالثقة بالنفس مثلا ، على أنه خط مستقيم متدرج يمتد بين نقطتين أو قطبين ، أحدهما يمثل أكبر قدر من الثقة بالنفس (درجة ١٠٠ مثلا) والاخر يمثل أقل قدر من هذه السمة (درجة صفر) ، فى حين يمثل منتصف الخط الدرجة الوسطى (٥٠) وبذا نستطيع أن نحـــدد لكل شخص نفيس لديه هذه السمة موضعا معينا على هذا الخط ـ هذا ينطبق على أغلب ســمات الشـــخصية .

٣ ـ تنظيم الشخصية

يشترك بعض الناس فى كثير من سمات شخصياتهم ، كالحيوية والثقة بالنفس والبشاشة والتسامح والروح الاجتماعية ، ومع هــذا تتمايز شخصياتهم ويختلف بعضها عن بعض اختلافا كبيرا وذلك لاختلاف بروز هذه السمات وقوتها من شخصية الى أخرى • مثل الشخصيات كمثل وجوه الناس يحتوى كل وجه منها على عينين وأنف وأذنين وفم وشفتين ، لكننا لا نجد وجهين متشابهين كل التشابه •

وقد يتساوى شخصان فى سمتى السيطرة وحب التملك من حيث القوة والبروز ، ومع هذا تختلف شخصية أحدهما عن الاخر • هنا يدل الفحص الدقيق على أن التملك عند الاول وسيلة للسيطرة على النـــاس ، وأن السيطرة لدى الثانى وسيلة للاستحواذ والتملك •

من هذا يتضح أن مجرد حصر سمات الشـــخصية لا يعطى وصـــفا صحيحا للشـــخصية لانه يغفـــل عن ناحية هامة هى تنظيم السمات فى اطارها ، ذلك التنظيم الذى يبين ما بين السمات من علاقات وأثر بعضها فى بعض • الواقع أن هذا التنظيم هو الذى يفرغ على كل شـــخصية طابعها الفذ الفريد الخاص بها والذى يميزها عن غيرها من الشخصيات وعلى هذا فالنظر الى السمات فى ذاتها يجب ألا يعمينا عن النظر الى الشخصية بكليتها من حيث هى وحدة متكاملة من أجزاء متفاعلة بينهـــا علاقات ويجمعها تنظيم معين •• يجب ألا يعمينـــا الشجر عن رؤيـــة الغـــابة .

ولنذكر أن السمات ليست عناصر منعزلة مستقلة يتكون منها بناء الشخصية ، بل هى مظاهر أو جوانب مختلفة للشخصية • فليست الشخصية مجموعة كتب ، بل كتاب واحد له عدة صفات : الطول والحجم والشكل واللون وعدد الفصول ونوع المادة •• وكما نستطيع عن طريق عملية التجريد الذهنى أن نعزل هذه الصفات المختلفة للكتاب ونقيس كل واحدة منها على حدة ، كذلك الحال فى تحليل الشخصية ، فنحن نعزل السمة أو السمات التى نريد دراستها لقياسها • فاذا تم لنا هذا العزل وقياس السمات فرادى عند شخص معين فيجب أن تتلو هذا القياس للجزئيات نظرة كلية تأليفية أى تنظر الى الشخص فى جملته بعد أن نكون قد جسسنا نبضه فى نواخ مختلفة من شخصيته •

٤ — تكامل الشخصية

التكامل بمعناه العام هو انتظام وحدات صغيرة فى وحدة أكبر وأرقى • والوحدة المتكاملة ليست مجموعة من أجزاء مرصوصة ، بل أجزاء متفاعلة بينها علاقات ويجمعها تنظيم معين • ومن أمثلة التكامل فى العالم الفيزيقى : المجموعة الشمسية واللحن الموسيقى ، وفى العالم البيولوجى جسم الكائن الحى ، وفى العالم الاجتماعى الامة المستقرة والجيش، وفى العالم السيكولوجى الشخصية السوية المتزنة •

ولتحقيق تكامل الشخصية شروط بيولوجية ونفسية واجتماعية مختلفة ، منها سلامة الجهازين العصبى والغدى•فان كانا فى حالة سلامة وسواء فأهم عامل لتحقيق التكامل هو خلو الشخصية من **الصراعات** النفسية الموصولة العنيفة ، الشعورية واللاشعورية ، كالصراع بين غرائز الفرد وضميره ، بين نزواته وعاطفة احترامه لنفسه ، أو بين ما يريده الفرد وما يقدر عليه ، أو بين ما تنطوى عليه نفسه من معتقدات وأفكار ومبادىء وقيم وانحيازات وأطماع مختلفة • مثل الشخصية المتكاملة كمثل فريق من لاعبى كرة القدم يكمل بعضهم بعضا ، ويشد بعضهم أزر بعض ، ويتكاتفون جميعا من أجل هدف واحد ، ولئن دب بينهم التناحر والشقاق كان مصيرهم الهزيمة والانهيار • فالتكامل وحدة وتوافق واتزان • انه الوحدة فى التنوع ، والائتلاف فى الاختلاف •• وهذا هو الجمال • وعدم التكامل يعنى الفرقة والانقسام واضطراب

الشخصية • لذا تعرف الشخصية بأنها تنظيم متكامل لجميع ما لدى الفرد من صفات جسمية ومعرفية ووجدانية واجتماعية تميزه عن غيره •

وتكامل الشخصية شرط ضروري للصحة النفسية والتوافق الاجتماعي السليم : فمن تعرض للعوامل التي تخل هذا التكامل اعتلت صحته النفسية وساء توافقه . وبدا ذلك في صورة اضطراب خفيف أو عنيف في الشخصية مما سنعالجه في الفصل الثاني من الباب الاخير .

٥ ــ طرز الشخصية

اهتم الانسان منذ القدم بتصنيف من يعاشرونه من الناس شخصيات مختلفة يرجعها الى طراز معينة • ويقصد بالطراز Type فئة أو صنف من الناس الافراد يشتركون في نفس الصفات العامة وان اختلف بعضهم عن بعض في درجة اتسامهم بهذه الصفات •

الطــرز المزاجيــة :

من أشهر هذه التصانيف التصنيف الرباعي القديم الذي يعزى الى هيوقراط والذي يقسم الناس وفق المزاج الغالب لديهم الى :

١ ــ الطراز الدموي : وصاحبه متفائل مرح نشط ممتلىء الجســم سهل الاستثارة سريع الاســتجابة ، لا يهتم الا باللحظــة الحاضرة ، ولا يأخذ الأمور جداً ، ومن أظهر ما يميزه التقلب في الســلوك ، وهو ما يعرف في اللغة الدارجة « بالهوائي » •

٢ ــ الطراز الصفراوي : قوي الجسم طموح عنيد ، وأهم ما يميزه حدة الطبع وسرعة الغضب •

٣ ــ الطراز السوداوي : متأمل بطيء التفكير لكنه قوي الانفعال ثابت الاستجابة ، يعلق أهمية بالغة على كل ما يتصل به ، يجد صعوبة في التعامل مع الناس ، وأهم ما يميزه الوجوم والانقباض والانطــواء والتشاؤم •

٤ ــ الطراز البلغمي أو المفاوي : بطيء الاستثارة والاستجابة ، خامل بليد ، ضحل الانفعال ، بدين يميل الى الشره •

وقد زعم القدماء أن كل طراز يرجع الى غلبة عنصر أو « مزاج » خاص humour في الجسم : الدم أو الصفراء أو البلغم أو ما أسموه

بالسوداء • ومن الطريف أنهم كانوا يرون أن الشخصية السوية المتزنة تنشأ من توازن هذه الأمزجة الأربعة كما نقول اليوم انها نتيجة توازن بين السمات •

الطرز الجسمية :

هناك اعتقاد شائع بان الناس يمكن تصنيفهم طرزا جسمية ، وأن الطراز الجسمي يحدد شخصية صاحبه على نحو ما . من أمثال هذه التصانيف التى لاقت رواجا فى العصر الحديث تصنيف « كرتشمر » Kretchmer الذى زعم أن هناك ثلاثة طرز جسمية •

١ ـ الطراز المكتنز pyknic وهو القصير السمين ويتميز صاحبه بالمرح والانبساط والصراحة وسرعة التقلب وسهولة عقد الصداقات •

٢ ـ الطراز الواهن asthenic وهو الطويل النحيل ، ويتميز صاحبه بالانطواء والاكتئاب •

٣ـ الطراز الرياضى athletic ويتميز بالنشاط والعدوان •

غير أنه سرعان ما ظهر أن الناس أكثر من أن تصنف الى هذه الطرز وحدها ليس غير ، وأن أصحابها لا يتحتم أن تكون سماتهم كما ذكر كرتشمر • فقد ظهر من احدى الدراسات أن ٥٠٪ من الطراز المكتنز يتسمون بالانبساط وأن ٣٠٪ يتسمون بالانطواء •

الطرز الهرمونية :

يصنف « برمان » Berman الامريكى الشخصيات حسب النشاط الهرمونى السائد لديهم . فهناك الطراز الدرقى وصاحبه متهور سهل الاستثارة ، قلق ، نشط ، يميل الى العدوان • وهناك الطراز الادرنالينى وصاحبه مثابر نشط قوى ، أما الطراز الجنسى فصاحبه خجول يسهل استثارته للضحك والبكاء فى حين أن الطراز النخامى يتميز أفراده بضبط النفس والسيطرة عليها ، أما الطراز التيموسى فصاحبه ذو نزعة لواطية ويتميز بانعدام المسئولية الخلقية •• ولقد أطلق برمان وأتباعه على الغدد الصم اسم « غدد الشخصية » أو « غدد المصير » يشيرون بذلك الى أننا نرث جهازا غديا يطبع شخصياتنا ويوجهها الى الخير أو الشر ، الى الصحة أو المرض • فما طرأ على شخصية « بونابرت » من تغير

أثناء حملته على روسيا وبعدها يرجع الى قصور فى غدته النخامية • ولو قد حدث ما يحول دون ذلك لتغير وجه التاريخ •• ومما يلاحظ فى هذا التصنيف أن أصحابه يغفلون أثر العوامل الاجتماعية والثقافية اغفالا تاما فيما بين الشخصيات من فوارق •

الطــرز النفســية :

يرى « يونج » Jung الطبيب النفسى السويسرى أن الناس يمكن تصنيفهم من حيث أسلوبهم العام فى الحياة واهتماماتهم الغالبة الى منطو ومنبســط .

فالمنطوى **Introvert** يؤثر العزلة والاعتكاف ويجـد صعوبة فى الاختلاط بالناس فيقصر معارفه على عدد قليل منهم ويتحاشى الصلات الاجتماعية ، ويقابل الغرباء فى حذر وتحفظ • وهو خجـول شـديد الحساسية لملاحظات الناس ، يجرح شعوره بسهولة • وهو كثير الشك فى نيات الناس ودوافعهم ، شديد القلق على ما قد يأتى به الغـد من أحداث ومصائب يطير صوابه فى سـاعات الحرج والشـدة •• يهتم بالتفاصيل ويضخم الصغائر • متقلب المزاج دون سبب ظاهر • يستسلم لأحلام اليقظة ويكلم نفسه • كثير الندم والتحسر على ما فات • يسرف فى ملاحظة صحته ومرضه ومظهره الخارجى . لا يعبر عن عواطفه فى صراحة • وهو الى جانب هذا دائم التأمل فى نفسه وتحليلها ، يهتـم بأفكاره ومشاعره أكثر من اهتمامه بالعالم الخارجى • ويفكر طويلا قبل أن يبدأ عملا • فان انهار وأصيب بمرض نفسى كان نصيبه العصـاب الوسـواسى •

أما المنبسط **Extravert** فعلى العكس من ذلك • يقبل على الدنيا فى حيوية وعنف وصراحة ، ويصافح الحياة وجها لوجه ، ويلائم بسرعة بين نفسه والمواقف الطارئة ، ويعقد مع الناس صلات سريعة ، فله أصدقاء أقوياء وأعداء أقوياء لا يحفل بالنقد ، ولا يهتم كثيرا بصحته أو مرضه أو هندامه أو بالتفاصيل والامور الصغيرة•وهو لا يكتم مايجول فى نفسه من انفعال • ويفضل المهن التى تتطلب نشاطا وعملا واشتراكا مع الناس ان انهار وأصيب بمرض نفسى كان نصيبه الهستيريا •

نقــد الطــرز :

هذه التصانيف ؛ وغيرها تشترك جميعها فى بعض العيوب . منها أنها تشعر بوجود حدود فاصلة حاسمة بين الطرز بعضها وبعض . والواقع أن الطراز لا تمثل الا الحالات المتطرفة من الشخصيات . وأن السواد الاعظم من الناس خليط منها على درجات كبيرة متفاوتة . من ذلك أنه لما صيغت اختبارات تقيس الانطواء والانبساط وطبقت على أعداد كبيرة من الناس وجد أنهم لا ينقسمون الى مجموعتين متمايزتين من المنطــوين والمنبسطين ، بل ان أكثرهم وسط بين ذلك وفق المنحنى الاعتدالى •• وعلى هذا فمن الخطأ أن نقول ان الانسان اما منطو أو منبسط ، لأن الانطواء والانبساط لا يمثلان الى الطرفين •• وقد نتجاوز فنقول ان فلانا منطو وهذا يعنى أن مظاهر الانطواء تبدو لديه أكثر مما تبدو لدى متوسط الناس •

ثم ان نظريات الطرز لا تنظر الى الشخصية الا من جانب واحــد أو جوانب محدودة ولا تحفل بما بين الشخصيات من فوارق أخرى هامة • فالمنطوى قد يكون ذكيا أو غبيا ، طموحا أو متخاذلا ، أنانيا أو اثياريا ، مثابرا أو غير مثابر •• وبعبارة أخرى فالطرز تؤكد أوجه الشبه وتغفل عن أوجه الاختلاف بين الناس ، وبذا تعطى صورة مشــوهة للفرد . هل شخصان . طويان هما نفس الشىء ؟

الفصـــل الثانى

الحكم على الشخصية

١ ـ أهدافه وطرقه

للحكم على الشخصية وقياسها أهداف عملية وعلمية مختلفة • فمن الاهداف العملية : التوجيه المهنى والاختيار المهنى وتشخيص أسـباب سوء التوافق لدى المشكلين والجانحين ومضطربى الشخصية وقياس مدى التحسن فى العلاج النفسى •• أما الاهداف العلمية فتدور حول دراسات نظرية للاجابة على أسئلة كالاتية : كيف تتغير شخصية الفرد بتقدمه فى العمر ؟ ما صلة الشخصية بالوضع الاجتماعى الاقتصادى للفرد ؟ هل تختلف التوائم الصنوية فى شخصياتها ؟ ما أثر البيوت المعيبة المحطمة فى شخصيات من ينشئون فيها من الاطفال ؟

الاتجاه التحليلى [1] والاتجاه الاجمالى [2] :

يرى علماء النفس التجريبيون الذين لا يرضون بغير القياس الموضوعى للشخصية ، وعلى رأسهم أتباع مدرسة المثـير والاستجابة ومدرسـة التحليل العاملى أن الشخصية مجموعة من سمات ، وأن السمات يمكن أن تقاس فرادى ، وأن تحليل الشـخصية الى سـمات لا يمس وحـدة الشخصية ، لان المجرب يعزل السمات عن الوحدة المندمجة فيها عن طريق التجريد الذهنى.كما يعزل عالم الفيزيقا الطول والوزن والصلابة وغيرها من خصائص المادة ويقيس كل منها على حدة • فليست السمات الا صورا فتوغرافية تؤخذ للفرد بأجمعه من زوايا مختلفة • لذا يستخدم هؤلاء الاختبارات والاستخبارات وموازين التقدير للحكم على الشخصية وقياسـها •

ويرى أتباع مدرسة التحليل النفسى ومدرسة الجشطلت والاطبـاء النفسيون أن الطريقة الحقة للحكم على الشخصية هى دراسة الانسان

---

(1) Analytic (2) Holistic

بكليته لا دراسة سمات مجردة منعزلة . فالشخصية وحدة ، والوحدة أكثر من مجموع أجزائها ، والسمات الجزئية لا يمكن أن تفهم الا على ضوء البناء الكلي للشخصية . لذا يتبع هؤلاء طريقة « المقابلة الشخصية » ، وطريقة التداعي الحر وتأويل الاحلام ، وطريقة ملاحظة السلوك الكلي للفرد في مواقف وظروف مختلفة ، وطريقة الاختبارات الاسقاطية وغيرها من الطرق التي توسم بأنها طرق اجمالية ذاتية . ثم يبنون حكمهم على ما يخرجون به من انطباع عام لا على النتائج العددية والكمية لاختبارات تقيس السمات . ذلك أن هذه الاختبارات في رأيهم ، تمزق « الشخصية الكلية » وتذهب بوحدتها . واليك تفصيلا لأهم طرق الحكم على الشخصية وقياسها .

٢ ـ المقابلة الشخصية

المقابلة الشخصية أو الاستبار Interview هي حديث أو مجموعة أسئلة شفوية يوجهها شخص أو عدة أشخاص الى آخر بقصد الحصول على معلومات معينة عن شخصيته وسلوكه أو للتأثير فيه . والمقابلة طريقة معروفة لاختبار المرشحين للمهن والاعمال ، كما أنه طريقة من طرق التشخيص والعلاج النفسي .

والمقابلة وسيلة ضرورية للتأليف بين المعلومات التي تجمع عن الفرد من مصادر مختلفة : من التقارير التي تكتب عنه ، والاختبارات التي تجرى عليه ، وطلب الاستخدام الذي يقدمه ، وما يقوله الاخرون عنه . كما أنها ضرورية كأداة للحكم على الفرد في جملته بعد أن نكون قد قسنا بعض قدراته وسماته . هذا الى أنها تعيننا على التحقق من صحة المعلومات والاجابات التي نشك فيها والتي تكون قد حصلنا عليها من اجراء امتحان تحريري على الفرد أو تقديم استفتاء اليه . والمقابلة أداة ضرورية وهامة في « دراسة الحالة » ـ أنظر المنهج الكلينيكي ص ٥٤ .

ومع ما للمقابلة من فوائد فلها عيوب تحد من قيمتها كوسيلة للحكم على الشخصية ، منها تأثر الحكام في تقديراتهم بالانطباع العام الذي يأخذونه عن المحكوم عليه . فان كان انطباعا سارا مرضيا أو سمة بارزة

فى ناحية مالوا الى تقديره تقديرا جيدا فى جميع السمات التى يريدون تقديرها لديه . وان كان انطباعا سيئا أو منافرا مالوا الى الغض من شأنه فى جميع هذه السمات • وتعرف هذه النزعة « بالاثر الهالى » halo effect • وقد وجد عن طريق الدراسات التجريبية أن الشخص الذى يقوم بدور الحكم ان كان يحمل فى أعماق نفسه سمات مكبوتة أى لا يفطن الى وجودها كالتعصب أو العدوان فانه يبالغ فى تقدير هذه السمات لدى غيره • أما ان فطن الى وجودها كان أقرب الى العدل فى حكمه على الناس • فاستبصار الحكم فى عيوبه وانحيازاته شرط ضرورى لصواب أحكامه •

من أجل هذا كان لابد من تهذيب المقابلة وتدارك ما بها من عيـــوب وذلك عن طريق :

١ ــ تقنينها أى تحديد وتوحيد ظروف اجرائها ، ونوع الاســـئلة التى تلقى فيها ، وشكل هذه الاسئلة ، وطريقة القائها حتى يفهمها الجميع على حد سواء ، هذا الى تحديد معنى السمات التى يراد الحكم عليها بحيث تكون واضحة مفصلة الى عناصر مختلفة وليست مبهمة غامضة يفهمها كل حكم فهما خاصا كالسمات الاتية : رباطة الجأش : ســعة الحيلة ، سرعة البديهة . ضيق الصدر • من أجل هذا كثيرا ما تطبـــع أسئلة المقابلة حتى يراعيها الحكم ولا يسرف فى الحيود عنها •

٢ ــ تدريب الحكام باشراف اخصائيين حتى يتسنى للحكم أن يقيم بينه وبين من يحكم عليه علاقة ودية فلا يلبث أن يكسب ثقته وأن يظهر على مواطن الحرج وأسباب التكلف أو التوتر عنده ، وحتى يستطيع التمييز بين الاستجابات اللاصقة بشخصية المفحوص وبين الاستجابات الطارئة المؤقتة التى ترجـــع الى موقف المقابلة وأن يبنى حكمـــه على الاستجابات الثابتة وحدها . وقد وجد أن التدريب العملى ذو قيمـــة ملحوظة فى زيادة استبصار الحكم وابتعـــاده عن الاحكام الســـطحية السريعـــة •

٣ ــ ومن وسائل تهذيب المقابلة تعدد الحكام الذين يشتركون •• فالحكم الواحد عرضة للتحيز : لكن التحيز لدى عدد من الحكام يغلب ألا يكون فى اتجاه واحد بل فى اتجاهات مختلفة يرجح أن يعادل بعضها

بعضا • ومن المفيد أن يناقش الحكام تقديراتهم وأن يحاولوا التوفيق بينها فذلك أفضل من قيام كل منهم بتقديره مستقلا عن الاخر • ومن بعض الدراسات التجريبية أن أثر العوامل الذاتية فى المقابلة يقل حين يتفق الحكام على أهداف المقابلة وما يمكن استخلاصه منها والنواحى الهامة وغير الهامة فيها •

٣ ـ التداعى الحر وتأويل الاحلام

التداعى الحر منهج ابتكره « فرويد » لجوب الحياة النفسية اللاشعورية وارتيادها والكشف عما تنطوى عليه من عوامل وعمليات ودوافع وذكريات دفينة • وهو الطريقة الرئيسية التى يستخدمها المحللون النفسيون لجمع معلومات عن شخصية المريض ولعلاجه أيضا . ولقد ثبت أنها تكشف عن نواح خافية من الشخصية ذات دلالة وصلة وثيقة بما يعانيه المريض من أعراض • ففى التداعى الحر يسترخى المريض على متكأ ، ثم يشجعه المحلل على أن يطلق العنان لخواطره وأفكاره فيذكر كل ما يرد على ذهنه منها دون أن يهتم بمعناها أو تماسكها أو ما قد تنطوى عليه من دلالات تافهة أو غريبة أو مخجلة ، فلا يحاول ضبط نفسه عن ذكرها بل يستسلم لها استسلاما • هذا والمحلل يقظ لما يبدو على وجه المريض من انفعال أو لما يأتيه من حركات عصبية أو لما يتورط فيه من زلات لسان أو لما يعتريه من تلعثم أو تردد أو توقف أو تحرج أو تأخر فى تسلسل التداعى ، أو لما قد يدلى به من تعليق أو اعتراض على عملية التداعى ، بل يتخذ المحلل من هذا كله دلائل صوتها أعلى من صوت المريض نفسه • وقد يتدخل المحلل أحيانا ليشجع أو يوجه أو يستفسر أو يطلب من المريض أن يزيد من كلامه عن ناحية خاصة يرى المحلل فيها موطنا من مواطن الحرج ، اذ ربما كانت لها صلة بشىء يكتمه المريض فى قرارة نفسه •

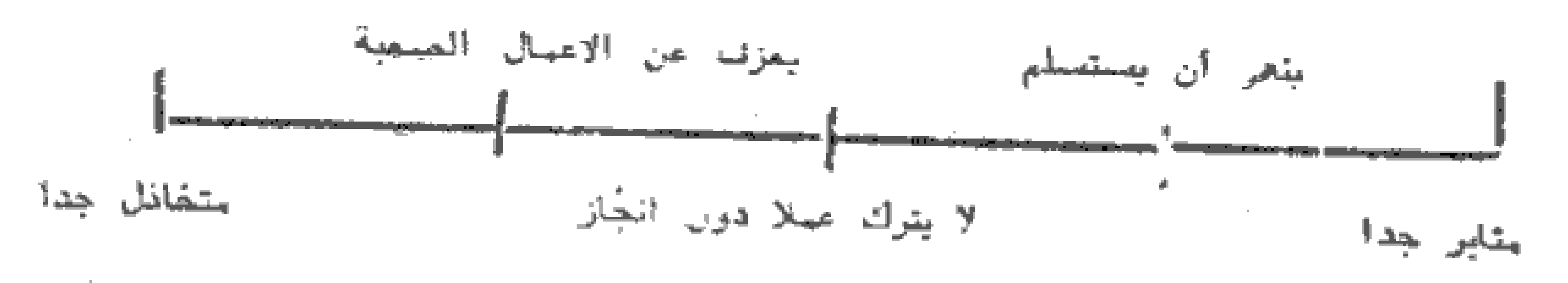
وتكون نقطة البدء فى التداعى اما بعض الأعراض التى يعانيها المريض ، أو حلم رآه فى نومه ، أو فلتة لسان تورط فيها ، أو ملاحظة أدلى بها ، أو أى مظهر آخر لحياته اللاشعورية •• ويستعين المحللون بالتداعى الحر للنفاذ الى باطن الأحلام وتأويلها • فالأحلام ، كما يقول فرويد ، هى الطريق الأمثل الى اللاشعور .

ومما يذكر أن المريض تعتريه أثناء جلسات التحليل النفسي انفجارات انفعالية فيبكى أو يصيح أو يغضب أو يشمئز أو يسب ويلعن — وذلك حين تتكشف له النواحى المكبوتة من شخصيته ، تلك التى كان يخفيها وينكرها ويستنكرها ولا يبوح بها للناس ولنفسه • وغالبا ما يكون لهذه الثورات أثر علاجى تنفيسى ذو قيمة •

٤ — موازين التقــــدير

موازين التقـــدير rating scales هى وســـائل لتقدير السمات الاجتماعية والمزاجية والخلقية ووصفها كميا وتقدير مدى وجودها لدى الفرد[1] • فبدل أن يقال عن شخص معين انه غير ثابت انفعاليا أو انه ضعيف الثقة بالنفس أو أنه غير مثابر تحاول موازين التقدير أن تبين مقدار ما لديه من هـــذه السمات بنسبة مئوية أو رسم بيانى • فأكثر الناس مرحا يعطى ١٠٠ درجة ، وأشدهم اكتئابا تكون درجته صفرا ، والمتوسط تكون درجته ٥٠ • هذه الموازين يستطيع أن يطبقهـــا الآباء والمدرسون على أطفالهم وطلابهم ، كما يستطيع أن يطبقها الكبار على أنفسهم فتسمى فى هذه الحال « الموازين الذاتية » .

والشكل ٣٣ ميزان تقدير بيانى ذاتى لقياس سمة المثابرة • فيه يطلب الى المفحوص أن يضع علامة على نقطـــة فى الخط يرى أنهـــا تتفق مع ما لديه من مثابرة • وليس من الضرورى أن تكون العلامة فوق احدى العبارات المكتوبة ، بل عند أية نقطة تطابق تقديره • وقد وجد بالتجربة أنه يجب ألا تقل الدرجـــات على ميزان التقـــدير عن خمس درجـــات للحصول على نتائج ثابتة •



شكل ٣٣

(١) تستخدم هذه الموازين ايضا لتقدير القدرات العقلية والمهـــارات والاتجاهات والميول والاستعداد المهنى .

ومن فوائد هـذه الموازين أنها تحمل المقدر على أن يكون حريصا فى تقديره . وعلى أن يعقد مقارنة بين المفحوصين بعضهم وبعض فيتخذ الشخص المتوسط فيهم معيارا لسائرهم بدلا من أن يتخذ نفسه هو معيار التقدير . ولتجنب « الأثر الهالى » تقدر كل سمة من السمات لدى المفحوصين واحدا بعد الآخر وذلك بدلا من تقدير السمات جميعها على التعاقب لدى كل مفحوص على حدة .

وتزداد درجة الاعتماد على هذه الموازين بازدياد عدد المقدرين واهتمامهم وكفايتهم . كما تزداد أيضا كلما كانت السمة واضحة محددة معرفة تعريفا اجرائيا (انظر ص ٢٦٢) . فسمة المثابرة مثلا هى قدرة الفرد على الاستمرار والصمود فى عمل ما بالرغم من التعب أو الملل أو الألم أو الاغراء .

أما الموازين الذاتية فقد ثبت أنها لا يمكن الاعتماد عليها ان لم تقارن بتقديرات الغير .

٥ ـ الاستخبار

الاستخبار أو الاستبيان أو الاستفتاء Questionaire قائمة من الأسئلة تدور حول موضوع أو موضوعات نفسية أو اجتماعية أو تربوية تعطى أو ترسل الى جماعة من الأفراد ليجيب عنها كل واحد منهم كتابة « بنعم » أو « لا » أو باجابة موجزة . وقد يجرى الاستخبار عن طريق المقابلة الشخصية . وأساس الاستخبار غالبا ما يقوم به الفرد من استبطان وتحليل ذاتى لأحواله النفسية الشعورية . فهو يسأل الفرد عما يعرفه أو عما يشعر به أوعما فعل أو عما يفعل .. والاستخبار أداة مفيدة فى التشخيص متى كانت أسئلته واضحة ومفصلة تفصيلا كافيا، ومتى توخى الفرد الصدق والأمانة فى الاجابة عليها . ومن ميزاته مقارنة الأفراد بعضهم ببعض على أساس التقدير الكمى للسمات المقيسة .

والاستخبار أنواع : ١ ـ فمنها ما يحاول الكشف عن الآراء والمعتقدات والاتجاهات النفسية حيال الدين أو السياسة وغيرها .. ، ٢ ـ ومنها ما يحاول الكشف عن الميول المهنية[1] والثقافية وغيرها ،

---

(١) انظر « صفحة الميول المهنية » Strong ص ٣٥٤

٣ ـ أو عن سمات اجتماعية وخلقية معينة كالانطواء أو الاتزان الانفعالى أو التطرف فى الحكم على الأمور أو الامانة ؛ ٤ ـ ومنها ما يستهدف الكشف عن السمات الشـاذة فى الشخصية، أو يساعد على تشخيص الشـواذ ٠

وقد كان أول استخبار استخدم هو استخبار «ودورث» Woodworth للكشف عن الاستعدادات العصابية ؛ وكان الغرض منه استبعاد المرشحين للاصابة بأمراض نفسية من المجندين بالجيش الأمريكى ابان الحرب العالمية الأولى ٠ فقد جمع هذا السيكولوجى طائفة من أعراض الأمراض النفسية وجعلها فى صورة أسئلة يجيب عليها الشخص نفسه أو أحد من يعرفونه جيدا ٠٠ غير أنه لم يعد يستخدم الآن ٠٠

استخبار « ثرستون » Thurstone لتقدير درجة توافق الشخصية ويحتوى على أسئلة تتصل بالسمات الانفعالية وذكريات الطفولة وموقف الشخص من والديه ٠٠ ومن الاسئلة التى وردت فيه :

ـ هل كنت تحب اللعب بمفردك وأنت طفل ؟
ـ هل يجرح الناس شعورك بسهولة ؟
ـ هل تشعر أن الحياة عبء لا يحتمل ؟
ـ هل تخاف السقوط ان كنت تطل من مكان مرتفع ؟
ـ هل يصعب عليك التخلص من البائع ؟
ـ هل كانت علاقتك بوالديك طيبة دائما ؟
ـ هل يصعب عليك أن تضحك ؟

وقد كانت الاستخبارات تصـاغ فى أول الأمر لقياس سمات معينة مثل الانطواء والانبساط ، السيطرة والخضـوع ، الذكورة الخلقية أو الأنوثة ، ثم صيغت استخبارات لقياس عدة سمات مثل استخبار « برنروتير » Bernreuter الذى يحتوى على ١٢٥ سؤالا ويستهدف قياس أربع سمات مختلفة : ١ ـ الاستعداد العصابى[1] ، ٢ ـ الانطواء

---

(١) neuroticiism الاستعداد العصابى أو العصابية هى عدم استقرار انفعالى موروث يؤدى بصاحبه الى العصاب اى المرض النفسى ان تعرض لضغط شديد ٠

والانبساط . ٣ ـ السيطرة والخضوع ؛ ٤ ـ الاكتفاء الذاتى والاتكال على الغير فى تدبير الأمور وتكوين الآراء واتخاذ القرارات . ومن الاسئلة التى وردت فيه :

ـ هل تتغير ميولك بسهولة ؟
ـ هل يتشتت انتباهك كثيرا وبدرجة تجعلك تفقد الصلة بما تعمله ؟
ـ هل تعجز عن التصميم حتى تفلت منك الفرصة ؟
ـ هل تشعر بالوحدة حين تكون مع الناس ؟
ـ هل تحب أن تتحمل المسئولية وحدك ؟

ومن أشهر الاستخبارات استخبار « جلفورد » Guilford لعوامل الشخصية وهو يقيس خمسة عوامل (سمات) كل منها ذات قطبين :

١ ـ الانطواء والانبساط الاجتماعى : أى الانعزال عن الناس وعكسه الميل الى الاجتماع بهم .

٢ ـ الانطواء والانبساط الفكرى : أى الميل الى التأمل والاستبطان وعكسه انبساط التفكير الى العالم الخارجى .

٣ ـ الاكتئاب : ويبدو فى الميل الى التشاؤم والشعور بالذنب والتعاسة والدونية وعكسه الانشراح والتفاؤل .

٤ ـ التقلب الوجدانى الدورى : ويبدو فى ارتفاع الحالة المزاجية وهبوطها دون سبب ظاهر ، وعكسه الثبات المزاجى .

٥ ـ التهوينية : rathymia هو الميل عن حمل الهموم والميل الى أخذ الأمور هونا ، وعكسه الميل الى التشدد وعدم التخفف من الأعباء .

ومن أوسع الاستخبارات التى يستخدمها علماء النفس الكلينيكى لتشخيص اضطرابات الشخصية ، استخبار جامعة مينسوتا المتعدد الأوجه MMPI [1] الذى ظهر أثناء الحرب العالمية الثانية ليؤدى نفس المهمة التى أداها استخبار « ودورث » فى الحرب العالمية الأولى ، غير أن هدفه كان استبعاد المرشحين للعصاب (المرض النفسى) والذهان

(1) Minnesota Multiphasic Personality Inventory

(المرض العقلى) جميعا • ويحتوى الاستخبار على ٥٥٠ عبارة تتصل بموضوعات مختلفة من الموضوعات التى تتعلق بالشخصية مثل الصحة العامة ، والتوافق الزوجى ، والاتجاهات الشخصية والاجتماعية ، والميول الذكرية والأنثوية ، والأفكار الوسواسية ، والافعال القهرية ، والأوهام والهلاوس والهذاءات •• أما أهم المظاهر الكلينيكية التى يقيسها فهى ١ ـ الهجاس أو توهم المرض الجسمى ، ٢ ـ الاكتئاب• ٣ ـ الستيريا ، ٤ ـ الانحراف السيكوباتى ويقصد به عدم الاستقرار الانفعالى الملحوظ ، ٥ ـ الميول الذكرية والانثوية ، ٦ ـ الذهان الهذائى وخاصة هذاء العظمة والاضطهاد ، ٧ ـ السيكاستينيا (القلق والأفكار المتسلطة) ، ٨ ـ الفصام الذى يتجلى فى صورة هذاءات وانطواء شديد واستسلام مسرف لأحلام اليقظة ، ٩ ـ الهوس الخفيف •

وصوغ الاستخبار ليس بالأمر الهين • اذ يجب أن يعيش المؤلف فى جو الاستخبار ويناقشه مع أشخاص كثيرين ذوى آراء مختلفة قبل أن يصوغ أسئلته ، كما يجب ألا يستأثر بصوغ الاسئلة بل يشرك معه آخرون ممن يحيطون بالموضوع • وفضلا عن هذا يجب أن يختبر الاستخبار بتجربته على مجموعة صغيرة من الأفراد لمعرفة ما اذا كانت أسئلته مناسبة أو غير مناسبة ، واضحة أو مبهمة ، محرجة أو غير محرجة•

وللاستخبارات على اختلافها عيوب منها عجز المفحوص عن وصف أحواله النفسية بدقة ، أو تحرجه من الافصاح عن دوافعه الحقيقية ، ومنها سوء فهمه الاسئلة،والتخمين والتزيف أو الاجابة باهمال••الى غير تلك من العيوب التى يجب التحوط لها •• والتى يرجع فيها المستزيد الى كتب القياس السيكولوجى •

٦ ـ اختبارات الشخصية

يختلف الاختبار عن الاستخبار فى أن الأول يكلف المفحوص عادة الاجابة على أسئلة أو أداء عمل معين ثم تقدر النتيجة بمقدار ما أنجزه ، أو بدرجة صعوبته ، أو بما استغرق من وقت لأدائه • وقد يتألف الاختبار من أسئلة شبيهة بأسئلة الاستخبار فلا يكون هناك فارق بينهما• ومع هذا فثمة فوارق أساسية بينهما • ففى الاستخبار لا يكون هناك اتصال شخصى بين الفاحص والمفحوص ، ومن ثم يزداد احتمال سوء

فهم المفحوص لأسئلة الاستخبار • هذا الى أن المفحوص فى الاستخبار يستطيع أن يلجأ الى التزييف فى الاجابة بدرجة أكبر منها فى الاختبار • واختبارات الشخصية اما « موقفية » أو « اسقاطية » •

الاختبـارات الموقفيـة Situation Tests

ليس من العسير اختبار معلومات شخص عن قواعد السلوك الحسن أو الكياسة أو الأمانة أو التعاون • لكن المعرفة شيء والسلوك الفعلي شيء آخر • والاختبارات الموقفية ترمى الى تهيئة مواقف وظروف فعليــة وأعمال يؤديها المفحوص فتبرز بالفعل ما لديه من سمات يراد قياسها ، دون أن نطلعــه على الغرض من الاختبار بطبيعــة الحال • من هــذه الاختبارات اختبار « هارتشورن » و « ماى » لقياس سمة التعــاون لدى الأطفال • ويتلخص فى أن يقدم المعلم لكل تلميذ من تلاميذه هدية مكونة من أقلام ملونة ومساطر ومماح ودفاتر وغيرها ، ولكل منهم أن يتصرف فى هذه الأشياء كيف يشاء فقد أصبحت ملكا له •• ثم يتقدم اليهم المعلم بعد ذلك باقتراح من مدير المدرسة فحواه أن كثيرا من تلاميذ مدرسة أخرى بهم حاجة الى هذه الأشياء المهداة • فمن أراد أن يمنحهم شيئا من عنده فليضعه فى مظروف يكتب عليه اسمه ثم يدعه عند معاون المدرسة ، ومن لم يرد فلا لوم عليه • ثم تسجل نتائج الاختبار بطريقة مقننة ، وتقدر درجاته فى مقياس التعاون • ومما يدل على جدوى هذه الاختبارات وميزتهــا ما وجده هذان الباحثــان من أن الارتبــاط بين المعلومات الاخلاقية والذكاء حوالى ٧٠ر• لكن الارتباط بين المعلومات الاخلاقية ونتائج الاختبارات الاخلاقية الموقفية حوالى ٢٥ر• فقط •

وهناك اختبارات موقفيــة مماثلة لقياس سمات الأمانة والعــدوان والمثابرة والقابلية للايحاء والتهور •• وقد زاد الاهتمام فى العهد الأخير باستخدام هذه الاختبارات فى اختيار الجنود وضباط الجيش وغيرهم ممن يقومون بأعمال المخابرات والأعمــال السرية •• من ذلك أن يكلف المرشحون من الجنود والضباط وهم فى كامل عدتهم الحربية نقل معدات أو عتاد أو قوات الى جهة نائية تحف بها العقبات والمخاطر وتقتضى عبور أنهار أو تسلق جبال أو السير فى أرض ملغومة وذلك بأقصى سرعة مع المحافظة على ما ينقلونه من عتاد أو رجال • وقد يكون هــذا التكليف متعذرا أو مستحيلا ، لكن المهم هو ملاحظة الطريقة التى يتصرف بهــا الرجال حيال المشكلة وليس حلها •• هل ينم سلوكهم عن الذكاء والمرونة

أم العناد والغباء ، وهل يبدو من تصرفاتهم التعاون والقدرة على القيادة أو المبادأة •

ومما يذكر أن كثيرا من المؤسسات والوزارات تسير على نهج هذه الاختبارات في اختيار الرؤساء والمديرين فيها • من ذلك ما تفعله وزارة التربية حين تضع المرشح لادارة المدرسة في مركز مدير المدرسة بالفعل مدة من الزمن يتضح في أثنائها ما اذا كان يصلح أو لا يصلح لهذه الوظيفة •

الاختبارات الاسقاطية Projective Tests

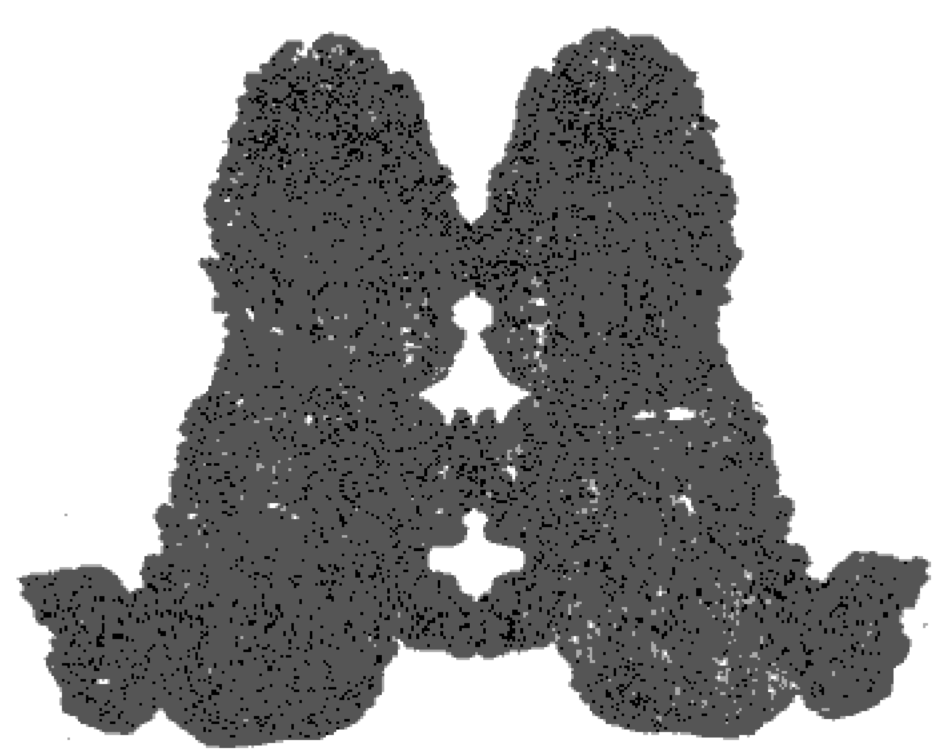
أشرنا في فصل الادراك الحسي الى أن الموقف الخارجي أن كان غامضا مبهما غير واضح فانه يفسح المجال لشتى التأويلات الذاتية • فالصورة المبهمة أو الشكل والكلام الغامض والسلوك غير الواضح •• يؤوله كل واحد منا على حسب أحواله النفسية ، المؤقتة أو الدائمة ، الشعورية واللاشعورية•فهذه السحابة التي تنساب في السماء قد يراها شخص صورة تمساح،ويراها آخر صورة جمجمة،وثالث صورة معركة أو مسجد •• وهذه الاشارة المبهمة التي تصدر من رئيس الى مرءوسيه قد تؤول على أنها اشارة استخفاف أو استعلاء أو تحد أو ازدراء •• كأن الفرد يسقط على المدركات في عملية التأويل ما لديه من رغبات ومخاوف وتوقعات شعورية ولا شعورية •

على هذه الخاصة الادراكية قامت الاختبارات الاسقاطية • فهي اختبارات مقننة تتكون من مواد مبهمة غامضة ، لفظية وغير لفظية ، سمعية وبصرية ، تعرض على الشخص الذي يراد فحصه ، ويطلب اليه تأويلها وفق مايدركه فيها ، وذلك بأقل قدر من التعليمات •• من أمثال هذه المواد بقع غير منتظمة من الحبر ، أو صور مبهمة ، أو أصوات خافتة لا تكاد تسمع ، أو جمل ناقصة نطلب اليه اكمالها •

ولا تستخدم هذه الاختبارات لقياس سمة معينة أو عدة سمات من الشخصية ، بل للحكم على الشخصية في جملتها بطريقة غير مباشرة • ويقول من يطبقونها انها وسيلة ذات قيمة في الكشف عن الجوانب الخافية اللاشعورية من الشخصية • واليك أمثلة لهذه الاختبارات •

اختبار رورشاخ Rorschach

من الاختبارات الاسقاطية التى ذاع استعمالها حديثا خاصة فى عيادات الطب النفسى اختبار بقع الحبر للعالم « رورشاخ » ، ويتكون من عشر بقع من الحبر منها خمس ملونة وخمس غير ملونة (أنظر



(شكل ٣٤)
بقعة من اختبار رور شاخ

شكل ٣٤) • تعرض الواحدة بعد الاخرى على من يراد فحصه ويطلب اليه أن يذكر ما يراه فيها ، وأن يعلق عليها تعليقا حرا فيصف ماتذكره به وما يتوارد على ذهنه من خواطر بصددها • وله أن يديرها فى أى أتجاه يشاء •

— أيرى فيها صورة أناس أو حيوانات أو نباتات أو مناظر طبيعية ؟
— أيرى البقعة فى جملتها أم يرى ما بها من تفاصيل ؟
— أيتأثر بشكل البقعة أم بلونها ؟
— أيرى الناس والأشياء فى حالة حركة أم سكون ؟ ••

ثم تسجل أجوبته حرفيا وتدرس من حيث محتواها ونوعها ودرجتها من الاغراب ، ويقال ان رؤية البقعة فى جملتها لا فى تفاصيلها تشير الى ان الشخص يتسم بالقدرة على التأليف والتجريد ، وأن رؤية التفاصيل تشير الى تفضيله الاشياء الحسية العيانية ، وأن التأثر بالألوان يدل على الاندفاع ، كما أن رؤية الناس فى حالة حركة تشير الى الانطواء ، على حين أن رؤية أشياء محددة حاسمة التقاسيم تشير الى ضبط النفس • فمن تطبيقه يستطيع المختبر أن يخرج بالنتيجة الاتية مثلا « هذا الشخص هادىء فى ظاهره لكنه يغلى فى باطنه ، وأنه يعانى من صراعات نفسية لكنه يضبط نفسه ، وأن انتاجه لا يعلو الى مستوى قدراته » •

لقد استخدم هذا الاختبار فى التحليل النفسى ، وفى دراسة الاطفال الاسوياء والمشكلين ، ودراسة طرز الشخصية ، وفى التوجيه المهنى ، وفى التمييز بين الاسوياء والمصابين بأمراض عقلية ، وبين مختلف أنواع هذه الامراض • بل يقول المشتغلون به أنه يعطى فكرة عن المستوى العقلى للشخص ونوع ذكائه بالاضافة الى ما يكشف عنه من نواح وجدانية بعيدة الغور • وقد حاول رورشاخ وأتباعه عمل تقنين لهذا الاختبار حتى يكون أداة نافعة للتشخيص •

اختبار تفهم الموضوع أو التات [1] TAT

يتكون من ٢٠ صورة غامضة لكن ليست فى غموض بقع الحبر ، بعضها للذكور وبعضها للاناث وبعضها للاطفال • وهى صور تمثل مواقف مثيرة (أنظر شكل ٣٥) تحتوى كل منها على شخص يمكن أن يتقمصه المفحوص أى على شخص من جنسه وحبذا لو كان من نفس سنه • ثم يطلب اليه أن يروى قصة توحى بها الصورة وتتحدث عن أحوال من فيها من الاشخاص • وقد لوحظ أن المفحوص فى وصفه



شكل ٣٥

وتأويله غالبا ما يتكلم عن حياته هو وعن رغباته ومتاعبه دون أن يفطن الى ذلك • وهو يفعل هذا لأن التقمص يحمله على اسقاط مشاعره والتعبير عنها فى روايته • وقد يكرر فى رواياته هذه أحاديث عن الانتحار أو الموت أو الحب أو الشقاء مما يلقى الضوء على ما يعانيه •

(1) Thematic apperception test

اختبار تكميل الجمــل :

من الاختبارات الاسقاطية أيضا • ويتكون من بضع جمل ناقصـــة يطلب من المفحوص أن يكمل كل واحدة منها بأسرع ما يستطيع ، دون توقف أو تفكير بل بأول ما يطرأ على ذهنه :

- الطريقة التى كانت والدتى تعاملنى بها كانت تجعلنى أشعر ••••
- أشعر بالسعادة حين •••••
- أصدقائى لا يعرفون أنى أخاف من •••••
- الاغنياء يستطيعون أن يشتروا ••••
- أحب •••••
- أكره ••••
- أريد أن أعرف ••••
- أشعر أن أبى ••••
- لو كان أبى ••••
- وددت لو كان أبى ••••
- المرأة الكاملة ••••
- أعتقد انى قادر على ••••

ويلاحظ أن الاسئلة ليست مصوغة كيفما اتفق بل تغمز أوتارا حساسة معينة ، ومناطق معينة للصراعات اللاشعورية •

اختبار الاصوات الخافتة :

يطلب الى المفحوص الاصغاء الى صوت انسانى خافت مسجل على شريط هو عبارة عن حروف متحركة لا تكاد تسمع ، ثم يسأل عما سمعه • فقد يجيب بأن الصوت يقول « كن حذرا ، كن حذرا » أو « لماذا فعلت ما فعلته ؟ » أو « يجب أن تعمل ما تركته » ، أى أنه يؤول ما يسمعه فى ضوء حالاته النفسية : ما يتخوفه أو ما يتوقعه أو ما يتمناه •

اختبار تداعى المعانى :

هو اختبار يسهل الكشف عن العقد النفسية وعن الرغبات أو المخاوف المكبوتة • وهــو ينسب الى العــالم السويسرى يونج Jung يتلخص الاختبار فى تلاوة قائمة من الكلمات كلمة — كلمة — مائة كلمة فى العادة — على الشخص الذى يراد فحصه ويطلب اليه أن يرد على كل كلمة يسمعها

بأسرع ما يمكن وبأول كلمة تطرأ على ذهنه • أما هذه الكلمات فتتضمن كلمات شتى مختلفة من هنا وهناك وقد دس بينها كثير من الكلمات التى يحتمل أن تغمز الاوتار الانفعالية للشخص ، والتى تسمى « الكلمات الحرجة » • والنظرية التى يقوم عليها الاختبار هى أن الكلمات التى تمس عقد الشخص وانفعالاته المنسية أو المكبوتة من شأنها أن تثير فيه هذه الانفعالات : القلق أو الخجل أو الخوف أو الارتباك أو الضحك• وهناك علامات مميزة يمكن اعتبارها دليلا على اضطرابه الانفعالى منها : طول زمن الرجع وهو الزمن الذى يمضى بين سماعه الكلمة والرد عليها ، ومنها تكرار الكلمة التى يسمعها ، وتكرار جواب سابق ، وغرابة الجواب أو سخفه ، وذكر جملة بدل كلمة ، والخطأ فى سماع الكلمة التى تتلى عليه ، والعجز التام عن الاجابة ، والرغبة فى تغيير الجواب بعد ذكره ، والضحك ، وتحريك الاصابع •• وتسمى هذه العلامات « كاشـــفات العقد » • فاذا فرضنا أن متهما بجريمة قتل مثلا يصر على انكاره ويؤكد أنه لا يعرف القتيل ولم يذهب الى منزله قط ولا يعرف شيئا عن مكان الحادث وظروفه ، فالمتبع أن يجرى عليه هذا الاختبار بعد أن تختار نصف كلماته تقريبا مما يدور حول وقائع الجريمة وظروفها وملابساتها والادوات التى استخدمت فيها ، والدوافع التى أدت الى ارتكابها ، والاشخاص الذين يحتمل أن يكونوا قد أسهموا فيها الى غـــير ذلك • ثم ترصد الاجوبة ، وطول زمن الرجع لكل كلمة ، وطبيعة الجواب •• ومن المفيد تكرار الاختبار مرة ثانية وثالثة بنفس القائمة ومراعاة ما يطرأ على الاجوبة وأزمنة الرجع من تغييرات مع ملاحظة ما يبدو على المتهم من تردد أو حرج أو انفعال أو توقف عن الرد • على هذا النحو تقوى بعض الشبهات أو تضعف بعض القرائن وقد يلقى الضوء على كثير من خفايا الجريمة •

واليك مثالا لشطر من اختبار أجرى على شخص عزم على الانتحار غرقا فى أثر نوبة من الهبوط والاكتئاب •

الكلمة المنبهة	الجواب	زمن الرجع
١ — رأس	شعر	١ر٤ ثانية
٢ — أخضر	زرع	١ر٦ »
٣ — مـاء	عميق	٥ »
٤ — عصـا	سكين	١ر٦ »
٥ — طويل	مائدة	١ر٢ »
٦ — سـفينة	يغرق	٣ر٤ »
٧ — يسأل	يجيب	١ر٦ »
٨ — صوف	يغزل	١ر٦ »
٩ — بحيرة	ماء	٤ »
١٠ — مريض	سليم	١ر٨ »
١١ — حبـر	أسود	١ر٢ »
١٢ — يعوم	يستطيع العوم	٣ر٨ »

مما يلاحظ طول زمن الرجع فى الاجوبة ٣ ، ٦ ، ٩ ، ١٢ كما أن الجواب رقم ١٢ يستلفت النظر بوجه خاص .

وللاختبارات الاسقاطية عدة مزايا : فهى طرق غير مباشرة تحول دون تحرج المفحوص أو خوفه من التصريح برغباته ومشاعره ومخاوفه مما لا تظفر به المقابلة الشخصية أو الاستخبارات العادية ، وأنها تكشف عن الجوانب اللاشعورية من شخصيته ، وأن احتمال التزييف فيها أقل بكثير منه فى الطرق المباشرة ، هذا الى أنها تثير من اهتمام المفحوص ما لا تثيره الطرق الاخرى .

هذه الاختبارات يستخدمها كثير من المؤسسات الصناعية فى الخارج لاختيار المرشحين للمناصب التنفيذية العليا على أساس أنها تقيس قدرة الفرد على تحمـل ضغط العمـل وأعبائه ومتاعبه . وكثير من الخبراء النفسيين فى محاكم الاحداث وعيادات الصحة النفسـية والمستشفيات والعيادات الخاصة يعتمدون عليها اعتمادا كبيرا . غير أن كثيرا من علماء النفس يرون أن قدرتها على التنبؤ ضعيفة الى حد كبير . ولا يزال الجدل بينهم على استخدامها شديدا .

٧ — الطريقة الشاملة للحكم على الشخصية

قدمنا أن هناك اتجاهين فى الحكم على الشخصية : الاتجاه التحليلى الذى يقيس السمات عن طريق الاستخبارات والاختبارات ، والاتجاه الاجمالى الذى يستخدم المقابلة الشخصية ، والطرق الاسـقاطية ،

وملاحظة سلوك الفرد فى مواقف وظروف مختلفة لأخذ صورة كلية عن الشخصية • الواقع أن هذين الاتجاهين متتامان وليســا متعارضين ، فالشخصية لا يمكن أن توصف الا عن طريق سماتها البارزة ، وهــذه السمات يجب أن تحدد قبل أن نرسم صورة كلية للشخصية • لذا فكثيرا ما يستخدمان معا • وهذا ما فعله مكتب الخدمات الاستراتيجية بأمريكا لاختيار رجال الجيش وتوزيعهم على الاعمال التى يصلحون لها به وكذلك لاختيار رجال المخابرات ممن يقومون بأعمال سرية واستراتيجية وعسكرية خاصة •• فقد استخدموا فى هذا الاختيار جميع الادوات السيكولوجية التى تتخذ للحكم على الشخصية وقياسها : المقابلة وموازين التقدير واختبارات الذكاء والاستعــدادات واختبارت موقفية مختلفة الانواع • وكانوا يرون أن « المقابلة » لا تعدلها طريقة أخرى من طرق الحكم على الشخصية ، فهى خير وسيلة للجمع بين المعلومات واصدار الحكم الاخير على الشخص •

كان المرشحون يفدون فى جماعات ويقيمون مع الحكام فى بناء واحد لمدة ثلاثة أيام • أما الحكام فمن علماء النفس والأطباء النفسيين ورجال الجيش • وأما الطريقة فتتلخص فيما يأتى :

١ ــ ملاحظة سلوك المرشحين من اللحظة الاولى لوصولهم الى مركز الاختبار :طريقتهم فى تحية زملائهم وفى تحية الحكام ، وسلوكهم أثناء تناول الطعام ، ونوع أحاديثهم مع زملائهم ، وتصرفاتهم المختلفة فى هذا الموقف الجديد •

٢ ــ اجراء اختبارات مختلفة لتقدير ذكائهم واستعداداتهم وكذلك بعض الاستخبارات لتقدير بعض نواحى شخصياتهم •

٣ ــ تطبيق اختبارات موقفية تستهدف الكشف عن مبلغ ما لدى كل منهم من قدرة على التعاون والتفكير الجماعى والتزعم •

٤ ــ تكليف المرشحين القيام بمقابلات شخصية تدور حول موضوعات صعبة دقيقة كالتحقيق مع جندى هارب أو استجواب جندى أسير فر من جبهة الاعداء ، أو فض مشكلة قامت بين المفحوص وزملائه •

٥ — عقد مقابلة مع المرشح تستهدف الكشف عن قدرته على احتمال الضغط والتوتر والانفعال والاجهاد الذهنى : فيسلط على وجهه ضوء ساطع شديد ولا يسمح له أن يدير رأسه أو أن يحجبه بيده ، ثم توجه اليه سلسلة من أسئلة سريعة خاطفة محرجة غير منتظرة تضيق عليه الخناق ، ويطلب اليه الاجابة دون تمهل ودون أن يسمح له بلحظة من التلبث أو الاسترخاء ، أو توجه إليه ملاحظات عنيفة تنقد بعض أعماله ، أو تعليمات متضاربة لا يتفق أحدها مع الاخر •• فان هم بالاسترخاء ووضع ساق على الاخرى نهره الحكام ، وان أحنى رأسه لتفادى الضوء زجروه ، وان بدت ثغرة فى كلامه اتهموه بالكذب • وبعد عشر دقائق من هذا الضغط والعنت يقولون له ان لديهم الان أدلة كافية على أنه كان يكذب طول الوقت ، ثم يأمرونه بالانصراف بعد أن يكونوا قد قدروا له أثناء هذه المقابلة درجة على قدرته على الضبط الانفعالى من ملاحظة تضرج وجهه وجفاف شفتيه وما يسيل على وجهه من عرق وما يعتريه من تلعثم أثناء الكلام •• وتسمى هذه المقابلة العنيفة « بمقابلة الانعصاب » Stress interview

لا شك أن هذه الطريقة تكشف الكثير عن المرشح : قدرته على بذل الجهد وعلى الاحتمال وضبط النفس وقدرته على التعاون والتفكير الجماعى وعلى القيادة والمبادأة والابتكار وكتم الاسرار •• غير أنها لا تزال فى طفولتها تنتظر البرهان على أنها أفضل من غيرها من الطرق لتبرير ما تتطلبه من جهد ووقت وتكاليف •

الفصل الثالث
نمو الشخصية وعوامل تكوينها

١ ـ اصول الشخصية ونموها

لو نظرنا الى الرضيع الوليد لم نستطع أن نميز فى سلوكه الا نوعا من النشاط الحركى العام وتعبيرا انفعاليا عاما لا تتميز فيه الانفعالات بعضها عن بعض • وكلما تقدم به العمر أخذت حركاته تتحدد بالتدريج وبدأت انفعالاته تتمايز ، ثم يطرد ظهور سمات أخرى لديه كالانانية والعناد وحب الاجتماع بالناس والسيطرة أو الانطــواء أو الخجــل أو التجهم والعدوان •• حتى اذا ما استوى راشدا أصبحت سمات شخصيته من الكثرة والتعدد والتعقد بما لا يمكن عده وحصره •

ولا يقتصر نمو الشخصية على تمايز السمات وزيادة عددها ، بل يبدو كذلك فى زوال بعض السمات أو تهذيبها • فكما أنه يبدو فى اكتساب دوافع واتجاهات وعادات وميول جديدة ، كذلك يتضح فى ترك ســمات طفلية كثيرة أو تحويرها وتكييفها للمجتمع ، كالانانية والاندفاع والاتكال على الغير وطرق اشباع الدوافع والتعبير عن الانفعالات •

ونمو الشخصية كأى ضرب آخر من النمو ، هو حصيلة تفاعل الميراث الفطرى البيولوجى للفــرد مع بيئته ، خاصة البيئة الاجتماعية ، حتى لتعرف الشخصية أحيانا بأنها طبيعة الفرد بعد أن يحــورها التفاعل الاجتماعى • فمن مطلع الحياة تكون الصلة بين الرضيع وأمه صلة تفاعل وتجاوب ، فهو يستجيب للجوع والالم بالصياح ، وصياحه هذا يكون بمثابة مثير لأمه التى تستجيب له بوضع الثدى فى فمه ، هذه الاستجابة تصبح بدورها منبها للطفل يستجيب له بالرضع •• ثم تأخذ الاسرة فى صقله وتشكيله كى يندمج فى اطارها الثقافى الخاص بها وفى الاطار العام للمجتمع • حتى اذا ما تقدمت به السن واتسع محيطه الاجتماعى أضحى عرضة لمؤثرات أخرى تأتيه من المدرسة ومن رفاقه فى اللعب

ومما يستطيع أن يقرأه أو يسمعه أو يطلع عليه • فاذا ما شب عن الطوق وأتيح له أن يبسط صلاته الاجتماعية عن طريق مهنته وزوجته وأقاربه وعن طريق الجمعيات أو الاندية التى يشترك فيها ، والادوار الاجتماعية التى يقوم بها • • تعرض لمؤثرات أخرى يكون لها بعض الاثر فى تنمية شخصيته وتحويرها •• وهكذا تزداد شخصية الفرد ثراء كلما زادت صلاته الاجتماعية اتساعا •

وغنى عن البيان أن موقف الانسان من بيئته ليس موقفا سلبيا مطاوعا ، أى أنه لا ينفعل بها طيعا ولا يتشكل كما يتشكل الصلصال فى يد الصانع،كما أن البيئة ليست شيئاسلبيا تأذن له أن يظفر منها بمايريد كيف يريد،بل انها تقاومه وتؤثر فيه•فالعلاقة بينها علاقة تفاعل ، وشد وجذب ، وصراع موصول •• فى أثناء هذا التفاعل والصراع تتكون شخصيته وتنمو ويتعين شكلها • ولقد صور لنا « فرويد » هذا الصراع وبين لنا مقوماته البيولوجية والاجتماعية فى تشريحه الشخصية الى جوانب ثلاث هى « الهو » و « الانا » و « الانا الاعلى » •

مما تقدم نرى أن نمو الشخصية عملية اكتساب وتعديل وتهذيب للسمات ، أى أنه عملية تعلم تبدأ من ميلاد الفرد وتستمر طول حياته •

٢ ـ الهو والانا والانا الاعلى

كان « فرويد » أول من صور تفاعل العوامل الوراثية مع العوامل البيئية ، خاصة الاجتماعية وصراع هذه مع تلك ، وأثر ذلك فى تكوين الشخصية ونموها ، كما بين كيف تنشأ سمات الشخصية وكيف تتغير وكيف تنحرف نتيجة لهذا التفاعل والصراع • وهكذا تتميز نظريته فى الشخصية عن غيرها من النظريات بأنها لم تقتنع بوصف سمات الشخصية بل حاولت تفسير نشأتها • يرى فرويد أن للشخصية جوانب ثلاثة هى « الهو » و « الأنا » . « الأنا الأعلى » •

الهــو Id

هو منبع الطاقة البيولوجية والنفسية التى يولد الفرد مزودا بها • فهو يضم الدوافع الفطرية التى ترجع الى ميراث النوع الانسانى كله: الحاجات الفسيولوجية وغريزة الجنس وغريزة العدوان • وبعبارة

أخرى فهو طبيعة الانسان الحيوانية قبل أن يتناولها المجتمع بالتحوير والتهذيب • وهو جانب لاشعوري عميق ليس بينه وبين العالم الخارجي الواقعي صلة مباشرة • لذا فهو لا يعرف شيئا عن الأخلاق والمعايير الاجتماعية ، ولا يعرف شيئا عن الزمان والمكان • فالرضيع يصرخ ويرفس ويتبول متى شاء وحيث شاء وكيف شاء •• أى أنه يندفع الى اشباع حاجاته اندفاعا عاجلا مباشرا كاملا بكل صورة وبأى ثمن • لذا يقال انه يسير بوحى « مبدأ اللذة » •

الانـا Ego

هو جانب من الشخصية يتكون بالتدريج من اتصال الطفل بالعالم الخارجى الواقعى عن طريق حواسه ، فالطفل الصغير يرى اللهب جذابا فيلمسه فيشعر بالألم فيتعلم أن يتجنب اللهب ، كذلك يتعلم عن طريق السمع أن هناك أصواتا تعنى الخطر فيتفادى مصدرها أو يقى نفسه منها • وعن طريق صلته بأمه وخبراته الحسية يتعلم أنه لا يستطيع أن يظفر بما يريد متى أراد وكيفما أراد • وأن هناك ضروبا من السلوك تجلب له السرور وأخرى تجلب له الألم ، كما يدرك أن الارضاء الفورى يجلب له المتاعب فيبدأ فى تعلم الانتظار والاحتمال المؤقت • على هذا النحو يتكون « الأنا » وينمو بتأثير الخبرات المؤلمة والتربية واللعب فيحد من غلواء « الهو » واندفاعه ويعمل على ضبطه وتوجيهه ، فيحمى الطفل من الأخطار التى تهدد كيانه اذا انساق لمطالب الهو فى غير حذر • فوظيفته اذن وقائية • وهو شبيه بقشرة الشجرة وهى جزء منها تصلب بفعل عوامل الجو الخارجية ليحمى الشجرة •

والأنا هو مركز الشعور والادراك والتفكير والحكم والتبصر فى العواقب ، كما أنه المشرف على أفعالنا الارادية أى المشرف على الجهاز الحركى الارادى ، فعن طريقه تتحقق الدوافع أو لا تتحقق •

ونضع ما تقدم فى صورة أخرى فنقول ان للانا وجهين : وجه يطل على الدوافع الفطرية الغريزية فى الهو ، وآخر يطل على العالم الخارجى عن طريق الحواس • ووظيفته هى التوفيق بين مطالب الهو والظروف الخارجية • فهو أداة التكيف للبيئة ، أداة تقييم الواقع وتكييف السلوك •

وأنا الطفل الصغير ضعيف فج • لذا وجبت علينا حمايته حتى يشتد أناه • أما أنا الراشد السوى الناضج فيسير على هدى (مبدأ الواقع) لا مبدأ اللذة ؛ وهو مبدأ يحمل الفرد على أن يرجيء اشباع دوافعه ورغباته ، وعلى أن يحتمل ما يترتب على هذا الارجاء والتنازل من ألم وقتى فى سبيل اللذة الآجلة • وبعبارة أخرى فالأنا ، عند الراشد السوى ، يحاول ارضاء دوافع الهو بغير الطرق الفطرية الساذجة التى قد تضر بالفرد ، ويكون ذلك اما بكبت هذه الدوافع أو بتحويرها أو تأجيل اشباعها أو الاستعاضة عنها بغيرها •

أما الأنا عند الطفل والمصابين بأمراض نفسية وعقلية وكثير من المجرمين فلا يزال يخضع لمبدأ اللذة الى حد قليل أو كبير •

والأنا هو ما نستطيع أن نسميه على وجه التقريب بالشخصية الشعورية •

الأنا الأعلى Superego

تتلخص تربية الطفل منذ عهد مبكر جدا من حياته فى صراع دائم بين ما يريد عمله وبين ما يريده عليه والداه أو من يحيطون به • وللوالدين أساليبهما الخاصة من الثواب والعقاب فى هذه التربية • وسط هذا الصراع الموصول يرى الطفل نفسه مضطرا الى أن يكف نفسه عن كثير مما يشتهى والى أن يقوم بأشياء لا يميل اليها بطبعه كى يتجنب استهجان الكبار أو عقابهم • والطفل السوى يتعلم على كره منه وبعد مرات لا حصر لها من التمرد والاحتجاج ، يتعلم أن يكيف سلوكه وفق المعايير التى يراها والداه لازمة لمن فى سنه من الاطفال • فاذا به قد أصبح يكف نفسه عن المشى فى الماء وتسلق الاثاث والنظر من النافذة وكسر الانية ومشاكسة أخيه الاصغر وجذب ذيل القط والكشف عن عورته ، واذا به قد أخذ يتعلم أن يراعى قواعد النظافة وأن يأكل من طبقه الخاص وأن يحيى بيده اليمنى وأن ينام حين يأمر والداه •• على هذا النحو تتبلور فى نفس الطفل بالتدريج وعلى غير قصد منه أوامر الوالدين ونواهيهما وأفكارهما عن الصواب والخطأ ، عن الخير والشر ، عن الحق والباطل ، عن العدل والظلم •• تتبلور على شكل « سلطة داخلية » تقوم مقام الوالدين حتى فى غيابهما فيما يقومان به من نقد وتوجيه نفسه : هذا الحارس أو « الرقيب النفسى » هو « الانا الاعلى »

أو ما نستطيع أن نسميه تجوزا بالضمير Conscience • فبعد أن كان الطفل يعمل المباح ويمتنع عن المحظور خوفا من سلطة خارجية ، أصبح يحمل بين جانبيه « مستشارا خلقيا » يرشده الى ما يجب عمله وينهاه عما لا يجب عمله . ويحكم بالصـواب له ان أصاب وبالخطأ ان أخطأ ويجزيه راحة وسرورا أن فعل ما يرضاه ويعذبه بوخز الضمير — وهو الشعور بالذنب — ان حاد عما يريد •

والانا الاعلى يبدأ تكوينه من سن مبكرة ، وبما أنه يكتسب فى بواكير الطفولة فهو لا شعورى الى حد كبير • وهو ككل استعداد أو اتجاه يكتسبه الفرد فى طفولته ذو أثر عميق باق فى حياته كلها • نعم قد يصيبه التحوير والتعديل بازدياد ثقافة الفرد وخبرته وصلاته الاجتماعية فى المدرسة بمن يحبهم ويحترمهم أو يعجب بهم من الناس فلا يظل صورة طبق الاصل من تعاليم الوالدين ، لكنه يظل دائما محتفظا بقدرته على الحكم والعقاب ان فعلنا ما يخالفه أو حتى لمجرد تفكيرنا فيه • فالنية عند الضمير مثل الفعل سواء بسواء • ويبدو هذا الاثر الباقى للضـمير فى تشبث الكبار المثقفين بتقاليد بالية وانحيازات طفلية واتجاهات وأفكار لا تتمشى مع المنطق ولا تساير على الاطلاق ما بلغوه من مستوى ثقافى وعلمى •

ونجمل ما تقدم فى أن الانا الاعلى :

— من حيث تكوينه هو جملة القيم والمعايير والمعتقدات والمبادئ الخلقيـة التى يستخدمها الفرد فى الحـكم على دوافعه وسـلوكه والتى يهتـدى بها فى تفكيره وأفعاله • انه حصـيلة عملية التطبـع الاجتمـاعى[1] •

— وهو من حيث وظيفته جانب الشخصية الذى يوجه وينقد ويوقع العقاب • فهو سلطة تشريعية قضائية تنفيذية فى آن واحد •

— أما من حيث هو قوة محركة فيمكن تعريفه بأنه استعداد لا شعورى دافع مانع رادع مكتسب على أساس من الخوف والحب والاحترام •

---

(١) التطبيع الاجتماعى هو عملية التفاعل الاجتماعى التى يتم بها تكييف الفرد — خاصة الطفل — لبيئته الاجتماعية واكتسابه شخصية وذلك عن طريق استدماجه المعايير والقيم الاجتماعية .

الصورة الدينامية للشخصية

من هذا نرى أن الشخصية تنطوى على ثلاثة جوانب : جانب بيولوجى يمثله الهــو ، وجـــانب سيكولوجى يمثله الانا الذى هو مقر العمليات العقلية العليا والأرادة ، وجانب اجتماعى يمثله الانا الاعلى • وهى جوانب ليست مستقلة بل فى صراع دائم متبادل • فوظيفة الانا هى التوفيق بين مطالب الهو ومطالب الواقع الخارجى ومطالب الضـــمير • وبعبارة أخرى فهو محط شد وجذب بين ثلاث قوى عليه أن يرضيها جميعا وأن يوفق بينها جميعا • فان ثار دافع من دوافع الهو كالدافع الجنسى أو دافع العدوان مثلا تعين على الانا أن يرضيه بصورة لا تضر بصالح الفرد فى المجتمع ولا يترتب عليها شعوره بالذنب من جراء سخط ضميره • فان نجح الانا فى فى هذه المهمة التوفيقية العسيرة صارت الحياة النفسية سيرا سويا واتجهت الشخصية الى التكامل والاتزان ، وان فشل فى هذا التوفيق لشطط فى احدى القوى الثلاث المحيطة به ، اختل التوازن النفسى وكانت النتيجة مرضا نفسيا أو عقليا أو سلوكا اجراميا الى غير ذلك من ضروب الانحراف • مثل الانا القوى السوى كمثل الحكومة الديمقراطية تستمع للجميع ، وتعترف بحاجات الجميع ، وتتوسط ليتراضى الجميع •

وهكذا يتضح لنا أن الشـــخصية ان كانت تمثيلية ، فهذه الجوانب ــ الهو والانا والانا الاعلى ــ ممثلوها الثلاثة ، أما منظر الرواية فمنظر معركة • وبعبارة أخرى فالشخصية ميدان لصراع[1] كثير من القوى والدوافع ، وهو ميدان يصطدع بدوره مع ميدان البيئة الاجتماعيــة والثقافية ــ هــذه الصورة الديناميــة المتدافعة الجوانب للشـــخصية الانسانية تعد من أهم ما أضافته مدرسة التحليل النفسى لا الى نظــرية الشخصية فحسب ، بل والى علم النفس بوجه عام •

---

(١) لا تخلو حياة انسان من صراعات نفسية . والانا القوى يستطيع حسم هذه الصراعات والتحكم فيها بصورة مرضية . اما الانا الضعيف فيعجز عن ذلك فتظل الصراعات قائمة غير محسومة ، وهذا يحول دون تكامل الشخصية والتوافق السليم . لذا فقوة الانا شرط ضرورى للصحة النفسية، بل يجعلها البعض مرادفة للصحة النفسية .

٣ ـ كيف تكتسب السمات

لا يولد الطفل « انسانا » أو اجتماعيا ، وعلى المجتمع أن يأخذ فى صقله وترويضه وتعليمه حتى تظهر انسانيته من ثنايا طبيعته الحيوانية • وتسمى هذه العملية التى تم بها تكييف الفرد ـ خاصة الطفل ـ لبيئته الاجتماعية عملية « التطبيع الاجتماعى » • انها عملية تربية وتعليم يقوم بها الاباء والمعلمون وغيرهم من الذين يمثلون ثقافة المجتمع • وهى عملية تستهدف تعليم الفرد الامتثال لمطالب المجتمع والاندماج فى ثقافته واتباع تقاليده والخضوع لالتزاماته ومجاراة الآخرين بوجه عام • والتربية الاجتماعية والخلقية التى يقوم البيت والمدرسة بأكبر جانب منها هى لب عملية التطبيع التى تبدأ من المهد ثم تستمر طـول الحياة • فمما يجب أن يتعلمه الطفل ؟

١ ـ عادات المشى والاكل وضبط المثانة والامعـاء ، والاستحياء الجنسى ، وكف العدوان على الاخوة والابوين والكبار •

٢ ـ القدرة على كف الدوافع غير المرغوبة أو الحد منها • ومما يجدر ذكره أن أكبر شطر من عملية التطبيع يتلخص فى اقامة حواجز وعقبات ضد الاشباع المباشر للدوافع الجنسية والدوافع العـدوانية ، وهى حواجز لازمة لبقاء كل مجتمع • لذا فهى توجد على نحو ما حتى فى أكثر الشعوب بدائية •

٣ ـ كثير من العادات وطرق التصرف الملائمة والآداب الاجتماعية، هذا الى اتجاهات معينة نحو الآخرين ونحو السلطة ونحو المبـادىء ـ نحو الأسرة والمدرسة والدين والدولة ـ فضلا عن تعليم الذكور والاناث الادوار الاجتماعية التى يرسمها المجتمع لكل منهما •

٤ ـ القدرة على التوقيت المنظم ، أى القيام بأعمال معينة فى أوقات معينـة •

وعدة الابوين وطـريق فى عملية التطبيع هى الثواب والعقـاب ، التشـجيع والتبثيط ، المدح والذم ، أى التـدعيم الايجابى لضروب السلوك التى تلاقى استحسان الجماعة ، والتدعيم السلبى لتلك التى تلاقى استهجانها •

الى جنب هذه السمات التى يعمل الاباء والمربون عامدين على غرسها فى نفوس الاطفال هناك سمات أخرى كثيرة يكتسبها الطفل عن غير قصد نتيجة لخبراته اليومية وذلك عن طريق التعلم الشرطى الذى يقوم بدور كبير فى تكوين الشخصية فى مرحلة الطفولة المبكرة : فقد رأينا من قبل أن الطفل يتشرب عن طريق **القابلية للايحـــاء** كثيرا من الاراء والمشـــاعر والاتجاهات والمعتقدات الشائعة فى أسرته دون قصد منه ، كاتجاهاته نحو المباح أو المحظور ، نحو المسالمة أو العدوان ، نحو الدين والدولة ، نحو النظام أو الفوضى •• بل انه ليتأثر كثيرا بالجو الانفعالى الذى يسود البيت ، فان كان جوا تغشاه الكآبة أو الرعب أو روح المرح انعكس ذلك على كل فرد فيه • وأم الطفل ان كانت شديدة التلهف عليه أو دائمة الانقباض أو سريعة الاهتياج أو بادية الجشع •• نقلت الى طفلها عن طريق العدوى الاجتماعية هذه السمات •• وليست القابلية للايحـــاء الا نوعا من التعلم الشرطى .

وتعطى مدرسة التحليل النفسى أهمية كبرى لعملية **التقمص** فى تكوين الضمير والخلق والميول والاتجاهات والاذواق والعادات • والتقمص عملية نفسية لا شعورية ، أى غير مقصودة تندمج بها شخصية فرد فى آخر اندماجا كليا فاذا به يحس باحساسه ، ويفكر بعقله ، ويصدر عن رغباته • فالتقمص توحد فى الافكار والمشاعر والرغبات والمعتقدات • ونحن فى العادة نتقمص شخصيات من نحبهم أو نعجب بهم من الناس• فالولد الذى يتقمص شـــخصية أبيه الكادح المثابر يشب كأبيه كادحا مثابرا ، فان كان الأب مختالا فخورا شب الولد على شاكلته ، والبنت الصغيرة التى تتقمص شخصية أمها المتأنقة سرعان ماتمسى مزهوة معجبة بنفسها ، فان تقمصت شخصية أبيها أضحت مسترجلة ومالت الى أعمال الرجـــال •

واحباط الدوافع كثيرا ما يؤدى الى تقويتها وتحويلها الى ســـمات وعادات ثابتة • فالشره قد يرجع الى الحرمان من الطعام أكثر مما يرجع الى الاسراف فيه ، وكثيرا ما يكون الشطط الجنسى نتيجة لتربية جنسية متزمتة لا متحررة ، واهمال الطفل وعدم الالتفات اليه قد يجعله يزج بنفسه فى كل شيء ويستعرض نفسه فى كل مناسبة ، والشعور بالنقص قد يحمل صاحبه على أداء أعمال ناجحة أو عظيمة • فالاحباط يقـــوى

الميول والرغبات حتى ان كثيرا من الناس يرغبون فى الشىء لمجرد أنه ممنوع ، ولو كان غير ممنوع ما أثار فيهم الرغبة •

ومن الدروس التى يدين بها علم النفس الحديث الى « فرويد » هو الدور الذى يقوم به احباط الدوافع وما يترتب على ذلك من قلق anxiety فى تكوين كل من الشخصية السوية والشخصية المنحرفة المعتلة على حد سواء • وتفصيل ذلك أن الطفل يتعرض من مطلع حياته لعقبات مادية واجتماعية كثيرة تحبط حاجاته الجسمية والنفسية المختلفة مما يسبب له التوتر والالم والقلق • والقلق انفعال أليم يحاول كل انسان — صغيرا كان أم كبيرا — التخلص والتحرر من وطأته بكل طريقة وبأى ثمن • وهو فى أثناء محاولاته هذه يتعلم ويكتسب أساليب من السلوك تكون بمثابة مخارج يتخفف بها من وطأة القلق وتكفل له شيئا من الراحة • فقد يجد فى الانطواء أو التمارض أو أحلام اليقظة أو استدرار العطف مخرجا من أزمته ، أو يجد فى العناد أو التملق أسلوبه المنشود • أو يجد ضالته فى التسامح أو التشدد ، فى العدوان أو الاستكانة ، فى التهيب أو التبجح ، فى الجرأة أو الخجل ، فى الاقدام أو الاحجام فى التروى أو الاندفاع ، فى النظام أو الفوضى •• ومتى وجد أن أسلوبا أو أساليب معينة من السلوك تخفف من حدة توتراته وقلقه نزع الى تكرارها كلما ارتطم بعقبة أو مشكلة أو صعوبة حتى تصبح هذه الاساليب على مر الزمن — وعن طريق التدعيم والتعميم — سمات وعادات راسخة لديه تطبع شخصيته بطابع خاص •

ومما تؤكده مدرسة التحليل النفسى أن هذه الاساليب المخففة للقلق تلازم الفرد من طفولته الى عهد الكبر • كما أنه يصعب عليه تغييرها لأنه لم يتعلم طرقا أفضل منها لدرء القلق •

ولا يخفى أن من هذه السمات والعادات الصالح الواقعى المفيد الذى يعمل على تدعيم الشخصية وتقويتها ويعين الفرد على الكفاح فى الحياة، ومنها الضار الفاشل الذى يعطل نمو الشخصية أو يمهد الطريق لانحرافها • فمن الغريب أن يكون نمو الشخصية السوية نتيجة احباط وعقبات ، وأن يكون انحرافها أيضا نتيجة احباط وعقبات •

وبوجزها تقدم فنقول ان شخصية الراشد الكبير وليدة المقاومات المادية والاجتماعية فى عهد الصغر ، وأن الاساليب التى يستجيب بها الطفل للاحباط تثبت وتستمر حتى سن الكبر ومنها تتكون شخصية الراشد .

السمات المزاجية :

يلاحظ أن الشخصية تنطوى على سمات أخرى ترجع فى المقام الاول الى التكوين الوراثى للفرد . هى السمات المزاجية كالحيوية أو الخمول ، ودرجة التأثر الانفعالى ، وقوة الاستجابة أو ضعفها . وتقلب المزاج ، وهى سمات لا يحتاج ظهورها واتضاح أثرها الى تعلم أو تدريب ، بل تكفى لظهورها عملية النضج الطبيعى وحدها . هذه السمات المزاجية تشاهد عندالرضعاء حديثى الولادة (انظر ص١٤٠) . وقد دلت التجارب على أن هناك تكوينات وراثية تهيىء الفرد لانفعالات معينة دون غيرها . فقد أسفرت الاستخبارات والتقارير الاستبطانية عن أن التشابه بين التوائم الصنوية أكبر بكثير منه بين التوائم اللاصنوية من حيث ما يغشاها من مخاوف وقلق وشعور بالثقة بالنفس . كما دلت التجارب أيضا على أن التشابه بين التوائم الصنوية أكبر منه بين الاخوة العاديين من حيث عنف الاستجابة للمواقف التى تثير الانفعال كما يقيسها الرسام الكهربى للمخ . كما ظهر من دراسات تجريبية احصائية أجريت على توائم صنوية ولا صنوية من الاسوياء وكذلك على توائم عصبابية أى تعانى من عدم الاستقرار الانفعالى ، ظهر أن قابلية الفرد للاصابة بالعصاب ، أى المرض النفسى ، تحددها الوراثة الى مدى بعيد .

٤ ــ عوامل تكوين الشخصية

رأينا أن الشخصية تتقوم وتتشكل من تفاعل الوراثة البيولوجية للفرد مع بيئته المادية والاجتماعية فمن العوامل الوراثية بنية الفرد وحالة جهازيه العصبى والهرمونى . أما العوامل البيئية فعلى أنواع ثلاثة :

١ ــ عوامل جغرافية .

٢ ــ عوامل اجتماعية وهذه تشمل :

(أ) الاطار الثقافى العام للمجتمع وهو يضم القيم والمعايير الخلقية والروحية والافكار والمعتقدات الشائعة بين السواد الاعظم من أفراد المجتمع والتى تختار كل طبقة اجتماعية منها ما يناسبها •

(ب) عوامل ثقافية خاصة بالطبقة الاجتماعية والاسرة والمدرسة والجمعيات والنوادى والاصدقاء •

(جـ) عوامل ثقافية فردية وهى الدور الجنسى والدور المهنى للفرد •

ونستطيع أن نضيف الى هذين النوعين من العوامل البيئية نوعا ثالثا هو العوامل الاتفاقية التى تعرض للفرد ، كمركزه فى الاسرة ، أو حادثة أو مرض ابتلى به ، أو وفاة أبيه من سن مبكرة ، أو وجوده مع زوجة أب ، أو اقامة أسرته فى جوار سيىء ، أو نوع المدرسة التى يتردد عليها ••

من تفاعل هذه العوامل الوراثية والبيئية المختلفة تتكون الشخصيات فيصبح كل شىء هنا يشبه جميع الناس من بعض الوجوه ، ويشبه بعض الناس من بعض الوجوه ، ولا يشبه أحداً من الناس من بعض الوجوه •

وسنعالج فيما يلى أثر الغدد الصم فى الشخصية ثم أثر العوامل الجغرافية ثم أثر الاسرة فى مرحلة الطفولة بوصفها أقوى سلاح يستخدمه المجتمع فى عملية التطبيع الاجتماعى ، يلى ذلك صلة مركز الطفل فى أسرته بشخصيته ، ثم أثر كل من المدرسة وأزمة المراهقة وأخيرا أثر الدور الاجتماعى الذى يقوم به الفرد •

٥ ــ الشخصية والغدد الصم

أشرنا من قبــل الى أن بالجسم غددا صما تفرز مواد ذات فاعليــة شديدة تسمى « الهرمونات » وهى مواد ان لم تفرز بقدر معلوم اختــل ميزان الجسم . وبدت تغيرات ملحوظة فى مظهر الشخص وبنيته ومزاجه وذكائه وسمات شخصيته . واليك كلمة موجزة عن أهم هذه الغدد صلة بالشخصية[1] .

الغدة الدرقية : لافرازها صلة مباشرة بعملية الأيض أى بالتغــيرات البنائية والهدمية فى الأنسجة . فان أفرط نشــاطها زاد نشاط العمليات الحيوية ، وأصبح الفرد قلقا ضجرا سريع الاهتياج غير مستقر انفعاليا وحركيا ، وان فتر نشاطها أى قل افرازها أصبح الفرد خاملا بليــدا ، وأصابه البطء فى تفكيره وتذكره وحركاته . وسارع اليه التعب وأصيب بالهبوط وفقد الشهية .

غدتا الأدرنالين : يفرز نخاعهما مادة الأدرنالين . وهو هرمون قوى يزداد افرازه فى حالات الانفعال العنيف كالخوف والغضب والألم الجسمى والجوع فيعين الجسم على تعبئة طاقته لمواجهة الطوارىء ويعد الفرد للهرب أو القتال (أنظر ص ١٢٨) . أما قشرة هاتين الغدتين فتفــرز هرمون « الكورتين » وهو لازم للعمل العقلى الموصول ومقاومة العدوى . ان زاد افرازه أدى الى تضخم خصائص الذكورة عند الرجل والى ظهور سمات الرجولة عند المرأة فيغلظ صوتها ويأخذ الشعر ينبت فى لحيتهــا ويتساقط شعر رأسها . أما ان قل افرازه أصيب الفرد بالضعف العــام وفترت رغبته الجنسية وانخفضت عملية الأيض عنده ، وأصبح سريع الاهتياج وأصيب بالاكتئاب والأرق .

الغدد التناسلية : هى المبيضان لدى الأنثى والخصيتان لدى الذكر . تفرز هذه الغدد نوعين من المفرزات أحدهما خارجى هو الحيوانات المنوية عند الذكر والبيضات عند الأنثى ، والثانى داخلى هو الهرمونات الجنسية،

---

(١) أدرجنا هذه **الغدد فى** عداد العوامل الوراثية التى تؤثر فى بنــاء الشخصية . غير أن هذه الغدد قد تكون سليمة بالوراثة ثم يصيبها عطب او مرض يخل من وظائفها فتتأثر من ذلك شخصية الفرد .

ولهذه الهرمونات أثر كبير فى نمو أعضاء التناسل وفى النمو الانفعالى ، فهى تعين على نضج الأعضاء التناسلية وعلى ظهور الخصائص الجنسية الثانوية لدى الجنسين كظهور اللحية وتضخم الصوت عند الذكور ، ونمو الفخذين وبروز الصدر وترسب الشحم تحت الجلد عند الأناث ، كما أنها تسهم فى ظهور سمات الذكورة والأنوثة النفسية لدى الجنسين ، وفى تنشيط الدافع الجنسى لدى الجنسين بشرط ألا ننسى أثر العوامل النفسية والاجتماعية فى تنشيط هذا الدافع أو تعطيله أو انحرافه لدى الانسان (أنظر ٧٩) .

الغدة النخامية : لافراز الفص الأمامى منها صلة وثيقة بالنمو الجسمى العام ونمو الوظيفة الجنسية ، فان قصر هذا الافراز فى عهد الطفولة أدى الى القزامة وضعف عضلات هيكل الجسم وتعطل نمو الأعضاء التناسلية ، واذا بالطفل قد مال الى الاستكانة والاستسلام وأصبح سريع التعب ، أما ان زاد هذا الافراز أدى الى المرودة وخشونة الجلد والنضج الجنسى المبتسر ، وبدا الطفل مقاتلا معتديا،أما آثار اضطراب الفص الخلفى فغير معروفة جيداً .

قد ظهر أن اضطراب هذه الغدد يوجد كثيرا فى حالات انحراف السلوك ، فقد اتضح من فحص ٢٥٠ سجينا أن عدم التوازن الهرمونى لديهم يساوى ضعفه أو ثلاثة أمثاله عند أفراد أسوياء ، ومن دراسة ١٠٠٠ طفل مشكل وجد أن ٢٠٪ منهم يعانون من اضطراب هرمونى ، وأن هناك ارتباطا مباشرا بين هذا الاضطراب وانحراف السلوك عند حوالى نصف هؤلاء ، وأن الغدة المضطربة كانت النخامية فى الغالب تليها الدرقية ، وقد أدى العلاج بخلاصات الغدد الى تحسن ملحوظ فى السلوك فى كثير من الحالات ولو أنه لم يفلح فى حل جميع المشكلات .

تفاعل الغدد والشخصية : كما تؤثر الغدد الصم فى بناء الشخصية ونشأة بعض السمات ، كذلك تؤثر الشخصية فى وظائف هذه الغدد تأثيرا قد يكون دائما مزمنا فقد اتضح أن التوتر الانفعالى الموصول يؤدى الى تضخم الغدة الدرقية وزيادة افرازها ، وأن الهبوط النفسى الموصول يؤدى الى فتور نشاط هذه الغدة وقلة افرازها ، وهكذا يتجلى لنا مرة أخرى ما سبق أن أكدناه من أن الانسان وحدة جسمية نفسية ان اضطرب جانب منها اضطربت له الجوانب الأخرى .

ولنذكر أن تأثير الغدد فى الشخصية تأثير غير مباشر فى أغلب الأحيان. فنقص هرمون نخامى خاص قد يؤدى الى القزامة . والملاحظ أن القزم عدوانى مغرور محب الظهور . لكنه من الخطأ أن نقول ان نقص الهرمون هو السبب المباشر لعدوان القزم . فالعدوان نتيجة تأثير البيئة فى شخصية القزم . ولو أنه نشأ فى بيئة أخرى لا تسخر منه لاختلف خلقه فى أكبر الظن .

ولنحذر أخيرا من أن ننسب كل تغير يطرأ على الشخصية الى تغير أو اضطراب هرمونى . فمع أن تفريط الدرقية يميل الى احداث البلادة والخمول ، وأن افراطها يميل الى زيادة النشاط الا أننا يجب ألا نتسرع فى الحكم بأن كل شخص أصابه الخمول مصاب بقصور فى الدرقية ، أو أن كل شخص أصبح « عصبيا » قد زاد افرازها لديه . كذلك الحال ان وجدنا شخصا أصيب بضعف جنسى أو غلمة جنسية فيجب الا نسارع باتهام غدده التناسلية ، اذ قد يرجع السبب الى اضطراب غدد أخرى أو الى عوامل نفسية واجتماعية .

٦ — أثر العوامل الجغرافية فى الشخصية

يتغاضى كثير من الباحثين عن أثر هذه العوامل فى تشكيل الشخصية مع مالها من أثر فى تنمية بعض السمات وابرازها أو تعطيل سمات أخرى وعوقها عن الظهور . فمن المشاهد المعروف أن أسلوب حياة الجماعة بأسرها يتأثر لأنها تعيش فى الصحراء أو بين الجبال أو فى جزيرة أو منطقة معتدلة المناخ ، أو لأنها تعيش فى أرض قاحلة تضطرها الى الكدح الموصول ، أو فى واد خصب وفير الخيرات . هذه العوامل المختلفة ذات أثر فى شخصية الجماعة بأسرها ، وفى شخصيات الأفراد التى تتكون منهم هذه الجماعة .

خذ على سبيل المثال « الاسكيمو » سكان شبه جزيرة جرينلاد . هؤلاء قوم يعيشون فى ظروف جغرافية قاسية عنيفا بحيث لا يقوى على العيش الا الأقوياء أما الضعيف أو المريض أو العاجز عن كسب قوته فمصيره الهلاك أو الانتحار أو أن يقتل من ذويه . كما قضت عليهم هذه الظروف الجغرافية أن يكون نظامهم الاجتماعي فرديا الى حد كبير .

قضت عليهم أن يصنع كل واحد منهم أدواته وأسلحته بنفســه ، وأن يخرج الى الصيد ليصطاد لنفسه . وحتى ان خرجوا الى الصيد معا فى عرض البحر ، خرج كل بزورقه الخاص . فان انقلب الزورق كان عليــه أن ينجو بنفسه دون معونة من غيره . أما الأسرة فوحــدة اقتصادية تكفى نفسها بنفسها ، وحتى ان عاشت عدة أسر فى بيت واحد أثنــاء الشتاء ، فكل امرأة تطهو طعام أسرتها فى قدرها الخاص وعلى موقدها الخاص . ذلك أن الطهو الجماعى متعذر أو مستحيل لأنه يستنفد وقتا أطول لاعداده على مواقد من الدهن ، كما أنه من العسير نقــل الموقد الكبير من منازل الشتاء الى منازل الصيف . وبعبــارة أخرى فالتكيف الفردى فى هذه البيئة أيسر من التكيف الجماعى . لذا كانت أظهر السمات فى شخصية « الاسكيمو » التحــدى والاعتماد على النفس والمبادأة و « الأنا » القوى القادر على الاحتمال .

وهذه قبيلة « أرابش » Arapesh فى غينيا الجديدة ، تعيش فى منطقة جبلية تكفل لهم الأمن من الغزو ، وتمدهم بما يكفيهم من الطعام . أى أنهم فى أمان من الخطر الخارجى ومن المجاعات . لذا لم يتكون لديهم نظام اجتماعى قوى ، وأصبح القوم يتسمون بالوداعة والمسالمة وروح الصداقة ، بل يمقتون التنافس والتفاخر والخشونة ، وينبذون الشخص الغيور الطموح الذى يتطلع الى التملك .

٧ ـ أثر العوامل الاجتماعية

أثر ثقــافة المجتمع :

للمجتمع والثقافة المميزة له culture [1] صلة وثيقة بشخصيات من يحتضنهم من أفراد . فلو كنا نشأنا فى صقيع الاسكيمو أو فى الجــزر

---

(1) ثقافة المجتمع وحدة متكاملة من المعلومات والأفكار والمعتقــدات والمواضعات الاجتماعية ، وطرق التفكير والتعبير والترويح ، وطرق كسب الرزق ، والصنائع اليدوية وغيرها من الظواهر السائدة بين أفراد المجتمع والتى تنتقل من جيل الى جيل ، ويكتسبها الأفراد عن طريق الاتصال والتفاعل الاجتماعى لا عن طريق الوراثة البيولوجية ، ولكل ثقافة جانبان : جانب مادى هو ماينتجه عقل الجماعة من أشياء ملموسة ، وجانب لا مادى يتألف من المعارف والمعتقدات والقيم ... وتضم الثقافة الأساسية فى المجتمعات المعقدة ثقافات فرعية خاصة بالطبقات المختلفة أو الجمعيات أو الأقليات التى يحتويها المجتمع الكبير .

المتناثرة فى المحيط لكانت لنا عادات وتقاليد ومثل تختلف فى الكثير عما نحن عليه ، بل ولاختلفت نظرتنا الى الكون ومكانتنا فيه اختلافا كبيرا. بل ان ثقافة المجتمع تؤثر فى طرق تفكيرنا وتعبيرنا عن انفعالاتنا وارضائنا لدوافعنا وفيما نتعلمه من معايير المباح والمحظور ، والعدل والظلم ، والحق والباطل .. كذلك فيما نكسبه من معلومات ومهارات وعواطف وأذواق .. كل أولئك يحدده نوع الثقافة الى حد كبير : أهى ثقافة ديمقراطية أم غير ديمقراطية ، تعاونية أم تزاحمية ، مادية أم روحية ، مسالمة أم عدوانية ، مستنيرة أم غير مستنيرة . يضاف الى هذا أن الثقافة هى التى تعين الأساليب والطرق التى يتبعها الوالدان فى تنشئة الأطفال : هل تقوم هذه التنشئة على التسامح أم التشدد ، على التزمت أو التراخى ، هل تسير على نمط سريع فتفرض على الطفل تكاليف الرجولة من عهد مبكر أم تسير على وتيرة تدريجية متئدة ، هل يقوم الوالدان بتربية الطفل أم بدائل عنهما ؟ . فثقافة المجتمع تعيش فينا كما نعيش فيها ، أو أننا مرآة تنعكس عليها صورة هذه الثقافة ، حتى قيل أن الشخصية هى المظهر الذاتى الثقافة . وهذا حق لكنه ليس كل الحق ، لأن الشخصية تتأثر بعوامل أخرى غير الثقافة هى العوامل الوراثية .

أثر الثقافات الفرعية :

غير أن هذا لا يعنى أن أفراد المجتمع الواحد تتشابه شخصياتهم كما تتشابه نسخ الكتاب المطبوع . فحتى لو نشأنا فى رحم ثقافى واحد أو متقارب الظلال ، كجمهورية مصر مثلا ، لاختلفت شخصياتنا فى نواح هامة منها اختلافا قد يكون كبيرا : هل نشأنا فى الواحات أو على الساحل أو على ضفاف النيل ، فى الريف أم فى الحضر ، فى منزل أو فى ملجأ ، فى أسرة فقيرة أم ميسرة ، محافظة أم مجددة ، مثقفة أو غير مثقفة ، متدينة أو غير متدينة ، متماسكة أو مفككة ، حانية أو جافية ، مكتظة أو محدودة العدد ؟ وهل التحقنا بمدارس قديمة أو حديثة ؟ وهل كان لنا أصدقاء ورفاق لعب كثيرون ، وما نوع هؤلاء وأخلاقهم ؟ وهل كنا ننخرط فى أندية وجمعيات أم كنا نؤثر العزلة والاعتكاف ، وما الدور الاجتماعى والمهنى الذى نؤديه ؟ .

الثقافة والوراثة :

اتضح أن كثيرا من الظواهر وضروب السلوك التى كنا نظنها ترجع الى عوامل بيولوجية موروثة ، هى فى الواقع نتيجة عوامل ثقافية أو متأثرة بها الى حد بعيد . فقد كنا نظن أن المرأة بطبعها مخلوق طيع سلبى عيل مستسلم مذعن ، وأن الرجل بطبعه مخلوق مسيطر ناشط عدوانى . غير أن الانثروبولوجين وجدوا ثقافات تتسم شخصيات الرجال فيها بالسمات التى نسميها أنثوية وتتسم شخصيات النساء بالسمات التى نسميها « ذكرية » بل انهن فوق ذلك يقمن بأدوار اجتماعية ومهنية يحتكرها الرجال فى الثقافة الغربية . فقد وجدت « مرغريت ميد » أن المثل الأعلى للرجل فى قبيلة « أرابش » فى غينيا الجديدة هو الرجل الوديع الرقيق الطيع المسالم السلبى ، كذلك حال المرأة ، بحيث يمكن القول بعدم وجود فوارق بين الجنسين فى هذه القبيلة ، أو أن كلاالجنسين ذو طبع أنثوى لين . أما المثل الأعلى للرجل فى قبيلة تجاورها لكن تختلف عنها فى الثقافة — هى قبيلة « موندوجومر » فهو الرجل الخشن الغليظ العدوانى المقاتل المنتقم . وكذلك المرأة . فهى تقوم بكل أعمال الرجل ولها مثل صفاته . أما فى قبيلة « تشامبولى » التى تجاور هاتين القبيلتين فينقلب دور الرجل والمرأة فيها عما هو معهود فى الثقافة الغربية . فالمرأة هى العنصر المسيطر الغالب المتصرف فى كل الأمور ، فهى تقوم بصيد السمك ونسج الشباك وغيرهما من الأعمال الشاقة . أما الرجل فيتعهد شئون الأطفال وينصرف الى الاهتمام بالرقص والحفر والنقش وغيرها مما لا تهتم به المرأة هناك ، ومع أن النظام الاجتماعى فى هذه القبيلة أبوى — أى الحكم فيه للاب — ويبيح تعدد الزوجات — وهذا من شأنه الغض من شأن المرأة — الا أن النساء هن أصحاب الأمر والنهى بالفعل.

وكان كثير من علماء النفس يرون أن مرحلة المراهقة فى كل زمان ومكان مرحلة أزمات نفسية وصراعات ترجع الى ما يعترى المراهق من تغيرات بيولوجية عنيفة ، دون اعتبار لثقافة المجتمع الذى ينتمى اليه المراهق ، حتى دلت البحوث الانثروبولوجية الحديثة على أن المراهقة فى كثيرا من الشعوب البدائية ليست مرحلة تأزم حرجة بل مرحلة هينة تخلو من الصراعات ومن الأمراض النفسية والجناح ومن التمرد على الكبار . ويرجع هذا الى أنهم يسمحون للفرد من سن البلوغ بالاضطلاع بأعباء الكبار وواجباتهم الاجتماعية والاقتصادية والدينية والتمتع بامتيازاتهم

ـن زواج واشتراك فى الصيد والحفلات .. فكأن المراهقةالمتأزمة من سمات المجتمعات المتحضرة وحدها . وهى نتيجة معاملتنا اياه . فالمراهق ناضج من الناحيـة الفسيولوجية ، لكنا نعتبره طفـلا من الناحيتـين الاجتماعية والاقتصادية فنقيد نشاطه الجنسى ورغبتـه فى الاستقلال وتحمل التبعات . فمن الطبيعى أن يستجيب كثير من المراهقـين لذلك بالتمرد والعدوان أو الانسحاب أو الانحراف .

٨ ــ أثر الأسرة فى الطفولة المبكرة

كانت الأسرة ولا تزال أقوى سـلاح يستخدمه المجتمع فى عمليـة التطبيع الاجتماعى ونقل التراث الاجتماعى من جيل الى جيـل . وقد أجمعت خبرات الناس ودلت تجارب العلماء على ما للتربية فى الأسرة من أثر عميق خطير يتضاءل دونه أثر أية منظمة اجتماعية أخرى فى تعيـين الشخصيات وتشكيلها خاصة خلال مرحلة الطفولة المبكرة ، أى السنوات الخمس أو الست الأولى من حياة الفرد ، وذلك لأسباب عدة منهـا أن الطفل فى هذه المرحلة لا يكون خاضعا لتأثير جماعة أخرى غير أسرته ، ولأنه يكون فيها سهل التأثر ، سهل التشكل ، شديد القابلية للايحاء وللتعلم ، قليل الخبرة ، عاجزا ضعيف الارادة قليل الحيلة ، فى حاجةدائمة الى من يعوله ويرعى حاجاته العضوية والنفسية المختلفة ، ولأن عملية التطبيع فيها تكون مركزة عنيفة . اذا عرفنا هذا قدرنا ما يمكن أن يكون لهذه المرحلة من أثر بالغ فى تشكيل شخصيته وتوجيهها الى الخير أو الى الشر ، الى الصحة أو المرض . فكما أن الأسابيع الأولى من حيـاة الجنين فترة حاسمة فى تكوينه الجسمى ان اضطراب النمو فيهـا خرج الوليد مسخا ، وكما ان الوليد ان لم يزود بالغـذاء الكافى فى الأسابيع الثلاثة الأولى بعد ميلاده شبه ناقص النمو الجسمى والعقلى حتى ان زودناه طول العمر بكافة المواد الغذائية ، كذلك السـنوات الأولى من حياة الطفل فترة حاسمة خطيرة فى تكوين شخصيته . وتتلخص خطورتها فى أن مايغرس فىأثنائها من عاداتواتجاهات وعواطف ومعتقداتيصعب أو يستعصى تغييره أو استئصاله فيما بعد.ومن ثم يبقىأثره ملازما للفرد فى عهـد الكبر . هـذه واقعة كشفت عنها وأيدتها الدراسـات الكلينيكية والتحليل النفسى للكبار ، وكذلك الدراسات الانثروبولوجية لطرق تنشئة الأطفال فى كثير من الشعوب البدائية والمتحضرة .

الدراسات الكلينيكية :

تعلمنا الدراسات الكلينيكية ، وكثير منها دراسات تتبعية،أن البيوت التي يغشاها الود والتفاهم القائمان على الثقة والاحترام والمحبة والتقدير والتي تحتفظ بتوازن جميل بين القيد والحرية هي البيوت التي يتخرج فيها الأصحاء الأسوياء من الراشدين ، وأن البيوت التي تبث في نفوس الأطفال عواطف النقمة والحنق القائمة على الرعب والغيظ فهى التي تخرج للحياة قوافل المنحرفين والمشكلين والعصابيين والجانحين • فمن حرم من الأمن والعطف في طفولتـه رفض أن يتقبل الحب في كبره ممن يريدون أن يمنحوه الحب أو أخذ يختطفه بكل طريقة وبأى ثمن • ومن دلله أبواه في عهد الطفولة انتظر من زملائه ورؤسائه أن يدللوه وهو كبير • ومن شب على جهل بحل مشكلاته الصغيرة عز عليه حل مشكلاته الكبرى فيما بعد • ومن شب على قسوة اتخذ من المجتمع في كبره موقفا عدائيا قد يدفعه الى الجريمة • وقد لوحظ أن الأطفال الذين لم يتعلموا العيش في وفاق وانسجام مع أخوتهم وأخواتهم يجـدون صـعوبة في التوافق مع الغير في عهـدى المراهقة والرشد • كما لوحظ أن الأطفال الذين يخضعون خضوعا شـديدا لآبائهم يمتثلون ويسـتكينون للنظم الاستبدادية والتسلطية في عهد الكبر • وقد أشرنا من قبل الى ماأسفرت عنه كشوف مدرسة التحليل النفسى من أن اتجاهاتنا نحو الناس وصلاتنا العاطفية بهم ، اتجاهات وصلات تعلمنـاها في محيط الأسرة على غرار صـلاتنا بأمهاتنا وآبائنا واخوتنا وأخواتنا : اتجاهاتنا نحو الرؤسـاء والمرءوسـين والأصدقاء والزملاء والزوجة والأولاد والغـرباء • ففى الطفولة توضع بذور الصداقات والعداوات المقبلة•

ومن أهم الكشوف التي قدمها « فرويد » لعلم نفس الشواذ الحديث هو أثر المـاضى المبكر من حيـاة الفرد في حاضره ، هو أثر الصـدمات الانفعالية ابان مرحلتى الرضاعة والطفولة المبكرة في التمهيد لاضطراب الشخصية في عهد الكبر ، وما أكثر هذه الصدمات :

١ ـ صدمات تتصل بعملية الارضاع ـ الرضاع العسر أو الشحيح أو غير المنتظم أو المقترن بانفعال الأم وسخطها • اذ الواقع أن عمليـة الارضاع ليست مجرد إشباع لحاجة فسيولوجية هى الحاجة الى الطعام،

بل هى موقف اجتماعى يتألف من الرضيع وأمه ، وفيـه يتأثر الرضيع بحالة أمه النفسية أثناء الارضاع ومزاجها •

٢ ـ وصدمات تنشأ من التعجل أو التعسف والقسوة فى تعليمه ضبط مثانته وأمعائه •

٣ ـ وأخرى تنشأ من الفطام المفاجىء غير المقترن بالعطف•فالفطام أزمة فى حياة الطفل لأنه ليس مجرد ابدال طعام بآخر بل انفصاله عن شخص يزوده بالعطف والغذاء فى آن واحد •

٤ ـ وصدمات تنشأ بعـد ذلك من علاقة الطفـل بوالديه واخوته وأخواته • فالأبوان أو من يقوم مقامهما يعملان منـذ عهد مبكر على ترويض الطفـل وفطامه من الاشباع الأنانى لدوافعـه الفطرية وذلك بمقاومتهـا ، وقد يسرفان فى الكبح • وكل احباط لدافع أسـاسى يكون بمثابة صدمة انفعالية • هذا بالاضافة الى ما يقوم بينه وبـين اخوته وأخواته من غيرة وصراع وتزاحم على الاستحواذ بمحبة الوالدين •• وقد ينشأ الطفل الصغير فى مؤسسة خاصة بعيـدا عن رعاية الأم ، أو تتغيب الأم لانشغالها بعملها أو يتكرر انفصالها عنه •• وكل أولئك من قبيل الصدمات التى يكون لها أثر سىء فى شخصيته ، بمـا يؤدى الى ظهور مشكلات سلوكية مختلفة لديه فى عهد الصغر ، كالمخاوف الشـاذة واضطراب النوم والتبول اللاارادى ونوبات الغضب ـ وبما يمهـد الطريق لاضطرابات أشد خطورة فى شخصيته حين يكبر •

لقد دلت تواريخ حياة من خرجوا من الحرب منهارين فى آثر أمراض نفسية أو عقلية أن المشاكل السلوكية فى طفولتهم كانت ثلاثة أمثالهـا عند من خرجوا من الحرب سالمين • كما ظهر من بحث « بولبى Bowlby » الطبيب النفسى ومدير أحدى العيادات النفسية بلندن ان الأطفال الذين كانوا يجلون عن المدن الكبرى ابان الحرب العالمية الثانية ـ لحمايتهم من القصف الجوى ـ فيحـرمون من رعاية أمهاتهم ويوكل أمرهم الى أفراد يعاملونهم « بالجملة » لا فرادى ، تقـول ان هؤلاء الأطفـال بدت على وجوههم مشاعر الوحشة والعزلة والاغتراب ، وكانوا يعجزون عن عقد صداقات مع غيرهم من الأطفال أو الكبار ، وعن تقبل الحب أو تبادله مع غيرهم من الناس . كما بدت لديهم نزعات عـدوانية صريحة

نحو المجتمع فى سن الشباب ، وكانوا أعصى على العلاج والتقويم من غيرهم من الشبان المشكلين والجانحين • ومما يجدر ذكره أن نوع ومدى الضرر الذى يحيق بشخصية الطفل يتناسب تناسبا عكسيا مع سنه ، فيكون هذا الضرر فى ذروته لدى الرضعاء ممن تتراوح أعمارهم بين ثلاثة أشهر وستة•ثم يقل بعد ذلك بالتدريج حتى حوالى سن السابعة•

ونشير أخيرا الى بحث « بيرت » Burt الذى درس الأحداث الجانحين دراسة نفسية اجتماعية مستفيضة ، اذ يقول : « ان أشيع العوامل فى جناح الأحداث وأكثرها خطرا وتدميرا هى العوامل التى تدور حول حياة الأسرة فى الطفولة » • وهو يعنى بذلك أن البيوت المحطمة·أى التى حطمها الطلاق أو الشقاق أو موت أحد الوالدين أو كليهما ، وكذلك البيوت الآثمة التى تشيع فيها الرذيلة والخمر والجريمة، ثم التأديب الأبوى المعيب الذى يصطنع العقاب الصارم و التراخى الشديد أو التقلب بين الشدة والضعف •• كل تلك شكل أخطر العوامل فى جناح الأحداث •

الدراسات الانثروبولوجية :

تؤيد هذه الدراسات وجود علاقة وثيقة بين طرق تنشئة الأطفال الصغار فى الشعوب البدائية وغيرها وبين شخصيات الكبار فى هذه الشعوب • من ذلك أن القوم فى قبيلة « أرابش » السالفة الذكر تتسم شخصياتهم بالدعة والهدوء والمسالمة والتعاون والصداقة ، ينفرون من التنافس والسيطرة ، ويمقتون الصلف والغرور والعدوان مقتا شديدا • وقد لوحظ أن الطفل الصغير فى هذه القبيلة يكون موضع مودة وعطف بالغ : ترضعه أمه كلما صاح ، وتطيل مدة رضاعته ، وتحمله أينما ذهبت، وتداعبه على الدوام • والطفل فى هذه القبيلة لا يعاقب البتة ، ويوحى اليه من سن مبكرة أن كل شىء فى الدنيا طيب خير ــ البيت والعم والجار والناس •• ولنقارن هذا بما يحدث فى قبيلة « موندوجومر » المجاورة لهذه القبيلة والتى يتسم أهلها بالعدوان المفرط والارتياب المتبادل • الرجل المثالى فيها هو الرجل الخشن الغليظ ، العدوانى المقاتل • وكذلك المرأة • لقد وجد أن الطفل فى هذه القبيلة يولد وينشأ فى جو عنيف غير آمن • فمتى حملت الزوجة كف الزوج عن الاتصال بها مما يثير غضبه فلا يرحب بقدوم الطفل•والرضاعة مؤلمة اذ يوضع الطفل فى سلة خشنة

ولا يقدم له الثدى الا اذا كان فى حاجة ظاهرة اليه ، ولفترة قصيرة . ولكى يظفر بقدر كاف من اللبن فى هذا الوقت القصير والوضع المؤلم يجب عليه أن يرضع فى قوة رضعا سريعا عنيفا والا ضاع حظه من الرضاع . وكثيرا ما يشرق الطفل فتثور الأم . فعملية الرضاع توتر وصراع وغضب . وليست عملية الفطام أقل قسوة وغلظة ، اذ يزاح الطفل عن أمه فى عنف قد يقترن بالضرب واللكم والشتم .. على هذا النحو يشعر الطفل منذ أول حياته بأنه فى عالم عدائى ، وهو شعور تعززه خبرات تالية فى تربيته على الدوام .

وفى قبائل « الدوبان » Doubans بميلانيزيا يلاحظ أن شخصيات الكبار الراشدين تتسم بطابع العدوان المجنون والارتياب الشديد . وقد اتضح أن هذا وثيق الصلة بما يشعر به الطفل من عداوة وارتياب نتيجة لتغيب أمه عنه فترة طويلة من الزمن لظروف اقتصادية ، يقوم فيها أخوته وأخواته بالاشراف عليه اشرافا صارما قاسيا .

وفى المجتمعات المتحضرة الحديثة اتضح أن موقف الكبار المتزمت الصارم من الأمور الجنسية نتيجة طبيعية لما نشئوا عليه أنفسهم من تطبيع صارم فيما يتصل بتعلم ضبط المثانة والأمعاء ، وكذلك للحظر الشديد على التعبيرات الجسيه فى عهد الطفولة .

٩ — مركز الطفل فى الأسرة

يشغل كل طفل فى أسرته مركزا فذا — مركزا قد يجعله الأثير المفضل أو الطفيلى الدخيل ، وقد يجعله يظفر بكثير من الامتيازات أو ببعضها أو يجعله عبئا . أو يجعله شرا لابد منه . فهناك الطفل الأول ، والطفل الوحيد ، والأوسط ، والاصغر ، وهناك الذكر بعد عدة أناث ، والأنثى بعد عدة ذكور ، والطفل الذى يولد بعد عدة وفيات من اخوته وأخواته ، أو بعد فترة طويلة من عدم الانجاب . فهل لهذه العوامل آثار ذات بال فى شخصية الطفل اذا تساوت العوامل والظروف الأخرى ؟ .

لقد لوحظ ان الطفل الأكبر أكثر ورودا على العيادات النفسية من سائر اخوته وأخواته . وربما كان مرجع هذا :

(١) قلة خبرة الوالدين بتربية الأطفـال ، أو (٢) تلهفهما عليه وحمايته أكثر مما يجب أو (٣) أنهما حديثـا عهد بالزواج ولم يستعدا بعد استعدادا كافيا لهذا التغير الطارىء على نظام الأسرة ، فاذا بهما لا يرحبـان به ، أو (٤) أن بقاء الطفل وحيدا عدة سنوات يحرمه من فوائد الزمالة والتنافس والأخذ والعطاء مع أطفال يقاربونه فى السن ، أو (٥) ما يحس به الطفل الأكبر من مرارة الغـيرة حين ترزق الأسرة بمولود ثان يغتصب منه ما كان ينعم به من عطف ورعاية • وقد وجد أن الطفل الأكبر ، فى رياض الأطفال ، تعوزه الثقة بالنفس ، وأنه يميـل الى المحافظة والتشبث بامتيازاته كما أنه لا يميل الى التزعم والتحدى•

أما **الطفل الوحيد** فتتأثر شخصيته الى حد كبير بالظروف والعوامل التى حدت بالوالدين الى قصر النسل على طفل واحد :

١ ــ فقد يعتقد الوالدان أن السن تقدمت بهما بما لا يأذن لهما بأكثر من طفل واحد • وأمثال هذين الوالدين يكونان فى أكبر الظن من الصنف المتلهف أو المسرف فى تسامحه أو المتراخى فى تربيته •

٢ ــ فان كان الطفل الوحيد الطفل الباقى بعد موت أخ أو أخت ، اتسم موقف الوالدين منه بالقلق الزائد •

٣ ــ أو يعتقد الوالدان أنهما لا يستطيعان أن يربيا أكثر من طفل واحد على النحو الذى يرتضيانه ، ومن المرجح أن يكونا اذن من النوع المدقق المتزمت الذى يحاول صب الطفل فى قالب معين •

٤ ــ فان كان السبب نظرة الوالدين المتشائمة الى الحياة ، تأثرت شخصية الطفل بهذه النظرة •

٥ ــ أو يـكون السبب شقاقا بينهما ، وهنا يـكابد الطفل الآثار السيئة للبيت المحطم •

يضاف الى هذا أن الطفـل الوحيد يجد نفسـه على الدوام بين بين كبـار يعجـز عن التعامل والأخذ والعطـاء معهم . بل انه من أجل هذا معرض لاصطناع أساليب غريبة لاسترعاء أنظارهم • وقد لوحظ أنه لا يكون فى العادة محبوبا من أترابه لأنه لم يألف التعامل مع أطفال

من نفس سنه • وقد تدفعه رغبته فى التزامل الى اتخاذ « رفيق وهمى »
ومن المشاكل الشائعة بين أمثاله : العناد والانطواء والحساسية المرهفة
وفرط الاعتماد على والديه •

والطفل الأخير : قديكون عرضة للتدليل الزائد أو للتراخى فى المعاملة
أو الاهمال ، لأنه قد يولد يوم لا يعود الأطفال فى نظـر الأسرة شيئا
طريفا أو مستحبا ، فاذا به فى عين الأب فم جديد ، ومصدر ازعاج جديد،
وفى نظر الأم حمل لا مفر منه ، وفى نظر الأخوة هدف جديد للمشاكسة
والاضطهاد ، مما يفقده الشعور بالأمن أو يبث فى نفسه الشعور بالنقص
حين يقـارن نفسه بأخوته أو أخواته الـكبار وما يحظون به من قوة
أو امتيازات •

وقد قام فريق من علماء النفس الكلينيكى بدراسة وافية لمعرفةمايترتب
على مركز الطفل فى الأسرة من آثار فى شخصيته ، فوجدوا :

١ — أن مركز الطفل ليس الا عاملا من عوامل أخرى أكثر أهميـة
تؤثر فى شخصيته •

٢ — وأن مركز الطفل قد يكون ميزة له ، أو كارثة عليه ، أو لا أهمية
له — والأمر كله مرهون بموقف الوالدين منه ، والجو العام الذى يسود
الأسرة •

٣ — وأن نفس المشـاكل السلوكية تعرض للأطفـال فى كل مركز
يحتلونه وبنفس النسبة •

٤ — ليس هنـاك ارتباط ثابت بين مركز الطفـل وسمات شخصيته
وهو راشد •

١٠ — المدرسة والتطبيع الاجتماعى

انتقال الطفل من البيت الى المدرسة بعد الطفولة المبكرة حدث حرج
خالد فى حياته • فهو انتقال من مجتمع بسيط منطو على نفسـه الى
مجتمع أوسع وأكثر اتصالا بالحياة • فالمدرسة بيئة جديدة ، ذات
نظم وقوانين جديدة ، وبها من التكاليف والواجبات مالم يعهده الطفل

من قبل ، وفيها أخذ وعطاء من نوع جديد ٠ فيها صلات جديده ، ومنافسات جديدة ومغامرات جديدة ، وفيها ويضطر الطفل الى التضحية بكثير من الميزات التى كان يتمتع بها فى البيت ٠ فبينما كان فى البيت يحتل مركزا فريداً خاصا اذا به أصبح فى المدرسة مجرد طفل بين عدد كبير من الاطفال يعاملون على حد سواء ٠ حتى المعلم، وهو الراشد المهم فى حياته اليوم ، لا يعده أكثر من ولد أو بنتصغيرة بعد أن كان يرى نفسه فى البيت « مركز الكون » كله ٠

هذا التغير المنيف فى بيئة الطفل له أثر كبير فى شخصيته وخلقه وسلوكه الاجتماعى ٠ ذلك أن عادات التصرف الاجتماعى التى ألفها فى البيت لا تعود تكفى لسلوكه فى المدرسة ٠ فالمواقف الجديدة تفرض على الانسان واجبات جديدة ٠ وفى المدرسة يضطر الطفل لأول مرة أن يخضع لنظام يفرضه عليه غير والديه ، فلا يعود الوالدان المصدر الوحيد للسلطة والنفوذ ٠ وفيها يتعين عليه أن يراعى النظام وأن يلزم التأدب وألا يهزأ من أخطاء غيره وأن يلتفت الى من يحدثه وألا يقاطع غيره أثناء عمله أو لعبه وأن يلزم الصمت فى أوقات معينة وألا يغضب ان اقتضت مصلحة الجماعة ألا يأخذ أكثر من نصيبيه ٠٠ والتعاون فى المدرسة يعنى احترام قوانينها ، والمشاركة فى الاشغال والالعاب ، كما يعنى المحافظة على المواعيد وعلى نظافة المدرسة وأثاثها ٠ وعلى هذا فالطفل المدلل أو « الدكتاتور » أو الطفل الذى يلقى من العناية أكثر مما يجب قد يفيدون كثيرا من هذه البيئة الجديدة التى تحملهم بعض التبعات وتعصمهم ولو الى حين من جو البيت ٠ وقل مثل ذلك فى الطفل الوحيد أو الطفل البليد ٠٠ هذا فضلا عن أن المدرسة الابتدائية فى سنواتها الاخيرة تتيح للطفل قدرا من الاستقلال وتوسع صلاته الاجتماعية ، اذ يصبح قادرا على التجوال فى المدينة واللعب مع أطفال المدارس الاخرى والذهاب الى السينما ٠٠ كما أنها تقربه من الواقعية بفضل مناهجها وجوها وما تعالجه من موضوعات عن البيئة المحلية وغير المحلية ٠

ومن أظهر الفوائد التطبيعية للمدرسة الابتدائية انتزاع الطفل من « مركزية الذات » egocentrism التى تسيطر على تفكيره ولغته وسلوكه الاجتماعى حتى السابعة من عمره فيما يراه «بياجيه» Piaget

فالطفل حتى هذه السن يكون شديد الخضوع لدوافعه وحاجاته ، مستغرقا فى اهتماماته وأموره الخاصة ، بما يجعله عاجزا عن الاهتمام بمشاعر الغير وشئونهم والتعاون معهم ، عاجزا عن تقدير الأمور والحكم على الناس والاشياء من وجهة نظر الغير ، بل من وجهة نظره وحده • غير أن دخول الطفل المدرسة يكون له أثر كبير فى زوال هذه الظاهرة • ففى المدرسة لا يعود الطفل مركز العالم بل جزء من العالم مساو للآخرين •

صفوة القول أن المدرسة الابتدائية عامل هام فى تنمية شخصية الطفل مع أنه يخرج من البيت وقد تأثرت شخصيته به تأثرا عميقا • الواقع أنها تستطيع أن تفعل الكثير من أجل الطفل ان قامت برسالتها كما ينبغى لها أن تفعل • فهى تستطيع أن تدعم كثيرا من العادات والاتجاهات السليمة التى تكونت فى البيت ، وأن تقوم بعض ما كسب من عادات واتجاهات غير سليمة فيه ، بل تستطيع أن تحصنه بكثير من العادات والاتجاهات الصحية والخلقية والاجتماعية السليمة ، وأن تهون ما يكون قد علق بنفسه من صراعات أليمة من جراء اتصاله بوالديه واخوته ، وأن تدربه على العلاقات الانسانية السليمة بطريقة منظمة مقصودة لا عارضة •

أما عن دور المدرسة الثانوية فقد أجريت بحوث واسعة النطاق فى الولايات المتحدة عن أثرها فى تكوين الشخصيات والخلق فظهر أن أنجح المدارس فى هذه الناحية هى التى ترضى حاجات المراهق الأساسية وتعترف بشخصيته وتحترم ميوله وتتحدى تفكيره وتتيح له الفرص لابداء رأيه ولكسب المهارات الاجتماعية ، والتى تكون على اتصال بالبيت بما يقى الطالب من التعرض للقيم المتعارضة بينهما ، هذا كله بشرط ان يكون المعلمون ممن تكاملت شخصياتهم واتزنت ، وممن يتمتعون بروح اجتماعية عالية •

١١ — أزمة المراهقة

الجزء الأكبر والأسبق من مجلة الشباب يسمى مرحلة المراهقة ، وهى المرحلة التى تبدأ من البلوغ — وهى سن القدرة على التناسل —

وتنتهى فى مجتمعنا حوالى سن ٢٢ ، وتختلف بداية هـذه المـرحلة وطولها باختلاف الشعوب والجنس •

من التغيرات البارزة التى تطرأ على شخصية المراهق ، والتى ترجع الى عوامل فسيولوجية واجتماعية ، اشتداد الرغبة الجنسية ، وميل المراهق ميلا عارما الى التحـرر من قيود الاسرة ، وجنوحـه الى الاعتداد الشديد بنفسه وتوقه الشديد الى الاستقلال المفرط ، فهو يريد أن يقرر أموره بنفسه دون تدخل والديه ، وأن يختار أصدقائه وملابسـه ومطالعاته بنفسه على غير ما تفرضه الأسرة •• كما تشتد حاجته الى الانتماء الى جماعة رياضية أو اجتمـاعية أو ثلة من ثلل الشـباب تجمع بين أفرادها هـواية معينة أو حى واحـد ، وذلك لشعوره أن الجماعة ترضى ما لديه من حاجات نفسية كثيرة لا يرضيها البيت ولا المدرسة ، لذا فهو يسعى الى الاندماج فى واحدة منها ريفرغ عليها من ولائه واحترامه لقوانينها الشىء الـكثير •• حتى قيـل ان المراهقة مرحلة فطام من السلطان الفردى للأب والمدرس الى سلطان الجمـاعة •

ومرحلة المراهقة تزخر ، عند الشعـوب المتحضرة ، بكثـير من الازمات النفسية والمشاكل السلوكية ، خاصة فى شطرها الاول الذى يلى مرحلة الطفولة ، ثم تخفت حدة هذه الأزمة تدريجا حتى يصـل المراهق السوى فى نهايتها الى درجة كافية من الاتـزان الانفعـالى والنضج الاجتماعى • من علامات هذه الأزمة :

١ ــ شعور المراهق بالخوف والقلق لأنه قادم على عالم جـديد يجهله ، وليس لديه من الحكمة والخبرة ما يستطيع به أن يشق طريقه فيه ، ثم لأنه يخشى طغيان دافعه الجنسى فيفلت الزمـام من يده • ومما يزيد قلقه رغبته الشديدة فى التحرر من رباط الأسرة •• سـنده الروحى •

٢ ــ تقلبات مزاجية ظاهـرة : فاذا بالمراهق يترجح سريعـا بين التحمس والفتور ، بين الاقـدام والاحجام ، بين السيطرة والخنوع ، بين الخشونة والميوعة ، بين الرحمة والقسوة ، بين المحافظة والتطرف ، بين الروية والاندفاع ، بين الضحك والبكاء دون سبب ظاهر أو كاف •

٣ ــ ظهور مشكلات سلوكية من أخطرها التمرد والعدوان أو الانسحاب والهرب المادى أو النفسى من العالم • وللتمرد صور مختلفة ، فقد يكون سافرا صريحا كالتمرد على تقاليد الأسرة وأخلاقياتها وعقيدتها والمهن التى ترتضيها ، أو يبدو فى شكل مخالفات صغيرة فى الملبس أو تمضية أوقات الفراغ • وهو لا يقف عند التمرد على الأسرة بل قد يتجاوزها الى المدرسة والمجتمع جميعا • فضيق المراهق بالأسرة وفقد مكانته فيها ، قد يدفعه الى البحث عن جماعة جديدة تحل محل الاسرة ، وقد تكون جماعة اجرامية ــ فمن فقد القبول والتقدير فى جماعته بحث عن أخرى يجد فيها ما حرمته منه الجماعة الأولى •• أما الانسحاب والانطواء فقد يكون من العنف بحيث يقذف به فى أحضان مرض نفسى أو عقلى •

ولا نريد أن نقول ان كل مراهق يمر بأزمة على هذه الدرجة من الشدة ، فمن المراهقين من يستجيب لمرحلة المراهقة استجابة واقعية موفقة لا افراط فيها ولا تفريط • انما يتوقف نوع الأزمة وشدتها على عوامل كثيرة منها الاستعداد الفطرى للمراهق ، ونوع تربيته فى الطفولة ، وما ارتطم به من صدمات فى مطلع المراهقة ، وما يلقاه من مساندة وتوجيه ابان هذه المرحلة •

اسباب الأزمة :

تنشأ هذه الازمة من تضافر عوامل جسمية ونفسية واجتماعية شتى :

١ ــ التغيرات الجسمية والفسيولوجية السريعة المفاجئة فى شكل المراهق وحجمه ومظهره وخرقه فى الحركة وازدياد رغبته فى الأكل •• هذه الى ظهور أحلام الامناء عند الذكور ، وظهور الطمث عند الاناث ••

٢ ــ تدفق طائفة من الدوافع الجديدة الغريبة يسبب له الكثير من الحيرة والارتباك • فالى جانب اشتداد الدافع الجنسى ، هناك الرغبة الشديدة فى الاستقلال وفى توكيد الذات •• وهى دوافع لابد أن تلاقى موانع وعوائق من المجتمع ومن الأسرة ومن ضمير المراهق مما يسبب له صراعات نفسية شتى •

٣ ـ اضطرار المراهق الى التخلى عن كثير مما اكتسبه من عادات واتجاهات ، وتعلم أدوار جديدة مختلفة ازاء والديه وازاء الجنس الآخر وازاء الغير .

٤ ـ ومن أهم العوامل الاجتماعية فى هذه الأزمة موقف الكبار منه واسلوب معاملتهم له وما يحيطونه به من قيود يراها تعسفية أو لا معنى لها : ان تصرف كالطفل سخروا منه ، وان تصرف كالكبير ضحكوا عليه . ان اقترب من جماعة الكبار أعرضوا عنه ، وان ارتد الى جماعات الطفولة لم يرحبوا به . كل أولئك يجعله يشعر أنه غريب عن عالم الصغار ، دخيل على عالم الكبار . فكأن المراهق فى وضعه هذا مسافر وصل الى الحدود وأغلقت من ورائه أبواب الطفولة ، لكنه لا يحمل جواز سفر يسمح له باجتياز الحدود :

٥ ـ هذه العوامل والظروف المختلفة من شأنها أن تخلق فى نفس المراهق طائفة من الصراعات تزيد من شدة توتره وتقلبه . من هذه الصراعات :

(١) صراع بين شعوره الشديد بذاته وشعوره الشديدبالجماعة.

(٢) صراع بين مغريات الطفولة ومخلفاتها وبين مغريات الرجولة ومتطلباتها . فالمراهق يجتاز مرحلة لا يعود فيها طفلا ولا يكون فيها رجلا . فهو يحن الى الطفولة تارة ويتلهف على الرجولة طورا . والمعروف أن عدم انتماء الفرد الى جماعة محددة يشعره بالاغتراب ويزيد من توتره الانفعالى .

(٣) صراع بين ميله الجديد الى الاستقلال وتوكيد ذاته وبين رغبته القديمة فى الاعتماد على غيره ، أو بين رغبته فى الاستقلال وخوفه من الاستقلال .

(٤) صراع بين طموحه الزائد وبين قلة حيلته أو نفوره من الاعتراف بعجزه ـ بين الواقع ومثالية الشباب .

(٥) صراع جنسى بين الدافع المتحفز وبين تقاليد المجتمع أو بينه وبين ضمير المراهق .

(٦) صراع ديني بين ما تعلمه من شعائر وهو صغير عن طـريق التلقين والتقليد ، وبين ما يصوره له تفكيره الناقد الجديد .

(٧) وأعنف هذه الصراعات هو الصراع الثقافي بين جيله والجيل الماضي، خاصة في مراحل التغير الاجتماعي السريع أو العنيف . انه صراع بينضميرين . وهو يزداد حدة حين يرى المراهق أن الاراء التي يؤيدها الآباء بقوة يعارضها أناس أعلى قدرا وأكثر حكمة من الاباء .

وفيكلمة موجزة نقول ان أسباب أزمة المراهقة تتلخص فيما يبذله المراهق من جهود للتوافق مع نفسـه ومع الاخرين .

وقد وفقت منظمـات الشباب الى معونة كثير من المراهقين عـلى اجتياز هذه الأزمة بسلام . فقد أعانت المراهق على اكتشاف نفسه، على اكتشاف قدراته وامكاناته الخافية أو المهملة ، ونـواحي القـوة والضعف فيه . كما ارضت كثيرا من حاجاته النفسـية كالحاجة الى الأمن والى التقدير والى الانتماء والى الاستطلاع . ولنذكر أن اختلاط الجنسين في هذه المنظمات ذو قيمة صحية بالغة ، فهو يبدد الأفـكار الغـامضة التي يخلقهـا الخيـال ، ولا يصححهـا الواقع ، في نفس الجنس الآخـر . هذا فضلا عن أنها وجهت المراهق الى استثمار وقت فراغه ، وباعدت بينه وبين الملل « كابوس اليقظـة » ، ووقتـه من الانطواء على نفسه ومن حياة الترهل والنعومة ، وحفزته على الاشتراك في النشاط الاجتماعي المنظم الهادف الذي يعتبر بمثابة علاج نفسي . فلا شيء يؤدي الى تكامل شخصية الشـاب واتزانها مثل تعبئة قواه المختلفة وقدراته واهتماماته لعمل شيء يرضي نفسه ويرضي المجتمع.

١٢ — اثر الدور الاجتماعي في الشخصية

الدور Role هو نمط السلوك الذي تنتظره الجماعة من فرد ذي مركز معين فيها . وهو سلوك يميز الفرد عـن غيره ممن يشغلـون مراكز أخرى . فالمجتمع ينتظر من الرجل غير ما ينتظره من المرأة . ومن الراشد غير ما ينتظره من الطفـل . ومن الطفـل ذي العـاشرة غير ما ينتظـره من ذي الثـالثة ، ومن الأب أن يوجـه أولاده ويعلمهم

ويحميهم ويؤدبهم •• وغنى عن البيان أن الدور يختلف باختلاف ثقافة المجتمع وباختلاف سن الفرد وجنسه ومهنته • ولقد رأينا فى الفقرة السابعة من هذا الفصل كيف تؤثر ثقافة المجتمع فى الدور الذى يقوم به الفرد وتحدده • اذ رأينا النساء فى بعض الشعوب البدائية يتسمن بسمات الرجال ، ويقمن بأعمال الرجال فى الثقافات الغربية •

وكل دور يفرض على صاحبه أن يتسم بسمات معينة وأن يتخلى عن سمات أخرى • فدور الأب غير دور القاضى غير دور الشرطى أو مأمور الضرائب •• وأستاذ الجامعة تصفه الروايات والأفلام بأنه شارد الذهن ، مرتبك ، غير عملى •• فى حين تصف الطبيب بأنه شخص حازم جازم صبور ذو سلطة ونفوذ ، هذا الى أنه يعرف كل شىء •• بل ان اختلاف سمات الشخصية للأفراد الذين يزاولون مهنة معينة عن سمات من يزاولون مهنا أخرى كان الأساس لصوغ استخبار ناجح لقياس الميول هو « صفحة الميول المهنية لـ « سترونج » (أنظر ص ٣٥٤) ولقد فرضت الثقافة الغربية على الرجل أن يتسم بالتحدى والسيطرة والاكتفاء الذاتى والثقة بالنفس مما لم تفرضه على المرأة •• من هذا نرى أن للدور أثرا كبيرا فى تنمية بعض سمات الشخصية أو تعطيلها أو تضخيمها أو الانحراف بها أحيانا • ولا يخفى أن عجز الفرد عن أداء دوره كما يجب مما يهز فكرته عن نفسه ويمس عاطفة احترامه لذاته بما قد يعرضه لصراع نفسى شديد يتهدد شخصية •

صراع الأدوار :

يندر أن يقوم الفرد العادى بدور واحد بل بأكثر من دور فى حياته ، فيكون الرجل ابنا وأبا وزوجا وصديقا وموظفا وعضوا فى ناد •• وتكون المرأة زوجة وأما وعاملة وعضوا فى جمعية •• وقد تنسجم مُتطلبات هذه الأدوار بعضها مع بعض أو تتصارع وتتنافر بحيث لا يستطيع الفرد التوفيق بينها مما يكون له أثر سىء فى شخصية ، فمن العسير على الممثل أو الموسيقى الذى ينفق وقت عمله بالليل أن يقيم حياة منزلية مستقرة • وقل مثل هذا فى التاجر المتنقل الذى يضطره عمله الى ترك منزله فترات طويلة ، أو الموظف الذى يضطر الى مقابلة رؤسائه بوجه ومقابلة مرءوسيه بوجه آخر مختلف كل الاختلاف مما لا يرتاح اليه •

ويبدو أثر الصراع بين الأدوار بشكل واضح حين يتغير اتجاه الفرد فى الحياة أو حين تضطره الظروف الى ذلك مما قد يؤدى به الى أزمات نفسية عنيفة ، وتلك حال الطفل عند دخوله المدرسة لأول مرة ، وحال الصبى فى مبتدأ سن البلوغ ، أو حين ينتقل المراهق من المدرسة الثانوية الى الجامعة ، أو حين ينتقل الشاب من الجامعة الى ميدان العمل ، أو من الحياة المدنية الى الحياة العسكرية ، أو من حياة العزوبة الى الزواج ، أو حين ينجب طفلا ، أو يتقاعد عن العمل .. ذلك أن الانتقال من دور الى دور نوع من الفطام والتكيف للجديد . وكل فطام عسير لأنه يقتضى من الفرد التنازل عن عادات مألوفة والأخذ بأخرى جديدة غير مألوفة .

١٣ — الفوارق بين الشخصيات

رأينا من دراسة الذكاء أنه قدرة عامة فطرية موروثة ، وأن الفوارق الفردية فى الذكاء ترجع فى المقام الاول الى الوراثة . ونتساءل الآن: أيهما أهم فى تعيين شخصية الفرد وفى التمييز بين شخصيات الافراد، البيئة أم الوراثة ؟ والجواب على هذا يتوقف على مفهوم الشخصية كما نأخذ به فان كنا نرى أن الشخصية وحدة من سمات اجتماعية وخلقية ليس غير ، فالفوارق بين الشخصيات ترجع اذن الى العوامل البيئية وحدها . وان كنا نرى أنها وحدة من سمات اجتماعية وخلقية ومزاجية ، فلابد أن نعمل للوارثة حسابا فى تكوين الشخصية وفى الفوارق بين شخصيات ، لأن المزاج تقرره الوراثة الى حد كبير .

الرأى السائد اليوم أن الفروق الفردية بين الشخصيات ترجع الى كل من الوراثة والبيئة مع ترجيح أثر البيئة . صحيح أن السمات الاجتماعية لابد أن يكتسبها الفرد . فليس فى طبيعة التكوين الوراثى للهنود ما يجعلهم البقر ، أو فى طبيعة الامريكيين ما يجعلهم يكرهون الزنوج ، أو فى طبيعة اليابانيين ما يجعلهم يؤلهون الأباطرة ، غير أننا لانستطيع أن ننكر أثر الوراثة فى تكوين بعض السمات .

أما الذين يرون أن الشخصية مركب اجتماعي صرف ، وأنهـــا مجرد انعكاس لثقافة المجتمع ، فيغفلون عمـا بين الأفراد من فوارق ترجع الى عوامل وراثية وبيولوجية • وهناك أدلة عـدة نحتج بهـا على هؤلاء منهـا :

١ ــ ان التوائم الصنوية ، أى متطابقة الــوراثة ، ان نشـأت فى بيئات اجتماعية وثقافية مختلفة ، فانها تبدى تشابها ملحوظـا فى سماتها المزاجية منذ الاسابيع الاولى لميلادها وتظل هذه الســمات ملازمة لها طول الحياة ، فى حين أن التوائم اللاصنوية التى تنشأ فى بيئة واحدة تبدى اختلافا ملحوظا فىسماتها المزاجية منسن مبكرة جدا•

٢ ــ كما اتضح أن الاطفال المشكلين من سمات خلقية منحرفــة ان انتقلوا من بيئتهم الى بيئة أخرى أصلح منهـا تحسنت سمـاتهم الخلقية وبقيت سماتهم المزاجية كما هى دون تغيير •

٣ ــ ثم لمـاذا تختلف شخصية الأفراد الذين ينشئون فى بيت واحد، أو ينتمون الى طبقة اجتماعية واحدة ، أو يقومون بأدوار اجتماعيـة واحدة ؟ صحيح ان البيت الواحد أو الطبقة الاجتماعية الواحدة ليسـا بيئة سيكولوجية واحدة لجميع من بهما من الأفراد ، لكنهما من دون شك أكثر تجانسا وتشابها ان قيسا الى بيوت أخرى أو طبقات اجتمـاعية مختلفـة •

موجز القول أننـا يجب أن نعمل لكل من الوراثة والبيئة حسابا فى تعيين شخصيات الأفراد وما بينها من فوارق • والذى نريد توكيده هو أن الشخصية ليست نتيجة اضافة عددية لهذين العاملين بل نتيجة تفاعل بينهما • ان البيئة لا تشكل الفرد كما يشكل الصانع الصلصال ، بل انها تحفزه كما يحفز السوط الحصـان • فالسوط لا يزيح الحصان الى أمام بل يستحثه على السير بنشاطه الذاتى وجهده الخاص وما لديه من دوافع فطفلان مختلفان فى الوراثة ــ فى درجة التأثر الانفعالى وتحمل الاحباط مثلا ــ تختلف استجابتهما لنفس النوع من المعاملة البيئية ، هذايستجيب للمعاملة القاسية بالتمرد والعدوان ، وذلك بالاستسلام والاستكانة • وشخصان مختلفـان فى الوراثة يختلف أسلوب أدائهمـا لنفس الدور الاجتماعى ، هذا يؤديه فى لـين ورفق ، وذاك فى غلظة وعنف • والنار

التى تذيب الدهن هى نفسها التى تجعل البيض يتجمد • ومن ناحية أخرى فشخصان لهما نفس الوراثة ، كالتوأمين الصنوين ، قد يصبح أحدهما مجرما والآخر صالحا لاختلاف البيئة التى نشآ فيها •

١٤ — تغير الشخصية وتغييرها

تنمو الشخصية وتتغير سريعا فى السنوات الأولى من العمر ، ثم يأخذ هذا النمو والتغير فى الابطاء ، حتى اذا تجاوز الفرد مرحلة الشباب المبكر لا يكون هذا التغير ملحوظا • وتتغير الشخصية بتغير العادات والاتجاهات والخبرات وطرق التفكير • وكما تتغير الشخصية بتغير هذه المقومات ، فان الشخصية متى تغيرت غيرت هذه المقومات فتزداد قدرة الفرد على التكيف للمواقف المختلفة •

وتغير الشخصية قد يحدث عن قصد كما نغير وزن أجسامنا بتغيير نوع الغذاء ومقداره ، أو عن غير قصد كما يتغير وزن أجسامنا دون أن نقصد الى زيادته أو نقصه •

ومما يجدر ذكره أن السمات المزاجية والسمات العصابية وسمات الطفولة المبكرة لا يمكن أن يغيرها الراشد الكبير بمجهوده الذاتى ، وأننا كلما بادرنا الى علاج سمات الطفولة المبكرة كانت أقرب الى التحور والتحسن مما لو تركت تشب مع الطفل •

ولنذكر أن كثيرا من الناس يستطيعون تغيير بعض جوانب شخصياتهم بمجهودهم الذاتى ، لكنهم لا يفعلون لأنهم يرضون بأنفسهم كما هم عليه • وهذا الرضا يمنعهم من أن يعترفوا لأنفسهم بأن لديهم سمات يمكن تحسينها •

أسـئلة وتمـارين

١ ـ وازن بين تعريف الشخصية فى اللغة الدارجة والتعريف المقدم فى هذا الكتاب •

٢ ـ بين على ميزان تقدير بيانى قوة الدافع الى التقدير الاجتماعى لدى عدة أشخاص ممن تعرفهم جيدا •

٣ ـ اعمل قائمة بعشرة أسئلة يمكن أن تستخدم فى استخبار يقيس سمة السيطرة أو الخضوع •

٤ ـ صمم اختبارا موقفيا لتقدير السمات الآتية : عدم الاكتراث ، القدرة على كتم السر ، القابلية للايحاء •

٥ ـ كلما اعتمد الحكم على الشخصية على القياس الموضوعى كان دقيقا لكنه يكون سطحيا ، وكلما اعتمد على التقدير الذاتى كان عميقـا لكنه يكون غير دقيق ـ اشرح هذه العبارة •

٦ ـ ما هى الأخطـاء التى يحتمل أن يقع فيها رئيس و هو يقـدر شخصيات مرءوسيه ؟ •

٧ ـ الى أى حد نستطيع الحكم على شخصية فرد من نوع حـديثه وطريقته فى الحديث ؟ •

٨ ـ كيف يمكن تفسير نمو الشخصية بنظريات التعلم ؟ •

٩ ـ بين دور التعلم الشرطى فى تكوين سمات الخجل والتعـاون والأمانـة •

١٠ ـ يزداد نمو الشخصية باتساع الصـلات الاجتماعية للفرد ـ اشرح •

١١ ـ ما أهم تغيرات المراهقة التى ترجع الىالنضج الطبيعى ، وتلك التى ترجع الى التعلم ؟ •

١٢ ـ ما أوجه الشبه وأوجه الاختـلاف بين الشخصية فى مرحلة الطفولة المبكرة وفى المراهقة ؟ •

١٣ — وازن بين أثر الأسرة فى مرحلتى الطفولة المبكرة والمراهقة على شخصية الفرد .

١٤ — ما أهم العوامل التى تعطل نمو الشخصية ؟ .

١٥ — ما المقصود بالصورة الدينامية للشخصية ؟ .

١٦ — أذكر أهم ما أضافته الدراسات الانثربولوجية الى سيكولوجية الشخصية .

١٧ — ناقش الرأى الذى يقول ان المجتمع مرآة يرى الفرد فيها نفسه .

١٨ — القول بأن الشخصية مرآة تنعكس عليها ثقافة المجتمع ، قول حق لكنه ليس كل الحق — لماذا ؟ .

١٩ — بين بالمثال كيف أننا لانستطيع أن نفهم شخصية فرد اذا فصلنا بينه وبين المجتمع الذى يعيش فيه .

٢٠ — تؤثر ثقافة المجتمع فى شخصيات أفراده وتتأثر بها — اشرح .

٢١ — كل فرد منا يشبه جميع الناس من بعض الوجوه ، ويشبه بعض الناس من بعض الوجوه ، غير أنه فى الوقت نفسه لا يشبه أحدا غيره من الناس — ناقش واشرح .

٢٢ — الى أى حد ساعدتك دراسة علم النفس على فهم شخصيات من يعاشرونك من الناس ؟ .

الباب السادس

الصحة النفسية

الفصل الأول : الأزمات النفسية

الفصل الثانى : الأمراض النفسية والعقلية

الفصل الثالث : مبادىء الصحة النفسية

الفصل الأول

الأزمات النفسية

١ — معنى الأزمة

لا تخلو حياة الانسان من صعوبات وعقبات ، مادية ومعنوية ، خفيفة وعنيفة ، تعوق سير دوافعه نحو أهدافها • فان عجز عن اجتياز العقبة بطريقة سريعة مرضية ، فالطريق الطبيعي لازالتها أو التغلب عليها هو أن يضاعف جهوده وأن يكرر محاولاته لتنحيتها من طريقه • فان لم يفلح فالخطوة الطبيعية الثانية هي أن يأخذ في البحث والتفكير عن طرق أخرى لحل هذه المشكلة ، كأن يحاول الالتفاف حول العقبة ، أو استبدال الهدف المعوق بآخر ، أو تأجيل ارضاء الدافع الى حين • وقد يلتمس النصيحة أو يتعاون مع الغير أو يعمل على اكتساب معلومات ومهارات جديدة تعينه على حل مشكلته • وقد يقع على الحل بعد جهد وعناء يطول أو يقصر ، أو يطول تفكيره ومحاولاته دون جدوى فيمتنع عليه الحل مهما بذل من جهد وتفكير • هناك يقال انه يعاني « أزمة نفسية » فالأزمة النفسية حالة انفعالية مؤلمة تنشأ من الاحباط الموصول لدافع أو أكثر من الدوافع القوية •

وتختلف الأزمات من حيث شدتها وطول بقائها واستعصاؤها على الحل • فتكون أشد وأعمق أثرا ان كانت الدوافع المعوقة حيوية هامة وكانت أهدافها ذات قيمة كبيرة للفرد ، وتكون أكثر استعصاء على الحل ان تضمنت دوافع لا شعورية لا يفطن المتأزم الى وجودها ، أو كانت المشكلة تفوق قدرة الفرد على حلها •

وتقترن الأزمات عادة بحالة من التردد والحيرة والقلق والتوتر ، هذا الى ما يترتب على احباط الدوافع من مشاعر أليمة بالنقص والخيبة والعجز ، أو الشعور بالذنب والخجل والاشمئزاز والخزي ، أو الشعور بالظلم والرثاء للذات ، أو الشعور بالوحدة والاغتراب ، أو شعور الفرد بفقد احترامه لنفسه •

٢ — أسباب الأزمات النفسية

يمكن اجمال العوامل المختلفة التى تؤدى الى الأزمات النفسية فيما يلى :

١ — عقبات مادية : فوجود الانسان فى صحراء لا ماء فيها يحبط حاجته الى الشرب،ووجوده وحيدا فى السجن يحبط حاجته الى الاجتماع بالناس ، كذلك المزارع الذى أتلف الجدب محصوله ، أو العامل الذى تعوقه حرارة الجو أ ورداءة الأدوات التى يعمل بها عن انجاز شىء يريد عمله .

٢ — عقبات اجتماعية : كاجبار طفل يريد اللعب على البقاء فىحجرته والاستمرار فى المذاكرة ، أو اجبار شاب على الالتحاق بكلية لايميل اليها، أو اكراه فتاة على الزواج من شاب لا تميل اليه ، أو وضع الموظف فى عمل لا يرضاه .. هذا فضلا عن ضروب الاحباط التى تنشأ فى زحمة تعاملنا مع الناس مما يثبط جهودنا ويعوق رغباتنا أو يمس كرامتنا : شخص يستعلى عليك أو يغار منك أو يتغفلك أو يتجاهلك أو يخدعك أو يشى بك و يخلف ظنك أو يتربص بك أو يكيد لك .

٣ — عوامل اقتصادية : فبعض المجتمعات يقيم نظاما اجتماعيا لا يستطيع الفرد أن يشبع فيه حاجاته الضرورية الا بالمال ، لكنه يجعل الحصول على المال أمرا عسير أو بعيد المنال . وهنا يلاحظ أن الفقر ليس فى ذاته مصدرا للاحباط عند جميع الناس . فمن الناس من يتقبلون الفقر ويطيقونه فى صبر يدعو الى الاعجاب ، ومنهم من ينعم بدخل كاف لكنه يظل فى حالة من الضيق المزمن لأنه يطمع فى مزيد . فليس المهم هو الموقف الخارجي بل كيفية ادراك الفرد له وشعوره به .

٤ — عيوب شخصية : قد يعوق الفرد عن التقدم والنجاح ضعف صحته العامة أو وجود عاهة جسمية أو مرض مزمن لديه . أو تكون العيوب نفسية كنقص فى الذكاء أو الاستعدادات أو شخصية غير جذابة ، أو ضعف ثقة الفرد بنفسه ، أو عادة سيئة تتحكم فيه ، أو عجزه عن عقد الصداقات ، أو ضمير صارم يكون مصدر وخز دائم له .

٥ ـ **صراع الدوافع** : الصراع النفسي هو تعارض بين دافعين لا يمكن ارضاؤها في وقت واحد لتساويهما في القوة ، أو هو الحالة النفسية المؤلمة التي تنشأ عن هذا التعارض. وحياة الانسان كلها لا تعدو أن تكون سلسلة من صراعات شتى تختلف شدة وتأثيرا وموضوعا . فأول صراعات يعانيها الرضيع يدور رحاها بين رغبته في ارضاء دوافعه ورغبته في ارضاء أمه وذلك حين تحاول تقييد حركاته أو تنظيم مواعيد ارضاعه وحين تفطمه من الثدي . ثم تتلو ذلك صراعات أخرى بين رغبته في ارضاء دوافعه وخوفه من العواقب أو من ضميره . وما أكثر الصراعات التي تخلقها معاملة والديه له ، وموقفه من اخوته وأخواته ، ومعاملة المدرسين له ، والجو الاجتماعي الذي يسود المدرسة ، هذا فضلا عن الصراعات التي تبهظه في مرحلة المراهقة (ص ٤٣٧) ، وتلك التي تنشأ في مرحلة الرشد حول حياته المهنية والزوجية والاجتماعية العامة بين حقوقه وواجباته ، وبين ما يريده وما يقدر عليه ، وبين الأدوار الاجتماعية المختلفة التي يؤديها (ص ٤٣٨) .

وقد يكون الصراع عابرا طارئا أو دائما مقيما . فمن الصراعات العابرة التعارض بين رغبة الطالب في الذهاب الى السينما ورغبته في البقاء بالبيت للمذاكرة ، ومن الصراعات الدائمة تلك الصراعات الباقية في نفس الفرد من عهد الطفولة كتلك التي تدور حول رغبته في الاعتماد على أمه ، أو كرهه لأبيه ، وهذه صراعات لا شعورية في العادة .. ويميل علماء النفس الى قصر اصطلاح « الصراع النفسي » على الصراع الدائم الموصول لا العابر المؤقت ، سواء كان شعوريا أو لا شعوريا .

فأما الصراع الشعوري فهو الذي يفطن الفرد الى طرفيه أي الى الدافعين المتعارضين فيه ، وأما الصراع اللاشعوري فهو الذي يكون أحد طرفيه أو كلاهما خافيا لا يشعر الفرد بوجوده كالصراع بين حب الطفل الشعوري لأبيه وكرهه اللاشعوري له ، أو بين ثقتك الشعورية في شخص وارتيابك اللاشعوري فيه ، أو بين رغبة محظورة وبين ضمير الفرد ـ والضمير كما قدمنا جهاز نفسي لا شعوري . وترى مدرسة التحليل النفسي أن الصراعات الشعورية لا ينجم عنها ضرر بليغ ، أي أنها لا تسبب اضطرابا في الشخصية ، لأن الفرد يستطيع أن يحسمها ويحلها ان عاجلا أو آجلا ، بالتوفيق بين الدوافع بعضها وبعض ، أو ترجيح أحدها على

الآخر ، أو تأجيل اشباعه حتى تحين فرصة مواتية . أما الصراعات اللاشعورية فعامل أساسى فى اضطراب الشخصية وتفككها . ذلك أن الصراع الشعورى يمكن سياسته وحسمه بطريقة أو بأخرى . وهذا على عكس الصراع اللاشعورى الذى يستحيل حسمه فاذا به ينزع الى الأزمان والدوام . ومن أخطر هذه الصراعات اللاشعورية وأبقاها أثرا فى شخصية الفرد تلك الصراعات الأساسية أو الجذرية التى تتكون فى مرحلتى الرضاعة والطفولة المبكرة حول إصدمات الانفعالية التى تعرض للطفل فيهما ، والتى تعتبر من العوامل الممهدة لا ضطراب الشخصية فى عهد الكبر . ولنذكر بهذا الصدد ما سبق أن ذكرناه من قبل وهو أن الصراعات النفسية الموصولة تحول دون تكامل الشخصية ووحدتها واتزانها ، أى تمهد الطريق لاضطراب الشخصية واعتلال الصحة النفسية .

ونوجز ما تقدم فنقول ان الازمات النفسية تنشأ من احباط موصول لدافع أو أكثر من الدوافع القوية . وهو احباط ينشأ من عقبات مادية أو اجتماعية أو شخصية أو نتيجة صراع بين الدوافع . غير أن العقبات الخارجية ليست فى ذاتها مصادر للاحباط والضيق الألم عند جميع الناس ، بل يتوقف تأثيرها على وقعها وصداها فى النفوس المختلفة ، فالبؤس فى ذاته لا يحرك الناس بل الشعور بالبؤس . وكذلك الفقر . ومن ناحية أخرى فقد يشعر الفرد بالأحباط حين يتصور وجود عقبة خارجية لا وجود لها فى الواقع .

مصادر ازمات شديدة :

من المواقف التى تسبب لأغلب الناس أزمات نفسية شديدة :

١ ــ الأفعال أو المواقف التى تثير وخز الضمير .

٢ ــ كل ما يمس كرامة الفرد واحترامه لنفسه ، وكل ما يحول بينه وبين توكيد ذاته .

٣ ــ حين تثبت الظروف للفرد أنه ليس من الأهمية أو من القوة ما كان يظن .

٤ ــ حين يستبد به الخوف من فقدان مركزه الاجتماعى أو حين يتوهم ذلك أو حين يفقده بالفعل .

٥ ـ حين يشعر بالعجز وقلة الحيلة ازاء عادة سيئة يريد الاقـلاع عنهـا •

٦ ـ حين يبتلى برئيس مستبد •

٧ ـ حين يعاقب عقابا لا يستحقه •

٨ ـ حين يمنع من تحقيق ما يريد منعا تعسفيا •

٩ ـ حين يشعر ببعد الشقة بين مستوى طموحه ومستوى اقتداره •

١٠ ـ حين يشعر ببعد الشقة بين ما يملك وما يراه حقا له •

١١ ـ حين يرى الغير يكافئون دون استحقاق •

٣ ـ وصيد الاحبـاط

يختلف سلوك الناس حيال ما يعترضهم من عقبات ومشكلات اختلافا كبـيرا :

١ ـ فمنهم من يمضى فى التفكير والتقدير وبذل الجهد للخروج من المأزق حتى ان كان فى حالة من التوتر الشديد •

٢ ـ ومنهم من يسارع الى الاستسلام والتخاذل على الفور •

٣ ـ ومنهم من يضطرب ويختل ميزانه بعد محاولات تطول أو تقصر • فاذا به قد أصبح نهبا للغضب أو الذعر أو الخزى وغير تلك من المشاعر التى تنجم عن الفشل والاخفاق ، وبدل أن يتجه بجهوده الى حل المشكلة اذا به يلجأ الى طرق وأساليب معوجة أو ملتوية أو متطرفة تنقذه مما يكابده من توتر وتأزم نفسى • وهى أساليب لا تدنيه من هدفه ، بل تنأى به عنه ، أى أنها لا تحقق التـوافق بينه وبين بيئته ، أو بينـه وبين نفسه • وبعبارة أخرى فمن الناس من يلجأ الى أساليب واقعية انشائية ، ومنهم من يلجأ الى طرق معوجة أو سلبية أو غير واقعيـة لحل مشاكله • فالرجل السوى ان فقد عمله جد فى البحث عن عمل آخر ، لكن غيره قد يثور على النظام الاقتصادى ، أو ينسب فقد عمله الى مؤامرات دبرت ضده ، أو يوقن أنه مضطهد ، أو يأخذ فى استجداء العون واستدرار العطف من غيره ، أو يظل دون حراك يجتر أفكار الظـلم ، أو ينهار فيصاب بمرض نفسى أو عقلى •

ويطلق اصطلاح « وصيد الاحباط » على قدرة الفرد على احتمال الاحباط دون أن يلجأ الى أساليب ملتوية غير ملائمة لحل مشكلته ، أى لاستعادة توازنه النفسي. فمن كان وصيد احباطه مرتفعا استطاع تحمل الاحباط والحرمان واستطاع الصمود أكثر من غيره ، وكان نضجه الانفعالى أتم وأكمل من غيره . فوصيد الاحباط من أهم السمات التى تطبع شخصية الفرد وتميزه عن غيره ، والوصيد المرتفع من أهم علامات الصحة النفسية السليمة ، وقوة الأنا [1] .

ويتوقف وصيد الاحباط على وراثة الفرد الى حد كبير ، كما يتوقف أيضا على ما يفرغه الفرد على الموقف من دلالة وأهمية نتيجة لخبراته السابقة ، خاصة خبرات الطفولة . فالرئيس المستبد قد يكون مصدرا للضيق والقلق عند مرؤسيه ، لكنه يكون شيئا لا يطاق فى نظر مرءوس كان أبوه يستبد به فى طفولته . وبعبارة أخرى ليس المهم الموقف بل كيفية ادراك الفرد للموقف[2] .

ولكل انسان حد معين لتحمل الاحباط والصدمات لايلبث أن ينهار بعده مهما بلغ اتزانه النفسى . ولقد بينت لنا الحروب الحديثة أن أكثر الشخصيات ثباتا واتزانا لا تلبث أن يصيبها التفكك والانهيار حيال مواقف الفزع العنيف التى يتحتم ازاءها الصمود ويمتنع الهرب. ويعرف هذا الحد « بنقطة الانهيار » . على هذا الاساس تقوم عملية « غسل المخ [3] » التى تستهدف قسر الفرد على التخلى عن آرائه واتجاهاته ووجهة نظره والأخذ بعقيدة من يتولى غسل مخه . فمن الطرق الشائعة لهذه العملية تعريض الشخص لضروب شتى من الارهاق الجسمى والنفسى والذهنى كالحرمان من النوم ومن الطعام ومن الملبس أو الكى بالنار وامتلاخ الاظافر والصدمات الكهربية ، وكالحبس الانفرادى ، وتوجيه تهم باطلة ، وتشكيك الفرد فى عقيدته بل وفى نفسه . واشعاره بالذنب من أعمال لم يقم بها قط وتعريضه لالوان شتى من الخوف

---

(١) قوة الأنا حالة تبدو فى قدرة الفرد على مواجهة مشكلات الحياة ومتاعبها دون يأس أو فقدان للاتزان الانفعالى أو فى الثقة بالنفس أو استغراق فى المشكلة دون العمل على حلها .

(٢) انظر ما سبق أن قدمناه عن الصلة بين الادراك والسلوك (ص ١٧١)

(٣) brainwashing

والاذلال والاهانة . وقسره على الاعتراف بما يراد منه الاعتراف به ، وارغامه على الاستمرار فى المناقشة والدفاع عن نفسه ساعات طولا .. وتختلف استجابة الناس لهذه العملية : فمنهم من ينهار انهيارا تاما ويصاب بالجنون . ومنهم من يحاول الانتحار عبثاء ومنهم من ينكص على عقبيه ويصبح كالطفل فى تفكيره وسرعة تصديقه ، ومنهم من يستسلم ويقتنع .

٤ ـ الحيل الدفاعية

ان لم يوفق الفرد الى حل المشكلة التى تواجهه بطرق ايجابية واقعية ، ظل فى حالة من التوتر الانفعالى الموصول ، ولجأ الى أساليب ملتوية سلبية خادعة تخفف عنه بعض ما يكابده من تأزم نفسى وتقيه مشاعر القلق والعجز والفشل والخجل والرثاء للذات وغيرها من المشاعر التى تنشأ عن احباط دوافعه ، فاذا به يتجاهل المشكلة أو يتناساها أو ينكرها أو يستصغرها أو يموه عليها أو يتنصل منها بالقاء اللوم على غيره لا على نفسه .. كل ذلك خلاصا مما يعانيه من قلق[1] أو درءا له بدلا من مواجهته . لذا نسمى هذه الاساليب الملتوية بالحيل الدفاعية لانها تدفع عن الفرد غائلة القلق ، وتهبه شيئا من الراحة الوقتية ، وان تكن راحة وهمية حتى لا يختل توازنه . وهى أساليب يلجأ اليها الصغار والكبار ، الاسوياء وغير الاسوياء يلجئون اليها للتخفف من أزماتهم النفسية المستعصية وفى حل مشكلاتهم اليومية العابرة الطارئة وسنرى أن هذه الحيل تعمل غالبا على مستوى لاشعورى ، أى أن الفرد لا يكتسبها عن قصد ولا يستطيع ضبطها وكفها بارادته . من أهم هذه الحيل :

---

(١) قدمنا ان القلق انفعال مركب قوامه الخوف المحبط وينشأ عن تهديد الشخصية من خارج أو من داخل غير ان اصطلاح القلق كثيرا ما يطلق على الانفعال او التوتر الناشىء عن احباط أى دافع او انفعال كالدافع الجنسى وانفعال الغضب أو الغيرة . ولهذا التوسع فى مفهوم القلق ما يبرره، اذ ان احباط اى دافع او انفعال فيه تهديد للشخصية ، وكل تهديد يقترن بالخوف .

١ ـ الكبت

هو أول حيلة للتخفف من القلق بخـداع الذات (ص ١١٠) • وقد رأينا من قبل أن الكبت يجعل الفرد ينكر ويعمى عن عيوبه ونقائصه ودوافعه المستكرهة ومقاصده السيئة ، وبذا يحفظ له كبرياءه واحترامه لنفسه • كما أنه يجعلنا نرفض مواجهة كثير من مشاكلنا وما يوجه الينا من نقد •

غير أن الكبت حيلة ساذجة خرقاء من حيل خفض التوتر والقلق • صحيح أن استبعاد الدوافع والرغبات المثيرة للقلق يكف الانسان عن تذكرها والتفكير فيها ؛ غير أن هذه الدوافع المكبوتة لا تزول وتمحى بل تظل فعالة مؤثرة وهى كامنة فى اللاشعور تستفزها ظروف كثيرة وتثيرها مواقف ومثيرات رمزية مما يشعر الانسان على الدوام بالقلق دون أن يستطيع تحديد مصدر هذا القلق ، ومن ثم يعجز عن التخلص منه أو التحكم فيه وبمضى الزمن يتراكم التوتر والقلق ما ظلت الظروف تستثير الدوافع المكبوتة • وهنا تنقلب وظيفة الكبت • فبعد أن كان أول الامر وسيلة دفاعية لخفض القلق ، اذا به يصبح آخر الامر وسيلة لازدياد شدته •

ولنذكر أن الكبت العنيف يستنفذ جزءا كبيرا من طاقة الفرد ، ومن ثم لا يبقى لديه الا قدر قليل منها لمواجهة شدائد الحياة وأعبائها ، وللانتاج المثمر ، وللاستمتاع بالحياة • فمن شب على كبت عنيف شب واهنا ضعيفا ، فان ضغطت عليه الدنيا خارت قواه وانهار •

٢ ـ الانسحاب Withdrawal

هو ابتعاد الشخص المتأزم عن المواقف التى يحتمل أن تثير فى نفسه القلق ، خاصة مع الناس ، فاذا بالرجل يترك أسرته واذا بالطالب يترك مدرسته أو كليته تجنبا للفشل • فان اضطرته الظروف الى البقاء فى هذه المواقف ، تقوقع وعاش الى جوار الناس لا معهم ، كالزوجة التى تضطر الى البقاء مع زوجها من أجل أطفالها ، وكالتلميذ الذى يجلس فى الفصل شارد الذهن لا يكلم أحدا ولا يتعاون مع أحد

ومن صور الانسحاب الاذعان والامتثال والكف عن كل محاولة للتكيف مع الموقف المثير للاحباط فيكون هذا بمثابة اعتراف من الفرد باستحالة الوصول الى حل لأزمته•ويقترن الانسحاب هنا بالتبلد وعدم الاكتراث واللامبالاة • وتلك حال الرعايا فى البلاد التى يستبد بها حكام طغاة ، أو حال العامل الذى فقد كل أمل فى تحسين حاله ، أو حال المريض الذى أيقن من دنو أجله •

وقد يهرب المتأزم من أزمته ويلتمس الراحة فى أحلام اليقظة أو فى النوم أو الخمر والمخدرات أو الاسراف فى العمل أو المذاكرة ليلا ونهارا ينشغل بهما عن مواجهة مشاكله ، وهذا ما يعرف بالاحتماء بالعمـل •

الواقع أن قطع الصلة بالناس لا يحل المشكلات بل يزيدها تعقيدا ، فعدم الاتصال بالناس وعدم التفاهم والاخذ والعطاء معهم يجعل الفرد ينظر اليهم بعين الشك والارتياب ، وقد تتضخم هذه النظرة بمرور الايام فتنقلب الى اتهامه للناس وشعوره بأنه موضع اضطهاد منهم • ومن ناحية أخرى فاعتزال الناس يجعلهم ينظرون الى المعتزل نظرة غريبـة أو يصفونه بالاستعلاء فيبدو هذا فى معاملتهم له • وهكذا تتضخم الريبة والكراهية المتبادلة بين الفرد والناس •

مثل هذا الشخص يصعب اعادة تكييفه للمجتمع لأنه لم يكتسب المهارات الصغرى اللازمة للتعامل مع الناس ، حتى ان علاجه يكون فى العادة أصعب من علاج شخص عدوانى •• وفى مستشفيات الامراض العقلية نماذج بارزة للانسحاب لدى الذهانيين يلجئون اليه هربا من الواقع الذى أصبحوا لا يطيقون مواجهته وخلقوا لأنفسهم من الخيال عالما يرضيهم ويقضى حاجاتهم •

٣ ــ أحلام اليقظـة :

هى قصص يرويها الانسان لنفسه بنفسه عن نفسه • هى نوع من التفكير لا يتقيد بالواقع ولا يحفل بالقيود المنطقية والاجتماعية التى تهيمن على التفكير المادى • وتستهدف هذه الاحلام خفض التوتر والقلق الناجم عن حاجات ورغبات يعجز الفرد عن تحقيقها فى عالم الواقع • فترى الضعيف يحلم بالقوة ، والفقير بالثروة ، والمظلوم بالبطش ••

وقد يضع الفرد نفسه بطلا لرواية يؤلفها وينعم فيها بما ينعم الابطال ، أو يضع نفسه موضع البطل المظلوم المعذب الذي يلقى الذل والهوان فى أول الامر ثم تنكشف بطولته فيلوم الناس أنفسهم ويردون اليه اعتباره وما هو أهل له من الاحترام والتقدير • وهكذا تكون أحلام اليقظة صمام أمن للرغبات المكبوتة والحاجات المحبطة • لذا يستطيع الراشد أن يستشف متاعبه وحاجاته المعوقة من تحليل أحلام اليقظة التى يستغرق فيها خاصة تلك التى تتكرر وتدور حول موضوعات معينة •

وأحلام اليقظة ظاهرة طبيعية عادية لا ضرر منها أن التجأ اليها الفرد بمقدار • أما ان زحمت الحياة النفسية فامتصت جزءا كبيرا منها وأصبح الفرد أسيرا لها لا يستطيع تجنبها أو التخلص منها أمست ضارة وخيمة العاقبة • فقد يؤدى الاسراف فيها الى عجز الفرد عن الانتباه الموصول ، والى التباس الخيال بالواقع ، والى أن يقنع بها اذ تعفيه من التنفيذ الفعلى لحاجاته ورغباته ، أو الى الاحتماء بها كلما واجهته صعوبة أو مشكلة • ومن أضرارها أنها قد تكون بعيدة عن الواقع بعدا كبيرا فتقعدنا عن السعى خوفا من الفشل •

وأحلام اليقظة نشاط ذهنى مشاع فى عهد الطفولة ومقتبل الشباب وفى عهد الشيخوخة أيضا • غير أننا اذا رأينا الطفل أو الشاب يسرف فى الاستسلام لها كان هذا دليلا على أنه يعانى أزمة أو أزمات موصولة• ونشير أخيرا الى أنها تمتص شطرا كبيرا من حياة المصابين بأمراض نفسية أى العصابيين ، وأنها تستنفد الشطر الأكبر من حياة المصابين بأمراض عقلية أى الذهانيين •

وأحلام النوم كأحلام اليقظة نوع من التخيلات مبعثها رغبات محبطة ومشكلات معلقة غير محسومة • فيرى « فرويد » أن الحلم ارضاء وهمى خيالى لرغبات محبطة ، مكبوتة وغير مكبوتة ، وأن الحلم ليس خليطا جزافيا من أفكار وصور ذهنية . بل هو نشاط نفسى يخدم غرضا ويؤدى وظيفة فى الحياة النفسية•هذا الغرض هو «حراسة النوم» أى معونة النائم على أن ينام • فاذا شعر النائم بالجوع أو العطش أو بضغط الدافع الجنسى مثلا رأى فى نومه انه يأكل أو يشرب أو يرضى الدافع الجنسى مما يتيح له أن يستمر فى نومه دون حاجة الى أن يستيقظ ليأكل أو يشرب • وقد حدث أن دق جرس الباب على شخص نائم

فرأى فى نومه أن جرس الباب يدق وأنه يقوم من فراشه ويفتح الباب ويزد على القادم • وهكذا أعفاه الحلم من أن يقوم بالفعل من نومه ليفتح الباب فاتاح له أن يستمر فى نومه • ورأى شخص آخر كان لا يريد الذهاب الى عمله صباحا ، رأى فى نومه أنه قام من مضجعه وأخذ يغتسل ويلبس ثيابه ثم يذهب الى عمله •

كما يرى « فرويد » أيضا أن الأحلام هى المنفذ الرئيسى للرغبات المكبوتة لدى الاسوياء من الناس ، جنسية كانت هذه الرغبات أم عدوانية أم غير تلك • لكن هذه الرغبات المكبوتة ـ لأنها محرمة محظورة لا تستطيع أن تفصح عن نفسها فى الحلم بصورة سافرة صريحة والا أزعجت «أنا» النائم وايقظته من النوم فهو لا يطيق مواجهة محتوياتها ، لذلك تبدو فى شعور النائم بصورة رمزية ممسوخة • فقد يحلم الشاب الذى يحمل لأبيه كراهية مكبوتة أنه يقتل ثعبانا أو حيوانا ضاريا ، أو أنه يصارع ويقهر رجلا من ذوى السلطة كأحد رجال الشرطة أو الرؤساء أو يرى النائم الذى يحمل لأمه كراهية مكبوتة أن خالته ـ وليست أمه ـ هى التى اصطدمت بالسيارة وماتت •• هنا تتجلى وظيفة الحلم مرة أخرة وهى حراسة النوم • وهكذا تكون الأحلام لغة من اللغات التى يستخدمها اللاشعور للتعبير عن نفسه ، شأنها فى ذلك شأن فلتات اللسان وزلات القلم وألعاب الأطفال وأعراض الأمراض النفسية والعقلية •

ويرى « هادفلد » Hadfeld أن الأحلام محاولات لحل مشكلاتنا الشعورية واللاشعورية • وقد يقتصر عملها أحيانا على توجيه نظرنا الى هذه المشكلات ، كما أنها قد توحى الينا فى بعض الأحيان بحلول مبدئية لهذه المشكلات • أو تزودنا بحلول حقيقية لها • والأحلام المتكررة دليل على مشكلات معلقة لم تحسم بعد ، فان حلت المشكلة لم يعد الحلم يظهر • من ذلك أن موظفا كان يسرف فى الخضوع لرئيسه خوفا من فقد عمله • وقد رأى الموظف فى نومه أنه أعرض عن هذه الاستكانة لرئيسه وأخذ يعامله وهو مرفوع الرأس ، فاذا برئيسه قد بدأ يحترمه ويرعى كرامته ـ هذا الحلم قد جعل الموظف يفطن الى أن الرئيس يحتقره لفرط خضوعه ، وأنه ان عمل على التخلص مما يعانيه من شعور بالنقص كان ذلك أدعى الى أن يحترمه الناس • وبذا يكون الحلم قد شجعه على عمل مالم يكن يجرؤ على عمله من قبل •

وسواء كان الحلم محاولة لتحقيق رغبة ، أو محاولة لحل مشكلة — وكل رغبه محبطة مشكلة — فهو يستهدف اســتعادة التوازن النفسى الذى يكاد يختل من جراء ما نكابده من رغبات معــوقة ومشـــكلات غير محسمة ، شأنه فى ذلك شأن كل سلوك •

٤ — النكوص Regression

هو تراجع الفرد الى أساليب طفلية أ وبدائية من السلوك والتفكير والانفعال حين تعترضه مشكلة أو يلتقى بموقف آزم ، فاذا به يستبدل بالطرق المعقولة لحلها أساليب ساذجة يبدو فيها تهلهل التفكير وغلبة الانفعال • فترى المناقش الهادىء الرزين يلجأ حين يفحم الى الصياح واللجاج والمكابرة ، واذا به أضحى عاجزا عن الفهم ، عاجزا عن اخفاء ما تنطوى عليه نفسه من شك وارتياب وخوف وبغضاء • بل قد يرتد العالم الرصين فينكص الى التفكير الخرافى والحجة الأسطورية • ومن مظاهر النكوص السب والصراخ والتمارض والغيرة والعناد والبكاء عند الارتطام بالمشاكل ، والتحكم فى الأهل والأصـــدقاء ، والاعراض عن الزواج خوفا من تحمل التبعات ، والاسراف فى الحنين الى الماضى «أيام زمان» ، خاصة عند من كانت طفولتهم يغشـــاها الأمن والطمأنينة • كذلك فان شدة القابلية للايحاء أى سرعة تصديق المرء وتقبسله للاراء والأفكار دون مناقشة لها أو تمحيص كما يفعل الأطفال ، قد تــكون سلوكا نكوصياً •

والنكوص غير مقصور على الكبار فالطفل ذو السادسة قد يأخذ فى التبول القسرى او فى مص أصابعة أو يكثر من العناد والعصيان ان رأى أخاه الأصغر قد استأثر بعناية أمه وعطفها من دونه • فهو ينكص الى أمسه — نكوصا لا شعوريا — بطبيعة الحال ، عسى أن يصـــيبه شىء من الحنان المفقود • وكلنا يعرف الطفل الذى يستسلم لأحلام اليقظة حين يشعر أنه غير مرغوب فيه ، والطفل الذى يتشبث بثياب أمه حين يتشاجر والداه ، أو الذى يأخذ فى قضم أظافره حين تترك أمه البيت •

ويبدو النكوص واضحا لدى كثير من الناس فى حالة المرض الجسمى كسرعة الاهتياج واستدرار العطف ، لكنه أكثر وضوحا فى الأمراض النفسية أما فى الأمراض العقلية فيتخذ أشكالا بارزه منها التجهم والصراخ

والغيرة العنيفة والغضب الشديد والضحك أو البكاء الصبيانى والاندفاع والذعر من أشياء تافهة •• وكذلك الكلام واللعب الصبيانى والتبول والتبرز العلنى دون خجل •

٥ ـ التـبرير Rationalization

هو أن ينتحل المرء سببا معقولا لما يصدر عنه من سلوك خاطىء أو معيب ، أو لما يحتضنه من آراء ومعتقدات وعواطف ونيات حين يسأله الغير أو حين يسائل نفسه • هو تقديم أعذار تبدو مقنعة مقبولة لكنها ليست الأسباب الحقيقية لما فعل ولما يفعل أو يزمع فعله • فالتلميذ المتخلف يبرر تخلفه بأن المقرر صعب عسير ، أو يغش فى الامتحان ويعتذر بأن الامتحان ليس وسيلة عادلة لاختبار الكفايات•ومن الآباء من يبررون عقابهم الشديد لأطفالهم بأن ذلك لصالحهم فحين أن الدافع الحقيقى هو تصريف غضب الآباء • ونحن نبرر عدم ذهابنا الى الطبيب بكثرة أعمالنا فى حين أن الدافع الحقيقى هو الخوف من مواجهة المرض وقد يسرف الرئيس فى عقاب مرءوسيه ثم يبرر سلوكه بأن يختلق لهم عيوبا لا توجد فيهم • ومن الناس من يرون الاستكانة تواضعا ، والتواكل توكلا ، والتبذير كرما ، والمجون مرحا ، والبخل حرصا ، والفوضى حرية ، والقعود قناعة ، والقسوة حزما •• من هذا نرى أن التبرير غالبا ما يكون محاولة لحل أزمة « مشكلة » خلقية • هو محاولة لخداع الضمير •

وللتبرير صور عدة منها اعتذار الفرد عن فشله فى الحصول على شىء بأنه لا يميل الى هذا الشىء أو يكرهه ، فيكون مثله كمثل الثعلب الذى عجز عن بلوغ العنب فادعى أنه لا يحب العنب • ويسمى هذا الأسلوب من الاعتذار بأسلوب «العنب الحصرم» • ومن أمثاله اعراض الفقير عن تحسين حاله باقتناء المال لأن المال لا يستحق الكد من أجله • أو ذلك الرجل الذى يصرح بسروره لعدم انجابه أطفالا لأن الأطفال عبء ومسئولية وعناء كبير!وعكس هذا النوع من التبرير قبول الواقع المر والرضا به بحجة أنه لا مفر منه أو أنه خير الأمور دون أن يبذل الفرد جهدا لتغيير الحال • ويسمى هذا الأسلوب التبريرى بأسلوب « الليمون الحلو »الذى يتخفف به الفرد من شعوره بالعجز والاستسلام ويخدع نفسه بأنه غير عاجز أو فاتر الهمة أو كسول •

ويجب التميز بين التبرير والكذب • ففى الكذب يدرك الفرد السبب الحقيقى لسلوكه ، لفشله مثلا ، لكنه يتعمد التحريف • فالكذب محاولة مقصودة لخداع الغير لا تتضمن خداع الذات • أمـا فى التبرير فيؤمن الفرد بأن ما يقوله هو الحق • فجوهر التبرير خداع الذات • ومن علامات التبرير التحمس عند ابداء العذر ، والتردد قبل ابداء العذر ، والتراخى فى الدفاع عند التحدى •

من هذا نرى أن التبرير حيلة يتنصـل به االفرد من عيوبه ومثالبه ويموه عليها لأنه لا يطيق مواجهتها • وهو حيلة يلجـأ اليها كل مقصر أو فشل أو مقعد أو عاجز أو نزاء • وهو حيلة مشاعة بين الكبار والصغار خاصة بين من تناقض أفعالهم مالديهم من مبادىء خلقية • والاسراف فى التبرير قد يؤدى الى نشوء الهذاءات delusions وهى اعتقادات باطلة لا تستطيع البراهين الموضوعية تصحيحها ، وهى من الأعراض المشتركة بين الأمراض العقلية • ذلك لأن الفرد ألف أن يبذل طاقتـه فى تبرير عيوبه وأخطائه أو فى البرهنة على أنها ليست عيوبا وأخطاء بالفعل •

٦ ـ الاسـقاط Projection

حيلة دفاعية تتخذ مظهرين أولهما أن ننسب عيوبنا ونقائصنا ورغباتنا المستكرهة المكبوتة الىغيرنامن الناس والاشياء أو الأقدار أو سوءالطالع وذلك تنزيها لأنفسنا وتخففا مما نشعر به من قلق أو خجـل أو نقص أو ذنب • فالكاذب أو الجحود أو الأنانى أو المتعصب،الذى لا يفطن الى وجود هذه الخصال فى نفسه ، ينسب الكذب أو الجحود أو الأنانية أو التعصب الى غيره ، بل ويغالى فى تقديرها لديهم • وفى هذا يقـول « برناردشو » : أن أكبر عقاب للكذاب أنه لا يصدق الناس•والزوج الذى تنطوى نفسه على رغبة مكبوتة فى خيانة زوجته يميل الى اتهامها بالخيانة•والأب الفاشل فى عمله يميل الى أتهام ابنه بالاهمال فىدراسته والمدرس الكسول لا يغفر لتلاميذه الكسل لأنهم يصورون له الناحية التى يكرهها من نفسه • كذلك نرى القاضى الذى تختلج فى أعماق نفسه ميول اجرامية يميل الى الصرامة فى أحكامه • ومتى رأينا عيوبنـا فى الناس ملنا الى وعظهم وأشتددنا فىمحاسبتهم على عيوب نتسم بهانحن ونحن لا ندرى • فكثيرا ما يكون وعظ الناس مظهرا للاسقاط • والشاعر

بالذنب ان تراءى له أن الآخرين مذنبون أيضا . خف شعوره بالذنب • فالطالب الذى يغش قد يعترف مرتاحا أن زملاءه يغشون حين تتاح لهم الفرصة • لذا فكثيرا ما يكون الاهتمام بفضائح الناس وتصيد أخطائهم نوعا من الاسقاط • من هذا نرى أن أحكامنا على الغير كثيرا ما تكون أحكاما على أنفسنا ، فهى اعترافات أكثر من أن تكون اتهامات • ولكن أكثر الناس لا يشعرون •

أما المظهر الثانى للاسقاط فهو لوم الغير على ما نلقاه من صعوبات، وفشل وما نقع فيه من أخطاء • فكثيرا ما نعزو الرسوب فى الامتحان الى صعوبته ، والتأخر فى الحضور الى ازدحام المواصلات ، والفشل فى المشروعات الى الحظ ، وسوء سلوك الطفل الى وراثته لا الى سوء تربيتنا اياه ، واغراء المرأة كان على الدوام عذراً للرجل • فقديما انحى آدم باللوم على حواء ، فانحت حواء باللوم على الشيطان ، فاخرجهما العليم بذات الصدور من الجنة • وصدق من قال :

نعيب زماننا والعيب فينا ... وما لزماننا عيب سوانا

من ذلك نرى أن الاسقاط يؤدى غرضا مزدوجا • فيه نتخفف من مشاعرنا ودوافعنا البغيضة ، كما يجعلنا فى حل من نقد الناس ولومهم قبل أن يلومونا ، كما هى الحال عندما تصطدم سيارتان فى الطريق فيبادر كل سائق من فوره الى القاء اللوم على الآخر

ويختلف الاسقاط عن التبرير فى أن التبرير دفاع واعتذار بينما الاسقاط اتهام واعتداء وقذف •

والاسقاط أساس الهلاوس والهذاءات وهى أعراض كثير من الأمراض العقلية • ففى الهلاوس يسقط المريض رغباته ومخاوفه على العالم الخارجى فيسمع أصواتا تناديه وتهيب به أن يلقى بأطفاله من النافذة مثلا• وفى الهذاءات قد يعتقد المريض أن أحدا من الناس يكرهه ويضطهده فى حين أن المريض هو الذى يكرهه ويكيد له • وقد حدث أن اتهمت مريضة رجلا بأنه يحبها ويغازلها ويراسلها فى حين أنها هى التى تحبه وتريد أن تغازله وتراسله • ومستشفيات الأمراض العقلية تزخر بمن يتهمون الغير بوضع السم فى طعامهم •

٧ — التعويض الزائد Overcompensation

التعويض هو كل محاولة لاخفاء نقص أو التغلب عليه ، وكثيرا ما يكون التعويض سترا للنقص لا التماسا للقوة واصلاح العيب • وقد يطلق التعويض على كل محاولة للتحرر من الشعور بالنقص . لذا قد يعتبر التبرير والاسقاط وأحلام اليقظة والعدوان على الغير •• صورا من التعويض ، لكنه تعويض فاشل • أما التعويض الزائد فهو مهاجمة النقص بعنف بما يؤدى الى تضخم مظاهر التعويض . كالشخص الضعيف البنية الذى يمارس الالعاب الرياضية ولا يقنع بأن يصبح جسمه عاديا بل يجهد أن يكون من الأقوياء •

ويتخذ التعويض الزائد صورا كثيرة منحرفة منها أن يصطنع الفرد ضروبا من السلوك المتكلف أو السخيف طمعا فى جلب انتباه الآخرين أو تقديرهم ، أو ذرا للرماد فى العيون باختلاق قصص كاذبة ، والتباهى والتفاخر بأعمال عظيمة ، أو الخروج على الناس بأفكار مغربة ، أو التمشدق فى الحديث ، أو اللباس غير المحتشم • • بل قد يتخذ شكل عدوان واجرام كى يثبت الفرد لنفسه وللناس أنه غير ضعيف وأن لديه من القوة ما يستطيع أن يتحدى به حتى القانون •

ومن صوره أيضا أن يغض الفرد من شأن نفسه أمام الناس طمعا فى أن يمتدحه الناس وأن يرفعوا من قدره ، فاذا به دائم الحديث عن نفسه بأنه « عاجز لا يصلح لشىء » أو « أنه لا فضل له على الاطلاق فى حسن سير العمل » • • غير أن الاسراف فى استصغار الذات على هذا النحو قد يصل بصاحبه آخر الأمر الى أن يتهم نفسه بارتكاب ذنوب لم يرتكبها • وهنا يكون قد اجتاز منطقة السوء الى منطقة اعتلال الشخصية •

٨ — التكوين العكسى Reaction formation

هو اصطناع سلوك أو اتجاه يناقض ويموه على مالدى الفرد من أفكار أو رغبات لا شعورية محظورة أو مكروهة ، كاصطناع الفرد مظهر الشجاعة وهو خائف فى أعماق نفسه ، أو مظهر الرحمة تمويها على قسوة دفينة ، أو مظهر التأدب والتلطف ازاء شخص يكن له صاحبنا عدأوة لا شعورية • وكم من مستبشر ضاحك يخفى وراء استبشاره انقباضا دفينا • والاستكانة الظاهرة التى تبدو فى سلوك الوسواسى

تخفى وراءها بالفعل نفسا تموج بالعدوان والتحدى والعناد • ويقال أن المرأة عند ماتكره فلابد أنها تحب ، أو أنها احبت ، أو أنها ستحب بل ان اسراف الأم فى العناية بطفلها قد يكون غلالة تخفى وراءها كراهية لا شعورية له[1] • ولو أدت غيرة الطفل من أخيه الصغير الى شعور شديد بالذنب فقد لا تبدو لدى الطفل الغيران مظاهر الغيرة أبدا ، بل قد يبدو أنه يحب أخاه ويرغب فى الاشتراك فى العناية به ، فاذا سمحنا له بذاك فلابد أن يحدث لأخيه حادث من جراء رغبة الأول اللاشعورية فى ايذائه • والملاحظ أن أهدأ الفتيـات وأكثرهن حجلا هى اللاتى يطلن أظفارهن بما يشبه مخالب النمر ! وها هى ذى زوجة تخاف من السكاكين خوفا شاذا فلا تطيق أن ترى واحدة منها فى منزلها أو على المائدة ، وقد دل التحليل النفسى على أن هذا الخوف كان رد فعل لرغبة لا شعورية عندها فى أن تقطع رقبة زوجها •

ويجب التمييز بين التكوين العكسى والتصنع المقصود • ففى التصنع يكون الفرد شاعرا بالميل المحظور أو الدافع البغيض ويرغب عامدا فى اخفائه ، أما التكوين العكسى فهو عملية أو سلوك لا شعورى ينجم عن دوافع محظورة مكبوتة أى لا يفطن الفرد الى وجودها ، بل ينكرها مخلصا فى انكاره • وهنا يتجلى خداع الذات •

على أنه من الخطأ أن نظن أن كل سمة خلقية مشتطة نتيجة تكوين عكسى ، اذ قد تكون نتيجة ارضاء دافع لا نتيجة كبته والتمويه عليه • فالرغبة الشديد فى المعارضة قد تكون ارضـاء لدافع حب الظهـور ، والشفقة الزائدة قد تكون ارضاء لعاطفة خيرة ، أو رد فعل على قسوة مكبوتـة •

٩ ـــ العزل Isolation

حيلة لا شعورية يتم بها فصـل الأفكار والـدوافع والمعتقدات فى مقصورات مستقلة منعزل بعضها عن بعض تفاديا لما يسببه التقاؤهـا وجها لوجه من صراع وقلق • بهـذه الحيلة يتفادى كثير من النـاس

---

(١) نحن نكره تصديق امثال هذه الحقائق ككراهية الام لطفلها لأننا لا نعدو أن نكون بشرا كسائر الناس ، وما يصدق على غيرنا يصدق على أنفسنا ، وتلك أشياء لا نسيغها ولا نرضاها لأنفسنا بأية حال •

الاستسلام لما كان هذا دليلا على أنه يعانى أزمة أو أزمات موصولة .
ونشير أخيرا إلى أنها تمتص شطرا كبيرا من حياة المصابين بأمراض نفسية
وأنها تستنفذ الشطر الأكبر من حياة المصابين بأمراض عقلية .

الحق أن السلوكيين قد تورطوا فى خطأ مزدوج حين سارعوا إلى التعميم
من تجارب أجريت على الأطفال ، من ناحية ، وعلى سمات معينة دون
غيرها ، من ناحية أخرى . ذلك أن الأمانة والتعاون من السمات والاتجاهات
النفسية العامة المجردة . فهى تحتاج إلى وقت وتدريب طويل حتى تتكون
وتستوى فى نفس الفرد . فنحن نعلم الطفل أن يكون أمينا فى مواقف خاصة
واحد بعد الآخر ولابد له من وقت طويل حتى ينتقل أثر تدريبه إلى مواقف
أخرى شبيهة بالأولى . نقول لابد له من وقت حتى يكتسب مبدأ الأمانة .
ولقد قدمنا أمثال هذه الاتجاهات المجردة لاتحتمل أن تستقر فى نفس الفرد
قبل مرحلة المراهقة (أنظر ص ١١٨) . فليس من المستغرب إذن أن تدل
نتائج الاختبارات على أن هذه السمات وأمثالها غير ثابتة لدى الأطفال .
زد على ذلك أننا لو سلمنا جدلا بأن الأمانة سمة غير عامة أو ثابتة .

١٠ — التقمص Identification :

هو اندماج شخصية الفرد فى شخصية آخر أو فى شخصية جماعة
نجحت فى الظفر بالأهداف التى يفتقدها ، أو للتخفف من صراع نفسى .
فنحن نميل إلى تقمص من ينعمون بما حرمناه حين نقرأ عنهم أو نفكر
فيهم أو نشاهدهم على المسرح . من ذلك أن تتقمص الفتاة المحرومة شخصية
الممثلة التى تعجب بها ، وأن يتقمص الطفل شخصية أبيه ليشعر بالقوة
التى يصبو إليها وأن يتعلق التلميذ الضعيف تعلقا شديدا بمدرس المادة المتخلف
فيها ، وأن يتقمص الفتى شخصية النادى أو الجماعة التى ينتمى إليها ويفاخر
بذلك تعويضا عما يشعر به من نقص ، وأن يتقمص الرجل « شخصية »
مهنته أو بلدته ، يزهو بما تتسمان به من شهرة وتقدير .

بل قد يتقمص الآباء شخصيات أولادهم تقمصا تاما فيشعرون بما يشعر به الأولاد من مختلف ألوان السرور والحزن والحب والكره • وغالبا ما تكون حظوظ هؤلاء الأولاد خيرا من حظوظ آبائهم ، ينعمون فى الحياة بما يفتقده الآباء منها • كذلك يمكن اعتبار رغبة بعض الناس فى تكوين أسرة نوعا من التقمص للأطفال ، يأمل به الأبوان نوعا من الخلود ، غير الخلود الموعود •

فالشعور بالنقص والعجز من الدوافع القوية للتقمص ، أو يستهدف التقمص التغلب على الحزن أحيـانا كتلك الطفلة التى مـاتت قطتها فأعلنت أنها صارت قطة وأخذت تحبو على أربع وامتنعت عن الأكل على المائدة • ومن الدوافع القوية أيضا التحرر من القلق والخوف مما يبدو كثيرا فى ألعاب الأطفال حين يقوم الطفل بتمثيل دور طبيب الاسنان ويقوم بخلع ضرس أخيه الاصغر ، أو حين يضع «القطرة» فى عيدميته ، أو حين يحاكى الحيوانات المتوحشة فى صوتها ومشيتها •

التقمص الدفاعى : قد يؤدى الخوف الشديد من شخص معتد ، قد يؤدى بالمعتدى عليه أن يتقمص شخصية المعتدى ، وتلك كانت حال بعض الاسرى فى المعتقلات النازية اذ كانوا يحاكون حراسهم فى حركاتهم ولباسـهم وأفـكارهم ومشـاعرهم ويستسلمون لهم استسلاما ، بل ويعاملون من يفد الى المعسكرات من أسرى جدد معاملة جافية عاتية، أو حال بعض الطلبة حيال بعض المدرسين •

ويبدو التقمص واضحا فى الاعتقـادات البـاطلة التى يحتضـنها الذهانيون اذ يعتقد أحدهم أنه نابليون بونابرت فيلبس ثيابه وقبعتـه المشهورة ويحاول أن يحاكى حركاته ومشيته وأسلوبه فى الأمر والنهى •

١١ ـ العـــدوان Aggression

هو ايذاء الغير و الذات أو ما يرمز اليهما • وهو يقترن دائما بانفعال الغضب • وللعدوان صور شتى منها العدوان عن طريق العنف الجسمى، والعدوان باللفظ : بالكيد والايقاع والتشهير •• وقد يتخذ أشـكالا أخرى غير مباشرة كاسراف الوالد فى مطالبه ونواهيه ، أو عصيان الطفل أوامر والديه ، أو تضييق المعلم على طلابه بافراطه فى النقد والتهديد •

أو يبدو العدون فى الغمز والتندر حين تتم النكتة للاذعة عن عدوان دفين .

وقد كان « فرويد » يرى أن الميل الى العدوان [1] والتدمير استعداد غريزى أى دافع فطرى كالجوع والعطش يحتمه التكوين العضـــوى للانسان ، وهو عام مشترى بين الناس جميعا على اختلاف حضاراتهم . فالانسان لابد له أن يعتدى كما لابد له أن يأكل حتى ان لم يعتد عليه معتد ، أى حتى ان لم يلق احباطا . غير أن البحوث التجريبية وأظهرها بحوث « دولارد » Dollard لا تساند هــذا الرأى وترى أن العدوان لا يصدر عن غريزة ، بل يكون فى العادة نتيجة احباط سابق ، أو توقع لهذا الاحباط . فالانسان يغضب ويعتدى فى المواقف التى تهدد أمنه وماله أو تلك التى تشعره بالتحكم والحرمان . وقد يكون العدوان وسيلة للتمويه على شعور بالنقص ، أو لتوكيد الذات واعلان الشخص المهمل عن وجوده ، أو لانه يتوقع أن خصمه سيباغته على حين فجأة .

ومن ناحية أخرى فقد كشفت البحوث الانتروبولوجية أن الميل الى العدوان لا أثر له فى بعض القبائل البدائية كقبيلة أرابش (أنظـــر ص ٤٢٩) التى يتسم أفرادها بالهدوء والدعــة والمسالمة ، ويمقتون العنف والتسلط مقتا شديدا .

غير أن أبرع ما كشف عنه « فرويد » هو طرق تصريف العدوان ان أصاب العدوان نفسه احباط . هنا يزاح هدف العدوان فاذا بالشخص يوجه عدوانه الى الناس والاشياء أو الى نفسه .

العدوان المزاح :ان حالت عقبات دون العدوان المباشر على مصدر الاحباط بأن كان شخصا مرهوب الجانب كالأب ، أو محبوبا كالأم ، أو محترما كصديق ، تحول العدوان وأنصب على أول « كبش فداء » يلقاه فى طريقه ، انسانا كان أم حيوانا أم جمادا . فالطفل الغاضب من والديه أو مدرسه قد يضرب طفلا آخر أضعف منه أو يعذب حيوانا أليفــا أو يكسر آنية الزهر أو يحطم الأثاث . والأب الغاضب من رئيسه قد

---

(1) يجب التمييز بين العدوان من حيث هو سلوك وبين العدوانية أو الميل الى العدوان من حيث هو دافع .

يصب جام غضبه على أولاده ، والجماعة التى يحكمها رئيس مستبد قد تختار واحدا منها يكون ضعيفا أو مخالفا وقد يكون أحسن واحد فيهـا فى عمله فتعزو اليه سوء سير الأمور أو تحمله مسئولية ما حدث من ارتباك فى العمل • وقد دل احصائى أمريكى على أن حوادث الاعتـداء على الزنوج فى جنوب الولايات المتحدة تزداد وتشتد كلما هبطت أسعار القطن كأن الزنوج هم المسئولون عما حل بهذا المحصول من بوار • وفى هذا ما يشهد بأن الانسان ليس مخلوقا منطقيا بل مخلوق سيكولوجى • أى أنه ينزع بطبعه الى استعادة توازنه النفسى دون نظر الى من يصعب عليه عدوانه ــ ظالما كان أو مظلوما •

العدوان المرتد : ان كان المعتدى عليه ممن نشئوا على الاعتقاد بأن كل عدوان أثم وخطيئة ، أو حيل بينه وبين تصريف العدوان بأية صورة ارتد عدوانه الى نفسه ، وتلك حال الطفل المغتاظ الذى يضرب رأسـه فى الحائط أو يشد شعره أو يلقى بنفسه على الأرض حين يعجز عن توجيه عدوانه الى والده • ويتخذ العدوان المرتد صورا شتى منهـا اسراف الفرد فى لوم نفسه ، أو اصابته بالهبوط والاكتئاب ، أو بمرض سيكوسوماتى كارتفاع ضغط الدم ، أو الانتحار • ويحدثنا أصحاب مدرسة التحليل النفسى أن الانتحار وهو قتل النفس قد يكون فى بعض الآونة بديلا عن قتل الغير • من هذا نرى أن القانون الذى يسود دنيا النفس هو بعينه شريعة الغاب : كل أو فأنت مأكول •

ولقد اتضح عن طريق التجريب أن العدوان المباشر بالضرب أو السب أو التوبيخ أى الذى يوجه الى مصدر الاحباط مباشرة وبصورة غـير رمزية أى بغير التشنيع والايقاع •• أجدى بكثير فى خفض التـوتر والقلق ، وأجلب للراحة والتخفف السريع • لـكن الموانع الاجتماعيـة شـتى •

حيل دفاعية أخرى :

هناك حيل أخرى غير السابقة تشير الى أن الشخص يعانى أزمـة نفسية منها فرك اليدين وفرقعة الاصابع وحك مؤخرة الرأس ، ومنها الاسراف فى الاكل والتدخين والكلام والحركة والنوم وقضم الاظافر وممارسة العـادة السرية والاحتماء بالمرض ومنها اسـتدرار العطف والتكفير وعقاب النفس وغيرها •

لقد لوحظ أن الجماعات البشرية الفقيرة تسرف فى النشاط الجنسى كأن اللذة الجنسية نوع من التعويض عن الحرمان من الطعام • ومن الملاحظ أيضا أن المحروم من العطف والحب يأخذ فى الاكل بشراهة • فالاكل وسيلة من وسائل التخفف من التوتر والقلق • ذلك أن ينشط الجهاز العصبى الباراسمتاوى ، ويبطىء من نشاط القلب ، ويخفض ضغط الدم ، ويعمل على استرخاء العضلات •

٥ ـ وظيفة الحيل الدفاعية وخصائصها

رأينا أن الحيل الدفاعية وسائل لخفض القلق والتوترات المصاحبة للأزمات النفسية على اختلاف أنواعها ومصادرها • فهى تهون من وطأة العقبات المادية والمعنوية التى تعترض الفرد ، كما تقيه من معرفة عيوبه ونقائصه ونياته الذميمة والرجيمة فتبقى له على احترامه لنفسه. وبعبارة أخرى فهى ذرائع تقى الانسان من الآلام التى تأتيه من جسمه ومن نفسه ومن الناس ، ومن ثم فهى تعينه على تحمل أعباء الحياة وصدماتها ، وتهبه شيئا من الراحة والهدوء ، ولو بصورة وقتية وهمية. وفى عبارة واحدة نقول ان وظيفة هذه الحيل هى وقاية « الأنا » وحمايته مما يحتمل أن يخل توازنه فينهار • فكأنها شبيهة بتلك العمليات العصبية العضلية التى يقوم بها الجسم على الفور وبصورة آلية متى أوشك اتزانه أن يختل فيسقط • انها محاولات لاستعادة التوازن النفسى • وهذا من فوائدها •

كما رأينا أنها أساليب تخفف من التوتر والقلق لكنها لا تحل المشكلات ، فالانسحاب واعتزال الناس قد يقى الفرد من الشعور بالفشل فى صلاته الاجتماعية ، لكنه لا يحسن هذه الصلات • والاعتداء على شخص برىء أو اشباع رغبة فى أحلام اليقظة قد يكون صمام أمن مؤقت لكنه لا يحل اشكالا • انها كالعقاقير المهدئة أو المخدرة تخفف الألم لكنها لا تفعل شيئا لازالة أسبابه الجوهرية • وبعبارة أخرى فهى لا تحقق التوافق الكامل بين الفرد وبيئته ، أو بين الفرد ونفسه ، لذا تسمى بالحيل اللاتوافقية •

ومع هذا فهى ليست أساليب شاذة ، فكل الناس ، كبارهم وصغارهم، يصطنعونها بقدر قليل أو كبير ، وان كانت تبدو بصورة صارخة لدى المصابين بأمراض نفسية وأمراض عقلية كما رأينا •

غير أنها تصبح ضارة شاذة ان افرط الفرد فى الالتجاء اليها كلما صدمه أمر مشكل أو موقف آزم بدل أن يواجهه فى جرأة وصراحة ويعمل على حله بطريقة واقعية مباشرة ، أو ان أعمت الفرد عن رؤية عيوبه ومشاكله الحقيقية أو أخفتها عنه اخفاء تاما موصولا ، أو ان أثرت فى تقدير الفرد لنفسه وفى صلاته بالآخرين تأثيرا ضارا •

ويرى بعض العلماء أنها حيل فطرية فى حين يرى آخرون أنها أساليب يكتسبها الفرد ، لا عن طريق التفكير والتعقل ، بل عن طريق المحاولات والاخطاء أو عن طريق المحاكاة غير المقصودة لمن حوله من الناس ، وذلك ابتداء من عهد الطفولة • وبما أنها استجابات تؤدى الى خفض التوتر والقلق أى الى راحة الفرد من الألم فهى تنزع الى أن تتكرر وتثبت وفقا لمبدأ التدعيم فى التعلم • ومن ثم تصبح عادات مكتسبة يصدر عنها السلوك بطريقة آلية لا شعورية كأغلب العادات كلما ارتطم بمشكلة واعترضه احباط•لذا فهى استجابات تكتسب لا شعوريا أى عن غير قصد ، وتستخدم لا شعوريا أى عن غير قصد • وبذا لا يستطيع الفرد معرفة ما يصطنعه منها الا عن طريق التحليل النفسى •

غير أنها تعمل أحيانا على مستوى شبه شعورى Preconscious وبذا يستطيع الفرد التفطن الى وجودها ، وهذا يعينه على ضبط سلوكه والتحكم فيه واستخدام طرق أخرى أجدى وأكثر واقعية ازاء مشاكله وأزماته ••

ونشير أخيرا الى أن الحيل الدفاعية المعتدلة لا تكفى أحيانا لخفض القلق الناشىء عن الازمات ، وهنا يلجأ الفرد الى تضخيم هذه الحيل والاسراف فى استخدامها • هنا تكون هذه الحيل المتضخمة أعراضا للأمراض النفسية والأمراض العقلية التى سنعالجها فى الفصل القادم •

الفصل الثانى
الأمراض النفسية والعقلية

١ ـ التوافق وسوء التوافق

التوافق حالة من التوائم والانسجام بين الفرد وبيئته تبـدو فى قدرته على ارضاء أغلب حاجاته وتصرفه تصرفا مرضيا ازاء مطـالب البيئة المـادية والاجتماعية • ويتضمن التوافق قدرة الفرد على تغيير سلوكه وعاداته عندما يواجه موقفا جديدا أو مشكلة مادية أو اجتماعية أو خلقية أو صراعا نفسيا •• تغييرا يناسب هذه الظروف الجديدة • فان عجز الفرد عن اقامة هذا التواؤم والانسجام بينه وبين بيئته قيل انه « سيء التوافق » أو معتل الصحة النفسية • ويبدو سوء التوافق فى عجز الفرد عن حل مشكلاته اليومية على اختلافها عجزا يزيد على ما ينتظره الغير منه أو ما ينتظره من نفسه •

ولسوء التوافق مجالات عدة ، فهناك سوء التوافق الاجتماعى وسوء التوافق المهنى وسوء التوافق الأسرى أو الدراسى أو الدينى •• على أن سوء التوافق فى مجال معين يكون له صداه وأثره فى المجالات الاخرى، فالانسان وحدة جسمية نفسية اجتماعية ان اضطرب جانب منها اضطربت له سائر جوانبها • لذا فغالبا ما تجتمع ضروب سوء التـوافق لدى الشخص على اختلاف فى شدتها وظهورها من مجال الى آخر ، فيكون الشخص سيء التوافق الى حد كبير فى المجال المهنى ، ودون ذلك فى المجال الدينى أو الأسرى • وبعبارة أخـرى فضروب سوء التـوافق المختلفة أغصان تتفرع على شجرة سوء التوافق العام •

مظاهر سوء التوافق العام :

لسوء التوافق العام مظاهر شتى ودرجات تختلف شدة وعنفا وازمانا واستعصاء على العلاج والاصلاح • فقد يبدو فى صورة مشكلة سلوكية مما يعرض لكثير من اطفال كاضطراب النوم ، أو الاعراض عن الاكل، أو التبول اللاارادى ، أو السرقة والهرب من البيت •• أو مما يعـرض

للمراهقين كالتمرد الشديد أو الانطواء على النفس • أو يتخذ صورا أشد عنفا كالامراض النفسية ، والاضطرابات السيكوسوماتية ، والانحرافات الجنسية ، أو الادمان والاجرام • وأخطر ضروب سوء التوافق هي الامراض العقلية ، تلك الامراض التي تجعل الفرد غريبا عن نفسه وعن الناس ، خطرا على نفسه وعلى الناس مما يقعده عن العمل ويضطر المجتمع الى عزله والاشراف عليه وعلاجه •

ومن الاعراض التي تشترك فيها هذه المظاهر المختلفة : قلة انتاج الفرد : وعدم شعوره بالسعادة والرضا ، وانخفاض وصيد الأحباط لديه ؛ وغيرها من علامات اعتلال الصحة النفسية •

٢ ـ أسباب سوء التوافق

ان عجز الفرد عن التخفف من أزمته النفسية بطرق واقعية أو عن طريق الحيل الدفاعية المعتدلة ؛ لجأ الى أساليب ومحاولات شاذة لحل أزمته ، منها المرض النفسي أو العقلي أو السيكوسوماتي أو الاجرام •• مثل ذلك كمثل الجسم يقاوم المرض الميكروبي بوسائل دفاعية غير عنيفة في أول الأمر ، ثم يلجأ آخر الامر الى وسائل عنيفة كالحمى • كذلك الحال حين يعجز الانسان عن الاحتفاظ بتوازنه النفسي عن طريق الحيل الدفاعية المعتدلة ، فانه يصطنع آخر الامر وسائل أخرى شاذة لحل الأزمة النفسية التي يواجهها•ومن المعروف ان ارتفاع درجة الحرارة في الحمى محاولة الشفاء فضلا عن أنها دليل على وجود اضطراب • هذه الوسائل ما هي الا حيل دفاعية مشتطة كثيرا ما تبدو في صور رمزية•

غير أن الأزمات النفسية لا تحكي قصة سوء التوافق كلها ، فهي لا تخبرنا لماذا يصمد بعض الناس وينهار آخرون ؟ هنا يجب أن نلتفت الى ماضي الفرد كله ، الى وراثته ونوع تربيته في الطفولة المبكرة ، وما تعرض له من صدمات انفعالية ، وماكسبه من عادات واتجاهات صالحة أو غير صالحة للتكيف •• فمن ابتلى بوراثة معيبة وتربية طائشة تحبط حاجاته الأساسية وتخلق في نفسه ضروبا شتى من الصراعات تحول دون تكامل شخصيته ، كان أدنى الى الانهيار أمام الشدائد والأزمات من غيره • ولقد ذكرنا من قبل أن تكامل الشخصية شرط

ضرورى للصحة النفسية والتوافق السليم (ص ٣٧٧) وسيزداد هذا الكلام وضوحا فيما بعد •

هذه زوجة تتوق الى الانجاب لكن لديها موانع جسمية تحول دون ذلك • انها قد تلجأ الى العلاج الطبى ، وهذه طريقة مباشرة سليمة احل الأزمة التى تعانيها ، أو تتقبل المحتوم بصبر وتحاول ارضاء بديلا عن دافع الامومة كأن تنخرط فى مهنة التدريس أو التمريض أو تتبنى قطا أو كلبا • فان لم تجد فى ذلك ارضاء كافيا فقد تلجأ الى أساليب أكثر اغرابا وأبعد عن السواء كالعدوان أو النكوص و القاء اللوم على كل شىء ، أو تسرف فى نشاطها الاجتماعى الى حد الهوس ، أو تستهتر بالمخدرات كل ذلك على حسب تربيتها وخبراتها السابقة •• فان لم تفلح هذه الوسائل فى خفض ما تعانيه من توتر وقلق فقد تصطنع حيلا أكثر شذوذا كأن تقع صريعة مرض نفسى كالهستريا أو الوسواس ، أو تصاب بمرض سيكوسوماتى يبدو فى انقطاع الطمث والغثيان وانتفاخ البطن وغيرها من أعراض الحمل الكاذب • وقد لا تجد الامن والراحة الا فى مرض عقلى فتعتقد أن أحدا يريد تخديرها والاعتداء عليها ، وتبدأ فى اتخاذ الاجراءات ضده فعلا •

يتضح لنا مما تقدم أن الامراض النفسية والامراض العقلية ما هى الا وسائل شاذة للتخلص من أعباء وأزمات نفسية لا سبيل الى التخفف منها الا بالتورط فى هذه الامراض • انها مظاهر للهزيمة فى معترك الحياة، وان شئت فقل انها مخابىء يفزع اليها الفرد من غارات الحياة الدنيا•

٣ ــ الشخصيات السوية والشاذة

ليس الفصل بين الشخصية السوية والشخصية الشاذة بالأمر اليسير دائما وذلك لاختلاف وجهات النظر الى السواد والشذوذ • فهناك معايير مختلفة الفصل بينهما ، من أهمها :

١ ــ المعيار الاحصائى :يرى أن الشخص السوى هو من لا ينحرف كثيرا عن المتوسط • وبعبارة أخرى فالسوى هو المتوسط ، هو الذى يمثل الشطر الاكبر من مجموعة الناس وفق المنحنى الاعتدالى • ومن ميزات هذا المعيار أنه يراعى ما بين ضروب الانحراف من تدرج ، فيميز

بين الحالات الخفيفة والمتوسطة والعنيفة من سوء التوافق . غير أنه يبدو غريبا حين تكون بصدد سمات مثل الذكاء أو الجمال أو الصحة . فالألمعي وذات الجمال الصارخ وذو المائة عام الذى لا يشكو أمراضا .. يعتبرون شواذا وفق هذا المعيار . اذا يتجه علمـاء النفس الى قصر الشذوذ على الانحراف فى الناحية السلبية فقط .

٢ ـ **المعيار المثالي**: يرى أن السوى هو الكامل المثالى أو ما يقـرب منه : فقوة الابصار السوية ليست قوة الابصار المتوسطة بل المكتملة . هذا هو المعيار الذى يقصده المحللون النفسيون حين يقولون انه ليست هناك شخصية سوية . غير أن هذا المعيار قد لا يكون له وجود على الاطلاق من الناحيـة الاحصـائية فى نواحى الذكاء أو الجمـال أو الصحة مثلا .

٣ ـ **المعيار الحضارى**: يرى أن السوى هو المتوافق مع المجتمع ، أى من استطاع أن يجارى قيم المجتمع وقوانينه ومعاييره وأهدافه . ولهذا المعيار أكثر من عيب . فهو يرى السواء فى الامتثال التام لقوانين المجتمع وقيمه حتى ان كانت فاسدة تتطلب من الفرد العمل على اصلاحها وتغييرها بدلا من التكيف لها . ومن عيوبه أيضا أنه يختلف من حضارة الى أخرى . فمن المألوف فى بعض القبائل البدائية أن يتزوج الرجل أما وابنتها فى آن واحد . ووأد البنات خشية الاملاق لم يكن جريمة فى الجاهلية العربية . والانتحار فى الحضارة الغربية دليل على اضطراب نفسى أو عقلى فى حين أنه ظاهرة سوية فى اليابان فى بعض الظروف . والارتياب الشديد وتوهم العظمة والاضطهاد التى نراها من أعراض « جنون التوهم » تعتبر سلوكا لا انحراف فيه عند الهنود الحمر فى بعض قبائل الساحل الشمالى للمحيط الهادى .

٤ ـ **المعيار الباثولوجى**: يرى أن الشخصيات الشاذة تتسم بأعراض كلينيكية معينة كالمخاوف الشاذة والوساوس والافكار المتسلطة وارتفاع مستوى القلق عند العصابيين ، وكالهلوسـات والاعتقـادات الباطلة واضطراب التفكير واللغة والانفعال عند الذهانيين،وكالنزعات الاجرامية والانحرافات الجنسية فى الشخصيات السيكوباتية . ويؤخذ على هذا المعيار عدم تحديد الدرجة التى يجب أن يصل اليها انحراف السلوك أو اضطراب الانفعال مثلا حتى يمكن اعتباره شذوذا .

ومع أن السواء والشذوذ يتداخل بعضهما فى بعض كما تتداخل فصول السنة بحيث لايمكن أحيانا تحديد الحد الفاصل بينهما تحديدا حاسما غير أن هناك طرزا من الشخصيات الشاذة لا يرقى الشك الى شذوذها

٤ — اضطربات الشخصية

جرت العادة على أن تصنف الشخصيات الشاذة صنفين : صنف يسمى بالاضطرابات العضوية أو البنائية للشخصية ، وآخر يسمى بالاضطرابات الوظيفية . فالأولى هى ما كان للاضطراب فيها أساس عضوى فسيولوجي معروف كتلف فى النسيج العصبى للمخ أو تصلب فى شرايينه ، أو اختلال هرمونى عميق ، أو تلوث مكروبى ، أو اضطراب كبير فى عملية « الأيض » . من أمثالها بعض الأمراض العقلية كجنون الشيخوخة وجنون المخدرات والشلل الجنونى العام . أما الاضطرابات الوظيفية فهى التى ترجع فى المقام الأول الى أحداث فى التاريخ السيكولوجى للشخص ، أى الى صدمات انفعالية وأحداث أليمة واضطرابات فى العلاقات الانسانية تعرض لها الفرد منذ طفولته الباكرة الى أن أصيب بالاضطراب . وبعبارة أخرى فهى اضطرابات تكون العوامل النفسية جوهرية غالبة فى أحداثها . من أمثالها الأمراض النفسية ، والأمراض السيكوسوماتية ، وبعض الأمراض العقلية ، وبعض الانحرافات الجنسية ، والاجرام النفسى المنشأ .. وسنكتفى هنا بكلمة عن الأمراض النفسية والأمراض العقلية الوظيفية . والمستزيد أن يرجع الى المراجع الخاصة [1] .

الامراض النفسية :

المرض النفسى أو العصاب neurosis هو اضطراب وظيفى فى الشخصية يبدو فى صورة أعراض نفسية وجسمية مختلفة منها القلق والوساوس والافكار المتسلطة والمخاوف الشاذة والتردد المفرط والشكوك التى لا أساس لها وأفعال قسرية يجد المريض نفسه مضطرا الى أدائها بالرغم من ارادته . ومن هذه الأعراض تعطل حاسة من الحواس أو

---

(١) انظر « الامراض النفسية والعقلية — اسبابها وعلاجها وآثارها الاجتماعية » للمؤلف — طبع دار المعارف ١٩٦٥ .

شلل عضو من الأعضاء دون أن يكون لهذا التعطل أو الشلل سبب جسمي أو عصبي .. هذا هو المرض النفسي من حيث أعراضه ، أما من حيث هدفه فهو كما قدمنا محاولة شاذة لحل أزمة نفسية مستعصية. ان العصابي لا تكفيه الحل الدفاعية المعتدلة في خفض ما لديه من قلق ، لذا يلجأ الى الاسراف فيها طمعا في استعادة توازنه . وليست هذه الحيل المشتطة الا أعراض المرض. ومن الأمراض النفسية : الهستيريا وعصاب القلق وعصاب الوسواس وغيرها .

٥ ـ الهستيريا

لهذا العصاب صورتان هما الهستريا التحولية والهستريا الانفصالية .

الهستيريا التحولية : تتميز بأعراض جسمية ، حسية وحركية ، كالعمى والصمم أو فقد الحساسية في بعض أجزاء الجسم أو شلل الاطراف أو فقد القدرة على النطق والكلام . غير أن هذه الاعراض ليس لها أساس عضوى . فالعمى الهسترى الذى يصيب بعض الطلبة قبيل الامتحان فيعفيهم من حضوره لا ينشأ من تلف في شبكية العين أو في العصاب البصرى أو في المركز البصرى بالمخ . ومن الغريب أن المريض في هذه الحال يستطيع أن يتجنب الاصطدام بالناس والاشياء التى تعترضه في طريقه لكنه لا يستطيع القراءة أو الكتابة أو المذاكرة ، كأن المريض يصطنع هذه الأعراض ، من غير قصد ، هربا من موقف عسير أو تنصلا من تبعة أو استدرارا لعطف الناس . من ذلك أن بعض التلاميذ يصيبهم الصداع في صباح أيام معينة يخشون فيها الذهاب الى المدرسة لانهم لم يؤدوا واجباتهم ، فان سمحنا لهم بالبقاء في المنزل زال الصداع على الفور . ومن ذلك أيضا أن بعض الجنود في الجبهة يصيبهم شلل وظيفى ، أى نفسى المنشأ ، في سيقانهم أو أيديهم فيكون عذرا مقبولا لاعفائهم من القتال دون لوم من المجتمع ودون لوم من ضمائرهم . وقد يظن أن هذا تمارض مقصود ، لكن كثيرا من هؤلاء قضى عليهم بالاعدام بتهمة التمارض دون أن يتخلوا عن أعراضهم ، مما يستبعد فكرة التمارض .. حتى اذا ما انتهى القتال زال هذا الشلل من تلقاء نفسه . ومن ذلك أيضا أن بعض العمال او الكتبة ممن يجدون أنفسهم مرغمين على المضى في عمل يكرهونه يصيبهم

الشلل فى أيديهم اليمنى cramp ، فان لجأ أحد هؤلاء الى استخدام يده اليسرى بدلا من اليمنى ، برئت اليمنى وتشنجت اليسرى مما يدل على أن السبب فى هذا التشنج نفسى ، وأن التمرد هو تمرد «النفس» لا تمرد اليد . ومما يجدر ذكره أن القلق لا يكون شديدا فى هذا العصاب لان الاعراض الجسمية تحمى المريض من مواجهة المواقف التى تثير فى نفسه القلق . من هذا يتضح أن المريض يجنى من وراء عصابه ربحا ، وان الحيلة الدفاعية فى هذا العصاب هى « الاحتماء بالمرض » .

الهستريا الانفصالية : تضم مجموعة من الاعراض منها النساوة (بكسر النون) والتوهان والتجوال النومى فيها يفصل المريض شطرا من حياته ويستبعده من حيز الشعور . أما النساوة amnesia فتبدو فى عجز المريض عن تذكر اسمه أو سنه أو محل اقامته أو عن تعرف أقاربه وأصدقائه .. وكأن تنسى الام كل ما يمت الى موت ابنها بصلة على حين تستطيع أن تتذكر ما عدا ذلك من أحداث لم تعاصر الفاجعة . هنا تبدو الفائدة الدفاعية للنسيان الناشىء عن كبت ما يسبب التوتر والقلق .

التوهان fugue : يبدأ الطالب فى الذهاب الى الامتحان فيرى نفسه بعد ساعتين فى مكان آخر ، أو يبدأ العامل فى الذهاب الى محل عمله فيرى نفسه على حين فجأة فى قريته ، أو يترك المريض منزله الى مكان أو بلد آخر يمكث فيه أياما أو أسابيع أو أعواما ينتحل خلالها لنفسه اسما جديدا وشخصية أخرى ، وذات يوم يفطن على حين فجأة أنه فى مكان غريب لا يعرف كيف ذهب اليه وقد نسى كل ما حدث له فى أثناء هذه الرحلة الغريبة . من هذا نرى أن التوهان حيلة تدفع عند الفرد التوتر والقلق بهروبه الفعلى مما يواجهه من مشاكل وأزمات .

التجوال النومى somnambulism : يهب المريض من نومه فيقوم بأعمال معينة فى المنزل أو خارج المنزل . وخلال تجواله تكون عيناه مفتوحتين كليا أو جزئيا . وهو يتفادى ما يصادفه من عقبات فى طريقه، ويسمعنا أن تحدثنا اليه ، ويطيع أوامرنا عادة ان طلبنا اليه أن يعود الى فراشه . وحين يصحو فى الصباح لا يتذكر شيئا مما حدث . فاذا هززناه أو صحنا به أثناء تجواله استيقظ فى العادة وأخذته الدهشة

من وجوده فى هذا الوضع الغريب • ويستمر التجوال عادة من ١٥ الى ٣٠ دقيقة • والمتجول قد يؤذى نفسه أذى بالغا أثناء تجواله ، وهــذا خلاف ما يظنه الناس ، فقد حدث أن أحد هؤلاء دهمته سيارة بينمـا كان يعبر الطريق • ومن الخطأ أيضا ما يظنه الناس من أن ايقاظه أثناء تجواله خطر عليه •

والتجوال النومى شـائع بين المراهقين ، وقد يحـدث للأطفـال والراشدين • وهو أكثر شيوعا عند الذكور منه عند الاناث • انه حلم متحرك يتجسد فى حركات • وهو ككل حلم يستهدف تحقيق رغبة محبطة أو حل مشكلة معلقة • فها هو ذا ولد فى العاشرة من عمره كان يتجه أثناء تجواله الى فراش أمه فيقبلها ثم يعود الى فراشه • وقد اتضح أنه سبق له أن تشاجر معها شجارا عنيفا ولم يكلم أحدهما الآخر طـوال أربعة أشهر •• وآخر كان يعتدى بالضرب على زوجة أبيه النائمة أثناء تجـــواله •

ومن العوامل التى تمهد الطريق لاصابة الفرد بالهستريا القابليـــة الشديدة للايحاء ، والاتكال الشديد على الغـير فى عهـد الطفـولة ، والاسراف فى التبرير واستدرار العطف وخداع الذات • وهى سمات تتكون وتترسخ لدى الطفل الذى نسرف فى تدليله ومدحه ، ونكثر من اطرائه واثابته على عمل الواجب ، أو نفرط فى العناية به أثناء مرضه ، ونحرص على حمايته من أقل ضرر أو خطر ، ولا نترك له فرصة للعمل المستقل والتفكير المستقل بل ندعه يعتمد علينا فى كل شىء •

٦ ـ عصاب الوسواس

من الاعراض البارزة لهذا العصاب الوساوس والاندفاعات القسرية •

فأما الوسواس obsession فهو فكرة أو شعور متسلط يلازم الفرد كظله فلا يستطيع منه خلاصا مهما بذل من جهد ومهما حاول اقنـاع نفسه بالعقل والمنطق ، هذا مع اعتقاده بسخف هذه الفكرة أو الشعور، أو تعارضهما مع الاخلاق والقانون • فهذه امرأة تستحوذ عليها فـكرة أنها ستنبت لها لحية ، وهى تعرف تمام المعرفة أن هذه الفكرة سخيفة لكنها لا تستطيع منها فكاكا مع أنها تسبب لها شقاء موصولا • وهـذا شاب تستحوذ عليه فكرة أن الفتيات لا تحبه أو أنه مريض بالسـل

أو انه سيصاب بالجنون . وهذا آب يستبد به الخوف آن ابنه سيكون ضحية لحادثة فى الطريق أو أنه سيحطم رأس زوجته أو سيضع السم لابنه فى الطعام . وآخر يستبد به الشعور بأنه ناقص أو خاطىء . وقد تكون الفكرة المتسلطة مشكلة دينية أو فلسفية فاذا به يظل يسائل نفسه « ما مضيرى بعد الحياة ؟ » أو « لماذا خلقت ؟ » .

أما الاندفاع القسرى compulsion فهو ميل قسرى لا يقاوم الى اداء بعض الاعمال وتكرارها على الدوام حتى ان ادراك الفرد أنها حمقاء أو غير مستحبة . من هذه الاندفاعات الاسراف فى غسل اليدين بالماء والصابون أو بالكحول كلما لمس السواسى كتابا أو بابا أو صافح شخصا ، ومنها التأكد قبل النوم مرات كثيرة متتالية من أن الباب مقفل، أو من أن أحدا لا يختبىء تحت السرير . ومنها أن ينطق الفرد بألفاظ وعبارات معينة ، أو أن يمضى فى قضم أظافره بعنف أو لا ينتهى من تدخين سيجارة الا الى أخرى . ومن هذه الاندفاعات أيضا عد درجات السلم كلما صعد ، أو لمس كل شجرة يمر بها فى الطريق . ومنها المغالاة فى مراعاة الدقة والنظافة والنظام والمواعيد وقواعد العرف مغالاة لا توسط فيها ولا هوادة ولا اعتدال .. وأغرب من هذا كله ذلك الرجل الذى كان يجد نفسه مرغما على قراءة كل سطر ١٦ مرة قبل أن ينتقل الى السطر الذى يليه ، أو ذلك الذى كان حتما عليه أن يصعد سلم منزله ويهبط منه أربع مرات قبل أن يستطيع دخول شقته .. غير أن الوسواسى يجد راحة فى القيام بهذه الاعمال ، ولو منعناه من أدائها اشتد به التوتر والقلق ، فكأنها لديه بمثابة الخمر والمخدرات لدى من يلجئون اليها ، أو كأنها حيل دفاعية تدرأ عنه ما يعانيه من شعور شاذ بالذنب وتوتر نفسى موصول .

الملاحظ أن الوسواسى يكون فى العادة من ذوى الحساسية الخلقية المرهفة مما يشير الى أنه يلقى عنتا شديدا من ضمير صارم يجعله شديد الحساب لنفسه على كل شىء يفعله . ومن هنا كانت مغالاته فى التدقيق والاهتمام بالتفاصيل ومراعاة النظام والمواعيد والتردد حيال كل قرار يتخذه والتهرب من الاعمال التى تتطلب البت السريع وبعبارة أخرى فالوسواسى شخص يعانى عقدة ذنب . وكما رأينا من قبل أن من يعانى عقدة ذنب يكون فى حاجة ملحة موصولة الى « التكفير » و « عقاب الذات » حتى يتخفف من وخز ضميره الصارم الارعن (أنظر ص ١٢٨)

والمشاهد أن أغلب الاعراض فى هذا المرض تتسم بطابع التكفير وعقاب الذات • فالاسراف فى غسل اليدين يقترن عادة بخوف شاذ من القذارة والتلوث مما يمكن تفسيره بأن هذا الاغتسال تطهير رمزى لدوافع ورغبات آثمة مكبوتة ، وبذا يكون الاغتسال حيلة تكفيرية للتخفف من شعور خفى بالذنب • أما عقاب الذات فيبدو فى أن المصابين بهذا العصاب يميلون الى حرمان أنفسهم من مباهج الحياة ومن الظفر بنعيم فى متناول أيديهم ، أو يسرفون فى اقامة الشعائر والعبادات أو ينسحبون من الحياة وينقطعون للتنسك •

والمعرضون للاصابة بالوساس هم من شبوا على عقدة ذنب ومن شجعوا على العناد المسرف فى الطفولة ثم كبت هذا العناد لديهم كبتا عنيفا بالعقاب والتهديد • ان الوسواسى يبدو فى ظاهرة هادئا مسالما طيعا أو خجولا ، لكنه فى دخيلة نفسه عنيد متحد يتوق الى السيطرة والتسلط والعدوان وتوكيد الذات • وحيلته الدفاعية لستر ما يضمره من عدوان وعناد هى « التكوين العكسى » •

٧ ــ عصاب القلق

سبق أن تحدثنا عن القلق العصابى ، ذلك القلق الهائم الطليق المجهول المصدر ، وقلنا انه عرض مشترك فى جميع الأمراض النفسية والأمراض العقلية (أنظر ص ١٣٥) ، غير أنه فى عصاب القلق أظهر الأعراض وأكثرها بروزا ، فهو أشد عنفا ، وأطول بقاء ، وأكثر تعطيلا للفرد • ويختلف هذا العصاب عن غيره من الأعصبة[1] فى أنه يخلو من الحيل الدفاعية التى تمتص القلق وتخفف من وطأته كالأعراض الجسمية فى الهستريا التحولية أو الوساوس والاندفاعات القسرية فى عصاب الوسواس ؛ لذا فالمصاب بهذا المرض يكون تحت رحمة القلق مباشرة دون دفاع •

وقد قدمنا أن القلق انفعال قوامه الخوف ، فمن الطبيعى أن تتجلى فى هذا العصاب المظاهر النفسية والحركية لانفعال الخوف • فمن المظاهر

---

(١) اصطلاح « عصاب » بضم العين اصطلاح جديد اقترحناه طبقا للقياس اللغوى على وزن زكام وصداع . والقياس فيما ليس فيه سماع أن يجمع جمع مؤنث سالم . لكننا عدلنا عنه تجنبا للبس بين عصابات (بضم العين) وعصابات (بكسرها) وجمعناه على أعصبة . فالكلمة مبتكرة وليس فيها سماع سابق .

النفسية لمصاب القلق ، حالة دائمة من الضيق والتوجس مهما سارت الأمور حوله سيرا حسنا • هذا التوجس الدائم يجعل الفرد بطبيعة الحال عاجزا عن تركيز انتباهه وإتخاذ القرارات ، وحتى ان اتخذ قرارا تخطفه الخوف مما قد يؤدى اليه هذا القرار من عواقب وخيمة•انه يتوقع الشر من كل شيء ومن كل مصدر ، ويرى فى كل حدث نذير سوء ؛ ويؤول كل ظن على أسوأ وجه ، ولا يرى الجانب المشرق من الأمور •• وحتى ان آوى الى مضجعه لم يجد راحة بل وجد أرقا ، واذا به قد أخذ يستعرض أخطاءه الحقيقية والموهومة ، القريبة والبعيدة ، ويتحسر على ما فات • فاذا ما أتم استعراضه وتحسره شرع يتوجس خيفة مما هو آت حتى اذا ما اضطره الاعياء الى النوم جثمت على صدره أحلام الكابوس يرى فيها أن أحدا يطارده أو يخنقه أو يقتله أو أنه يسقط من مكان مرتفع •

أما الاعراض الجسمية فمنها فقد الشهية للطعام ، وتقبض القلب وخفوقه ، وارتفاع ضغط الدم ، مع شحوب وغثيان وعرق وارتجاف ، هذا الى كلال فى البصر ، ودوار شديد ، مع كثرة فى التبول واسهال وانتفاخ فى البطن ، وغصة فى الحلق ، وعدم استقرار حركى •• انه شخص يكابد حالة فزع مزمن • وقد يخطىء المريض فيظن أن ما يشعر به من خوف نتيجة طبيعية لاضطراب حالته الجسمية ، بل قد يخطىء الطبيب نفس الخطأ •

ويتسم التاريخ الماضى للمريض بالانطواء وفرط الحساسية والارتياب ومشاعر شديدة بالذنب من عجزه عن بلوغ مستوى طموحه الذى يرسمه فى العادة عاليا غير واقعى • ويبدو أن حالة المريض بهذا العصاب شبيهة بحالة الطفل « ألبرت » الذى أصبح يخاف كل مايشبه الفأر الابيض فى منظره وملمسه فى أن كليهما يعانى من تعميم القلق (أنظر ١٩٣) • ومما يجدر ذكره ما دلت عليه التجارب من أن الأشخاص المنطوين يسهل عليهم اكتساب الاستجابة الشرطية وتعميمها بدرجة أكبر من المنبسطين ومتى تكونت الاستجابة الشرطية وهى الخوف من شيء معين أصبحت عرضة لأن تثيرها مثيرات أخرى شبيهة بالمثير الأصلى •

غير أن التاريخ الماضى للمريض لا يعدو أن يكون عاملا ممهدا للمرض لا يكفى لاندلاعه أن لم يتفاعل مع عوامل مفجرة منها على سبيل المثال خوفه من فقدان مركزه الاجتماعى ، أو خوفه من افتضاح أمره فى

خطأ أرتكبه ، أو خوفه من انطلاق رغباته المحظورة ،الجنسية أو العدوانية بما يهدد أمنه ، أو خوفه من الفشل فى قرار اتخذه ، أو مشروع يهم به •

***

والأمراض النفسية شائعة بين الناس أكثر مما نظن ، وكلما اشتدت زحمة الحياة وزاد الصراع بين الناس ، وعنف المجتمع بأفراده فاشتد فى مطالبه ، كلما زاد شيوعها وتفاقمت اضرارها • غير أنها أكثر انتشارا من الأمراض العقلية ، وأصحابها لا يعزلون عادة فى معازل صحية ، بل ينتشرون فى كل مكان ومع أنهم مصدر متاعب كثيرة لمن يتصلون بهم اتصالا قريبا ، الا أنهم لا يكونون فى العادة خطرا على غيرهم أو على أنفسهم •

٨ ـ الأمراض العقلية

المرض العقلى أو الذهان اضطراب خطير فى الشخصية بأسرها يبدو فى صورة اختلال شديد فى القوى العقلية وادراك الواقع ، مع اضطراب بارز فى الحياة الانفعالية وعجز شديد عن ضبط النفس مما يحول دون الفرد وتدبير شئونه ويمنعه من التوافق فى كل صوره : الاجتماعى والعائلى والمهنى والدينى • • لذا يتعين عزل المريض ورعايته فى معازل خاصة •

والامراض العقلية اما عضوية وهى ما كان لها أساس عضوى معروف وراثى أو غير وراثى ، كتلف النسيج العصبى من الزهرى أو المخدارت أو تصلب شرايين المخ ، أو كاضطراب هومونى ، أو اختلال شديد فى عملية الأيض • ومنها جنون الشيخوخة ، وجنون المخدرات ، والشلل الجنونى العام • أما الذهان الوظيفى أو النفسى المنشأ فهو الذهان الذى لا يعرف له حتى اليوم أساس عضوى معروف ، أو هو الذهان الذى لا تكفى العوامل العضوية ، العصبية والكيميائية ، لتفسير نشأته وأعراضه ، بل تكون العوامل النفسية جوهرية غالبة فى هذا التفسير • وللذهانات أصناف وفئات وشعب للمستزيد أن يطلع على تفاصليها فى مراجع علم نفس الشواذ والطب النفسى • وسنكتفى بالكلام عن ذهانين وظيفيين هما ذهان الفصام والذهان الدورى •

ويشترك الذهان مع العصـــاب في بعض الأعراض كالوســاوس والاندفاعات القسرية والمخاوف الشاذة[1] غير أن الذهان يتفرد ببعض الاعراض منهاالهلاوس والهذاءات delusions أما الهلاوس فمدركات حسية خاطئة لا تنشأ عن موضوعات واقعية في العالم الخارجي • وقد سبق أن درسناها في فصل الادراك الحسي • وأما الهذاء فاعتقاد باطل راسخ يتشبث به المريض بالرغم من سخفه وقيام الأدلة الموضوعية على خطئه وبالرغم من تأثيره الخطير في التوافق الاجتماعي الفرد • والهذاءات أنواع منها : ١ ـ هذاءات الاضطهاد كأن يعتقد المريض أن النـاس يدسون له السم في الطعام ، أو أنهم يتآمرون عليه عن قصد وفي غـير انصاف لاحباط أعماله ومشروعاته • ومنها ٢ ـ هذاءات العظمـة كأن يعتقد المريض أنه شخصية عظيمـة ذات مال أو جمال أو جاه أو نفوذ كبير • ومنها ٣ ـ هذاءات توهم المرض كأن يعتقد أنه مصاب بالسرطان بالرغم من أن الكشوف الطبية تنفي ذلك • وهناك ٤ ـ هذاءات التلميح أو التأويل كأن يخال المريض أن كل حركة أو كلمة أو اشارة تصدر عن الغير فانما هي موجهة اليه بقصد سيء ، مما يحمله على اعتزال الناس أو الاحتكاك بهم على الـدوام • ثم ٥ ـ الهذاءات السوادية « بضم السين » وفيها يعتقد المريض أنه مذنب آثم مسئول عن كثير ممـا حل بالناس من مصائب وعن قيام الحرب العالمية الثانية ، لذا فهو يستحق كل عقاب ينزل به •

ومما يذكر أن المريض في هلاوسه وهذاءاته يحسب الخيـال حقيقة واقعة • غير أن الخيال في الهلاوس صورة ذهنية ، بينما هو في الهذاء فكرة واعتقاد [2] • وفي كل منهما يشوه ادراك الذهاني للواقع • فهو

---

(١) مما يذكر أن مستوى القلق العصابي عند الذهانيين اقل منه عنـد العصابيين : فهو لدى هؤلاء اعلى بقليل من المتوسط (٦٠٪) بينما يصل لدى العصابيين الى مستوى ٨٥٪ .

(٢) يجب التمييز بين الهذاء والوسواس . ففي الوسواس تحاصر الفرد فكره ثابتة بأنه مريض بالقلب مثلا . غير أنه يعلم تمام العلم ان هذا الظن ليس له اساس على الاطلاق ، وانها فكرة سخيفة لكنه لا يستطيع أن يتخلص منها بارادته . وبعبارة اخرى فالوسواسي يرى الوسواس شاذا غريبا عن شخصيته ، لذا فهو يقاومه ويدفعه عن نفسه ويغتاظ من استبداده به ، أما الذهاني فيتشبث بهذائه ويدافع عنه ويقاتل من اجله . فالهذاء قد اندمج في بناء شخصيته اندماجا يجعله لا يشعر بغرابته .

يرى العالم الخارجي مصدر تهديد واضطهاد أو خداع وخيانة .. وبعبارة أخرى فهو يعجز عن التمييز بين الخيال والواقع ، كما أنه يدرك الواقع على غير ما يدركه الناس .

وقد يقطع الذهانى صلته بالواقع الموضوعى بتجاهل هـذا الواقع وانكاره واعادة تكوينه فى الخيال بما يتمشى مع مطالبه وحاجاته الخاصة وهذا على خلاف العصابى الذى لا يزال متصلاً بالواقع مندمجا فيه يعمل ما فى وسعه لكى يعيش ويتكيف لمحيطه ، ويقاسى الأمرين حين يشعر بعجزه عن أن يحيا حياة سعيدة . وبعبارة أخرى فالذهانى شخص أعرض عن الكفاح فى الحياة ، ولا يشعر بأن عليه أن يقدم اعتذار عن استسلامه هذا . وهذا على خلاف الهستيرى أو الوسواسى الذى يكافح بالرغم من أعراضـــه .

والذهانى لا يكون لديه فى العادة « استبصار » فى حالته ، بخـــلاف العصابى ، أى لا يكون فى العدة شاعرا بشذوذه . فالعصابى يعترف بعصابه ، ويتألم لحالته ، أما الذهانى فهو متأكد أن كل شىء يسير على ما يرام ، وأنه الحق وما عداه الباطل .

ونشير أخيرا الى أننا كثيرا ما نستخدم كلمة « الجنون » insanity على أنها مرادفة للذهان . وهذا اســتعمال غير دقيق . فالجنون من مصطلحات الطب الشرعى ، ويتضمن كلا من الـذهان وحالات الضعف العقلى الشديد التى تقتضى الحجر الشرعى على الشخص لعجزه عن تدبير شئونه ، وأداء واجباته الاجتماعية ، ولاعتباره غير مسئول عما يقوم به من أعمـــال .

٩ ــ الفصـــــام Schizophrenia

لهذا الذهان أعراض على درجة كبيرة من التنوع والاختلاف من مريض الى آخر . غير أن هناك شيئا من التزامل بين هـــذه الأعراض بعضها وبعض بحيث أمـكن تصنيفها الى ستة طرز . وهـــذه الطرز وان تميز بعضها عن بعض بأعراض بارزة الا أنها تشترك جميعها فى السمات الآتية على اختلاف فى الشدة والتواتر من طراز الى آخر :

١ ــ الانسحاب من الواقع : هي أولى هذه السمات وأظهرها ، انه نوع من الانطواء الشديد ، فيه يقطع المريض صلتــه واهتمامه بالعالم الخارجي ويوجه كل طاقاته الذهنيــة الى عالم من الأوهام والخيالات يعيش فيه فيعفيه من مواجهة مشاكله ومن كل شيء . واذا به يشعر أن ما حواليه وهم لا حقيقة ، فكأنه حالم في عالم مستيقظ . وهــذه تربة صالحة لنمو كثير من الهلاوس والهــذاءات . فتراه يصيح دون سبب ظاهر أو يهاجم الغير ويعتدي عليه استجابة لهذه الهلاوس والهذاءات.

٢ ــ اضطراب الحياة الانفعالية يبدو في ضحالتها الانفعالية وبرودتها .جدبها وتقلبها وعــدم ملاءمتها للمواقف التي تثيرها . وتبــدو هذه الضحالة في عدم اهتمامه بما يجري حوله في العالم الخارجي ، وفي عدم اكتراثه لمــا يقوم به من أعمال غير لائقة كالاســتمناء العلني وكشف العورة واللواط العلني وعدم احتفاله على الاطلاق بنظافته ولباسه .. واستجاباته الانفعاليــة غالبا ما تبدو سخيفة لا تناسب الظــروف التي تثيرها ، فهو يثور لأتفه الأسباب ، ويتقبل موت أبيه كما يتقبل طعامه، وهو يضحك لمــا يؤلم ، ويألم لما يثير الضحك .

٣ ــ الخمول والبلادة : فترى المــريض لا يتكلم أو لا يجيب على أسئلة توجه اليه ولا يبذل جهدا لعمل شيء . وقد يختار ركنا يجلس فيه ذاهلا وقد خلا وجهه من كل تعبير .

٤ ــ اضطراب التفــكير : يبدو في لغته وأحاديثه بوجــه خاص . فاللغة مطية الفكر وأداة التعبير عنه الى حد كبير . لذا قــد يصبح من المحال عقد حديث معه لأنه لم يعد يهتم بغيره ، ولم يعد قادرا على بذل الجهد العادي اللازم لوضع نفسه موضع من يخاطبه وتعديل لغتــه كي يفهمها من يخاطبه .. كما يبدو اضطراب التفكير في عدم تقيده بالواقع بل خضوعه لرغبات المريض وحاجاته الشخصية .. كذلك يبدو في عدم تماسك الأفكار ، بل تدفقها وانتقالها من موضوع الى آخر لا صلة له به. من ذلك قول أحدهم « بما أنني سأشرب الشاي مع أفطاري فلا داعي لأن ألبس حذائي » .

والفصاميون يتسم تاريخهم الماضي بالحساسية المفرطة وسرعة الاهتياج والخجل والحياء الشديد والانطواء والسلبية وعدم الاشتراك في النشاط الاجتماعي والاتكال الزائد على الغير .

١٠ ـ الذهان الدورى

Manic-depressive psychosis

اضطراب عقلي وظيفي تتناوب المريض فيه حالات من الهوس وأخرى من الاكتئاب تتفاوت من حيث شدتها واستمرارها • ففى حالات الهوس mania تغزر أفكار المريض وتتدفق متنقلة بسرعة من موضوع لآخر ، كما تبرز انفعالاته ، وتكثر حركاته وكلامه ، ويحاول تنفيذ جميع ما يطرأ على ذهنه من خواطر • ومنهم من تغمره السعادة والمرح فيأخذ فى الغناء بأعلى صوته أو فى الرقص • وقد ينقلب هذا النشاط الفائض الى اعتداء على النـــاس والأشياء ، أو يتخذ صورة ألفاظ نابيـــة ، واستعراضات جنسية مبتذلة ، واسرافا فى الصخب بما يقتضى وقف المريض • وغالبا ما تقترن هذه الحالة بهلاوس وهذاءات العظمة والاستعلاء فاذا بالمريض يقص على من حوله ما يقوم به من اختراعات سيهتز لها العالم بأسره •

وفى نوبات الاكتئاب[1] depression الخفيف يهبط مستوى نشـــاط المريض الجسمى والذهنى ، ويشعر بالقنوط وفتور الهمة : فيجد مشقة كبرى فى التفكير فى أبسط الأمور،ويفتر اهتمامه بعمله وأسرته وأصدقائه والعـــالم الخارجى ، كما يميل الى تضخيم الأمور البسيطة واجـــترار مضاعفاتها ، يحاصره شعور بالذنب من أشياء حدثت فى المـــاضى وقد لا تكون ذات بال •• كما يستبد به الشعور بأنه عاجز فاشل ولا قيمة لـــه • وتـــرى المريض يسير مقوس الظهـــر ، ويتكلم بصوت منخفض متقطع متهدج ، وقد بدت على وجهه سيماء الحزن والكآبة وانـــكسار النفس • يشكو من الامساك المزمن والضعف الجنسى •• ومن الأعراض البارزة أيضا الأرق واستيقاظ المريض فى الفجر ليجد نفسه فى قبضـــة أفكار سوداء مختلفة ، هذا الى انقباض فى الصباح يخف ويتحسن كلما كثُر النهار • وقد يحاول الانتحار بالفعل حتى أن كثيرا من هؤلاء المرضى يودعون بالمستشفيات العقلية عقب محاولات انتحارية •• وتشخص هذه النوبات أحيانا بأنها « نورستانيا » •

---

(١) الاكتئاب انفعال قوامه الحزن على اشياء حدثت فى الماضى ، فى حين أن القلق انفعال قوامه الخوف من اشياء يحتمل ان تحدث فى المستقبل • وغالبا ما تتلازم هذا الانفعالان •

أما فى نوبات الاكتئاب الحادة فتتضحم الأعراض السابقة ، وتحاصر المريض هذاءات سوادية فيعتقد أنه سبب ما فى الدنيا من مصائب ، وكثيرا ما يستبد به هذاء توهم المرض فيضخم ما لديه من أعراض جسمية بسيطة او يتوهم أنه ضحية مرض جسمى لا وجود له فى الواقع، وقد يمتنع عن الأكل بدعوى أن ليست له معدة • ومحاولات الانتحار شائعة فى هذه النوبات يدبرها المريض ويخفيها عمن حوله ببراعة تبعث على الدهشة ، وقد يدفعه خوفه الشاذ على مستقبل أولاده أو من يعولهم الى قتلهم قبل أن ينتحر • وقد تتطور هذه النوبات الحادة الى نوبة ذهول لا يتحرك فيها المريض ولا يستجيب لشىء حوله •

فاذا كان المريض فى نوبات الهوس يوجه عدوانه الى العالم الخارجى، فهو فى نوبات الاكتئاب يوجه العدوان الى نفسه ويسرف فى اتهام نفسه، كأنه يكابد « عقدة ذنب » من تضخم خبيث فى ضميره ، أو كأنه يرضى حاجة الى عقاب ذاته •

وتستغرق نوبات الهوس أو الاكتئاب أياما أو أسابيع أو شهورا تتوسطها فترات افاقة تكون فى العادة أطول من مدة النوبة ، وفيها يبدو المريض سويا مستبصرا فى حالته ويمكن الحديث معه •

ومع أن هذا الذهان يسمى بالذهان الدورى لتناوب الهوس والاكتئاب فيه ، الا أن بعض المرضى يقتصر المرض لديهم على نوبات الهوس وحدها ، وآخرون على نوبات الاكتئاب وحدها ، وفريق ثالث تكون النوبات مزيجا من الهوس والاكتئاب • وأكثر هذه الصور شيوعا هى النوبات الاكتئابية الخالصة •

لاشك أن الوراثة وعوامل فسيولوجية مكتسبة من العوامل الممهدة لهذا المرض ، أما العوامل المفجرة له فصدمات نفسية كموت شخص عزيز ، أو فشل فى الحياة الزوجية ، أو خيبة أمل الفرد فى عمل خصص له طول حياته •

١١ ــ العوامل الممهدة والمفجرة

تضافر العوامل :

كان الناس والعلماء يعزون اضطرابات الشخصية الى الوراثه أو الى الصدمات العنيفة التى تصيب الانسان فى حياته . أما اليوم فلم يعد يعتقد أحد من الثقاة أن لها سببا واحدا . فالحياة النفسية ليست من البساطة بحيث يكون اعتلالها رهنا بحادثة واحدة أو صدمة واحدة .. اذ لابد من عدة طبقات من القطران كى تحول الصفحة البيضاء الى اللون الأسود الحالك . الواقع أن اضطراب الشخصية ، كتكوينها ، ينجم عن تضافر وتفاعل عوامل داخلية وخارجية شتى . تصنف عادة الى عوامل ممهدة وأخرى مفجرة . فأما العوامل الممهدة فهى التى ترشح الفرد للاضطراب بأن تمهد الطريق لظهور المرض .. من هذه العوامل الوراثة أو الجبلة المعيبة[١] . والتربية السيئة فى عهد الطفولة ، وعدم التوجيه فى عهد المراهقة . وأما العوامل المفجرة فهى التى تندلع فى أعقابها أعراض الاضطراب ، هى القشة التى تقصم ظهر البعير .

أثر الوراثة :

لاشك أن الناس يختلف بعضهم عن بعض بالفطرة من حيث درجة الحساسية والتأثر ، ودرجة احتمال الاحباط والحرمان ، وكذلك من حيث الحيوية وقوة الدوافع والقابلية التعلم[٢] . والشخص المستهدف للأمراض النفسية والعقلية تزيد حساسيته وتأثره بضغوط البيئة وأعبائها على الشخص المتوسط .

---

(١) Constitution : الجبلة (بكسر الجيم والباء) هى التكوين البيولوجى للفرد الموروث والمكتسب . فالعوامل الجبلية تشمل العوامل الوراثية والعوامل الولادية أى التى تعرض لها الجنين أثناء الحمل .

(٢) اتضح أن الشخص المنطوى بالوراثة يجد سهولة فى اكتساب الاستجابات الشرطية وتعميمها وصعوبة فى انطفائها واستئصالها ، وهذا على خلاف الشخص المنبسط بالوراثة . وهنا يبدو أثر الوراثة فى نشأة الأمراض النفسية . فليست هذه الأمراض الا انماطا سلوكية اكتسبناها للتخفف من القلق .

لقد قارن « شيلدز » Shields (١٩٦٢) توائم صنوية نشأت فى بيئة واحدة بتوائم صنوية نشــأت فى بيئات مختلفة ، وبتوائم لا صنوية نشأت معا ، من حيث الاستهداف العصاب ، أى درجة التعرض للاصابة به ، فاتضح له أن التوائم الصنوية تتشابه من هذه الناحية بدرجة أكبر بكثير من التوائم اللاصنوية • وعلى أساس هذه الدراسة وغيرها استنتج « أيزنك » Eysenck أن الوراثة مسئولة عن الاستهداف العصاب بدرجة أكبر بكثير مما كان يظن عادة •

كما اتضح أيضا أن أثر الوراثة يختلف باختلاف العصاب ، فأثرها فى عصاب الوسواس أعمق منه فى أى عصاب آخر • فقد ظهر من بعض الدراسات أن ثلث آباء المصابين به وخمس أبنائهم تبدو لديهم أعراض وسواســية •

وقد قام « كولـــان » Kallmann بمقارنة توائم صــنوية بتوائم لا صنوية فوجد أن التوأم الصنوى ان أصيب بالفصام فان صنوه يصاب به فى ٨٦٪ من الحالات ، أما ان أصيب توم لا صنوى بهذا الذهان لم يصب أخوه به الا فى ١٤٪ فقط من الحالات •

وتدور كثير من البحوث الحديثة حول احتمال وجود عوامل كيميائية بيولوجية خاصة لدى الذهانى الوظيفى — تنشأ من عوامل وراثيـــة أو غيرها — ويكون لها أثر فى نشأة المرض • من ذلك مثلا أن حقن شخص سليم سوى بنوع من حامض الليسرجيك قد يثير لديه هلاوس شبيهة بما يحدث فى الفصام ، وأن بعض العقاقير التى تعادل تأثير هذا الحامض تخفض هــذه الأعراض الفصامية • ومن بحوث حــديثة جدا أن حقن شخص سليم بمصل دم أخذ من شخص فصامى ، يثير لدى السوى بعض الأعراض الفصامية بصورة مؤقتة •• غير أن تأويل هذه البحوث لا يزال موضع جدل كبير•

العوامل النفسية والاجتماعية الممهدة :

أشبعنا القول فى الفصول السابقة عن أثر التربية السيئة والصدمات الانفعالية فى عهد الطفولة فى التمهيد لاضطرابات الشخصية فى عهد الكبر،

حتى لقد قال بعض المعالجين النفسيين ان كل مرض نفسى أو عقلى وظيفى ما هو الا مأساة كتبت فكرتها فى الطفولة ثم يقوم الفرد بتمثيلها فى عهد الكبر • الواقع أن ما يتعرض له الفرد من ضروب للاحباط فى طفولته يخلق فى نفسه صراعات شتى تحول دون تكامل شخصيته الى أى سوء توافقه . كما أنه يجعله شديد الحساسية لمواقف معينة : لمواقف النقد أو الحرمان أو للمواقف التى يشتم منها رائحة الكراهية أو الاذلال أو فقدان العطف و الشعور بالذنب ، فاذا به يستجيب لهذه المواقف استجابات مشتطة أو شاذة • وبعبارة أخرى لقد أصبح شخصا يحس وخز الابرة طعنة خنجر ، ويرى الحبة يحسبها قبة ، ويسمع الهمسة صيحة • مثل الحساسية النفسية الزائدة كمثل الحساسية الجسمية الزائدة سواء بسواء : فمدخن التبغ يألف جسمه النيكوتين تدريجا حتى يصبح قادرا على تحمل مقدار منه كان يكفى لقتله وهو مبتدىء • على أن اسرافه فى التدخين قد يؤدى به ذات يوم الى رد فعل عنيف ، فاذا بالمدخن الذى اعتاد أن يدخن عددا ضخما من السجاير فى اليوم الواحد قد أصبح لا يطيق على حين فجأة تدخين واحدة منها •• ولنذكر بعد هذا كله أن التربية السيئة لا تزود الفرد بالتوجيه اللازم فى الطفولة والمراهقة بل قد تزوده بأساليب فاشلة للكفاح فى الحياة •

وقد أجريت دراسات واسعة النطاق للمقارنة بين تواريخ حياة أشخاص مضطربى الشخصية وبين أشخاص أسوياء ظهرت منها فوارق كثيرة فيما يتصل بخبرات الطفولة فى الأسرة • فكانت العلاقات الأبوية المعيبة أكثر شيوعا لدى المضطربين ، كالاسراف فى السيطرة والتأديب الصارم ، هذا فضلا عن البيوت المحطمة من أثر الشقاق أو الطلاق أو الفقر •• كما أسفرت الدراسات أيضا عن شيوع الأمراض الجسمية الشديدة والصدمات الانفعالية فى طفولة المضطربين بدرجة أكبر منها فى طفولة الأسوياء •

غير أننا يجب أن نأخذ حذرنا فى التأويل • فقد دلت بحوث أخرى على أن نسبة معينة من الأطفال تنمو نموا سليما حتى فى أسوأ الظروف والبيئات ، وأن نسبة صغيرة تنحرف بالرغم من ظروفهم الحسنة • وبعبارة أخرى فالظروف السيئة والصدمات الانفعالية ليست وقفا على

طفولة المرضى نفسيا وعقليا[1] • ترى هل هناك عامل مجهول هو المسئول عن ذلك •• عامل وراثى أو عضوى أو عامل له صلة بناحية نفسية حيوية لم ينتبه الباحثون الى وجوده بعد ؟ •

العوامل المفجـرة :

هى العوامل التى تندلع فى أعقابها أعراض الاضطراب • وقد تكون هذه العوامل جسمية كالارهاق أو المرض الجسمى • وهذا ما يلاحظ عند بعض الطلبة قبيل الامتحان ، أو عند بعض الجنود الحديثى العهد بالحياة العسكرية • أو تكون العوامل المفجرة صدمات انفعالية كخسارة ماليـة فادحة ، أو موت عزيز ، أو فشـل فى حب ، أو خلف ظن بزوجـة ، أو فضيحة اجتماعية ، أو فقدان المركز الاجتماعى ، أو تغيرات سريعة أو عنيفة فى حياة الفرد كاختلاف الجو المنزلى بعد الزواج عنه قبل الزواج، أو كتلك التغيرات التى تطرأ على حياة من يهجرون الريف الى الحضر ، أو الحياة الزراعية الى الحياة الصناعية ، أو تلك التى تطرأ على حيـاة طلبة البعثات اذ ينتقلون من حضارة الى خرى مغايرة الحضارة الأولى • من أجل هذا تكثر الانهيارات النفسية فى المراحل الحرجة من حياة الفرد: فى سن البلوغ ، وعند الزواج أو الانجاب ، وفى سن اليأس ، وفى سن التقـاعد •

ومما يجب ملاحظته أن هذه العوامل المفجرة على عنفها لا تكفى وحدها لظهور الاضطراب الا اذا كان الفرد مهيأ لها من قبل بحكم جبلته وتربيته الأولى ، أى الا اذا تضافرت وتفاعلت مع العوامل الممهدة •

هل ينقلب العصاب الى ذهان ؟ :

يخشى كثـير من المصابين بأمراض نفسية أن تصـل بهم الحال الى الجنون ، فما قول العلم فى ذلك ؟ يرى بعض أطباء النفس وعلمائها أن العصاب حالة خفيفة أو حالة مبكرة من الذهان « الوظيفى » ، وأنه قد

---

(1) ومع هذا فلا تزال البحوث تدل على أن الكثرة الكثيرة تتوقف صحتهم النفسية على نوع تربيتهم المبكرة .

ينقلب الى ذهان ان اشتدت الضغوط المادية والمعنوية على العصابى . هذا الى أنهما يرجعان الى نفس المجموعة من الأسباب . وحجتهم فى ذلك أن كثيراً من العصابيين تبدو لديهم هذاءات خفيفة وأعراض اكتئابيــة واضطهادية ، وأن كثيرا من الذهانيين تبدو لديهم أعراض عصابية قبـــل أن يصابوا بالذهان .

ويرى آخرون أن العصاب يختلف عن الذهان اختلافا جوهريا من حيث الأسباب والأعراض . أى أنهما مرضان مستقلان . فالعصابى يظـــل عصابيا مهما اشتدت به الضغوط اذ لديه من الحيل الدفاعية ما يكفيــه لمواجهتها مهما عنفت به . ويبدو أن كفة هذا الرأى هى الراجحة فى الوقت الحاضر ، اذ تعززها كثير من الأدلة الكلينيكية والتجريبية .

١٢ ـ العلاج النفسى

العــلاج النفسى اصطلاح عام يقصد به استخدام الطــرق النفسية بمختلف أنواعها لمعونة من اضطربت شخصياتهم اضطرابا خفيفا أو عنيفا ـ من علاج قضم الأظفار والتبول اللاارادى الى علاج عصاب الوسواس وذهان الفصام . وللعلاج النفسى طرق شتى لكل طريقة ميدانها وأسلوبها وميزاتها وما يناسبوا من الحالات . وقد تسهم عدة طرق فى علاج حالة بعينها . من هذه الطرق العلاج بالايمان ، والعلاج بالايحاء ، والعلاج بالاقناع . والعلاج بالنصح والتطمين ، والعــلاج بالتحليل النفسى ، والعلاج السلوكى .. ومن العلاج السطحى والعميق ، المختصر والمطول ، الفردى والجماعى ، الموجه وغير الموجه .. غير أنه يجب قصر هــذا الاصطلاح على العلاج الذى يقوم به شخص تدرب عليه تدريبا عمليــا فنيا كالطبيب النفسى ، أو المحلل النفسى ، أو الخبير النفسى الكلينيكى ، أو الاخصائى الاجتماعى السيكياترى .

ومهما اختلفت طرق العلاج العلمى وأساليبه فهناك خطوات يمر بها كل عــلاج :

١ ـ التنفيس الانفعالى Catharsis ويستهدف معونة المريض على الافصاح عن مشاكله ومتاعبه ، والتعبير عما يعتلج فى صدره من مشاعر وانفعالات وصراعات نفسية مقموعة أو مكبوتة كالخوف أو الكراهية أو

الاشمئزاز أو الشعور بالذنب • الواقع أن كلام الفرد عن مشكلة يعانيها وسيلة يتخفف بها من قلقه كما أنه قد يزيد المشكلة وضوحا فيسهل حلها • لكن الكلام قد يكون أحيانا تكرارا لا معنى له ، بل انه قد يزيد من شدة التوتر • هنا يكون الكلام الى خبير نفسى أجدى وأنفع ، لأنه قد يوجه انتباه المريض الى طرق جديدة لادراك المشكلة أو يقترح عليه طرقا أخرى التصرف •

٢ — الاستبصار الذاتى Self-insight : كثيرا ما يعين التنفيس المريض على الاستبصار فى نفسه ، أى فهم دوافعه ومصدر متاعبه وما يلجأ اليه من حيل دفاعية خاطئة لحل مشاكله • فقد يتضح له أنه قد رسم لنفسه مستوى طموح أعلى بكثير من مستوى اقتداره ، أو أن فكرته عن نفسه فكرة خاطئة لا تتفق مع الواقع ، فهو ليس عاجزا أو فاشلا أو منبوذا أو مسلوب الارادة أو لا يصلح لشىء • وقد يتضح له أن سبب ما يعانيه من شعور خفى موصول بالذنب انما سببه تربية قاسية كابحة •

٣ — تجديد التعلم reeducation : كلما زاد استبصار المريض فى مشاكله وما يصطنعه من طرق خاصة لحلها ، زادت قدرته على تغيير سلوكه وعلى التخلى عن عاداته التوافقية السيئة وعلى استخدام طرق أجدى للكفاح فى الحياة والتعامل مع الناس • وكلما انكشفت له دوافعه أصبح قادرا على التحكم فيها ، قادرا على ضبط سلوكه وانفعالاته ، وعلى أن يتعلم كيف يعبر عن مشاعره العدوانية بصورة يرضاها المجتمع بدلا من كبتها ، فى هذه المرحلة أيضا يستطيع المريض أن يغير طريقة تفكيره ونظرته الى الناس ، وأن يكون أكثر اعتمادا على نفسه فى حل مشاكله ، وأن يستغل امكاناته على نحو أفضل •• وتعتبر هذه عملية تغيير فى بناء الشخصية • كل هذا والمعالج يعينه على البحث عن طرق تزيد من ارضاء حاجاته بازالة العقبات المادية والنفسية التى تمنعه من ذلك • وقد يقترح عليه تغيير مهنته أو تطليق زوجته أو أخذ أجازة •

وقد يحدث هذا التنفيس والتصويب والتعليم خلال مقابلات شخصية أو تحت تأثير مخدر ، أو أثناء عملية التداعى الحر فى التحليل النفسى ، أو أثناء النوم المغناطيسى ، أو خلال مناقشة غير مباشرة بين المعالج

والمريض .. كما قد يقتضى العلاج ساعة فى كل يوم ، أو خمس ساعات فى الأسبوع كما فى التحليل النفسى ، أو مرة واحدة فى الأسبوع .. وكل هذه تفاصيل فنية تحددها طبيعة الحالة الفردية • غير أنه مما لا يدعو الى الاستغراب أن يستمر العلاج أحيانا عامين أو ثلاثة لتقويم شخصية دب فيها الاضطراب طوال عشرين أو ثلاثين عاما • وسنعرض لأهم طرق العلاج النفسى الشائعة :

التحليل النفسى

يستهدف التحليل النفسى البحث عن مصادر الاضطراب فى الصدمات الانفعالية والخبرات والدوافع المكبوتة فى الطفولة المبكرة • ولكن بما أن المكبوت يؤذى نفس المريض لو اطلع عليه ، فلو حاولنا استدراجه الى حيز الشعور فمن المحقق أن يقاوم المريض هذه العملية مقاومة شديدة : فلابد اذن من ابتكار طريقة خاصة للتغلب على هذه **المقاومة** حتى يتسنى اماطة اللثام عن المصادر الخفية اللاشعورية للاضطراب • وقد اهتدى « فرويد » الى طريقة تعين على قهر هذه المقاومة ، هى طريقة التداعى الحر وتحليل الاحلام التى شرحناها من قبل (أنظر ص ٣٨٥) • وأهم ما يجب مراعاته فى التحليل أن يكشف المريض بنفسه كيف نشأ اضطرابه وتطور • وهنا تبدو مهارة المحلل فى أن يدع الاسباب تفصح عن نفسها حتى يدركها المريض بنفسه وبمجهوده الخاص ويعرف صلتها بحالته • على أن مجرد معرفة المريض لذكرياته المنسية ودوافعه اللاشعورية لا يكفى للشفاء بل لابد له أن يشعر بما لصق بهذه الذكريات من انفعالات مكبوتة كالغضب أو الخوف أو الكره أو الاشمئزاز أو الشعور بالذنب أو الرثاء للذات • وبعبارة أخرى فاستدعاء الذكريات لا يكفى : بل لابد من استحيائها أى استرجاعها بمصاحباتها الوجدانية • « ان مجرد المعرفة لا يغنى ، الشفاء الا كما تغنى معرفة ما تحتويه قائمة للطعام فى تهدئة الجوع لدى شخص جائع » •

والتحليل النفسى عملية شاقة طويلة تحتاج الى جهد وصبر كبيرين من المحلل والمريض • ولابد لمن يقوم به من خبرة نظرية واسعة بالنفس الانسانية ، ومن تدريب عملي طويل ، والا أصبح التحليل فى يده كالمشرط فى يد الجراح الأخرق •

ويستخدم التحليل اليوم على نطاق واسع خاصة فى حالات المرض النفسى أو السيكوسوماتى الشديد كما يستخدم أيضا فى علاج المرضى بالفصام حين تستطيع العقاقير المهدئة انتزاعهم من عالم الخيال وردهم الى عالم الواقع فترة من الوقت .

ونظرا لطول الوقت الذى يقتضيه التحليل ، فقد رأى بعضهم اجراءه أثناء نوم المريض نوما مغناطيسيا ، أو بعد حقنه بمخدر لاضعاف مقاومته وتيسير استدعاء الذكريات المنسية المكبوتة وما يصحبها من تنفيس انفعالى . وقد استخدم الاطباء الامريكيون التحليل بالتخدير[1] أثناء الحرب الاخيرة فى علاج من أصيبوا بعصاب الحرب . وللمستقبل القطع فى الصلاحية النسبية لهذه الطرق .

العلاج المعقود على المريض :

بدأ « روجرز » Rogers الامريكى هذا النوع من العلاج لأغراض الارشاد النفسى[2] ، ثم استخدم بعد ذلك للعلاج النفسى . انه ضرب من المقابلة الشخصية يقف فيه المرشد أو المعالج من المسترشد أو المريض موقفا سلبيا قابلا أكثر منه ايجابيا فاعلا . اذ يمتنع المعالج من تشخيص الحالة ، أو تقديم حل للمشكلة ، أو الادلاء بنصيحة ، أو توجيه أمر أو فرض رأى ، بل يصغى لما يقوله المريض ويوجه المناقشة الى هذه النقطة أو تلك ، ابتغاء معونته على الكشف عن مشكلته وفهمها بنفسه ووضع خطة لتدبير أموره بنفسه . وبعبارة أخرى يقع عبء العلاج على كاهل المريض لا المعالج ، فكل ما يصنعه المعالج هو تهيئة جو طليق يتيح للمريض الافصاح عن انفعالاته ، والتعبير عن متاعبه ، وتجسيد مشاعره وتوتراته فى جو سمح رضى يشجعه على البحث والتنقيب بنفسه ، ويساعده على الاستبصار فى مشكلته . وتأويل ذلك ما يراه « روجرز » من أن الشخص الذى يجد عسرا فى حل مشاكل الحياة غالبا ما يكون شخصا نشأ على تربية اتكالية لم تكون فيه عادة الاعتماد على نفسه ، اذ كان أبواه يرسمان له كل خطة ويضعان له كل قرار ولا يتيحان له الفرص للاستقلال برأى أو عمل . فكان اذا ارتطم بمشكلة أو صعوبة

---

(١) من عيوب العلاج بالتخدير اختلاط الذكريات الحقيقية بالتخيلات الوهمية والهلوسات التى يثيرها المخدر .

(٢) أنظر ص ٣٦ .

استغاث وطلب النجدة ممن حوله • لذا أصبح من الضروري معونته على أن يعين نفسه ، أي على اتخاذ قراراته بنفسه وتنفيذ ما يراه صالحا منها ، فلا شيء يخلق الشعور بالمسئولية مثل تحمل المسئولية • ومن هنا يلقى عليه المعالج المسئولية لحل مشكلته حتى فيما يتصل بالعودة اليه فان قال له المريض : هل تريد أن أزورك مرة ثانية ؟ أجابه « هذا أمر أتركه لك ، ان شعرت انك تريد العودة عد » • ومتى رأى المريض أن ما ظفر به أثناء العلاج من استبصارات وقرارات من صنع نفسه لا من صنع المعالج ، كان أكثر تقبلا لها والعمل بمقتضاها •

ويرى كثيرون أن هذا النوع من العلاج يمكن أن يحل محل التحليل النفسي بل يمتاز عنه بأن ما يستغرقه من وقت أقل بكثير مما يتطلبه التحليل ، في حين يرى التحليليون أنه علاج ضحل لا يصل الى أعماق الشخصية •

العلاج السلوكي Behavior therapy

نوع من العلاج يقوم على تعاليم « بافلوف » والمدرسة السلوكية ، تلك التعاليم التي ترى أن أعراض ا لعصاب ما هي الا عادات سيئة اكتسبها الفرد عفوا عن طريق مبادىء التعلم ، فيكون العلاج هو استئصال هذه العادات ، وتزويد الفرد بعادات أخرى صالحة • وبعبارة أخرى فالأعراض العصابية استجابات شرطية انفعالية وحركية • فالخوف الشاذ من الظلام أو من قط أو كلب ما هو الا استجابة خوف شرطية بسيطة ، والاعراض الوسواسية استجابات اكتسبها الفرد للتخفف من القلق • ومتى تكونت هذه الاستجابات فانها تميل الى أن تثبت وتتكرر وفق مبدأ التدعيم ، لأنها تخفض القلق ، كما تميل الى أن تعمم ، أي أن تثيرها مثيرات ومواقف أخرى شبيهة بالموقف الاول — فمن لدغه ثعبان خاف من الحبل • وقد دلت الدراسات التجريبية على أن ظاهرة «تعميم» المثيرات أكثر شيوعا بين العصابيين منها بين الاسوياء •

هذه هي قصة نشأة العصاب • فالأعراض العصابية لا تنشأ عن عقد نفسية طفلية أو عن صراعات ودوافع لا شعورية • بل ان العرض هو المرض نفسه ، وزوال العرض يعني زوال المرض عن طريق عملية « الانطفاء » • لذا فالعلاج السلوكي لا يفتش في ماضي المريض بحثا

عن صدمات انفعالية ولا يلجأ الى تحليل الاحلام أو الهفوات أو أعراض المرض كما يفعل التحليل النفسى ، بل يرى أن هذا كله لا داعى له ولا قيمة له فى العلاج • وللعلاج السلوكى طرق كثيرة منها الاشراط التقليدى والاشراط الاجرائى ، والكف المتبادل ، والممارسة السلبية •• انه نوع حديث من العلاج دعا اليه وروج له كل من « ولبه » Wolpe (١٩٥٨) ؛ « وأيزنك » Eysenck (١٩٦٠) •

لقد ذكرنا من قبل ، مثالين للعلاج السلوكى أحدهما علاج طفل يخاف خوفا شاذا من الأرنب ، عن طريق الاستئصال الشرطى (أنظر ص ١٩٢)، والثانى هو استئصال عادة التدخين عن طريق الممارسة السلبية (ص ٢٣٧) • واليك مثالا آخر لعلاج التبول اللاارادى عند الأطفال عن طريق الاشراط التقليدى الذى ينص على أنه ان اقترن مثير غير فعال — كالجرس فى تجارب « بافلوف » — بمثير فعال — كتقديم الطعام الكلب — استمد الاول قوة الثانى • ان الطفل الذى يتبول لا اراديا فى غير سنه ، انما يفعل ذلك لأن المثيرات التى تصدر عن توتر مثانته ليست من القوة بحيث توقظه من النوم قبل التبول ، أى أنها مثيرات غير فعالة • فهل نستطيع عن طريق الاقتران الشرطى أن نجعلها مثيرات فعالة ، أى تستطيع أن توقظ الطفل ؟ لقد ابتكر « موور » Mowrer طريقة تتلخص فى أن ينام الطفل على مرتبة بداخلها أسلاك كهربية من شأنها أن تقرع جرسا كلما ابتلت المرتبة • والجرس هنا مثير فعال أى يستطيع أن يوقظ الطفل • ثم يطلب الى الطفل أن يهب من نومه ويذهب الى الحمام فور سماعه الجرس سواء كانت به حاجة أو لم تكن به حاجة الى المزيد من التبول • وبتكرار هذا عدة ليال تستطيع التوترات الضعيفة لمثانته والتى تسبق الجرس مباشرة أن توقظه قبل أن يدق الجرس •• ويصرح الكثيرون ممن استخدموا هذه الطريقة أنها أتت بنتائج باهرة ، بل يؤكد مبتكرها أن نجاحها كان ١٠٠٪ •

الكف المتبادل : كان « ولبه » أول من طبق هذه الطريقة فى علاج الاضطرابات العصابية الخطيرة عند الراشدين • ويتلخص الاستئصال الشرطى هنا فى اثارة استجابات تتعارض مع القلق وتكفه • من هذه الاستجابات المضادة للقلق : الاكل ، واسترخاء العضلات ، وتوكيد الذات وغيرها • لقد سبق أن أشرنا الى أن الاكل من الحيل الدفاعية لخفض القلق ، فالشره كثيرا ما يكون دليلا على وجود قلق • ولنفرض

أننا نريد أن نعالج طفلا يخاف خوفا شاذا من قط أو كلب .. هنا نضع الحيوان في قفص أو بعيدا عن الطفل . ثم نقدم للطفل وهو جوعان طعاما يحبه كالشيكولاتة . هنا تثور لديه استجابتان متعارضتان هما الخوف من الحيوان والتلذذ من الاكل : غير أن الاستجابة الثانية أقوى من الاولى لأن الحيوان مقيد أو بعيد .. لذا فهى تكفها بالتدريج .

وتوكيد الذات كثيرا ما يكون استجابة تتعارض مع القلق وتكفه .. فمن الناس من يعجز عجزا بالغا عن التعبير عن غضبه واستيائه تعبيرا مناسبا : فان انتقده أحد شعر بأن كبرياءه قد جرحت واستجاب لذلك بالتجهم والعبوس أو بسورة من الغيظ : وهى استجابة تشير الى قلقه وقلة حيلته . وقد يكون عجزه هذا نتيجة لتربيته السابقة التى كانت تحرم عليه الرد على الكبار . أى تثير في نفسه القلق ان فكر في الرد عليهم . وبعبارة أخرى فالقلق هنا يكف التعبير عن الغضب والاستياء . ومن ثم فلنا أن نتوقع أننا لو شجعناه على التعبير عن استيائه فان هذا التعبير يكف ما لديه من قلق الى حد ما . وقد يصعب هذا على المريض في أول الامر ، لكنه يسهل تدريجا بالممارسة . وهنا يبدو الكف المتبادل[1] واضحا . فالقلق كان يكف المريض عن التعبير عن غضبه ، فاذا بهذا التعبير قد أصبح يكف ما لديه من قلق .

ويلاحظ أن هذه الطريقة تقترن عادة بتقليل حساسية المريض[2] تدريجا للمواقف التى تثير قلقه بتكرار تعريضه لها وهى في صور خفيفة غير عنيفة .. فالقط يقدم الى الطفل أولا وهو بعيد أو وهو محبوس ، ثم يقترب منه رويدا رويدا . والخائف من التعبير عن استيائه يدرب على هذا التعبير في مواقف مختلفة تزداد بالتدريج شدة من حيث اثارتها للقلق .

ونوجز ما تقدم فنقول ان العلاج السلوكى يقوم على دعامتين هما :

١ ــ الاستئصال الشرطى .

٢ ــ تقليل حساسية المريض تدريجيا .

---

(١) reciprocal inhibition

(٢) desensitization

ويقول الممارسون له انه نجح بالفعل فى علاج كثير من الحالات ، غير أن أغلب المحدثين من المعالجين النفسيين لا يرون أن علاج الامراض النفسية من السهولة بهذا القدر ، وذلك دون أن ينكروا أثر التعلم فى نشأة الاعراض • فالمقرر المعروف فى كل من الطب البدنى والنفسى أن علاج الاعراض وحدها دون علاج الاسباب لا يفيد • من ذلك مثلا أن أعراض الهستيريا يمكن ازالتها بالتنويم المغناطيسى ، وأن كثيرا من المخاوف الشاذة يمكن ازالتها بالاستئصال الشرطى • غير أننا ان لم نهاجم أسبابها الكامنة فى بناء الشخصية ظهرت الاعراض مرة أخرى أو ظهرت أعراض عصابية أخرى لتقى المريض وتدفع عنه غائلة القلق من مشاكل الحياة وأزماتها • وهذه هى وظيفة الاعراض وفائدتها •

وهناك أساليب خاصة للعلاج النفسى منها العلاج بالايحاء ، والعلاج باللعب ، والعلاج بالعمل ، والعلاج الجمـاعى ، سنقتصر على ذكر اثنين منها •

العلاج بالايحاء :

يستخدم العلاج بالايحاء فى حالة يقظة المريض أو وهو فى حالة نوم مغناطيسى لبث أفكار سليمة فى نفسه أو بأن حالته ستتحسن بكل تأكيد • ويرى كثير من المعالجين أن الايحاء طريقة عقيمة فى العلاج لأنه لا يتيح للمريض الاستبصار فى حالته ، ولأنه يهاجم أعراض المرض لا أسبابه • ويرى آخرون أن الايحاء يعين على تحرير المريض من بعض معتقداته الخاطئة • فالهسترى المصاب بشلل فى ساقه يعتقـد أنه لا يستطيع المشى • ومادام يعتقد هذا فلن يستطيع المشى فالذى يقعده عن المشى هو اعتقاده هذا ، وربما كانت رغبته كذلك • والواقع أنه يستطيع المشى لولا هذا الاعتقاد • والدليل على ذلك أنه لو تحرر من اعتقاده الفاسد تسنى له أن يمشى • والايحاء كفيل بتحريره من اعتقاده هذا • كما يرون أنه كبير النفع فى علاج بعض الحالات الخفيفة التى لا يكون فيها أصـل الاضطراب بعيد الغور ، وفى علاج متاعب الحياة اليومية التى تسبب القلق والانقباض والارق • هذا الى ماله من قيمة كبيرة فى تهـدئة الاضطرابات السيكوسوماتية البسيطة كالصداع العصبى الذى ينشأ عن القلق ، والذى يمكن شفاؤه فى بضع دقائق عن طريق الاسترخاء والايحـاء •

العلاج الجماعى Group therapy

هو علاج حالات سوء التوافق فى موقف جماعى ، أى أنه علاج يستغل ما يقوم بين أفراد الجماعة من تفاعل وتأثير متبادل يكون له أثر فى تغيير سلوكهم ونظرتهم الى الحياة والى أعراضهم • وقد ذاع استخدامه على نطاق واسع ابان الحرب الاخيرة لازدياد حالات اضطراب الشخصية وقلة عدد المعالجين النفسيين • ويستخدم الان لعلاج الاطفال المشكلين عن طريق اشتراكهم فى جماعات اللعب والنشاط الحر ، ولعلاج العصابيين وبعض حالات الفصام • كما اتضح أنه يفيد بوجه خاص فى علاج الاضطرابات الانفعالية والسيكوسوماتية ومشكلات الحياة العائلية والمهنية والمشكلات الجنسية وادمان الخمر وتوثيق العلاقات الانسانية فى ميدان الصناعة •

ومن صور هذا العلاج أن يشترك عدد من المرضى — بين ١٠ و ١٥ — ممن تتشابه أعراضهم وسماتهم الشاذة فى مناقشات جماعية تعقد عدة مرات أسبوعيا وتدور حول مشكلاتهم ومشاعرهم فى جو سمح وتحت قيادة مشرف يحرص على ألا يحتكر المناقشة بل يشجعها • وقبل المناقشة يعقد هذا المشرف المعالج مقابلة شخصية مع كل واحد منهم لأخذ فكرة عن نوع متاعبه ، ثم يحضر المناقشة على ألا يتخذ فيها دور الرئيس الرسمى مصدر السلطة والتوجيه ؛ بل يقوم بحث كل واحد منهم على التعليق أو تأويل متاعب الآخرين •

ولهذا العلاج أثر نفسى ذو قيمة اذ فيه مجال كبير لانطلاق الانفعالات واسقاطها على أعضاء الجماعة • وحين يرى المرضى متاعبهم ومشكلهم ليست وقفا عليهم بل يشاركهم فيهاغيرهم من الناس ، لا تعود هذه المشاكل مصدر ازعاج وتنغيص لهم ، بل يصبح ذلك عاملا يقوى شعورهم بالانتماء الى الجماعة وثقتهم فيها وتوحدهم بها • وهذا الشعور يكون سندا عاطفيا للمريض يعينه على الاستبصار فى نفسه وفهمها •

١٣ — أثر العلاج النفسى

يتوقف أثر العلاج النفسى على نوع المرض وشدته وطول مدة الاصابة به ؛ كما يتوقف على سن المريض وجنسه • وقد ثبت أنه وسيلة

نافذة فى علاج كثير من حالات العصاب والاضطرابات السيكوسوماتية • فبه يتحرر المريض من انقلق الجاثم على صدره ، ومن مشاعر النقص والذنب ، ومن شعوره بأن الحياة لا طعم لها • وبه يتخفف مما يحمل من كراهية وعدوان وتعصب ، ومما يتسم به من اندفاع وتهور ، وبذا يصبح أقرب الى التسامح وسعة الصدر والتعاون والايثار • وبفضله يتخلص من ضروب الكف والتعطيل التى تشل نشاطه العقلى والاجتماعى والجنسى وتجعله عاجزا عن الانتاج والاستمتاع بالحياة وعن أن يفصح عن عدوانه فى المواقف التى كان يخاف من الافصاح فيها عنه •• وعن طريق العلاج النفسى أبصر الاعمى ومشى المقعد الهستيرى وزالت قرحة المعدة الى غير رجعة •

والعلاج النفسى لا يؤدى فقط الى راحة المريض من وطأة آلامه وأعراضه ، بل هو الى هذا يزيد من قدرته على تحمل صدمات الحياة وشدائدها أى أنه يرفع « وصيد الاحباط » عنده • فهو من هـذه الناحية بمثابة عملية « تبليد » تقلل من حساسيته الشـديدة لعيوبه الشخصية ونقائصه الاجتماعية أو لوخز ضميره الصارم • هذا فضلا عن أنه يعين الفرد على مواجهة مشاكله بطرق أجدى وأنفع ، واستغلال امكاناته على وجه أفضل ، وتعديل مستوى طموحه بما يتناسب مع مستوى اقتداره ، وتغيير نظرته الى الناس والى نفسه ، فيجعله أكثر اعتمادا على نفسه فى اتخاذ قراراته وحل مشاكله ، وأكثر ثقة بنفسـه فى التعامل مع الناس •

ولقد كان علاج الفصـام يقتصر على الصـدمات الكهربية بالمخ • ويتلخص فى تمرير تيار كهربى ضـعيف بالرأس مما يسبب للمريض تشنجا خفيفا تعقبه فترة اغماء وجيزة • أما اليوم فقد حلت العقاقير المهدئة مع العلاج النفسى محل الصدمات الى حد كبير • فان استطاعت هذه العقاقير انتزاع المريض من عالم الخيال ورده الى عالم الواقع أمكن استخدام عدة طرق للعلاج النفسى معها لانه يصبح من الممكن مناقشة مشاكله معه ومعونته على مواجهتها بصورة واقعية • ويستخدم اليوم العلاج الجماعى للفصاميين على نطاق واسـع • بل يستخدم التحليل النفسى لعلاجهم أيضا •

أما حالات الهـوس والاكتئاب المنيفة فلا تعـود ترى اليوم فى المستشفيات وذلك نتيجة لاستخدام العقاقير المهدئة والمضادة للاكتئاب •

فان لم تفلح هذه العقاقير فى ضبط حالات الاكتئاب فغالبا ما تستخدم الصدمات الكهربية المتكررة التى تؤدى غالبا الى التحسن • أما السبب فى ذلك فغير معروف •

ومما يذكر بصدد هذه العقاقير ما ظهر من احصاء أمريكى حديث أن ٧٠٪ أو أكثر من العصابيين تخف الاعراض لديهم بدرجة ملحوظة باستخدام المهدئات أو مضادات الاكتئاب — فهناك اكتئاب عصابى غير الاكتئاب الذهانى — أو هما معا ؛ وأن أغلب هؤلاء استطاعوا أن يعملوا بكفاءة أكبر فى حياتهم • غير أن العلاج بالعقاقير لا يتوقع منه أن يحل محل العلاج النفسى حين يتحتم تغيير بناء شخصية المريض ، أو تغيير ظروفه الاجتماعية التى تفجر المرض •

الفصل الثالث

مبادئ الصحة النفسية

١ — الأعباء النفسية للحضارة الحديثة

من السمات البارزة للحضارة الغربية الحديثة شيوع القلق والحيرة والارتياب والارتباك بين الناس ، وذلك من أثر التغير الاجتماعي السريع الشامل الذي بده الناس في الستين سنة الاخيرة • فقد شهد العالم حربين عالميتين تمخضت في أعقابهما هزات اقتصادية عنيفة ، واضطرابات في العلاقات السياسية بين الامم ، وانقلابات ثورية في أشكال الحكومات ، وصراعات ثقافية وايديولوجية مختلفة ، وتقــدم صــناعي تكنولوجي لم يسبق له مثيل • وبعبارة أخرى لقد مر الناس بألوان شتى من الازمات والتجارب القاسية • ومن المعروف أن مراحل الازمات مراحل تغيير عنيف في معتقــدات القــوم واتجاهاتهم النفســية ، لأن المعتقــدات والاتجاهات المألوفة لا تعود تكفي في أوقات الشدائد للتمشي مع سلوك الناس وعاداتهم في حياتهم اليومية • ومما زاد الامر تعقدا أن هذا التغير كان سريعا متلاحقا لم تستطع أن تسايره قدرة الانسان على التوافق للجديد • ومن ثم لم تكن سرعة التغير أقل اشكالا من التغير نفسه •

ومن ناحية أخرى فالمجتمعات المتحضرة الحديثة[1] تزداد بمرور الزمن تعقيدا ، وهذا من شأنه أن يخلق لها مشكلات جديدة منها ازدياد الاحتكاك بين الناس ، واحتدام الصراع بينهم في تعاملهم الاجتماعي والاقتصادي اذ يتناحرون على ارضاء حاجاتهم المادية والنفســية وعلى الذود عما يعترض هذا الارضاء من موانع وعقبات • ومن ثم اشتد العدوان وزاد خوف الانسان من الانسان ومن الفشل • وأصبح الناس حيرى تمزقت نفوسهم بين الدعوة الى التعاون والتكافل وبين هذا التنافس المرير • ولقد كان للانقلاب الصناعي الضخم في الغرب أثره أيضا في خلق كثير من المشكلات النفسية والاجتماعية كانت نتيجة طبيعية لزيادة التخصص في

---

(١) ينصب كلامنا هنا على المجتمعات الرأسمالية وذلك لقلة ما لدينا من مراجع عن المجتمعات الاشتراكية .

العمل ، وحشد المصانع بالالات والعمـــال ، والتغـــيرات التكنولوجية السريعة ، والتقلبات المنتظرة وغير المنتظرة فى السوق العالمية ، وهجرة الناس من الريف الى الحضر ، والبطالة •

ان الحضارة الغربية الحديثة ــ كما يصفها كثير من علماء النفس الحديث ــ حضارة تشعر الفرد بأنه منبوذ مهجور فى عالم يستغله ويغشه ويخدعه ، حضارة تشعره بالعزلة والعجز وقلة الحيلة فى عالم عدائى يغشاه من كل جانب • فقد شجعت التنافس المســعور بين الناس ، وأضعفت الصلة بين العامل وصاحب العمل ، وأوهنت روابط الأسرة ، وزلزلت أركان الايمان ، وجعلت كل انسان يعيش لنفسه • فهى فى جملتها حضارة مادة وهوس وسرعة وتوتر وضجيج • فلا عجب اذن أن اقترنت هذه الحضارة باعتلال الصحة النفســية ، واختلال الصــحة الخلقية ، وذيوع الاضــطرابات السيكوسوماتية والجريمــة والانتحار والمخدرات والطلاق وغير ذلك من المشكلات الاجتماعيــة • هذا الى ما تزخر به من أفراد فقدوا سعادتهم واتزانهم النفسى وغشيهم اليأس والقنوط والتوجس والسخط وعدم الرضا بشىء • ومن هنا بدت الحاجة ماسة الى تحصين الانسان ووقايته من شر هذه الحضارة التى لم تزوده بأساس ثابت للطمأنينة والاستقرار ، بل حفلت بالعوامل التى تعطل النمو وتخنق الشخصية •• وهكذا ولد علم الصحة النفسية •

٢ ــ علم الصحة النفسية-

هو علم تطبيقى يستهدف مكافحة الاضــطرابات النفســية والعقلية بمختلف أنواعها وأشكالها ودرجاتها ، لا فى صورها العنيفة فحسب ، بل وفى صورها الخفيفة الشائعة بين الناس ، مضافا الى ذلك ضعف العقــل ، وذلك بوقاية الناس منهــا ، وتزويدهم بالمعلومات للمحافظة على صحتهم النفسية • ولما ظهر أن العلاج المبكر لاضطراب ناشىء كثيرا ما يكون وقاية للفرد من اضطراب مقبل خطير قد يستعصى على الشفاء ، شملت مناهج هذا العلم ناحية العلاج أيضا • فمن أساليب الوقاية ازالة العوامل الاجتماعية التى تؤدى الى سوء التوافق فى البيت والمدرسة والمصــنع والجيش والمســتشفى والملاجىء والانديه واصــــلاحيات الاحداث • ومن وسائل الصيانة وتدعيم الصحة النفسية تنوير الناس

وتفهيمهم واسداء النصح اليهم ومعونتهم على مواجهة مشاكلهم وفهمها وحلها بطرق صحيحة وتعليمهم أساليب الكفاح الناجحة • ثم العلاج الذى لا يقتصر على الطرق النفسية فقط بل يتجاوزها الى الطرق الطبية كذلك •

انه حركة تربوية صحية تهتم بمشكلات التوافق جميعا ، لدى الاسوياء وغير الاسوياء ، والصغار والكبار ، الاذكياء والاغبياء ، أصحاب الجسم السليم والمرضى وذوى العاهات ، الجانحين وغير الجانحين • فهى تستهدف معونة كل فرد وتدريبه على العيش السعيد المنتج فى بيئته الاجتماعية •

وعلم الصحة النفسية يفيد من منتجات علوم النفس والتربية والاجتماع وكذلك علوم الاحياء والطب والطب النفسى • غير أن صلته وثيقة بوجه خاص بعلم نفس الطفل • فالاضطرابات الوظيفية توضع أصولها كما رأينا فى الطفولة المبكرة ، وكذلك بعلم النفس الاجتماعى الذى يستهدف تحسين العلاقات الانسانية بين أفراد الجماعة ، هذا الى ما يفيده من علم النفس الصناعى الذى يرمى الى حل المشكلات الصناعية حلا علميا انسانيا يهتم براحة العامل وصحته وكرامته كما يهتم بزيادة انتاجه •

أما الاجراءات العملية التى يقوم بها هذا العلم فأهمها :

١ — تنوير الاباء والأمهات •

٢ — تنظيم المدارس بما يتمشى مع مبادىء الصحة النفسية •

٣ — نشر العيادات النفسية بمختلف أنواعها •

٣ — علامات الصحة النفسية

ليست الصحة النفسية مجرد خلو الفرد من الاعراض الشاذة الصريحة ، العنيفة أو الخفيفة ، والتى تبدو فى صورة وساوس أو هلاوس أو توهمات أو مخاوف شاذة ، أوفى صورة عجزظاهر عن معاملةالناس أو ضبط النفس •• بل انها حالة تتميز الى جانب هذه العلامات السلبية بأخرى ايجابية ، موضوعية وذاتية : موضوعية أى يمكن أن يلاحظها الاخرون ، وذاتية أى لا يشعر بها الا الفرد نفسه • من هذه العلامات :

١ ــ التوافق الاجتماعى : وهو قدرة الفرد على عقد صلات اجتماعية راضية مرضية : علاقات تتسم بالتعاون والتسامح والايثار فلا يشوبها العدوان أو الارتياب أو الاتكال أو عدم الاكتراث لمشاعر الاخرين •

٢ ــ التوافق الذاتى : ويقصد به قدرة الفرد على التوفيق بين دوافعه المتصارعة توفيقا يرضيها جميعا ارضاء متزنا • غير أن هذا لا يفيد أن الصحة النفسية تعنى الخلو من الصراعات النفسية ، اذ لا يخلو انسان أبدا من هذه الصراعات ، انما تعنى القدرة على حسم هذه الصراعات والتحكم فيها بصورة مرضية،والقدرة على حل الازمات النفسية حلا ايجابيا انشائيا بدلا من الهرب منها أو التمويه عليها • وغنى عن البيان أن من ساء توافقه الذاتى تحتم أن يسود توافقه الاجتماعى • والعكس صحيح •

٣ ــ ارتفاع وصيد الاحباط : يقصد به قدرة الفرد على الصمود للشدائد والأزمات دون اسراف فى العدوان والتهور أو النكوص أو استدرار العطف أو الرثاء للذات •

٤ ــ الشعور بالرضا والسعادة : أى استمتاع الفرد بالحياة : بعمله وأسرته وأصدقائه ، وشعوره بالطمأنينة وراحة البال فى أغلب أحواله •

٥ ــ الانتاج الملائم : يقصد بذلك قدرة الفرد على الانتاج المعقول فى حدود ذكائه وحيويته واستعداداته ، اذ كثيرا ما يكون الكسل والقعود والخمود دلائل على شخصيات هدتها الصراعات واستنفد الكبت حيويتها :

٦ ــ الجهود البناءة : يقصد بذلك قدرة الفرد على احداث تغييرات اصلاحية بنائية فى بيئته • أى عدم رضوخه وامتثاله المطلق لما يراه فى جماعته من معايير وتقاليد فاسدة بالية ؛ على ألا يكون هذا صادرا عن رغبة فى مخالفة العرف أو توكيد الذات أو عن دوافع عدوانية دكبونة •

والصحة النفسية حالة نسبية تتفاوت درجاتها باختلاف الافراد • وشرطها الاساسى تكامل الشخصية والنضج الانفعالى فيما عرض لنا أكثر من مرة على صفحات هذا الكتاب •

٤ — تنوير الاباء والامهات

لا شك فى أن مهمة الوالدين اليوم أشـــق بـــكثير منها بالأمس • فقد زاد شعورهما بجسامة المسئولية الملقاة على عاتقهما ، كما اتسع نطاق هذه المسئولية • فلم تعد التربية مجرد اطعام الطفل وتعويده الطاعة العمياء لما يقوله الكبار ، بل أصبحت تكوين شخصيات وتزويد الفرد بالأساليب الناجحة للكفاح فى الحياة • هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فقد أصبح الأطفال والمراهقون أكثر تحـــررا وجرأة نتيجة لتعرضـــهم لمؤثرات خارجية لم تكن معهودة بالامس ، كالاذاعة والسينما والتلفاز والصحف وزيادة الاختلاط •• وهذا يتطلب مزيدا من الرقابة لحمايتهم مما قد تنطوى عليه هذه المؤثرات من نواح ضارة ••

وتتوقف معاملة الوالدين للطفل على عوامل شتى شعورية ولا شعورية، منها استعدادهما الفطرى ، ونوع التربية والثقافة التى نشآ عليها ، وما مر بهما من تجارب فى مراحل النمـــو المختلفة ومبلغ توافقهما فى الحياة الزوجية ونظرتهما اليها •• وقد يقال ان جهل الوالدين بأصول التربية الصحية عامل هام فى سوء سياستهما ومعاملتهما لأطفالهما ، غير أن الدراسات الكلينيكية الحديثة بينت أن « النضج الانفعالى » للوالدين أخطر العوامل جميعها فى تنشئة الاطفال • فالأب والام لا تغنيهما ثقافتهما السيكولوجية وعلمهما بشروط التربية السليمة ان لم يكن لديهما قدر كاف من النضج الانفعالى يعينهما على احتمال أعباء الابوة وتكاليفها وتبعاتها وواجباتها وما تتطلب من تضحية وانكار للذات ورفق وحزم وحب جواد غير أنانى أى حب يعطى ولا يأخذ ••

بعض ورطات الوالدين :

كشفت البحوث الحديثة فى علم النفس أن الآباء والأمهـــات كثيرا ما يتخذون من أطفالهم كباش فداء وهم لايشعرون ، بل كثيرا مايتخذونهم مسارح يمثلون عليها ما يكابدونه أنفسهم من صراعات وعقد نفسية • وغالبا ما يكون الدافع فى معاملة الأطفال ارضاء حاجات شعورية ولا شعورية لدى الوالدين قبل أن يكون مصـــلحة الطفل • وقد رأينا من دراسة « الحيل الدفاعيـــة » أن الوالد المهمل يتهم أولاده بالاهمـــال ويؤاخذهم عليه • وكذلك الوالد الكسول أو المقصر • كما رأينا كيف يصب

الوالد المضطهد في عمله جام غضبه عليهم ، وكيف يقحم الوالد الذى حرم من دراسة معينــة أو مهنة معينــة ٠ ٠ ٠ كيف يقحم ابنه فيها بالرغم من عدم ميله أو استعداده ٠٠ وكيف تكون العناية الزائدة والتلهف الزائد على الطفل رد فعل على كراهية مكبوتة للطفل ٠ بل قد يكون مصدر هذه العناية الزائدة دوافع أنانية خالصة كارضاء غرور الأم ، أو رغبة عارمة في السيطرة لديها ، أو لأنهالا تملك هوايةأو مسلاة غيره٠٠ومن الاباء والأمهات من يجهد في الاستحواذ على كل حب طفله له ، فلايطيق أن يتجه الطفل ببعض حبه هذا الى شخص أو شيء آخر وأكبر الظن أن يكون أمثال هؤلاء قد حرموا من الحب والعطف ابان طفولتهم ٠ بل ان رغبة الأم الشاذة في التملك قد تحملها على التدخل في كل شــئون طفلها بما يشعره أنه لا يمكن أن يستغني عنها ٠ وها هو ذا رجل لايريد أن ينجب أكثر من طفل واحد ، ويصر على ذلك اصرارا يبرره بأن تحديد النسل خير طريقة لتربية الأطفال ٠ غير أن التحليل النفسى دل على أن لديه رغبة قديمة دفينة في أن يكون وحيد أمه ٠ وقد اتخــذ من طفله وسيلة لتحقيق هذه الرغبة فتقمص شخصية أمه وأخــذ يدلل ابنه على غرار ما كان يرجو أن تدلله أمه هو ٠ ٠ أى أن الغرض من تحديد النسل لم يكن مصــلحة الأبن ، بل حاجــة الأب الى تحقيق رغبتــه الطفلية اللاشعورية ٠

أما الوالد العصابى ، أو مضطرب الشخصية ، فحتى ان كان يعرف الطرق الصحيحة للتربية ، فهو يتساهل حين يجب الحزم ، ويتهاون حين يجب التشدد ، ويقسو ويشتد لأمور تافهة ، ويكثر من الشـــكوى والهياج والتأنيب والسخرية ، ويكون عقابه أقرب الى الانتقام منه الى الاصلاح والتهذيب ، وليس للتسامح وسعة الصدر مجال كبير في نفسه ازاء أولاده ، هذا الى تذبذبه وعدم ثباته في معاملتهم ، فاذا به يعاقب اليوم على ما كان يثيب عليه بالأمس ٠ وليس ببعيد أن يغار من ميلاد طفل جديد له ، وأن يضيق بمطالب أطفاله من زوجته ، أو يهاجم كل من يحاول أن يستحوذ على حب أطفاله له ٠ وبعبارة موجزة فالجــو الذى يخلقه مثل هذا الوالد في البيت ــ أبا كان أو أما ــ ليس جو أمن واستقرار ٠

أسس التربية السليمة :

من نافلة القول أن نذكر أن « العطف » هو ذلك الجو الجميل الذى يجب أن يحاط به الفرد فى غضاضة عمره • فهو الموازن الطبيعى للضعف الذى يشعر به كل صغير حيال الكبير • ولكى نعطف على الطفل ونحبه بالرغم مما قد يكون به من عيوب يتعين علينا أن نفهمه ، ولكى نفهمه يجب علينا أن نعرفه • ومعرفة الطفل تتضمن أشياء كثيرة من أهمها :

١ — معرفة دوافعه وحاجاته الأســاسية وما يترتب على احباطها وكبتها من أضرار •

٢ — معرفة منطقه الخاص وطريقة تفكيره الخاصة ، ونظرته الخاصة الينا والى العالم الذى يحيط به •

٣ — هذا الى معرفة ما تنطوى عليه مرحلة الطفولة من أهمية وخطورة فى حياة الفرد كلها وفى تشكيل مصيره النفسى • وقد اتضح لنا فى أكثر من موضع مما سبق أثر هذه المرحلة فى تعيين شخصية الفرد وطبعها بطابعها الخاص ، وتوجيههـا الى الصحة أو الى المرض • فلنبادر دون تسويف بغرس ما يمكن غرسه من اتجاهات وعادات صحية وخلقية ، ولنبادر دون تسويف أيضا بعلاج ما قد يبدو لدى الطفل من مشكلات سلوكية وخلقية خشية أن تثبت وتستعصى على التغيير ان تركت ليعالجها الزمن : من هذه المشكلات نوبات الغضب والغيظ كلما ارتطم بمشكلة أو فزعه من بعض الاشياء والحيونات غير الضارة ، أو سرقة أشــياء تافهه لاحاجة له بها ، أو دأبه على ايذاء اخوته وزملائه ، أو نزوعه الى التمارض كلما صادفه موقف صعب، أو اسرافه فى التبرير كلما سئل عن ذنب أتاه أو عمل قصر فى أدائه ، ومن المشــكلات التى لا يهتم بها أغلب الآباء مع أنها قد تكون علامات على تأزم نفسى شــديد اسراف الطفل فى الانطواء على نفسه وما يصاحب ذلك من خجل شديد واسراف فى أحلام اليقظة ، عزوفه عن اللعبمع غيره •

وليذكر الآباء والأمهات أن لهم مهمة مزدوجة • فهى لا تتلخص فى مجرد الابتعاد عن القسوة والتخويف والتدليل أو الاهمال أو التقلب فى معاملة الطفل بل تتجاوز ذلك الى تزويده بالأساليب الناجحة الواقعية للكفاح فى الحياة ومعاملة الناس ، ومن أهمها : كيف يعتمد على نفسه :

وكيف يضبط انفعالاته . وكيف يســوس دوافعــه العدوانية ؛ وكيف يتصرف ازاء ضروب الفشل والاحباط والحرمان •

غير أن معرفة الطفل لا تكفى وحدها لحسن سياسته ومعاملته ، بل لا بد لذلك أيضا من أن يعرف الوالدين نفسيهما • وحبذا لو تسنى لهما أن يعرفا مختلف الدوافع التى تحركهما ازاء أطفالهما ، ومختلف الحيل الدفاعية التى يلجآن اليها •• وقــديكون للوالدين العــذر فى معامــلة أولادهما معاملة ضارة أو غير رشيدة ؛ لكن معرفة الدوافع التى تحركهما تساعدهما على التحكم فيها • فالشعور بالدافع يتيح للفرد فرصة لقمعه أو تحوير السلوك الصادر عنه ، أو ارجاء تحقيقه . أو ارضــائه بطرق أفضل ، أى يجعل الفرد مستعدا لمواجهته والسيطرة عليه بدل أن يكون أسيرا له •

الاستشفاف الوجدانى Empathy

ولو استطاع كل والد أن يضع نفسه موضــع أولاده لتسنى له أن يرى الأمور من وجهات نظرهم ، وأن يدرك أحوالهم النفسية ، وأن ينفذ الى مشاعرهم وحاجاتهم والآمهم ومتاعبهم ، ولتسنى له فوق ذلك أن يشعر بوقع سلوكه فى نفوسهم فيعدله ان كان منفرا أو بغيضا • هذه القدرة على « الاستشفاف الوجدانى » تعين الوالد على أن يستشف ما تحت السطح من مشاعر يخفيها الولد فيبدو هادئا فى ظاهره ، وان كان باطنه مرجلا يغلى ، كما أنها تعينه على أن يدرك أن ما يبدو تافها أو سخيفا فى عينه قد يكون عميق الأثر فى أعين أولاده ، وفى هذا ما يحول دون الوالد أن يحاسب أولاده كمايحاسب الكبار ، أو يؤول سلوكهم فى ضوء دوافعه هو •

معــاملة المراهق :

مما يشكو منه المراهق المعاصر ــ وكذلك الفتاة المراهقة ــ أنه يعيش غريبا وسط أناس لا يفهمونه ، ويتحكمون فيه دون أن يوجهوه • ومما يشكو منه أيضا تلك القيود التى تحدمن حريته فى ابداء الرأى والتصرف دون رقيب ! • وربما كان أكثر ما يغيظه أنــه لا يســتطيع أن يفضى بمشكلاته لوالديه لانعدام الثقه المتبادلة بين الطرفين • أو لعدم اهتمام الوالدين • الواقع أن المراهق يرحب بالمعونة والاقتراحات والنصائح

حين تصدر ممن يثق فيهم ويحترمهم . ويود أن يرى فى والديه صـديقا يلتمس مشورته ، ويبوح اليه بأسراره ومشاكله ، ويستمد منه العون فى ساعات الضيق . انما يؤذى نفسه أن يجد والديه لا يكترثان له أو يعرضان عنه أو يتحكمان فيه أو يتناولانه بالنقد واللوم دون أن يقدما اليه توجيهات ايجابية .

فمن واجبات الوالدين فى هذه المرحلة أن يفسحا صدريهما الى ما يعتلج فى نفوس الشباب من شكوك وشبهات وأسئلة محيرة بدل أن يصدوهم عنها صدا أو يقفا عند مجرد اللوم والانذار . فالعقول المتفتحة تنفر من القسر والزجر لكنها تقبل الاقناع والمجادلة بالحسنى وعليهما ألا يفرضا تقاليد عصرهما ومثله بحذافيرها وبالقوة على جيل غير جيلهما وحبذا لو تنازلا عن شىء من نفوذهما التقليدى كى يعينا المراهق على عملية « الفطام النفسى » أى تحريره من عـادات الطفولة والرغبة فى حماية الوالدين والاتكال الفعلى عليهما . وليذكرا أن الهفوات والزلات بعض ضرورات مراحل التطور ، خاصة بعد الحرمان الطويل والضغط العنيف . . حتى اذا ما ألف الشاب الحرية ومارسها واستشعر لذتها تسنى له أن يفرق بين الحرية والفوضى ، بين الاحترام والتطاول ،بين التبجح وابداء الرأى ، بين ماله من حقوق وما عليه من واجبات ، بين الأخلاق والقيود ، بين التحضر والتحلل . .

٥ ـ عواقب التربيـة الخاطئة

القسوة والنبذ : أما القسوة والتربية الصارمة فتؤدى لا محالة الى خلق ضمير صارم أرعن يحاسب الطفل على كل كبيرة وصغيرة . كما أنها تولد الكراهية للسلطة الأبوية وكل ما يشبهها أو يمثلها فيتخذ الطفل من الكبار ومن المجتمع عامة موقفا عدائيا قد يدفعه الى الجناح ، وفى هذا ما يلقى الشك على الرأى الشائع بأن جناح الأحداث يرجع الى انعدام الضبط والعقاب ، أى الى ضعف الضمير أو عدم وجوده . وقد يستسلم الطفل أو يستكين للقسوة ويطيع ، لكنها طاعة مصطبغة بالحقد والنقمة وتحين الفرص لارتكاب العمل المحظور لاحبا فيه بل انتقاما لنفسه فاذا به يلتمس اللذات المختلسة . أو يكف نفسه عن أغلب وجوه نشاطه لأنه لا يعمل شيئا الا عواقب عليه . أو يرى الخلاص فى تملق والده فيأخذ فى تزلفه ويجد لذة فى الخنوع . وهذا الموقف السلبى الخانع من الأب

يمنع الطفل من تقمص صفات الذكورة ، ويميت ثقته بنفسه ، ويبث فيه الشعور بالنقص ، ويقتل فيه روح المبادأة والاستقلال ، ويجعله عاجزا عن الدفاع عن حقوقه •

ومن الأمهات والآباء من ينبذون أطفالهم نبذا صريحا أو مضمرا ، بالقول أو بالفعل • ويبدو النبذ فى كراهية الطفل أو التنكر له أو اهماله أو الاسراف فى تهديده وعقابه أو السخرية منه أو ايثار اخوته وأخواته عليه أو طرده من البيت • والنتيجة المحتومة لهذا فقدان الطفل شعوره بالأمن • فان كان النبذ صريحا بث فى نفسه روح العدوان والرغبة فى الانتقام وازدادت حساسيته وشقاؤه ، فاذا به يصبح شموسا عنيدا حقودا قلقا ، ولا يكون فى العادة محبوبا من أترابه الأطفال • وقد لوحظ أن نبذ الطفل عامل مشترك فى كل حالات الجناح عند الأطفال والشباب • وغالبا ما يكون الطفل المنبوذ قلقا متلهفا الى العطف تواقا الى استرعاء النظر اليه ، يستجديه بطرق تجعل الناس تضيق به • فان كان النبذ مضمرا مال الطفل الى الاستكانة والاستسلام وأصبح خائفا متهيبا لا يقدر على تركيز انتباهه مما يؤدى به الى التخلف الدراسى • وقد يسلك الطفل المنبوذ سلوكا سويا ويبدو سعيدا الا أن التجاوب العاطفى معه أمر محال •

التراخى والتدليل : وليس التراخى فى معاملة الطفل بأقل ضررا من التشدد والتزمت فى معاملته • وللتراخى صور عدة منها عدم تدريب الطفل على الامتثال لأية قيمة أو نظام أو تحمل أية مسئولية : فى حياته بالمنزل وفى ألعابه وفى معاملاته للناس وحتى فى استذكار دروسه • لقد وجد أن الطفل الذى ينشأ على تراخ وتهاون معرض لا ضطرابات الشخصية والسلوك كالطفل الذى يعامل بقسوة • ذلك أن الأب — أو الأم — المتراخى أو الضعيف نموذج سىء يحتذيه الطفل هذا من ناحية • ومن ناحية أخرى فهو لا يتيح للطفل أن يظهر عداءه . لاخوف من عقابه ، بل لما يعترى الطفل من شعور بالخجل أو الندم ان ظهر عداءه لمثل هذا الأب « الرحيم » • وكلما « ترفق » به الأب زاد شعوره بالذنب من اتجاهه العدوانى نحو أبيه . ثم ينتهى به الأمر الى كبت هذا العدوان ليقاسى فيما بعد عواقب هذا الكبت •

وللاسراف في تدليل الطفل عواقب وخيمة شتى . ويقصد بالتدليل قضاء كل ما يريده الطفل مهما كان سخيفا أو تعسفيا أو غير مشروع ، وأن يكون الجميع رهن اشارته يتحكم فيهم دون داع ، فلا شيء ينقصه ولا شيء يضايقه ؛ كما ينطوى التدليل على التراخي والتجاوز عن الاخطاء . وفي التدليل يأخذ الطفل ولا يعطي ـ وهذا غير العطف الذى يحمل الطفل على التنازل عن بعض ما يريد لقاء ما نفرغه عليه من عطف . والتدليل يؤدى الى الشعور بالنقص والخيبة حين يصطدم الطفل بالعالم الخارجى أو يذهب الى المدرسة أو حين يولد له أخ جديد . كما أنه يخلق من الطفل شخصا خرعا يضيق بأهون المشكلات ولا يطيق مواجهة الصعوبات فيجهد في الخلاص منها بأي ثمن وسرعان ما يستجدى المعونة من الغير . والتدليل الشديد قد يوهم الطفل بأنه مركز العالم الذى يعيش فيه . فمتى ذهب الى المدرسة أو احتك بالناس خاب ظنه وأعتقد أن الناس تتحامل عليه أو تأتمر به . وقد يكون هذا نواة شعور بالاضطهاد يلح عليه فيصبح عاملا هداما في كيان شخصيته ، أو يصطنع في المدرسة حيلا شتى لجلب النظر اليه كالعصيان أو الهرب أو الاعراض عن الطعام أو تصعير الخد ، الى غير تلك من الحيل التى تؤدى الى عقابه، فهو يؤثر أن يعاقب على أن يكون موضع اهمال . والطفل المدلل ينتظر من رؤسائه حين يكبر التغاضى عن زلاته والتساهل معه والا ثار وشعر بالظلم . ولا شك في أن التدليل يضيع ثقة الطفل بنفسه ، ويميت روح التمرد والاستقلال ، ويخلق في نفسه على مر الزمن صراعا بين رغبته في الاتكال على غيره ورغبته في التحرر وتوكيد شخصيته . الواقع أن الأم أو الأب الذى يدلل طفله لا يحبه حبا ناضجا حقيقيا ، بل يعده للشقاء في مستقبل حياته لأنه لم يعده لتحمل الحرمان في الحياة . والواجب أن نعلم الطفل أن الأمور لا يمكن أن تسير دائما على ما يريد ، وذلك بألا نعطيه كل ما يطلب ، وأن نعوده التنازل عن بعض رغباته ، وأن نعوده الاخذ والعطاء .

التذبذب في المعاملة : التقلب في معاملة الطفل بين اللين والشدة أو القبول والرفض من أشد الأمور خطرا على خلقه وصحته النفسية . فاذا به يثاب على العمل مرة ، ويعاقب عليه هو نفسه مرة أخرى . يعاقب على الكذب أو على الاعتداء على الغير حينا ، ولا يعاقب حينا آخر . يجاب الى مطالبه المشروعة مره ، ويحرم منها مرة أخرى دون سبب

معقول • يعاقب ان اختلس شيئا من المنزل ويشجع ان اختلس شيئا من الخارج • هذا التذبذب فى المعاملة يجعل الطفل فى حالة دائمـة من القلق والحيرة ، ولا يعينه على تكوين فكرة ثابتة عن سلوكه وخلقه • كما أنه يهز ثقته بوالديه ولا يدرى ان عمل عملا أيثاب عليه أو يعاقب من أجله • وقد يفضى به ذلك الى اصطناع النفاق والكذب والختـل وأن يكون ذا وجهين • ولقد ظهر أن الشدة المعقولة الثابتة أهون شرا من هذا التذبذب •

التلهف والقلق الزائد : من الأمهات والآباء من يبدون تلهفا شـديدا على الطفل : يقيدون أوجه نشاطه خشية أن يصاب بحادثة أو عدوى : فلا يسمحون له باللعب على سجيته مع غيره من الأطفال : ولا يشجعونه على الاندماج معهم ، ولا يأذنون له بالمجىء والرواح الا فى صحبة كبير خوفا عليه من الغرباء أو السيارات • فان مرض أبدوا اهتماما زائدا بمرضه حتى ان كان طفيفا ، فمنعوه من الذهاب الى المدرسة وأبقـوه فى الفراش أياما طوالا • مثل هذا الطفل يستجيب لهذه المعاملة بالقلق والتهيب ، ويزداد اتكاله على أبويه لأنه لم يتعلم قط مواجهة موقف بمفرده ، وكثيرا ما يصاب الطفل بقلق شديد موصول على صحتـه • هذا الى شعور الطفل بأهميته الزائدة مما يعطيه سلاحا قد يستغله ضد والديه لتوكيد ذاته أو لعقابهما • وقد تضعف هذه المعاملة ثقـة الطفل بوالديه حين يدرك ضعفهما ، وفى هذا اضعاف لنفوذهما •

الشجار بين الوالدين : الشجار بين الوالدين أمام الطفل يفقد الطفل شعوره بالأمن خوفا على مصيره ، أو خشية أن يتحول عدوان أحدهما عليه ، أو لأنه قد يظن أنه سبب الشجار ، أو لأن كل خصام لابد أن ينتهى بغالب ومغلوب ، وسواء كان المغلوب أباه أو أمه فكل منهما أشد من الطفل وأقوى ، فكيف تكون الحال اذن حين يصبح نفسه طرفا فى خصام مع أحد منهما ؟ يضاف الى هذا أن عدم الوفاق بين الوالدين قـد يؤدى الى الاسراف فى تدليل الطفل أو تملقه • فيشعر الطفـل — والأطفال شديدو الحدس لشعور والديهم نحوهم — أن هذه العنـاية الفائقة لا تفرغ عليه من أجله هو • زد على ذلك أن الشجار يجعل الطفل حائرا بين الولاء لأبيه أو لأمه ، وقد يتعلم أن يستغل أحدهما ضـد الآخر ، أو يستخدم أحد الوالدين هذه الوسيلة مما يبث فى نفس الطفل

الشعور بالذنب ويفقده شعوره بالأمن • ولنذكر أن الخصام الصامت بين الوالدين أشد أثرا فى نفس الطفل من الخصام الصاخب الصريح وغنى عن البيان أن الخصام ـ أيا كان نوعه ـ يضعف ثقة الطفل بوالديه ، ومن ثم بالناس جميعا • هذا الى أنه يعطى الطفل فكرة سيئة عن الحياة الزوجية والطمأنينة فى البيت مما يبدو أثره ضارا فى مستقبل حياته • ويحدثنا علماء النفس أن الخصام عامل بالغ الأثر فى نشأة كثير من الاضطرابات النفسية • وعلى هذا قد يكون الطلاق خيرا وأبقى على الصحة النفسية للطفل من الشقاق الدائم الموصول •

٦ ـ الصحة النفسية فى المدرسة

تتمشى الاتجاهات الحديثة فى التربية والتعليم مع الأهداف التى يرمى اليها علم الصحة النفسية • فكل منهما يرمى الى تكوين شخصيات متكاملة أى ناضجة سعيدة قادرة على الانتاج والتعاون • ولكل منهما أهداف وقائية وأخرى انشائية : أى أهداف تقى النشء من كل ما يعطل نموه ، وأخرى تعينه وتدربه على العيش السعيد المنتج فى بيئته الاجتماعية وتزوده بطائفة من المهارات العقلية والاجتماعية والمهنية • ويتضح هذا متى استعرضنا ما تهتم به المدارس النموذجية الحديثة وما ترجو تحقيقه •

المدارس النموذجية الحديثة :

١ ـ تجهد المدرسة الحديثة فى أن يكون الجو الاجتماعى الذى يسودها جوا ديمقراطيا خاليا من القسر والعنف : يتعاون الطلاب والمعلمون فيه على أداء أعمال حيوية مفيدة : فردية وجماعية • ومن دعائم النظام الديمقراطى الايمان بقيمة كل طالب : واحترام رأى الجماعة واعطاء الطلاب حرية المناقشة والاختيار وتوجيه أنفسهم والاشتراك فى التخطيط ، والابتعاد عن المنافسة غير العادلة •

٢ ـ ولم تعد مهمة المدرسة الحديثة تلقين المعلومات والاعداد للامتحانات ، بل تهيئة جو الصف والمدرسة ومواقف التعلم على نحو يكفل النمو السليم لشخصيات الطلاب فى المراحل المختلفة ، وتجنب ما يعطل هذا النمو ، وتنمية العلاقات الانسانية السليمة القائمة على التعاون وايثار الغير والتسامح والمودة •

٣ ـ من أجل هذا تهتم المدارس الحديثة بالمتعلمين قبل أن تهتم بمواد الدروس • أى تهتم بالاحياء قبل أن تهتم بالاشياء • فالطـالب هو مركز الاهتمام • ومن دوافعه وحاجاته المختلفة نبدأ عملية التعلم على أساس نشاطه الذاتي • ويتمشى مع هذا الاهتمام بالطالب مراعاة ما بين الطلاب من فوارق عقلية ومزاجية على قدر المستطاع •

٤ ـ كذلك تهتم التربية الحديثة اهتماما خاصـا باختيار المعـلمين وتزويدهم بمبادىء الصحة النفسية • ذلك أن أمس ما تحتاج اليه المدارس من ناحية الصحة النفسـية معلمون تتيح لهم شـخصياتهم وتدريبهم خلق الجو الملائم لنمو الشخصيات السوية • ولا نغلوا اذا قلنا انه ليست هناك مهنة ان امتهنها ذو شخصية معتلة كانت أجلب للضرر على غيره وعلى نفسه من مهنة التدريس • فالمعـلم العصـابى ينشر الاضطرابات النفسية بين طلابه كما لو كان مصابا بالجدرى أو حمى التيفود • وسلوكه نحو طلابه يتسم بنفس الصفات التى يتسم بهـا سلوك الوالد العصابى نحو أولاده • وترجع خطورة المعلم الى أنه يقوم بعدة أدوار فى وقت واحد • فهو بديل عن الوالد ، وهو رئيس ومشرف وموجه وخبير وعالم •• والواقع أن المعلم لا تغنيه ثقافته أو مهـارته فى التدريس أو حبه للعمل أو المامه الواسع بمشكلات مهنته ، لا يكفيه هذا كله النجاح فى مهمته ان لم تكن له القـدرة على الفهم والعطف والاستبصار الوجدانى فى نفوس طلابه •

٥ ـ والمدرسة الحديثة تعين مراكز التوجيه المهنى على القيام بمهمتها اذ تحتفظ لكل طالب بملف خاص تسجل فيه مستواه العقلى ومستواه الدراسى وسماته البارزة واتجاهه الخلقى العام وميوله •• وذلك لمـا بين الصحة النفسية للفرد وعمله من صلة وثيقة •

٦ ـ كذلك تهتم المدارس النموذجية بما يبـدو لدى الطـلاب من مشكلات وانحرافات سلوكية وخلقية ، وتعمل على العلاج المبكر لهـا قبل أن يستفحل أمرها ويستعصى شفاؤها • من أجل هذا تهتم المدرسه بالتعاون مع البيت للكشف عن أسباب هذه المشكلات ، و تحيلها الى « العيادات النفسية » الملحقة بالمدارس الكبيرة أو بمناطق التعليم • ومما يجدر ذكره بهذا الصدد « مكاتب التوجيه والارشاد » الملحقـة بكثير من المدارس والجامعات فى الخارج ، وهدفها معونة الطلاب على

حل ما يعرض لهم من مشكلات ومتاعب مدرسية وغير مدرسية : الخوف من الامتحانات ، القلق على الصحة ، صعوبة تركيز الانتباه ، العجز عن تنظيم أوقات المذاكرة وأوقات الفراغ ، عدم معرفة طرق التحصيل الصحيحة للمواد المختلفة ، الاعراض عن بذل الجهد ، الاسراف في الاعتماد على المدرس والاقتصار على المحاضرات ، التبرم بالدراسة أو الشعور بأنها عبء ثقيل ، العجز عن التعامل السليم مع الآخرين ، ضعف الحساسية الاجتماعية وعدم الاشتراك في المناشط الاجتماعية والرياضية ، الانحرافات الجنسية المختلفة ، المتاعب المالية •• هذا الى دراسات خاصة في موضوع « الصحة النفسية » لتعين الشباب على المحافظة على صحته النفسية وعلى التحرر من بعض مشكلاته النفسية •

من هذا نرى الى أى حد تهتم التربية الحديثة بحياطة الصحة النفسية للطلاب ، ووقايتها من عوامل الاضطراب الكامنة فى كل مدرسة، وتزويدهم بأساليب الكفاح الناجحة • ذلك أن العلم ليس الا سلاحا واحدا من الأسلحة اللازمة لخوض معركة الحياة • وكثير من حملة العلم تنقصهم الخبرة بالناس والدنيا فلا يستطيعون الانتفاع بما تعلموه أو نفع غيرهم به أو التمتع بما كسبوه من طيبات التراث الفكرى •

٧ — العيادات النفسية

العيادة النفسية مؤسسة اجتماعية تستهدف معونة الناس ، كبارهم وصغارهم ، على حل مشكلاتهم التوافقية المختلفة : النفسية والمهنية والاسرية والاجتماعية والعيادات النفسية أنواع منها :

١ — عيادات ارشاد الأطفال : وتستهدف علاج مشكلات الاطفال السلوكية المختلفة التى تنجم بوجه خاص عن صراعات نفسية واحباط : كمشكلات التغذية والنوم والنطق والتمرد والهرب من البيت والتبول اللاارادى والمخاوف الشاذة ونوبات الغضب ، هذا الى السرقة المتكررة أو الاسراف فى الكذب أو الغش • والمتبع فى هذه العيادات استدراج الأم أو الأب لعلاجهما الى جانب علاج الطفل ، اذ يغلب أن يكون الطفل المشكل ثمرة والدين مشكلين • واضطراب شخصية أحدهما أشد أذى بالطفل من جهله بأصول التربية الصحيحة •

٢ ــ العيادات النفسية التربوية : وترمي الى علاج مشكلات التلاميذ الدراسية والمدرسية التى لا تقدر المدرسة على حلها ، كمشكلة التخلف الدراسى وما يلقاه التلميذ من صعوبات خاصة فى القراءة أو فى تعلم مادة أو عدة مواد • كما تهتم بمشكلة التغيب الموصول دون سبب كاف ، أو سوء سلوك التلميذ مع زملائه ومدرسيه ، وما ينشأ عن جو المدرسة من مشكلات خاصة • ومن هذه العيادات ما يهتم أيضا بمسألة التوجيه التعليمى للتلاميذ •

٣ ــ عيادات الأحداث الجانحين : تختص عادة بعــلاج مشــكلات الأحداث التى تتخذ صورة عدوان على المجتمــع بمــا يقتضى تدخــل السلطات : كالأعتداء بالعنف ، والاعتداء الجنسى ، والاعتــداء على ممتلكات الغير ، والخلس والتخريب والتشرد ، وتلحق عادة بمحــاكم الأحــداث •

٤ ــ عيادات عيوب النطق : من المعروف أن كثيرا من عيوب النطق عند الاطفال كالعقلة والتلعثم والفأفأة واللثغ ترجع الى عوامل نفسية كالقلق وفقدان الثقة بالنفس والشعور بالنقص وعدم الشعور بالأمن •• وقد يكون بعضها حيلا لا شعورية لجلب النظر الى الطفل أو لاعفائه من الاسئلة فى الفصل •• وتختص هذه العيادات بعلاج هذه الحالات بالطرق النفسية والتقويمية المعروفة •

٥ ــ عيادات التوجيه والتأهيل المهنى : وتستهدف توجيه المراهقين أو الشيوخ أو ضعاف العقول أو العصابيين أو المصابين بعاهات جسمية مستديمة أو أمراض مزمنة •• توجيهم الى المهن التى تناسبهم وتستغل ما لديهم من امكانيات •

وهناك عيادات للارشاد الزوجى وحل المشكلات الزوجية ، وعيادات لارشاد الأمهات ، وعيادات تشخيص وعلاج حالات سوء التــوافق العنيفة كالعصاب والذهان •

وتتكون العيادة عادة من طبيب بدنى ، وطبيب نفسى وخبير نفسى كلينيكى وعدد من الاخصائيين النفسيين ، والاخصائيين والاخصائيات الاجتماعيات ، وذلك لدراسة الحالة من جميع نواحيها الجسمية والنفسية

والاجتماعية ، الماضية والحاضرة • ثم يجتمع الاعضاء جميعا لمناقشة الحالة وتلمس أوجه العلاج ، وتتبعها للاشراف على سير العلاج • بالاضافة الى هؤلاء تضم كل عيادة عددا من الاخصائيين فى الناحية التى تهتم بها بوجه خاص : اخصائيين فى العلاج التقويمى لعيوب النطق ، أو فى التعليم العلاجى ، أو فى علاج الاطفال باللعب ، أو فى التأهيل التعليمى ، أو التحليل المهنى •

وللاخصائى أو الاخصائية الأجتماعية مكانة هامة فى هذه العيادات• فهى التى تقوم بجمع المعلومات الاجتماعية التى تفيد فى فهم الحالة النفسية للفرد وخاصة دراسة ظروف أسرته ، ثم تقوم بتحليل هذه المعلومات والتعليق عليها وكتابة تقرير منظم عنها • وهى الوسيط بين العيادة والاسرة اذ تقوم بتفهيم الوالدين ما يجب عمله لسياسة الطفل فى المستقبل • وهى تتخذ الاجراءات اللازمة ان دعت الحاجة الى نقل الطفل من منزله الى بيت كافل أو بيئة أخرى • وهى التى تشرف فى العادة على تنفيذ سير العلاج أو الاصلاح •

ولا يقتصر عمل العيادة النفسية على التشخيص والعلاج ، بل لها الى ذلك وظائف أخرى • فالعيادات تكون فى العادة مراكز للتوجيه والتنوير بما تعقده من محاضرات وندوات ومناقشات مبسطة يفيد منها أغلب الناس وكثيرا ما تكون مراكز للبحث العلمى نظرا لوفرة ما يتردد عليها من حالات مختلفة ، كما أنها تقوم كذلك بوظيفة تدريب الاخصائيين ممن أتموا دراستهم النظرية ولابد من تدريبهم العملى حتى يكون اعدادهم مكتملا •

٨ ــ كيف تحافظ على صحتك النفسية ؟

لا يستطيع من اضطربت شخصيته تحسين صحته النفسية دون معونة من خبير • أما الذين سعدوا فيستطيعون الحفاظ على ما لديهم من نعمة باتباع الوصايا الآتية :

١ ــ **اعرف نفسك** : معرفة النفس والاستبصار فيها من أولى دعائم الصحة النفسية • « وفى أنفسكم أفلا تبصرون ! » •• لذلك :

١ ــ حاول أن تعرف نواحي القوة والضعف من نفسك ؛ وأن ترسم مستوى طموحك وفق حقيقتك لا وفق خيالك.« ورحم الله امرء عرف قدر نفسه » ٢ ــ حاول ان تعرف الدوافع والاهداف التى تحركك . فجهل الانسان بدوافعه مصدر لكثير من متاعبه ومشاكله واندفاعاته ٣ ــ حاول على قدر ما تستطيع أن تستشف الحيل الدفاعية التى تصطنعها للتخفف من متاعبك اليومية ؛ فمعرفتها[1] تساعدك على أن تضع أصبعك على مصادر ما يؤلمك ويؤذى نفسك دون أن تكون متفطنا اليه ، ومن ثم تساعدك على ضبط هذه الحيل والتحكم فيها . وقد رأيت ان الاسراف فى استخدام هذه الحيل يباعد بينك وبين الواقع ، ويجعلك تعمى عن رؤيه عيوبك ٤ ــ واجه مخاوفك وحللها . فضوء النهار يطرد الاشباح . سجل على ورقة ما تراه من أسباب تقلقك فى عملك . وفى بيتك . وفى صلاتك بالناس . فان كانت هذه الاسباب تافهه فذرها ؛ وان كان لابد منها فاحتملها . وان كان لا حيلة لك فيها فقدر أسوأ الاحتمالات وهيىء نفسك للموقف الذى يجب اتخاذه حين يقع هذا الاحتمال .

ومما يعينك على هذه المعرفة والاستبصار أن تقوم بتحليل أحلام اليقظة التى تنساق وراءها خاصة تلك التى يتكرر ورودها ، فهى مرآة صادقة لما تنطوى عليه نفسك من رغبات وحاجات محبطة معوقة . وأن تقوم أيضا بتحليل المواقف التى تثير فى نفسك انفعالات شديدة نحو الآخرين ، كى تستعد لمواجهتها بطرق أفضل أو تتجنبها .

٢ ــ لا تخدع نفسك : ليس هناك انسان يخلو من العيوب : الانانية أو الغرور أو العدوانية أو التعصب .. اعترف لنفسك بعيوبك ودوافعك غير المحمودة ؛ ولا تحاول انكارها أو تجنب مواجهتها أو التهوين من أمرها ، ولا تخدع نفسك بتركها للزمن ، بل اعترف بها أولا . لقد رأيت ان الكبت انكار للواقع وخداع للذات ، كما رأيت ما ينجم عن الكبت من أضرار وأخطار .. وأذكر أن الجندي لو اعترف لنفسه بخوفه من القتال ما صابه الشلل فى ساقيه ، وأن الطالب لو اعترف لنفسه بخوفه من الامتحان ما أصابه الانهيار قبيل الامتحان .. ان شر الحروب

---

(١) اشرنا من قبل الى ان هذه الحيل قد تعمل احيانا على مستوى شبه شعورى .

هى الحرب التى يشنها الانسان على نفسه ، لكنها حرب لا مفر منهـا ان أراد أن يحتفظ بصحته النفسية •

٣ ــ اشترك فى نشاط اجتماعى : أولا لا تعتزل الناس على الاقـل • فكل انسان فى حاجة الى الغير ليساعدوه على حل مشاكله التى لا يستطيع أن يحلها بمجهوده الخاص ، وعلى ارضاء حاجاته التى لا يستطيع أن يرضيها بمجهوده الخاص ، وليشـعروه بالأمن ويزيدوا من احترامه لنفســه • • هذا الى ان الاندماج والاشتراك مع الناس يمد الفـرد بأفكار جديدة ، ووجهات نظر جديدة ، كما يعينه على تصحيح أفكاره وتصوراته الزائفة التى يخلقها الخيال ولا يصححها الواقع • وأهم من هذا أنه يعينه على اكتشاف نفسه ، أى اكتشاف قدراته وامكاناته الخافية أو المهملة •• غير أن التفاهم والاخذ والعطاء مع الناس ليس بالامر اليسير • فكثير من الناس يلجئون الى التصنع أو لا يحسنون التعبير عن أنفسهم ، فلا تتسرع فى الحكم على الناس • واعلم أن البعـد عن التصنع والتكلف واللف والمواربة يعفيك من كثير من الحرج والتـورط والصراع ولا يلبس عليك الامور ، أو يحرف حقيقة صلاتك بالناس • فلو أصابك من أحد سوء أو مكروه فمن الخير أن ترد الاهانة من ان تكتمها فى نفسك زمنا تتراكم عليها فيه أمثالها • واعلم ان الابقاء على الصلات لا يكون بالتغاضى عن الهفوات ، فهذا لا ينجم عنه الا الانفجار أو صب الأذى على شخص برىء •

حاول أن تحضر اجتماعا مرة على الاقل فى كل أسبوع • زر جيرانك• قابل زملاءك وأصحابك فى النادى أو الجمعية •روض نفسك على اللعب مع أحد أو على مناقشته أو قص قصة له •• وتعلم ممن يعرفون •

٤ ــ اتخذ لنفسك صديقا : ليست الصداقة مجرد تبادل الخـواطر والأفكار بل بث الشكوى وتجاوب المشاعر والرغبات ، فالصديق شخص يسمع ويفهم ويحنو وينصح • والتعبير له عن متاعبك ومشاكلك باللفظ يهون من شدتها ، ويزيدها وضوحا وتحديدا ، ويجعلك تنظر اليهـا نظرة موضوعية ، مما ييسر تحليلها وفهمها ونقدها والكشف عما قد يكون بها من مبالغـات • والبوح للصـديق بما تخافه أو تخجل منه أمان من الكبت • والصديق يعفيك من أن تبث شكاواك ومتاعبك لكل من هب

ودب فلا ينالك من ذلك الا خيبة الأمل وسوء الظن بالناس : ذلك أن من تشكو اليه قد يستضعفك — والناس لا تحترم وتخشى الا الأقوياء — أو يسخر منك ، أو يشمت فيك ، أو يكره أن يستمع اليك لأنك تصور له ناحية يكرهها من نفسه ، أو لديه من الهموم ما يشغله عنك ، وغير بعيد أن يستغل شكواك ضدك ان انقلب عليك . ومن ثم كانت الصداقة عاملا هاما فى تنظيم شخصية الفرد . وكان انعدام الاصدقاء علامة على سوء التوافق خاصة فى مرحلتى المراهقة والشباب .

٥ — **تعلم حل المشكلات بالطرق الصحيحة** : الاسلوب العلمى لحل المشكلات هو الاسلوب الوحيد لحلها حلا واقعيا سليما ، لانه أسلوب يقتضى الروية والتفكير والنظر الى المشكلة من جميع نواحيها السارة وغير السارة ووزنها وتحليلها . هذا الى أنه أسلوب موضوعى يتطلب أن يسترشد الانسان أولا بالوقائع والمشاهدات الموضوعية لا بحالته الذاتية ومخاوفه وشكوكه . أما الأسلوب غير العلمى فقد يخفى المشكلة فى الظاهر لتعود شرا مما كانت عليه ، أو لتتمخض عن مشكلات أخرى ، وحاول أن تحسم مشكلاتك فور ظهورها ، وأن تبت فى الأمور دون تسويف كبير وأن تصل الى قرارات حاسمة غير مائعة . فتعليق الأمور يبعث فى النفس القلق . ويثير الصراعات القديمة . بل يخلق صراعات جديدة . فان أعجزك حل المشكلة فاستشر . وان ظلمك الواقع فاستقبل المحتوم ببشر ، وخذ الأمور هونا على قدر ما تستطيع . ووطن نفسك على أن الفشل والحرمان من طبع الحياة فلا مناص من قبولهما ، ثم تعلم كيف تنحنى العاصفة .

٦ — **اتقان عملك** : لا تحاول أن تنجز ثلاثة أشياء فى وقت واحد ، لأن هذا يعنى قصورك عن اتقان أى واحد منها . ولو كان شعارك « الكيف قبل الكم » لكان خيرا وأبقى . ففى الاتقان أمانة وشعور بالنجاح والفوز ، وهذا أفضل سبيل الى زيادة الثقة بالنفس . والاتقان لا يعنى أن ترهق نفسك بالاسراف فى العمل . فقد يكون هذا الاسراف حيلة دفاعية ضد القلق . وهذا نوع من التبذير يجب أن ينتبه اليه الفرد وأن يعمل على ازالة اسبابه .

٧ — **ركز انتباهك فى الحاضر** : لا تكثر من التحسر على ما فات ، والتوجس مما هو آت ، بل درب نفسك على تركيز انتباهك فى الحاضر ،

فهذا خير وسيلة للاتقان وسرعة البت والاعداد للمستقبل • غير أن هذا لا يعنى اغفال الخبرة الماضية وما يقتضيه المستقبل . بل يعنى أن خير الطرق للاستعداد للغد هى أن نركز اهتمامنا ونشاطنا فى انهاء عمل اليوم على خير ما يكون دون اسراف فى تأمل الماضى والمستقبل لذاتهما تأملا يغشاه القلق • فالقلق لا يسلب الغد أحزانه ، لكنه يسلب اليوم قوته •

٨ ــ **صحتك الجسمية** : من نافلة القول أن نذكر أن الانسان وحدة جسمية نفسية • وما نريد توكيده هو أن الارهاق الجسمى الموصول أو المرض الجسمى الموصول يخفض من قدرة الفرد على مقاومة الضغوط النفسية والاجتماعية التى يتعرض لها ، أى يعرضه أو يورطه فى اضطراب نفسى • وعكس هذا صحيح • فالارهاق النفسى الموصول يقلل بالفعل من قدرة الفرد على مقاومة الامراض الجسمية •

٩ ــ لا تتردد فى أن تستشير خبيرا نفسيا أن اعجزك الأمر

٩ ــ متى تستشير خبيرا نفسيا ؟

يتعين على الفرد أن يطلب المعونة من خبير نفسى فى الحالات الآتية :

١ ــ ان استبد به الضيق والقلق أو الشعور بالذنب أو الاكتئاب بصورة موصولة وعجز عن تحديد مصادر هذه المشاعر •

٢ ــ ان كان حيال مشكلة محددة ، لكنه لم يجد من خبراته ومعلوماته ما يعينه على حلها . أو ان جرب حلولا مختلفة واحدا بعد الآخر فلم ترضه هذه الحلول أو لم تفده فى حل المشكلة ، بأن كانت حلولا خيالية أو غير عملية واقعية •

٣ ــ ان كان يتهرب من مواجهة مشكلته بتجاهلها أو استصغارها أو التمويه عليها أو ادعاء العجز عن حلها •

٤ ــ ان كان ينسب قيام المشكلة بأسرها الى الناس والظروف فيلقى كل اللوم عليها ، دون أن يجد من الشجاعة ما يحمل نفسه شيئا منها •

٥ ــ ان اشتد اضطرابه وانفعاله من كل ما يذكره بمشكلته .

٦ ــ ان أصبح سريع الاحتياج تثيره التوافه من الأمور ، شديد التردد قبل القيام بعمل عادي أو اتخاذ قرار غير هام ، شديد الندم والتحسر على ما يعمله ، بادى القلق على صحته وعمله ومستقبله .

٧ ــ ان بدأت مشكلته تعطله عن أداء عمله كعجز الطالب عن تركيز الانتباه اللازم للتحصيل ، أو بدأت تفسد صلاته بالناس كأن أصبح شديد الميل الى الاعتداء أو الى الشك فى نيات الناس ، أو استدرار العطف والمعونة منهم ، أو بدت لها آثار جسمية مزعجة كالصداع والأرق وفقد الشهية للطعام .

أسئلة فى الصحة النفسية

١ ـ مواجهة الواقع دون خداع للنفس شرط أساسى للصحة النفسية ـ اشرح هذه العبارة .

٢ ـ الى أى حد يستطيع الفرد تحسين شخصيته بمجهوده الذاتى ؟

٣ ـ صف أزمة نفسية حلت بك ، وبين أسبابها وما آلت اليه .

٤ ـ بين الصحة النفسية والصحة الخلقية صلات وثيقة ـ وضح هذه العبارة بأمثلة محسوسة .

٥ ـ ماذا يمكنك أن تفعله لصديق يشكو من ضعف شديد فى ثقته بنفسه ؟

٦ ـ كيف تنصح لشخص يعانى صراعا شديدا من اختلاف معايير الأخلاق فى منزله عنها بين زملائه ؟

٧ ـ ما المقصود بالعبارة الآتية : سعادة الفرد فى تكامل شخصيته .

٨ ـ ينشأ المرض النفسى من اضطراب فى العلاقات الاجتماعية ، ويبدو فى صورة اضطراب فى العلاقات الاجتماعية ـ اشرح .

٩ ـ لماذا لا يصاب جميع الناس بأمراض نفسية مع أنهم تعرضوا جميعا لصدمات انفعالية فى عهد الصغر ؟

١٠ ـ ماذا نعنى حين نقول ان العلاج النفسى تربية جديدة للمريض ؟

١١ ـ خداع النفس عن طريق الحيل الدفاعية يعين الفرد على تحمل أعباء الحياة ـ اشرح ؟

١٢ ـ تتوقف معاملة الوالد لأولاده والمعلم لطلابه على مدى ما يتمتع به كل منهما من صحة نفسية .

١٣ ـ الى أى حد يتمشى الجو الاجتماعى فى مدارسنا مع ما نرجوه لأطفالنا من صحة نفسية سليمة ؟

١٤ — ناقش الرأى الذى يقول : « ليس هناك طفل مشكل ، بل آباء ومربون مشكلون » .

١٥ — ما هى الحاجات النفسية الأساسية للطفل ، وما العواقب التى تترتب على احباط كل حاجة منها .

١٦ — ما الظروف العامة فى البيت وفى المدرسة والتى تفقد الطفـــل شعوره بالأمن .

١٧ — أيهما أضر بنمو الطفل :

(أ) الافراط أو التفريط فى اطلاق الحرية له .

(ب) الافراط أو التفريط فى تربيته الخلقية .

١٨ — كثيرا ما يكون الأطفال مسرحا يمثل عليه الوالدان ما يضمران من دوافع وصراعات لا شعورية — اشرح .

١٩ — كيف توضح لشاب أن ما يعانيه من مشكلات نفسية لا يختلف عن مشكلات غيره من الشباب .

٢٠ — اقترح بعض الطرق التى يستطيع بها الوالد أو المعلم رفـــع وصيد الاحباط عند أولاده وطلابه .

٢١ — خروج الانسان من أزماته النفسية منتصرا من العوامل التى تقوى شخصيته — وضح بالمثال .

٢٢ — يتوقف نجاح الفرد فى علاقاته الاجتماعية على مدى فهمه لنفسه وفهمه لغيره — اشرح .

٢٣ — ما نوع التربية فى الطفولة التى تهىء الفرد : للانطواء ، ولفقد الثقة بالنفس ، وللعدوان .

٢٤ — « اعرف نفسك » مبدأ يعرفه كثير من الناس لكنهم لا يحاولون تطبيقه على أنفسهم — لمـــاذا ؟

٢٥ — ضع فى لغة سيكولوجية قول أحد الحكماء : « اللهم هبنى القوة لتغيير ما أستطيع تغييره من الأمور . والصبر على ما لا أستطيع تغييره من الأمور ، والحكمة للتمييز بين هذه وتلك » .

مراجع الكتاب الأســاسية

الباب الأول : موضوع علم النفس ومدارسه ومناهجه

Bernard, C — Introduction to Experimental Medicine.

Cattell — General Psychology.

Edwards, A.L. — Experimental Design in Psych. Research. 1956.

Garrett — General Psychology, 1961.

Guilford — General Psychology, 1960.

Guillaume — Psychologie, 1952.

Hartley — Outside Readings in Psychology, 1959.

Hilgard — Introduction to Psychology, 1962.

Munn — Fundamentals of Human Adjustment 1967.

الباب الثانى : الدوافع والانفعالات

Cannon — Bodily Changes in Pain, Hunger, Fear and Rage, 1929.

Dollard — Fear in Battle, 1943.

Dollard & Miller — Frustration and Aggression, 1950.

Flugel — Men and their Motives

Freud — Introducfory Lectures on Psychoanalysis

Freud — Psychopathology of Everyday Life.

Goodenough — Developmental Psychology.

Hunt (ed) — Personality and the Behavior Disorders. 1945.

Krech & Crutchfield — Elements of Psychology, 1954.

Maslow — Motivation and Personality, 1954.

Newcomb — Social Psychology. 1952.

Stagner & Solly — Basic Psychology, 1970.

Tolman — Purposive Behavior in Animals and Men.

Young — Motivation of Behavior.

الباب الثالث : الادراك والتعلم والتذكر والتفكير

Anderson (Ed) — Creativity and its Cultivation, 1959.

Bartlett	Thinking : An Experimental and Social Study, 1958.
Bartley	Principles of Perception, 1958.
Bernard	Psychology of Learning and Teaching, 1952.
Blair, Jones & Simpson	Educational Psychology, 1955.
Cronbach	Educational Psychology, 1964.
Gates & Others	Educational Psychology, 1948 (2 vol).
Guillaume	La Formation des Habitudes, 1936.
	Psychologie de la Forme, 1937.
	Psych ologie animale, 1940.
Helson & Bevan (ed)	Contemporary Approaches to Psychology. 1969
Hilgard	Theories of Learning, 1958.
Hull, C.	Principles of Behavior, 1943.
Johnson	Psy. of Thought and Judgement, 1955.
Koehler	Gestalt Psychology, 1930.
Lindgren	Educational Psych. in the Classroon, 1956.
Marx (ed)	Psych. Theory : Contemporary Readings, 1951
Noll & Noll (ed)	Readings in Educational Psychology, 1962.
Piaget	Langage et Pensée chez l'enfant, 1930.
	Child's Conception of the World, 1945.

الباب الرابع : الذكاء والاستعدادات

Anastasi & Foley	Differential Psychology, 1949.
Anastasi	Psychological Testing, 1954.
Cronbach	Essentials of Psychological Testing, 1960.
Cattell	A Guide to Mental Testing, 1953.
Eyzenck	Uses and Abuses of Psychology, 1953
Ghiselli & Brown	Personnel and Industrial Psychology, 1955.
Hepner	Psychology Applied to Life and Work, 1957.
Maier	Psychology in Industry, 1955.
Piaget	Psychology of Intelligenee, 1950.
Terman & Merril	Stanford-Binet Intelligence Scale, 1960.
Terman & Oden	The Gifted Group at Mid-Life, 1959

Thurstone	Primary Mental Abilities.
Vernon	Structure of Human Abilities.
Wechsler	Measurement and Appraisal of Adult Intellignce 1958.
Wiseman (ed)	Intelligence and Ability, 1968.

الباب الخامس : الشخصية

Alexander	Fundamentals of Psychoanalysis, 1952.
Allport	Pattern and Growth in Personality, 1970.
Anastasi	Differential Psych. 1949.
Bellak (ed)	Projective Psychology, 1950.
Bonner	Social Psychology, 1954.
Cattelll, R.B.	Personality and Maturation : Structure and Measurement, 1957.
Crow	Adolescent Development and Adjustment 1956.
Eysenck, H.J.	Dimensions of Personiality 1948.
—	Scientific Study of Personality, 1952.
—	Structure of Human Personality 1953.
—	Biological Basis of Personality, 1967.
Guilford	Personality, 1959.
Hall & Lindzey	Theories of Personality, 1957.
Kardiner	Psychological Frontiers of Society, 1945.
Kluckhohn & Murray	Personality in Nature, Society and Culture, 1950.
Krech & Crutchfield	The Individual and Society, 1956.
Lindzey (ed)	Handbook of Social Psychology, 1950.
Mead, M.	Growing up in Samoa, 1954.
Mowrer	Learning Theory and Personality Dynamics, 1950
Murphy	Personality : A Biosocial Approach to Origins and Structure.
Newcomb	Social Psychology.
Stagner	Psychology of Personality, 1961.
Staton	Dynamics of Adolescent Adjustment, 1963.
Vernon	Personality Assessment, 1969.

Bowlby Child Care and Growth of Love, 1953.
Coleman, C. Abnormal Psychology and Modern Life.
Dollard & Miller Personality and Psychotherapy, 1950.
Eissler (ed) Searchlights on Delinquency, 1949.
Hadfield Psychology and Mental Health, 1953.
Horney The Neurotic Personality of our Times, 1952.
Hunt (ed) Personality and the Behavior Disorders, 1944.
Jourard Personal Adjustment, 1958.
Katz & Tiegs Mental Hygiene in Education.
Rogers Client-Centered Therapy, 1951.
Shaffer & Shoben Psychology of Adjustment, 1954.
Wolpe Psychotherapy by Reciprocal Inhibition, 1958

مصطلحات علم النفس

A

Aberration	زيغ . حيود
Ability	قدرة
Abnormal	شاذ
Abbrted	مبتسر . متعجل . جهيض
Abreaction	تصريف . تنفيس
Abstinence	التأبي . التعفف
Abstraction	تجريد
Acquired	مكتسب (مقابل فطرى)
Acquistions	مكتسبات
Act	فعل
Active	فاعل . ناشط (ضد قابل)
Activity	نشاط . فاعلية
Adaptation	تكيف . تهايؤ . تواؤم
Adaptation/negative	تكيف سلبى
Adjustment	توافق
Adolescence	المراهقة . الفتوة
Adult	الراشد . اليافع
Affect, feeling	وجدان . حالة وجدانية
After-images	صورة لاحقة أو تلوية
Agglomerate	رصيص
Aggression	عدوان (سلوك)
Aggressiveness	عدوانية . الميل إلى الاعتداء
Agnosia	عمه (بفتح العين والميم)
Agoraphobia	الخوف من الخلاء
Aim	هدف
Allergy	استهداف مرضى . لا قابلية
Alloerotism	الشبقية الغيرية
Altruism	الغيرية . الإيثار .
Ambiguity	لبس . التباس
Ambivalence	الثنائية الوجدانية
Ambiversion	الانبواء
Amnesia	نساوة (بكسر النون)
Amorph	مائع
Amorous	عشقى
Anal	شرجى
Animal Spirits	أرواح الحيوانات
Animism	الاحيائية
Antagonism	تصارع . تعارض
Anticipation	استباق . تكهن
Anthropomorphism	التشبيه
Anxiety	حصر (بفتح الصاد) . قلق
A priori	قبلى
A posteriori	بعدى
Apathy	تبلد . جمود الحس
Aphasia	حبسة كلامية
Aphonia	حبسة صوتية
Aptitude	استعداد
Apposition	تراكب
Arbitrary	تحكمى . تعسفى . عرفى
Archtypes	نماذج أركية
Argument	حجة
Ascendance	سيطرة . تسلط
Asocial	لا اجتماعى
Aspiration	طموح . تطلع
Assimilation	تمثيل
Association	ترابط . تداعى
Associations	ترابطات . مستدعيات
Asthenic	واهن
Atrophy	ضمور

Attitude	اتجاه نفسي
Autism	الاجترارية
Auto-erotism	الشبقية الذاتية
Autonomy	استقلال ذاتي
Automatisms	آليات
Auto-regulation	التعديل الذاتي
Auto-suggestion	الإيحاء الذاتي
Axioms	بديهيات
Awareness	تفطن

B

Background	أرضية ، بطانة ، مهاد
Backwardness	تخلف دراسي
Barrier	حاجز . عقبة . سد
Begging the question	المصادرة على المطلوب
Behavior	سلوك
Behaviorism	المدرسة السلوكية
Bias	إنحياز
Biology	علم الأحياء
Blocking	اعاقة
Border-line case	حالة بينية

C

Capacity	وسع . استطاعة
Caprice	نزوة
Castration	خصاء
Categorical	قطعي . مطلق
Catharsis	تطهير . تنفيس
Cathexis	شحنة إنفعالية
Cause	علة
Causality	العلية
Censor	الرقيب
Chaos	عماء
Character	خلق
Character, national	الطابع القومي
Characteristics	مميزات
Chorea	مرض الخوريا (الرقص)
Chronoscope	مزمان
Chronometer	ميقت
Chronological age	العمر الزمني
Clairvoyance	الاستشفاف
Clarity	صفاء
Clash	تدافع . تضارب
Classic	مأثور . تقليدي
Classics	المأثورات . الباقيات . الجيدات
Closure	الاغلاق (الجشطلت)
Cue	مفتاح . إشارة
Clumsiness	خرق (بضم الخاء)
Coefficient	معامل
Coefficient of Correlation	معامل الارتباط
Coefficient of Reliability	معامل الثبات
Coefficient of Validity	معامل الصدق
Coexistence	معاضرة
Cognitive	معرفي
Coherent	ملتئم
Coinicdence	التلاقي في المكان والزمان
Coitus	مجامعة . ملامسة
Comedy	مسلاة
Common sense	الحس المشترك . الذوق الفطري العام
Compensation	تعويض
Complex	عقدة نفسية
Compromise	تراضي. حل ودي. حل وسط
Compulsive	قسري
Concept	مدرك عقلي . معنى كلي . مفهوم
Conception	تصور المعاني الكلية
Concomitant	ملازم . مصاحب
Concrete	عياني . مشخص . مقوم
Condition	شرط
Conditioning	تعلم شرطي . اشراط

Conduct	مسلك
Conflict	صراع
Configuration	صيغة
Conformity	مجاراة . تشاكل اجتماعى
Confusion	خلط
Congenital	ولادى (غير الوراثى)
Conscience	ضمير
Conscientiousness	تحرج . تأثم
Consistent	متماسك . خال من التناقض
Constitution	جبلة . تكوين
Contiguity	تجاور
Contrast	تباين . مقابلة
Control	ضبط . هيمنة . إشراف
Conviction	اقتناع
Convulsion	تشنج
Co-ordination	تآزر . تناسق
Correlates	المتعلقات (أطراف العلاقات)
Correspondance	تناظر
Counseling	ارشاد
Counter-proof	دليل عكسى
Counter-part	نظير . ند
Cramp	عقال (بضم العين وتشديد القاف)
Creation	ابداع : ابتكار
Cretinism	قصاع (بضم القاف)
Criterion	محك . علامة . فيصل
Critical Point	نقطة التأزم
Cross-section	مستعرض
Crucial	حاسم . مرجح
Culture	ثقافة المجتمع . حضارة
Custom	عرف

D

Data	معطيات . مقدمات
Day-dreams	أحلام اليقظة
Death instinct	غريزة الموت
Debate	مناظرة
Deduction	استدلال قياسى
Defence mechanism	حيلة دفاعية
Deficiency / mental	ضعف عقلى . تخلف عقلى
Degeneration	تنكس (عودة إلى حالة سابقة)
Dejection	غم
Delinquency	جناح . جرائم الصغار
Delirium	هتار (بضم الهاء) .
Delusion	أضلولة . توهم . هذاء
Demand	مطلب
Dementia	خبل
Demonstration	برهان
Dependent	عيل (على أهله)
Dependency	افتقار
Depression	اكتئاب
Deprivation	حرمان
Desire	رغبة
Determinism	الحتمية . القول بالجبر
Development	ترق . تحسن . نمو
Dexterity	حذق
Differentiation	تمايز . تغاير
Discharge	تفريغ (الانفعال)
Disgust	اشمئزاز (تقزز)
Discipline/formal	التدريب الشكلى
Disintegration	تفكك . إنحلال
Disorder	اضطراب . اختلال
Displacement	نقل . إزاحة
Disposition	استعداد
Dissociation	تفكيك . فصل
Distinct	متميز
Distress	ضيقة
Disturbance	اضطراب
Disruption	تفكك
Diversions	ألاهى

Divination تكهن . تخمين
Dogmas عقائد دينية
Dogmatic قطعي . جزمى
Dramatisation
تجسيم المعانى (فى الأحلام)
Dread رهبة
Drive حافز
Dynamic دينامى : حراكى

E

Eccentricity اغراب
Echolalia ترجيع
Eclectism مذهب توفيق
Ecology علم التبيؤ (أثر البيئة)
Ecstasy حالة تجل . أفتتان . جذب صوفى
Effect نتيجة . معلول . أثر
Efficiency كفاية
Ego الأنا . الذات
Egocentricity مركزية الذات
Egoism حب الذات . أنانية
Egotism صلف وادعاء
Elation مرح
Elan Vital دفعة الحياة
Elusive مراوغ . مليص
Emergent evolution التطور الفجائى
Emotion انفعال
Empathy استشفاف وجدانى
Empirisim المذهب التجريبى
End غاية
Energy طاقة
Entity موجود مستقل بذاته
Enuresis التبول القسرى . بوال
Environment بيئة

Env. behavioral البيئة السلوكية
Envy حسد
Epistemology نظرية المعرفة
Equivalent نظير . مكافئ . عدل
Erotism شبقية
Essence ماهية
Etiology علم الاقتصاص (تتبع الأسباب)
Eugencis علم تحسين النسل
Euthenics علم تحسين البيئه
Euphoria إنشراح . نشوة
Evidence بينة . بداهة
Exaltation حمية
Excitement اهتياج
Exhibitionism استعراء . إستعراضية
Experience خبرة (حالة شعورية)
Experiment تجربة (ملاحظة مدبرة)
Explanation تفسير (وصف وتعليل)
Extraversion الانبساط (ضد الانطواء)
Extrinsic خارجى (خارج عن جوهر الشئ)

F

Facies سحنة
Fact واقعة
Factor عامل
Factor analysis تحليل العوامل
Faculty ملكة
Fallacy غلط . مغالطة أغلوطة
Fatalism مذهب القضاء والقدر . «القدرية»
Fear خوف
Feeling وجدان
Fetichism
فتشية (إشباع الشهوة بأثر من المشوق)
Fetus الحمل (بفتح الحاء)
Field مجال

Field/behavioral	مجال سلوكى
Field/theory	نظرية المجال
Figure	شكل (على أرضية)
Finalism	مذهب الغائية
Fixation	تثبيت (الوقوف عند مرحلة بدائية والتشبث بها) . جمود
Fixed idea	فكرة ثابتة مستحوذة
Folklore	المأثورات الشعبية
Foresight	تبصر . استبصار قبلى
Form	شكل . صورة . صيغة
Fortuious	اتفاقى
Frame of reference	إطار الدلالة
Frigidity	برودة النساء
Free Will	حرية الإرادة
Frustration	تأزم . احباط
Frustration tolerance	رصيد الاحباط
Functionalism	المذهب الوظيفى

G

Gang	ثلة
Genes	ورثات (بكسر الواو)
General paralysis	الشلل الجنونى العام
Genetic	نشوئى ، تتبعى . تكوينى
Genetics	علم الوراثة
Genital	تناسلى
Genius	عبقرى
Gest	إيماءة
Gestalt	جشطلت . صيغة
Gestalt theory	نظرية الجشطلت أو الصيغ
Gifted	موهوب
Gigantism	مرودة . عملقة
Goal	هدف
Goiter	مرض الجدرة (بفتح الجيم والدال)
Grief	كمد (حزن مكتوم)
Growth	نمو
Guidance	توجيه
Guidance-vocational	التوجيه المهنى
Guidance/educational	التوجيه التعليمى
Guilt	ذنب . إثم
Guilt/sense of	الشعور بالذنب . وخز الضمير

H

Habitual	تعودى
Hallucination	هلوسة . تخييل
Harmony	وفاق . تناغم . اتساق
Haunted	ملبوس (من الجان)
Health/mental	الصحة النفسية
Heart failure	إفلاس القلب
Hedonism	مذهب اللذة
Heterosexuality	الجنسية الغيرية
Heerosuggestion	إيحاء غيرى . خارجى
Hindsight	استبصار بعدى
Homeostasis	استعادة التوازن أو التعديل الذاتى
Homosexuality	الجنسية المثلية
Hormic Psy	علم النفس النزوعى « مكدوجل »
Hypnoanalysis	التحليل التنويمى .
Hypnotism	التنويم المغناطيسى
Hypocondria	توهم المرض
Hypostatisation	تجسيم المعانى المجردة

I

Id	الهو
Idea	فكرة . معنى
Ideal	أمثل على

Identical	متطابق . عيى
Identical twins	توائم صنوية
Identification	تقمص . توحد
Identity	هوية (بضم الهاء)
Idiot	معتوه
Idiosyncrasy	خصوصية . فارده
Illumination	اشراق
Illusion	خداع (الحواس)
Image-mental	صورة ذهنية
Imagery	تصور حسى
Imagination	تخيل
Imbecile	أبله
Imitation	محاكاه
Immanent	حال فى . مقيم فى
Immature	فج . فطير
Imperative-categorical	الأمر الجازم
Implicit	ضمنى . مضمر
Impotence	عنة (بضم العين)
Impulsive	اندفاعى
Inborn, innate	فطرى
Incarnation	تجسد
Incentive	باعث
Incest	اشتهاء المحارم
Inclination	نزعة
Indecision	حيرة
Indeterminism	اللاحتمية. القول بالاختيار
Individuality	فردية
Individuation	افراد . عزل
Induction	استقراء
Inertia	قصور ذاتى . استمرارية
Infantilism	طفالة (بقاء صفات الطفولة)
Inferiority	دونية . نقص
Inherent	لاصق . لازم طبعاً
Inhibition	كف . تعطيل
Inhibition-retroactive	تعطيل رجعى
Initiative	مبادأة
Insanity	جنون
Insight	استبصار . فراسة
Inspiration	الهام
Instability	بلبلة
Instinct	غريزة
Integration	تكامل
Intelligence	الذكاء
Intellectual	عقلى . فكرى
Intentional	عمدى
Interactionism	مذهب التفاعل
Interest	اهتمام . ميل
Interpretation	تأويل
Interview	مقابلة . استبار
Intrinsic	ذاتى
Introjection	استدماج
Introspection	استبطان . تأمل باطن
Introversion	انطواء
Intuition	الحدس (غير التخمين)
Invention	اختراع
Inversion	ارتكاس (انقلاب إلى الضد)
Involuntary	قسرى (رغم الإرادة)

J

Judgement	حكم
Juxtaposition	رص

K

Katabloism	الأيض لاانتقاضى
Kleptomania	الدعار (السرقة بدافع قهرى)

L

Latent	كامن
Latency Period	فترة الكمون
Lesion	نقوبة . صدع
Lethargy	سبات (بضم السين)

Libertinism	اباحية
Libido	اللبيد
Lucid interval	فترة الإفاقة (فى الجنون)

M

Maladjustment	سوء توافق
Mania	هوس
Manic-depressive psychosis	الجنون الدورى
Masochism	المازوخية . حب العذاب
Masturbation	استمناء
Materialism	المذهب المادى
Maturation	النضج الطبيعى
Maturity/emotional	النضج الإنفعالى
Maze	متاهة
Mean	متوسط (فى الإحصاء)
Meanness	ضعة
Median	الوسيط (فى الإحصاء)
Mediation	توسط
Melancholia	ميلانخوليا . سواد (بضم السين)
Mental	عقل . ذهنى
Mental age (M.A.)	العمر العقلى
Metabolism	عملية الأيض (فى الجسم)
Metamorphosis	انسلاخ . ابدال
Method	منهج . طريقة
Mind reading	قراءة الأفكار
Modesty	احتشام . تواضع
Monism	مذهب الواحدية
Monotony	رتابة
Mood	الحال المزاجية
Moron	أهوك
Morphology	علم التشكل
Motive	دافع
Myth	أسطورة

N

Nanism	قزامة
Narcism	النرجسية
Narcoanalysis	التحليل التخديرى
Nature and Nutrure	الترية والتربية
Naughtiness	شراسة . عرامة
Nausea	غثيان . تهوع
Need	حاجة
Nervous breakdown	انهيار عصبى
Nervous illness	مرض عصبى
Nervousness	عصبانية
Neurology	طب الأعصاب
Neurosis	مرض نفسى عصاب (بضم العين)
Neurotic	عصابى
Nightmare	كابوس . جثام (بضم الجيم)
Nomenclature	مصطلحات العلم
Norm	معيار
Normality	السواء . الاستواء
Normative S.	العلوم المعيارية
Nursery	محضن

Object	موضوع
Objective	موضوعى
Obligation	إلزام
Obsession	وسواس
Obsessional Neurosis	عصاب الوسواس
Oedipal situation	الموقف الأوديبى
Oedipus complex	عقدة أوديب
Ontology	مبحث الوجود
Opposition	تقابل . تعارض
Overt	صريح
Over-learning	اشباع الحفظ

Pansexualism نظرية الجنسية الشاملة
Parallelism مذهب التوازي
Paranoia جنون التوهم
Passion هوى . ولع
Passive قابل . سلبي . منفعل . مطاوع
Pathology علم طبائع الأمراض
Pattern نمط . نموذج
Percepion الإدراك الحسي
Periodic دوري . لفيف
Perseveration الاستمرارية . القصور النفسي
Personality,peripheric الشخصية الهامشية
Personification تشخيص تجسيم
Persuation إقناع . تضريب
Perversion انحراف . تنكب
Phantasy خيال
Phase طور
Phlegmatic بلغمي (المزاج)
Phobia مخافة . خواف (بضم الخاء)
Physics علم الفيزيقيا
Physical فيزيقي . جسمي
Physical realitv
الوجود الخارجي . الوجود في الأعيان
Pineal gland الغدة الصنوبرية
Plasticity لدونة . قابلية التشكل . مطاوعة
Plateau هضبة (في التعلم)
Possibilities إمكانات
Postulates مسلمات
Posture وضعة (بكسر الواو)
Potentiality الوجود بالقوة
Precipitating factor عامل معجل . مفجر
Predisposing factor عامل ممهد . مؤهب
Precosity تبكير . تبدير

Preconscious شبه شعوري
Predetermined مقرر سبقاً
Premature مبتسر
Presumption قرينة
Pretext تعلة
Primitive بدائي
Principle/Pleasure مبدأ اللذة
Principle/reality مبدأ الواقع
Probability احتمال . ظن
Problem موقف مشكل . مشكلة سلوكية
Problem Child طفل مشكل
Profile Psy. مبيان نفسي
Projection إسقاط . قذف
Prognosis التنبؤ بسير المرض
Promiscuity الشيوعية الجنسية
Proof حجة . دليل
Prophylaxis الوقاية
Psychic نفسي
Psychical روحاني
Psychiatry الطب العقلي . الطب النفسي
Psycho-analysis التحليل النفسي
Psycho-pathology علم النفس المرضي
Psychopathic سيكوباتي
Psychosmatic سيكوسوماتي . نفسجسمي
Psychotherapy العلاج النفسي
Psychosis ذهان (بضم الذال)
Pubertv سن البلوغ
Purity الطهر
Purpose غرض
Purposivism المذهب الغرضي
Puzzle box محيرة

Q

Quality كيف
Quantificatiom تكميم
Questionaire استخبار . استبيان

Quotient	حاصل نسبة .
Quotient-intelligence	نسبة الذكاء
Quotient-educational	النسبة الدراسية
Quotient-accomplishment	نسبة السعى

R

Racism	سلالية
Random	عشوائى -
Rating scales	موازين التقدير
Rationalisation	تسويغ . تبرير
Reaction	رد فعل . رجع
Reaction time	زمن الرجع
Reaction-formation	تكوين عكسى
Reality	الواقع . الوجود
Recall	استرجاع
Recitation	تسميع . تلاوة
Recognition	تعرف
Recollection	استدعاء
Recurrent	معاود
Redintegration	استكمال
Reduction	خفض
Reflection	تأمل
Regression	نكوص . تراجع . ردة
Rehabilitation	تأهيل
Representation	تصوير . تمثيل
Repression	كبت
Resentment	استياء . امتعاض
Resistence	مقاومة (أثناء التحليل)
Response	استجابة
Responsiveness	الاستجابية
Retention	وعى . احتفاظ
Revelations	مكاشفات . وحى
Rigid	جاسئ
Rites	طقوس . حفلات دينية
Rough	غليظ . جاف
Rythm	إيقاع

S

Sadism	السادية
Sample	عينة
Satisfaction	إرضاء . إشباع
Schema	صورة تخطيطية
Schizophrenia	فصام (بضم الفاء)
Self-activity	النشاط الذاتى
Self-abasement	الخنوع . الاستكانة
Self-assertion	حب السيطرة
Self-analysis	التحليل الذاتى
Self-consciousness	تهيب . إستحياء
Self-denial	إنكار الذات
Self-pity	الرثاء للذات . ندب الحظ
Self-punishment	الإيذاء الذاتى
Self-renunciation	جحود الذات
Sensation	إحساس
Sensual	شهوانى . نزاء
Sentiment	عاطفة
Set/mental	وجهة ذهنية
Sex	جنس
Sign	علامة
Signal	إشارة
Significance	دلالة . مدلول
Simulation	تصنع
Sinistrality	العسر (استعمال اليد اليسرى)
Situation	موقف
Six-fingered	أخنس . أزمع
Socialization	التطبيع الاجتماعى
Solidarity	تماسك
Somnambulism	تجوال نومى
Spasm	تقلص . اختلاج
Special	خاص

Specimen عينة
Speculation النظر العقلى
Spontaneous تلقائى
Stability ثبات . استقرار . رصانة
Stage مرحلة . طور
Stammering عقلة (وقفة يصعب تحريكها)
Stuttering جلجة (حركة يصعب وقفها)
Standard معيار . مستوى . منسوب
Standardization تقنين (الاختبارات)
Stereotypy نمطية
Stethoscope مسماع
Stigma وصمة بدنية
Stimulus منبه . مثير
Stress إجهاد . ضغط
Structure بناء تكوين
Stupor ذهول
Style of Life أسلوب الحياة
Subconscious تحت شعورى
Subjective ذاتى
Sublimation إعلاء . تسامى . ترويض
Substance جوهر
Substitute بديل
Substratum طبقة تحتية
Suggestion الإيحاء . الاستهواء
Suggestibility القابلية للاستهواء
Super-ego الأنا الأعلى
Suppression قمع
Sympathy مشاركة وجدانية . تعاطف
Surround محيط
Symposium معرض آراء
Syndrome تشكيلة الأعراض أو المتلازمة
Syncretic إجمالى
Syncretic perception إدراك إجمالى
Syncretic reasoning استدلال إجمالى
Synchronous متزامن
Specific نوعى
System نظام . منظومة . نسق
Systematic نظمى . مطرد

T

Taboos محرمات
Technique خطة . صنعة
Telepathy التخاطر
Telesthesia الإحساس عن بعد . الاستحساس
Telescope مقراب
Temperament مزاج
Temptation غواية
Tendency ميل . نزعة
Tenderness مودة . حنان
Tension توتر
Test اختبار
Threshold عتبة . رصيد (الإحساس)
Thrill هزة . انتفاضة
Thwarting عوق . إحباط
Tic خلجة عصبية
Tolerance تسامح . تحمل
Tpogoraphic موقعى وصفى
Trance غشية
Transfer of training انتقال أثر التدريب
Transference التحويل (التحليل النفسى)
Trial and error تعييث . المحاولة والخطأ
Tropism انتحاء
Type طراز

U

Unconditioned مطلق . غير مشروط
Unconscious لا شعور . لا شعورى
Undoing الارتكاس

Unconsciousness	غيبوبة
Uniform	على وتيرة واحدة . وحيد النسق
Universal	عام . شامل
Unrighteousness	ضلالة
Unvoluntary	لا إرادى
Utopia	طوبى

V

Validity	صحة . صدق
Variability	تغيرية
Variety	ضرب
Verbalism	ببغائية ، شقشقه
Verification	تحقق
Vertigo	دوار
Vitalism	المذهب الحيوى
Voluntary	إرادي
Voyeurism	ملاوصة

W

Warming up	الحمو
Weaning-Psy.	الفطام النفسى
Will	الإرادة
Wish	رغبة
Wishful thinking	تفكير ارتغابى
Wit.	نكتة
Worry	هم

للمؤلف

١ — الكتب

١ — المهارة اليدوية والتوجيه المهنى	:	(بالفرنسية) بحث تجريبى إحصائى حصل به المؤلف على درجة الدكتوراة من جامعة باريس عام ١٩٣٨ .
٢ — علم النفس الجنائى	:	طبع ببغداد عام ١٩٤٢ .
٣ — مشكلات الشباب النفسية	:	مكتبة الجيل الجديد بالقاهرة ١٩٤٥
٤ — التربية التجريبية	:	دار النشر والثقافة بالاسكندرية ١٩٤٨ .
٥ — الأمراض النفسية والعقلية	:	دار المعارف ١٩٦٤
٦ — علم النفس الصناعى	:	دار الكتب الجامعية ١٩٧٠

٢ — بحوث منشورة

١ — الأسس النفسية لتدريس العلوم على صورة « علوم عامة »	:	من منشورات معهد التربية العالى بالاسكندرية ١٩٤٨
٢ — الاختبارات السيكولوجية فى انتقاء طلبة الجامعة	:	الكتاب السنوى فى علم النفس ٩٥٤
٣ — مشكلة العلاج النفسى فى مصر	:	من محاضرات جامعة الاسكندرية ١٩٥٧
٤ — سيكولوجية المجرم العائد	:	المجلة الجنائية القومية يوليو ١٩٥٨
٥ — برامج الرعاية النفسية للشباب	:	من محاضرات جامعة الاسكندرية ١٩٥٩ .
٦ — المنهج النفسى لدراسة الشخصية العربية	:	من محاضرات جامعة الاسكندرية ١٩٦٠ .

٢ — كتب مترجمة

1 — FREELAND G. : Modern Educational Practice in the Elementary School.

2 — FREUD S. : Introductory Lectures on Psychoanalysis.

3 — FREUD S. : New Introductory Lectures on Psychoanalysis.

4 — PIAGET J.: Le Langage et la Pensée chez l'Enfant.

5 — WALLON H. : La Psychologie Appliquée.

النـــاشر

المكتب المصرى الحديث للطباعة والنشر

[illegible] ش نوبار الاسكندرية

٢ ش شريف القاهرة